سعيد أحمد برجاوي
رئيس فخري لدى محكمة التمييز
في لبنان

الحروب الصليبية في المشرق

منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت

الطبعة الاولى
١٤٠٤ - ١٩٨٤م

التمهيد

قبل أن تصبح المسيحية هي الديانة الوحيدة الرسمية في كافة أنحاء الأمبراطورية الرومانية، في أواخر القرن الرابع الميلادي، حيث قسمت تلك الأمبراطورية الى قسمين: شرقي وغربي، على اثر وفاة الأمبراطور تيودوز الأول الكبير، كان الصراع لا يزال قائماً بين الفرس والرومان، ثم أخذ يشتد بعد ذلك، خصوصاً عندما راح البيزنطيون المسيحيّون، يجابهون الفرس الساسانيين، أصحاب العقيدة المزدكية (المجوس) في كل المجالات، وعلى جميع الأصعدة، بحيث بدأ الخلاف بينهم، في ذلك الوقت، يفقد طابعه العنصري أو الثقافي، ليظهر بمظهره الديني، على المدى الطويل، حتى إذا أشرق نور الاسلام في شبه الجزيرة العربية، في العقود الأولى من القرن السابع الميلادي، واشتدّت شوكته، اندفع العرب كالسيل الجارف لنشر دينهم في العالم، فاصطدموا أولاً: بالفرس والروم المتنازعين فيما بينهم، فتغلبّوا عليهم، وتمكنّوا من احتلال بلاد فارس، وسوريا وفلسطين ومصر وغيرها من البلدان التابعة أو الخاضعة للامبراطورية البيزنطية. ولما حاولوا احتلال القسطنطينية، عاصمة الامبراطورية البيزنطية، ذات المركز الجغرافي الفريد، للولوج منها إلى أوروبا، لم يحالفهم التوفيق، وبقيت تلك العاصمة الكبيرة صامدة ببطولة، فلم تسقط بيد المسلمين، إلاّ في عهد الأتراك العثمانيين، في العام /١٤٥٣/م أي بعد انتهاء الحروب الصليبية.

ولقد كان مسيحيو أوروبا الغربية، يعتبرون بأن تقدّم الاسلام من

جهة آسيا الصغرى، لا يُكبح جماحه، ولا يقف عند حده إن لم تكن هناك قوّة متفوقة على قوته الحربية تصدّه بثبات، وتحول دون اقترابه من حدود بلادهم: ولذا فانهم لم ينوا عن مساعدة الامبراطورية البيزنطية التي أخذت على عاتقها مقاتلة المسلمين ومجابهتهم، طيلة مدة ثلاثة قرون ونيّف، إلى أن تلألأ نجم الأتراك السلاجقة في سماء الاسلام، فتسلّموا مهمة الجهاد ضد البيزنطيين، وتمكنّوا من انتزاع الجزء الأكبر من الأناضول، التابع لهؤلاء، حيث قام أحد فروعهم* بتأسيس ما يسمّى بدولة السلاجقة الروم في قونيا وأقصرا، والذين اتخذوا من نيقيا مقرّاً لهم، فهدّدوا بذلك، عاصمة الامبراطورية البيزنطية التي أضحت تواجه خطر هجومهم المحتمل القريب، مما دعا الامبراطور البيزنطي ميخائيل السابع (١٠٧١ - ١٠٧٨ م) لطلب العون من البابا غريغوار السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥ م) في سبيل صدّ أولئك الأتراك ووقف زحفهم، ولكن طلبه بقي بدون نتيجة، بسبب خلاف البابا مع الأمبراطور الألماني هنري الرابع آنذاك.

على أن الأمبراطور البيزنطي ألكسيس كومنين الأول (١٠٨١ - ١١١٨ م) وُفّق فيما بعد، باقناع البابا أوربان الثاني، بوجوب مؤازرته في حربه ضد السلاجقة، ولبّى البابا طلبه، بالرغم من انشقاق الكنيستين: اللاتينية واليونانية، الواقع بينهما منذ سنة (١٠٥٤ م).

ويعتبر البابا أوربان الثاني، محقّق أضخم وأقوى مشروع حربي، واجهه العالمان المسيحي والاسلامي في العصر الوسيط.

وقد عرف البابا كيف يستغِلّ الظروف المؤاتية لانجاح مشروعه الدولي، وتأليب أوروبا الغربية بأجمعها على مهاجمة العالم الاسلامي في الشرق، لتحقيق غايته الأساسية التي كان يهدف إليها، من مساعدة الامبراطور البيزنطي، ألا وهي: استخلاص بيت المقدس من أيدي

المسلمين، والعمل على إعادة بيزنطة الى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية.

وعلى هذا، فيمكن تعريف الحروب التي قامت بين المسلمين والمسيحيين منذ بدء الدعوة الاسلامية، حتى مجيء الأوروبيين الى الشرق العربي، بأنها مقدّمة للحركة الصليبية أو الممهّدة لها، نظراً للظروف والأسباب والدواعي والعوامل المتشابكة والمختلفة، التي نشأت فيها تلك الحركة، في القرون الوسطى.

سعيد أحمد برجاوي

الجزء الأول
قبل الحروب الصليبية

الفصل الأول

المسلمون في حروبهم مع الروم البيزنطيين

عندما احتلّ الرومان بلاد الشام في القرن الأخير قبل الميلاد، كان للعرب فيها، دولتان: دولة تدمر في الشرق، ودولة الأنباط في الشمال.

فأما دولة تدمر، فإن الرومان حينما فتحوا سوريا، وأصبحوا مجاورين لها، طمعوا بها، فامتنعت عليهم، إلاّ أنهم تغلبّوا عليها على يد القائد مرقص أنطونيوس، في سنة (٣٦ ق.م). ونالت بعدئذٍ حقوق مستعمرة رومانية. وابتداء من سنة (٢٦٠ م) خاضت تدمر حروباً ناجحة ضد الفرس، أدّت الى تمكين ملكها أذينة أو (أودينا ثوس) من بسط سلطانه على سوريا كلّها، فاعترف به الأمبراطور الروماني ملكاً على المشرق (٢٦٥ م). وبعد وفاة أذينة (٢٦٨ م) خلفته زوجته زنوبيا (زينب)، وتولّت السلطة وإدارة المملكة، بوصايتها على ولدها وهب اللاّت (أثينودوروس) ثم أعلنتِ استقلالها عن الامبراطورية الرومانية، ونادت بابنها قيصراً أعظم: (قيصر أوغيسَت) وعملت على توسيع رقعة دولتها، فامتدّ سلطانها على مصر والشام والعراق وآسيا الصغرى حتى أنقرة. ولكن الرومان لم يَرُقهم ذلك، فما كان من الأمبراطور أوريليان الاّ أن أتى على رأس جيشه، لمعاقبتها، فالتقى بجيشها في حمص وأوقع به الهزيمة ثم دخل تدمر فاتحاً وأمر بتدمير هذه المدينة، وقبض على زنوبيا واستاقها الى روما مكبّلة بالسلاسل الذهبية (٢٧٣ م).

وأما دولة الأنباط التي كانت تقع في رقعة تمتدّ من خليج العقبة الى البحر الميت شمالاً، وتشمل معظم الجانب الشمالي من جزيرة العرب من سيناء فحوران غرباً الى تخوم العراق شرقاً، ومنها الى وادي القرى في الجنوب، فقد كانت عاصمتها: سَلَع أو البتراء، وهي قلعة جبلية واقعة على منتصف الطريق بين البحر الميت ورأس الخليج العربي. وقد هاجمها الامبراطور الروماني تراجان في عام (١٠٦) للميلاد واستولى عليها، وجعلها ولاية عُرِفت بالمقاطعة العربية.

بعد ذلك، لما رأى الرومان أنهم بحاجة الى عملاء لصدّ غارات البدو على المناطق المتحضّرة، سمحوا بقيام دويلات عربية على تخوم الجزيرة. وقد حذا الفرس حذو الرومان على هذا الصعيد، فكان أن نشأت، دولتا الغساسنة واللخميين.

١ - **الغساسنة**: كان الغساسنة في الشام تحت ظل الرومان حيث حكموا المناطق الواقعة شرقيّ الأردن، وكانت عاصمتهم: بُصري (إسكي شام) في حوران، وأشهر ملوكهم: الحارث بن جبلة الذي جعله الامبراطور البيزنطي: يوستنيان، نائب ملك وبطريقاً (٥٢٩ م). ثم أنعم عليه بالتاج ومنحه السلطة المطلقة على كافة العرب في شمالي سوريا، بعد انتصاره على عرب الحيرة الموالين للفرس. وقد قضى الروم على دولة الغساسنة عندما قبضوا على المنذر الغسّاني وعلى أولاده بتهمة الخيانة العظمى. ودام حكم الغساسنة مدة تنوف عن الأربعة قرون.

٢ - **اللخميون**: كان اللخميون عمّالاً للفرس على أطراف العراق الخاضع لهؤلاء، وكانت الحيرة بالنجف هي القاعدة لامارتهم. وبحكم صفتهم هذه، كانت الحروب بينهم وبين الغساسنة متواصلة، الى أن تمكن أخصامهم من الاستيلاء على الحيرة وتدميرها. وبعد أن وضع

الفرس حدّاً لدولة الحيرة اللخمية، أقاموا حكاماً فيها تابعين لتاج المدائن مباشرة (٦٠٢ م).

★ ★ ★ ★

في أوائل القرن السابع الميلادي، شهدت شبه الجزيرة العربية قيام ثورة دينية لم يشهد لها التاريخ مثيلاً، فقد بعث الله في مكّة نبياً، هو محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب من بني عبد مناف، من قبيلة قريش. ليبشّر الناس بدين الاسلام، فلقي في البدء معارضة شديدة من أصحاب النفوذ من أهل مكة، مما اضطّره للهجرة من مكّة الى يثرب، حتى اذا كثُر أتباعه وتمكّن من فتح مكة فيما بعد، ودخلت القبائل العربية، في دين الاسلام، قام محمد رسول الله، مع عدد كبير من المسلمين بزيارة مكة للحجّ حيث ألقى خطبة في الناس، أحدث فيها تقويماً قمرياً، يتألف من إثني عشر شهراً، وضمنها فرائض الإسلام الأساسية. وبعودته الى المدينة (يثرب)، عمد النبي الى تهيئة حملة عسكرية، لتوجيهها ضد الروم، الذين كانت تربض قوّاتهم على تخوم بلاد العرب، بعد أن فشلت الحملة السابقة التي كان أرسلها في شهر أيلول (٦٢٩ م) بقيادة زيد بن حارثة، بغية الاقتصاص من شرحبيل بن عمرو الغسّاني، عامل مؤتة لدى الروم. ولكن قبل استكمال الاجراءات المتخذة لتلك الحملة، مرض محمد، مرضه الأخير وتوفي بعد ذلك بوقت قصير (٨ تموز ٦٣٢ م).

وبوفاة رسول الله، انقطع الوحي الالهي، وبقي القرآن الذي أنزله الله عليه، يهتدي به الناس، لنشر تعاليم الإسلام في سبيل الخير والسلام.

★ ★ ★ ★

بعد أن كانت الأمبراطورية الرومانية، قد بلغت ذروة مجدها وعزّها في القرن الثاني الميلادي، أخذ الوهْن يدبّ في أوصالها، شيئاً فشيئاً، الى أن استلم الامبراطور قسطنطين مقاليد السلطة (٣٠٦ - ٣٣٧ م)

فعادت إليها وحدتها وقوّتها، وذلك بفضل الجهود الجبّارة التي بذلها هذا العاهل الكبير، الذي تميّز عهده بتكريس الحريّة الدينية في كافة أرجاء الامبراطورية، باصدار مرسوم (ميلان) الشهير في سنة (٣١٣ م)، إذ جعل من المسيحية، ديانة مرخصّة أسوة بغيرها من الديانات وقتذاك، واعترف بها رسمياً. وهذا الامبراطور، هو الذي شيّد، على ضفاف البوسفور، فوق انقاض بلدة بيزنطة القديمة، مدينة جديدة سُميّت بأسمه: (القسطنطينية) في عام (٣٣٠ م). ونقل إليها حكومته، وجعل منها عاصمة للامبراطورية، بدلاً من العاصمة روما في إيطاليا. على أن المسيحية لم تصبح الديانة الرسمية للدولة الرومانية إلاّ في عهد الامبراطور تيودوز الأول الكبير (٣٧٨ - ٣٩٥ م) والذي قسمت الامبراطورية بعد مماته، بين ولديه، الى قسمين: شرقي وغربي، فكان القسم الأول من نصيب: أركاديوس. والثاني من نصيب هونوريوس.

ولكن بالرغم من هذا التقسيم، ظلّت الدولة واحدة في الامبراطورية، الى أن هاجم الهيرول (Herules) وهم قوم من الجرمان، مدينة روما، واستولوا عليها بقيادة زعيمهم: أودواكر الذي أقدم على عزل الامبراطور: رومولوس أوغيستولوس البالغ من العمر اثنتي عشرة سنة (٤٧٦ م) وإرسال شعارات الامبراطورية، الى الامبراطور زينون، عاهل الشرق، في القسطنطينية، مع كتاب جاء فيه: [إن الغرب ليس بحاجة لأمبراطور خاص. ويكفي امبراطور واحد لقسمي الأمبراطورية]. وطلب أودواكر في كتابه، من إمبراطور الشرق، منحه لقب بطريق، واعتباره مفوضاً للأمبراطور في إيطاليا[1].

وقد توالت الحروب الدائمة، بين الرومان والفرس الفرثيين، ثم الفرس الساسانيين الذين أخذوا يناوئون الامبراطورية الرومانية،

(1) A - Mallet et J. Isaac: le moyen âge, jusqu'à la guerre de cent ans. P. 29.

ويهاجمونها في كافة الأرجاء الواقعة فيها ممتلكاتها.

وفي عهد الامبراطور جوستنيان (Justinien) (٥٢٧ - ٥٦٥ م) هـاجم الفرس، بقيـادة ملكهم: كسرى الأول أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٨ م)، ممتلكـات الروم في سوريـا، واحتلّوا العـاصمـة: أنطـاكيـة وهدموها، واقتادوا أهاليها أسرى الى بلادهم (٥٤٠ م). وعلى اثر مقتل الامبراطور موريس، واستيلاء فوكاس على عرش الامبراطورية البيزنطية (٦٠٢ م) أعلن كسرى الثاني، الحرب على الروم (٦٠٣ م) وتغلّب عليهم في معركة أوكسامون، بين نصيبين والرها. وأخذ قلعة دارا (٦٠٥ م) ثم اجتاح سوريا وفلسطين (٦٠٧ م) والأناضول (٦٠٨ م) حتى وصلت غزوات جيشه الى خلقـدونيـا، عـلى بحر مرمرة تجـاه القسطنطينيـة (٦٠٩ م).

وبعـد اعتـلاء هِرقـل الأول (Héraclius) عرش الأمـبراطوريـة البيزنطية، وإسقاط الامبراطور فوكاس (٦١٠ م) تابع الفرس هجومهم، ودخلوا قبّادوقية (cappadoce) حتى قيصرية (٦١٢ م) ثم اجتاحوا سوريا وهزموا البيزنطيين قرب أنطاكية. واحتلّوا دمشق (٦١٣ م).

وبعد ذلك استولى الفرس على القدس، واقتادوا البطريرك زكريا أسيراً. كما انتزعوا الصليب الحقيقي من كنيسة القيامة ونقلوه الى عاصمتهم: المدائن (طيسفون - Ctésiphon)، وكان ذلك في شهر ايار من سنة - ٦١٤ م.

وفي سنة (٦١٩ م) قام قسم من جيش الفرس، بالتقدم جنوباً، فاحتلّ مصر. بينما يمّم قسم آخر، وجهه شطر القسطنطينية، متوغلاً في آسيا الصغرى، ومخترقاً سلسلة جبال أمانوس. فاستولى على قيليقية والأناضول، فيما كان الأسطول الفارسي، يظهر أمام القسطنطينية ويحاصرها من البحر.

وفي ذلك الحين، كانت قبيلة الآفار (Avar) التترية تأتي من بلاد المجر، حيث كانت تعسكر، وتجتاح تراقيا (Thrace)في أوروبا الشرقية، متقدّمة لمحاصرة القسطنطينية أيضاً (٦١٩ م).

وحين تحقق الامبراطور هرقل من صعوبة الوضع أرسل الى كسرى الثاني، يطلب منه التفاوض بالصلح. فأبى هذا الأخير، وأجاب على طلب هرقل قائلاً له [أنت تدعّي بأنك تضع ثقتك بالله. فلماذا إذن لم يخلّص من يديّ مدن قيسارية والقدس والاسكندرية! ألا يمكنني كذلك تهديم مدينة القسطنطينية؟ فلتكفّ عن المغالاة في الثقة بهذا المسيح، الذي عجز عن تخليص نفسه من أيدي اليهود، عندما صلبوه[١]].

وإذ لم يتمكن الفرس والآڤار من اقتحام القسطنطينية لصعوبة الاتصال بينهم ولقوّة الدفاع عنها، فقد فكّوا الحصار وتفرّقوا.

على أنهم عادوا ثانية فحاصروا تلك المدينة (حزيران ٦٢٦ م) ولكن حصارهم بقي بدون نتيجة، ففشلوا وانسحبوا فقام الامبراطور هرقل حينذاك باجتياز أرمينيا لجهة جبال آرارات، متقدّماً نحو بحيرة أورميا (Ourmia) في أذربيجان. ومن هناك نزل الى بلاد أشور، فقطع الزاب الكبير (أول كانون أول ٦٢٧ م) والتقى بقرب أطلال مدينة نينوى، جيشاً فارسياً فدمّره (١٢ كانون الأول ٦٢٧ م) ثم عاد فعبر الزاب الكبير الى دسكرة (Datsgart) أي زندان الحالية، الواقعة على طريق المدائن الى همذان، فدخلها بعد أن كان كسرى الثاني (أبرويز) قد تركها فارّاً من وجهه. واستولى هرقل على كنوزها، واستعاد ما يزيد عن ثلاثمائة راية رومانية، كان الفرس قد غنموها في حروبهم مع البيزنطيين.

---

(1) René Grousset L'Empire du Levant – p. 85.

وعلى اثر الهزائم التي مني بها الفرس، ثاروا على كسرى الثاني ثورة عارمة وخلعوه عن العرش (٢٥ شباط ٦٢٨ م) وقام إبنه قباذ وقتله وأخذ مكانه على العرش.

وعاد الامبراطور هرقل الى القسطنطينية، يجرّ أذيال النصر (١٤ ايلول ٦٢٨ م) بعد أن عقد بتاريخ ٨/تموز (٦٢٨ م) معاهدة صلح مع الفرس.

ومن ثم توجه هرقل الى مدينة منبج (هيرابوليس) ليتسلّم الصليب الحقيقي المرسل إليه من قبل الفرس، عملاً بمعاهدة الصلح المذكورة.

وفي ٢٣ آذار سنة ٦٣٠/م مضى هرقل الى بيت المقدس، فدخلها وهو يحمل ذلك الصليب، فسلّمه للبطريرك زكريا بكل احتفال (وكان هذا البطريرك قد تحرّر من الاسر، عند اجتياح هرقل لدسكرة).

وقد جاء في القرآن الكريم، بصدد حرب الروم مع الفرس: [ألم. غُلِبت الروم، في أدنى الأرض، وهم من بعد غلبهم سَيَغلِبون. في بضع سنين. لله الأمر من قبلُ ومن بعدُ، ويومئذٍ يفرح المؤمنون[1]].

والامبراطور هرقل هذا، هو نفسه الذي دعاه النبي محمد للدخول في الاسلام، واستلم كتابه بهذا الشأن حينما كان في زيارة بيت المقدس لاعادة الصليب الحقيقي الى كنيسة القيامة كما مرّ آنفاً.

ولا بدّ هنا من تسجيل حدث مهم، كان له معنى كبير في ذلك الحين، أثناء اشتداد القتال بين الفرس والروم، في الحقبة المتزامنة مع ظهور الاسلام، ألا وهو نشوب الحرب بين إحدى القبائل العربية والفرس.

ذلك أنه في سنة (٦١٠ م) قامت قبيلة بكر العربية الكبيرة ونازلت

---

(١) سورة الروم - ٣٠.

الفرس في موقعة: ذي قار، على الضفة اليمنى لمنخفض الفرات، قرب واسط. وكان عديدها، ثلاثة آلاف مقاتل، فأوقعت الهزيمة بجيشهم، بحيث كان من نتيجة تلك الموقعة، تقويض نفوذ الفرس، في الحيرة، ووقف توسّعهم في شمال شرق بلاد العرب فبدت تلك الحرب، وكأنها ايذان بتباشير الاسلام، الذي دقّت ساعته، ولاحت راياته في الأفق، من خلال رايات ذي قار العربية.

الفصل الثاني

الخلفاء الراشدون

بعد وفاة النبي محمّد ﷺ، برزت الى الوجود، أزمة سياسية، سببها الحكم كادت تؤدي الى إشعال الفتنة وإثارة الأحقاد الجاهلية، لو لم يتداركها أصحابه السابقون، ويواجهونها بحزم وشدّة، بفرضهم أبا بكر الصدّيق خليفة على المسلمين.

وما أن تسلّم الصديق سلطة الحكم، حتى وقف بقوّة بوجه المرتدّين والمتمردين الذين رفضوا الاعتراف بخلافته. فأرسل بعض قوّاته العسكرية لاخضاعهم في الوقت الذي أمر قوّات أخرى، بغزو بلاد فارس. وكان المثنى بن حارثة وخالد بن الوليد، القائدان المكلفان بمهمة إخضاع ثوار البحرين واليمامة، قد أنهيا عملهما حسب الأوامر المعطاة لهما: فاشتركا في الحملة المعدّة لفتح بلاد الفرس، بناء لتعليمات الخليفة؛ وتمكنت تلك القوات من الاستيلاء على الحيرة، وإلحاق الهزيمة بحاميتها الفارسية (٦٣٣ م). وبعد ذلك، قرّر الخليفة إعلان التعبئة العامة لفتح الشام - وكتب الى مكة والطائف واليمن؛ يستنفر القبائل للجهاد في سبيل الله، فوافاه المتطوعون من جميع الجهات؛ فجهزّ أربعة جيوش سيّرها على التوالي وهي:

١ - جيش يزيد بن أبي سفيان - الى دمشق
٢ - جيش شرحبيل بن حسنة - الى البلقاء

٣ - جيش عمرو بن العاص - الى فلسطين
٤ - جيش أبي عبيدة بن الجرّاح - الى حمص

فسار الجيش الأول وعدده أربعة آلاف رجل، نحو دمشق وبطريقه اليها اصطدم بقوات الروم المرابطة على مقربة من وادي عربة، فتغلّب عليها (شباط ٦٣٤م) وواصل قائده يزيد، تقدّمه، مجتازاً البلقاء وحوران والغوطة، حتى أبواب دمشق، فرابط حولها.

اما الجيش الثاني، وعدده مثل الجيش الأول، فقد تقدّم جهة البلقاء وأوغل فيها حتى بصرى، وهي من المراكز الرومية المحصّنة، فحاصرها.

وأما الجيش الثالث، وعدده يفوق السبعة آلاف رجل، فتوجه نحو فلسطين، واثناء سيره ناجز بعض الحاميات الرومية، واستولى على قسم من فلسطين الشرقية، والجنوبية، ثم واصل سيره جهة الشمال، وعندما تحقق عمرو من أن الروم يحشدون جيشاً كبيراً في جنين، وهم زاحفون لمقابلته، انسحب الى الغور (غور الأردن)، فتبعه سرجيوس، قائد جيش الروم، قاصداً استدراجه الى المعركة.

واما الجيش الرابع، فانه اتجه من معان الى مؤاب، وهزم بطريقه، قوة للعدوّ، ومن ثم تقدّم حتى الجابية واحتلّها،وسار منها الى حمص فحاصرها واستولى عليها.

في هذا الوقت كان الروم قد حشدوا جيشاً كبيراً في أنطاكية، وجهزوه أكمل تجهيز، وزحفوا به جنوباً شطر مدينة حمص، لمنازلة الجيوش العربية التي اصبحت تهدّد دمشق وفلسطين كلها.

وعلم القادة العرب بسيرة الجيش الرومي، فتراسلوا، واتفقوا على خطة ينتهجونها، وهي التجمّع في جوار بصرى. بعد قيامهم بالجلاء عن المناطق التي احتلوّها. وكتبوا الى الخليفة في المدينة يطلعونه على الحالة

التي وصلوا اليها، طالبين اصدار تعليماته اليهم بهذا الشأن، وإرسال النجدات العسكرية لمعونتهم. فأقرّ أبو بكر، الخطة التي اتفق عليها القادة الأربعة؛ وأرسل يأمر خالد بن الوليد، قائد جيش العراق، بمغادرة الحيرة مع قسم من جيشه لنجدة جيش الشام؛ على أن يبقى القسم الآخر بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني.

وما أن تلقى خالد، أمر الخليفة بالسفر الى الشام والتولي على الجيش الاسلامي فيها حتى لبّى الأمر، ولما وصل الى تدمر اصطدم بحاميتها العسكرية الرومية، فنازلها وانتصر عليها وأخذ المدينة؛ وكانت هذه أول فتوحات خالد في الشام. ثم تابع سيره، متجهاً جنوباً نحو غوطة دمشق، والتقى، في المرج، الواقع في طرف الغوطة للشرق الجنوبي، بقوة عسكرية غسّانية، يقودها الحارث بن الأيهم، من قبل الروم؛ فأغار عليها وهزمها (٢٤ نيسان - ٦٣٤ م) - وشقّ طريقه الى بصرى مخترقاً الغوطة من الشمال الى الجنوب فهاجمها وفتحها؛ وكان المسلمون حينذاك قائمين على حصارها.

واجتمع خالد بن الوليد، الى قادة الجيوش في اليرموك: أبي عبيدة ويزيد وشرحبيل؛ اما عمرو بن العاص، فكان لا يزال، ينسحب الى الغور، متفادياً الاشتباك، مع جيش الروم. ولما اطلع خالد على موقف جيش ابن العاص، بالنسبة للموقف العسكري للجيوش الاسلامية الأخرى، صممّ على الانضمام الى عمرو، ليخوضا المعركة معاً ضد جيش سرجيوس الرومي. فأعلمه بخطته، وطلب منه، استدراج الجيش الرومي إليه، ليأتيه هو من الوراء: ونفذّ عمرو الخطة باحكام، فارتدّ نحو أجنادين، ووقف ينتظر الروم. وجرت المعركة كما تصوّرها خالد وخطط لها، وأبلى المسلمون فيها بلاء حسناً وانتصروا على الروم، وشتتّوا شمل جيشهم: فلجأت فلوله الى دمشق (٧ تموز ٦٣٤ م).

هذا ولما وصل الجيش الرومي من أنطاكية الى حمص، كان القائد العربي ابو عبيدة، قد جلا عن هذه المدينة الأخيرة، بناء على الخطة المتفق عليها. وقبل رحيله عن حمص، أعاد أبو عبيدة، ما كان استوفاه من جزية، الى أهلها: (وكانوا قد دفعوا الجزية بعد احتلاله للمدينة) وقال لهم: «يا أهل حمص، قد شغلنا عن نصرتكم، والدفاع عنكم، فأنتم وأمركم».

وانتقم الروم،، عند دخولهم حمص، من أهاليها شرّانتقام، لموالاتهم المسلمين ومساعدتهم.

ثم واصل الجيش الرومي سيره بقيادة تيودور، أخي الأمبراطور هرقل، نحو دمشق، لدخولها: فوجد أنها قد استسلمت للجيش العربي بعد حصار عليها دام ستة أشهر (ايلول ٦٣٥ م)، بقيادة القائدين خالد بن الوليد وابي عبيدة بن الجراح، فرجع تيودور عن عزمه بدخولها وانكفأ نحو ناحية اليرموك للتجمّع هناك، بمواجهة الجيش العربي.

وعند ذاك جرت المفاوضات بين المسلمين وبين قائد الجيش الرومي، عرض خلالها الوفد العربي، برئاسة أبي عبيدة، شروطه للصلح وهي:[إما الدخول في الاسلام، وإما دفع الجزية في حالة الرفض، وإما الحرب في حالة رفض المطلبين السابقين].

وأجاب تيودور بالرفض المطلق. وكان لا بدّ من القتال، بعد انقطاع المفاوضات؛ مع علم المسلمين بأن جيش الروم يفوق جيشهم عدداً وعدة أضعافاً مضاعفة.

وافتتح الروم المعركة، وتصادم الجيشان، وأبدى المسلمون من ضروب البطولة والشجاعة والتفاني ما يفوق التصوّر، فكانوا يخوضون صفوف العدوّ ويتبارون بالتضحية منادين:من يبايع على الموت؛ ويحملون الحملات الصادقة، على الروم، فيبدّدون جموعهم، ويلقون الرعب في

صفوفهم؛ وما هي الاّ جولات وجولات، حتى خمدت حمية الجيش الرومي، وانكسرت حدّة أسيافه، فوهنت من قادته العزائم، ودّبت الفوضى فيه، فأخذ جنده بالتراجع والارتداد على أعقابهم، فطاردهم المسلمون، فألقى المشاة بأنفسهم في منخفضات اليرموك وفرّ الفرسان لا يلوون على شيء، وبَدت الهزيمة عليهم، فاستسلم كبار قادتهم للموت، اما الفلول المنهزمة من هذا الجيش، فقد قصدت فلسطين تلوذ بها.

وكان النصر للعرب؛ ولكنهم فقدوا حوالى الأربعة آلاف قتيل في هذه المعركة بينهم عدد من كبار الصحابة (٢٠ آب ٦٣٦ م - ١٥ هـ). اما خسائر الروم فكانت أضعاف أضعاف خسائر المسلمين.

لا شك أن معركة اليرموك، كانت حاسمة، إذ أنها مهدّت السبيل لفتح البلاد بكاملها أمام العرب.

وهكذا عادوا ففتحوا حمص للمرة الثانية، ثم حماه، فشيزر، فالمعرّة، فقنّسرين فحلب (١٧ هـ - ٦٣٨ م). وبطريقهم الى حمص، فتحوا مدينة بعلبك.

وتابع الجيش العربي، فتوحاته، فسار نحو الساحل واستولى على اللاذقية ومعرّة مصرين، وسَرمين، وجبلة وبانياس، والخراب، وطرطوس، كذلك استولى على مدن الساحل اللبناني: بيروت وصيدا وعرقة وطرابلس وجبيل؛ كما استولى على أنطاكية ومضيق بغراس (بيلان).

وبعد وفاة ابي عبيدة بطاعون عمواس (١٨ هـ - ٦٣٩ م)؛ عيّن الخليفة عمر بن الخطاب، عياض بن غنم، عاملاً على حمص وقنسّرين وأمره، بالتوسع في بلاد الجزيرة؛ فاستولى في فترة لا تزيد على عام ونصف العام، على جميع مدنها.

وكان قسم آخر، من الجيش العربي قد اجتاز الأردن. منحدراً نحو طبريا ففتحها واتجه جنوباً، وانتشرت سراياه في المناطق المجاورة، ففتحت صور وعكا ونابلس وجنين، واللدّ، ويبنى، ويافا وبيت جبرين، وعمواس وغزّة ورفح. ثم بيت المقدس (١٧ هـ - ٦٣٨ م) وقيسارية، وعسقلان (٢٣ هـ - ٦٤٣ م).

وفي سنة (٢٠ هـ - ٦٤٠ م)، كان الجيش العربي قد استولى على قيصرية وهي مركز الحاكم العام البيزنطي، ففقد الروم آخر معاقلهم جنوبي طرسوس.

وفي سنة (١٧ - ١٨ هـ - ٦٣٨ - ٦٣٩ م)، اجتاح الجيش العربي مدينتي الرها ونصيبين؛ ومن هناك هاجم أرمينية، فدخل عاصمتها: دوين(Dovin) (٦ تشرين الأول ٢٢ هـ - ٦٤٢ م) وأخذ عدداً كبيراً من الأسرى، وفي الوقت الذي كانت فيه المعارك قائمة في الشام، مع الروم، كانت الحرب ضد الفرس، دائرة في انحاء الشرق؛ إذ بعد مجيء خالد ابن الوليد من العراق لمساعدة جيوش الشام، تولّى المثنى بن حارثة الشيباني القيادة العليا للجيش العربي في الحيرة.

وبعد وفاة أبي بكر وتولّي عمر بن الخطاب مقاليد الخلافة الاسلامية، بعث هذا الأخير بالأمداد الى جند المسلمين، في العراق، بقيادة أبي عبيد الثقفي، الذي قتل في موقعة الجسر، على يد جيش فارسي بقيادة الملك يزدجرد نفسه، وقد انتصر العرب بعد هذه المعركة على الفرس، عندما التقوا بهم، عند البويب، على الضفة المقابلة من إحدى قنوات الفرات الغربية، ثم استطاع القائد العربي، سعد بن أبي وقاص الذي تولىّ القيادة إثر وفاة المثنى بن حارثة، أن يتغلّب على الفرس في معركة القادسية الحاسمة غربي النجف (سنة ١٦ هـ - ٦٣٧ م) والتي قتل فيها،

قائد الجيش الفارسي رستم، حيث لحق العرب بالفرس الى عاصمتهم المدائن، فدخلوها عنوة، وبعد ذلك احتلوا العراق باكمله.

على أن الملك يزدجرد، عاد وجمع فلول جيشه، وعزّزه بقوات جديدة، وتقدّم به نحو وادي نهر ديالي، الذي يصبّ في دجلة شمالي المدائن، فلاقاه الجيش العربي في جلولاء، وقضى عليه، مكمّلاً فتح الأراضي السهلية الممتدة حتى حدود (الجبال).

ولما انسحب يزدجرد الى فارس، وجّه اليه الخليفة عمر بن الخطاب جيشاً مؤلفاً من جنود الحدود آنذاك، بقيادة النعمان بن مقرن فاحتل قرميسين شمالي شرقي حلوان. ثم اصطدم الجيشان العربي والفارسي في نهاوند (جنوبي همذان) واستمرت المعركة يومين إثنين سقط في ساحتها القائد النعمان، فتولىّ القيادة مكانه حُذيفة بن اليمان، الذي انتزع النصر للعرب (٦٤٢ م - ٢٢ هـ) وكان الجيش الفارسي، يفوق بعدده الجيش العربي.

ومن ثم تابع حذيفة تقدمه، في احتلال البلاد، فدخل بجيشه مدينة أصفهان (٦٤٣ م) وكان يزدجرد يلوذ بها، فهرب الى إصطخر، فلحق به اليها، ففرّ منها، وراح يطلب من المقاطعات الشرقية مساعدته في المقاومة، فتنكر له الجميع، مما ادّى به، الى التشرد والتخفي، الى أن قتله بعض أتباع عامل خراسان؛ فاختتمت بموته السلالة الساسانية (٦٥١ م).

فتح مصر

فيما كان الجيش العربي في الشام، يتابع فتح الجزيرة، كان عمرو بن العاص يغادر قيسارية على رأس جيشه، الذي كان تمّ الاتفاق على إعداده سرّاً، بينه وبين الخليفة عمر بن الخطاب في الجابية، متجهاً نحو مدينة العريش، الى مصر، فدخلها (خريف ١٨ هـ - ٦٣٩ م) وواصل

تقدّمه الى مدينة الفرما، فاستولى عليها مع حصونها (كانون الثاني ٦٤٠ م) ثم تابع زحفه حتى بلغ بلبَيْس، ففتحها بعد حصار شهر واحد؛ وكان الروم قد جمعوا فيها جيشاً كبيراً، لا يقلّ عن بضعة عشر ألفاً من المقاتلين الأشداء، في حين أن جيش العرب لم يكن ليتجاوز الثلاثة آلاف آنذاك.

ومن بلبيس، سار عمرو متقدّماً نحو أم دنين، حيث كان جيش رومي، بقيادة القائد العام (تيودوز) يترقّبه هناك، بصحبة: قيرس الحاكم العام الاداري لمصر، واصطدم الجيشان بمعركة قوية، أسفرت عن هزيمة الجيش الرومي، وبالتالي عن فتح المدينة ودخولها من قبل الجيش العربي.

ثم واصل عمرو زحفه الى حصن بابليون البيزنطي، وهو بقرب موقع القاهرة الحالي؛ بعدما تلقّى النجدات العسكرية التي أرسلها إليه الخليفة عمر بن الخطاب، بقيادة الزبير بنِ العوّام، وتتألف من ثمانية آلاف مقاتل، بينهم عدد وفير من المهاجرين والأنصار.

وبعد إجراء مفاوضات الصلح بين العرب والروم، وقبول قيرس بها وسفره الى القسطنطينية لأخذ موافقة الامبراطور هرقل عليها، ورفض هذا الأخير لتلك المفاوضات، وعزله قيرس من مركزه بسببها: كان لا بدّ من مواصلة القتال، فشدّد عمرو الحصار على الحصن، طيلة سبعة أشهر: ثم اقتحمه الى الداخل، فطلب الروم الصلح، فأجيبوا إليه، واستلم القائد العربي حصن بابليون في التاسع من نيسان سنة ٦٤١ م بحيث لم يعد للروم في مصر إلاّ مدينة واحدة، هي الاسكندرية، التي اتجه عمرو بجيشه إليها، بعدما كان كتب الى الخليفة، يصف له فتح الحصن المشار إليه.

وأثناء ذلك، دارت بين عمرو بن العاص، وبين الروم، عدة معارك، خلال مسيرته، حاول هؤلاء فيها عرقلة زحفه، نحو الشمال،

فهزمهم بسهولة، وتابع تقدّمه حتى أسوار الاسكندرية فأحدق بها من جهاتها الثلاث. وعند ذاك طلب الروم التفاوض بالصلح، فقبل بذلك، واتفق الفريقان على عقد معاهدة بينهما سلمت المدينة بموجبها الى العرب، وانسحبت منها حاميتها البيزنطية (١٧ أيلول ٦٤٢ م - ٢٢ هـ).

وكان من الطبيعي، بعد هذا الظفر يناله الجيش العربي أن يفكر القائد عمرو بن العاص، بالاستيلاء على برقة، فسار على رأس جيشه، من طريق الساحل، فبلغ هذه المدينة، من دون عناء ولم يحاول أحد مقاومته، بل أسرع حاكمها البيزنطي، طالباً منه الصلح، فصالحه عمرو على الجزية، وهي ثلاثة عشر ألف دينار (أوائل سنة ٢٢ هـ - ٦٤٢ م).

ومن ثم واصل الجيش العربي سيره قاصداً طرابلس الغرب، عن طريق الساحل، فبلغها بسلام، وضرب الحصار عليها، مدة تتجاوز الشهر، حتى استطاع النفاذ إليها، والاستيلاء عليها (أوائل سنة ٢٣ هـ).

وبعدها جهّز عمرو، سرية، مضت الى (صبرة)، فدخلتها وأخذتها، بينما توجّه هو الى شروس ففتحها عنوة. وكان قد أرسل، وهو على حصار طرابلس، بشر بن أرطأة، الى ودّان فأفتتحها.

كما كان عقبة بن نافع، الذي بعثه عمرو الى زويلة، قد استولى على هذه المدينة بصلح. وتوقفت فتوحات عمرو بن العاص، عند هذا الحدّ، لأن الخليفة عمر بن الخطّاب، لم يوافقه على فتح تونس والجزائر، وباقي أقطار إفريقية الشمالية والغربية، فعاد الى مصر.

بعد اغتيال الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب، في الرابع من تشرين الثاني سنة ٦٤٤ م - ٢٤ هـ، بيد أبي لؤلؤة فيروز (وهو غلام فارسي) أقدم الخليفة بعده، عثمان بن عفّان، على عزل عمرو بن العاص من ولاية

مصر، وتعيين عبد الله بن سعد بن أبي سرح مكانه، فكان أول ما فعله هذا الوالي، هو تصميمه على مهاجمة إفريقية عملاً بأوامر الخليفة الجديد فتأهب لذلك، وزحف بجيشه البالغ عشرين ألف مقاتل، فوصل الى سهل تونس، ثم تقدم شمالاً، فبلغ مكاناً يقال له: قمونية أو قمودة؛ على مقربة من حصن عقوبة، فالتقى جيش الروم، بقيادة غريغوار (جرجير). وهو يفوقه عدداً، وقامت المناوشات أياماً بين الجيشين، وصلت أثناءها للجيش العربي، نجدة برئاسة عبد الله بن الزبير، اشتركت معه بالقتال، بمعركة انجلت بالنتيجة، عن فوز العرب وهزيمة الروم، الذين فقدوا عدداً كبيراً من جنودهم، وكان في عداد قتلاهم، جرجير نفسه. وقد حاول قسم من الجيش الرومي، اللجوء الى حصن عقوبة، فلم يتمكن من ذلك لأن العرب دخلوا الحصن، وشتتوا ذلك القسم.

ثم مضى عبد الله بن سرح الى سبيطلة فحاصرها وأخذها. وبعد ذلك راح الجيش العربي يجتاح البلاد ويستاق الأسرى، بحيث أصبحت ولاية إفريقية تحت رحمته، فعرض رؤساء البلاد، مالاً على القائد العربي، لقاء خروجه منها؛ فقبل منهم هذا العرض، ورجع بجيشه الى مصر، دون أن يولّي أحداً من قبله على إفريقية، بعدما أقام بها أربعة عشر شهراً ونيف (من سنة ٢٧ هـ).

الفتنة

على اثر قيام الفتنة في المدينة، ومقتل الخليفة عثمان بن عفّان، ومبايعة عليّ بن أبي طالب، بالخلافة بعده، نشبت الحرب بين الخليفة الجديد وبين معاوية بن أبي سفيان، واصطدم جيشا المسلمين المتحاربين، في صفيّن. وجرت المفاوضات بينهما توصّلا الى التحكيم، فكان أن تمرّد الخوارج على الخليفة فهزمهم شرّ هزيمة. ثم اغتيل عليّ في مسجد الكوفة

(٢٤ كانون الثاني ٦٦١ م - ٤١ هـ) بيد ابن ملحم الخارجي. وكانت نتيجة هذه الأحداث الداخلية، توقّف الفتوحات العربية، وانقطاع الأمـداد عن الجيوش المرابطـة في البلـدان المحتلّـة؛ ولم تعـد هـذه الفتوحات، لسيرتها الأولى، الاّ بعد خلافة معاوية بن ابي سفيان.

الفصل الثالث

الخلافة الأموية

كان معاوية بن أبي سفيان، أميراً على سوريا في عهد خلافة عمر بن الخطاب، وبدأ نضاله ضد الروم، منذ ذلك الوقت، وفي عهد عثمان بن عفّان، هاجم معاوية جزيرة قبرص (٦٤٨ م - ٢٨ هـ)، وأغار على السواحل الجنوبية لآسيا الصغرى عدة مرات، وعقد في سنة ٦٥٣ م - ٣٣ هـ، معاهدة مع حاكم أرمينية، تيودورس رستوني، اعترف بها الأرمن، بسيادة العرب عليهم، مقابل تعهّد هؤلاء، بحماية مذهب الأرمن القائل بالطبيعة الواحدة في المسيح، وذلك ضد تدخل الكنيسة البيزنطية؛ مع موافقة الأرمن بتجهيز جيش مؤلف من خمسة عشر ألف فارس، لمحاربة قوات الروم، بالاشتراك مع العرب.

وفي سنة ٦٥٥ م - ٣٥ هـ، احتلّ العرب قارين، وأرضروم من البيزنطيين، واستطاع اسطولهم، أن ينتصر، على اسطول هؤلاء في معركة، ذات الصواري الشهيرة (Phoenix) (٦٥٥ م - ٣٥ هـ) وهي من أقوى المعارك البحرية. وكان الاسطول البيزنطي آنذاك، بقيادة، الامبراطور كونستان الثاني نفسه.

وبسبب تلك الأحداث الداخلية، التي وقعت بين العرب اضطروا الى إخلاء أرمينية مؤقتاً، ثم بعدما تولّى معاوية سدّة الخلافة عاد واحتلّ أرمينية، واستأنف الهجوم على الروم، على أوسع نطاق، في البرّ والبحر، وذلك عن طريق الغزوات الصيفية.

ففي سنة ٤٣ هـ - ٦٦٣ م، أغار العرب على آسيا الصغرى، فوصلوا حتى خلقدونيا.

وفي سنة ٥٤ هـ - ٦٧٣ م وجّه معاوية اسطولاً كبيراً لاحتلال العاصمة البيزنطية: القسطنطينية، فلم يحالفه التوفيق، إنما استولى على جزيرة رودس: ومن هناك قام بمحاصرة العاصمة، طوال خمس سنوات، بحيث كان أسطوله، يأتيها في الصيف ويتركها في الشتاء دون نتيجة؛ بفعل دفاع البيزنطيين المستميت، واستعمالهم النار الاغريقية، لإحراق السفن العربية.

وقد غزا يزيد بن معاوية، الصائفة في إحدى تلك الحملات البحرية. واصطحب معه في غزوته تلك، الصحابيّ أبا أيوب الأنصاري، الذي كان يحمل راية النبي محمد، في المعارك، تبركاً بوجوده معه. فمرض أبو أيوب، ومات في بلاد الروم، ودُفِنَ عند اسوار القسطنطينية وبني على قبره قبّة[1].

وخلال حكم معاوية بن أبي سفيان، اتسعت الامبراطورية العربية. فاستولى العرب على هراة وكابول وبخارى في أواسط آسيا، وتابعوا تقدّمهم في شمال أفريقيا، غرباً، حتى المحيط الاطلسي، حيث اوغل امير مصر، من قبل معاوية: إبن حديج، في غزوته الأولى، حتى شارف صقلية (٤٧ هـ). وكان عقبة بن نافع، قد أسّس مدينة القيروان، بعد فتح برقة، وتمكن في سنة (٥٠ هـ) من القضاء على الروم، في شمالي إفريقيا، وذلك بمعاونة البربر.

وبعد وفاة معاوية (١٨ نيسان ٦٨٠ م - ٦١ هـ) وارتقاء ابنه يزيد، سدّة الخلافة، واندلاع الحرب الأهلية الثانية، بسبب الحكم، خمدت نار الحرب بين العرب والروم، طوال مدة خمسة عشر عاماً، حتى

(١) الدكتور جبرائيل جبّور: الملوك الشعراء، ص (٣٢) والمراجع المذكورة فيها.

إذا تولّى الخلافة، عبد الملك بن مروان، استأنف الحرب ضدهم، نتيجة لاقدام الامبراطور جوستنيان الثاني، على خرق الهدنة مع العرب (٦٩٢ م)، وجرت معركة بين العرب والروم، في سيباستوبولس، كان النصر فيها حليف العرب، الذين تمكنوا عند ذلك، من فتح أرمينية، مرّة أخرى (٦٩٣ م - ٦٩٤).

ولكن الروم، عادوا فاستعادوا مدينة سميساط (٧٠٠ م - ٨١ هـ) ثم هزموا العرب في قيليقية (٧٠٣ م)، وفي عهد الوليد بن عبد الملك، استولى العرب، على طوانة، في قبادوقية، واجتاحوا قيليقية (٧١٠ - ٧١١ م) وأخذوا أماسيا (٧١٢ م).

ولما تولّى الخلافة سليمان بن عبد الملك (٧١٥ - ٧١٧ م)، أنشأ في دابق، شمالي سوريا، معسكراً كبيراً، لأغراض الحرب، ضد الروم، وعين أخاه مسلمة بن عبد الملك، على رأس الحملة الكبيرة التي كان في سبيل اعدادها، للاستيلاء على القسطنطينية: فمضى مسلمة، يشق طريقه عبر آسيا الصغرى، مجتازاً عمورية، في إفريجيا، بعد أن كان حاصرها في خريف وشتاء عام (٧١٥ م) على غير طائل، ومتابعاً تقدّمه غرباً نحو برغاموس (Pergame) في ميسيا، فاستولى عليها (٧١٦ م) ثم عبر الدردنيل، الى تراقيا، على الشاطىء الاوروبي، ليقوم منها، بمحاصرة العاصمة البيزنطية عن طريق البرّ، بينما كان الأسطول العربي، يأتي عن طريق البحر لمهاجمتها (أيلول ٧١٧ م - ٩٩ هـ).

ولكن بالرغم من جميع المحاولات التي جرت لاختراق أسوار القسطنطينية، طيلة عام ونيف من الحصار، لم يتمكن مسلمة من نيل مأربه منها، إذ أن الامبراطور ليون الايسوري، أحسن الدفاع عن مدينته، فضلاً عن أن النار الاغريقية، قد لعبت هذه المرّة أيضاً، دوراً حاسماً في تشتيت سفن الأسطول العربي، وإحراقه، مما حمل الخليفة

عمر بن عبد العزيز، وقتذاك، على اعطاء الأمر لمسلمة، بالانسحاب، والعودة الى البلاد، فنزل هذا الأخير عند طلبه.

وعلى اثر فشل حملة الجيش العربي على القسطنطينية، خفّت حدة الحرب بين العرب والروم، وخصوصاً بعد ولاية عمر بن عبد العزيز. االذي أصدر أوامره الى الجيوش العربية العاملة في آسيا الصغرى، بالقفول، رغبة منه، في الانصراف الى الاصلاح الداخلي في الدولة.

ولكن بعد تولّي هشام بن عبد الملك، سدّة الخلافة (١٠٦ - ١٢٦ هـ) عادت الحرب بين العرب والروم، الى الاشتعال مجدداً، فاستولى العرب على قيصرية قبّادوقية (٧٢٥م - ١٠٧ هـ) وهدّدوا نيقية. وفي عهد هشام هذا، خسر العرب معركتهم الكبرى الحاسمة في بلاد الغال (Gaule)؛ ذلك أنهم كانوا في عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٧ هـ) قد جازوا مضيق جبل طارق (الذي عبره القائد طارق ابن زياد، مع جيشه لفتح اسبانيا، وسُمّي فيما بعد بأسمه)، وهزموا القوط، وقتلوا ملكهم لذريق، في معركة وادي لكّة (٢٥ - ٢٦ تموز ٧١١م - ٩٣ هـ) واندفعوا متوغّلين في اسبانيا، يفتحون مدنها الواحدة بعد الأخرى، إذ بعد انتصار طارق في هذه المعركة الحاسمة، واصل تقدمّه، في شبه الجزيرة، فاستولى على قرطبة، وشذونة، ومالقة والبيرة وأوريولة وطليطلة.

وكان موسى بن نصير، قد عبر المضيق في سنة ٧١٢م وأخضع قرمونة وأشبيلية وماردة واتصل بطارق في طليطلة. ثم تابع الفتح معه حتى استولى على اسبانيا الشمالية كلها، من سرقسطة الى (نبرة) (Navarre)، وبلغ جبال البرت (البرانس) (Pyrénées). وبعد ذلك، تملّك العرب، القسم الجنوبي من الغال، المسمى: سبتمانيا (Septimanie)، بما فيه من مدينة قرقشونة وأربونة (Narbonne) في سنة

٧١٩ م - ١٠١ هـ. واتخذوا من هاتين المدينتين، مركزاً للاغارة على برغاندي وأقيتانية.

وقد تمكّن أود دوق أقيتانية، من قهر العرب، عند أسوار طلّوشة (تولوز Toulouse) سنة ٧٢١ م - ١٠٣ هـ.

على أن ذلك لم يمنع العرب، من الاتجاه نحو الغرب؛ فنهبوا بونة، وفرضوا الضرائب على سان، واستولوا على أفينيون (٧٣٠ م - ١١٢ هـ) وتوالت غاراتهم على الولايات المجاورة.

وكان أن تولّى إمارة الأندلس عبد الرحمن الغافقي في سنة (٧٣٠ م - ١١٢ هـ)، فحشد جيشاً جرّاراً، انطلق به من جبال البرانس، وتقدم فهاجم طرّكونة، وفتح أقيتانية، بعد أن هزم دوقها: أود، عند شواطيء الغارون (Garonne). ثم واصل سيره في اتجاه نهر (لوار) بعد استيلائه على برديل (بوردو، Bordeaux) عنوة وقتل أميرها، وهذا ما دعا دوق أقيتانية، للاستغاثة بشارل بن بيبّن (Pépin)، الذي كان في الواقع، ملك فرنسا الفعلي، لأن ملكها كان ضعيف الارادة والعزم آنذاك، يكاد يكون محجوراً عليه من رئيس القصر، فلبّى شارل استغاثة أود بالرغم من خلافه معه، وزحف بجيشه لمواجهة الجيش العربي الذي كان وصل الى قرب مدينة تور (Tours) فحاصرها؛ وأخذها عنوة، وخيّم بساحتها، وعندما تقدم شارل وأصبح جيشه بين تور وبواتير (Poitiers)، بدأت المناوشات والمناجزات بينه وبين الجيش العربي، واستمرت مدة ستة أيام. ثم اشتد الالتحام في اليوم السابع، وحمي وطيس المعركة؛ فحاول العرب اختراق صفوف الفرنجة المتراصّة، فتكسّرت هجمات فرسانهم، على هذه الصفوف، التي كانت كالبنيان المرصوص. أو كما قيل، ككتلة من جليد، وعجزوا عن زحزحتها من مواقعها؛ فتساقط جندهم بالمئات، وكرّ عليهم شارل بصولة لا تقاوم،

وأخذ يرسل ضرباته القويّة، ذات اليمين وذات اليسار، فيما كان جنوده يمزّقون صفوف العرب، مما أدخل اليأس الى قلوب هؤلاء، حتى اذا ما رأوا قائدهم الامير عبد الرحمن، يخرّ صريعاً في حومة الوغى وهو يقاتل ببطولة بين صفوف العدوّ، صعقهم الرعب، وهالهم الهول، فانسحبوا تحت جنح الظلام، منكفئين نحو جبال البرانس (٧ تشرين الأول ٧٣٢ م - ١١٤ هـ). وقد سمّى العرب هذه الموقعة: موقعة بلاط الشهداء، لكثرة قتلاهم، وسمىّ الفرنجة، بطلهم شارل بن بيبن: (شارل مارتل) أي شارل المطرقة، لقوة ضرباته.

ويرى المؤرخون الغربيون، أن هذه المعركة، قررت بنتيجتها، مصير بلاد الغال، وخلّصتها من الاسلام، بل خلّصت أوروبا بأجمعها منه، كما قيل إن عبد الرحمن الغافقي، كان يفكّر وقتئذٍ، في فتح بلاد الغال، لتكون جسراً يجتاز منه الى ايطاليا، فألمانيا، فالقسطنطينية، التي كانت هدف العرب الاسمى، آنذاك.

وبعد هذه الهزيمة، استأنف العرب، غزواتهم في بلاد الغال، لكنهم لم يعودوا يفكرّون بالاستيلاء عليها: انما احتفظوا بأربونة، والجهات المشارفة للسفوح الشمالية، لجبال البرانس حتى سنة ١٨١ هـ. وقد أتت ثورة البربر في إفريقية، التي امتدت من مُرّاكش الى القيروان (١٢٤ هـ) والاضطرابات الداخلية، في عهد هشام بن عبد الملك، وبعده، لتعيق العرب عن تحقيق أهدافهم، وتوقف اندفاعهم في سبيل نشر الاسلام مؤقتاً، حتى اذا ما استشعر البيزنطيون ضعفهم، تابعوا حرب الحدود ضدّهم.

وهكذا أقدم الامبراطور قسطنطين الخامس، في سنة ٧٤٥ م، على أخذ مرعش، ودلوق (Doliché). ونقل أهاليها المسيحيين الى تراقيا.

وفي سنة ٧٤٦ م، دمّر الاسطول البيزنطي في مياه قبرص، اسطولاً عربياً، واستعاد البيزنطيون هذه الجزيرة.

الفصل الرابع

الخلافة العباسية

قامت الخلافة العباسية في العراق سنة ١٣٢ هـ وخلفت الخلافة الأموية على ملك امتد من جبال البرانس الى الصين، ومن وادي كشمير في الهند إلى جبال طوروس في الأناضول، وشمل شمالي إفريقية وجزر البحر المتوسط. وقد اقتطعت بلاد الاندلس، من الخلافة الاسلامية بالمشرق، بهمة الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، الذي تمكن من الهرب من سوريا. على اثر سقوط دولة بني أمية، لاجئاً الى بلاد الاندلس، فأخضعها لسلطته، بعد العناء والجهد.

ولقد حفلت سيرة العباسيين السياسية بحروب داخلية لا تحصى، ومع ذلك، فانها سجلت حروباً متواصلة، ضد الامبراطورية البيزنطية، التي عادت فاستولت على أرضروم Théodosipolis، وملطية وحصن كلوديا، على ضفاف الفرات، شرقي مَلَطية، حيث هدم الامبراطور قسطنطين الخامس، تلك المدن، ونقل اهاليها المسيحيين الى تراقيا، بعد أن بدّد شمل الاهالي المسلمين (٧٥١ م).

ولم ينم المسلمون على الضيم، إذ بدأ جيش العباسيين، منذ عام ٧٧٨ م - ١٦٢ هـ سلسلة من الحملات الصيفية العنيفة، فتح من خلالها حصن سمالا في عهد الخليفة المهدي (١٦٣ هـ).

ثم في سنة (١٦٥ هـ) غزا الصائفة هرون بن المهدي، وكان جيشه آنذاك، يُقدّر بمائة الف مقاتل، ما عدا المتطوعة، فانتصر على الروم في

دارنون، وأوغل في بلادهم، حتى بلغ سكوتاري (كريزو بوليس)، تجاه القسطنطينية، بحيث اضطرت إيريني والدة الملك، بالنيابة عن إبنها، الى طلب الصلح، على أن تدفع جزية قدرها سبعون ألف دينار، مرتين في السنة، مع تقديم، المرشدين لجيش هرون، وإنشاء أسواق في طريق سيره من أجل شراء المؤونة اللازمة له[١].

وفي سنة ١٨١ هـ، عاد هرون الرشيد، فغزا الصائفة بنفسه، فافتتح عنوة، حصن الصفصاف.

وفي سنة ١٨٩ هـ - ٨٠٤ م، سار هرون الرشيد بجيشه، فأناخ بباب هرقلة، واصطدم بجيش الامبراطور نقفور الأول، فهزمه، وألزم هذا الأخير بطلب الموادعة، على خراج يؤديه كل سنة، فأجابه الرشيد الى ذلك. إلاّ أن نقفور نقض العهد، فعاد هرون ونازله، وانتصر عليه، وتمكن من فتح هرقلة، وتبازا، وملاكوبّا، وسيدروبالون وطوانة، ووصل الى أنقرة (١٩١ هـ - ٨٠٦ م).

وكان الاسطول العبّاسي في ذلك الوقت قد بلغ جزيرة قبرص، فاجتاحها المسلمون، وغلبوا أهلها، وذلك بقيادة حميد بن معيوف (١٩٠ هـ - ٨٠٥ م).

وفي سنة ١٩٢ هـ - ٨٠٧ م اجتاح المسلمون جزيرة رودس، فاضطر نقفور، بعدما أصابه من هزائم، الى دفع الخراج والجزية، عن رأسه، ورأس وليّ عهده، وبطارقته، وسائر أهل بلده، ما مقداره خمسون ألف دينار، منها أربعة دنانير، عن رأسه.

وبعد وفاة الخليفة هرون الرشيد، خمدت نار الحرب بعض الوقت بين المسلمين والبيزنطيين، لأسباب داخلية لدى الجانبين، وفي أثناء ذلك، أقبلت جماعة من الأندلسيين، تهجّروا من إسبانيا، وأقاموا في

(١) الطبري ص - ٣٠٥ - (٥) - والأزدي: الموصل. ص ٢٤٧.

مدينة الاسكندرية، فطردهم عبد الله بن طاهر منها، فتوجّهوا نحو جزيرة كريت (إقريطش) - (Crète) واحتلوها، وأخرجوا البيزنطيين منها (٢١٢ هـ - ٨٢٧ م). وبعد اعتلاء المأمون سدة الخلافة، شخص بنفسه في سنة: (٢١٥ هـ - ٨٣٠ م) لغزو البيزنطيين، فسلك طريق الموصل، حتى وصل الى منبج، فدابق، فانطاكية، فالمصيصة، فطرسوس، ومنها الى بلاد الروم، فاجتاحها بجيشه، وفتح عدة حصون، منها: حصن قرة، وحصن ماجدة، وحصن سندس، وحصن سنان، وسواها في قبّادوقية.

وبعد ذلك مضى المأمون الى الشام؛ وهناك ورده الخبر، بأن الامبراطور البيزنطي: تيوفيل، قتل قوماً من أهل طرسوس، والمصيصة (٢١٦ هـ - ٨٣١ م)، فأعاد الكرة على بلاد الروم، واجتاحها، ثمّ وجّه اخاه إسحق، فعاث فيها، وافتتح ثلاثين حصناً.

ولما انتهى المأمون من تنفيذ خطته، في غزو بلاد الروم، رجع الى دمشق، ثم خرج منها الى مصر (٢١٦ هـ)، حيث أعاد الأمور الى نصابها هناك، وعاد من مصر الى دمشق (٢١٧ هـ) ومنها دخل أرض الروم مرة ثالثة، فأناخ على لؤلؤة مدة، ثم رحل عنها.

وفي سنة (٢١٨ هـ) مضى المأمون الى الرِقّة، وسيّر إبنه العباس الى أرض الروم، فنزل بالطوانة، وبناها بناء لأوامر والده، الذي ما عتم أن لحق به من ناحية طرسوس، ولكن قبل أن يجتمعا توفّي المأمون، وهو في البدندوس(Padandos) وذلك في الثامن عشر من رجب ٢١٨ هـ - ٨٣٣ م.

بعد تولّي المعتصم الخلافة، انهمك في ملاحقة الخرّمية ورئيسهم بابك، الذي عاث بالبلاد فساداً، فوجّه إليهم جيشاً بقيادة حيدر بن كاوس الأشروسني المعروف بالأفشين (٢٢٠ هـ)، فضيّق الخناق عليهم في

اذربيجان، وحاصر قلعة بابك؛ فكتب هذا الأخير، الى امبراطور الروم: تيوفيل، يحرّضه على اكتساح بلاد المسلمين؛ فجهز الامبراطور جيشاً قوياً، وسار على رأسه، وكان يبلغ عدده المائة الف مقاتل، فأتى زبطرة،ودخلها عنوة، وقتل اهاليها من الرجال، وسبى النساء، بعدما أحرقها، ثم أغار على ملطية وعلى بعض حصون المسلمين (٨٣٧ م - ٢٢٣ هـ)، وقتل أهاليها، فبلغت الاخبار، الخليفة المعتصم، وهو بسامرّا، فاشتدّ عليه ذلك، وعزم على الانتقام من الروم؛ فأعلن التعبئة العامة في البلاد، وجهّز جيشاً يبلغ المائتي الف مقاتل، وأرسل مقدّمته الى زبطرة، فتوقفت هناك، بعد رحيل الامبراطور تيوفيل عنها، وبعدما انهى الأفشين امر بابك الخرّمي، واحتل قلعته، أمره المعتصم، بالدخول الى بلاد الروم، وانتظاره مع القائد أشناس، في أنقرة، ومن ثم سار المعتصم، على رأس الجيش، ووجهته، عمورية في إفريجيا، وهي مسقط رأس الامبراطور تيوفيل.

ولما علم هذا الأخير، بمسير القائد الأفشين، ارتحل عن نهر اللامس، حيث كان معسكراً، وتوجّه لمقابلته، وحين التقائهما على جبل أتزن، بالقرب من دزيمون (دزمانا) الحالية: جرت بينهما معركة هائلة، كان النصر في نهايتها، للمسلمين، وانهزم الامبراطور البيزنطي هزيمة منكرة (تموز ٨٣٨ م).

وعند وصول المعتصم الى أنقرة، كان أهاليها قد أخلوها، فدخلها. وأمر بهدمها، ثم اتجه صوب عمورية، مع جيشه بكامله، وألقى الحصار عليها، وبعد معاناة شديدة، سقط جانب من أسوارها، دخل منه المسلمون وقاتلوا المدافعين عنها: واقتحموا المدينة عنوة، وغنموا منها مغانم كثيرة، وانتقم المعتصم من أهاليها البيزنطيين شرّ انتقام (٦ رمضان ٢٢٣ هـ - آب ٨٣٨ م). وكان البطريق آيتيوس، هو الذي تولّى الدفاع عنها آنذاك.

وبعد ذلك، عاد المعتصم، مع جيشه الى طرسوس، وقاد الأسرى، معه، الى سامرّا، بعدما أمر بهدم عمورية.

ولما دخل الخليفة المنتصر، مدينة سامرّا، كان ذلك اليوم، مشهوداً، فاستقبل استقبال الفاتحين، وامتدحه الشعراء، ومنهم أبو تمام، حبيب بن أوس، بقصيدته المشهورة التي أولها:

السيف أصدق انباء من الكتب
في حدّه الحدّ، بين الجد واللعب

ويقول فيها:

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به
نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تفتّح أبواب السماء له
وتبرز الأرض في أثوابها القشب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت
عنك المنى حفلاً معسولة الحلب

الى أن يقول:

خليفة الله جازى الله سعيك عن
جرثومة الدين والاسلام والحسب

وبعد وفاة الخليفة المعتصم (٨ ربيع الأول ٢٢٧ هـ - ٨٤٢ م)، خمدت نار الحرب بين المسلمين والروم، وبقيت الجبهة الحدودية هادئة لفترة زادت على عشر سنوات. ثم عادت الحرب فاشتعلت بين الفريقين، نتيجة للنشاطات البيزنطية البحرية المتزايدة في شرقي البحر الابيض المتوسط، حيث أقدم الاسطول البيزنطي في عام ٢٣٨ هـ - ٨٥٢ م،

على الاغارة على دمياط، في مصر، فدخلها بحارته، وعاثوا فيها، ثم أحرقوها، بعدما نهبوا كل ما وصلت إليه ايديهم من المغانم وسبوا عدداً كبيراً من نساء المسلمين وأهل الذمة. ولم يتعرض لهم أحد. وكانت السفن التي يتألف منها ذلك الاسطول آنذاك تبلغ الثلاثمائة عدداً.

وصادف في ذلك الحين، أن حامية دمياط، كانت قد تركتها الى الفسطاط، بناء لأوامر أمير مصر[1].

وعلى اثر مقتل الخليفة المتوكل (٤ شوال ٢٤٧ هـ - ١١ كانون أول ٨٦١ م) وما نشأ عن ذلك من اضطرابات داخلية في البلاد، وانتشار الفوضى في أنحاء الخلافة العباسية، أخذ أولو الأمر فيها يتقاعسون عن حماية الثغور الاسلامية، بحيث ضعف الدفاع عنها، وكان الروم لا يفتـأون يتحينون الفرص لاجتيـاحهـا، إلى أن استطـاع الامبراطور باسيل الأول (٨٦٧م - ٨٨٦) احتلال جميع الممرات المهمة والطرق والمنافذ المؤدية الى آسيا الصغرى، والعمل على سدّها بصورة تحول دون تسلّل المسلمين منها، لغزو أراضي الروم.

وفي سنة ٨٧٦ م - ٢٦٣ هـ استولى الروم على حصن لؤلؤة في جبال طوروس القلقيلية، وتزايدت غاراتهم بعد ذلك، على ديار ربيعة وثغورها الجزرية.

- العرب في صقلّية -

كان الخليفة العباسي، هارون الرشيد، قد عقد الولاية على تونس، لابرهيم بن الأغلب (٨٠٠م - ١٨٤ هـ)، فاستقلّ بها هذا الوالي، بحيث اصبحت السيادة العباسية على هذه الولاية، شبه إسمية. وقد استقرّ حكم الأغالبة في تونس حتى سنة ٩٠٩م - ٢٩٧ هـ حيث اتخذوا من

---

(١) الشيخ محمد الخضري: محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية: الدولة العباسية ص ٢٦٤
Rene Grousset: L'Empire du Levant. P. 108.

مدينة القيروان، عاصمة لهم، وجعلوها قاعدة لنشر سيادتهم على مناطق البحر الأبيض الوسطى. فتمكنوا بأسطولهم القوي، من اجتياح شواطىء إيطاليا وفرنسا وكورسيكا. كما احتلوا جزيرة سردينية من البيزنطيين. وفي عهد العاهل الأغلبي، زيادة الله الأول (٨١٧ - ٨٣٨ م)، بدأ على يده فتح جزيرة صقلّية، من البيزنطيين. فأرسل هذا الحاكم اسطولاً مؤلفاً من سبعين سفينة، عليها نحو عشرة آلاف مقاتل، وسبعمائة فارس، بقيادة أسد بن الفرات، نزلوا في (مازر)[1] سنة (٨٢٧م - ٢١٢ هـ). ثم احتلّوا بَلرم (بالرمو) (ايلول ٨٣١م - ٢١٦ هـ) ومَسيّنة (٨٤٣م - ٢٢٩ هـ). وقصر يانة (٨٥٩م - ٢٤٥ م) وسرقوسة (٨٧٨م - ٢٦٥ هـ).

وهكذا أصبحت صقلية للعرب، فخفقت أعلامهم على جزر مالطة وسردينية وأقريطش، وقد استمرت الحرب بين الجيوش البيزنطية والعربية في البر والبحر، على أرض الجزيرة، وفي داخل ايطاليا، حتى سنة ٨٩٥م - ٨٩٦ - حيث عقد المتحاربون صلحاً، يوجب تخلّي البيزنطيين عن صقلّية بكاملها.

وفي تلك الأثناء، كان الأغالبة، قد نزلوا في إيطاليا، وأقاموا حاميات في باري (على البحر الأدرياتيكي)، وبرندزي وطارَنْت، لمدة من الزمن؛ وأخذوا يتدخلون في الحروب الأهلية المستمرة بين اللومبارد، من سكان إيطاليا الجنوبية، واستنجدت بهم مدينة نابولي (نابْل) سنة /٨٣٧/م، فلبّوها، كما هدّدوا البندقية، ووطأت أقدامهم دوقية بينيقان، وضواحي روما، فنزلت فيالقهم عند مرفئها البحري أوستيا، فسلبوا كنوز كاتدرائيات القديس بطرس والفاتيكان، والقديس بولس، خارج الأسوار. وأعادوا الكرة على روما فهاجموها ولم يرتدوا

(١) ابن الأثير: م. س. ج(٦) ص - (٢٣٦).

عنها، الاّ بعد أن فرضوا على البابا يوحنا الثامن، فدية، مدة سنتين، بلغت خمسة وعشرين الف رطل من الفضة (/٨٧٥/م).

وفي عام /٨٧١/م، اضطر العرب لاخلاء باري، أما طارنت، فان الأمبراطور البيزنطي: باسيل الأول، قد انتزعها منهم في عام (٨٨٠ م).

وقد كانت صقلّية، في أول أمرها، مرتبطة بتونس سياسياً وإدارياً، أما أمراؤها، فكانوا تابعين للأغالبة المقيمين في القيروان. ولما سقط الأغالبة، على يد الفاطميين، أصبح هؤلاء أسياد الجزيرة (٩٠٩ م)، حيث اتخذوها قاعدة بحرية، وجرّدوا منها الحملات، على المرافىء الإيطالية.

وبسبب قيام الحرب الأهلية بين مسلمي الجزيرة، والتدخل البيزنطي، ضعفت قوة العرب فيها وعندما غزاها النورمان، الذين كانوا احتلوا جنوب ايطاليا، لم يستطع حكام الدولة الكلبية، الوقوف بوجههم، فتمكن الكونت روجر بن تنكرد دي هو تفيل في عام (١٠٦٠ م) من احتلال مسيّنة، ثم بلرم (١٠٧١ م) وسرقوسة (١٠٨٥ م) بحيث أصبح في عام (١٠٩١ م) يحكم كل الجزيرة. وكان في عام (١٠٩١ م) قد أخذ مالطة من العرب.

بعدما خسر البيزنطيون جزيرة صقلية، لم تنقطع غاراتهم على الحدود الاسلامية. ففي سنة ٢٩٠ هـ - ٩٠٢ م، وردت رسلهم الى بغداد، يسألون الخليفة المكتفي، المفاداة بمن في أيدي المسلمين من الأسرى البيزنطيين، ومعهم الهدايا، حسب العادة وقتذاك فأجيبوا الى طلبهم.

ثم في سنة ٢٩١ هـ - ٩٠٣ م خرج جيش إسلامي من طرسوس نحو أنطاكية، فاستولى عليها عنوة، وكانت من أهم مدن الروم وثغورهم البحرية، ووقعت بيد المسلمين فيها، غنائم كبيرة من المال والمتاع والرقيق، واستنقذوا من أسراهم فيها، عدداً كبيراً، يتجاوز الخمسة

الآف أسير. ووضعوا أيديهم على ستين مركباً، نقلت بها تلك الغنائم.

ومن جزيرة إقريطش (كريت) أرسل المسلمون أسطولاً لتهديد القسطنطينية، فنهب مدينة سالونيكا (تموز ٩٠٤م - ٢٩٢هـ) وقتل قسماً من أهاليها. اما القسم الباقي. وينوف عدده عن العشرين الف نسمة من الفتيان والفتيات، فقد بيع في أسواق (شاندكس) عاصمة إقريطش العربية، وفي طرابلس[١].

وأما الروم، فقد أغاروا في سنة ٣٠٣هـ - ٩١٥م على الثغور الجزرية، وقصدوا حصن منصور، ولم يلقوا أية مقاومة من المسلمين، لانهاك جيوشهم في حروبهم الداخلية المتوالية.

وفي سنة ٣٠٥هـ - ٩١٧م وصل رسولان من قبل الروم الى الخليفة المقتدر، يطلبان المهادنة والفِداء، فأجابها الى طلبها، وسيّر مؤنسا الخادم، لحضور الفداء.

ومما يلفت النظر هنا، أن إمبراطور الروم (أيّ أمبراطور)، كان أثناء المهادنات التي تحصل بينه وبين الخليفة العباسي، يدعو أحياناً أسرى المسلمين الموجودين لديه، الى وليمة مسيحية، يُستثنى منها تقديم لحم الخنزير، بصورة خاصة، ويقدّم لهم هدآيا من مال وثياب[٢].

كما كان حمدانيو الموصل، يبعثون، أحياناً، بهدايا من جياد، وخمور وصلبان مذهّبة الى إمبراطور الروم، في حين كان حمدانيو حلب، يتلقون هدايا من بغال وملابس، وحلى ذهبية من البيزنطيين في الأراضي الشرقية.[٣]

---

(1) René Grousset: L'Empire du Levant P.P. 110 - 111.

(٢) ابن رسته ص - ١٢٢ و١٢٣ و ١٢٥.

(٣) الصابيء: رسائل. ص - ١٣٢ - ٣ - مسكوية: مجلد (٢) ص - ٢٠٨.

وفي سنة ٣١٤ هـ - ٩٢٦ م - سار الدمستق، في جيش لجب، من الروم، الى مدينة دبيل. فدخلها، فقاتله أهلها، واستطاعوا ان يخرجوه منها، بعدما قتلوا من جنده، عشرة آلاف قتيل ونيّف.

وفي سنة ٣١٩ هـ - ٩٣١ م. اجتاح الجيش الاسلامي، بلاد الروم، فبلغ عمورية وأنقرة، بقيادة القائد: ثِمل، والي الثغور من قبل المقتدر، الذي استعاد بعض الهيبة للدولة، فأوقع الرعب في قلوب الأعداء.

ولكن، بعد مقتل الخليفة العباسي المقتدر (٢٨ شوال ٣٢٠ هـ - ٩٣٢ م) تفاقمت الخلافات السياسية، والمنازعات الدينية في بغداد، عاصمة الخلافة، وتجاوزت الأمراء والوزراء، الى عامة الشعب، خصوصاً بعد ظهور الحنابلة، وتشدّدهم في الأمور الدينية، وكانت الدولة قد تجزأت الى أشتات، وظهر الضعف فيها، فلم تعد تقوى على مجابهة العدو البيزنطي، الذي تمكن بالنتيجة من استعادة جميع الثغور الاسلامية الكبرى.

ففي سنة ٩٣٤ م - ٣٢٣ هـ، استولى الروم على مَلَطية، وهدموها، وسبوا أهاليها.

- الحمدانيون -

بعد أن تغلّب سيف الدولة الحمداني، على عامل الأخشيد، واستولى على حلب والعواصم وديار بكر، وثبت سلطانه في شمالي سوريا، أخذ يقوم بالغزوات المنظمة الى بلاد الروم، وقد بدأ هذه الغزوات في سنة ٣٣٧ هـ - ٩٤٨ م - وواصلها حتى مماته سنة ٩٦٧ م - ٣٥٧ هـ.

ففي أول معركة بين سيف الدولة وبين الروم، كان النصر لهؤلاء، فتغلّبوا عليه وأخذوا مدينة مرعش (Germanicée)، وأوقعوا بأهل طرسوس. وكان قائدهم آنذاك يدعى: حنّا كوركواس (٩٤٩ م -

٣٣٨ هـ). وفي السنة التي تلتها، دخل سيف الدولة بلاد الروم غازياً، فظفر بهم، الاّ أنه توغّل بعيداً في بلاد العدو، وعند عودته محمّلاً بالغنائم والأسلاب اخذ عليه الروم المضايق، وسحقوا جيشه، بقيادة: بارباس فوكاس. (٢٠ تشرين الثاني ٩٥٠م - ٣٣٩ هـ)، فهلك جنده قتلاً وأسراً ونجا هو، مع عدد يسير من صحبه، واستردّ الروم السبي والغنائم.

ثم بعد ذلك، استولى الروم على مدينة سَروج وسبوا أهاليها (٣٤١ هـ - ٩٥٢ م).

وفي هذه الفترة، كان سيف الدولة، قد أعاد بناء مدينة مرعش، ولكن الروم عادوا، واجتاحوا نواحي انطاكية وحلب (٩٥٣م - ٣٤٢ هـ) وأثناء انسحابهم ووصولهم الى ضواحي مرعش، هاجمهم سيف الدولة وأوقع بهم الهزيمة.

ولم يكتف سيف الدولة، بذلك، إذ عاد في سنة ٣٤٣ هـ -٩٥٤م وغزا بلاد الروم، وانتصر عليهم في الحدث، وكان من بين الأسرى الذين وقعوا بيده، صهر الدمستق، وإبن بنته، وعدد من البطارقة. (الدمستق عند الروم، كما يسميّه العرب، هو الرئيس الأعلى للجيش، أي القائد العام، والبطارقة (جمع بظريق) هم قادته).

وكان لهذا النصر، الذي ناله سيف الدولة، أثره المشجّع لدى المسلمين؛ مما حدا به بعد ذلك، الى دخول بلاد الروم بجيشه المظفر، والاستيلاء على عدة حصون فيها، حتى وصل الى خرشنة. ثم عاد الى أدنة ومنها الى حلب مقرّ إمارته. (٣٤٥ هـ - ٩٥٦ م).

غير ان الروم، جمعوا بعد ذلك، جموعهم الغفيرة، وساروا حتى أتوا أميدا (ديار بكر)، وبعدها ميافارقين (Martyropolis)، فأرزن، فنصيبين (٩٥٧م - ٩٥٩م)، ثم خاضوا البحر، الى طرسوس، فأوقعوا بأهاليها، وأحرقوا القرى حولها، وغزوا الرها وقتلوا الأهالي فيها.

وزحف سيف الدولة، من جهته، الى بلاد الروم، في جمع عظيم من المقاتلة، (٣٤٩هـ - ٩٦٠م) ففتح عدة حصون، وبلغ خرشنة (Kharsian) في قبّادوقية (Cappadoce)، وعند عودته، فاجأه الجيش الرومي بقيادة ليون فوكاس، في مضيق (كيلندروس)، وهزمه، ولم ينج من جيش المسلمين، الاّ سيف الدولة وثلاثمائة من مقاتليه، بينما وقع الباقون بيد الروم، قتلى أو أسرى، واسترد هؤلاء، ما كان بحوزة المسلمين من الغنائم والأثقال.

كان العرب قد احتلوا اقريطش (Crète) في سنة ٨٢٨م - ٢١٢هـ)، فلما ضعف الدفاع عن هذه الجزيرة، من قبلهم، تبعاً لضعف الدولة العباسية، أصبحت عرضة لهجوم البيزنطيين الذين كانوا يتحينون الفرصة لأخذها.

وقد سنحت هذه الفرصة، للقائد البيزنطي، نقفور فوكاس، فهاجم الجزيرة في سنة ٩٦٠م - ٣٤٩هـ، وتغلّب على العرب فيها، ودخل عاصمتها: شاندكس، عنوة، (٧ آذار ٩٦١م)، وأخرجهم منها.

بعد ذلك، بدأ نقفور، فتح قيليقية، فاستولى على مدينة: عين زربة (Anzarbe) (٩٦٢م - ٣٥١هـ)، وعلى حصن: صيص، وواصل زحفه، مخترقاً جبال الأمانوس، نحو حلب، حاضرة مُلك سيف الدولة الحمداني، وبطريقه اليها، أخذ مرعش، ودَلوك، وعينتاب، حيث وقع في أسره، الشاعر العربي: أبو فِراس الحمداني، إبن عم سيف الدولة.

ثم أكمل نقفور سيره، حتى التقى سيف الدولة على ضفاف القويق، امام حلب، فجرت بينهما معركة، هُزم فيها هذا الأخير، وتمكّن القائد البيزنطي، على إثرها، من دخول حلب عنوة، فقتل ما يزيد على عشرة آلاف من أهاليها، وسبى بضعة عشر الف صبيّ وصبيّة منهم، وظفر

بأموال سيف الدولة وكنوزه، وأحرق قصره، كما أحرق مساجد هذه المدينة السورية الكبيرة، التي أقام فيها، بعد فتحها، ثمانية أيام: ثم رحل عنها، لعدم تسليم قلعتها التي صمدت بوجهه بشدة (٩٦٢م - ٣٥١ هـ)[١].

ولقد كان لهذه الحوادث، وخصوصاً فتح حلب، أسوأ الوقع في بغداد، فقام الشعب هناك، بمظاهرة كبيرة، طلب فيها ممثّلوه، من الخليفة، قيادة حملة إنقاذ سريعة بنفسه، لكن الخليفة المطيع، لم يفعل شيئاً بهذا الشأن، سوى أنه شاطر المتظاهرين، ذرف الدموع، وإبداء الأسف[٢].

وفي سنة ٣٥٣هـ - ٩٦٤م، سار الأمبراطور نقفور فوكاس، (وكان قد تولى الملك مع الامبراطور القاصر: باسيل الثاني)، الى المصيّصة فحاصرها، وأحرق رستاقها، بيد أن أهاليها استماتوا بالدفاع عنها، وقاوموه بعنف، فتوجّه عنها الى أدنة، فاحتلها، وتابع سيره نحو طرسوس، فحاصرها، مدة ثلاثة اشهر دون نتيجة، لأن أهاليها قاوموه، ولم يستسلموا، بالرغم من عدم تلقّيهم أية نجدة من سيف الدولة أو غيره، مما اضطر نقفور، الى فكّ الحصار عنها، ومن ثم عاد الى المصيّصة، فأخذها عنوة، وقتل أهاليها، ونقل من بقي منهم، الى بلاد الروم. وبعدها رجع الى طرسوس، فحاصرها ثانية، ودخلها سلماً، وجعل المسجد الجامع، إصطبلاً لخيله، وأحرق المنبر فيها (١٦ آب ٩٦٥م - ٣٥٤ هـ).

وهكذا عادت قيليقية بأجمعها، بيزنطية، وعمرت بالمسيحيين، الذين أتوا وأقاموا فيها، وأصبحت الحدود البيزنطية مغلقة بوجه المسلمين.

---

(١) مسكويه ج(٢) - ص ١٩٢ - ٤ - ويحيى الأنطاكي ص - ٨٧٦ - ٧.
(٢) ذات المرجع من مسكويه - ص ٢٠١.

وفي تلك الأثناء، اي في سنة ٩٦٤م - ٩٦٥م، كان نقفور، قد بعث بجيش الى جزيرة قبرص، فاحتلّها، وأخرج العرب منها.

وفي سنة ٩٦٦م - ٣٥٦هـ، أقدم نقفور على محاصرة مدينة منبج في سوريا، ولم يدخلها، بل واصل سيره عن طريق قنّسرين، وتيزين، الى أرتح، فحاصرها، وأخذها عنوة، وبعدها اتّجه نحو انطاكية فلم يتمكن من فتحها، نظراً لمقاومة المدافعين عنها القوية.

وبعد وفاة سيف الدولة، أمير حلب (كانون الثاني ٩٦٧م - ٣٥٧هـ) قام نقفور بحملات عسكرية، على ممتلكات المسلمين، في ما بين النهرين والشام، فبعد اجتياحه نواحي ميافارقين التابعة للحمدانيين، نزل نحو سوريا، وأخذ معرّة النعمان، ومعرّة مصرين، وكفر طاب، وشيزر، وحماة، وأحرق هذه المدينة الأخيرة، ودخل مدينة حمص، وصلّى في مسجدها الذي كان كنيسة قديمة، وتركها طعمة للنار.

ثم انكفأ نقفور باتجاه الساحل اللبناني، ففتح قلعة عرقة عنوة، ونهبها وسبى اهاليها، وواصل سيره نحو طرابلس، فأحرق ضواحيها دون أن يحاول الدخول اليها. وبعدها صعد صوب الشمال، فاحتلّ طرطوس، ومراقية وجبلة واللاذقية والسويدية (٩٦٨م - ٣٥٨هـ). وقد اقام الأمبراطور البيزنطي، مدة شهرين ونصف تقريباً في الشام قبل ان يرحل عنها، تاركا قسماً من جيشه فيها، تحت إمرة إبن أخيه، بطرس فوكاس، والقائد ميشال بورتسيز: وكان في تلك الأثناء، قد شيّد في بَغراس، حصناً يشرف على منافذ قيليقية.

ولما عاد نقفور الى بلاده، كان يردف وراءه، مائة ألف رأس من السبي، كلهم من الفتيان والفتيات، اما الشيوخ والعجائز والكهول فمنهم من قتلهم، ومنهم من اطلق سبيلهم.

وكان لهذا العار، يصيب بلاد الاسلام في صميمها، صدى بعيد لدى

المسلمين؛ الذين أخذوا يتساءلون، كيف يقوم أمبراطور الروم باكتساح أراضي الشام ومدنها، ويقصد أيّ موضع شاء، ويخرب اي بلد يريد أو يحرقه، فيصول ويجول، ولا يمنعه احد، من الحكام المسلمين، اصحاب السلطة والألقاب الفخمة، الذين لم يجرؤ احد منهم، أو يكلّف نفسه عناء مواجهة الأمبراطور البيزنطي، وجهاً لوجه، ألا يدل ذلك على ضعف المسلمين وقوة الروم؟.

ولهذا تنادى الناس بالنفير العام في خراسان، لحماية الثغور الإسلامية، بعد إذ ذهبت صرخاتهم للحكام، ادراج الرياح، وتقدم اكثر من عشرين الف متطوّع منهم، قاصدين بلاد الشام، فمرّوا في بلاد الجبل، التابعة لأملاك ركن الدولة البويهي، فاعترضهم الديلم، وحاربهم ركن الدولة وشتّت شملهم، فأجهض حملتهم، بدلاً من أن يعمل على مساعدتهم، للوصول الى غايتهم.

هذا، ولما رأى القائدان البيزنطيان، بطرس فوكاس، وميشال بورتسيز، ان الوقت ملائم لإكمال الفتح الذي بدأه الأمبراطور، عزما على أخذ انطاكية، فحاصراها، ودخلاها عنوة، وأخرجا المسلمين منها، بعدما نهبها الجيش الرومي. فعاد اليها المسيحيون وأغلبهم من الأرمن. وقد بقيت انطاكية في أيدي الروم من سنة ٩٦٩م - ٣٥٩هـ، الى سنة ١٠٨٤م - ٤٧٧هـ حين سقطت بيد سليمان بن قتلمش بن إسرائيل السلجوقي.

وبعد ذلك مباشرة، مضى القائد البيزنطي بطرس فوكاس، الى حلب، وبها قرعَوَيه السيفي، غلام سيف الدولة، الذي كان في حرب مع أبي المعالي شريف بن سيف الدولة. فلما علم هذا بخبر قدوم الروم، فارق حلب، بينما بقي قرعَوَيه متحصّناً في قلعة المدينة، فحاصرها القائد بطرس فوكاس، مدة سبعة وعشرين يوماً، ثم اقتحمها بجيشه، وأخذها

عنوة، واضطر قرعويه، بعد مقاومة بسيطة في القلعة، الى التسليم، والاعتراف بسيادة امبراطور الروم، على كامل إمارة حلب (كانون الأول ٩٦٩م - كانون الثاني ٩٧٠م - (٣٦٠هـ)، والى مصالحة الروم على مال يؤديه لهم، وأعطاهم رهائن على ذلك.

ويقول ابن الأثير بهذه المناسبة: (إنه لا البويهيون ولا حمدانيو الموصل أيضاً، تدخلوا لانقاذ إخوانهم في حلب، من المصير الذي كان يترقّبهم[1]).

وفي ذلك الحين، كان الإمبراطور نقفور فوكاس، قد لقي مصرعه على يد القائد البيزنطي، جان تزيميسّز (أو حنا الشمشقيق) كما يسميه (المؤرخون العرب)، عشيق الأمبراطورة ثيوفانو، التي شاركته في جريمته. (وكان نقفور قد تزوجها بعد موت زوجها السابق الأمبراطور رومان الثاني) [١١ كانون الأول ٩٦٩م].

---

(١) الكامل: مجلد (٨) ص ٤٥٥.

الفصل الخامس

الفاطميون والبيزنطيون

بعد ان استولى الفاطميون على مصر، واستقرّ حكمهم فيها، أرسل قائد جيشهم، جوهر الصقلّي، قسماً من الجيش، فاستولى على دمشق: (اواخر سنة ٩٦٩ م)، ثم احتلّ الشاطىء اللبناني بكامله: وقصد مدينة انطاكية، فحاصرها مدة خمسة أشهر، دون ان يتمكن من أخذها من البيزنطيين (٩٧٠ - ٩٧١ م).

وكان البيزنطيون، قبل ذلك، قد اجتاحوا مدينة حمص وهدموها، (٩٦٩ م - ٣٥٩ هـ) وكانت بيد سعد الدولة بن سيف الدولة الحمداني. وبعد ذلك أغاروا بقيادة الدمستق الأرمني: مِلاه (Mleh)، على مدينة الرها ونواحيها (٩٧٢ م)، وساروا حتى بلغوا نصيبين، فسبوا وخربوا البلاد، وأخذوا ملطية، ولكن أبا تغلب بن حمدان، الذي كان قد تهرّب من مواجهة الدمستق آنذاك، عاد في السنة التالية، وقابل الجيش البيزنطي، بالقرب من آمد (Amida) فدارت بينهما معركة، انتصر فيها الحمداني، وهزم (ملاه) وأخذه أسيراً، (٤ تموز ٩٧٣ م - ٣٦٣ م)، وبقي الدمستق في الأسر، مدة قصيرة ثم مات.

ولم ينم البيزنطيون على هذه الهزيمة، فصمّم الإمبراطور: جان تزيمسيز، على الإنتقام، لمصرع الدمستق (ملاه)، ولهذه الغاية فقد سار على رأس جيش كبير، في خريف سنة ٩٧٤ م - ٣٦٤ هـ - واجتاح مدينة ميافارقين، وأحرقها، ثم احتلّ مدينة آمد (ديار بكر)، التي

اشترت نفسها بالمال، ودخل منتصراً الى نصيبين، وكان أهاليها المسلمون قد أخلوها، خوفاً منه، وبعد ذلك رجع الى القسطنطينية وهو يجرّ وراءه السبي والغنائم - وكان الفاطميون، في ذلك الوقت، قد طردوا الحامية البيزنطية من مدينة بيروت، وامتّد سلطانهم الى الشام وفلسطين.

ولم يلبث الأمبراطور البيزنطي، حتى قام بحملة اخرى في ربيع عام ٩٧٥ م، تابع سيره فيها، عبر البقاع، واستردّ بعض أجزاء فلسطين.

أما صيدا فقد فرض عليها الامبراطور الجزية، وأما بيروت، فقد قاومت ببسالة، مدة طويلة، بقيادة القائد الفاطمي: نُصَيْر، ولكنها اضطرت بالنهاية للإستسلام؛ فأُسِر قائدها مع الحامية الفاطمية.

ولم تنج جبيل مما حلّ بغيرها من المدن اللبنانية.

على أن طرابلس، بقيت على ثباتها، ولم يستطع الامبراطور أخذها.

وما أن انتهى هذا الأخير من حملته هذه، حتى قفل عائداً الى انطاكية، (ايلول ٩٧٥ م)، ومنها الى القسطنطينية.

وفي التاسع عشر من كانون الثاني ٩٧٦ م توفي الامبراطور جان تزيمسيّز، وأضحى العرش البيزنطي مختصّاً بالأمبراطور باسيل الثاني وحده، ولما استعاد الأمير الحمداني، سعد الدولة، مدينة حلب، من قرعويه السيفي (٣٦٧ هـ - ٩٧٧ م)، هاجمه القائد البيزنطي: بَرداس فوكاس، حاكم انطاكية، وأرغمه على الإعتراف، بسيادة الدولة البيزنطية عليه، ودفع جزية قدرها: عشرون ألف دينار سنوياً (تشرين الثاني ٩٨١ م - ٣٧١ هـ)، ثم احتلّ القائد البيزنطي مدينة حمص (٢٩ تشرين الأول: ٩٨٣ م - ٣٧٣ هـ).

على أنه، في أواخر سنة ٩٨٧ م - ٣٧٧ هـ، جرت معاهدة، بين الإمبراطور باسيل الثاني البيزنطي، والخليفة الفاطمي: العزيز، ورد في

شروطها، وجوب ذكر اسم الخليفة العزيز، في خطبة الجامع في القسطنطينية[1] - (هذا الجامع، كان قد أنشىء في عاصمة البيزنطيين من قبل).

وبدلاً من أن يحصر الفاطميون همّهم في منازلة البيزنطيين، راحوا يهاجمون المدن الإسلامية، لأخذها من الحمدانيين، ذلك أنهم، بعد أن حاصروا أنطاكية دون النيل منها (٩٩٢م - ٣٨٢هـ) تحوّلوا نحو حمص، فهاجموها وتملكوها من الحمدانيين، ثم انتزعوا منهم، مدينتي شيزر وأفامية (٩٩٣م - ٣٨٣هـ).

وفي ذلك الوقت، ثار المسلمون على الروم، في مدينة اللاذقية، فأجلاهم هؤلاء عنها، وأحلّوا محلّهم، عناصر مسيحية.

ولم يكتفِ الفاطميون بما استولوا عليه من مدن الحمدانيين، بل امعنوا في ملاحقتهم، الى حلب، فحاصروها (٣٨٥هـ - ٩٩٥م)، فاضطر لؤلؤ الكبير، الوصي على ابن سعد الدولة الحمداني، لطلب النجدة من الامبراطور باسيل الثاني؛ الذي هبّ مسرعاً من القسطنطينية الى أنطاكية، ملبّياً دعوة لؤلؤ. ولما تقدم نحو حلب، انسحب الفاطميون من حصارها، وتراجعوا الى دمشق، فما كان من امبراطور الروم، الاّ المضي الى شيزر وحمص، ورفانية، لطرد الحاميات الفاطمية منها، ومتابعة سيره الى الساحل، ليحتل طرطوس، ولكنه يعجز عن أخذ طرابلس، التي كانت لا تزال من أحصن مدن الساحل، بفضل اسوارها المنيعة وحاميتها القوية[2].

ثم في سنة ٣٨٨هـ - ٩٩٨م - اصطدم الجيشان الفاطمي والبيزنطي، بالقرب من أفامية، فكان النصر للفاطميين، الذين هزموا

---

(١) الدكتور أسد رستم: الروم وصِلاتهم بالعرب - ج(٢) ص. ٥٣.
(٢) ابن القلانسي ص - ١٣ - ١٤ - ٤٤.

الروم وقتلوا قائدهم: داميان دلاسّين، ولم ينج منهم الاّ فئة قليلة، لاذت بالفرار.

وهذا ما دفع بالأمبراطور باسيل الثاني لتجهيز حملة كبيرة للانتقام من الفاطميين، والأخذ بثأر قائده وجيشه: فسار بها حتى وصل الى جسر الحديد، على العاصي، فعسكر هناك (٢٠ ايلول ٩٩٩م)، ثم اتجه صوب شيزر، فهاجمها واستولى عليها، وأسكن فيها، مستوطنين من الأرمن، وبعدها تابع سيره، فأحرق حصن رفانية، وهدم قلعة مِسياط، ثم اجتاز الى بلاد بعلبك، وانكفأ نحو الساحل اللبناني،، فاحتلّ عرقة، وحاصر طرابلس من جميع جهاتها، فلم ينل منها (٩ - ١٣ كانون الأول ٩٩٩م - ٣٩٠هـ).

وفي أوائل سنة (١٠٠٠م)، رحل الأمبراطور، الى أنطاكية، عن طريق اللاذقية.

هذا، ومما يلفت النظر هنا، ان الصدام في سوريا، بين البيزنطيين والفاطميين، لم يكن ليحول دون المبادلات التجارية فيما بينهم، اذ بقيت الموانىء السورية، تواصل التجارة مع القسطنطينية، عبر قبرص، كما واصلت السفن البيزنطية التجارية نقل السلع من القاهرة القديمة وإليها[١].

وقد أرسل الأمبراطور البيزنطي، باسيل الثاني، للعزيز الفاطمي (٩٧٥ - ٩٩٦م - ٣٦٥ - ٣٨٦هـ)، هدية ثمينة من (٢٨) طبقاً مطلياً ومطعماً بالذهب، قُدِّر ثمن الواحد منها بثلاثة آلاف دينار[٢].

وبعد وفاة العزيز الفاطمي، خلفه إبنه الحاكم بأمر الله (٩٩٦ - ١٠٢١م - ٣٨٦ - ٤١١هـ)، وكان في الحادية عشرة من عمره،

---

(١) المقدسي ص - ١٩٤ - وابن حوقل. ص ١٧٦ - وابن الأثير مجلد (٨) ص ٣٨٨.
(٢) المقريزي: الخطط. مجلد (١) - ص ٤١٥.

وقبل ممارسته سلطته الفعلية، عقد الحاكم بأمر الله، معاهدة صلح لعشر سنوات، مع الأمبراطور باسيل الثاني، وذلك بناء للمساعي التي بذلها اورسيتس: بطريرك القدس، مع الإمبراطور البيزنطي، ومع برجوان، وزير الحاكم بأمر الله، في مصر (وكان الوزير يسمّى الواسطة وقتذاك) (١٠٠١م - ٣٩١هـ)(١).

وقد أقدم الحاكم بأمر الله، فيما بعد، على التخلّص من الوزير برجوان، فدبّر أمر اغتياله، كما دبّر أمر اغتيال خاله: أرسانيوس، بطريرك الأسكندرية الملكاني (١٠١٠م - ٤٠١هـ) بعد ان أمر بهدم كنيسة القيامة في القدس، والتي كان خاله الآخر أورسيتس، بطريركاً ملكانياً عليها (وهو الذي كان قد رتّب المعاهدة مع البيزنطيين، المشار اليها آنفاً) - (١٠٠٩م - ٤٠٠هـ).

وبعد اغتيال الحاكم بأمر الله (١٠٢١م - ٤١٢هـ) استطاع الأمير العربي: صالح بن مرداس، أن يستولي على حلب، من يد عامل المصريين (٤١٤هـ)، واستمرت الدولة المرداسية، في حلب، الى سنة ٤٧٢هـ، دون أن يتمكن البيزنطيون من اخذها.

وتولّى بعد الحاكم بأمر الله، ولده الظاهر لاعزاز دين الله، (٤١١ - ٤٢٧هـ - ١٠٢١ - ١٠٣٥م)، وهو الخليفة الذي وافق امبراطور الروم قسطنطين الثامن، على أن يذكر اسمه في الخطبة بجوامع أرض الروم، وخوّله الحق في إعادة بناء جامع القسطنطينية، مقابل سماح الخليفة له، بترميم كنيسة القيامة التي هدمت بعهد أبيه(٢)، ولما حاول الأمبراطور رومان الثالث، مهاجمة المرداسيين، في سوريا، قابله شبل الدولة، أبو كامل نصر، أمام (عَزاز) وهزمه، فعاد

(١) الأنطاكي: ص - ١٨٤.
(٢) المقريزي: ج(١) ص. ٣٥٥.

الإمبراطور خائباً الى بلاده (١٠ آب ١٠٣٠م - ٤٢٢هـ).

الاّ ان الروم لم يلبثوا ان استولوا على مدينة الرها (شتاء ١٠٣١م - ٤٢٣هـ).

وفيما بعد توصل الفاطميون والبيزنطيون، الى عقد معاهدة صلح في عام ١٠٣٨م - ٤٣٠هـ، صار تجديدها، عام ١٠٤٨م - ٤٤٠هـ[١].

ويظهر من هذه الحروب التي جرت بين الفاطميين والبيزنطيين، ان هؤلاء الأخيرين، قد استطاعوا توسيع حدود أمبراطوريتهم شرقاً، على حساب المسلمين، حتى نهر الفرات، وقلب سوريا الشمالية[٢].

---

(١) ابن الأثير. الكامل: مجلد /٩/ ص - ٣٢٦ - ٣٨٠.
(٢) ذات المرجع - ج(٨) - ص - ٤٤٠ - ٤٤١.

الفصل السادس

السلاجقة والبيزنطيون

كان العالم الإسلامي، في اوائل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، يخضع بقسم منه، للخلافة العباسية، في بغداد، وبقسم آخر للخلافة الفاطمية في القاهرة، وبقسم ثالث، للخلافة الأموية في قرطبة. وكان الوهن، قد أخذ يتفشّى في هذه الأقسام، من عالم الاسلام، وخطر الدول الاسلامية المستقلة فيه، يتفاقم باطراد، إذ كلما كانت تظهر دولة في أرجائه، تعود فتختفي، فتخلفها أخرى، ثم تسقط، ويرتفع غيرها مكانها، وهكذا حتى أصبحت الدول الاسلامية، نهباً مقسماً بين الحكّام والأمراء، والمتسلّطين، فالغلبة للقوي، وويل للضعيف، ولو كان خليفة، فانه لا ينال من الخلافة الاّ إسمها. ولولا صعود السلاجقة على مسرح الأحداث، في ذلك الوقت، واعتناقهم الإسلام، والجهاد في سبيله ضد الأعداء المحيطين به، لما كان المسلمون استعادوا حيويتّهم وعافيتهم، واستطاعوا ان يضعوا حداً لتلك الفوضى السياسية والعسكرية، التي كانت تعم جميع انحاء عالمهم، في الشرق.

ذلك انه بقيام الأتراك السلاجقة، بزغ عصر جديد هام في تاريخ الإسلام؛ فقد تمكنوا، في فترة قليلة من الزمن، من السيطرة على الشرق الأدنى، بكامله.

فالسلاجقة ينتمون الى قبائل الأتراك، الذين عُرفوا باسم: الغُزّ، ويُنسبون الى مقدّم قبيلتهم، سلجوق بن تقاق. وهذه القبيلة كانت تقيم

في بادية القيرغيز. فخرج بها سلجوق الى ديار الإسلام وأقام بنواحي جَنْد، على طرف سيحون، من حدود الترك (حيث يصب سيحون في بحيرة خوارزم: أرال). واعتنق مع قومه، دين الإسلام.

وبوفاته، ترك سلجوق ثلاثة أولاد: هم: أرسلان، وميكائيل، وموسى، ثم توفي ميكائيل وترك أيضاً ثلاثة اولاد هم: بيغو، وطغرل بك محمد، وجغري بك داود.

وبعد ذلك رحل السلاجقة عن نواحي جَند، ونزلوا بالقرب من بخارى، ثم في تركستان.

وفي عام ٤٢٨ هـ استولى داود بن ميكائيل، على مدينة مرو، بعد أن هزم مسعوداً بن محمود بن سبكتكين، في معركة جرت بالقرب من هذه المدينة. وبعدها أخذ نيسابور (٤٣١ هـ).

اما شقيقه طغرل، فقد مَلك جرجان، وطبرستان (٤٣٣ هـ)، وخوارزم (٤٣٤ هـ). ومن ثم استولى على الريّ، وبلاد الجبل، وقزوين وهمذان. وخُطب له بديار بكر (٤٤١ هـ) ووقعت بيده أصبهان، وأذربيجان (٤٤٣ و٤٤٦ هـ). وبعد عودته الى الريّ (وكانت قد أصبحت حاضرة الدولة) أخذ يستعدّ لدخول بغداد، وبسط سيطرته على العراق.

وكان طغرل بك، قد مضى قبل ذلك، الى أرمينية، وقصد ملاذكرد، فحاصرها وخرب ما حولها، وبلغ في غزوته هذه، أرزن (أرضروم) وذلك في عام (٤٤١ هـ - ١٠٤٩ م).

ثم في سنة ٤٤٦ هـ - ١٠٥٤ م، أعاد الكرة، وسار الى أرمينية، فأخذ حصن بركري: (Berkri) وحصن: أرتزس (Artzés) الواقع شمالي شرق بحيرة: وان (Van) وقام بحصار ملاذكرد، ثم تركها عائداً الى

الريّ، نظراً لما اظهره حاكمها الأرمني من قبل البيزنطيين: ڤاسيل من استبسال في الدفاع عنها.

وما أن تلقّى طغرل بك، وهو في الريّ كتاب الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ)، الذي يطلب منه فيه، الإسراع الى بغداد، من أجل إعادة الأمور الى نصابها، ووضع حدّ لاستبداد، المظفّر أبي الحرث أرسلان البساسيري، حتى هبّ على الفور ملبّياً الطلب، فدخل عاصمة العباسيين، في شهر رمضان سنة ٤٤٧ هـ، وقبض على الرحيم، آخر سلاطين بني بويه، وأقام في بغداد مدة سنة كاملة، بعدما اعترف به الخليفة، سلطاناً على جميع المناطق التي تحت يديه، وأمر بالخطبة له بجوامع بغداد، ثم بعد ذلك أضفى عليه الخليفة لقب: ملك المشرق والمغرب (٤٤٩ هـ).

وكان البساسيري في تلك الأثناء، قد توجّه الى الرحبة حين وصول طغرل بك الى بغداد، وكاتب الخليفة الفاطمي: المستنصر بالله، يبدي له الطاعة، مع استعداده لاقامة الدعوة في العراق للفاطميين. ولم يكتف بذلك، بل اتصل بابراهيم إينال، أخي طغرل بك من أمه، وعرض عليه المساعدة والمؤازرة، في حال تمرّده على أخيه، والخروج عن طاعته، ولما حاول إبراهيم، إعلان العصيان والثورة على طغرل بك، مضى هذا الأخير الى همذان واشتبك معه بمعركة بالقرب من الريّ فتغلب عليه وأسره، وأمر بقتله.

وانتهز البساسيري، هذه الفرصة، فأسرع الى بغداد واحتلّها وقبض على الخليفة العباسي، وزجّه في السجن، وأمر بقراءة الخطبة يوم الجمعة، بالجامع، للخليفة الفاطمي.

فلما علم طغرل بك، بما جرى للخليفة في بغداد، عاد اليها فوراً، فتركها البساسيري، هارباً، فأرسل طغرل، وراءه جيشاً كبيراً، لقتاله،

فالتقاه في الطريق، الى الكوفة، حيث دارت بين الطرفين رحى معركة طاحنة، انتهت بفوز جيش السلاجقة، وبمصرع البساسيري، وتشتيت شمل جيشه (٤٥٢ هـ)، وقبل ذلك، كان السلاجقة قد هاجوا البيزنطيين؛ وأعلن أمير دوين (Dovin)، أبو الأسوار، تبعيته لطغرل بك، وذلك نكاية، بالبيزنطيين، الذين هاجوه في إمارته، فردّهم عنها.

وفي سنة ٤٤٩ هـ - ١٠٥٧ م، أقدم السلاجقة على نهب مَلطية (Mélitène) وإحراقها.

ثم مضوا في سنة ١٠٥٩ م، وفي عهد الامبراطور قسطنطين العاشر دوكاس (١٠٥٩ - ١٠٦٧ م)، فجاسوا أراضي قبّادوقية، ونهبوا سيواس أو سيباست (Sivas). ولما توفي طغرل بك (٨ رمضان ٤٥٥ هـ - ١٠٦٣ م)، كان قد وضع الاسس المتينة لدولة السلاجقة، وبسط نفوذها على إيران والعراق، فخلفه إبن أخيه: ألب أرسلان، الذي لم يكد يضع حدّاً لفتنة سليمان بن جفري، ثم فتنة شهاب الدولة قطلمش بن إسرائيل، إبن عم جفري، وبعدها فتنة عمه بيغو، حتى قرّر فتح بلاد الأرمن وجورجيا، والاجزاء المجاورة لها من بلاد الروم؛ فتجاوز إقليم أذربيجان، وراح يغزو البلدان المسيحية المجاورة له، فاستولى على الجزء الأكبر من البلاد الواقعة بين بحيرتي: (وان) و(أورمية)، وفتح جورجيا، وأرمينية (وكانت مملكة أرمينية الكبرى، قد نشأت في المناطق. الواقعة على التخوم، في جبال طوروس وقيليقية، والمؤلفة من إمارات أرمنية مستقلة).

وعمل ألب أرسلان على نشر الاسلام وحضارته في تلك المناطق، وواصل غاراته على البلاد الواقعة تحت حكم البيزنطيين، مثل عزاز وعمورية وأرتح والرها وغيرها.

وكان قد جلس على عرش الامبراطورية البيزنطية في سنة ١٠٦٧ م الامبراطور رومانوس الرابع ديوجين، فرأى في أعمال السلاجقة، خطراً يتهدّد بلاده، فنهض لملاقاة ألب أرسلان، وسار على رأس جيش عرمرم، لغزو بلاد الشام، فاجتاز سيواس، وكولوني (Colonée)، وقيصرية، حتى وصل الى مرعش (١٠٦٨ م). ثم اتجه نحو مدينة منبج (Hiérapolis) على شاطىء الفرات الغربي، فأخذها (نهاية سنة ١٠٦٨ م)، وعسكر في أرتح، شرقي انطاكية، ثم تابع سيره الى أرمينية الغربية.

وفي تلك الاثناء، كان السلاجقة قد هزموا القائد البيزنطي، فيلاريتوس، قرب مدينة ملطية؛ في حين كان قسم آخر، منهم، يغزو مدينة قونية (Iconium)، في آسيا الصغرى، دون أن يقدر الامبراطور البيزنطي على الوقوف بوجههم، عند عودتهم الى قيليقية.

وفي سنة ١٠٧٠ م - ٤٦٣ هـ، التحم السلاجقة، مع القائد البيزنطي: مانويل كومنين، قرب سيواس، بمعركة قوية، انتهت بانتصار السلاجقة انتصاراً مؤزراً، وانهزام الجيش البيزنطي، ووقوع قائده أسيراً بيدهم، وفي ذلك الوقت كان ألب أرسلان، قد أرسل جيشاً بقيادة إبنه ملكشاه، لفتح بلاد الشام، ولما ترامت الأنباء الى أمير حلب (وكان يدين بالولاء للخليفة الفاطمي)، بقرب وصول جيش السلاجقة الى مدينته، أعلن انضمامه تحت لوائه، وحذف إسم الفاطميين من خطبته، وأحلّ إسم الخليفة العباسي، القائم بأمر الله، محلّه؛ فاتّقى بذلك خطر القضاء على إمارته.

وقد تمكن ملكشاه، من فتح جزء كبير من بلاد الشام، والاستيلاء على بيت المقدس، (٤٦٣ هـ - ١٠٧٠ م)، ولكنه لم يُوفّق، بفتح دمشق عند ذاك، بالرغم من محاصرته لها.

وكان القائد الذي فتح بيت المقدس، هو أتْسز بن أوق[1] الذي عاد ففتح دمشق أيضاً فيما بعد.

أما ألب أرسلان من جهته، فقد قام بهجوم على الحدود البيزنطية، في سنة ١٠٧٠ م، وأخذ ملاذكرد، شمالي بحيرة (وان)، ثم ألقى الحصار على أميدا (ديار بكر) واجتاح منطقة ملطية، ثم نزل نحو الرها، وحاصرها، مدة خمسين يوماً، دون نتيجة، فاضطر لرفع الحصار عنها، وانكفأ نحو الموصل بعد ذلك، لورود الانباء اليه، بأن الامبراطور البيزنطي، يجهّز حملة كبيرة لفتح أرمينية (أيار ١٠٧٠ م). وبالفعل فإن الامبراطور رومانوس ديوجين الرابع، زحف بجيش يتجاوز عدده المائتي ألف مقاتل، جلّهم من المرتزقة، التركمان والروس، والنورمان (وهؤلاء كانوا بقيادة روسّيل دي بايّول) الى أرضروم (أرزن)، ومن هناك، بعث بفرقة استطلاع، مؤلفة من التركمان والنورمان، الى نواحي (خِلاط أو اخلاط)، جنوبي غربي ملازكرد، وشمالي غربي بحيرة (وان)؛ فعلم بذلك السلطان ألب أرسلان، وأسرع بترك الموصل، بعد أن جمع ما تيسّر له من الجند، ويقدّر عددهم: بأربعة عشر ألف مقاتل، من الأتراك والأكراد، وسار قاصداً مواجهة الامبراطور، وفي ذلك الوقت كان هذا الأخير، قد أرسل فرقة ثانية، بقيادة يوسف تراخانيوتس، لامداد فرقة روسيل دي بايّول، التي كانت بطريقها الى خِلاط؛ فيما كان الامبراطور بنفسه، يستولي على ملاذكرد.

وحين وصول السلطان ألب أرسلان، الى مقربة من خِلاط، التقى مقدّمة الجيش البيزنطي، وكانت تضاهي جيشه في العدد، فانقضّ عليها، ومزّقها شرّ ممزّق، وأسر قائدها.

وبعد ذلك رأى السلطان أن يعرض الصلح على الامبراطور، تفادياً

---

(١) إبن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق ص: ٦٨ و٦٩، حوادث ٤٦٣ هـ.

لسفك الدماء، فأوفد من قبله رسولاً إليه، بهذا الشأن، فاعتبر الامبراطور ،بأن طلب الصلح من خصمه، هو دليل ضعف، فأبى واستكبر، وردّ الرسول قائلاً: [إن الصلح لن يتمّ الاّ في الريّ]؛ أي في عاصمة السلاجقة؛ التي كان على اعتقاد بأنه سيدخلها منتصراً بعد المعركة، فعندذاك، تأكد السلطان، بأن لا مجال للصلح، مع العدوّ، فأعلن بين جنوده، بأن الاسلام في خطر، وأنه لا سبيل، الى إنقاذه من هذا الخطر، إلاّ بقهر البيزنطيين؛ والاستماتة في القتال. وكلّف الفقيه: أبا نصر محمد بن عبد الملك البخاري، بمخاطبة الجنود، وتلاوة الآيات القرآنية عليهم، والأحاديث النبوية، المناسبة، من أجل تثبيتهم، وتقوية معنوياتهم، مما طبع هذه الحرب بالطابع الديني، وجعلها جهاداً في سبيل الله؛ وفي يوم الجمعة من العشر الاوائل من رمضان ٤٦٤ هـ - ١٩ آب - ١٠٧١ م، تقدّم الجيش الاسلامي نحو مدينة ملاذكرد، وهناك اصطدم بجيش البيزنطيين، في معركة حامية الوطيس، بعد أن كان السلطان، قسم جيشه، الى أربع فرق، كل فرقة، أقامها في نقطة لا تبرحها، لتكون عند اللزوم، وراء جند العدوّ، وعند الصدمة، تراجعت إحدى فرق جيش السلطان، موهمة العدوّ بأنها تنسحب من المعركة، لعدم استطاعتها الثبات في مراكزها. فأسرع قسم من جيشه وراءها للقضاء عليها، فأخذته الفرق الأخرى من خلفه ومن أمامه، وما عتم قائد كتيبة التركمان الموجودين في الجيش البيزنطي أن انضم الى الجيش السلجوقي، مع مقاتليه، تاركاً مكانه فارغاً في الجيش الأول، بحيث أدّى ذلك، الى تراخي النورمان، وقائدهم: روسّيل دي بايّول، في القتال: وانسحابهم بالتالي من المعركة. وعندها، نفذ المسلمون، وسط صفوف أعدائهم؛ وأمعنوا فيهم قتلاً، حتى فرشوا ساحة القتال بجثثهم، وبدأت الهزيمة تحيق بجيش البيزنطيين، بعد أن أخذ منهم الذعر والرعب كل مأخذ. فتشتت شملهم. وولّى القائد البيزنطي: أندرونيك

دوكاس هارباً الى القسطنطينية، وكان على رأس جيش الاحتياط. فتبعه القائد الآخر: نقفور بريان، وغيره من القادة البيزنطيين تاركين الامبراطور وحيداً في المعركة، مع بعض جيشه، يدافع دفاع المستميت عن حياته ومصيره. فلم يجده ذلك شيئاً. وأصيب بجراح إثر سقوط جواده به، ووقع أسيراً بين يدي المسلمين. فتحقق النصر لهؤلاء. وكان ذلك اليوم، يوماً مشهوداً.

واقتيد الامبراطور البيزنطي مع عدد كبير من الاسرى البيزنطيين، الى السلطان ألب أرسلان، وهم يرسفون بالأغلال في ذلّة وانكسار.

ولم ينتقم السلطان من الامبراطور، ولم يقتله، إنما عفا عنه، وأحسن معاملته في الاسر، ثم عقد معه معاهدة لمدة خمسين سنة، كان من أهم بنودها، التزام الامبراطور البيزنطي وتعهده باطلاق جميع اسرى المسلمين في بلاد الروم، وبإرسال المدد من العسكر البيزنطي، الى السلطان في أي وقت يطلبه.

وبعد ذلك أطلق السلطان سراح أسيره الكبير مع طائفة من بطارقة الروم والاسرى، وأعطاه عشرة آلاف دينار، يتجهز بها الى بلاده، وبعض الهدايا، وأرفقه بفرقة من عسكر المسلمين لحراسته في عودته الى بلاده.

ولكن لم يسمح القدر للامبراطور رومانوس، برؤية عاصمته مرة ثانية، إذ أنه حين وصوله الى الأرض البيزنطية، علم باستيلاء ميشال السابع دوكاس، على عرش بيزنطة، مكانه، فلم يحفل بذلك، وتابع السير نحو القسطنطينية، فالتقاه جيش الامبراطور الجديد، بالقرب من أماسيا، وهزمه، وقبض عليه قائد ذلك الجيش، وتعرّض للعذاب، بعد أن سملت عيناه، فمات مقهوراً. هذا، وبدلاً من أن يستغلّ السلطان ألب أرسلان، فرصة النصر التي أتيحت له في هذه المعركة الحاسمة،

لاجتياح آسيا الصغرى، المجرّدة من القوى البيزنطية، أو مهاجمة الرها أو انطاكية، اضطرّ الى وقف زحفه المؤيّد، والتوجّه الى تركستان، للنظر في أمر بعض امرائها، الذين حاولوا التمرّد، والوثوب عليه، فعبر نهر جيحون (٤٦٥ هـ) وهاجم إحدى القلاع الثائرة، هناك، واستولى عليها، وقبض على قائدها: يوسف الخوارزمي - الذي هاجم السلطان، على غفلة منه، وطعنه بخنجر، كان يخفيه في ساقه، طعنة قاتلة، أودت بحياته، بعد أربعة أيام.

لقد كرّست معركة ملاذكرد، بنتائجها، امتلاك السلاجقة لأرمينيا نهائياً، وكانت نقطة تحول، في التاريخ الاسلامي بصفة عامة، وفي تاريخ غربي آسيا بصفة خاصة، إذ أدّى نصر المسلمين فيها، الى قيام حالة جديدة فيما بعد، ويسّر القضاء، على نفوذ الروم في آسيا الصغرى بكاملها.

بعد مقتل السلطان ألب أرسلان، ولي السلطنة، إبنه ملكشاه، ولم يكد هذا الأخير، يجلس على عرشه في نيسابور، ويصدر التفويض له بالسلطنة من الخليفة العباسي في بغداد، حتى كان عليه، ان يقمع فتنة أشعلها عمّه قاورت، الذي أعلن بأنه أحق بالسلطنة من إبن أخيه، وراح يهاجم بعض الاقاليم ويستولي عليها، وهو في طريقه الى الريّ، فتصدّى له ملكشاه، على مقربة من همذان، وهزمه في المعركة، وأخذه أسيراً وضرب عنقه.

وبعد استتباب الأمر لملكشاه، ولىّ أخاه: تاج الدولة، تُتُش، على الشام (٤٦٨ هـ). وكان الأمير أتسز بن أوق، قد ملك دمشق، في هذه السنة نفسها. وقطع الخطبة الفاطمية منها، وأقام الخطبة العباسية مكانها[١].

---

(١) أبو الفداء: المختصر في اخبار البشر: ج(٤) ص - (١٠١) مجلد (١).

ولما دخل تتش مدينة دمشق في سنة (٤٧١ هـ)، قتل الأمير أتسز، الذي كان استنجد به ضد الجيش الفاطمي، المحاصر لدمشق وقتذاك[١].

وكـذلـك عين السلطـان ملكشاه، الامـير سلـيمان بن قتلمش بن اسرائيل، حاكماً على آسيا الصغرى، فانتزع سليمان، الجزء الشمالي الغربي منها، من أيدي الروم، واتخذ مدينة نيقيا، مقرّاً له، (٤٧٤ هـ - ١٠٨١ م).

ولم يلبث سليمان بن قتلمش، أن سوّلت له نفسه، فتح مدينة انطاكية، وهي من بلاد الشام، ولكنها غدت منذ عام (٣٥٩ هـ - ٩٦٩ م) تحت حكم الروم؛ فحالفه التوفيق، وسقطت المدينة الكبرى بيده (١٠ شعبان ٤٧٧ هـ - ١٠٨٤ م) مما أدّى الى خلافِهِ مع تتش أمير الشام. فقتله هذا، بمعركة جرت في موضع يقال له: عين سلم، في ١٨ صفر ٤٧٩ هـ - بالقرب من حلب.

ثم دخل الأمير تتش مدينة حلب وتسلّمها، من إبن الحبيبي، العبّاسي، الذي كاتب السلطان ملكشاه في أمرها، فسار هذا الأخير اليها، من أصفهان، وفي طريقه، مَلَك مدينة حرّان، ثم مدينة الرها (٤٨٠ هـ - ١٠٨٧ م) من الروم، وبعـدهـا قلعـة جعبر (الـدوسريـة)، فمنبج، وحين اقترابه من حلب، أخلاها تتش، ورحل الى دمشق، فدخلها ملكشاه، وقرّر أمرها.

وقد أقرّ السلطان حكم أبناء سليمان بن قتلمش، على بلاد الروم، ومن ثم توجّه الى بغداد، حيث عمد الى تعيين الأمير قسيم الدولة أقسنقر والياً على حلب (٤٨٠ هـ).

وفي عام ٤٨٢ هـ، مضى السلطان ملكشاه، الى بلاد ما وراء النهر،

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص: ١١٢ - حوادث ٤٧١.

وعبر نهر جيحون، الى بخارى، فملكها، ثم الى سمرقند، فأخذها، وأسر صاحبها أحمد خان، ومنها الى كاشغر، فخضع واليها لسلطته؛ وبعدها عاد السلطان الى خراسان، حيث ما لبث أن مضى الى أصبهان.

وبعد مصرع سليمان بن قتلمش، قام إبنه، قِلج أرسلان، باحتلال إزمير، على بحر إيجه، وكان الدنشمنديون، قد أسّسوا إمارة حول قيصرية، وسيواس وأماسيا، مستقلة عن إمارة سلاجقة الروم، في شمالي، شرقي آسيا الصغرى، وأصبحت الامارتان، متنافستين -.

وحينما توفي ملكشاه في بغـــداد (منتصـــف شوال ٤٨٥ هـ - ١٠٩٢ م) كانت حدود دولته، تمتدّ من بحيرة خوارزم شمالاً، حتى اليمن جنوباً، ومن الصين شرقاً الى سواحل البحر الأبيض المتوسط غرباً.

وقد خلّف ملكشاه أربعة بنين هم: بركياروق ومحمد وسنجر ومحمود، وانقسم السلاجقة بعد وفاته الى عدة معسكرات، تبعاً للحروب التي نشبت بين ابنائه.

وقد بدأت الحرب في البدء بين بركياروق ومحمود، ثم بين بركياروق وعمّه تتش، وبعد موت محمود ومقتل تتش، نهض محمد مع شقيقه سنجر لمناوأة بركياروق، وطال النزاع بينهم، من سنة: ٤٩٢ هـ الى ٤٩٧، قبل أن يتصالحوا، ويقرروا اقتسام المملكة، بينهم، بحيث تخضع المناطق الشمالية لمحمد، من النهر المعروف، بأسبيذه رود، الى باب الأبواب، وديار بكر، والجزيرة والموصل والشام والحلّة وما اليها؛ بينما تبقى لباركياروق، الأقاليم الجنوبية، أي الريّ والجبل وطبرستان، وخوزستان، وفارس والحرمان الشريفان والبطائح والبصرة وتكريت، على ان يحمل كل منهما لقب السلطنة. اما سنجر فيحكم خراسان وما جاورها. وقد ابتليت الدولة السلجوقية، بالاضافة الى الحروب الداخلية فيها بفتنة أشدّ وأدهى، أشعلت نيرانها باستمرار فرقة الاسماعيلية (الباطنية)، التي

اشتدت شوكتها، وعظم أمرها، بعد اقدامها على قتل الوزير الكبير، نظام الملك، فقويت أطماعها، واستطاعت الاستيلاء على قلعة أصبهان، وهي إحدى القلاع الحصينة التي بناها السلطان ملكشاه (٤٨٨ هـ)، وذلك بعدما كان رئيس تلك الفرقة، حسن الصبّاح، قد أخذ قلعة: (ألَموْت)، وتحصّن بها، في نواحي قزوين.

وصار الاسماعيلية يتهدّدون بالقتل كل من لا يوافقهم، على معتقدهم، فهابهم الناس، بعد أن قتلوا جماعة من أكابر الامراء.

وقد أذن السلطان بركياروق بقتالهم والفتك بهم، أسوة بأخيه السلطان محمد، ولكن عجز السلاجقة عن اقتلاع شأفتهم والقضاء عليهم نهائياً، جعلهم يكثرون من خرق النظام، بالقتل والسلب والنهب، وبقوا كذلك حتى مجيء الصليبيين الى الشرق.

وكان قبل وفاة ملكشاه، قد اعتلى عرش بيزنطة، الامبراطور ألِكسيس كومنينْ الأول (١٠٨١ م - ٤٧٤ هـ)، فعمل جاهداً ضد السلاجقة، ولكنه لم يقدر على إيقافهم عند حدودهم، فاحتلّوا قونية ونيقية وإزمير، واقتربوا من عاصمته، القسطنطينية، فتعالت صرخاته، وطلب النجدة من البابا أوربان الثاني، درءاً للخطر الذي أخذ يتهدّد العاصمة البيزنطية وبالتالي أوروبا.

وسنرى أن الدور الذي لعبه هذا الامبراطور البيزنطي، أثناء الحملة الأوروبية الصليبية الأولى الى الشرق، كان مهماً جداً، إذ أنه ساعد تلك الحملة، مساعدة فعّالة. وكان موفّقاً في استعادته لأكثر الممتلكات التي فقدها البيزنطيون، على أيدي السلاجقة، في آسيا الصغرى.

الفصل السابع

أوروبا الغربية قبيل الحروب الصليبية

منذ سقوط الامبراطورية الغربية في القرن الخامس الميلادي، والعالم الروماني لا يعرف إلاّ امبراطوريةً واحدة، هي امبراطورية بيزنطة، التي كان إمبراطورها يتمتع بسيادة إسمية على الغرب، بوصفه وريث الاباطرة الرومان.

ولكن بعد إعلان شارلمان، أو شارل العظيم، إمبراطوراً، في العام (٨٠٠ م) وتتويجه بيد البابا ليو الثالث؛ فقدت الامبراطورية البيزنطية، كل سيطرة تدّعيها على البابوية، او العالم الغربي، وأصبح شارلمان، هو رأس الكنيسة والدولة معاً، بحيث جمع في قبضته القوية، زمام السلطتين: الدينية والزمنية في آن، ولما توفي (٨١٤ م) كانت الامبراطورية التي أسّسها، واسعة الارجاء، تمتدّ من هنغاريا، الى المحيط الأطلسي، ومن نهر الأودرة (Oder) في بولونيا الى نهر الأيبرو في إسبانيا (Ebre)، ومن بحر البلطيك، الى البحر الأبيض المتوسط، على أن هذه الامبراطورية، بدأت تضعف، بعد وفاة شارلمان، شيئاً فشيئاً، بسبب الخلافات التي نشأت فيما بعد، بين أحفاده الثلاثة: لوتر، ولويس الجرماني، وشارل الأصلع، أولاد لويس التقي، مما أدّى الى تقسيم ممتلكاتها فيما بين هؤلاء الأخوة، بمقتضى اتفاقية ڤردون الشهيرة (٨٤٣ م). التي كان من نتيجتها أن أخذ شارل الأصلع: نستريا والأكويتين والماركية الاسبانية، على الحدود الجنوبية (فرنسا). ونال

لويس الجرماني، الجزء الواقع شرقي الراين، من أوستراسيا، وباڤاريا، وسوابيا وسكسونيا (ألمانيا).

في حين كان من نصيب لوثر، الجزء الأوسط بين المملكتين السابقتين، أي فريزلاند (الأراضي المنخفضة)، والجزء الباقي من أوستراسيا، غربي الراين (اللورين)، إضافة الى بورغونيا وبروڤانسا وإيطاليا.

ثم بعد وفاة لوثر، قسمت مملكته بين أبنائه (٨٥٥ م) وتوزّعت الى مملكة إيطاليا، فيما وراء جبال الألب، ومملكة بروڤنسا وبورغونيا في ناحية السون (Saone) والرون (Rhone). ومملكة اللّورين، على الشاطىء الشمالي لنهر الراين.

وكان من أثر تلك التقسيمات، أن انفصلت فرنسا عن ألمانيا نهائياً.

وقد تُنوزع لقب الامبراطور لمدة طويلة بين الملوك المتنافسين، ثم أُعطي فيما بعد، الى السكسوني: أوتون الأول الكبير، ملك المانيا وإيطاليا، الذي أسّس الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدّسة (٩٦٢ م)، وجرى تتويجه بيد البابا يوحنّا الثاني عشر.

وبحلول سنة (٩٨٧ م) انتُخب هوج كابيت ملكاً على فرنسا، فبدأت بذلك، سلالة جديدة فيها، على أنقاض سلالة الكارولنجيين الزائلة.

وكانت أوروبا في ذلك الحين، مرتعاً خصيباً للفوضى والفساد والاضطرابات. وبؤرة للأمراض والأوبئة، فافتقرت وعمّها القحط والجوع. خصوصاً وان فنّ الزراعة كان لا يزال وقتذاك بدائياً، وكانت الطرق والمسالك نادرة ووعرة، ممّا أتاح في المجال. لتأليف العصابات الكثيرة من قطّاع الطرق. الذين كان ديدنهم، شنّ الغارات على الفلاّحين، ومهاجمة الكنائس والأديرة، للنهب والسلب.

وفوق ذلك، قُدّر لأوروبا، في القرن العاشر الميلادي، أن تتعرّض الى غزوات من بعض الشعوب، كانت أهمّها، الغزوات النورمانية والهنغارية؛ ذلك أن القراصنة النورمان، اجتاحوا فرنسا، وتمكنوا من تأسيس دوقية نورمنديا في سنة (٩١١ م)، ثم قام غليوم دوق نورمنديا، باجتياح انكلترا وتملّكها (١٠٦٦ م).

أما الفرسان الهنغاريون، فانهم بعد أن اجتاحوا المانيا وشرقي فرنسا، ألقي بهم الى وسط أوروبا (٩٥٥ م).

وكان أن أخذ نظام الاقطاع السياسي والاجتماعي يستقرّ شيئاً فشيئاً في فرنسا، ثم انتقل منها الى انكلترا وألمانيا وإسبانيا، بحيث بلغ ذروة اكتماله في القرن الحادي عشر الميلادي.

فالنظام الاقطاعي يتميز عن النظام القديم، بأنه يتعارض مع مفهوم فكرة الدولة والملكية، ويلغيها، ليؤلف عالماً متكامل التسلسل، إذ أن الدولة، أو السلطة العامّة هنا، تبدو مجزّأة، إلى أجزاء متناهية، فهناك منصب الدوق، وهو الأول بين الاسياد، بعد الملك، ثم يأتي المركيز، فالكونت، فالفيكونت، فالبارون. وكلمة بارون (Baron) لها أيضاً معنى شامل. وأخيراً سيّد القصر. (والقصر هو رمز الاقطاعة).

فالنظام الاقطاعي، يعني إذاً، ان كل الأشخاص يرأس ويتبع بعضهم بعضاً، في الحياة السياسية والاجتماعية، وكأنهم يؤلفون ما يشبّه بالهَرَم أو بقضبان السلّم. وهكذا، فإن الفلاحين وسكان المدن، يبقون خاضعين لسيّد. وهذا السيّد، يكون بدوره تابعاً لسيّد أقوى منه، كالكونت أو الدوق، كما أن كلاً من هذين، هو تابع للملك.

وإن لكل من التابع والمولى، حقوقاً وواجبات تجاه بعضهما، تُقرّر بموجب عقود خطية.

أما الملكية العقارية فليس لها كيان، ولئن كانت الأرض هي مصدر الثراء والغنى؛ على اعتبار أن الملاّكين الكبار، يعجزون عن حِفظها واستغلالها بأنفسهم، بحيث يتوزعونها مع آخرين، نظراً لفقدان الأيدي العاملة، الناتج على الأكثر، عن عدم كفاية تداول النقد في القرون الوسطى، مما أدّى الى ظهور نظام الحِكر؛ أي أن قسماً كبيراً من الحقول المعدّة للزراعة، كان يُقسّم الى حِصَص، تُوزّع دوماً بين الفلاّحين أو الأقنان الذين يقومون بالعمل فيها لمصلحتهم، مقابل دفعهم الأتاوة أو إجرة الحِكر للسيّد، بالإضافة الى تقديم أعمال السُخرة، لاستغلال ما يبقيه هذا الأخير لنفسه، من أراض للحراثة، وهو المسمّى: بالحصة المدّخرة؛ والواقع ان النظام الاقطاعي، يمكن أن يعبّر عنه، بأنه نظام القوّة الغاشمة، والتفاوت بين الطبقات، التي تتغيّر مراتبها على الدوام، فالناس ليسوا بأحرار، إنما تربطهم ببعضهم، سلسلة من العقود، تفرض عليهم، واجبات مختلفة، أشدّها ثِقلاً، ما يلقى على فئة العمّال، الذين هم في أغلبهم، غير مالكين لحريّتهم الشخصيّة؛ فلا يحق لهم ترك الأرض التي رأوا عليها النور، كالأقنان مثلاً.

أما فئة النبلاء أو الأسياد، فقد كانت وراثية، وهي الفئة الغنية التي تملك الاقطاعات وتتوارثها كابراً عن كابر، بحيث أصبحت، على مَرّ الزمان، تؤلف طبقة مُغلقة ومتعجرفة، تحتقر كل من لم يكن يَمُتّ الى النُبل بصلة أوْلا يمتهن مهنة السلاح.

فالنبيل، سواء أنال الاقطاعة بالهبة أم بالإرث، لا يصبح صاحب تلك الاقطاعة بصورة شرعية، إلاّ بعد تقديم الولاء الى مولاه، وحَلف يمين الاخلاص له. وعندئذٍ يرتبط الاثنان، التابع والمولى، برباط الاقطاع. فإذا اقترف التابع جرم الخيانة بحق مولاه، وحَنَث بيمينه، فيحق لهذا الأخير مصادرة إقطاعته منه.

وعلى هذا، فإن الواجبات التي يتحتم على التابع والمولى، القيام بها تتلخص كما يلي:

أولاً - لجهة التابع:

يجب على التابع تقديم المعونة والمشورة الى مولاه، حسب شروط العقد الذي يربط بينهما:

١ - فالمعونة لها غايتان: عسكرية ومالية.

فالعسكرية هي التي تتعلّق بالخدمة العسكرية، أي اشتراك التابع بالحرب مع المولى، ومواكبته كلما دعاه الى ذلك، دون تحديد في المدة، وأغلب الأحيان، لا تتوجب عليه هذه الخدمة إلاّ لمدة أربعين يوماً في السنة. فإذا انتهت المدة فللتابع الانسحاب والعودة الى منزله، مهما تكن الظروف الحربية.

أما المالية، فهي كناية عن ضريبة تستحق للمولى في بعض الحالات، وفقاً للأعراف الجارية، وأشهرها، معونة الحالات الأربع، وهي التي يدفعها التابع، لفدية مولاه عند وقوعه في الأسر، وعند زواج إبنة هذا الأخير البكر، وعند تكريس إبنه البكر فارساً، وعند ذهابه الى الحرب الصليبية.

يضاف الى ذلك، أن على التابع، استضافة مولاه كلما زاره (حق المأوى)، ودفع الأتاوات المختلفة عن إقطاعته (حق البيع وحق الارث).

٢ - والمشورة تعني أن على التابع، التردّد الى مجلس مولاه، إما لمساعدته في مهامه القضائية، وإما لإعطاء رأيه في الحالات والمسائل التي تتطلّب اتخاذ إجراءات هامة، وإما لمشاركته في الاحتفالات الكبيرة.

ثانياً - لجهة المولى:

بالمقابل، على المولى توفير الحماية والعدالة لتابعه، والدفاع عنه ضد

اعدائه، وتركه متمتعاً باقطاعته كما يجب.

وتجدر الملاحظة الى أنه بامكان الشخص أن يكون تابعاً لأكثر من مولى واحد، وذلك، تِبعاً لتعدّد الاقطاعات الواقعة في نواح خاضعة لسلطة اسياد مختلفين. وفي هذه الحالة، يتعذّر عليه القيام بكافة واجباته التابعية في وقت واحد. كما لو أن إثنين من أسياده، تحاربا، فلا يستطيع تقديم المعونة لهما، معاً، لذلك فإن الاعراف تقضي بأن يقدّم عندئذٍ ولاءه للسيد الذي حلف له يمين الولاء، إذ لا يحلف إلاّ لسيّد واحد.

وهذا ما يسمّونه، بشدّة الاخلاص: (Hommage – lige). وكذلك فإن بإمكان أحد التابعين أن يكون سيّداً لتابع آخر أقطعه أرضاً.

الفلاحون: إن الفلاّحين، سواء أكانوا أحراراً أم أقناناً، فلا علاقة لهم بالتابعية، إذ مهما كانت صفة سيّدهم، تابعاً أم مولى، فإن أحوالهم هي هي، وتبقى مرتبطة بنظامهم الإجتماعي.

على أن الفلاحين، كانوا يؤلّفون الطبقة الأكثر عدداً، فهم طبقة الشعب. ويسمّونهم: (Vilains) أي حراث الحقل أو القيلاّ، وكانوا معتبرين، بنظر النبلاء، كأشخاص أدنى درجة، بحيث كانوا عرضة للاحتقار، من قبل هؤلاء الأخيرين، فيقولون عنهم (إن لهم شعراً قاسياً، ومُخّاً غبياً لا يدخله أيّ خير).

فأما الفلاحون الأحرار، فهم ولئن كانوا يتمتعون بحرية التنقل والزواج وتوريث أولادهم كما يشاؤون. إلاّ أن أحوالهم الاجتماعية تبقى خاضعة للحقوق التي تعود للسيّد،

وأما الفلاّحون الأقنان، فهم عبيد الأرض التي يزرعونها، فليس لهم تركها الا بموافقة السيّد، فإن هربوا كان لهذا الأخير، الحق بتتبّعهم ومطاردتهم للقبض عليهم في أيّ مكان، وحيثما وجدوا؛ ومن ثُمّ إعادتهم

بالقوة الى أرضه. وإن رغب أحد الأقنان بالزواج. كان عليه الحصول على إجازة السيّد، فإذا كانت الزوجة حرّة أو مقيمة خارج الاقطاعة، فيجب عليه دفع ضريبة تسمّى: ضريبة زواج الغربة: **(Formariage)**.

وليس للأقنان نقل ملكية ما يملكونه الى أولادهم، دون أن يدفعوا للسيد ضريبة تسمّى ضريبة الوقف **(Mainmorte)** فإن لم يكن لهم أولاد أو كان أولادهم غير مقيمين معهم، فللسيّد أن يرثهم.

هذا وإن القَنّ، كان يُباع ويُرهن ويوهب مع الأرض التي يعيش عليها. واذا كانت تلك الارض تعود الى عدة ملاّكين، فلهؤلاء ان يتقاسموا أولاده.

ويخضع الفلاّحون لواجبات أخرى تجاه السيّد الذي يتمتع بحقوق متعدّدة، تختلف باختلاف الاقطاعات، وأهمها:

١ - تقاضي ضريبة إقطاعية من الفلاحين، اجرة عن الأرض التي يستغلونّها، غير قابلة للتغيير (أكّارة - Cens) إضافة الى أتاوات تدفع له عيناً، أي أنها تمثّل جزءاً من محاصيلهم السنوية، وماشيتهم، ودواجنهم.

٢ - تقاضي ضريبة نقدية معلومة القدر وغير قابلة للتغيير، فيا يتعلّق بالفلاحين الأحرار (Taille).

أما الأقنان فهم ملزمون بدفع هذه الضريبة حسب تقدير السيّد ووفق مشيئته وتحت رحمته **(Taillables á merci)**.

٣ - خضوع الفلاّحين لأعمال السُخرة أو خدمات الجسد: **(Corvée)**. مثلاً عليهم أن يحرثوا ويزرعوا أرض السيّد المدّخرة **(Réserve)** التي يحتفظ بها، لمنفعته، ويحصدوا حقوله، وينقلوا منتوجه من النبيذ بالعربة، وينظفوا خنادق قصره، فضلاً عن قيامهم بالخدمة

العسكرية وخاصة العسَس (Guet)من أعلى البرج؛ (الأقنان هم تحت رحمة السيّد، هنا (Corvéables á merci).

٤ - هناك أيضاً بعض الامتيازات الالزامية، التي يتمتّع بها السيّد وتدعى: (Banalités). وهي التي تقع على عاتق الفلاحين، ويقومون بها مُكرَهين؛ بمعنى أنهم لا يجوز لهم الحصد والبيع والشراء، إلاّ باذن السيّد، وبعد أن يكون قد باع هو، غلّته ومحصوله، أو اشترى مؤونته، وفوق ذلك، يمتنع على الفلاحين طحن قمحهم أو عصر عنبهم أو خبز خبزهم إلاّ في مطحنة السيّد ومعصرته، وفرنه. كل ذلك لقاء دفع إجرة الأتاوة المفروضة.

٥ - على الفلاحين أيضاً واجب استضافة السيّد مع حاشيته عندما يريد ذلك (حق المأوى).

وبينما كان الأسياد يقيمون في قصورهم المحصّنة، ويحاربون بعضهم بعضاً، بصورة متواصلة، لتوسيع إقطاعاتهم، أو يقطعون الطرق لسلب المسافرين والتجار الذين يجتازون أراضيهم وفرض الجزية عليهم، أو يلهون بالصيد وإقامة المآدب والولائم والأعياد. ويعيشون عيشة البذخ في أيام السلم: كان الفلاّحون ينوءون بأحمالهم الثقيلة. وينامون في أكواخهم الوضيعة مع حيواناتهم. محرومين من كل شيء، بسبب وضعهم السيء، مما كان يؤدي الى تفشيّ المجاعات بينهم والأمراض. ويعرّضهم الى القتل من قِبل العصابات الكثيرة التي كانت تنتشر في أنحاء البلاد. والتي كان ديدنها قتل الناس وسلبهم وترويعهم دون أن يردعها رادع. وهذا ما كان يحمل أحياناً بعض الفلاّحين المساكين على التمرّد على أسيادهم القساة القلوب، فيقدمون على إحراق قصورهم أو

قتلهم، ولكن كل مرة كانوا يتمردون فيها، كانت حركاتهم تُقمع بشدّة وبدون رحمة، يقول الراهب راوول كلابر، عندما يصف إحدى المجاعات في سنة/١٠٣٣/ (وكان يعيش في القرن الحادي عشر):

(بعد أن حلّ الجوع وانقطع دابر الحيوانات والطيور، صار الناس يأكلون لحوم بعضهم، فكان الأقوياء، حينما يلقون الأشخاص الضعفاء على الطريق، يمسكون بهم، ويذبحونهم ويشوون لحومهم ويأكلونهم، حتى أخذ أكثر الناس ينصبون فخاخاً للأولاد الصغار، ليتمكنوا من إمساكهم وأكلهم. وقد حمل الجوع بعضهم الى نبش القبور وإخراج جثث الموتى لأكلها. وهناك شخص حاول أن يبيع اللحم البشري مشوياً في سوق تورنوس، فقُبض عليه وأُحرِق حيّاً، بعدما اعترف بجرمه. وعند هبوط الليل، عمد شخص آخر الى نبش جثة البائع المذكور وأكلها، فقبض عليه أيضاً وأُحرق[1]).

---

(1) A. Mallet et J. Isaac: Le moyen Age, jusqu'á la Guerre de cent - ans. 235.

الجزء الثاني

البابا أوربان الثاني

الفصل الأول

فكرة الحرب الصليبية

بعد انتخاب أوربان الثاني، لسدّة البابوية، في ١٢ آذار سنة ١٠٨٨ م لم يقم طويلاً في روما، بسبب احتلال قوات البابا الامبراطوري، كليمانت الثالث، أو البابا الزائف (Antipape) كما يسمّونه؛ لقلعتها: سانت - آنج (Saint - Ange)، فاتجه الى جنوب إيطاليا حيث قضى السنوات الأولى من عهده، بحماية روجر الأول النورماني. ثم عاد البابا الى روما في أواخر سنة ١٠٩٣ م، على إثر الحوادث التي جرت بين الامبراطور هنري الرابع، وإبنه الثائر عليه: كونراد، ملك إيطاليا. ومن ثم راح البابا يجوب البلاد ويعقد المجامع الدينية، بقصد تقوية سلطته الكنسية، ذلك ان سلطة الكنيسة كانت قد آلت الى الضعف، بسبب تردّي بعض من رجالها، في حمأة الضلال، ففقدت النصيب الاوفى من استقلالها، مما أغرى الملوك والأمراء الكبار، بالتصرّف على هواهم بالمراكز الدينية الكبيرة، بحيث أضحى الكرسي البابوي نفسه، سلعة تعرض للبيع والشراء، والأمثلة على ذلك كثيرة منها: أن الكونت دي توسكولوم، اشترى التاج البابوي لولده الصغير، البالغ من العمر، اثني عشر عاماً في سنة ١٠٣٣ م.

كما ان هنري الثالث، إمبراطور المانيا، أقدم على عزل ثلاثة باباوات متخاصمين، وأجلس على العرش البابوي، أسقفاً المانياً في عام ١٠٤٦ م.

هذا فضلاً عن أن كثيراً من رجال الكهنوت الكبار، لم يكونوا

ليتورّعوا، عند احتياجهم للمال، عن بيع الصلوات والأدعية للناس، خلافاً لأوامر الكنيسة الناهية عن هذه الأعمال. وهذا ما حدا بفئة من رجال الدين الغيورين، المخلصين، لِوضع حدّ لهذا الفساد (ومن جملتهم، رهبان دير كلوني في بورغونيا) الاّ أن المساعي التي بذلت في هذا السبيل، لم تأتِ، بالنتائج المتوخّاة حينذاك.

ولذا فقد أخذ البابا نقولا الثاني، على عاتقه فيما بعد، إعادة استقلال البابوية، فأصدر في عام (١٠٥٩ م) مرسوماً منع بموجبه، على أي كان، من غير رجال الدين، التدخل في شؤون الكنيسة، وتعيين البابا.

كذلك عمد البابا غريغوار السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥ م) من جهته، الى تدعيم مركزه، فقرّر أن كل سلطة دينية، يجب أن تُستمّد منه، بصفته وريث جميع الامتيازات التي تركها القديس بطرس. فلقي معارضة شديدة، من ملوك أوروبا، وخصوصاً، من إمبراطور ألمانيا: هنري الرابع، الذي أقدم آنذاك، نكاية بالبابا، على تعيين ثلاثة، مطارنة في إيطاليا، من أخصّائه، رافضاً إنذار البابا غريغوار السابع بهذا الشأن.

وقد اشتد الخلاف بين الامبراطور هنري الرابع والبابا غريغوار السابع، بعد إعلان اولئك المطارنة المعيّنين، عدم صحة انتخاب البابا المذكور، الى درجة ان هذا الأخير، قرّر حرمان الامبراطور وعزله، والتوجّه الى ألمانيا لمحاكمته، وقبل وصول البابا الى ألمانيا، شعر الامبراطور بتخلّي نبلاء المانيا ودوقاتها عن تأييده، وانضمامهم الى رأي البابا، فاستهاب الموقف، وقام في شهر كانون الثاني سنة ١٠٧٧ م، باختراق جبال الألب، وبرفقته زوجته، وإبنه الصغير، قاصداً إيطاليا، ليطلب الغفران من البابا. ولما علم هذا الأخير بسير الامبراطور، انتظره في قلعة، (كانوسّا) الواقعة، في مرتفعات (الأبنّيان) في توسكانيا،

وفور وصول هنري الرابع الى تلك القلعة، طلب مقابلة البابا، فلم يستجب طلبه، إلاّ بعد ثلاثة أيام، من الانتظار أمام الباب في الخارج.

وقد وصف البابا غريغوار السابع هذا اللقاء، بكتاب أرسله الى أمراء المانيا قال فيه: [إن الامبراطور، وصل مع حاشية صغيرة، الى قلعة كانوسّا، حيث كنا متوقفين. وهناك ظل ثلاثة أيام، منتظراً أمام الباب، كشقيّ عاري القدمين لا يلبس سوى قميص من صوف، ولم يزل يتضرع إلينا، وهو يبكي، بأن نمنحه المعونة والرحمة الرسولية، لدرجة ان كل الحضور اخذتهم الشفقة عليه، وعمدوا الى التوسط معنا، للعفو عنه، فعفونا عنه، تحت شروط[1]].

على أن الامبراطور هنري الرابع، لم يغفر للبابا هذه الاهانة، التي عرّضه لها: فعاد الى ألمانيا، ليسحق أخصامه، ويعيّن الاساقفة التابعين له، كما يشاء، فما كان من البابا غريغوار السابع، الا أن يكرّر حرمانه، فيردّ عليه الامبراطور، بدعوة الاساقفة المنحازين له، ليعقدوا مجمعاً ويقرروا فيه عزل البابا غريغوار السابع بعد أن انتخبوا أسقفاً آخر للبابوية هو: غيبرت، رئيس أساقفة رافنا، الذي اتخذ اسم كليمانت الثالث.

ومن ثم سار الامبراطور الى روما، فاحتلّها، ما عدا الجزء الواقعة فيه، قلعة سانت آنج، حيث استقرّ البابا لائذاً. وبناء لطلب غريغوار السابع، سارع روبير غيسكار النورماني، الى روما فهاجمها، وانتزعها من يد الامبراطور هنري الرابع، وخلّص البابا من الحصار. فالتجأ هذا الأخير، بعد ذلك، الى سالرنو، حيث وافته المنون في ٢٥ ايار سنة ١٠٨٥ م. وهكذا فبعد ان تجوّل البابا، أوربان الثاني في إيطاليا، وعقد

---

(1) A. Mallet et J – Isaac; le moyen – âge. jusqu'á – la guerre de cent – ans. P. P. 281 – 282.

بعض المجامع الدينية، كما أشرنا إليه آنفاً، وصل الى مدينة، بليزانسيا (أول آذار ١٠٩٥ م)، فعقد فيها مجمعاً دينياً، من أجل التداول في شؤون الكنيسة، والاصلاحات المنوي اتخاذها في هذا السبيل.

وفي تلك المدينة، استقبل البابا أوربان الثاني، مبعوثي الامبراطور البيزنطي: ألِكْسيس كومنين، الذين جاؤا الى هناك، ليطلبوا منه، باسم سيّدهم، المعونة العسكرية، ضد الاتراك السلاجقة، جيرانهم الخطرين.

فاهتم البابا، لما عرض له، الوفد البيزنطي، على صعيد الحالة السياسية والعسكرية، في بلاد الروم، ووعده خيراً.

ومنذ ذلك الحين، بدأت فكرة الحرب الصليبية، بمفهومها الديني، وبأبعادها السياسية والعسكرية والاجتماعية، والاقتصادية، تختمر في ذهن البابا، علماً بأن طلب وفد الامبراطور البيزنطي، كان يقتصر فقط، على تجهيز حملة عسكرية، من فرسان أوروبا الغربية، للانخراط في خدمة الامبراطور، ألكسيس كومنين، بصفة جنود مرتزقة، كما درجت العادة في ذلك العصر، ولم يطلب الوفد، غير ذلك.

وعلى هذا، عزم البابا، على الانتقال الى فرنسا، لدرس الحالة فيها، والتأكد، ممّا اذا كان يمكن تحقيق فكرته، التي أخذت تراوده، بهذا الشأن، وهي: العمل على تجهيز حملات عسكرية أوروبية، وإرسالها الى الشرق الاسلامي، لتخليص القدس من أيدي المسلمين، الذين يسيئون معاملة المسيحيين، الوافدين باستمرار لزيارتها والحجّ إليها -.

وعند انتهاء مجمع بليزانسيا، في السابع من آذار سنة: ١٠٩٥ م، ترك البابا هذه المدينة، متّجهاً الى فرنسا، فمرّ بميلانو وأستي، حتى اجتاز جبال الألب، عن طريق جبل جنفر (Genèvre)، عبر بافي وتورين وممر سوز (Col de Suze) وبريانسون وغرينوبل. ثم انحرف نحو ڤالنسيا، حيث دشّن كاتدرائية جديدة، ومنها الى بوي (Puy) بعد أن

اجتاز الرون وجبال الڤيڤاري (Vivarais). وفي تلك المدينة اجتمع البابا بكاهنها: أديمار دي مونتيل، ومن المفترض، أنه تباحث معه في المسألة التي باتت تشغل باله، وهي فكرة الحرب الصليبية. وأخذ رأيه بشأنها.

ومهما يكن من أمر، فإن البابا أوربان الثاني، وجّه من هناك، الكتب والرسائل، الى جميع الأساقفة ورؤساء الأديرة، في كافة المناطق الفرنسية المؤيّدة له، يدعوهم فيها، الى حضور المجمع، الذي عيّن موعد انعقاده في مدينة (كليرمونت) يوم الأحد، في الثامن عشر، من تشرين الثاني من السنة ذاتها (١٠٩٥ م). ومن ثم رحل البابا عن مدينة (بوي) للتجوّل في بعض المدن الفرنسية، والقيام ببعض الاحتفالات الدينية.

وفي الموعد المعيّن، كان البابا أوربان الثاني، يفتتح في مدينة كليرمونت، أعمال المجمع الديني الذي دعا اليه، بحضور جمع غفير، من رجال الأكليروس الفرنسيين والايطاليين والأسبان، وغيرهم، ممّن انضمّ إليهم من النبلاء والأسياد الكبار.

وبعدما اتخذ المجمع الديني، بعض المقرّرات المتعلّقة بالقضاء الكنسي، وبالعقوبات ضد بعض رجال الدين السيمونيين، بائعي القرابين المقدسة، أصدر قراراً، بحرمان ملك فرنسا، فيليب الأول، لعدم مثوله أمام البابا في المجمع، ولعلاقته الآثمة، بزوجة الكونت دانجو: برتراد دي مونتفورت، التي انتزعها من زوجها، بعد هجره لزوجته: بَرت دي هولاند، وتطليقه لها.

وبانتهاء المجمع من عمله، بعد تسعة أيام من انعقاده، توجّه البابا مع مرافقيه، الى خارج المدينة، حيث ألقى خطاباً في الساحة العامة، بحضور جمهور غفير من الشعب، كان ينتظره هناك، أعلن فيه الحرب الصليبية على المسلمين، وذلك بدعوته المسيحيين الى تخليص بيت المقدس من أيدي أولئك المغتصبين، وقد أورد فوشيه دي شارتر، الذي

كان من بين الحضور وقتذاك بعض فقرات، من خطاب البابا على الصورة الآتية:

[أيها المسيحيون، عليكم بالتمسك في حياتكم، بالشريعة السماوية، وبتعاليم الكنيسة، وعليكم القيام بعمل يرضي الله حق مرضاته، ألا وهو الاندفاع الى نجدة إخوانكم في الدين، المقيمين في الشرق، والذين يضطهدهم الاتراك والعرب، لقد اجتاح المسلمون، بلاد المسيحية بأجمعها، ولذا فإني اهيب بكم، لا بأسمي، بل باسم السيد المسيح، بأن تهبّوا هبّة الرجل الواحد. لنصرة اخوانكم في الدين، وطرد الاعداء من الأماكن المقدّسة].

وجاء على لسان بودري دي تول، أن البابا ذكر في خطابه ما مآله: [لقد آن الأوان لتحوّلوا ضدّ الأعداء، تلك الاسلحة التي اتخذها فريق منكم حتى الآن، لأخذ الثأر من فريق آخر، عن بعض إهانات عابرة؛ فالحرب المقدّسة المعتمدة حاليّاً، ليست هي لأخذ الثأر عن إهانات ضد البشر، بل عن تلك الصادرة ضد الله، وليست هي لاكتساب مدينة واحدة فقط، بل هي أقاليم آسيا بجملتها، مع غناها وخزائنها التي لا تُحصى. فاتخذوا محجة القبر المقدس، وخلّصوا الأراضي المقدسة، من أيدي المختلسين، وأنتم فاملكوها لذواتكم، فهذه الأراضي، كما قالت التوراة، تفيض لبناً وعسلاً].

الى أن قال: [أنتم يا مَن تتقاتلون فيما بينكم، وتضطهدون الايتام وتفتنون الأرامل، وتنتهكون الحرمات، وترتكبون جرائم القتل، فلتتوقفوا عن قتل إخوانكم. والأحرى بكم، أن تنطلقوا صوب بلاد العدوّ، لتقاتلوا في سبيل تخليص بيت المقدس منه]. وقد أشار البابا أوربان الثاني أيضاً في خطابه، الى أن أسباب الحروب الداخلية آنذاك، التي كانت تجتاح الغرب، ناتجة عن الحالة الاقتصادية، على

الأغلب، وان الحرب المقدسة، باتاحتها الفرصة لفئة كبيرة من الفرسان، للابتعاد عن أوروبا، والحصول على أراضٍ وممتلكات جديدة في الشرق، ستكون وسيلة لحلّ أزمة المعيشة.

كما شدّد البابا في خطابه، على أهمية بيت المقدس والقبر المقدّس، ووجوب تخليصهما من المسلمين.

والواقع ان زيارة الأراضي المقدّسة في الشرق، كانت قد أصبحت، في القرن الحادي عشر الميلادي، صعبة التحقيق للحجاج الغربيين، فتعالى صراخهم في أوروبا الغربية وكان لرنّته، صدى قوي لدى البابا والشعب.

فالمسيحيون دأبوا منذ الأيام الأولى لانتشار المسيحية، على زيارة الأراضي المقدسة في فلسطين، واستمروا على ذلك، بعد استيلاء المسلمين على تلك الأراضي.

وقد تسامح العرب الفاتحون مع المسيحيين، ففتحوا أبواب القدس لهم، مُذ دخلها الخليفة الراشدي، عمر بن الخطاب، فكانوا لا ينقطعون عن زيارتها للتبرّك والصلاة، وتوالى على زيارتها، الحجّاج في كل عصور الحكم الاسلامي، يأتون إليها زرافات، ووحداناً، ومن كل حدب وصوب، غير عابئين بالمشاق التي يتجسمونها، في سبيل هدفهم الاسمى، ولا مبالين بالمتاعب والمخاوف التي يتعرّضون لها، أثناء سفرهم بالبّر أو بالبحر، وكيف يرهبون الموت أو يحسبون حساباً للمخاطر. وهم إنما يعتقدون عن إيمان، بأن وجودهم بقرب السيد المسيح، يفتح لهم، أبواب السماء، ويؤدي الى غفران ذنوبهم مهما كانت! أفلا يؤمنون بأنهم إن يموتوا لأجل ربّهم، فإنما يحيون في الجنة؟ فإن أُغلقت المدينة المقدّسة، دونهم، فإنما تغلق عنهم أبواب الآخرة، أجل وكانت عاطفتهم الدينية هي التي تدفع بهم، الى هجران بلدانهم وعيالهم، والتضحية، بكل غال ونفيس،

في سبيل الوصول الى القبر المقدس؛ قبر السيد المسيح، الذي فداهم بنفسه.

وقد حافظ العرب على عهودهم مع المسيحيين. وسهّلوا لهم، الحجّ الى بيت المقدس، فلم يعترضوهم في ممارسة طقوسهم. وهذا هارون الرشيد، الخليفة العبّاسي، وقد بلغ في تسامحه مع المسيحيين حدّاً كبيراً، يأذن لبطريرك القدس، بأن يرسل مفاتيح المدينة المقدسة ومفاتيح قبر السيّد المسيح، الى الامبراطور شارلمان، بصفته زعيم العالم المسيحي آنذاك.

وشجّع تسامح المسلمين، كثيراً من المسيحيين الحجّاج، للمجيء الى فلسطين وهم عزّل من السلاح، كما حدا بفئة كبيرة منهم، للبقاء في القدس، زيادة في التبرّك.

على أن اضطراب الأحوال السياسية، في البلاد الاسلامية، وما أصاب الخلافة العبّاسية من ضعف فيما بعد، واستئثار الحكام المستقلّين، بالسلطة، وإفلات زمام الأمن، من بين أيدي أصحاب الأمور، في بعض الأحيان، كل ذلك، أدّى الى التسبّب في المتاعب للحجاج المسيحيين، فتعرّضوا للاضطهاد، والمهانة، خصوصاً بعد وقوع القدس، بأيدي الفاطميين، الذين أسّسوا دولتهم الفاطمية في مصر، فلقوا الأمرين، في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله: ومع ذلك، فإنهم لم يكفّوا عن زيارة القدس، بالرغم من تحمّلهم، كل صنوف الأذى في سبيل غايتهم الدينية.

ولأخذ فكرة واضحة، عن أحوال الحجاج المسيحيين في ذلك الحين، نشير الى الحادثة التالية:

في ربيع سنة ١٠٦٥م - ٤٥٨هـ، قصد أسقف بامبرج ويدعى: غونتر، زيارة الأرض المقدّسة، فتبعه ما ينوف عن الاثني عشر ألفاً من المؤمنين، وكانوا أخلاطاً من الرجال، والنساء، والأولاد، منهم الأغنياء

والاسياد والأمراء، ومنهم الصعاليك والفقراء والفلاحون، ولما اقتربت قافلتهم، من الرملة في فلسطين، هاجمتها عصابة من البدو، شتّتت شملهم، بعد أن أثخنتهم جراحاً وقتلاً، وسلبتهم كل ما كانوا يحملون، فاستسلم معظمهم للموت مسرورين، دون أن يبدوا أية مقاومة، مع أنهم كانوا يحملون سلاحهم، وبقدرتهم الدفاع عن أنفسهم؛ وقد ساءت معاملة الحجّاج المسيحيين أكثر، بعدما أصبحت البلاد تحت حكم السلاجقة، فأخذت أصواتهم تتعالى بالصراخ، حتى ضجّت منها أوروبا، وانضمت إليها أصوات مسيحيي الشرق، طالبة وضع حدّ لمآسيهم، مهما كان الثمن، وبأية صورة كانت، ولو تطلب ذلك، إشعال الحرب من قبل أوروبا، في سبيل استخلاص بيت المقدس.

وقبل الحروب الصليبية بقليل، زار القدس في سنة ١٠٩٠ م روبير، كونت دي فلاندر، الذي وعد إمبراطور الروم، بعد عودته من القدس، بطريق القسطنطينية، بتجهيز حملة من خمسمائة فارس، لشدّ أزره في محاربة السلاجقة، نظراً لما تحقّقه من سوء أحوال الزوّار المسيحيين لفلسطين آنذاك.

من هنا، كان للحج الى الأراضي المقدّسة في فلسطين، دور كبير، في تكوين فكرة الصليبية، التي دعا البابا أوربان الثاني، الى تنفيذها في خطابه، باعلان الحرب المقدسة ضد المسلمين، تلك الحرب، التي كان مفهومها في القرون الوسطى، يستند على إيمان المسيحيين، بأنهم إنما يقومون بواجبهم المقدس، حينما يحاربون، لأجل إلَههم، ودفاعاً عن مملكته، أو لامتداد سلطتها. ذلك أنهم كانوا يعتبرون المسلمين. أعداءً للمسيحية، لجهلهم حقيقة الدين الاسلامي، في ذلك الوقت، الذي كان لا يزال التعصّب مخيّماً فيه في أوروبا الغربية.

وقد استطاع، نفر من الباباوات، عبر العصور، أن يلعبوا دوراً مهماً في إعداد النفوس، لتقبل فكرة الحروب المقدّسة، لدى المسيحيين،

فكانوا دائماً يشجعون الفرسان المسيحيين في حروبهم ضد المسلمين، في سبيل استعادة الأراضي التي كانت تخص المسيحية في الشرق والغرب، كما كانوا يمنحون المحاربين، في كل زمان ومكان، بركاتهم الرسولية الروحية، ويعدونهم، بالسعادة الابدية، والخلاص، إذا قُتلوا في حربهم مع الأعداء.

فالحرب الصليبية، هي إذن نفسها، الحرب المقدّسة، ولم تأخذ إسم الصليبية الاّ فيما بعد، بالنظر لشارة الصليب التي وضعها المحاربون على ثيابهم وأسلحتهم، وهي تقابل حرب الجهاد لدى المسلمين.

وقبل أوربان الثاني، كان البابا غريغوار السابع، قد وعد أمبراطور الروم بإرسال حملة عسكرية، لمساعدته في حربه ضد السلاجقة، ولكن وعده لم يتحقق، بسبب خلافه مع الامبراطور الألماني هنري الرابع آنذاك.

وإذ كان خطاب البابا أوربان الثاني، يشتعل بالحمية الدينية، عند ذاك، فلا غرو، إن لاقى الصدى المأمول، من الشعب بكافة طبقاته، فعمّت الحماسة جميع المجتمعين في الساحة العامة، لمدينة كليرمونت، وقاموا يصرخون بصوت واحد: [هذه مشيئة الله]؛ كأن فكرة الحرب الصليبية، كانت تعشّش في نفوسهم، منذ أمد بعيد، ولم يفعل البابا سوى إيقاظها، وإخراجها الى حيّز الوجود.

وعندئذٍ طلب البابا أوربان الثاني، من الحضور، وضع شارة الصليب على ثيابهم ناحية كتفهم الأيمن أو بين كتفيهم: ففعلوا ثم أعلن في اليوم التالي، تعيين أسقف بوي: أديمار دي مونتيل، مندوباً من قبله، لدى الجيش الصليبي، المزمع تأليفه، على اعتبار أنه يتعذر عليه هو شخصياً، ترك أمور الكنيسة، والسير على رأس الحملة، الى فلسطين.

كذلك أعلن البابا، عن اتخاذ عدة قرارات، تتعلّق بكيفية تنظيم

الحملة العسكرية، ومَن هم الأشخاص الذين يمكنهم الانخراط بها، وبوضع أملاك المحاربين تحت حماية الكنيسة، مع منحهم البركة، بغفران ذنوبهم، في حال استشهادهم، أثناء سفرهم في البر أو في البحر أو في معاركهم مع الأعداء، وسوى ذلك من القرارات؛ وفي ذات اليوم، الذي ألقى فيه البابا خطابه، أي في ٢٨ تشرين الثاني ١٠٩٥ م، وصل مبعوثو الكونت دي تولوز، ريموندي سان جيل، لمقابلة اوربان الثاني، واعلامه، برغبة سيّدهم، للاشتراك في الحملة العسكرية على فلسطين.

وبعد ارفضاض مجمع كليرمونت، عمد البابا الى اتخاذ الاجراءات الضرورية، لتهيئة الحملة الكبرى، وتنظيمها، وأرسل الى الكهنة، الذين تغيبّوا عن حضور المجمع، كتباً يعلمهم فيها بالقرارات المتخذة، ويطلب منهم بذات الوقت، بذل جهودهم في الدعاية والتبشير، للعمل على ترغيب الناس، في الانخراط، بهذه الحملة، حسب إمكاناتهم، وكلّ ضمن أبرشيته، وبتاريخ الثاني من كانون الأول ١٠٩٥ م، ترك البابا أوربان الثاني، مدينة كليرمونت، وراح يتجول في أنحاء فرنسا، للاجتماع، بالنبلاء والكهنة، لإشراكهم في الحملة، وقد شملت جولاته، غربي فرنسا، ووسطها، وجنوبها، وأثناء مروره بمدينة تولوز، بعث بمندوبين من قبله، الى جنوى، ليطلبوا باسمه، من الجنويين، المساهمة في الحملة، بواسطة أسطولهم البحري.

وفي شهر آب ١٠٩٦ م رحل البابا عن فرنسا، عائداً الى إيطاليا، حيث تابع خطبه، في إلهاب حمية الجماهير، محرّضاً إياها، للاشتراك في الحرب ضد المسلمين، وقد رافقت دعوة البابا هذه، دعايات شفهية وكتابية مزوّرة ومختلقة، قام بها بعض المتعصبّين، وكانت غايتهم منها، تحريض فرسان أوروبا الغربية، لشنّ الحرب على المسلمين، والاستيلاء على خيرات بلادهم التي تدرّ لبناً وعسلاً، وعلى نساء آسيا الصغرى، الجميلات، وسوى ذلك، من مناهج الحياة في الشرق.

وظهر ان تلك الدعايات الملفقة، أعطت ثمرتها، وكان لها تأثير كبير على النفوس، فلبّى الدعوة كثير من الايطاليين وغيرهم، بعدما كانوا رفضوها في البدء.

وكان ان تبنّت المدن التجارية في فرنسا وإيطاليا، مشروع الحرب بحماسة فائقة؛ لأن من شأنه، ان يخلّصها من استبداد الاسياد والاقطاعيين، ويؤمن لها بذات الوقت، أسواق الشرق الاسلامي.

ولقد لعب شخص آخر، بالإضافة الى البابا أوربان الثاني، دوراً كبيراً، في الدعوة الى الحرب المقدّسة الاولى، والتبشير بها، بخطبه الحماسية، وبيانه الساحر الاخّاذ، ألا وهو الراهب، بطرس الناسك، الذي ما أن راح يطوف القرى والمدن الفرنسية، على حماره الأعرج، داعياً الناس الى النفير، للزحف معه، على الأراضي المقدسة، حتى تبعته جموع غفيرة، من عامة الناس، قادها على الفور، ميمّماً وجهه، شطر القسطنطينية، عاصمة البيزنطيين، دون أن يكلف نفسه، عناء انتظار الحملة العسكرية، النظامية، التي كان يجري الاستعداد لها، وتجهيزها في أوروبا الغربية على قدم وساق.

فمهما قيل في تعليل اسباب الحروب الصليبية، والدوافع الكامنة وراءها، فإن الصبغة الدينية، هي التي دمغتها، في أولى مراحلها، إذ كان المؤشّر الاساسي، الذي سار الصليبيون، على هديه، وركزوا عليه أنظارهم، يستهدف، تخليص بيت المقدس، من أيدي المسلمين، على أي حال. ومهما يكن من أمر، فإن تلك الحروب، التي امتدّت طوال قرنين من الزمن تقريباً، كما سنراه في النهاية، ما كانت لتبدو، إلاّ كعارض أو حادث تاريخي، كسائر الأحداث، عملت على تهيئته، عبر الزمن، عوامل شتى: منها الدينية، ومنها السياسية، ومنها العسكرية، يضاف إليها، ضرورات اقتصادية، واجتماعية، رافقتها ظروف ملحّة، نشأت أكثر ما نشأت، عن يقظة أوروبا الغربية، في أواخر القرن الحادي عشر

الميلادي، واعتدادها بقوتها الحربية، التي أضحت تضاهي، بل تفوق قوة المسلمين، نظراً لتفرّق هذه القوة الأخيرة، وتشرذمها في سائر أنحاء بلاد الاسلام الواسعة الارجاء.

وقد فطن البابا أوربان الثاني، الى تلك الأحوال، وعرف كيف يستغلّ الظروف وقتذاك، فنادى بفكرته الصليبية، داعياً الى تنفيذها عملياً، فكان لندائه صدى بعيد في أوروبا، فألّف المسيحيون فيها كتلة واحدة، دون تمييز في الفئة أو التابعية، وهاجموا المسلمين في عقر دارهم، وخلصوا بيت المقدس الى حين، وكان من نتائج تلك الحروب التي غيّرت وجه التاريخ، أنها مهّدت السبيل، الى تحقيق فكرة الاستعمار الأوروبي، فيما بعد.

الفصل الثاني

الحملة الشعبية

بعد أن كان البابا أوربان الثاني، قد عيّن يوم الخامس عشر من شهر آب سنة ١٠٩٦ م، موعداً لسير الجيوش الصليبية، واتفق مع رؤساء الحملة المسؤولين، على كيفية تنظيمها، والأشخاص الممنوع إلحاقهم بها، مثل النساء غير المتزوجات، والمسنّين من الجنسين، وأصحاب العاهات، وفيما كان الإستعداد للحملة قائماً، حسب الخطة الموضوعة، ضرب بطرس الناسك، بتعليمات البابا، عرض الحائط، وخرج من اللورين، مع عصابته المؤلفة من خمسة عشر الف شخص، بعدما حدّد مركز التجمع في كولونيا.

وكانت هذه العصابة، تحتوي بأكثريتها، على الرعاع والمجرمين والأفاقين، والرهبان والنساء والأولاد والعجزة. ولما وصل بطرس الى كولونيا (١٢ نيسان ١٠٩٦ م)، بعد مروره بمدن: نامور ولياج وأكس لاشابّيل، لاقته هناك، عصابات أخرى، انضمت اليه، منها عصابة الألماني: غوتير المُعدَم (Gautier Sans Avoir) وأصحابه، غوتير دي بواسّي، وغليوم، وسيمون، ومتّى وآخرون.

وبينما كان بطرس الناسك، يدعو الناس في كولونيا لمرافقته في رحلته الطويلة، انفصل عنه، غوتير مع أصحابه، متابعين سيرهم نحو الهدف المنشود، فاخترقوا بلاد المجر، دون حادث يُذكر. وبوصولهم الى بلغاريا، طالبوا السلطات هناك بتزويدهم بالمؤن، فلم يُستجب طلبهم،

فعمدوا الى نهب ضواحي مدينة بلغراد، مما دفع بالأهالي، لمهاجمتهم، وتجريدهم من أسلحتهم، وما يحملونه من متاع.

وعلى إثر ذلك، واصل غوتير، ومَن بقي معه من أصحابه سيرهم الى نيش، فصوفيا، فأدرنة. وبتاريخ ٢٠ تموز ١٠٩٦ م، اقترب غوتير وعصابته من القسطنطينية، فأذِن لهم الأمبراطور البيزنطي: ألكسيس كومنين بالانتظار تحت أسوار المدينة، ريثما يلحق بهم بطرس الناسك وعصابته.

اما هذا الأخير، فقد ترك مدينة كولونيا، في ١٩ نيسان ١٠٩٦ م، مجتازاً المانيا، فبافاريا، فالمجر، دون ان يصيبه مكروه؛ وفي اواخر حزيران حطّ رحاله، في مدينة (سملن)، فأحسن ملك المجر: كولومان، معاملته. إلاّ ان ذلك لم يحل دون حدوث بعض القلاقل بين عصابته، وبين الأهالي. مما دعاه الى الإسراع في السير نحو بلغراد، فوصلها، بعد إجتيازه نهر الساف (Save)، على قوارب صغيرة أعِدّت، بصورة مرتجلة، ثم تابع سيره، الى نيش (٣ تموز ١٠٩٦ م) حيث أقدمت عصابته على اقتراف أعمال مخزية، من إضرام النيران في المنازل والطواحين الواقعة على طول النهر، قرب جسر الموراڤا، وسلب الأهالي وتقتيلهم، فهاجمها حاكم المدينة، وقتل قسماً من أفرادها، وجرّد الباقي من أسلحته؛ غير ان بطرس الناسك، أعاد النظام الى عصابته، وأكمل سيره نحو صوفيا، فوصلها في (٨ تموز ١٠٩٦ م).

وهناك اجتمع بمندوبي امبراطور الروم، الذين اشترطوا عليه، بعدم التوقف اكثر من ثلاثة أيام في كل مدينة يحلّ بها مع عصابته، وذلك مقابل تأمين إعاشتهم وعلف دوابهم، فوافق بطرس على هذه الشروط. ومن ثم اتجه صوب: فيليبو بولي، فأدرنة، حتى وصل الى القسطنطينية في اول آب ١٠٩٦ م، بحيث يكون قطع المسافة في هذه الرحلة، من ضفاف الراين الى البوسفور، في نيّف وثلاثة اشهر.

وتحت أسوار القسطنطينية، اجتمع بطرس الناسك، بغوتير المعدم وعصابات أخرى شعبية انضمت اليها بعد ذلك. وكان اجتماع تلك العصابات المختلفة، مشجّعاً لأفرادها، على القيام بالأعمال التي اعتادوها، فأرخوا العنان لغرائزهم الهمجية، وأخذوا ينهبون ضواحي المدينة الكبيرة، والقرى المجاورة، ويسلبون الكنائس نفائسها، وكل ما تقع عليه أيديهم، الأمر الذي دعا إمبراطور الروم، الى إعطاء الأوامر، بالتعجيل بترحيلهم ونقلهم الى آسيا الصغرى، بواسطة أسطوله، الذي أنزلهم على الشاطىء الشرقي من البوسفور (٥ آب، ١٠٩٦ م)، وفرض عليهم الإقامة في قلعة: سيفيتوت، على خليج نيقوميديا، أو إزميد، الواقعة قرب مدينة: هيلينوبوليس (الهرسك الحالية).

وبدلاً من أن يكتفي هؤلاء الصليبيون المؤلفة جموعهم، من جنسيات مختلفة، من لومبارديين وألمان وفرنسيين، بما كان يقدّمه لهم الإمبراطور البيزنطي، من أسباب الإعاشة لهم، والعلف لدوابهم، وينتظروا الحملة النظامية، التي كانت قيد التجهيز في أوروبا، فقد ركبوا رؤوسهم، وعادوا الى أعمال السلب والنهب، حيث أخذوا يغيرون على الأراضي السلجوقية، القريبة منهم،

وفي ذات يوم، عند منتصف أيلول سنة ١٠٩٦ م، انفردت جماعة من اولئك الصليبيين كالعادة، وتقدّمت نحو أسوار مدينة: نيقية أو ازنيق، عاصمة الملك السلجوقي: قِلج أرسلان بن سليمان، وأصابت غنيمة كبيرة، بعد أن اشتبكت بمعركة مع الأتراك، كان التوفيق حليفاً لها فيها.

ولم يقف هؤلاء عند هذا الحدّ، بل غرّهم انتصارهم هذا، وشجّعهم على المضيّ في إغارتهم، والتوغّل بعيداً، عبر الحدود السلجوقية، حتى إن رئيس إحدى عصاباتهم المدعو: رينالد اللومباردي، تمكن مع قسم من

رجاله الألمان والطليان، من احتلال أحد الحصون، في ضواحي نيقية، وهو حصن: كزاريغوردون (Xèrigordon) حيث وضع يده على كثير من الماشية والمؤن.

والظاهر ان هذه العصبة آثرت البقاء في الحصن، فأرسل رئيسها، يستحث الباقين في قلعة سيفيتوت، للحاق بهم. الاّ ان الأتراك لم يمهلوهم، فأقبلوا يحاصرون وينالد ورجاله قبل وصول رفاقهم اليهم (١٧ تشرين الأول سنة ١٠٩٦م) وقد لقي المحاصَرون، عنتاً كبيراً، من جرّاء نفاذ الماء والمؤن لديهم أثناء الحصار، ووصف المؤرخ المجهول، ما لقيه هؤلاء الصليبيون في هذا الحصار من عذاب وعناء فقال:

[إن رجالنا، بعد أن بلغ بهم العطش، مبلغا كبيراً، أخذوا يشربون دماء خيولهم وحميرهم، ويبولون بأيديهم، ويرتوون من بولهم، ويطمرون أنفسهم في التراب، كي يطفئوا حرّ عطشهم. وفي غمرة هذا العذاب أقدم رينالد، خفية عن رفاقه، على الاتفاق مع الأتراك، لتسليمهم هؤلاء الرفاق، لقاء تركه حرّاً. فأظهر أنه يريد الخروج لمقاتلة الأعداء، وطلب منهم مؤازرته، فصدّقوه، وخرجوا معه، فتلقّفهم الأتراك، وأثخنوهم قتلا وجراحاً، وأسروا من لم يقتل منهم].

ويقال أن رينالد اعتنق الإسلام، وكانت شارة الصليب لا تزال تشير الى خيانته.

وقد اعتُبر هؤلاء الصليبيون، الشهداء الأوائل فى سبيل السيّد المسيح.

وفى تلك الأثناء، كان بطرس الناسك قد عاد الى القسطنطينية لمقابلة الأميراطور الكسس كومنين، فانتهز رجاله الفرصة، بغيابه لمهاجمة مدينة نيقية نفسها، فغادروا سيفيتوت بعد أن تركوا فيها النساء والأولاد: وساروا في اليوم الحادي والعشرين من تشرين الأول

١٠٩٦م بدون ترتيب أو نظام متجهين نحو عاصمة قلج أرسلان، فعلم بذلك، قائد الأتراك: إلخان، بواسطة عيونه الذين كانوا يراقبونهم، فنصب لهم كميناً في وادي دراكون (Drekon) وقعوا فيه دون احتراز فأبيد القسم الأكبر منهم.

وقد اغتنم القائد التركي هذه الفرصة. فزحف على قلعة: سيفيتوت، ودخلها، وقتل من كان فيها من رجال ونساء، وأولاد، وعندما علم بطرس الناسك، من أحد الناجين من المجزرة. بما حلّ بفلول عصابته، أسرع يخبر الأمبراطور البيزنطي بالواقع. طالباً منه المعونة. ولكن قبل ان تصل النجدة للصليبيين، كان الأتراك، قد أخلوا القلعة عائدين الى نيقية، ووراءهم أسراهم (٢٤ تشرين الأول ١٠٩٦م).

وكان من بين القتلى حينذاك، غوتير المعدم وكونت دي كوبنجن، وغوتير دي تك وسواهم.

اما البقية التي خلصت من القتل، فقد نُقلت بعناية البيزنطيين الى القسطنطينية.

وهكذا فشلت الحملة الشعبية أو حملة الفقراء الصليبية التي قادها بطرس الناسك وغوتير وغيرهما، ووُئدت قبل أن ترى عيون أصحابها، نور الأرض المقدّسة.

وقد أجمع المؤرخون على أن سبب فشلها، يعود الى عدم أهلية قادتها وخصوصاً بطرس الناسك، والى قلّة تنظيمها، وشدّة حماس هؤلاء الصليبيين الأوائل، الذين كانوا على اعتقاد بأن مجرد زحفهم صوب بيت المقدس، سوف يذلّل لهم كل الصعاب مهما كانت.

ومع ذلك فان قتلى تلك الحملة، قد جعلتهم الخرافات، والأغاني الشعبية فيما بعد، أبطالاً خالدين، كما جعلت بطرس الناسك، صنواً لشارلمان وغليوم الأورانجي؛ في حين كان هو السبب في الوصول الى ما وصلت اليه حملته الشعبية من فناء.

والواقع ان الحملة الشعبية هذه، لم تقتصر على عصابتي بطرس الناسك، وغوتير ورفاقه، بل شملت أيضاً عصابات أخرى تألفت في ألمانيا وسواها مثل عصابة الكاهن الألماني ڤولكمار، البالغ عددها، إثني عشر الف رجل، من الألمان: وعصابة: غوتشامك المؤلفة من خمسة عشر ألف رجل، غالبيتهم من الألمان أيضاً، وعصابة الكونت أميش دي ليزنجن وغيرها.

وكانت جميع تلك العصابات، ترتكب اثناء سيرها نحو القسطنطينية، اعمالاً، تفوق بفظاعتها اعمال عصابتي بطرس الناسك، وغوتير المعدم، فكانت تقتل وتنهب وتسلب الناس، أياً كانوا دون تفريق، وخصوصاً اليهود. فالصليبيون كانوا يحمّلون اليهود، وزر قتل السيد المسيح، ويعتبرون بأن الحرب الصليبية، ليست الغاية منها فقط، تخليص القبر المقدس من أيدي المسلمين، بل ايضاً الإنتقام من اليهود، بسبب ما أقدموا عليه من عمل شائن تجاه المخلّص. ولذلك، فقد لوحق اليهود في جميع المدن التي كان يمرّ بها الصليبيون هؤلاء، مثل: سبير، وُرس، ماياِنس، كولوني، تريف، وغيرها: ولم يكن لجوء اليهود الى الكنائس، أو الأديرة، ليشفع بهم، أو يحميهم، فإن تلك العصابات كانت تخرق حرمة الكنيسة والدير، وتقتلهم، الاّ اذا قبلوا التنصر واعتناق المسيحية.

وكان أهالي البلدان التي تقدم فيها تلك العصابات على المشاغبة، يتصدّون لها بقسوة، ويجردونها من أسلحتها ومؤنها، ويتركون أفرادها عارين من ثيابهم، يهيمون على وجوههم، لا يبالي بهم أحد.

واكثر ما أصاب تلك العصابات من تقتيل وأسر، كان من قبل المجريين، بناء لأوامر الملك: كولومان، ولم يتمكن من الوصول الى القسطنطينية منها، سوى النزر القليل.

وهكذا مات من مات من تلك العصابات الشعبية، إما بيد أهالي البلدان التي مروا بها،أثناء مسيرتهم،وإما غرقا في الأنهر،وإما بسبب الجوع والبرد وقلة العناية الطبية.

الفصل الثالث

حملة السادة النبلاء

فيما كانت تلك الحوادث التي سردناها تجري مع الحملة الشعبية، كانت ثمة حملة عسكرية، مجهزة تجهيزا تاما، قيد التنظيم في أرووبا الغربية، عملا بنداء البابا أوربان الثاني، الذي كان عين لها رئيسا روحيا: هو أسقف (بوي): أديمار دي مونتيل: وكان هدف هذه الحملة التجمع أولا في مدينة القسطنطينية، عاصمة البيزنطيين، ومن ثم متابعة السير إلى بيت المقدس.

وكان قوام هذه الحملة أربعة جيوش: (صيف وخريف عام 1096م) .

ا الجيش الأول تسلم قيادته غودفر وا دي بويون: (Godefroy) دوق لوثار نجيا السفلي، أي البرابان (Le Brabant)، وهو مؤلف من خليط ، من الفرنسيين والألمان واللوارانيين وبرفتـــه بودوان دي بولوني ، واو ريستاش الثالث كونت دي بولوني شقيقا غودفروا، وبودوان دي بورج، ابن الكونت، هوج الأول دي راتل، وبودوان اثاني كونت دي هينو، وغارنيزدي غريز، والكونت ريتاردي تول ، وبيار دي ستناي ، وديدوان دي كونزسار بروك، وبودوان دي ستافلوا، وهنري وغودفروا داش. وكان هذا الجيش يضم أيضا عدا الفرسان والمقاتلين، نساء وأولادا وكهنة.

وقد اتخذ هذا الجيش الأول، طريق البلقان ، لوجهته ، كما فعل

بطرس الناسك قبله. فاجتاز بلغراد، ونيش، وصوفيا، وفيلوبولي، وسلمبريا، الى أن وصل الى مدينة القسطنطينية في ٢٣ كانون الأول سنة ١٠٩٦م، ولدى اجتيازه بلاد المجر، التقى غودفروا دي بويون، الملك كولومان، الذي كان لا يزال متأثراً، من الأعمال المخزية التي صدرت عن عصابات الحملة الشعبية، وقد أوضح الملك، للقائد الصليبي، الأسباب التي دعته، الى استئصال شأفة تلك العصابات.

واتفق الطرفان على توقيع معاهدة فيما بينهما، تضمن للصليبيين، سلامتهم أثناء مرورهم بأراضي المجر، وتوجب إبقاء بودوان، شقيق غودفروا، رهينة مع زوجته وأولاده، لدى الملك.

كما ان غودفروا، عند اجتيازه الأراضي الخاضعة لسلطة البيزنطيين، استقبل، بوصوله الى بلغاريا، موفدي الأمبراطور البيزنطي، أَلِكسيس كومنين، الذين طلبوا منه، باسم سيّدهم، أن يمتنع الصليبيون عن القيام بأي اعتداء في أراضي الأمبراطورية، مقابل تأمين المؤن لهم من قِبَل الأمبراطور. فوافق غودفروا على ذلك؛ الاّ ان الصليبيين لم يتقيدوا تماماً بتعهّدهم، فنهبوا أثناء سيرهم، مدينة سلمبريا، قبل أن يعمل الأمبراطور على إنزالهم تحت أسوار القسطنطينية.

ولم يكد يستقر المقام، بغودفروا دي بويون، في معسكره، حتى دعاه الأمبراطور، أَلِكسيس كومنين لمقابلته في قصره، فرفض القائد الصليبي، الدعوة، لِعِلمه بأن الغاية منها، هي المثول بين يدي العاهل البيزنطي، لحلف يمين التابعية له. وهذا ما يتنافى مع وضع غودفروا، إذ كيف يمكن ان يحلف اليمين، ليكون تابعاً للأمبراطور البيزنطي، وهو بصفته دوق لوثارنجيا السفلى، وقائداً لجيش صليبي، لا يجوز له الخضوع إلاّ لِمن هو في خدمته، أي البابا.

وبقي غودفروا، ثلاثة أشهر، منقطعاً عن الاجتماع بالأمبراطور

البيزنطي: فهدّده هذا الأخير، وتوعّده، بقطع المؤونة عن جيشه، وعدم مدّ يد المعونة إليه، دون جدوى. وعلى إثر ذلك، وقعت حوادث دامية بين الصليبيين، والبيزنطيين، أقدم خلالها الأولون، على إحراق بعض المنازل ونهبها، على شواطىء بحر مرمرة.

فدارت عند ذاك بين الطرفين، مفاوضات لتسوية الأمور (اول نيسان ١٠٩٧ م). وتمّ الاتفاق بينهما بالنتيجة، على أن يستجب غودفروا دي بويون، لدعوة الأمبراطور ويحلف لهذا الأخير، يمين الخضوع والتابعية مع تعهّده بأن يعيد له جميع الأراضي والمدن التي قد يفتحها فيما بعد، والتي كانت جزءاً من ممتلكات الأمبراطورية البيزنطية قبل سقوطها بيد الأتراك السلاجقة (٨ نيسان ١٠٩٧ م).

وبالفعل، حلف غودفروا يمين التابعية هذه، بعد أن كان حصل من الأمبراطور، على مال كثير، وهدايا قيّمة، ثمناً لخضوعه. وعندئذ أعطى الأمبراطور، أوامره، بإنزال الجيش الصليبي الى شواطىء آسيا الصغرى، عند بليكان، قرب هيرنكة، غربي نيكوميديا. وهناك انتظر القائد الصليبي مع جيشه قدوم:

الجيش الثاني: وهو مؤلف من النورمان، وكان آتياً، من ايطاليا الوسطى، بقيادة: بوهَمُند دي تارنت إبن روبير غيسكار. وصادف وصوله بذات الوقت، الذي، كان فيه، جيش غودفروا دي بويون، يتجمع على سواحل آسيا الصغرى.

والمفترض أن الأمبراطور البيزنطي، هو الذي عمل على ترتيب الأمور، بحيث لا يجري اجتماع الجيشين الصليبيين، معاً في وقت واحد، وفي محل واحد، تحسّباً للعواقب، التي قد تنتج عن ذلك.

وكان من مرافقي بوهمند، إبن شقيقته تنكرد، وإبن عمه، ريشار دي سالرن، بالاضافة الى روبير دانس، وهيرمان دي كان، وروبير

دي سور ديفال وبويل دي شارتر، وأوبري دي كانيانو، وأنفروا دي مونت سكابيازو.

وكان هذا الجيش قد نزل في شهر تشرين الثاني م1096، من أقلونا، إلى الشواطئ الألمانية، ثم بعد اجتيازه بيلاغونيا وأوستروفو وسيرس، وصل إلى تراس (تراقيا)، فالقسطنطينية (16نيسان م1097).

وفور وصوله إلى عاصمة البيزنطيين، اجتمع بوهمند بالامبراطور بناء لطلب هذا الأخير، وأقسم اليمين على أن يكون تابعا له مقابل إعطائه أرضا في نواحي أنطاكية.

وبعد ذلك تقدم جيش بوهمند، واجتمع بجيش غودفروا دي بويون، على خليج نيقوميديا. وفي هذا الوقت وصل أيضا.

الجيش الثالث: بقيادة ريموند دي سان جيل الرابع، كونت دي تولوز، مركيز دي برفانس، يرافقه مندوب البابا. أديمار دي مونتيل، أسقف بوي، والذي جعله البابا رئيسا، اسما وروحيا للحملة الصليبية الأولى هذه.

كما انضم إلى هذا الجيش فئة كبيرة من الأسياد، منهم: رامبوا، كونت دورانج وغاستون دي بيارن وجيرار دي روسبيون، وغليوم دي مونبليه، وريموندل دي فورير ،وإيزوار دي غاب، وسواهم.

وقد تعرض هذا الجيش، بعد اجتيازه جبال الألب، واختراقه إيطاليا ب الشمالية، لجوم شنه عليه الأهالي في كرواتيا ودلماسيا وغيرها من المدن، وأصيب مندوب البابا بجراح قرب بيلاغونيا اضطرته للبقاء في سالونيكا مؤقتا.

وكان وصول هذا الجيش إلى القسطنطينية ي 27نيسان م1097

بعد أن كان سبقة ريموند دي ان جيل، إلى العاصمة البيزنطية قبل بضعة أيام عملا بدعوة الامبراطور .

ويلاحظ أن هذا الجيش أثناء مسيرته، قام بأعمال سلب ونهب في روسا .

ولما اجتمع ريموند دي سان جيل بالامبراطور البيزنطي، وطلب منه حلف يمين التابعية لهذا الأخير، رفض رفضا باتا، وأصر على موقفه، ولكن بعد وساطة رؤساء الصليبيين وضغوطهم عليه رضي بأن يحلف اليمين، من حيث احترام الامبراطور، والمحافظة على حياته وشرفه فقط (1

الجيش الرابع: ثم وصل الجيش الرابع، وكان مؤلفا من فرنسيي الشمال يقودهم: روبير دي فلاندر، وأتيان دي بلوا، وهوج دي فرناردوا، شقيق ملك فرنسا .

فبعد أن اجتاز هذا الجيش جبال الألب، ومر بإيطاليا، حيث تلقى مباركة البابا، أبحر من باري، قاطعا بحر الأدرياتيك، إلى البلقان، ومن هناك، اتخذ طريق الجيش السابق، فقد إلى القسطنطينية، حوالي الرابع عشر من أيار 1097م.

وأسوة بمن سبقهم، حلف روبيردي فلاندر وإيتان دي بلوا، وهوج دي فرناندوان يمين التابعية للامبراطور البيزنطي، فأحسن وفادتهم.

وقبل أن يسير القادة الصليبيون، بجملتهم إلى آسيا الصغرى، دعاهم الامبراطور ألكسس كومنين، إلى الاجتماع في قصره الفخم، لآخر مرة، وبعدها أغدق عليهم الهدايا الثمينة، وذكرهم بحقوقه في استعادة أراضيه المحتلة من قبل السلاجقة، طالبا منهم التأكيد على موقفهم بهذا الشأن،

(1) Paul Rousset: histoire des croisades P P. 80 - 81

نزلوا عند رغبته، وكرّروا تعهّدهم له، بعد حلف يمين التابعية، بارجاع كل الممتلكات البيزنطية التي قد يستولون عليها، ويأخذونها من السلاجقة، وذلك بدءاً من نيقية، وانتهاء بأنطاكية. كما كرّر الأمبراطور تعهّده بمساعدتهم، وتأمين حاجياتهم، في تنقلاتهم، طيلة قيام حملتهم تلك.

وقد رفض الكونت دي تولوز: ريموند دي سان جيل كعادته، ان يحلف اليمين المطلوبة، كما تغيّب عن حضور الاجتماع، القائد النورماندي تنكرِد، إبن شقيقة بوهمند دي تارنت، وكان دائماً، يتحاشى مقابلة الأمبراطور البيزنطي.

وبعدما تجمعت هذه الجيوش الصليبية، على الشاطىء الآسيوي من البوسفور، وانضمت اليها كتيبة بيزنطية بكامل معدّاتها، بقيادة القائد البيزنطي: تاتيكيوس، الذي أنفذه الأمبراطور لمؤازرتها، بالاضافة الى فلول عصابة بطرس الناسك (التي كانت نجت من الحوادث التي اصابتها) بدأت زحفها من مكانها بقرب نيقوميديا (إزميد)، آخر معاقل البيزنطيين، متجهة صوب نيقية، وذلك بناء لتوجيهات الأمبراطور

ولقد كانت الجيوش المتجمعة، تبلغ على أقل تقدير، ثلاثمائة الف، من المقاتلين، ما عدا النساء والأولاد، والشيوخ والقنس والأساقفة والعمّال الذين تحتاجهم الحملة في القتال والأستعداد له.

وكان الأمبراطور مع قواته في ذلك الحين، قد مضى الى بليكانيوم، قرب خليج نيقوميديا، ليبقى عن كثب من الصليبيين.

وكانت هذه الجيوش قد انقسمت الى مجموعتين، قبل وصولها الى نيقية، احداها ابحرت رأسا الى سيفيتوت، بينما اخذت الثانية طريق الساحل عبر نيقوميديا. ولما اجتمعت المجموعتان على ساحل البحر، في سفح الجبل الذي يفصلها عن نيقية، تقدّمتا نحو هذه المدينة، وعسكرتا حولها. وفي تلك الأثناء، وصل بوهمند، وكان قد تأخر عن

المسير، في القسطنطينية، واشترك بحصار نيقية. وإذ كانت المدينة واقعة على بحيرة أسكانيوس، للجهة الغربية الجنوبية، فان الحصار لم يشمل هذه الجبهة، بحيث بقيت الأمداد، ترد للمحاصرين، الذين طلبوا المعونة من السلطان قلج أرسلان، وكان من جهته يحاصر ملطية، فترك حصارها، وأسرع لنجدة المدينة، إلاّ أنه اصطدم في ذلك الحين، بقوات ريموند دي سان جيل، الذي كان وأديمار دي مونتيل مندوب البابا، قد تأخرا عن اللّحاق بباقي القوات الصليبية. فجرت معركة شديدة بين الفريقين، حالف النصر فيها، قوات ريموند دي سان جيل. وقد جاء على لسان ألبر داكس (Albert Daix) بأن مندوب البابا خطب بالقوات الصليبية، مثيراً حماستها في قتال الأتراك قائلاً: [أنتم يا مَن نذرتم أنفسكم لله، وخلفتم وراءكم وتركتم كل شيء، في سبيل حبّ الله، ستكون الحياة الأبدية من نصيب مَن يستشهدون في هذه المعركة. فاهجموا بدون تردّد، على أعداء الله الحيّ، وسيكون النصر دائماً حليفاً لكم بعون الله[1]. ولم يكن هذا الفشل، ليثبط من عزيمة السلطان قلج أرسلان، فقد عمل على لَمّ شعث قوّاته، وعاد في اليوم التالي، مع الفجر، يهاجم المعسكر البروفنسي، فصمد بقوة أمامه، ثم أتاه المدد من قوّات الصليبيين، التي كانت على حصار نيقية، فتمكنوا جميعاً من إلحاق الهزيمة، بالسلطان السلجوقي.

ولكي يزرع الخوف في نفوس الأتراك المحاصَرين في المدينة، عمد ريموند دي سان جيل الى قطع رؤوس الأسرى المسلمين الذين وقعوا بين يديه، وأمر بإلقائها بواسطة المقاليع، وسط نيقية.

ولم ين السلاجقة عن الثبات في المقاومة، مؤملين بوصول النجدات اليهم دون جدوى، إذ ان الأبراج الخشبية التي نصبها الصليبيون حول

---

(1) Dominique Paladilhe: La granle aventure des croisés. P. 69.

المدينة كانت كافية لمنع الدخول إليها أو الخروج منها .

ويلاحظ هنا أن الصليبيين والبيزنطيين كانو على أتم الوفاق والتعاون، أثناء حصار نيقية، إلا أن ذلك لم يستمر طويلا: هذا، وبالرغم من كل ما قام به الصليبيون من هجمات لفتح المدينة، لم يستطيعوا النيل منها . لأن الأتراك كانوا يستبسلون في الدفاع عنها، وكانت زوجة السلطان فلج أرسلان، هي المسؤولة عن تولي إدارة الحرب فيها .

وفي الثالث من حزيران سنة م1097 - بدأت قوات روبير دي نورماندي وإتيان دي بلوا، تصل تباعا وهي آخر قوات الحملة، فنزلت بقرب قوات ريموند دي سان جيل. ولما تحقق الصليبيون من أن أمر الحصار سيطول، إذا بقيت بحيرة اكانيوس مفتوحة للأتراك، يتلقون منها المدد والمؤن، قرروا الطلب من الامبراطور البيزنطي، بوجوب مد يد المساعدة لهم، من هذه الجهة، وكان هذا الأخير لا يزال مقيما في بليكانيوم، بالقرب من القسطنطينية، يرقب النتائج.

وحين علم الامبراطور بطلب الصليبيين هذا، أظهر كل رغبة في التعاون، وأرسل أسطولا صغيرا إلى مرفأ سيفيتوت (الهرسك) حيث قامت قوافل الثيران، بنقله وهو مفكك عبر الجبل و الغابات إلى بحيرة أكانيوس، وذلك تحت رعاية ومراقبة مانويل بوتوميتس ، الذي أنهى هذه العملية في ليةل واحدة.

ولشد ما كانت دهشة الأتراك، لدى مشاهدتهم في الصباح ، أسطولا بيزنطيا في البحيرة، فتحققوا عند ذاك بأن الإمداد لن تصلهم مطلقا من البحيرة، مما أفقدهم الأمل بالخلاص، ودعاهم لاظهار استعدادهم للتسليم بحيث اتصلوا سرا بالامبراطور ألكسس كومنين، بواسطة

مانويل بوتوميتس، دوم معرفة الصليبيين، وعرضوا عليه التفاوض بهذا الشأن.

وقد وافق الامبراطور على إجراء المفاوضات السرية، وتم الاتفاق بينه وبين الأتراك، على أن يخلوا المدينة ويسلموها للبيزنطيين، مقابل تعهد هؤلاء بالمحافظة على حياة الأهالي من محاربين ومدنيين، وإطلاق سبيلهم، وترحيلهم حيث يشاؤون، بمن فيهم زوجة السلطان وعياله.

وفيما كانت هذه المفاوضات السرية تجري من وراء ظهر الصليبيين، كان هؤلاء يشددون الهجمات على المدينة ويعدون العدة لاقتحامها وقد عينوا موعداً لهذا الغرض، يوم السادس والعشرين من حزيران 1097م. وقد جاراهم البيزنطيون، وأوهموهم بأنهم مستعدون للاشتراك معهم باقتحام المدينة في الموعد المعين، لكي لا يرتابوا بالأمر.

لكن القائدين البيزنطيين، مانويل بوتومينسن، وتاتيكيوس، تدبرا الأمر، بحيث تفتح المدينة أبوابها لهما عند طلوع الفجر، قبل تنفيذ هجوم الصليبيين عليها.

وهكذا جرت الأمور، إذ لم يكد الصليبيون يندفعون في الموعد المعين، لتسلق الأسوار، بمعداتهم التي كانوا أعدوها لهذا الغرض، حتى شاهدوا من خلال تلك الأسوار، القائد البيزنطي مانويل بوتو ميتس وهو داخل المدينة، ورايات الجيش الامبراطوري ترفرف عاليا فيها، ولما حاولوا الدخول إليها، منعهم من ذلك، فظلوا خارجها بعد أن أفهمهم بأنه هو الذي أخذها من دونهم.

وفطن القادة الصليبيون مت أخرين، بأن الامبراطور البيزنطي تلاعب بهم، وخان الثقة المتبادلة بينهم، إذ حال دونهم والانتقام من أعدائهم المسلمين، وحرمهم من لذة النصر والتسلب والنهب، فاستشاطوا غضبا وانحوا عليه باللائمة.

وقبل أن يقوم الصليبيون بأي عمل تجاهه، عرف الأمبراطور الداهية، كيف يكبح جماحهم، ويرضي نهمهم، فطيّب خاطرهم، وأغدق على قادتهم الأموال والهدايا الثمينة، من ذهب وفضة، ودعاهم الى موافاته، في بليكانيوم، للاحتفال بهذا النصر، الذي افتتحت به حملتهم، فلبّوا الدعوة بكل طيبة خاطر، ما عدا إتيان دي بلوا وريموند دي سان جيل، اللذين بقيا لحراسة المعسكر.

وهناك طلب الأمبراطور من القادة الحاضرين لديه، أن لا ينسوا اليمين التي حلفوها له، وألحّ على تنكرد، بوجوب حلف اليمين، أسوة بالآخرين من القادة، فرفض تنكرد أولاً باصرار، على أنه عاد وحلفها، بضغط من بوهمند، وغيره.

وقد وفى الأمبراطور البيزنطي بتعهّده، للحامية التركية في نيقية، فأحسن معاملة الأسرى، ونقل زوجة السلطان قلج أرسلان وعياله، الى القسطنطينية، ومن ثم بعث بهم الى هذا الأخير، محمّلين بالهدايا. وكان في المدينة المحرّرة، جمع كبير من أسرى الصليبيين، من عصابات الحملة الشعبية التابعة لبطرس الناسك وغوتير فأفرج عنهم وانضموا الى رفاقهم.

وبعد أن ولّى الأمبراطور، قائده بوتوميتس على قلعة المدينة، اتفق مع قادة الصليبيين على تحديد وجهة الحملة صوب مدينة أنطاكية، وعهد الى قائده تاتيكيوس (ذي الأنف الذهبي، كما يقال له)، بقيادة كتيبة بيزنطية، ومرافقة الجيش الصليبي، ليكون صلة الارتباط بين البيزنطيين والصليبيين، مع مراقبة هؤلاء بالسرّ، ليبقى دائماً على بيّنة من أمرهم.

وعلى هذا افترق الأمبراطور عن الصليبيين، وراح يجتاح بجيشه، جميع المدن الساحلية الواقعة سابقاً بيد الأتراك مثل: ميسيا ويونيا

وليديا، وغيرها، منتهزاً الظروف والتأثير القوي، الناتجين عن سقوط نيقية وهزيمة السلاجقة لمتابعة زحفه.

بعد انفصال الأمبراطور البيزنطي عن الصليبيين، بدأت الرحلة الطويلة التي كان هؤلاء يتشوقون اليها منذ وصولهم الى القسطنطينية، لاجتياز بلاد الروم التي احتلّها الأتراك والعبور منها الى سوريا، من أجل تخليص بيت المقدس، من أيدي المسلمين.

ففي الثامن والعشرين من شهر حزيران ١٠٩٧م، سار الجيش الصليبي، بكل أثقاله، فوصل الى جسر بقرب: لفكه (Lefké) وهناك، أخذ الصليبيون راحتهم لفترة قصيرة، عمدوا خلالها الى إعادة تنظيم جيشهم، فقسموا قواته شطرين: أحدهما بقيادة بوهمند وتنكرد وكونت دي نورمندي، وإتيان دي بلوا وروبير دي فلاندر، والثاني على رأسه: غودفروا دي بويون وكونت دي تولوز: ريموند دي سان جيل. وبقي هوج دي ڤرناندوا في المؤخرة، وانحرف قليلاً نحو الجنوب، على أن يتقدم القسم الأول، على القسم الثاني، في المسيرة، بمدة يوم واحد، تسهيلاً لتموين تلك القوات.

وحينما تقدم الفريق الأول من هذا الجيش، نحو دوريله (Dorylée) أي (إسكي شهر) الحالية، كان السلطان السلجوقي: قلج أرسلان، بانتظارهم، متربّصاً لهم في الوادي، بقواته الكبيرة المؤلفة من أشتات مختلفة من الآتراك والعرب والتركمان، وكان يرافقه الأميرالد انشمندي: غازي كمشتكين، الذي كان على خلاف سابق معه، ولكنهما تجاه الخطر الصليبي، وجدا أن مصلحتهما تقتضي نبذ ذلك الخلاف والاتحاد معاً لمواجهة الصليبيين، وهكذا اجتمع الأثنان في وادي دوريله، وهما، على أتم الاستعداد للانتقام من هذا العدو الجديد الذي بات يهدّدهم جميعاً.

الاّ أن الصليبيين، علموا بوجود جيش المسلمين في الوادي،

فعسكروا على مقربة من دوريله ذاتها (30حزيران م1097) . وأخذوا ينظمون صفوفهم، فخرج عليهم في اليوم التالي، السلطان قلج ارسلان وهاجمهم في الصباح الباكر، وجرت معركة هائلة بين الفريقين، كاد النصر فيها، يعقد لواؤه للأتراك، لولا النجدات التي تلقاها الجيش الصليبي بانضمام قوات غودفروا دي بويون، وأديمار دي مونتيل وهوج دي فرناندوا، الذي هرعوا مسرعين، لنجدة القسم الأول، من الجيش، حينما بلغهم الخبر بوجود الأتراك في الوادي، فألقوا بقواتهم في المعركة وأخذوا أعداءهم من الوراء ومن الشمال، فأثخنوهم ضربا وطعنا، بحيث أمالوا دفة القتال لمصلحة رفاقهم، الذي عادوا فرتبوا صفوفهم على الشكل الآتي: (كما يصف المعركة المؤرخ المجهول: تنكرد وريموند دي سان جيل في الجناح الأيسر، وغودفروا دي بويون والكونت دي فلاندر وهوج دي فرناندوا في الجناح الأيمن، أما أديمار دي مونتيل، فتقدم إلى الأمام، مما جعل الصليبيين يطبقون كالكلابة على الأتراك) .

فتضعضعت قوة هؤلاء، وعجزوا عن الصمود، فتفرق شملهم، وهربوا منهزمين بعد أن فقدوا الكثير من فرسانهم (أول تموز م1097 = ه490) وكانت هذه الهزيمة شاقة على قلج أرسلان وغازي كمشتكين كما كانت غنائم الصليبيين كبيرة جدا، إذا استولوا على كنز السلطان السلجوقي الذي كان من عادته التنقل به أثناء حروبه، فصادروه من معسكره، واقتسمه القادة الصليبيون فيما بينهم.

قال ابن القلانسي، عن موقعة إسكي شهر هذه، التي حصلت بعد خمسة أيام من سقوط نيقية:

(فتفرق المسلمون، وتواصلت الأخبار بهذه النوبة المستبشعة في حق الإسلام، فعظم القلق وزاد الخوف والفرق، واشترى ملك الروم، من السبي خلقا كثيرا حملهم إلى القسطنطينية) .

وقد اعتبر المؤرخ رينه غروسيه، (بأن موقعة إسكي شهر (درووريله)

حسمت لأكثر من قرن، مسألة توازن القوى، في الشرق الأدنى][1]. كما اعتبر غيره من الكتّاب، بأن تلك الموقعة قد مَحَتْ عار موقعة (مَلاذكرد).

وبعد استراحة مدة يومين، تابع الصليبيون زحفهم عبر آسيا الصغرى في الرابع من تموز ١٠٩٧م - فيما كان الأتراك يتراجعون أمامهم، مدمّرين في تراجعهم، كل شيء، وتاركين وراءهم أرضاً خالية من الحياة، ومحترقة، مما أدّى إلى إعاقة مسيرة الجيش الصليبي، الذي وجد نفسه في مأزق حرج، من حيث قلّة المؤن والعلف والماء، فضلاً عن تعرّضه لحرارة الشمس المحرقة في ذلك الوقت، فمات الكثير من الصليبيين، إما عطشاً وإما جوعاً، وإما تعباً وإما مرضاً. ونفقت دوابهم، فصاروا ينقلون أثقالهم بأنفسهم فناؤا بها، وعانت النساء الحوامل أهوالاً شداداً، فمنهن من أجهضن، ومنهن من وضعن حملهن قبل الأوان، ومع ذلك، فان الجيش الصليبي، استمر في سيره مدة أربعة أشهر تقريباً قبل وصوله الى ضواحي انطاكية.

فالقائد البيزنطي، المرافق للجيش الصليبي، هو الذي أشار على الصليبيين، باتخاذ هذه الطريق لمسيرتهم، وهي الطريق الأقصر مسافة، ولكنها الأشق، فلما رأوا ما حلّ بهم من مصاعب ومتاعب، أنحوا عليه باللائمة، وعاملوه كأنه عدوّهم ويريد هلاكهم، مع أن تاتيكيوس كان يرافقهم مع كتيبته البيزنطية، ويتحمل من المشاق ما يتحملون، فجفاهم وجفوه، وقد بدأ زحف الجيش الصليبي عند ذاك، باجتياز حوض: ليكاونيا (Lycaonie) المالح، الى فيلوميليون، بعد قطع مسافة طويلة، عبر المستنقعات والخلجان المالحة، ولدى اقترابه من نواحي مدينة قونية، (إيكونيوم) في ١٥ آب ١٠٩٧م، كان السلطان قلج أرسلان قد أخلاها

(1) René Grousset: L'Epopée des Croisades. p. 28.

على عجل، فدخلها الصليبيون، واستقبلوا فيها من قبل الأهالي المسيحيين، وغالبيتهم من الأرمن بالترحاب، فتزوّدوا منها بالمؤن والماء، ثم تركوها، متقدّمين نحو (هِرقلة) أو أركلي - Erégli - الحالية. التي يفصلها عن قونية سهل كبير، يمتدّ على مسافة مائة وأربعين كيلومتراً، وتخرقه بعض البحيرات ذات المياه الأُجاجة، التي لا تصلح للشرب لملوحتها ومرارتها. وقبل وصول الصليبيين الى هرقلة (Héraclée)، كان جيش تركي كبير، يقطع عليهم الطريق، مترصّداً مرورهم، وهو تحت قيادة قلج أرسلان، وغازي كمشتكين. وحين الالتقاء، اصطدم الجيشان صداماً هائلاً ببعضهما، وكانت معنويات الجيش التركي دون المستوى، فلم يثبت طويلاً في المعركة، وما هي الاّ بعض الجولات حتى انهزم مغلوباً، فاستولى الصليبيون على معسكر الأتراك، وأثقالهم ودخلوا المدينة منتصرين، فتلقّاهم الأهالي المسيحيون مرحّبين بهم كما فعل أهالي قونية قبلهم.

وبعد أن استراح الصليبيون في هرقلة مدة اربعة ايام (من ١٠ الى ١٣ ايلول ١٠٩٧ م)، اتجهت انظارهم، الى ما حولهم من جبال، فلاحت لهم جبال طوروس بقممها البيضاء من الثلج، على علوّ اكثر من ثلاثة آلاف وسبعمائة متراً. فتساءلوا، كيف سيجتازونها، وهل سيقدّر لهم ذلك؟.

وبعد التداول بالأمر، تم الرأي، على أن يقسم الجيش الى قسمين: قسم يتوزع قيادته بودوان دي بولونيا وتنكرد، وهو الأقل عدداً، يمّم وجهه شطر الجنوب، نحو طرسوس (Tarse) في قيليقية، وغايته تحرير هذه المنطقة من الأتراك، وذلك نزولاً على طلب الأرمن، الذين أظهروا رغبتهم بالتعاون مع الصليبيين، في سبيل نيل استقلالهم (١٤ ايلول ١٠٩٧ م). والقسم الآخر، وهو يؤلف معظم الجيش، تابع زحفه مصعّداً صوب الشمال الشرقي. ليدور حول سلسلة جبال: الأنتي

طوروس، بطريق: نيجد، ونواحي جبل: (أرجه) حتى يصل الى قيصرية (Césarée)، قبّادوسية (٢٧ أيلول ١٠٩٧ م).

وبعد تسليم هذه المنطقة الى زعيم أرمني يدعى: سمعان، ليديرها باسم الأمبراطور البيزنطي، أكمل الصليبيون زحفهم الى أن أشرفوا على القلعة الأرمنية،: بلاسنتيا، أي كومانا القديمة (٣ تشرين الأول ١٠٩٧ م).

وكان الأتراك عند ذاك قائمين على محاصرة هذه القلعة، منذ ثلاثة اسابيع، وهي صامدة لهم. فلما اقترب الجيش الصليبي منها، فك الأتراك الحصار عنها وتركوها، فدخلها الصليبيون، بترحيب الأهالي وسرورهم. وتسلّمها القائد البيزنطي: تاتيكيوس، الذي سلّمها بدوره لزعيم محلّي ايضاً يدعى: بيار دوبس، لكي يحفظها باسم الأمبراطور البيزنطي؛ وبعد اجتياز الخط الأول من منعرجات الأنتي طوروس، التي يُشرف عليها جبل: سوغان داغ، البالغ علوّه (٢٧٠٠) متراً، أصبح الصليبيون على مقربة من قلعة، أرمنية أخرى، هي قلعة: كوكسون (Coxon) فدخلوها ومكثوا فيها ثلاثة أيام، بضيافة أهاليها الأرمن. ومن ثم مضوا مواصلين مسيرتهم نحو مدينة مرعش (Marash) فاجتازوا القسم الأشد صعوبة من الأنتي طوروس، الذي تشرف عليه سلسلة جبال: برتوت داغ، وأكير داغ. وعند وصولهم الى هذه المدينة، فتح لهم أهاليها الأرمن، أبوابها، واستقبلوهم بكل ترحاب.

وبعد أن أمضى الصليبيون في مرعش ثلاثة أيام، ارتاحوا فيها، من وعثاء السفر، وتزودوا بالقوت والماء، تركوها: وعهدوا بحكمها الى زعيم أرمني يدعى: ناتول، ليحافظ عليها باسم الأمبراطور البيزنطي، عملاً بالأتفاق الجاري معهم. ومن ثم انحدر الصليبيون نحو سوريا.

وفي العشرين من تشرين الأول ١٠٩٧ م، كانت طليعه الجيش

الصليبي، على جسر الحديد، على العاصي، شرقي مدينة أنطاكية، حيث التقت جيشاً تركياً كان يهرع للدخول الى المدينة، فهزمته واخذت الجسر.

وفي اليوم التالي، تقدم بوهمند، على رأس الكتيبة الصليبية الأولى، أمام هذه المدينة الكبيرة.

كان بودوان دي بولونيا، وتنكرد، قد افترقا بقسم قليل من الجيش الصليبي، واتجها نحو طرسوس؛ فوصلاها في الحادي والعشرين من ايلول ١٠٩٧ م، ودخلاها بعد أن أخلاها الأتراك ليلاً دون قتال.

وقد وقع خلاف بين هذين القائدين، على هذه المدينة؛ إذ ادعى كل منهما، بأحقيته لتملكها؛ غير أن تنكرد، حينما، تأكد من ان بودوان مصرّ على طلبه، وأن القوة التي مع خصمه، تفوق قوّته عدداً وعدة، خشي العاقبة، ورأى نفسه مضطراً للتخلي عن مطلبه؛ وما كان منه الاّ أن فارق رفيقه السابق واتجه نحو أدنة (Adana)، حيث اشتبك بمعركة مع الأتراك، حالفه التوفيق فيها؛ وهزمهم؛ وبقي متابعاً سيره حتى المصيصة (Mamistra)، فدخلها في آخر أيلول ١٠٩٧ م.

وهناك، لحقه بودوان، وحاول دخول المدينة أيضاً، فمنعه تنكرد، وأدى ذلك الى المجابهة بينهما. ولكنهما، عادا وتصافيا، فواصل بودوان طريقه الى مرعش، للالتحاق بشقيقه غودفروادي بويون، الذي كان مع القسم الرئيسي من الجيش الصليبي؛ في حين بقي تنكرد يتابع فتح سهل قيليقية. وبعد أن مكث بودوان مدة يومين في مرعش، اجتمع خلالها بشقيقه غودفروا (وكان هذا قيد المعالجة من جراح سببها له دبّ)، وبزوجته التي كانت تعاني سكرات الموت، بعد فقدها أولادها الذين ماتوا من التعب وشدة القيظ؛ فلم يكد يراها حتى فارقت الحياة، فضاق المقام به، خصوصاً بعد أن ناصبه العداء، بعض القادة من

الصليبيين، لسوء أفعاله مع تنكرد، فترك الجيش الصليبي، وتوجّه نحو حصني: تل باشر (Turbessel)وراوندان (Ravendel) ، وتحت إمرته خمسمائة من الفرسان، وألفان من المشاة؛ وبمعيته حليفه الأرمني: بغراد، الذي أشار عليه، باحتلالها، وأطمعه بها؛ ففعل وحالفه الحظ، فاستولى على هذين الحصنين، وطرد الأتراك منها؛ وذلك بمعاونة أهاليها الأرمن الثائرين. كما تمكن من اخذ عدة حصون وقلاع أخرى، بطريقه اليها، بحيث أدّى ذلك الى تحرير منطقة واسعة من يد الأتراك. ولما استتبّ الأمر لبودوان، أقام حليفه بغراد، حاكماً على راوندان، وقائداً أرمنياً آخر، يدعى: الحديد (Fer)، حاكماً على تلّ باشر.

وعلى أثر انتشار نبأ استيلاء بودوان على تلك المنطقة، ونظراً لما كان يأمله الشعب الأرمني، من المساعدة، على يد الصليبيين ضد الأتراك السلاجقة، طمعاً بنيل استقلالهم في المناطق التي بسطوا سلطتهم عليها، منذ هجرتهم اليها في أوائل القرن الحادي عشر، وأخذهم لها بالقوة، على حساب أهاليها السوريين الأصليين؛ فقد أرسل حاكم مدينة الرها (Edesse) أو (اورفه الحالية) الأمير توروس الأرمني إبن هيثوم، مندوباً من قبله الى بودوان، يطلب منه المجيء اليه، لمؤازرته في حربه، مع الأتراك جيرانه (وكان توروس هذا، نائباً لتاج الدولة تتش، شقيق ملكشاه، في مدينة الرها، التي كانت تابعة لولاية بلاد الشام)، وكان ذلك في شهر شباط سنة ١٠٩٨م اي بعد أن كان ألقى الحصار على مدينة أنطاكية من قبل الجيش الصليبي الرئيسي، بمدة طويلة.

وما أن تلقى بودوان هذه الدعوة، حتى أسرع فوراً لتلبيتها، الى الرها، يرافقه عدد من فرسانه الأشدّاء، يقدّر بثمانين فارساً صليبياً من بينهم المؤرخ الصليبي: فوشيه دي شارتر، واجتاز الفرات، دون أن يراه الأتراك، فوصل الى الرها سالماً وكان في انتظاره حاكمها

والأكليروس مع الأهالي؛ فأحسنوا استقباله، مرحبين به، باعتباره منقذهم العتيد من الأتراك.

وبعد أن أخذ بودوان راحته، من عناء السفر، واطمأن الى موقف الأمير توروس منه، طلب اليه هذا مهاجمة مدينة: سميساط (Samosate) واحتلالها. فهبّ مع فرسانه، الثمانين، وبرفقته القائد الأرمني: قسطنطين دي غرغار وسار نحو هذه المدينة الحصينة لمهاجمتها؛ ففتحت له ابوابها، بعد أن كان الأتراك انسحبوا منها؛ دون أن يصطدم بهم.

على أن الجيش التركي، لم يلبث أن عاد الى المدينة، وانقض على بودوان والقائد الأرمني، انقضاض الصاعقة، فهزمهما شرّ هزيمة، وأخرجهما منها، بعد أن لقي ألف من جند الأرمن مصرعهم في المعركة، مع بعض فرسان الصليبيين.

ورجع القائدان الصليبي والأرمني الى الرها، يجرّان أذيال الخيبة والعار. وقد استاء بودوان من هذا الفشل. فأبدى رغبته بالعودة من حيث أتى؛ فدعاه توروس للبقاء بمعيته، على أن يتبناه ويجعله وريثه (كان توروس قد تقدمت به السنّ ولم يُرزق ولداً). فرضي بودوان بالبقاء في الرها، وهذا ما كان يتمناه قلبياً، وجرت حفلة التبني، حسب العادة المتبعة في ذاك العصر.

ولم يكد يمضي على وجود بودوان في الرها، اكثر من خمسة عشر يوماً، من تبنيه، حتى ثار الأهالي الأرمن ضد توروس، وأرغموه على تسليم القلعة والمدينة الى بودوان؛ ثم لما رأوه يحاول الخروج منها، انقضوا عليه وقتلوه (٩ آذار ١٠٩٨ م).

ويتساءل المرء، كيف كان موقف بودوان؛ من مقتل توروس؟ وهل كان يا ترى، ضالعاً بالمؤامرة، على هذا الأخير، ام لا؟

يقول المؤرخ الأرمني: متّى الرهاوي:

[إن بودوان، كان على اطلاع، على ما دبرّه أخصام توروس؛ ووافق عليه، دون أن يشترك بقتله].

اما فوشيه دي شارتر، وألبر دكس، فيقولان العكس، [ويعتبران بأن بودوان، لم يكن ينوي الشرّ لمن أحسن اليه]. ومهما يكن من امر، فانه كان بامكان بودوان، لو اراد، منع وقوع هذه الفاجعة، ومساعدة توروس بالخروج من المدينة. ولكنه لم يفعل، وترك الأمور تجري تحت أنظاره، كأنه موافق عليها، مما يلقي على موقفه السلبي واللامبالي، تجاه والده بالتبني، قسماً كبيراً من المسؤولية؛ هذا مع العلم، بأن مقتل توروس، كان لا شك من مصلحة بودوان وبسببه.

وهكذا استولى هذا القائد الصليبي، على الحكم في الرها بارادة أصحابها الأرمن وأسّس فيها أولى الدول الصليبية. وكان أول ما فكر به بودوان، بعد استيلائه على الحكم في الرها، هو استخلاص مدينة سميساط، من القائد التركي: بالدوق: فجرت المخابرات بينهما، بهذا الشأن، وتمّ الاتفاق بالنهاية، على أن يتنازل بالدوق عن المدينة، مقابل عشرة آلاف دينار ذهبي، لتفادي الحرب.

وهكذا كان، فدخل بودوان مدينة سميساط، وأطلق من كان فيها من الأسرى المسيحيين؛ وضمّ اليه بالدوق، وجعله من اتباعه.

ثم اتجه بودوان بأنظاره، الى معقل قوي، من معاقل الأتراك هو: سَروج؛ فحاصره، وحاول الأهالي، الأستعانة، ببالدوق، فلم يستطع أن يفعل لهم شيئاً؛ فأرغموا على طلب الأمان، متعهدين بفتح المدينة لبودوان، مع دفع الجزية له. ولما دخل هذا الأخير، مدينة سَروج، ضمّها إلى إمارته.

ولكي يتخلص القائد الصليبي، من تابعه القائد التركي، اتهمّه بالخيانة، لمحاولته الاستيلاء على المدينة المذكورة، لمصلحته الخاصة، ونفذّ فيه حكم الاعدام؛ ولم يقبل عذره.

وقبل ان يترك بودوان مدينة سَروج، أقام فيها حامية صغيرة بقيادة الفارس فوشيه دي شارتر، المؤرخ الصليبي. ولما استتبّ الأمر، لبودوان، أراد التقرّب من الأرمن، وإظهار إخلاصه لهم، فتزوج بالأميرة الأرمنية، آردا، إبنة الأمير: طغروق. الاّ أنه لم يُحسن فيما بعد معاملة الأرمن الذين وضعوا ثقتهم به، فراح ينكّل بهم، لأتفه الأسباب، قاصداً إضعافهم في إمارته، فكرهوه، وحقدوا عليه؛ فلم يحفل بهم، بل نحاهم عن المراكز المهمة. واستحضر عدداً وفيراً من الصليبيين اللاتين اليه: فأقطعهم الأراضي، وجعل من بعضهم مستشارين له، منهم ألبر دكس، ورينار دي تول، وغاستون دي بيارن وسواهم. وهذا ما أثار حفيظة الزعماء الأرمن عليه، فقام بعضهم واتصلوا سرّاً بالأتراك المجاورينَ لهم، إي الأتراك الأرتقيين؛ واتفقوا معهم، على التعاون فيما بينهم، للتخلص، من اولئك الصليبيين الأجلاف، الذين لم يراعوا لهم، ولا ذمة.

وكان الأتراك ينتظرون مثل هذه الفرصة، ولكن الحظّ، كان في خدمة بودوان، إذ علم بالمؤامرة، التي يجري تدبيرها، قبل تنفيذها؛ وكانت تستهدف الاطاحةبه، فبادر فوراً للعمل، قبل أن يتدارك المتآمرون الأمر، فقبض عليهم، ونكّل بهم، غداة عيد الميلاد (١٠٩٨م)، فسمل أعينهم، وجدع آنافهم، وقطع أيديهم وأرجلهم، وألقى بقسم كبير ممّن ضَلَع معهم، في غياهب السجون.

فكان عقابه هذا رادعاً لكل من تسوّل له نفسه التمّرد والعصيان، بعد ذلك.

حتى إن والد زوجة بودوان، الأمير طغروق، خاف شرّه. وتوارى فجأة عن الرها، هارباً الى الجبال الواقعة تحت سيطرته.

وكذلك لم يتورع هذا القائد الصليبي، عن القبض على حليفه وتابعه

الأرمني، بغراد نفسه، وتعذيبه وإلقائه في السجن. بعد تجريده من ممتلكاته، عندما علم بأن هذا الأخير، كان يتصل بشقيقه: كوغ ڤاسيل، الذي كان استولى من الأتراك على حصني: كيسون ورابان، ويبادله الرسائل، دون أن يتحقق بودوان، من حقيقة هذا الاتصال، وما إذا كان ينطوي على التآمر ام لا؟.

وقد ندم الأرمن أشدّ الندم، على تقربهم من بودوان والتجائهم اليه، وقتلهم حاكمهم توروس لأجله؛ وذلك حينما تأكد لهم بأن أملهم بالاستقلال ضاع، وأن حاكمهم الصليبي ايستغلهم لمصلحته الخاصة، ويعاملهم معاملة السيّد لعبيده، ويضع في اعناقهم نيراً أشدّ ثقلاً من نير الأتراك. ولات ساعة مندم.

الفصل الرابع

سقوط انطاكية

بعد أربعة أشهر من السير المتواصل المنهك، وبالتحديد في الحادي والعشرين من تشرين الأول ١٠٩٧ م - ٤٩١ هـ - وصلت طلائع الجيش الصليبي الرئيسي الى مدينة انطاكية، وكان بوهمند، على رأس قوة مؤلفة من أربعة آلاف رجل، اول من وصل اليها؛ فتمركز، تجاه بابها الشرقي، أو باب القديس بولس، ثم تبعه فرنسيو هوج دي ڤرناندوا. بعد أن انضم اليهم كونت دي فلاندر وروبير كورتهوز، وأتيان دي بلوا، وأخذوا مراكزهم للجهة الغربية، ما بين باب القديس بولس، وباب الكلب. ثم جاء وراءهم، أديمار دي مونتيل، والكونت دي تولوز، وأخيراً غودفروا دي بويون، مع جيشه الذي انتشر حتى باب الدوق.

وبعد الانتهاء من عمليات التمركز، عمد الصليبيون الى إلقاء الحصار على المدينة، من أبوابها الرئيسية، وقاموا ببناء المعاقل الخشبية والأبراج العالية، ولكن تطويقهم لها بقي جزئياً، نظراً لطول سورها، بحيث لم يتيسّر لهم، مراقبة السفح الجبلي الذي يشكّل تُكأة للقلعة -.

كانت مدينة انطاكية قد وقعت بأيدي البيزنطيين، في سنة ٩٦٨ م - ٣٥٨ هـ، ثم استولى عليها، الأمير السلجوقي سليمان بن قتلمش ابن إسرائيل في سنة ١٠٨٤ م - ٤٧٧ هـ، وكان حينذاك أميراً على آسيا الصغرى، من قبل السلطان ملكشاه السلجوقي: وبعد مقتل

سليمان بن قتلمش في سنة ٤٧٩ هـ - ١٠٨٦م، وولي حكمها الأمير التركماني ياغيسيان، نيابة عن ملكشاه، وهذه المدينة، كانت محصّنة غاية الحصانة، فالجبال تحيط بها من الشرق، والجنوب والأنهار من الشمال والغرب، مما أكسبها قوة هائلة ومناعة طبيعية، فهي تستند على جبل سيلبيوس (Silpius)، ويرويها نهر العاصي الذي يصلها بالبحر، ويبلغ طول سورها، اثني عشر كيلومتراً، يعلوه ثلاثمائة وستون برجاً، لا يمكن اختراقه الاّ بصعوبة بالغة، وكانت حاميتها تبلغ الخمسة عشر الف مقاتلاً.

لا بدّ أن الصليبيين، عند وصولهم تحت أسوار أنطاكية، رأوا أن ثمّة صعوبات جمّة تحول دونهم واقتحام المدينة الكبيرة فوراً، ففضّلوا التريّث، وضرب الحصار عليها، ريثما يكونون سبروا غور قوة حاكمها، خصوصاً وأنهم كانوا لا يزالون منهوكي القوى من التعب والجوع على إثر رحلتهم الطويلة، التي انتهت بهم إليها.

ولم يكد ياغيسيان، يشعر بخطر الصليبيين حتى استعدّ لمنازلتهم وقتالهم، وزوّد المدينة بالمؤن التي تكفيها لعدّة أشهر، ولم يتوان عن تقويتها والعناية بتحصينها، فاستقدم قوات جديدة إليها، وأخرج منها من لم يكن صالحاً للقتال، كما أخرج الذكور من الأرمن والسريان من أهاليها، درءاً لما كان يخشى من خيانتهم ولعدم ثقته بهم، ولم يكتف الحاكم التركماني بذلك، بل أرسل بعض ابنائه لطلب النجدة من أمراء الشام والموصل، وسلطان العجم بركياروق والخليفة العباسي في بغداد.

وقد تأكد لياغيسيان فيما بعد، أن هناك كثيرين من الأهالي الأرمن كانوا متواطئين مع الصليبيين.

في أثناء الحصار، كان مجلس قيادة الصليبيين يتشاور في كيفية أخذ المدينة، والوقت الذي يجب فيه، مباشرة الهجوم، ولم يصل القادة الى

اتفاق على هذه المسألة. فمنهم من كان يطلب التروّي لمعرفة نتيجة الحصار، ومنهم من كان يقترح المبادرة بسرعة الهجوم، وقد تغلّب الرأي الأول في النهاية على الرأي الثاني؛ وكان بوهمند هو صاحب الرأي المتغلّب، إذ كان يضمر الاستفادة من الانتظار، لغاية في نفسه، وعلى طريقته الخاصة.

لقد كان بوهِمند النورماندي طموحاً الى حدّ كبير، وله مطامع سياسية بعيدة كان يؤمل تحقيقها، وهي التوصل الى تأسيس إمارة لاتينية له في الشرق. وإذ رأى أن انطاكية يمكن أن تكون هدفاً له، أراد الاستيلاء عليها لنفسه، فعمل على إقناع البارونات الصليبيين، لمواصلة الحصار على المدينة، كي يتسنى له، بعدئذ، نيل مأربه منها. وقد ساعدته الظروف وأسعفه الحظ، لتحقيق أمانيه كما سنرى لاحقاً.

وتنفيذاً لما تمّ عليه الاتفاق بين الصليبيين، على مداومة حصار المدينة، عمدوا الى توزيع قوَّاتهم حولها مجدداً، فنزل بوهمند مع نورمنديي صقليّة، شماليّها أمام باب بولس، وروبير دي فلاندر وروبير دي نورماندي وهوج دي ڤرماندوا، وأتيان دي بلوا، أي فرنسيو الشمال، على الزاوية بين باب بولس وباب الكلب. وريموند دي سان جيل ومندوب البابا أديمار دي مونتيل مع البروڤنسيين والبورغونيين، قرب باب الكلب. أما غودفروا دي بويون واللوثار بجيون (بودوان دي هينو ورينار دي تول) والألمان، فقد توزعوا تجاه باب الدوق أو باب البستان، للشمال الغربي عند المثلث الواقع بين السور ومجرى نهر العاصي. وتركت باقي المواقع بدون حصار لصعوبتها كما مرّ آنفاً.

وقد جرت في البدء، مناوشات غير ذات اهمية، أثناء حصار المدينة، بين الأتراك المحاصرين والصليبيين المحاصرين، ثم أخذت جماعات من الأتراك، بأعداد قليلة، تخرج من المدينة، وتنصب الكمائن

للأعداء، فيقعوا فيها بدون احتراز، كما كانت بعض الدوريات التركية، تأتي من حصن حارم، الواقع شرقي انطاكية، ما بعد جسر الحديد، فتضرب من تستفردهم، من الصليبيين بسرعة، ثم تعود الى مركزها، الأمر الذي حمل الصليبيين على القيام بحملات تأديبية لوقف تلك العمليات. ولهذا الغرض قام بوهمند على رأس مائة من فرسانه، وقصد حصن حارم، فهاجمه، وبعد معركة قصيرة مع حاميته، تمكن من أخذ بعض الاسرى الاتراك، واقتيادهم الى معسكره، حيث قطع رؤوسهم تحت سور المدينة، انتقاماً لقتلى الصليبيين، ولم يكتفِ هؤلاء بذلك، بل عمدوا الى بناء جسر من القوارب التي استلبوها من الأتراك، على نهر العاصي، سهّل لهم، اجتياز الضفة اليمنى من النهر، وبالتالي الاتصال بمرفأ السويدية، حيث كانت قافلة بحرية جنوية، مؤلفة من ثلاث عشرة سفينة حربية، ومشحونة بالعتاد والأسلحة والذخيرة والمقاتلة، ترسو منذ السابع عشر، من تشرين الثاني ١٠٩٧ م.

كما قرّر مجلس القيادة الصليبي، في خريف سنة ١٠٩٧ م تشييد حصن أسموه: حصن ماलريغار (Malregard) وذلك على منحدر الجبل تجاه باب بولس، في القطاع الذي يتمركز فيه بوهمند، أي جبل مرقب.

وفي ذلك الوقت، بدأ القحط، مع بدء الشتاء وهطول الأمطار المتواصل، فلم يعد بإمكان الصليبيين، الحصول على الاقوات والمؤن، لإستحالة التنقل والابتعاد كثيراً عن معسكرهم، فارتفعت أسعار الحاجيات، وبدأ الفقراء منهم والمساكين يتململون ويشعرون بالضيق، وخارت منهم القوى، فلم يعودوا يطيقون المقاومة، ومات منهم من مات من الجوع، وهرب من هرب، الأمر الذي دعا مجلس القيادة الصليبي، للاجتماع وبحث الوسائل الكفيلة بتفادي الكارثة، ومعالجة النقص الخطير في الاقوات، وبعد التداول في الأمر، من كافة وجوهه، اتفقوا فيما

بينهم، على تجهيز حملة قوية، للزحف في وادي العاصي، شطر حماه والقرى المجاورة، في سبيل الحصول على كل ما يمكن سلبه ونهبه من أقوات للناس، وعلف للحيوانات، وبناء لطلب بوهمند، كلّفه المجلس، هو وكونت دي فلاندر، بالقيام بهذا العمل[1]، فأسرع بتجهيز الحملة، وهي مؤلفة من عشرين الف مقاتل، تحت رئاسته ورئاسة كونت دي فلاندر (٢٨ كانون الأول ١٠٩٧ م).

وقد رافق تلك الحملة، جماعة من العمّال. بغية الاستحواذ على كل ما يقع في أيديهم من الاسلاب.

أما بقية الجيش مع الزعماء الآخرين، فقد بقوا حيث هم، أمام انطاكية. وكان عند ذاك، غودفروا دي بويّون يعاني من مرض خطير أشرف معه على الموت، ولكنه نجا منه بمشقّة، وبعد مدة طويلة.

لقد كان رحيل قسم من الجيش الصليبي من أمام انطاكية، على هذه الصورة، مخاطرة كبرى من الصليبيين، إذ أدّى الى تخفيف الضغط عن المدينة المحاصرة، وأضعف القسم الباقي والقائم على الحصار، بحيث أصبح الموقف دقيقاً جداً والحالة هذه، فلم يغب ذلك عن الأمير ياغيسيان حاكم المدينة، فلاحظ عند انفصال الفرقة الصليبية، أن الفرصة مؤاتية للنيل من الأعداء المحيطين به، فنهض في اليوم التالي مع جماعته، بعد تأكدّه من ابتعاد تلك الفرقة، وباغت الصليبيين تحت جنح الظلام، مهاجماً القطاع الذي يعسكر فيه البروفنسيون، الذين صمدوا له بثبات: ثم انتقلوا الى الهجوم المضاد، فدفعوا بالاتراك الى الاسوار. ولكن هؤلاء عادوا واستجمعوا قواهم، وشنّوا هجوماً قوياً على أعدائهم، فهزموهم وشتتوا صفوفهم، فلاذ قسم منهم بالفرار نحو ضفة العاصي اليمنى فلحقهم الاتراك، وأثخنوهم قتلاً وجراحاً، بعد أن غرق

(1) Doninique Paladilhe: La granle aventure des croisés. P. 93.

بعضهم في مياه النهر. وكان من بين القتلى، حامل راية مندوب البابا أديمار دي مونتيل، تلك الراية التي تمثّل عذراء بوي، والتي استولى عليها ياغيسيان، ورفعها عالياً فوق السور، دليلاً على فوزه.

في تلك الاثناء، كان بوهمند وكونت دي فلاندر مع فرقتها، يخترقان وادي العاصي، متقدمين بعيداً في أراضي المسلمين، الى أن وصلا الى ضواحي (البارة)، وهناك وردتها معلومات، تفيد بأن تجمعات لجيش إسلامي، موجودة بقرب مدينة شيزر، وهي بطريقها الى أنطاكية لتقديم العون الى ياغيسيان، فما كان من هذين القائدين الصليبيين، الاّ أن صمّما على منع المسلمين من الوصول الى أنطاكية. فتقدم كونت دي فلاندر لمجابهة هؤلاء، فيما بقي بوهمند في المؤخرة، لحمايته من التطويق من الوراء، كما تقدم الجيش الاسلامي من جهته، باتجاه البارة، وكان بقيادة ملك الشام: دُقاق، وأتابكه، طغتكين، وأمير حمص العربي: جناح الدولة بن ملاعب، وبرفقتهم جماعات من المجاهدين المسلمين، انضمت اليهم، لمقاتلة الصليبيين، ومعهم أحد أبناء ياغيسيان والذي كان أرسله والده لطلب النجدة من الأمراء المسلمين. وفي الواحد والثلاثين من شهر كانون الأول ١٠٩٧م - ٤٩١هـ. تقابل الجيشان، الاسلامي والصليبي، وجرت المعركة بينهما، بالقرب من ألبارة، فكانت سجالاً بينهما، الاّ أن خسائر المسلمين في الأرواح كانت أشدّ من خسائر الصليبيين، الأمر الذي جعل المسلمين يتوقفون عن مواصلة سيرهم نحو مدينة أنطاكية لنجدتها، ويرتدّون الى حماة[1]، بينما رجع الصليبيون الى معسكرهم، دون ان يكمّلوا مهمتهم التي كُلفوا بها، وفي عودتهم، نهبوا بعض القرى، وقتلوا اهاليها المسلمين، وقد كانت خيبة الأمل كبيرة لدى الصليبيين، لأن تلك الحملة التى عوّلوا عليها لتخفيف مجاعتهم، لم تسفر عن نتيجة مرضية، كما كانوا يأملون.

(١) إبن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص. ١٣٤.

وكان أن طال حصار الصليبيين لمدينة أنطاكية، وزادت مع ذلك، المجاعة في صفوفهم، فراح أكثرهم، وهم من الفقراء، يهيمون على وجوههم التي اعتراها الشحوب، كالتائهين، فلا يبالون بشيء، ففترت هممهم وضعفت معنوياتهم، ومات منهم الكثيرون من الجوع، بالرغم من أن السريان والأرمن المسيحيين كانوا لا يفتأون يشترون الحنطة والأقوات من جميع النواحي، ويبيعونها من الصليبيين بأسعار فاحشة، بحيث يتعذّر على أكثرهم دفع ثمنها، مما كان يضطرّهم لأكل الأعشاب على أنواعها، وكيفما كانت، فضلاً عن أكلهم لحوم الحمير والكلاب، وكيف العمل للخلاص من هذا الضيق الذي بات يهدّد الجيش الصليبي بالفناء؟ وهل يتخلّى الصليبيون عن حصار أنطاكية، وينكفئون الى الموانىء الساحلية للاحتماء بها، حيث يمكن أن تردهم النجدات مع كل ما ينتج عن هذا التخلّي من أخطار قد يتعرّض لها جيشهم، على طول الطريق، من طرف الاتراك؟ أم يبقون في مكانهم يكابدون خطر الجوع واليأس، بانتظار جيوش المسلمين التي لا تلبث ان تسارع الى مهاجمتهم ومؤازرة الأمير ياغيسيان فتتفاقم المحنة عند ذاك؟.

هنا رأى مندوب البابا أديمار دي مونتيل، أن دوره، بصفته الرئيس الروحي للجيش الصليبي، قد أتى لمعالجة الوضع الذي يتخبط فيه الصليبيون، فدعا الى إقامة الصلوات العامة، والرجوع الى الله، عسى أن يخفّف غضبه عنهم، ويغفر لهم خطاياهم، التي بسببها جلبوا المصائب لأنفسهم. ولكن بالرغم من كل الصلوات التي أقاموها، والصيام الذي اتبعوه، تفاقمت المجاعة، وزاد الغلاء في أسعار الحاجيات، فاشتّد الضنك بهم، وأخذ الجزع منهم كل مأخذ، فما وسعهم إلاّ إيثار التريث، والبقاء في وضعهم اليائس حتى يمُنّ الله عليهم بالفرج، غير أن ثمة من كان منهم يرى أن الرحيل أجدى وأوفق من البقاء على الحالة التي هم فيها، فحاولوا الهرب، والتخلّي عن الجيش، وكان اول الهاربين،

بطرس الناسك، وغليوم ڤيكونت دي ميلون (Mellun) اللذّين تعقبهما تنكرد وأعادهما مهانين الى المعسكر، وهما في أشد حالات الخزي والعار.

وقد فطن بوهمند، الى حالة اليأس والعذاب التي وصل اليها الصليبيون، فعزم على استغلالها لمصلحته، كما هو دأبه، فأعلن عن رغبته في العودة الى بلاده، بحجة عدم تمكنّه من المثابرة في تحمّل اعباء هذه الحملة الشاقة وأثقالها، نظراً لضيق حالته المالية والمادية، التي لم تعد تسمح له بالاستمرار فيها. وقد نجح في تمثيل دوره من هذه الجهة، لدرجة أن القادة الصليبيين توهموا فعلاً بأنه سينفّذ عزمه ويتركهم، لكثرة ما الحّ عليهم بذلك، فارتاعوا من موقفه، وهم في أحرج الاوقات، فما وسعهم الاّ مراضاته والطلب إليه البقاء معهم، لقاء وعدهم له، باعطائه مدينة أنطاكية، في حال احتلالها، ضاربين بذلك، عرض الحائط باتفاقهم الجاري مع الامبراطور البيزنطي الكسيس كومنين، فتصّنع الرضا على هذا الاساس، والبقاء معهم لفتح المدينة، التي أصبحت بتملكه سلفاً.

لا شك ان بوهمند كان يطمع بامارة انطاكية منذ البدء، ويهيّء لاكتسابها في كل حين: ألم يعده الامبراطور البيزنطي، باعطائه اراضي فيما وراء أنطاكية، حينما حلف له يمين التابعية فلماذا لا تكون انطاكية له مع تلك الأراضي؟ إذن عليه أن يتخلّص من القائد البيزنطي أولاً وقبل كل شيء لكي يخلو له الجوّ، إذ لو استمّر جيش تاتيكيوس يعاون الجيش الصليبي، الى ان يتم الاستيلاء على المدينة، فإن هذا القائد، سيصرّ على المطالبة بتسليمها له، وذلك تنفيذاً للمعاهدة السابقة الجارية بين البيزنطيين والصليبيين، وأسوة بباقي المدن المفتوحة التي جرى تسليمها للامبراطور الكسيس كومنين.

وفي سبيل تحقيق هدفه، عمد بوهمند الى اللجوء للحيلة ايضاً، ولفّق للقائد البيزنطي قصّة، أوهمه فيها، بأن زعماء الصليبيين يتهمونه

والامبراطور ألكسيس كومنين، بالتواطؤ مع الأتراك ضدهم، وأنهم أي الزعماء الصليبيون، يدبّرون مؤامرة لاغتياله، والانتقام منه، بصفته ممثلاً للامبراطور[1]، فانطلت الحيلة على تاتيكيوس، وصدّق قصة بوهمند، وترك المعسكر الصليبي، خوفاً على حياته (شباط ١٠٩٨ م) وأبحر من مرفأ السويدية، دون رجعة مع كتيبته البيزنطية، وكان قبل رحيله، قد أعلن للصليبيين، بأنه سيعود اليهم قريباً، بعد أن يدعو سيّده الامبراطور للمجيء الى أنطاكية بسرعة، مع امداد ونجدات بيزنطية جديدة.

ومهما كان من أمر، فإن تلكّؤ، الامبراطور البيزنطي، عن مدّ يد المساعدة للصليبيين، أثناء تخبطهم بالصعوبات والضيق، أمام أسوار انطاكية، وبالتالي عدم اللحاق بهم الى هذه المدينة، كما كانوا ينتظرون منه أن يفعل، قد جعل هؤلاء الصليبيين، يصفون عدم اهتمامه بهم، بالخيانة، وبخرق المعاهدة المعقودة بينهم، والتي تقيّدوا بها من جهتهم، عن حسن نية، فاعادوا إليه، بمقتضاها، عدة مدن استخلصوها من الأتراك. وهذا ما حدا بالصليبيين للقول، إنهم بحلّ من ارتباطهم باليمين التي كانوا حلفوها للامبراطور، مما أتاح الفرصة لبوهمند، لاستغلال هذا الموقف لمصلحته.

في ذلك الوقت بالذات، كان رضوان، ملك حلب السلجوقي، يهبّ متوجهاً نحو انطاكية لنجدتها، بعد إذ كان تخلّف منذ البداية عن ذلك. وقد انضم اليه، سقمان بن أرتق وأرسلان تاش، صاحب سنجار، بالإضافة الى قوّات من شيزر وحماة وحمص، وعسكر الجميع في حارم، القريبة من مدينة أنطاكية، وبرفقتهم أحد أولاد ياغيسيان ويدعى: شمس الدولة، بالنيابة عن والده.

ولكن قبل قيام الجيش الاسلامي بمباغتة الصليبيين، كانت جماعة

(1) René Grousset: L'épopée des croisades. p. 33.

من الأرمن في حلب، قد أرسلت رسلها الى الصليبيين، لتنبيههم الى خطة الملك رضوان، الذي غادر حلب لمباغتتهم، مع إعلامهم عن حالة الجيش الاسلامي، فاستعدّ الصليبيون للمجابهة، بعد أن اجتمع قادتهم، في مجلس حربي، بخيمة مندوب البابا: أديمار دي مونتيل، ووافقوا على الخطة التي عرضها بوهمند، وهي أن يرسلوا فرقة الخيالة البالغ عددها ألف فارس، دون المشاة، الى الممر الضيّق الواقع بين النهر وبحيرة العمق، لتكمن هناك بانتظار الجيش الاسلامي، ومفاجأته، قبل وصوله الى انطاكية.

وهكذا اجتازت هذه الفرقة، الجسر الذي بناه الصليبيون على العاصي، وكمنت ليلاً للجيش الاسلامي القادم باتجاه انطاكية (٨ شباط ١٠٩٨ م).

وفي صباح اليوم التالي كان المسلمون يتقدمون من حارم صوب جسر الحديد، ليصلوا الى العاصي، فالتقاهم الصليبيون الكامنون في الممر الضيّق، ونشبت بين الفريقين معركة حامية، كان خلالها مندوب البابا، يطوف على صفوف المقاتلين، ويحثهم على القتال، باسم السيد المسيح، فيقوّي معنوياتهم، ويثبتون لحملات المسلمين القوية، الى أن تقدم بوهمند بفرقته، وكانت إحتياطية، وكرّ على جيش المسلمين، فجارته الفرق الأخرى، بحماس شديد، بحيث تمكن الفرسان الصليبيون بالنهاية من دحر المسلمين، وارغامهم على التراجع، الى معسكرهم، الذي اضطروا الى تركه، والفرار نحو حارم، وفي أعقابهم فرسان الصليبيين، وبعض الجماعات من سريان وأرمن، كانت تنتظر نتيجة المعركة، والتي انقضت على فلول الجيش الاسلامي وهي متراجعة، فقتلت عدداً كبيراً منهم.

وما كاد المسلمون المنهزمون، يظهرون على باب مدينة حارم، وهم في أقصى درجات الخوف والتعب، حتى دبّ الرعب في صفوف حاميتها

التركية، التي ما لبثت ان أخلت مواقعها، محاولة إضرام النار فيها، لمنع العدوّ الصليبي من الافادة مما فيها من خيرات[1].

واستولى الصليبيون على المدينة، بمساعدة اهاليها الأرمن، ثم عادوا الى معسكرهم امام أنطاكية، بعد ان وضعوا أيديهم على كل ما كان في معسكر المسلمين، من خيول تبلغ الألف رأس، ومن أقوات وعلف، وكل ما كان ينقصهم من حاجيات المعيشة، كما استصحبوا معهم مائة رأس من رؤوس قتلى المسلمين، الذين وقعوا في ساحة الوغى، قطعوها من أجساد هؤلاء القتلى، ليلقوها تحت أقدام مبعوثي الخليفة الفاطمي، الذين كانوا قد وصلوا في ذلك الوقت، إلى معسكر الصليبيين للتفاوض معهم، والتحقق من درجة قواهم.

وأثناء ذلك، كانت الحامية التركية في أنطاكية قد عمدت بدورها، الى محاولة جريئة للخروج من المدينة، ومهاجمة معسكر الصليبيين، الذي كان قميناً، بأن يسقط بيدها، نظراً لخلوه من الفرسان، لو لم يصادف عند ذاك، رجوع القسم المنتصر من الجيش الصليبي من حارم، ويرغم المهاجمين على التقهقر الى قلعتهم وهم يحرقون الأُرّم من غيظهم.

وفي خضم هذه الحوادث، وبالرغم من الخطر الداهم، الذي بات يهدّد المسلمين في ديارهم، استمرت الخلافات السياسية، بين الحكام المسلمين على أشّدها وكان أحد أبرز تلك الخلافات، ما تعلّق بالمسألة الفلسطينية.

فالفاطميون لم يكونوا ليغفروا للسلاجقة الاتراك، انتزاع منطقة فلسطين منهم، فظلّوا يترصّدون الفرص للانتقام من هؤلاء الاخيرين، حتى اذا لاح الخطر الصليبي، وانصّب على ممتلكات السلاجقة، الذين عجزوا عن الوقوف بوجهه حتى ذلك الحين، أخذ الفاطميون المصريون

---

(١) ابن العديم: منتخبات من تاريخ حلب. ص - ٥٧٩.

يكيدون لأخصامهم الاتراك، ويعملون ما بوسعهم لاستعادة فلسطين منهم.

ولهذه الغاية أرسل الوزير المصري: الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي، مندوبين من قبله الى الصليبيين، الذين كانوا لا يزالون على حصار أنطاكية، ليعرضوا عليهم، مشروع معاهدة، تحتوي في بنودها، على أن يستقل المصريون بفلسطين بما فيها القدس، والصليبيون بانطاكية وسوريا[1]، وعلى أن يسمح لهؤلاء بزيارة الأراضي المقدسة، ويحتفظوا بحريتهم الكاملة في ممارسة شعائرهم الدينية، شرط الا تزيد إقامتهم فيها أكثر من شهر واحد، ولا يدخلوها بسلاحهم كما يقول غليوم الصوري.

لا شك أن الصليبيين رحّبوا بالسفارة المصرية، ولم يرفضوا العرض المقترح من مبعوثها، بل بالعكس، فأنهم تركوا الباب مفتوحاً للتفاوض، أملاً منهم بتوسيع شقة الخلافات بين المسلمين، وبالمقابل أظهر الوفد المصري، استعداد حكومته لتقديم المدد للصليبيين، بالمال والعتاد، والرجال، للمساهمة في فتح انطاكية.

وقد بقيت البعثة مدة شهرين لدى الصليبيين، ثم عادت الى مصر.

وأدرك القادة الصليبيون، بأن سياسة المسايرة والتفرقة، قد تفيدهم مع أعدائهم المسلمين، خصوصاً وأن هؤلاء الأعداء هم أيضاً متعادون مع بعضهم البعض، وكل منهم ينظر الى الآخر نظرة العداء والحسد، فأرسلوا (أي الصليبيون) الرسل الى ملك حلب رضوان السلجوقي، وأخيه دقاق ملك الشام، يُعلمون كلاّ منهما، بأنهم لا يقصدون سوى البلدان التي كانت عائدة للبيزنطيين، ولا يطلبون سواها[2].

---

(1) René Grousset: L'épopée des croisades. p. 35.

(٢) الشيخ محمد الخضري: محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية: الدولة العباسية ص، ٤٤٣.

والواقع أن تفكير الصليبيين، كان يخالف تماماً، ما كانوا يبدونه من هذه الجهة، إذ أنهم ما كانوا ليكتفوا بالبلاد التي كانت بحوزة البيزنطيين ونزعت منهم، إنما كانت غايتهم احتلال الممالك الاسلامية والعربية على اختلافها في الشرق الادنى. هذا، وان الصليبيين، حينما لاحظوا، أثناء حصارهم أنطاكية، بأن المسلمين المحاصرين فيها، يستخدمون الجسر الروماني القديم، الواقع تجاه باب البحر أو باب الجسر، للخروج من المدينة، أو الدخول اليها، عمدوا الى إقامة حصن على الضفة الأخرى للنهر، لمنعهم من ذلك، وإذ لم يكن لديهم العدد الكافي من العمال لهذا الغرض، فقد رأوا الاستعانة برجال الاسطول الانكليزي والسفن الجنوية، الراسيين في مرفأ القديس سمعان منذ مدة، وكلّفوا الكونت دي تولوز وبوهمند لهذه المهمة، فسار هذان القائدان على رأس قسم من الفرسان والمشاة الصليبيين الأشدّاء، الى ذلك المرفأ، حيث اجتمعا بقادة الاسطول الانكليزي والسفن الجنوية، وانتقيا من وافقها من الملاّحين، لاحضارهم الى المعسكر، وفيما كان الجميع عائدين الى المعسكر، داهمهم الأتراك الذين كانوا لهم بالمرصاد، وأمطروهم بوابل من نبالهم، فأثخنوهم قتلاً وجراحاً، فسقط منهم حوالي الخمسمائة من القتلى، ولاذ الباقون بالفرار.

غير أن بوهمند والكونت دي تولوز، اللذين كانا أول الهاربين، وصلا الى قرب الحصن المزمع إقامته، حيث كان غودفروا دي بويون بانتظارهم مع قواته الباقية، فانضمّا إليه مع مَن نجا من الفرسان والملاّحين، وتهيأ الجميع استعداداً لمواجهة الاتراك، فيما لو تابعوا ملاحقتهم.

وقد أخطأ الأتراك، فتابعوا هجومهم من مركزين متفرقين، وعلى التوالي، فجابهم الصليبيون، ونشبت معركة ضارية بين الفريقين،

دارت الدائرة فيها بالنهاية، على الاتراك، فقتل منهم أو هلك غرقاً في النهر، ما يقرب من ألف وخمسمائة رجلاً، بينهم اثنا عشر أميراً.

وبعد هذه المعركة، ارتفعت معنويات الصليبيين كثيراً، فعادوا لبناء الحصن (٨ آذار ١٠٩٨ م)، وأنهوه في غضون عشرة أيام، وسمّوه: حصن المحمّرة (La Mahommerie) نظراً لوجود مقبرة وجامع قديمين للمسلمين في تلك المحلّة[1]، وتسلّم الكونت دي تولوز هذا الحصن للحفاظ عليه، مع خمسمائة فارس، فسُدّ على الأتراك، الممّر الذي كان يؤدي بهم الى العاصي.

وفي ذلك الوقت، اجتمع القادة الصليبيون للتشاور وانتخاب رئيس اعلى لمجلس القيادة، بهدف تنسيق العمل بينهم، فوقع الاختيار على الكونت اتيان دي بلوا، للاضطلاع بهذا المركز المهم.

وبعد ذلك، أقدم الصليبيون على تحصين دير سان جورج، جنوبي غربي المدينة، على الضفة الشمالية للعاصي، بمنحدرات جبل سيلبيوس الغربية، وتسلّمه تنكرد للدفاع عنه، بحيث امتدّ الحصار ليطوّق مدينة انطاكية من جميع جهاتها، ومع ذلك، لبثت هذه المدينة العريقة، صامدة صمود الجبابرة، برعاية أميرها: ياغيسيان، رغم كل المحاولات والجهود التي بذلها الصليبيون لاقتحامها، ولم يفلحوا.

ولو لم يقيّض الله للصليبيين رجلاً خائناً كفيروز الزرّاد، أعانهم على فتح المدينة، لكان حصارهم لها، طال كثيراً، ولكانت النتيجة غير ما آلت إليه بعدئذٍ.

كان فيروز هذا من سكان أنطاكية الأرمن، اعتنق الاسلام كما يقال، وحظي بالتقدير لدى الأمير ياغيسيان، فعهد اليه بحراسة (برج

---

(1) Dominique Paladilhe: La grande aventure des croisés. P.P. 98 – 99.

الاختين) الواقع جنوبي المدينة قرب باب القديس جورج، المشرف على وادي العكاكير أو وادي (زغيبو). فلما اشتد الحصار على المدينة وأشرفت على المجاعة، عمد فيروز الى إخفاء ما كان مخزوناً لديه من الحبوب والمؤن، نافياً وجود شيء من ذلك في حوزته. فعاقبه ياغيسيان وصادر أمواله بعدما تحقق من فعلته، دون أن يقصيه عن مركزه، فارتكب بذلك خطأ جسيماً كانت عاقبته عليه فادحة، إذ أن هذا الخائن لم ينم على الضيم، وأضمر الانتقام من ياغيسان، فاتصل سرّاً ببوهمند، عارضاً عليه تسليمه البرج المعهود إليه بحراسته، مقابل بعض المنفعة المادية. فوافق القائد الصليبي على هذا العرض وأبقاه طيّ الكتمان، ولكنه كعادته، أراد استثمار هذا الظرف الذي هيّأه له الحظ، وحاول الاستفادة منه حسب طريقته الخاصة، ولمنفعته الشخصية، لدى أول فرصة.

وعند اجتماع مجلس قيادة الصليبيين لبحث بعض الأمور الهامة، عمد بوهمند الى سَبر غور القادة الحاضرين، فطرح عليهم السؤال الآتي، بصورة تنمّ عن الجدية: [ما قولكم فيما لو أن أحداً منّا استولى على المدينة، إما بفعله الشخصي، وأما بصورة أخرى، أفلا تمنحونه إياها ثمناً لعمله]؟. فأجابه الحاضرون، بما يعني أن المدينة اذا وقعت بيدهم، فأنهم يتقاسمونها بالتساوي فيما بينهم، ولا أحد يملكها بمفرده، لأنهم اشتركوا جميعاً فى عملية الحصار.

فعند سماعه كلامهم هذا انصرف في الحال، والابتسامة على شفتيه كما يقول المؤرخ المجهول، دون أن ينبس بكلمة واحدة، ذلك أن بوهمند كان في ذلك الوقت، على علم، عن طريق بعض السريان والأرمن ممّن يتعاملون معه، بأن جيشاً إسلامياً ضخماً هو في طريقه الى أنطاكية، آتياً من الموصل لمساعدة ياغيسيان. وقد تحقق مجلس القيادة الصليبي بعدئذ، من أن جيشاً إسلامياً هو في طريقه الى أنطاكية، وأن هذا الجيش

يحاصر مدينة الرها، فإذا وقعت تلك المدينة بيده، فسيكون الخطر عليهم كبيراً.

ولذا عقد القادة مجلساً حربياً، تداولوا فيه بالأمر، وقرّروا النزول على طلب بوهمند، بتسليمه انطاكية، حالما يتمّ الاستيلاء عليها، وذلك بالرغم من معارضة ريموند دي سان جيل، كونت تولوز، الذي اشترط إعادة المدينة الى الامبراطور البيزنطي اذا أتى لمساعدتهم وحافظ على عهوده معهم، حتى ولو كان بوهمند تملّكها[1]، وكان موقف كونت دي تولوز هذا، سبباً لإثارة التخاصم بينه وبين بوهمند فيما بعد.

في هذا الوقت بالذات، صادف ان الرئيس الاعلى لمجلس القيادة الجديد: أتيان دي بلوا، ادعى فجأة بأنه مريض، ولم يعد يطيق البقاء حيث هو، فترك المعسكر الصليبي مع رجال فرقته، وانسحب الى الاسكندرون للاحتماء بها (٢ حزيران ١٠٩٨ م).

وكان الخائن فيروز الزرّاد، قد بعث بذات اليوم، بابنه، الى بوهمند، يعلمه بواسطته، بأن تسليم البرج له، سوف يكون في اليوم التالي.

ويقال إن السبب في تعجيل فيروز بتسليم البرج، يتعلّق باكتشافه علاقة أثيمة بين زوجته وأحد كبار قادة الأتراك في المدينة. فاهتم بوهمند بذلك، وأحاط مجلس القيادة علماً بالسرّ، وعملاً بأوامره، وحسب الخطة التي أطلع المجلس عليها، وحظيت بموافقته، تظاهر الصليبيون بأنهم ذاهبون لملاقاة الجيش الاسلامي القادم، وانقسموا قسمين: قسم المشاة، الذي سار من جنوبي سيلبيوس، وقسم الخيّالة الذي صعّد نحو العاصي، وهكذا تابع القسمان سيرهما طيلة الليل، حتى اجتمعا بعدئذٍ تحت برج الأختين، حيث كان فيروز، بانتظار بوهمند: وقبل

(1) Dominique Paladilhe: La grande Aventure des croisés; P. 103.

بزوغ الفجر، كان هذا الأخير وأصحابه، يتسلقون السلالم، صاعدين الى البرج المذكور، ويلتقون بفيروز نفسه، ثم يحتلّون بمعونته باقي الأبراج من الناحية الجنوبية، في الوقت الذي نزل قسم منهم، مع بعض الأهالي الأرمن، الذين كانوا على علم بالمؤامرة من فيروز، وفتحوا أبواب المدينة، للجيش الصليبي المنتظر خارجاً، مبتدئين بباب الجسر، ولم يفق الجنود الأتراك، حرّاس الأبواب، من ذهولهم، الاّ بعد أن رأوا الموت بأعينهم، فهرب من نجا منهم، الى القلعة الواقعة على إحدى قمم جبل سلبيوس، أو حبيب النجار.

وما أن أطلّت شمس الثالث من حزيران ١٠٩٨م - آخر جمادي الأولى ٤٩٢هـ، حتى كانت راية بوهمند الحمراء ترتفع على الأسوار. معلنة سقوط المدينة. أما حاكم أنطاكية الأمير ياغيسيان، فإنه حينما شاهد تلك الراية، تلوح عالياً في الأفق، ظنّ متوهماً أن القلعة نفسها سقطت بيد الصليبيين، فتخلّى عنه حذره، وخذلته شجاعته، واستبدّ به الرعب، ففرّ هائماً على وجهه من المدينة وبرفقته ثلاثون من حرّاسه، قبل أن يتحقق من جلية الأمر، ويتخّذ موقف الدفاع، كما يفرضه عليه الواجب، ولم يتوقف بفراره، الاّ عند وصوله الى بلدة أرمناز، بالقرب من معرّة مصرين، حيث سقط على الأرض، من صهوة جواده، فحمله أصحابه وأركبوه عليه، فلم يثبت، وسقط ثانية من شدّة الاعياء والتعب، وأغمي عليه، فما كان من حرّاسه الاّ أن تركوه مكانه، وانطلقوا في سبيلهم، ففاضت روحه ومات[1].

واتفق حينذاك، مرور بعض الحطّابين من الأرمن او السريان، من أهالي المنطقة، فعثروا صدفة على جثة ياغيسيان وتعرفوا عليه، وما كان

---

(١) إبن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق. ص - ١٣٥ - احداث سنة ٤٩١هـ.

منهم إلاّ أن قطعوا رأسه وحملوه الى أنطاكية، حيث قدّموه هدية للصليبيين.

أما في مدينة أنطاكية، فقد انطلق الصليبيون، عند دخولهم اليها، يعملون فيها نهباً وسلباً وقتلاً، بدون وعي، فلم يعفوا عن النساء والأطفال والمسنين، وقد تمكن من الهرب الى القلعة، حوالي الثلاثة آلاف رجل، تحصّنوا بها، وسَلِم من كتب الله سلامته، كما يقول إبن القلانسي.

والواقع أن الصليبيين، بعد انسحاب ياغيسيان وخروجه من المدينة هائماً على وجهه، على الصورة المبيّنة آنفاً، أقدموا على ارتكاب مجزرة عامة بحق المسلمين في أنطاكية، فلم يخلص منهم، إلاّ مَن رضي بالتعمّد واعتناق المسيحية، وكانت جثث القتلى تتكدّس في سائر أنحاء المدينة، بحيث لم يعد بالإمكان المكوث فيها، بسبب النتانة، والروائح الكريهة التي أخذت تتصاعد منها، كما جاء في أقوال المؤرخ المجهول.

أمّا في القلعة، فقد بقي شمس الدولة بن ياغيسيان، مع جنود حاميتها الأتراك ومن انضم اليهم من الهاربين، من المدينة، يقاومون العدوّ الغازي، على أمل وصول النجدة القريبة إليهم من الملوك المسلمين.

وبالفعل فقد وصل الجيش الاسلامي المتحالف الى أنطاكية، ولكن متأخراً، إذ كان الصليبيون قد دخلوا المدينة في اليوم السابق لوصوله، فبدت طلائعه على العاصي، في الرابع من حزيران ١٠٩٨م - ٤٩٢هـ، فقويت نفوس رجال الحامية التركية في القلعة وهلّلوا له.

إن الاستغاثة التي أطلقها ياغيسيان عند مجيء الصليبيين، الى أنطاكية، كان لها صدى بعيد في البلاد الاسلامية، فاستجاب له بعض الحكّام المسلمين، وتوانى الآخرون منهم عن النهوض لمساعدته، وكان الخليفة العباسي: المستظهر بالله، ممّن اهتموا بالأمر، هو وسلطان العجم

السلجوقي: بركياروق، الذي نزل عند طلب الخليفة، وأمر نائبه في الموصل: الأمير كربوغا، لتجهيز جيش إسلامي، بغية تقديم النجدة لأنطاكية. فعمل هذا الأخير، على اتخاذ ما يجب عمله لهذا الغرض، وزحف على رأس قوة ضخمة، من الموصل باتجاه انطاكية، وفي طريقه اليها، حاول الاستيلاء على مدينة الرها، التي كانت بيد القائد الصليبي، بودوان دي بولونيا، فرمى الحصار عليها لمدة ثلاثة أسابيع (من ٤ الى ٢٥ ايار ١٠٩٨ م) دون أن يتمكن من النيل منها، بالرغم من كل الجهود التي بذلها في هذا السبيل، مما دعاه الى فك الحصار عنها، عندما طالت مدته، وتركها متابعاً سيره الى غايته. فاجتاز الفرات، ودخل الأراضي السورية، حيث أقام معسكره في مرج دابق شمالي حلب[١].

وقد وافاه الى هناك، بناء لاتفاق مسبق، كلّ من ملك دمشق: دقاق، مع قائد جيشه طغتكين، وجناح الدولة حسين: أمير حمص العربي، من قبيلة بني ملاعب، وهو حميّ رضوان السلجوقي ملك حلب وأرسلان تاش من ديار بكر، وغيرهم.

ثم اتجهت هذه القوات جميعها نحو العاصي، فاصطدمت بطريقها على جسر الحديد، بحامية صليبية، كانت تقوم بمهمتها بمراقبة وحماية أطراف أنطاكية، فسحقتها (٤ حزيران ١٠٩٨ م)، ولم تلبث أن لاحت ألويتها تحت أسوار المدينة كما مرّ آنفاً.

لقد وصلت القوات الاسلامية الى أنطاكية متأخرة، إذ كانت هذه المدينة قد فتحت قبل يوم واحد من قبل الصليبيين، أي في الثالث من حزيران ١٠٩٨ م. فكان ذلك من حسن حظ هؤلاء؛ وكان السبب في هذا التأخر، إقدام الأمير كربوغا على محاولة الاستيلاء على مدينة

(١) إبن الأثير: الكامل ص ١٩٣ - وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة. ج(٥) ص - ١٤٦.

الرها، التي أصبحت صليبية، وتضييع وقت طويل في هذا السبيل، دون فائدة، ولو حالفه الحظ، وتمكن بسرعة من أخذ تلك المدينة، قبل أن تقع أنطاكية بيد الصليبيين، لكان تغيّر سير الحوادث، لمصلحة المسلمين.

ذلك أن مدينة الرها، بحكم موقعها على مجرى الفرات الأعلى، كانت تتحكم في الطريق بين حلب والموصل، وتهدّد الشرق والجنوب من البلاد، فتحول دون وصول الأمداد للشام وتعيقها، ولا شك ان كربوغا كان على بيّنة من الأمر حينما قام بتلك المحاولة، التي استهدف بها قلع تلك الشوكة من طريقه، فلم ينل مأربه، وجرت الرياح بما لم تشته السفن.

وبعد أن أخذت الجيوش الاسلامية مواقعها تحت أسوار أنطاكية، ألقت الحصار الشامل عليها من جميع جهاتها، ثم عمدت الى محاولة احتلال حصن: ريموند، أي (المحمّرة) على الضفة اليمنى للعاصي؛ فكان نصيبها الفشل، غير أن حامي الحصن، الكونت روبيردي فلاندر،- رأى من الأوفق إخلاءه، فأضرم النار فيه، وانسحب مع رجاله منه.

وهكذا فعل غودفروا دي بويون، حامي حصن: مالريغار أو حصن بوهمند، كيلا يحتله المسلمون.

الفصل الخامس

حصار أنطاكية من قبل المسلمين

عند تمركز الجيوش الاسلامية وإحكامها الحصار على أنطاكية، كان شمس الدولة بن ياغي سيان، لا يزال يقاوم في قلعة المدينة، فتقدم من كربوغا، ناشداً منه المعونة، وواضعاً نفسه تحت حمايته؛ فتلطّف هذا به، وطلب منه تسليمه القلعة، للضرورات الحربية التي تتطلّب ذلك، فرضخ شمس الدولة لهذا الطلب، مدلّلاً بذلك على حسن نيته، وسلّمت القلعة للقائد: أحمد بن مروان، من قبل كربوغا.

ومن تلك القلعة بدأ المسلمون بشنّ الغارات، على المدينة، وفقاً للخطة التي اختطها كربوغا فأبدى الصليبيون مقاومة عنيفة ضدهم، وعمد بوهمند وكونت دي تولوز، الى حفر الخنادق وإقامة الأسوار لصدّ تلك الهجمات، وبعد عدة معارك، عدل كربوغا عن محاولة اختراق المدينة من ناحية القلعة، وصمّم على تشديد الحصار عليها، وتجويع المدافعين عنها. فجعل معسكره في السهل الممتد تحت أنطاكية، قرب باب: البحر، بغية إرغام المحاصَرين، على الإسراع في التسليم، بعد أن أحكم تطويقها، وضيّق الخناق عليها.

وكان لهذا الحصار أثره الكبير على الصليبيين، فتحرّج موقفهم في داخل المدينة، واضطربت أمورهم، واجتاح اليأس نفوسهم، بسبب قلة الأقوات، وانتشار الأوبئة والغلاء الشديد، فمات الكثير منهم، وعمت المجاعة والفوضى في صفوفهم، بحيث امتنع بعض الجنود المرهقين من

الجوع والتعب، عن التحرك والقتال. وعمد عدد ليس بالقليل منهم الى الفرار نحو مرفأ السويدية، حيث كانت مراكب الفرنج ترسو، منتظرة، ولدى وصولهم الى ذلك المرفأ، أخذوا يروّجون الأخبار، ويشيّعون بأن الجيش الصليبي، أصيب بالفناء، وحطّمه الأتراك، وقتلوا جميع الصليبيين في أنطاكية. فاستبدّ الذعر في نفوس الذين كانوا في تلك المراكب من البّحارة، وانسحبوا الى عرض البحر.

وكان من بين الهاربين: غي تروسّو، سيّد مونتلري، وغليوم وأندره دي غراندڤيل النورماندیان، والبلجيكي: لامبير الفقير، وكونت دي كليرمونت، وغليوم فيكونت دي ميلون، المسمّى بالنجار (وهي المرة الثانية التي يهرب فيها) وغيرهم كثيرون، وقد حاول بطرس الناسك أيضاً الفرار الا أن بوهمند منعه من ذلك. ولحق بعض جنود الأتراك بهؤلاء الصليبيين، فأدركوا قسماً من المراكب الراسية في المرفأ وأحرقوها.

وفيما بعد، ذهب الهاربون الى مرفأ الاسكندرون، ثم الى آسيا الصغرى، حيث اجتمع بعضهم بالامبراطور البيزنطي ألكسيس كومنين، وأعلموه بما وصلت إليه حالة الصليبيين في أنطاكية. وكان أتيان دي بلوا قد رافقهم من الاسكندرون وقابل معهم الامبراطور، الذي ما أن سمع الأخبار منهم، حتى عدل عن فكرة الزحف على أنطاكية، وعاد الى القسطنطينية، بالرغم من إلحاح وتوسّلات الأمير النورماندي غي، شقيق بوهمند، الذي كان في خدمة الامبراطور البيزنطي وقتذاك.

ولنعد الى الامبراطور ألكسيس كومنين، فنرى أنه كان بعد معركة أسكي شهر قد تمكن من استعادة الأناضول الغربي، من يد الأتراك، الذين كانوا يحتلّونه منذ عام ١٠٨١ م. ذلك أنه على إثر سقوط مدينة أسكي شهر (Dorylée) دفع الامبراطور البيزنطي بجيش سلّم قيادته الى

صهره: جان دوكاس، فاتجه به نحو إزمير، وكان برفقته، زوجة السلطان قلج أرسلان وهي إبنة حاكم هذه المدينة: الأمير تزاكاس، ومرافقوها من الاتراك؛ ويعاون هذا الجيش اسطول عُقد لواؤه للأميرال: كاسباس، وعند اقترابه من المدينة، انسحب حاكمها منها دون حرب، فاستلمها جان دوكاس، ثم تابع سيره الى أفينر واحتلّها بسهولة.

وفي ربيع ١٠٩٨ م إستطاع هذا القائد، أن يحتلّ: سارت، وفيلادلفيا (ألاشهير)، ولاوديسا، (هيبارابوليس) بالقرب من دينزلي الحالية، وبعد ذلك صعّد شمالاً للشرق، فالتقى الأتراك، وهزمهم قرب بوليبوتوس.

وفي تلك الاثناء، كان الامبراطور ألكسيس كومنين، قد فرغ من احتلال ناحية البيتيني (Bithynie) التي أخلاها الأتراك بعد معركة إسكي شهر، واجتمع بجان دوكاس في إفريجيا (Phrygie). ومن ثم اتجه نحو قيليقية ليلحق بالصليبيين، الى أنطاكية، مع جيشه الكبير، ولكن الانباء السيئة التي سمعها من الصليبيين الهاربين من تلك المدينة، جعلته يتراجع الى عاصمته، دون ان يبالي بمصير الجيش الصليبي، كما سبق بيانه.

وعندما رأى بوهمند أن الأمر يتطلّب تحرير ضواحي القلعة ومنافذها، لكي يمكن تشييد خط دفاع، لحماية المدينة من هجمات الحامية التركية للقلعة، اتخذ الاجراءات السريعة لاشعال النار في قسم كبير من المنازل القريبة من القلعة، وبنى ذلك الخط الدفاعي (١٢ حزيران ١٠٩٨ م). فكان لعمله هذا، أثر كبير في رفع معنويات افراد الجيش الصليبي، إذ سهل لهم الحفاظ على مواقعهم حينذاك، ولكن تلك المعنويات، لم تكن لتصل الى الدرجة التي تؤدي الى الصمود طويلاً، لولا حدوث مفاجأة غير منتظرة، أو معجزة كما اعتقد أغلبهم، كان لها أكبر الأثر على وضعهم الصعب، الا وهي العثور على الحربة المقدسة، وجلية

الأمر، أن قروياً بروڤنسالياً يدعى: بطرس برتلمي، زعم أن القديس أندراوس، تبدّى له في المنام، وأعلمه بأن الحربة التي استعملت أداة لطعن السيد المسيح في ذلك الزمان، هي مطمورة في كنيسة القديس بطرس، في أنطاكية، والتي كان المسلمون قد حوّلوها الى جامع. وقص بطرس منامه هذا على مندوب البابا أديمار دي مونتيل، وعلى الكونت دي تولوز، ريموند دي سان جيل، فلم يصدّقه الأول، فيما رأى الثاني ان الأمر يستدعي التحقيق، واهتمّ به كبير اهتمام، خصوصاً وأن بطرس برتلمي، ينتمي الى مقاطعته. فكلّف ثلاثة عشر شخصاً بحفر المكان الذي عينّه لهم هذا الأخير، وساعدهم هو بنفسه بالعمل، فعثر على تلك الحربة، وأظهرها للجميع، فهلّل الناس لمرآها، واعتبروا بأن النصر، بات وشيكاً، وهو لا بدّ آتٍ.

على أن بعض الأشخاص، انتابهم الشكّ في حقيقة هذه الحربة، التي هي كناية عن قطعة من حديد، تآكلها الصدأ، وليس لها معالم الحربة، وذلك لعلمهم بأن الحربة المقدّسة الحقيقية، التي طعن بها السيد المسيح، موجودة في القسطنطينية، عاصمة البيزنطيين، منذ زمن بعيد، حيث شاهدها بعض القادة من الصليبيين، وقت مرورهم فيها، وتبرّكوا بها كما يقال[1].

والواقع أن البيزنطيين كانوا دائماً يدّعون بأنهم يمتلكون تلك الحربة المقدّسة، ويحتفظون بها في كنيسة: Sainte - Marie du Phare[1].

وسنرى فيما بعد، ما حلّ ببطرس برتلمي هذا، بسبب تلك الحربة التي أفقدته حياته.

وقد اعتبر المؤرخون والكتّاب المسلمون، ومنهم إبن الأثير بأن مسألة

(1) Zoé Oldenbourg: Les croisades, P. P. 126 - 127.
- Dominique Paladilhe: La grande Aventure des croisés. P. 109.

الحربة، هي من قبيل الحِيَل التي لجأ إليها الصليبيون لرفع معنويات جيشهم، كما راود الشك كثيراً من الكتاب الغربيين، بصحة رؤيا بطرس برتلمي، وعلى كل حال، فإن الكونت دي تولوز، حاول استغلال هذه الفرصة، معلناً تصديقه لما زعمه هذا البروڤنسالي، فجاراه كثير من الناس.

أما بوهمند، الذي انتخب قائداً أعلى ورئيساً لمجلس قيادة الجيش، على إثر فرار أتيان دي بلوا، الرئيس السابق، فقد حاول أيضاً انتهاز هذه المناسبة لمصلحته، فأرسل مندوبين من قبله الى الأمير كربوغا، القائم على محاصرة المدينة، هما: بطرس الناسك، والمترجم هيرلوان، لينذراه بفك الحصار عن أنطاكية، والعودة الى بلاده سالماً مع جيشه وعتاده، فرفض كربوغا هذا الانذار بازدراء، ليقينه بأن العدوّ الصليبي، يتخبّط بشباك ضائقة كبيرة، بحيث أصبح التغلّب عليه بمنتهى السهولة (٢٧ حزيران ١٠٩٨ م) ولم يرَ الصليبيون بدّاً والحالة هذه، من مجابهة المسلمين، وقتالهم، لوضع حدّ للحصار المضروب عليهم، والآخذ بخناقهم، مهما كانت النتيجة، فهبّوا في صباح اليوم التالي، للتجمع أمام باب المحمّرة، ثم الخروج من المدينة، بصورة متتابعة، كل فرقة بعد الأخرى.

فالفرقة الأولى، كانت مؤلفة، من الفرنسيين والفلمنديين، بقيادة هوج دي ڤرماندوا والكونت دي فلاندر.

والثانية، من اللوتارانجيين، بقيادة غودفروا دي بويون.

والثالثة، من نورماندي نورمنديا، بقيادة روبير كورتهوز.

والرابعة، من البروڤنساليين، بقيادة اسقف بوي، أديمار دي مونتيل مندوب البابا، وكان يحمل الحربة المقدسة المزعومة.

والخامسة والسادسة، من نورماندي إيطاليا، بقيادة تنكرد وبوهمند.

وقد بقي الكونت دي تولوز، ريموند دي سان جيل، في المدينة، مع قسم من الجيش لمقاومة الأتراك، المحتلّين للقلعة.

وكان رجال الدين الصليبيون بملابسهم وصلبانهم، يرافقون العساكر، ويمنحونهم البركة الرسولية.

ولما بدأ الصليبيون بعبور النهر، وقبل أن تُصبح جموعهم على ضفته اليمنى، حيث يعسكر الجيش الاسلامي، أشار بعض الإمراء على الأمير كربوغا، بوجوب مهاجمة كل فرقة، اثناء خروجها على تلك الصورة، منفردة، فرفض الأخذ برأيهم قائلاً: إنه يجب الانتظار، حتى يتكامل جمع تلك الفرق، لابادتها دفعة واحدة، عن بكرة أبيها.

وهكذا فاتت الفرصة على المسلمين، بسبب تعنّت قائد جيشهم كربوغا، وتفرّده برأيه، فلم يهاجم كتائب الصليبيين حين خروجها الواحدة تلو الأخرى، واستفرادها مما أدّى الى إفساح المجال لتلك الكتائب للخروج سالمة من المدينة، وبالتالي للتجمّع كتلة واحدة، في مراكزها. وكان الجيش الاسلامي عند ذاك، يرابط على طريق: طشاكمجا، ومقبرة المسلمين، تجاه وادي القويسية. فلما اندفع الصليبيون لمقاتلته، أسرع كربوغا، فأرسل فرقة من جيشه، مهمتها الالتفاف خلف الضفة اليمنى للعاصي، بغية أخذ الصليبيين من الوراء. ففطن بوهمند لهذه الخطة، وأحبطها بأن قذف بفرقة احتياطية كان ألّفها من بين جند غودفروا دي بويون وروبير دي نورمندي، وسلّم قيادتها الى رينه دي تول، الذي قادها نحو منخفضات العاصي، لكي يقطع الطريق على الأتراك الكامنين في تلك الجهة، وباشتداد الضغط على هؤلاء، أخذوا بالتراجع شمالاً، باتجاه القويسية، مضرمين النار في الأعشاب، أثناء تراجعهم، وكل همّهم إعاقة وإيقاف الجيش الصليبي في مكانه.

على أن هذا الجيش لم يتوقف، إذ ما لبث أن اخترق معسكر

كربوغا نفسه، وهنا لم يكن من جيش التركمان وبعض الأمراء العرب والأتراك، الذين كانوا على خلاف مع كربوغا، بسبب ما أظهره تجاههم من تكبّر واحتقار، إلاّ أن أخلوا الميدان وولّوا الأدبار؛ بحيث لم يبق في المعركة سوى جناح الدولة وسقمان بن أرتق بالإضافة الى كربوغا، مع جنودهم. وما هي إلاّ جولات، حتى أركن الجميع للفرار، بعدما أصيبوا بخسائر فادحة في الأرواح، فكانوا نهباً للأسنة والرماح، (٢٨ حزيران ١٠٩٨ م).

ولم يكتفِ الصليبيون بهذا الفوز يحرزونه أمام المدينة، انما راحوا يتعقبون فلول الجيش الاسلامي المنهزم، ويعملون السيف في كل مَن يقع بين أيديهم، أنّى ثقفوه، حتى وصلوا في ملاحقتهم الى حارم، بمعاونة اهالي المنطقة المسيحيين من أرمن وسريان، ليقطعوا خط الرجعة عليهم.

ثم رجع الصليبيون الى حيث كان معسكر الجيش الاسلامي، والذي تركه المنهزمون على عجل، فأمعنوا فيه نهباً وسلباً، وكان لهم غنيمة كبرى، في ذلك الوقت العصيب.

أما فيما يختص بالأمير كربوغا، فقد أوصله هربه الى حلب، وكان يرافقه نخبة من رجاله الاوفياء، فقابل هناك، الملك رضوان السلجوقي، الذي هوّن عليه المصيبة، وطيّب خاطره، وأعطاه ما هو بحاجة إليه من مؤونة وعتاد، مع أصحابه، وبعد ذلك ترك كربوغا مدينة حلب ورحل الى الموصل، فدخلها بذلة وانكسار.

وكان من نتيجة هذه المعركة التي أصيب فيها المسلمون بالهزيمة، أن أنفرط عقد الجيش الإسلامي المتحالف، وتبخّرت آمال الأتراك باستعادة أنطاكية من العدوّ الصليبي.

يقول إبن القلانسي بهذه المناسبة:
[وتجمعّت عساكر الشام في العدد الذي لا يدركه حصر، ولا جزر،

وقصدوا عمل أنطاكية للايقاع بعساكر الإفرنج، فحصروهم حتى عُدم القوت عندهم، وأكلوا الميتة، ثم زحفوا وهم في غاية من الضعف، الى عساكر الاسلام، وهم في الغاية من القوّة والكثرة، فكسروا المسلمين، وفرقوا جموعهم، وانهزم أصحاب الجُرد السُبّق، ووقع السيف في الرجال المتطوّعين والمجاهدين والمغالبين في الرغبة في الجهاد وحماية المسلمين[1]].

هذا وإن القائد أحمد بن مروان، حامي قلعة أنطاكية من قبل كربوغا، لم يعد يفكّر بالمقاومة، بعد ما رأى بعينيه نتيجة المعركة، وما حلّ بالجيش الاسلامي المتحالف، فسارع يفاوض الصليبيين بتسليمهم القلعة، لقاء انسحابه، مع رجاله سالمين، فقبلت شروطه، وتمّ ذلك. وكان بوهمند هو الذي وضع شروط الاستسلام: وقد جاء في هذه الشروط، شرط يقول [إن من يريدون التنصّر من المسلمين، يحقّ لهم البقاء في أنطاكية. وإلاّ فهم أحرار بالذهاب الى أي بلد إسلامي].

ولما استتبّ الأمر للصليبيين في أنطاكية، أقدم بوهمند، على وضع يده على قلعتها بعد أن أخرج منها قوّات ريموند دي سان جيل، وغودفروا وغيرهما، وعندئذٍ عاد النزاع يذرّ قرنه بين القائدين الصليبيين: بوهمند وريموند، كعادتهما، فراح كلّ منهما يناصب الآخر العداء، فبوهمند يعتبر بأن من حقه، إمارة انطاكية، بعد كل ما فعله في سبيل الحصول عليها، ألم يعده باقي القادة بها، عندما كان اليأس من الاستيلاء عليها، يستبدّ بهم؟ وها هم الآن لا يمانعون بالتخلّي له عنها، الاّ الكونت دي تولوز، فإنه يرفض ترك المراكز التي يحتلّها فيها، على أمل ان تكون المدينة من نصيبه؛ والواقع ان انطاكية، بعد سقوطها بيد الصليبيين، كان يجب أن تعود الى الامبراطورية البيزنطية، عملاً بمعاهدة القسطنطينية، السابقة والمعقودة بين ألكسيس

---

(1) ذيل تاريخ دمشق: ص ١٣٦ - حوادث سنة ٤٩١ هـ.

كومنين وقادة الصليبيين وهي تنص على إعادة جميع الممتلكات التي كانت في حوزة الدولة البيزنطية، قبل موقعة ملازكرد، الى حظيرتها، بعد الاستيلاء على تلك الممتلكات من قبل الصليبيين، وقد كان زعماء الفرنج أقسموا على ذلك، واشترك الامبراطور البيزنطي، في الحرب معهم، على هذا الأساس.

ولكن بعد تلكؤ الامبراطور الكسيس كومنين عن المجيء الى أنطاكية لمساعدة الصليبيين على أخذها، جعل هؤلاء الاخيرين، يستهينون بحقوق البيزنطيين، من هذه الناحية، مما أدّى الى التباين بالرأي فيما بينهم، فاضطروا بعد الأخذ والرّد الى عقد اجتماع لمجلس القيادة في أوائل شهر تموز ١٠٩٨ م، لوضع حدّ للخلاف بينهم، والاتفاق على الخطة التي يجب ان يسيروا عليها، في تعاملهم مع الامبراطور البيزنطي. وبنهاية الاجتماع، قرّر المجلس إرسال مندوبين من قبله، الى القسطنطينية، لمقابلة ألكسيس كومنين، ودعوته للحضور الى أنطاكية، ليتسلّم هذه المدينة بنفسه، مقابل تنفيذه الشروط المتفق عليها في معاهدة القسطنطينية المعقودة بينهم وبينه عام ١٠٩٧ م.

وتوجّه المبعوثان وهما: هوج دي فرماندوا، وبودوان دي هينو، من أنطاكية نحو القسطنطينية، سالكين طريق الأناضول، وعند وصولهما الى قرب البيتيني في ٢٥ تموز ١٠٩٨ م، وقعا بالفخ الذي نصبه لهما الأتراك فقتل بودوان دي هينو، وسَلِم هوج دي فرماندوا، وبقي متابعاً سيره الى العاصمة البيزنطية، حيث قابل الامبراطور وعرض عليه الأمر، المكلّف به، إلاّ أن هذا الأخير، لم يعط رأياً قاطعاً وصريحاً بهذا الشأن، ولم يبد اهتماماً كبيراً بطلب الصليبيين، مما حملهم على الشك في موقفه، وعدم انتظار جوابه، الذي تأخر كثيراً.

وكان بعد ذلك أن مات مندوب البابا أديمار دي مونتيل، إثر

إصابته بالطاعون، فخسر الفرنج بموته، حكماً مصلحاً ومستشاراً حكيماً.

وفي تلك الاثناء، وبعد سقوط انطاكية، أظهر الصليبيون وحشية لم تُعرف من قبل، تجاه المسلمين: إذ أنهم، بمساعدة الأهالي المسيحيين، أقدموا على قتل جميع الأتراك الذين لقوهم في المدينة، من رجال ونساء وأولاد، واحتلوا منازلهم وأماكنهم، ونهبوها، ولم تسلم منهم النسوة المسيحيات أحياناً، اللاتي كنّ يبعن أجسادهن لقاء بعض القوت.

على أن الصليبيين بالرغم من خلافاتهم، لم يخلدوا الى الراحة، إذ كانوا على إثر استتباب الأمور في المدينة، يسوقون الحملات العسكرية الى نواحٍ عدة، فيقترفون أعمال السلب والنهب والقتل. دون رادع أو وازع، وكل منهم، كان يعمل بانفراد، ولا يفكر الاّ بمصالحه الخاصة، في تلك الحملات.

فقد توجّه غودفروا دي بويون الى مدينة الرها، حيث أقطعه شقيقه بودوان دي بولونيا، مدينتي تل باشر وراوندان (اوائل آب ١٠٩٨ م).

ومضى ريموند دي سان جيل نحو ألبارة، شرقي العاصي واستولى عليها. بعد أن سفك دماء المسلمين فيها، كباراً وصغاراً، من رجال ونساء.

ثم عاد غودفروا دي بويون، الى أنطاكية، وأخذ يستعدّ للقيام بحملة عسكرية، دفاعاً عن أمير مسلم، كان على خلاف مع مليكه -.

وجلية الأمر ان حاكم (عَزاز) ويدعى عمراً، كان قد أعلن الثورة والعصيان على رضوان السلجوقي، ملك حلب. فحاصره هذا الأخير، وضيّق الخناق عليه، فما كان من هذا الحاكم، الاّ أن استجار بغودفروا، طالباً منه المعونة، وبعث بولده محمد ليكون رهينة لدى القائد الصليبي، تدليلاً على إخلاصه[1]. فلبّى غودفروا طلب عمر، وأعلمه بواسطة الحمام

(١) كمال الدين: تاريخ الشرق (ج) - ٣ - ص. ٥٨٦.

الزاجل، بالمجيء إليه، على الفور، داعياً إياه للثبات والصمود، لغاية وصوله. وبذات الوقت عمد غودفروا دي بويون، الى الاستعانة بالكونت دي تولوز، وببوهمند، وبشقيقه بودوان أمير الرها، لمؤازرته ضد رضوان ملك حلب.

وقد وافاه بودوان، بثلاثة آلاف فارس. ولما تحقّق رضوان من نبأ زحف الصليبيين، لنجدة حاكم عزاز رأى أن من الأوفق تفادي لقائهم، فرفع الحصار عن المدينة، وانسحب الى بلده، فيما أعلن عمر، تابعيته، لغودفروا (١٤ - ١٧ أيلول ١٠٩٨ م).

وقبل ذلك بقليل، أي بالتحديد في الحادي عشر من أيلول ١٠٩٨ م، كان جرى اجتماع للقادة الصليبيين: بوهمند وريموند دي سان جيل، وغودفروا، وروبير كونت دي نورمانديا، والكونت دي فلاندر، وأويستاسن كونت دي بولونيا، وتباحثوا بشأن بعض الأمور المستجدّة، وانتهى اجتماعهم الى الاتفاق على إرسال كتاب الى البابا - بغية إعلامه بما وصلت اليه أحوالهم، ودعوته الى الحضور إليهم في أنطاكية، لترؤس الحملة الصليبية شخصياً، والسير بها الى بيت المقدس، طالما ان مندوبه أديمار دي مونتيل، قد انتقل الى ربّه.

ويظهر ان البابا أوربان الثاني، لم يكن وقتذاك، في وضع يمكنّه من ترك اوروبا للانضمام الى الصليبيين، فلم يجب على الكتاب المرسل إليه منهم، ولم يستجب لطلبهم، كما كان الحال مع الامبراطور البيزنطي.

ولقد استمرّ الخلاف على أشدّه بين بوهمند، وريموند دي سان جيل، بشأن تملّك انطاكية. وأصرّ كلّ منهما على موقفه لا يتزحزح عنه، الأمر الذي دعا مجلس القيادة للاجتماع في كنيسة القديس بطرس، والبحث في مسألة الزحف على بيت المقدس (أول تشرين الثاني ١٠٩٨ م): بالرغم من أن لجنة البارونات التي كلفّت بالتحكيم، لفصل الخلاف بين القائدين

الصليبيين، لم تكن لها الجرأة الكافية على إصدار قرارها بهذا الشأن، كيلا تسيء الى أحد منها، وكانت النتيجة ان متابعة الزحف على فلسطين، أرجىء موعدها. في حين تقرّر تجهيز حملة عسكرية. لإرسالها الى مدينة معرّة النعمان لفتحها -.

وهكذا قام الكونت دي تولوز وبرفقته الكونت دي فلاندر، ثم بوهمند، ومعهم قوة كبيرة، وساروا الى تلك المدينة، وألقوا الحصار عليها (أواخر تشرين الثاني ١٠٩٨م). وقد دافع اهاليها عنها دفاعاً مستميتاً، بعد أن كان امتنع رضوان ملك حلب، وجناح الدولة أمير حمص، عن نجدتها، ولم يباليا باستغاثة المسلمين الموجهة اليها.

ولما رأى الصليبيون، تلك المقاومة الضارية التي أبداها الأهالي، عمدوا الى بناء برج خشبي سيّار أعلى من سور المدينة، جهّزوه بأشدّ الرجال، وأخذوا يقاتلون المدافعين عن ذلك السور، الى أن تمكنوا من فتح ثغرة فيه، وهدمه تدريجياً: بحيث قوي الضغط على المدافعين، فلم يعودوا يستطيعون الثبات، مدة طويلة، مما اضطر أهالي المدينة، بعد بضعة أيام من الحصار، الى طلب الأمان، مستسلمين. فدخل الصليبيون إليها، وهم في أوج اهتياجهم وفتكوا بالرجال، وأخذوا النساء والأولاد أسرى، أرقّاء، ولما انتهوا من ذلك أقاموا بيار دي نربون، أسقف ألبارة، أسقفاً عليها، ورجع قسم منهم، الى أنطاكية، بينما بقي القسم الآخر في المعرّة.

ويقول ابن القلانسي، بصدد فتح معرّة النعمان:

[في المحرم من سنة إثنتين وتسعين وأربعمائة، زحف الافرنج الى سور معرّة النعمان من الناحية الشرقية والشمالية، وأسندوا البرج الى سورها، وهو أعلى منه، فكشفوا المسلمين عن السور، ولم تزل الحرب عليه، الى وقت المغرب من اليوم الرابع عشر من محرّم، وصعدوا السور.

وانكشف أهل البلد عنه، وانهزموا بعد أن تردّدت إليهم رُسُل الافرنج في التماس التقرير والتسليم، وإعطاء الأمان على نفوسهم وأموالهم، ودخول الشحنة إليهم، فمنع من ذلك الخلف بين أهلها، وما قضاه الله تعالى، وحكم به؛ وتملكوا البلد بعد صلاة المغرب، وقتل فيه خلق كثير من الفريقين، وانهزم الناس الى دور المعرّة للاحتماء بها، فأمنّهم الافرنج، وغدروا بهم، ورفعوا الصلبان فوق البلد، وقطعوا على أهل البلد القطائع، ولم يفوا بشيء ممّا قرّروه، ونهبوا ما وجدوه وطالبوا الناس بما لا طاقة لهم به[1]].

وإذ طالت المدة، وتأخر الزحف على بيت المقدس، بسبب هذه الحوادث، بدأ التململ بين الصليبيين، من أولئك الحجاج الذين كانوا لا يزالون يتشوقون للوصول الى المدينة المقدسة، هدفهم الأول، فسادت روح التذمر والتأفف بينهم، وقام القسم الذي كان بقي في معرّة النعمان، بهدم أسوار هذه المدينة، ومساكنها ومساجدها، كما يقول كمال الدين[2]، لكي يرغموا البارونات، على متابعة السير الى القدس (٥ كانون الثاني ١٠٩٩ م).

ويوضح ريموند داجيل في كتابه (صفحة ٢٧١):

[إن الحجاج والجنود الصليبيين، لم يكونوا ليأبهوا لنصائح الأسقف، بيار دي نربون، ولا لقادتهم، بل كانوا يصرخون عالياً بأنهم لم يأتوا الى الشرق، لافتتاح المدن، إنما أرادوا تكبّد المشقات، في سبيل خدمة الآله فقط، وأن في استطاعتهم، إرغام البارونات بالقوة على مجاراتهم فيما يهدفون اليه].

---

(١) ذيل تاريخ دمشق - ص. ١٣٦ - حوادث سنة ٤٩٢ هـ.

(٢) تاريخ حلب - ٥٨٧.

وما كان في وسع الرؤساء الصليبيين، التنكّر لهؤلاء الحجاج وإهمال الرأي العام الصليبي، فاستجابوا مكرهين، لمطاليبهم، ولرغبات الجنود أيضاً الذين، جاروهم بذلك، وكان أول من أحنى رأسه لهذه الزوبعة، هو الكونت ريموند دي سان جيل، الذي لم يعد يفكر بانطاكية، ولا بتملكها. فخرج من المعرّة، حافي القدمين، لابساً المسوح مثل كل حاج، وحاملاً الصليب بيده (١٣ كانون الثاني ١٠٩٩ م)، يتبعه الآخرون.

وقبل وصوله على رأس جيشه، الى مدينة شيزر، على العاصي، لحق به تنكرد مع فرسانه الأربعين؛ واستولى الجميع على مدينة كفرطاب. ثم وافاهم إليها، روبير دي نورمانديا مع فرقته، وتابعوا سيرهم الى شيزر. ولما أصبحوا على مقربة منها لم يسع أميرها: عز الدين ابو العساكر سلطان، وهو من بني منقذ من قبيلة (بني كنانة العربية)، الاّ المبادرة بتقديم عروضه عليهم، من حيث تأمين المؤونة لهم، وإفساح المجال لجيشهم للمرور بأرضه، وإهدائهم مالاً وخيولاً، املاً منه بابعادهم عن إمارته.

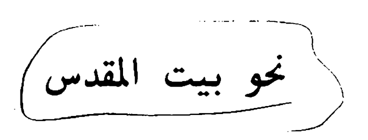
على أن الصليبيين، لم يراعوا جانب هذا الأمير، مع كل ما أصابهم منه من خيرات، فضربوا خيامهم على أبواب مدينته، بهدف الضغط عليه، مما أثار حفيظته وحنقه، فقابلهم بتهديدهم بقطع المؤونة عنهم، فخشوا عاقبة الأمر، وأقلعوا من مكانهم، وبرفقتهم دليلان عربيان، يهديانهم الى الطريق، التي يجب عليهم المضيّ بها، وخلال سيرهم، توفقوا بالاستيلاء على إحدى القلاع في وادي سروج، واحتجزوا بعض قطعان الماشية، وكميات من الحبوب وافرة.

ثم تابع الصليبيون زحفهم لجهة الغرب، فأتوا حصن مصياف، حيث خرج لهم صاحبه، وعقد مع الكونت دي تولوز اتفاقاً حبياً (٢٢ كانون الثاني ١٠٩٩ م) وفي اليوم التالي، توجهوا نحو حصن رفنية (Céphalée)

الذي أخلاه صاحبه قبل وصول الصليبيين اليه، فدخله هؤلاء ومكثوا فيه ثلاثة أيام للراحة، وبعدها اجتازوا بعض الجبال الشاهقة ونزلوا، ما بين مريامين وحصن الأكراد، في سهل البقيعة (Boquée)، المروي بنهر العريضة، المتفرّع من النهر الكبير (٢٧ كانون الثاني ١٠٩٩ م)، فالتجأ أهالي المنطقة من العرب عند ذاك، الى حصن الأكراد (أو قلعة الحصن). فهاجمهم الصليبيون فيه. وبعد عدة هجمات قوية تمكنوا من دخوله (٢ شباط ١٠٩٩ م)، فأخلاه الأهالي.

وهناك استقبل الصليبيون مبعوثي أمير حمص: جناح الدولة بن ملاعب، الذين قدّموا للكونت دي تولوز بعض الهدايا، من الخيول العربية، والذهب، وعقدوا معه معاهدة، تعهد فيها جناح الدولة بمعاملة المسيحيين، معاملة حسنة (٤٩٣ هـ).

الفصل السادس



نحو بيت المقدس

بعد ان ترك الصليبيون حصن الأكراد، ونزلوا في وادي النهر الكبير، واصلوا سيرهم الى سهل عكار الساحلي، حتى وصلوا الى قرب مدينة (عَرَقة) المحصّنة، والتابعة لامارة طرابلس، فأرسل صاحبها مندوباً من قبله، أرفقه بهدية مؤلفة من عشرة جياد وأربعة بِغال، وعدد من الدنانير الذهبية، ليطلب من الكونت دي سان جيل، عقد معاهدة صداقة معه. فأبى الكونت التفاوض معه، مصمماً على أخذ المدينة عَنوة. ولهذا ألقى الحصار عليها، بناء لرأي مستشاريه. الذين أشاروا عليه بهذا التدبير.

وفيما كان الحصار على عَرَقة يأخذ مجراه، أقدم بعض الفرسان من الجيش الصليبي، على القيام بمغامرة جريئة في الضواحي. فسار بيار دي شاتيّون مع أربعة عشر فارساً الى مدينة طرابلس، حيث التقى جماعة من جند المسلمين خرجت لمقابلته، فهزمها، دون أن يستطيع الدخول الى المدينة.

كما قام ريموند دي تورين، وريموند بيله، مع عدد من الفرسان الأفرنج، بمهاجمة مدينة طرطوس، وعجزوا عن دخولها؛ الاّ أنهم عسكروا خارجها، وأشعلوا النار حول أسوارها. فتوهمت حاميتها التركية بأن جيش الصليبيين بأجمعه أتى اليها، فما كان منها الاّ أن تركت مواقعها ولاذت بالهرب، عند حلول الظلام. فدخلت القوة

الصليبية في صباح اليوم التالي، ووجدت المرفأ خالياً فاحتلته. ثم عادت أدراجها الى الجيش المحاصر لعرقة.

في تلك الأثناء، كان غودفروا دي بويون وروبير دي فلاندر قد أبحرا مع قوّاتها، من أنطاكية الى جَبلة، لمحاصرتها؛ (وكانت هذه المدينة تابعة لامارة طرابلس، واستقلّ بها قاضيها أبو محمد عبد الله بن منصور، عن بني عمّار أمراء طرابلس) وإذ طال الحصار على عَرقة واشتدّ، خاف صاحبها، من العاقبة، وراح يروّج الاشاعات، بالاتفاق مع أمير طرابلس، بأن الخليفة الفاطمي، آتٍ لنجدته، وهو في الطريق اليها، فأخذ الصليبيون بتلك الاشاعات، وعمدوا الى توحيد قواهم، حيث طلب ريموند دي سان جيل، من غودفروا دي بويون والكونت دي فلاندر، العمل على فك الحصار عن (جبلة)، والانضمام اليه، بأقصى سرعة. فنزلا عند طلبه، بالرغم من كرههما له، وعقدا اتفاقاً، مع صاحبها (اي صاحب جبلة)، الذي كان على وشك التسليم، فأتاه الفرج بذلك.

بيد أن النجدة التي روجت الاشاعات عن قرب وصولها من قبل الخليفة الفاطمي، لم تصل الى عَرَقة، وكانت تلك الاشاعات غير صحيحة، وظلت هذه المدينة مُمتنعة على الصليبيين؛ ممّا أدّى الى وقوع الفرقة بين صفوفهم؛ فأخذ قسم منهم، يطالب برفع الحصار عنها ومواصلة المسيرة الى بيت القدس حالاً، فيما أصرّ القسم الآخر على مهاجمة هذه المدينة قبل متابعة السير الى المدينة المقدّسة.

وهنا برز بطرس برتلمي، صاحب الحربة المقدّسة، معلناً بأن السيد المسيح. زاره في الرؤيا، وأشار عليه، بوجوب اقتحام المدينة المحاصرة بدون إبطاء. فلم تصدّقه الفئة المناهضة للحصار، وانقسم الصليبيون فريقين أحدهما، معه والآخر ضدّه. وعندئذٍ دعي الى إثبات رؤياه

بتجربة النار، حسب العوائد في ذلك العصر، فإما أن يخرج من النار سالماً، وبذلك تثبت صحة رؤياه. وإما أن تحرقه النار، فيكون عندئذٍ نال جزاءِ كذبه،والله لا يتخلّى عن المُحِقّ.

وقد وصف المؤرخ ريموند داجيل، مشهد تلك التجربة، التي كان من مشاهديها، فقال:

[إن بطرس برتلمي، كان عند ذاك، يرتدي جلباباً، عاري القدمين، وبيده الحربة ذاتها التي كان نبشها في أنطاكية، فأدخل الى داخل المحرقة، ولم يتوقف فيها الاّ قليلاً، حتى عاد وخرج منها، وهو مصاب بحروق في بدنه]، تلك الحروق التي لم يلبث أن توفي على إثرها، بعد يومين، وهو يعاني أشد الآلام.

وهكذا تحقق كذب بطرس برتلمي، حسبما قررّته تجربة النار، وحسب رأي اخصامه، فاضطر ريموند دي سان جيل، لرفع الحصار عن مدينة عرقة (١٣ ايار ١٠٩٩ م) كما سيأتي بيانه. وقبل ذلك أي في العاشر من نيسان ١٠٩٩ م، كان مجلس القيادة الصليبي، قد تلقى كتاباً، من الأمبراطور البيزنطي، ألكسيس كومنين، يفصح فيه عن استعداده شخصياً للاشتراك معهم في الحملة على بيت المقدس، مع جيشه الكبير. ويطلب منهم انتظاره بقرب مدينة طرابلس، حتى شهر تموز من تلك السنة، ريثما يصل، للانضمام اليهم، ومتابعة الزحف، سوياً الى الهدف المنشود؛ على أن تُردّ إليه مدينة أنطاكية.

لقد وصل كتاب الأمبرطور بعد فوات الوقت. فلم يلق طلبه القبول من القادة الصليبيين جميعهم، ما عدا ريموند دي سان جيل. إذ رأوا فيه نوعاً من الوصاية عليهم؛ وكانوا لا يزالون يرتابون بنوايا ألكسيس كومنين، فضلاً عن أن وجود هذا الأخير بين ظهرانيهم، لا يفيد منه الاّ الكونت دي تولوز وهم لا يقرون ذلك.

هذا في الوقت الذي عزّز فيه بوهِمند، مركزه في أنطاكية، رافضاً تسليمها الى البيزنطيين.

ان هذا الموقف الذي وقفه القادة الصليبيون من الأمبراطور البيزنطي، يدل دلالة واضحة، على أنهم لم يعودوا بحاجة الى مساعدته، لأنهم أصبحوا من القوة بحيث يتسنى لهم، مواصلة اعمالهم الحربية منفردين؛ خصوصاً بعدما رأوا بأعينهم أحوال المسلمين الذين تتنازعهم الأهواء وتعصف بهم الأحقاد، ودأبهم التقاتل فيما بينهم، في سبيل السلطة والحكم، ممّا كان السبب في هزائمهم المتتالية مع الصليبيين.

لقد قيل إن الصليبيين كانوا في ذلك الوقت قد علموا بأن اتفاقاً سرّياً عقد بين الامبراطور البيزنطي وبين الفاطميين في مصر، ضدهم لعدم تسليمه أنطاكية بعد فتحهم لها، وهذا ما جعلهم يرفضون انتظاره والموافقة على مرافقتهم الى القدس.

ومهما يكن من امر، فان مجلس القيادة الصليبي؛ قد تلقى، اثناء حصار عرقة، عرضاً من الخليفة الفاطمي في مصر، يبدي فيه موافقته بالسماح لعدد لا يتجاوز الثلاثمائة، من الفرسان الصليبيين، بالدخول الى بيت المقدس، بدون سلاح، إذا ارادوا ذلك (كان الجيش الفاطمي آنذاك، قد استخلص المدينة من يد السلاجقة). فرفض المجلس هذا العرض، وواصل مفاوضاته مع صاحب طرابلس؛ فتم الاتفاق بينهما على أن يقدّم هذا الأخير بعض المال والخيول، والمؤن، مع أدلاّءمسيحيين، لارشادهم الى طرقات الساحل اللبناني، مقابل رفعهم الحصار عن عرقة.

وقد وافق ايضاً صاحب طرابلس على طلب الصليبيين بالدخول الى مدينته، وباطلاق سراح ثلاثمائة أسير مسيحي. وبعد رفع الحصار عن مدينة عرقة، دخل الجيش الصليبي مدينة طرابلس، ومكث فيها ثلاثة

أيام، فعومل أحسن معاملة. ثم تركها حسب الاتفاق مع صاحبها الذي حافظ على تعهدّه.

كانت مدينة طرابلس في ذلك الحين، بيد أصحابها بني عمّار؛ ومؤسس هذا البيت، هو أبو طالب أمين الدولة الحسن. وكان قاضياً لطرابلس على المذهب الجعفري، وتابعاً للخليفة الفاطمي في مصر، فاستقل عنه في سنة ١٠٧٠م - ٤٦٣هـ وبعد استقلاله، عدل بحكم المدينة، وأنشأ فيها مكتبة حوَت اكثر من مائة ألف مجلدّ، ومدرسة كبيرة، ثم خلفه إبن أخيه، جلال الملك أبو الحسن علي بن محمد بن عمار: وسار على سياسته، الهادفة الى بذر بذور التفرقة بين الفاطميين والسلاجقة، لكي يقوي مركزه نتيجة خلافهم.

وبعد موت جلال الملك، خلفه أخوه أبو علي فخر الملك إبن عمار.

وهكذا لم يرَ صاحب طرابلس، غضاضة في التفاهم مع الصليبيين الداخلين، ما داموا يمثلون قوة ثالثة، جديرة باضعاف قوة الأتراك وقوة الفاطميين معاً: وذلك أملاً منه، بالمحافظة على استقلاله المهدّد دوماً، من قبل هؤلاء وأولئك.

وترك الصليبيون ضاحية طرابلس، ميمّمين شطر بيروت، يرافقهم الأدلاء (١٦ ايار ١٠٩٩م). فاجتازوا الساحل الطرابلسي، مروراً بأنفه، فرأس شكا، الذي تشرف عليه قلعة المسيلحة المحصنّة، فالبترون، فجبيل. ومن هناك، اتجهوا نحو نهر الكلب، نهاية حدود إمارة طرابلس،

وفي التاسع عشر من شهر أيار ١٠٩٩م مساء، كان الجيش الصليبي يرابط امام مدينة بيروت، دون ان يتعرض له أحد بسوء، بالرغم من أن المنطقة الممتدة من نهر الكلب، الى بيروت، كانت قد أصبحت تابعة للفاطميين، بعد أن تمكنوا من ضمّ فلسطين، بما فيها بيت المقدس، الى

ممتلكاتهم، في آب ١٠٩٨ م - ٤٩٢ هـ، بحيث امتدت حدود الدولة الفاطمية الى نهر الكلب شمالاً، ومجرى الأردن شرقاً.

وما ان وصلت القوات الصليبية الى ضواحي مدينة بيروت، حتى تقدم أهاليها يعرضون على قادة تلك القوات، تقديم كل ما يحتاجون اليه من مؤن وأقوات، متعهدين لهم بأن يكونوا من أتباعهم، فيما لو حالفهم الحظ باحتلال بيت المقدس. فوافق هؤلاء الاخيرون، على ذلك، وتابعوا سيرهم الى صيدا، ومنها الى صور، حيث عسكروا هناك (٢٣ ايار ١٠٩٩ م).

وفي تلك الآونة، انضم اليهم، فريق من الفرسان الصليبيين، لحقوا بهم من الرها وأنطاكية، لشّد أزرهم في هذا الزحف.

وبعد تركه صور. اكمل الجيش الصليبي طريقه الى عكّا، ومنها الى حيفا فقيسارية (٢٩ أيار ١٠٩٩ م) فأرصوف، ثم انعكف من طريق الساحل قبل يافا، متخذاً القدس، وجهته نحو الداخل، فاجتاز نهر العوجة، وعسكر قرب الرملة التي أخلاها أهاليها، عند وصوله اليها. (٢ - ٣ حزيران ١٠٩٩ م). فدخلها وأبقى فيها حامية صغيرة، بعد أن نصّب القادة الصليبيون عليها أسقفاً يدعى: روبير دي روان.

ومن ثّم تابع الجيش سيره نحو القبيبة، ومنها أُرسلت فرقة كشافة من الفرسان، بقيادة تنكرد وبودوان دي بورج الى بيت لحم، فبلغتها مع الفجر، وعندما رآها مسيحيو البلدة، خرجوا للقائها، وهم يرتلون الأناشيد الدينية. ثم رفعوا راية تنكرد، وركزوها عالية على كنيسة العذراء.

وفي السابع من حزيران ١٠٩٩ م - ٤٩٢ هـ وهو يوم ثلاثاء، كانت الجيوش الصليبية مجتمعة، تعسكر تحت أسوار مدينة القدس، هدف تلك الجيوش الأسمى.

فتح مدينة القدس بيد الصليبيين

كانت فلسطين واقعة تحت حكم الفاطميين في مصر، حين قيام دولة السلاجقة الأتراك، وتولّي السلطان طغرل بك، على عرشها، في عام ٤٢٩ هـ - ١٠٣٧ م وبعد أن استطاعت دولة السلاجقة، السيطرة على جانب كبير من العالم الأسلامي حينذاك، وعلى كثير من ممتلكات الأمبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى، اصطدمت بطبيعة الحال، بالدولة الفاطمية، التي كانت تحكم بلاد الشام في ذلك الوقت.

وكان أن استولى السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان. على جزء كبير من بلاد الشام، وعلى بيت المقدس في عام ٤٦٣ هـ - ١٠٧٠ م. وانتزع هذه البلاد من الفاطميين، ولكن، بعد أن حلّت الهزائم بالسلاجقة وتغلّب عليهم الصليبيون الذين تمكنوا من احتلال الرها وأنطاكية، وأقاموا فيها إمارتين صليبيتين، على انقاض دولة السلاجقة، أسرع الأفضل بن بدر الجمالي، وزير الخليفة الفاطمي: المستعلي (وكان الأفضل من أصل أرمني، اعتنق أبوه الأسلام قبله) وأرسل جيشاً مصرياً، الى مدينة القدس، فحاصرها واستعادها من السلاجقة (٢٦ آب ١٠٩٨ م - ٤٩١ هـ)، وكان يتولاّها من قبلهم، الأميران: سقمان وإيلغازي، إبنا أرتق، ثم احتل الجيش المصري فلسطين بكاملها، وجعل الأفضل حدّها الأعلى، شمالي بيروت بقليل[1]. وولّى على القدس: الأمير افتخار الدولة.

وهكذا حينما رابط الصليبيون تحت أسوار المدينة المقدسة، كان افتخار الدولة والياً عليها من قبل الفاطميين.

ولَكَمْ كان فرح الصليبيين كبيراً، عند مشاهدتهم، المدينة التي طالما كانوا يتحرّقون شوقاً، للوصول اليها، إذ تبدّت لهم حينذاك، وكأنها

---

(١) إبن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق. ص. ١٣٥ - حوادث سنة ٤٩١ هـ.

المدينة السماوية، التي ستنفتح لهم أبوابها، لتتلقّاهم بكل سرور. وتبادلهم الأشواق. فلم يتمالكوا أنفسهم من السجود على ركبهم، حمداً لله الذي أخذ بيدهم للوصول اليها، صارخين بصوت مدوٍّ [يا قدس، يا قدس. لقد جئناك. ها نحن هنا]. لقد نسي الصليبيون وتناسوا كل ما لاقوه من مشاقّ وآلام في رحلتهم الطويلة، طيلة ثلاث سنوات، قطعوا فيها، مسافة تنوف عن الخمسة آلاف كيلومتراً، سيراً على الأقدام، كانوا خلالها، عرضة بصورة دائمة للأخطار والحروب، فلم يعودوا يفكّرون، الاّ بمنقذهم وإلّههم، الذي تكبدوا من أجله، وفي سبيله، ما لا يُحتمل من أصناف العذاب والمتاعب.

ولقد كان الجيش الصليبي الذي وصل الى القدس سالماً، لا يتجاوز الأربعين ألف رجل، بعد أن قُتل مَن قُتل منه، ومات مَن مات من الجوع والمرض، وتخلّف مَن تخلّف من الفراريين. وكان فرسانه، يقدّرون: بألف وخمسمائة فارس، اما الباقي فكان من الرماة. والمشاة والزوّار.

وكان لا بُدّ، من إلقاء الحصار على المدينة، وإحكام طوقه، بتمركز القوات الغازية في نواحيها.

فالقطاع المواجه لباب دمشق، وقف فيه روبيردي نورمانديا مع قوّاته. والقطاع المواجه لباب الجديد، قام فيه روبيردي فلاندر، اما القطاع الغربي، تجاه باب داود او باب يافا (باب الخليل)، والقلعة، فقد تولّى حراسته، غودفروا دي بويّون وتنكرد، وأما القطاع الجنوبي، على جبل صهيون، فكان من نصيب ريموند دي سان جيل. في حين بقي القطاع الشرقي المواجه للحرم الشريف، بدون حصار، نظراً لصعوبة الهجوم، من تلك الناحية (وادي ستّي مريم).

واستمر الحصار على المدينة المقدسة مدّة أربعين يوماً تقريباً، تكبّد

الصليبيون خلالها عناءً كبيراً. فحرارة الجوّ لا تطاق، والمياهشحيحه، والمدينة قوية التحصين (بالرغم من هدم ثُلمة من سورها، بيد الفاطميين عند انتزاعها من السلاجقة، وإعادة بناء تلك الثلمة)، يدافع عنها، نخبة من الجنود المدرّبين، من عرب وسودان، أضف الى ذلك ان أميرها افتخار الدولة عمد فوراً الى إخراج الأهالي النصارى منها، خوفاً من إقدامهم على الخيانة، لمعاونة الصليبيين، كما أمر بطَمّ القنوات، وتسميم الآبار، لمنع هؤلاء من استعمالها. وفوق ذلك، أخذ المسلمون المحاصرون في المدينة، يعملون على إيقاع الصليبيين، في الكمائن التي ينصبونها لهم، ويباغتونهم بهجمات طارئة، كلّما انتقل هؤلاء، لطلب الماء من أمكنة بعيدة عن معسكرهم.

وقد حاول الصليبيون، في الرابع عشر من حزيران ١٠٩٩م القيام بأول هجوم، على المدينة المقدسة، فصدّهم المسلمون بقوة، وألحقوا بهم خسائر فادحة، مما دعا قادة الافرنج لعقد مجلس القيادة الحربي، بصورة سريعة، حيث قرروا فيه، تلافي النقص في الذخائر، وصنع بعض آلات الحصار التي كانوا بحاجة اليها، على اعتبار ان السبب في فشلهم هذا، يكمن في النقص بتلك الآلات. وإذ هم، يتناقشون في بحث أنجع السبل والوسائل الكفيلة، ببلوغ غايتهم، وصلهم نبأ إرساء سفينتين جنويتين في مرفأ يافا، التي كانت أخليت من سكانها العرب قبل ذلك، بقيادة الأخوين: أمبريانو، ثم انضم إلى تلكما السفينتين، أربع سفن أخرى لاتينية، جميعها محّلة بمواد الاعاشة وآلات الحصار (١٧ حزيران). فما كان من مجلس القيادة إلاّ أن بعث الى يافا بفرقة مؤلفة من مائة فارس، يقودها ريموند بيليه، وغليوم دي سابران. وقبل وصولها الى الرملة، اعترضتها قوة من جند الفاطميين، فهزمتها، وفرّقتها، وتابعت سيرها الى يافا، حيث اتصل القائدان بيليه وسابران، بربابنة تلك السفن الراسية في مرفأ المدينة، وأعلماهم بالغاية من حضورهما.

وقد صادف في ذلك الوقت، أن كان الفاطميون وجّهوا من عسقلان، قسماً من اسطولهم الى يافا، فوصل متأخراً اليها، بعد أن كانت السفن الصليبية قد أفرغت حمولاتها، وانضم من فيها من البحارة، الى الفرقة البريّة الأفرنجية، ميمّمين وجههم شطر المدينة المقدسة المحاصرة (١٩ حزيران).

ولما أتم الصليبيون صنع آلات المناجيق، والأبراج الخشبية النقالة، وهي ثلاثة، وكسوها، بجلود الحيوانات الطرية، منعاً للنار الأغريقية، قام بطرس الناسك مع جمع من أصحابه، واتجهوا جميعاً نحو نهر الأردن، حاملين الأكاليل، وهم يرتّلون الأناشيد الدينية، فاغتسلوا في مياهه التي كان السيد المسيح قد تعمّد فيها بيد يوحنا المعمدان.

وبتاريخ الثامن، من تموز سنة ١٠٩٩م أي بعد شهر من حصار المدينة، ادّعى أحد رجال الدين منهم، ويدعى: بطرس ديديه، أنه رأى فيما يراه النائم، أن مندوب البابا الراحل، أديماردي مونتيل أسقف بوي، يعود من الآخرة، لتولّي قيادة الجيش الصليبي، وإعطاء الأمر لجميع الصليبيين، بالطواف حول المدينة، والقيام بالواجبات الدينية، لتفتح لهم أبوابها.

وقد استجاب الصليبيون لدعوة بطرس ديديه. فانتظموا جميعاً ضمن صفوف طويلة،. حوَت الكهنة ورجال الدين، والبارونات والفرسان والرماة والمشاة والمدنيين، وساروا حفاة، وبأيديهم الصلبان، والذخائر المقدسة، وهم يطوفون حول أسوار القدس، حتى اذا انتهوا من طوافهم، صعدوا الى جبل الزيتون، حيث قام الخطباء، ومن جملتهم المؤرخ: ريموند داجيل، بوعظهم، وتذكيرهم بالآلام التي عاناها السيد المسيح، والحب الواجب لهذه المدينة المقدسة، طالبين منهم بالنتيجة، التشدّد في الانتقام من الذين دنّسوا مدينة المسيح.

وبعد ان أنجز العمال آلات الحصار المطلوبة، وأخذت الاستعداذات النفسية طريقها الى نفوس الصليبيين، وتسلّم كل صاحب برج، برجه الخشبي، ونُصبت المناجيق في المراكز المعيّنة لها، وتأمنت المياه والاقوات، للجيش، تقرّر الهجوم العام على القدس، وعيّن مجلس القيادة الحربي موعده في الثالث عشر من تموز ١٠٩٩م - ٤٩٢هـ. وهو يوم ثلاثاء.

وفي هذا التاريخ. بدأ الهجوم ليلاً، وقام به الصليبيون من جميع الجهات، وبرغم الدفاع الباسل القوي، الذي أبدته الحامية الفاطمية، والنار الأغريقية التي استعملت في هذا الدفاع، استطاع جنود غودفروا دي بويّون أن يقيموا جسراً صغيراً، يمتد من البرج النقّال الذي كان في عِهدته، حتى سور المدينة. قرب باب: هيرودوس، ويتسلّقوا السور، ليحتلوا الجهة الشمالية منه، ويخترقوه من الداخل؛ عند ذاك تقهقر أمامهم الجنود المصريون، المدافعون عنه، منكفئين عبر المدينة، نحو المسجد الأقصى، حيث اعتصموا هناك. وكان على رأس الجنود الصليبيين: غودفروا وشقيقه البكر أوستاش.

وفي صباح يوم الخامس عشر من تموز، الموافق في (٧ شعبان) اندفعت فرقة من الفلمنديين داخل الحرم الشريف، وأعملت السيف في رقاب المعتصمين فيه، ثم لم يلبث قسم آخر من الجيش الصليبي، أن تخطّى الأسوار، ودخل المدينة، حيث اشتبك، بمعركة مريرة، مع المدافعين عنها. الذين باعوا حياتهم غالية جداً، بعد مقاومتهم أخصاماً يفوقونهم عدداً وعدة.

اما في جنوبي المدينة حيث تقع القلعة، فقد كانت مقاومة المسلمين قوية ضد ريمون دي سان جيل، الذي اقتحم المكان في برجه الخشبي النقال مع جيشه البروفنسي، ولولا اندفاع السكان الهاربين نحو القلعة،

لطال الدفاع عنها، من قبل حاميتها، غير أن الذعر الذي استولى على هذه الحامية، عند رؤيتها الرجال والنساء والأولاد، تتخطفهم السيوف والرماح بدون رحمة، كفّت عن المقاومة، واضطر حاكم المدينة: افتخار الدولة الى طلب الأستسلام مع قسم من الحامية قليل، من جانب الكونت دي تولوز، فوعده هذا بالابقاء على حياته مع رجاله، وقد برّ بوعده له، بعد ذلك.

- وقد وصف المؤرخ المجهول، انتصار الصليبيين بفتح القدس. وصف شاهد عيان، فقال: [وفي الساعة التي صُلب فيها سيدنا المسيح، قام أحد فرساننا، المدعو: ليتو Létaud - بتسلّق سور المدينة، ففرّ جميع المدافعين عن الأسوار، عند رؤيته، فلحق بهم فرساننا، وراحوا يطاردونهم، ويقتلونهم، حتى دخلوا هيكل سليمان، فأعملوا فيهم مذبحة تقشعر لها الأبدان، وصار الدم يجري من القتلى، الى الركاب. ومن جهته تمكن أيضاً، الكونت ريموند، من نقل برجه الخشبي، الى قرب أحد الأسوار، حيث كانت تمتدّ حفرة عميقة، فعمل المهاجمون على طمرها بالحجارة والتراب، ثم اقتحموا ذلك السور، بعد أن قفزوا اليه من البرج، ودفعوا بالمدافعين عنه، الى داخل المدينة، وتتبعّوهم الى الهيكل، وصاروا يقتلون كل من يقع تحت أيديهم، من رجال ونساء وأطفال، ويعملون نهباً وسلباً، حتى إذا كلّت أيديهم، وتعبوا من سفك الدماء اداروا ابصارهم نحو إلههم مبتهلين، شاكرين له، ما حباهم به من نصر على أعدائهم]. أما الأسرى الذين أخذوا وهم لاجئون الى سطح المسجد الأقصى. ويبلغ عددهم المئات، فقد سُفكت دماؤهم في اليوم التالي. بعد أن كانوا نالوا الأمان من تنكرد وغاستون دي بيارن، دون جدوى.

على أن الصليبيين، بعد استيلائهم على القلعة، أطلقوا سراح الحاكم: افتخار الدولة، واقتادوه مع مَن بقي من جنده حتى عسقلان.

ولقد بلغ عدد الضحايا من هذه المجزرة الرهيبة، التي رافقت فتح القدس، عشرات الألوف من المسلمين، منهم حوالي العشرة آلاف، ذُبحوا داخل الهيكل ذبح النِعاج.

ويذكر بعض المؤرخين، أن الكونت دي تولوز، قد أتّهم من قِبَل الصليبيين، بالخيانة العظمى لتركه الحاكم افتخار الدولة سلماً مع أفراد جنده القلائل، وهذا إن دلّ على شيء، فإنما يدل على أن الصليبيين، كانوا آنذاك يريدون القضاء على المسلمين، عن بكرة أبيهم. كيلا يبقى أحد منهم في المدينة المقدّسة، وذلك خضوعاً منهم، لتنفيذ رغبات وُعّاظهم.

وتجدر الإشارة هنا، الى أن اليهود، من أهالي المدينة، بعد أن شاهدوا ما حلّ بالمسلمين على أيدي الفاتحين، انزووا في بيوتهم، وكنيسهم، فلم يتركهم الصليبيون بل أحرقوهم فيها، ولم يبقوا على أحد منهم، بحيث لم يبق من جاليتهم في القدس أثر.

ويوضح إبن الأثير، بأن الصليبيين كانوا يصبّون جامَ غضبهم بالأخص على الأئمة والعلماء المسلمين، ولا يتورعون عن قتلهم، وتدنيس المساجد. وقد أجمع المؤرخون اللاتين والمسلمون، على أن إبادة المسلمين في القدس، كانت شبه شاملة.

وها هو غودفروا دي بويون نفسه، يكتب الى البابا أوربان الثاني يبشّره بهذا الفتح، الذي كان ينتظره، ويقول له:

[إذا شئت أن تعلم ماذا فعلنا باعدائنا في المدينة المقدّسة، فلا نخفينّ عليك، أن فرساننا كانوا يخوضون داخل هيكل سليمان، وفي مجاز صحنه، بدماء المسلمين حتى الركاب][1].

---

(1) A.Mallet et J. Isaac: le moyen – âge jusgu'a la guerre de cent – ans. p. 258.

إلاّ أن البابا أوربان الثاني، صاحب الفكرة الصليبية، لم يعلم بهذا النصر، ليفرح به إذ وافته المنون في الحادي والعشرين من تموز ١٠٩٩ م، قبل وصول الكتاب اليه.

لا شك ان القسوة التي أظهرها الصليبيون في فتحهم مدينة القدس، كانت تنمّ عن حقدهم الدفين على المسلمين، ذلك الحقد، الذي عبّرت عنه، حميّتهم الدينية المتأججة في صدورهم: بعدما أثارته فيهم مواعظ الخطباء من رجال الدين والعلمانيين.

ذلك ان اكثر ما ارتكبوه من الفظائع، جرى بعد فتحهم المدينة المقدّسة، فانتقموا من أناس مغلوبين، عُزّل من السلاح. دون رحمة أو شفقة، فلم يعفوا عن شيخ ولا عن إمرأة ولا عن ولد او طفل. حتى إن رجال الدين أنفسهم كانوا ينظرون الى أعمالهم الهمجية بعين الرضا، فلم يحاولوا مطلقاً وضع حد لها.

وفيما كانت المجزرة لا تزال قائمة في المدينة، أي في مساء الخامس عشر من تموز، توجّه القادة والبارونات جميعهم الى كنيسة القيامة للصلاة والشكر، وتلقي البركات من الكهنة السريان واليونانيين، على انتصارهم.

وهكذا وقعت القدس بيد الصليبيين، وبقدر ما فرح هؤلاء بفوزهم، بقدر ما استاء المسلمون منه.

يقول ابن الأثير بعد سقوط القدس: [وورد المستنفرون من الشام في رمضان، الى بغداد، صحبة القاضي، أبي سعد الهروي، فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون، وأوجع القلوب، وقاموا بالجامع، يوم الجمعة، فاستغاثوا وبكوا. وذكروا ما دَهَم المسلمين من قتل الرجال وسبي الحريم والأولاد، ونهب الأموال، فلشدّة ما أصابهم أفطروا].

وكان تأثر عامة الشعب كبيراً من هذه الكارثة تصيب المسلمين، كما كان تأثر الخليفة العباسي: المستظهر بالله. بحيث إنه أرسل وفداً الى أمراء السلاجقة يستنفرهم لمعونة المسلمين، فرجع الوفد خائباً، لأن السلطانين بركياروق، ومحمداً، الأخوين اللدودين، لم يلبيّا نداء الواجب، نظراً لما كانا عليه من خلاف وتقاتل على السلطة والحكم.

والواقع ان سقوط القدس بيد الصليبيين، كان متوقّعاً بعد استيلائهم على الرها وأنطاكية، إذ كان عنصر المفاجأة الذي استغلّه هؤلاء لمصلحتهم، وخدمهم الحظ به، لا يزال يثير دهشة الناس وذهولهم، بالاضافة الى أن خلافات المسلمين، وتفرّق كلمتهم، تبعاً لخلافات ملوكهم وحكّامهم، وعجز حكام سوريا وعدم مقدرتهم على التعاون الوثيق فيما بينهم، من جهة، ومن جهة ثانية فيما بينهم وبين الفاطميين، في سبيل الوقوف بوجه الصليبيين، وَحَدّ قواهم الزاحفة، كل ذلك، كان ينذر بأوخم العواقب على المسلمين.

فلقد كانت سوريا في ذلك الوقت عرضة للوهَن واليأس، بسبب تقسيمها الى عدد كبير من الدويلات شبه المستقلّة، نتيجة لتطاحن السلاجقة وأتباعهم، وأتابكتهم على السلطة والسلطنة، بعد وفاة السلطان ملكشاه، فخضعت بعض تلك الدويلات للسلطان، وبعضها الآخر، استقلّ عنه استقلالاً تاماً.

أما الفاطميون، حكام مصر، فقد قضي على قوّتهم في سوريا. فخسروا كل ممتلكاتهم فيها.

فبعد ان تولّى السلطان، ركن الدين بركياروق بن ملكشاه، وتغلّب على منافسيه، وخصوصاً عمه تاج الدولة تُتُش، وقتله (١٧ صفر ٤٨٨ هـ - ١٠٩٥ م) استقامت له السلطنة واستتبّ له الأمر لفترة ما[١].

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص. ١٢٩ - ١٣٠ - حوادث سنة ٤٨٧ - ٤٨٨ هـ.

ولكن الفتنة عادت وأطلّت برأسها، وذلك بمطالبة أخيه محمد بن ملكشاه، لتلك السلطنة، فتأججت نيران الحرب بينهما، واستمرت مُستَعِرة، لمدة خمس سنوات اي من سنة /٤٩٢/ الى سنة ٤٩٧ هـ، فعمّت الفوضى والفساد، في أنحاء الدولة، وسُفكت الدماء غزيرة، بين المتحاربين، وخربت البلاد، دون أن يتسنّى للخليفة العباسي في بغداد، المستظهر بالله، عمل أي شيء لوقف الحرب، بين الأخوين اللدودين، نظراً لضعف سلطة الخلافة، مادياً ومعنوياً، آنذاك، وقد رأى الخليفة نفسه، مضطراً بالنتيجة، للاعتراف بسلطنة محمد، بعد ان كان اعترف قبلاً بسلطنة بركياروق، بحيث أصبح للسلاجقة سلطانان معترف بهما. من الخلافة العباسية، بدلاً من سلطان واحد، وهذا ما سبّب ضرراً بليغاً، للسلاجقة انفسهم. وفيما كانت الحال هكذا بين الأخوين السلطانين، كان إبنا تاج الدولة: تُتُش، وهما: فخر الملوك رضوان، وشمس الملوك دقاق، يتقاسمان البلاد التي كانت تحت حكم والدهما، فاستولى الأول على حلب، والثاني على دمشق، واستقل كا منهما بمملكته. وأخذا يشنّان الحرب على بعضهما، في سبيل التوسّع، ولكي يظفر أحدهما بمملكة الآخر.

فأما رضوان فقد استبدّ بأمره، جناح الدولة: الحسين بن أيتكن، أتابك حلب.

واما دقاق، فقد غلب على أمره، معتمد الدولة: ظهير الدين طغتكين، أتابك دمشق.

هذا، في حين انفرد بعض الحكام في ولاياتهم، فكان قوام الدولة كتبوغا بالموصل، وآقسنقر البرسقي بحمص، وياغيسيان بأنطاكية، وسقمان ابن أرتق وأخوه إيلغازي بالقدس، وتوروس الأرمني بالرها.

وعلى هذه الحالة من التفرقة والتشرذم، كان المسلمون في ديارهم ينظرون الى حكّامهم نظرة ملؤها السخط والغضب، ولما أتى الصليبيون

الى هذا الشرق، استطاعوا التغلّب على أولئك الحكام، واستولوا على الرها وأنطاكية، وبيت المقدس، وأسّسوا مملكتهم فيها.

ولقد انتاب المسلمين شعور باليأس وبخيبة الأمل، حينما رأوا ان بعض حكّامهم المشغولين بحروبهم وخلافاتهم الشخصية، يتلكأون عن التصدي لأعدائهم الأفرنج، ويهابون الدفاع عن بلادهم ضدّهم، مكتفين بما هم فيه من أبهّة وجاه. وكيف لا يعتريهم الذلّ والهوان، وهم عاجزون عن قهر الأفرنج هؤلاء في حين أن قواهم المتفرّقة لو تجمعت وتضافر القيّمون عليها، لمجابهة العدو الدخيل، لكانت بكثرتها وإمكاناتها الهائلة، وقفت بكل سهولة بوجهه، ولقنته درساً لا ينساه.

وبعد سقوط القدس بيد الصليبيين، وإذ رأى المسلمون أن الفرج لن يأتي على يد حكامهم، تطلّعوا نحو السماء رافعين أيديهم، متضرعين، ملحفين بالدعاء، وطالبين من خالقهم أن يمنّ عليهم بالفرج ويستجيب دعاءهم.

وقد أكثر الشعراء من نظم قصائد الاستغاثة، والدعاء والبكاء لنُصْرة الأسلام، كأنهم لا يعلمون، بأن الله لا ينصر إلاّ من ينصر نفسه.

الفصل السابع

تنظيم الفتح

كان المسلمون يؤلفون وقت سقوط القدس بيد الصليبيين، أي في اواخر القرن الحادي عشر الميلادي، ما نسبته خمسون بالمئة من سكان هذه المدينة، بينما كان المسيحيون يؤلفون أربعين بالمئة أو أقلّ قليلاً، واليهود العدد الباقي.

وقد قضي على السكان المسلمين واليهود فيها، مما أدّى الى جعل سكانها كلّهم من المسيحيين، بعد الفتح.

وما كاد الصليبيون، ينتهون من عمليات القتل والنهب والسلب، والاستيلاء على ممتلكات المسلمين واليهود في القدس، حتى اقتضت الضرورة، اجتماعهم، لتنظيم الفتح، سواء من الوجهة العسكرية، أو الإدارية، بهدف المحافظة على المدينة المقدّسة، التي قدموا إليها، للبقاء فيها وحراسة القبر المقدس، وكان اجتماعهم في السابع عشر من تموز ١٠٩٩ م، حضره القادة العسكريون، وممثلو رجال الدين، دون ان يدعى اليه بطريرك القدس اليوناني التابع للقسطنطينية: سيمون بسبب وجوده في قبرص حينذاك حيث توفي فيما بعد.

وفي ذلك الاجتماع، جرى البحث في مسألة انتخاب سيّد للقدس، فحصل من جراء ذلك خلاف بين العسكريين والأكليروس، على هويّة من يجب ان يتسلّم تلك السيادة، هل يكون من رجال الدين، أم من القادة العسكريين؟.

ذلك أن رجال الدين كانوا يعتبرون، بأن حكم الأراضي المقدّسة، ينبغي ان يعود الى مقام البابوية، بواسطة البطريرك اللاتيني المنتخب، على أن يقوم البابا، بارسال الجيوش، للدفاع عنها. بينما عارض العسكريون هذا الرأي بشدّة، بحجة أن الظروف الراهنة، تُحتّم انتخاب حاكم عسكري للمدينة، كي يتسنى له الدفاع عنها، ويحكمها كأقطاعة، وبالتالي يتوجب ان يكون الحاكم ملكاً للقدس، التي يُفترض فيها، أن تصبح عاصمة للمملكة الصليبية. وقد تغلّب هذا الرأي على الرأي الأول. ويقول ريموند داجيل بهذا الصدد:

[إن مجلس القيادة عيّن في البدء، الكونت دي تولوز، لتولّي إدارة المدينة والمحافظة على القبر المقدّس، الاّ ان الكونت اعتذر عن قبول المركز].

ولم تُعرف أسباب تنحي الكونت دي تولوز، ورفضه هذا الشرف، أي شرف المحافظة على القبر المقدّس. فمن قائل إنه كان يعلم مسبقاً، بعدم تمكّنه من نيل جميع الأصوات لمصلحته. ومن قائل، إن المركز عُرض عليه، من قبيل التأدب، نظراً لسنّه وسمعته، وفَهِم هو ذلك، فما وسعه الاّ الإعتذار والتنحي.

وعلى كلّ، فأن رأي المجتمعين، من عسكريين وإكليروس، استقرّ بالنهاية على وجوب تسليم أمور المدينة المقدسة، الى غودفروا دي بويّون، الذي: (فُرض عليه مقاتلة المسلمين، والدفاع عن المسيحيين)، كما يقول المؤرخ المجهول. علماً بأن غودفروا لم يقبل بأن يُعطى لقب: الملك: انما اكتفى بلقب: حامي قبر المسيح.

ثم بعد ذلك انتخب رجال الدين من جهتهم بطريركاً لاتينياً للمدينة المقدسة هو: أرنول دي روك، أو ارنول مالكورن (اول آب ١٠٩٩ م)، بعد ان كانوا عقدوا اجتماعاً خاصاً لهذه الغاية.

وما أن تسلّم غودفروا دي بويّون مهام سلطته، حتى كان أول ما فعله، هو الطلب الى الكونت دي تولوز، تسليمه برج داود، الذي كان بيده، وذلك على اعتبار ان هذا الموقع يدخل ضمن نطاق المدينة. فرفض الكونت التخلّي عن ذلك البرج. وهو الذي كان استولى عليه في المعركة، من يد افتخار الدولة الفاطمي، حاكم القدس السابق، عند سقوط المدينة.

الاّ ان غودفروا دي بويون: تهدّده بأخذ البرج عنوة، وتوسط القادة مع الكونت بهذا الشأن وضغطوا عليه، حتى قَبِل بتسليمه الى أسقف (ألبارة)، فما كان من هذا الأخير، إلاّ أن سلّمه بدوره الى غودفروا، بعد بضعة ايام، مما أثار حفيظة الكونت وسخطه.

وبعد ذلك، انطلق الصليبيون لمواصلة فتوحاتهم، لأن بقاء المدينة بيدهم يقتضيهم التوسّع وضمّ بلدان أخرى إليها، اتّقاء لهجوم المسلمين عليها. وكان ان وجهوا انظارهم أولاً الى نابلس، وقبل ان يهاجموها، طلب إليهم أهاليها استلامها، فتسلّموها سِلماً (٢٢ تموز ١٠٩٩م - ٤٩٢ هـ).

ولم يمض طويل وقت، حتى سرت الاشاعات، بأن الجيش الفاطمي، قد أتى الى فلسطين من مصر، لاسترداد بيت المقدس، فاضطرب الصليبيون لتلك الأخبار، وأراد غودفروا دي بويون، التحقّق منها، فأمر القائدين: تنكرد وأوستاش دي بولونيا، بالتوجّه نحو قيسارية، لاستطلاع الحقيقة والتثبّت مما يشاع، وفيما هما يجولان بين يافا والرملة، مع فرقتها، إذ بهما يلتقيان بعدد من الكشافة الفاطميين، فقبضا عليهم، وبعد استجوابهم، علِما منهم، بأن الوزير الفاطمي: الأفضل، قدم مع جيشه من مصر الى عسقلان، لمهاجمة بيت المقدس. فما كان من القائدين الصليبيين، الا ان بعثا بهذا النبأ مع رسول على وجه السرعة، الى

غودفروا دي بويون، ليكون بذلك على اطلاع من أمره، ويتخذ احتياطاته بهذا الشأن.

كان الوزير الأفضل قد وصل فعلاً الى عسقلان، في الرابع من شهر آب ١٠٩٩ م، وبدلاً من أن يبادر فوراً الى مداهمة الأفرنج ومهاجمتهم في بيت المقدس، رأى من الأوفق له، انتظار وصول اسطوله، ليكون قريباً منه، عند الاقتضاء، فأضاع بذلك فرصة المباغتة، وترك مجالاً لسريان الشائعات بحيث أدّى ذلك الى افساح الوقت للصليبيين، لتدارك الامر، وأخذ الأهبة له: إذ فور ورود النبأ لغودفروا دي بويّون، من قائديه، بوجود الجيش الفاطمي في عسقلان، خرج من المدينة مسرعاً، على رأس جيشه المؤلف من /١٢٠٠/ فارس، و(٩٠٠٠) من المشاة، يرافقه جميع رفاقه بالسلاح، بمن فيهم ريموند دي سان جيل، وروبير دي نورمانديا، اللذان، ترددا في البدء ثم لحقا به، مع رجالهما. وكذلك تبعه البطريرك الجديد: أرنول، والكونت دي فلاندر. وباقتراب الجيش الصليبي من مدينة عسقلان، تمركز في سهل المجدل، حيث يعسكر الفاطميون، وقبل ان يفيق هؤلاء من دهشتهم (وكثير منهم لم يتمكنوا من لبس لامتهم، أي دروعهم وخوذهم) كان الصليبيون قد داهموهم حيث هم، وأخذوا يكرّون عليهم كرّات متواصلة سريعة، فشتتوا شملهم، ودخلوا معسكرهم، وأعملوا فيهم السيف، فتراجع الوزير الأفضل، وفرّ هارباً مع قسم من جيشه، فدخل عسقلان، تاركاً القسم الأكبر من جنده في ساحة الوغى، فطاردهم الصليبيون، فمنهم من ألقوا بأنفسهم في البحر، فماتوا غرقاً، ومنهم من لجأوا الى الغابات القريبة، فأشعلت النار فيها، فماتوا احتراقاً، ولم تمضِ غير بضع ساعات، حتى كان الجيش الفاطمي، بأكثره قد انتهى أمره، وغنم الصليبيون غنيمة كبرى مما كان يحتويه المعسكر المصري (١٢ آب ١٠٩٩ م). وهذه هي النتيجة المؤلمة التي انتهى اليها الجيش المصري، بفضل تقاعس الوزير

الأفضل، وعدم تبصّره، وتردّده في مهاجمة بيت المقدس. فور وصوله من مصر، مع أن جيشه كان يفوق جيش الأفرنج عدّة وعدداً.

يصف المؤرخ المجهول هذه المعركة فيقول:

[وبعد الفوضى التي ضربت أطنابها في معسكرهم، عمد الكفّار الى الهرب. فمنهم من تسلّق الأشجار للاختباء بين أغصانها، ومنهم من كان يلقي بنفسه في البحر، ومنهم من كان يخشى المقاومة، فيقع على الأرض جاثياً. فكان رجالنا يتصيّدون الأولين بسهامهم ورماحهم وسيوفهم. كالعصافير، ويفصلون رقاب الآخرين عن أجسادهم كما تفصل رؤوس الحيوانات عند الذبح].

اما ابن القلانسي، فيقول بصدد هذه الموقعة:

[ووصل الأفضل في العساكر المصرية، وقد فات الأمر فانضاف اليه عساكر الساحل، ونزل بظاهر عسقلان، في رابع عشر، من شهر رمضان، منتظراً لوصول الأسطول في البحر، والعرب. فنهض عسكر الأفرنج اليه، وهجموا عليه في خلق عظيم، فانهزم العسكر المصري، الى ناحية عسقلان، ودخل الأفضل اليها، وتمكنت سيوف الأفرنج من المسلمين، فأتى القتل على الراجل والمطوّعة، وأهل البلد، وكانوا زهاء عشرة آلاف نفس، ونهب العسكر، وتوجّه الأفضل في خواصّه الى مصر، وحُكي ان الذين قتلوا في هذه الوقعة من أهل عسقلان، من شهودها وتُنائها وتجارها وأحداثها سوى أجنادها، الفان وسبعمائة نفس][(١)].

وقد راقب الأسطول المصري، هذه المعركة البرية عن كثب، وهو راسٍ على شواطىء عسقلان، دون ان يفعل قادته شيئاً لمعونة الوزير الأفضل، إنما، حينما رأى هؤلاء القادة، نتيجة المعركة، اقلعوا بالأسطول عائدين من حيث أتوا.

---

(١) ذيل تاريخ دمشق: ص ١٣٧، حوادث سنة ٤٩٢هـ.

وقد تصوّر الصليبيون، بعد نصرهم هذا، بأن مدينة عسقلان سوف تكون لقمة سائغة، فتسقط بيدهم، حال محاصرتها، فحاصروها، وكان أهاليها على وَشك تسليمها لهم.

وبالفعل، فان العسقلانيين، كان في نيتهم التسليم، فاشترطوا بأن يكون الكونت دي تولوز: ريموند دي سان جيل، هو المتسلّم لها، نظراً لما كانوا علموه من أمانته وصدقه تجاه افتخار الدولة، وقت سقوط القدس، ولما كان يعلمه عنه، بعض التجار العسقلانيين، ويتحدثون به، أثناء رحلاتهم الى مدينة، مونبليه (Montpellier)، ومرافىء اللّانغدوق السفلى، والمتوسطية، قبل الحروب الصليبية[1].

ولما كان الكونت دي تولوز، يحلم بانشاء إمارة في نواحي عسقلان، تكون طريقاً لمصر، فقد وافق على طلب العسقلانيين، وأرسل لهم رايته ليرفعوها على المدينة، فعارضه بذلك، غودفروا دي بويون، معتبراً بأن عسقلان، يجب ان تعود الى مملكة القدس، أي اليه هو، بصفته حامي قبر المسيح.

فغضب الكونت من موقف غودفروا تجاهه، وللتدليل على غضبه انسحب بفرقته، ورافقه روبير دي فلاندر، وروبير دي نورمانديا في هذا الانسحاب، فتركوا جميعاً حصار المدينة، بعد ان أرسل الكونت من قبله، رسولا الى أهالي عسقلان يدعوهم بلسانه، [الى الثبات في مواقفهم، ومقاومة الجيش الصليبي، الذي لا شك، سيكون عاجزاً عن فتح المدينة، لضعف إمكانياته، بالنسبة لامكانية المصريين].

وهكذا كان، فتخلّى الكونت دي تولوز ورفاقه عن غودفروا دي بويون، وامتنع أهالي عسقلان عن تسليم مدينتهم، الى الأفرنج، وقاوموا

---

(1) Jean Richard: le Royanme Latin de Jerusalem p. 31.

الحصار المضروب عليها، واستبسلوا في دفاعهم، فارتد جيش العدو عنها، خائباً على أعقابه.

وبقيت عسقلان لأصحابها، ولم تقع بيد الأفرنج الاّ بعد ثلاث وخمسين سنة من ذلك.

وقد اضطر غودفروا دي بويون لرفع الحصار عن هذه المدينة مرغماً. وبعد ان اختلف الكونت دي تولوز مع غودفروا دي بويون، اتجه نحو مدينة أرصوف، ففاوضه أهاليها على تسليمها له بدون قتال، وقبل دخوله اليها لحق به غودفروا دي بويّون، الذي علم بالأمر، فاعترض عليه، وأعلن للكونت بأن التسليم، يجب ان يكون له هو، فاختلفا، وأصرّ هذا الأخير على موقفه، وطلب الى أهالي المدينة عدم تسليمها لغودفروا، ففعلوا وقاوموا الجيش الصليبي، وصدّوه عن مدينتهم، كما فعل أهالي عسقلان. وكاد القائدان الصليبيان، يلجآن الى القتال لو لم يتدخل رفاقهما للتوسط بينهما.

وانتهى الأمر، الى انفصال ريموند دي سان جيل بقواته، عن غودفروا دي بويون، ورحيله نحو شمالي سوريا، بعيداً عن منطقة نفوذ خصمه.

وبعد ذلك، رأى القسم الأكبر من الجيش الصليبي، ان مهمته انتهت عند هذا الحدّ، ولم يبق عليه، إلاّ العودة الى بلاده، والنصر ملء بردتيه.

وهكذا رجع روبير دي فلاندر وروبير دي نورمنديا، وأويستاش دي بولونيا، شقيق غودفروا دي بويون، مع ما يقرب من عشرين ألفاً من الصليبيين، الى بلادهم، عن طريق البحر، من مرفأي جبلة واللاذقية. ولم يتخلّف عن الرحيل، سوى الأمير النورماني: تنكرد، إبن شقيقة بوهمند أمير انطاكية، الذي عيّنه، غودفروا دي بويّون، قائداً

لجيشه الباقي معه، والبالغ حوالى الثلاثمائة فارس، والألفي راجل (خريف سنة ١٠٩٩ م).

في ذلك الوقت، كانت مملكة القدس، لا تزال تفتقر الى المرافيء البحرية، لكي تتمكن من التوسع في الداخل، ولذا عمد غودفروا دي بويون، بعد رحيل رفاقه الصليبيين، الى القيام بشنّ الغارات المتواصلة، على المدن والمرافيء الاسلامية، يعاونه بذلك، القائد تنكرد، حيث تمكّنا من الإستيلاء على عدة مدن، بعد مضايقتها بالحصار، فاستسلمت لدفع الجزية (كانون الأول ١٠٩٩ م). ثم وقعت بيدهما مدن الجليل (Galilée) بأغلبها، بحيث إنه بعد سقوط القدس، ببضعة شهور، أي في آخر سنة ١٠٩٩ م، كانت مملكة القدس تشمل: بيت لحم، ونابلس، وطبريا، والناصرة، بالاضافة الى المدينة المقدسة.

ومع ذلك، فان أحداً من الحكّام المسلمين، مثل الأفضل، الوزير الفاطمي الذي كان أبحر بعد معركة عسقلان، الى مصر)، أو دقاق، ملك دمشق السلجوقي، أو سلطان فارس: بركياروق السلجوقي، أو غيرهم، لم يأت لمساعدة تلك المدن الإسلامية، وصدّ الأفرنج عنها.

وقد اكتفى الخليفة الفاطمي والخليفة العباسي، في القاهرة وبغداد، باعلان الحداد على الضحايا المسلمين، واستقبال المهجّرين من ديارهم، دون ان يكون بمقدورهما فعل شيء مفيد، سوى حثّ الملوك والأمراء المسلمين، للجهاد ضد الأفرنج.

ولو تضافرت جهود هؤلاء الملوك والأمراء، وخلصت نواياهم، واتفقوا على مجابهة تلك القوة الضئيلة من الصليبيين، التي بقيت مع غودفروا دي بويون، لكانوا دحروها بكل يسر وسهولة، نظراً لامكاناتهم الهائلة، بالنسبة لامكانات اعدائهم، ولكن تفرقهم وتشرذمهم، كانا عقبة في سبيل تفاهمهم للعمل سوياً، فكان ان تركوا الوقت يمرّ، حتى

تكاثرت النجدات على الافرنج من أوروبا، ففُتّ في عضدهم.

عند ذاك، رأى الأمراء، حكّام عسقلان وقيسارية (سيوه الحالية) وعكا، أن الوسيلة الوحيدة لسلامتهم، وسلامة تجارتهم، هي التوصّل الى اتفاق مع الأفرنج، ولهذه الغاية، توجّهت وفود من قبلهم، الى غودفروا دي بويّون في القدس، حيث عقدوا معه معاهدات، تعهدوا فيها بدفع الجزية السنوية، وقدرها خمسة آلاف دينار ذهبي، لقاء حمايته لهم.

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ، إذ ان أمراء آخرين، أقدموا ايضاً على التعاهد مع غودفروا، ليس خوفاً منه، ولكن من أجل رواج تجارتهم.

وبالنظر لموقف الأمراء المسلمين المستضعف والمائع، تجاه الأفرنج، انتهز غودفروا دي بويون، الفرصة السانحة، فمضى مع عامله، تنكرد، ويمّما شطر السواد (وهو قطعة من الجولان، أحد ممتلكات السلاجقة التابعة لملك الشام دقاق)، شرقي بحيرة طبرية، حيث راحا يجولان ويصولان، عائثين فيه (أيار ١١٠٠م)،. مما اضطر الحاكم والأهالي المسلمين، لطلب الصلح مقابل تأديتهم جزية سنوية.

وكأن هذا الظفر، أدار رأس الأمير تنكرد، فأرسل بعثة مؤلفة من ستة أشخاص، الى ملك دمشق، السلجوقي، دُقاق، ينذره بلسانهم، بوجوب تسليم بلاده اليه، ويدعوه الى اعتناق المسيحية فوق ذلك. فأخذت الحميّة الدينية دقاقاً، واستبدّ به الغضب، لدرجة أنه أمر بقطع رؤوس خمسة من أفراد تلك البعثة الأفرنجية، وبارغام السادس منهم، على اعتناق الأسلام، متجاهلاً طلب تنكرد، بعدم الردّ عليه.

وكان قد وصل الى مرفأ اللاذقية قبل ذلك، أسطول إيطالي، مؤلف من مائة سفينة، على متنها قوة بيزانية، يرأسها أسقف بيزا: دامبير: (Daimbert)، وصادف حينذاك، أن بوهمند، أمير انطاكية، كان يلقي

الحصار على هذه المدينة، لأخذها من البيزنطيين الذين كانوا استلموها من ريموند دي سان جيل فما كان منه الا ان اتفق مع الأسقف دامبير، على مهاجمتها من البحر، والبر معاً، الاّ ان محاولتهما فُشلت قبل نيل مأربهما منها.

ذلك ان ريموند دي سان جيل، وصل في ذلك الحين الى اللاذقية، آتياً من القدس، فاستاء من عمل بوهمند، والأسقف دامبير، وانذر الأول بفك الحصار وترك المدينة فوراً. فانصاع لهذا الطلب، بعدما تحقق من عدم تحمّس البيازنة للتقاتل مع اللاتين، وهم ليسوا بأخصام لهم.

وعلى كل حال، فإن بوهمند بقي على وفاق مع الأسقف الإيطالي، وعزم الإثنان على المضيّ سوياً الى القدس، فسارا مع بعض قوّاتهما، على طريق الساحل، ومرّا بطرابلس فأحسن صاحبها استقبالهما، وزوّدهما بالقوت والعَلف. فواصلا سيرهما الى بيروت، فصور، فعكا، فقيسارية، بدون صعوبات أو عقبات، ومن ثم دخلا الأراضي المحتلة من قبل الأفرنج، ليصلا الى القدس في الحادي والعشرين من كانون الأول ١٠٩٩م، حيث جرى لهما استقبال حافل.

وفور وصول الأسقف دامبير الى القدس، أخذ يسعى بكل قوته، للعمل على إلغاء انتخاب البطريرك اللاتيني أرنول مالكورن، وإبطاله، بحجة ان ذلك الانتخاب كان مخالفاً للقانون الكنسي، فلقي في مسعاه، من التأييد، والمساندة، ما مكّنه من تحقيق غايته، فعُقد مجمع كنسي، وبعد النظر بادعاءات الأسقف البيزاني، قرر المجتمعون إلغاء وإبطال انتخاب البطريرك أرنول، لأسباب أبداها دامبير، والتي لم يستطع البطريرك دحضها: فنحّي عن مركزه، وانتُخب مكانه للبطريركية، الأسقف دامبير نفسه، الذي نال مساعدة بوهمند وأخصام أرنول،

والبيازنة، وبعد ذلك، قفل بوهمند، عائداً الى أنطاكية، فيما بقي دامبير في القدس، على رأس البطريركية اللاتينية.

والواقع ان دامبير كان يتمتع بشخصية قوية، جعلته يلعب دوراً مهماً في مدينه: بيزا. إذ قام بعدة مهام في إسبانيا، بحكم مركزه، وقد سرت الإشاعات بحقه، ما يفيد إقدامه، على اختلاس بعض الأموال العائدة للدولة، خلال إنجازه تلك المهمات.

كما قيل، تدليلاً على قوة شخصيته، وجسارته، بأنه قدّم بعض الرشاوى والهدايا الى منتخبيه، الذين ساعدوه ضد البطريرك أرنول، والى غودفروا دي بويّون نفسه الذي تلقّى منه هدايا قيّمة.

ومنذ تولّيه بطريركية القدس، بدأ دامبير بعرض عضلاته، فطلب من غودفروا دي بويون، تسليمه برج داود، ليجعله مركزاً لبطريركيته، وإعطاء البيازنة مواطنيه، ما نسبته الربع من مرفأ يافا، لقاء مساعدتهم إياه، في الانتخاب.

الا ان غودفروا دي‌دي بويون، أظهر استياءه من هذا الطلب في البدء، ثم رأى ان يأخذ الأمور بالحسنى، فوعد دامبير بتسلميه برج داود، عندما تصبح مملكته متسعة الأرجاء، باحتلال قسم من اراضي المسلمين.

وفي تلك الأثناء، اي في اول حزيران (١١٠٠م) وصل اسطول جنوي مؤلف من مائتي سفينة الى مياه يافا، وأرسى فيها، فسارع غودفروا دي بويون، بصفته رئيساً للدولة اللاتينية الجديدة في القدس، لاستقباله والترحيب به، إذ كان يزمع وقتذاك تعزيز قوته، للانطلاق بتنظيم الحملات العسكرية على أراضي المسلمين. وقد جرت المفاوضات بين غودفروا وقيادة الأسطول الجنوي، للتعاون عسكريا، فتمّ الإتفاق بينهما، على أن يشترك الجنويون، في كل الحملات التي يُطلب إليهم،

الاشتراك بها، بشرط ان ينالوا ربع المدن، التي يصير الاستيلاء عليها من المسلمين، وذلك أسوة بالبيازنة.

وكان غودفروا دي بويون بذلك الوقت، قد أعطى أوامره للقائد تنكرد، بوجوب القيام بحملة عسكرية، لاحتلال حيفا، فتوجّه هذا الأخير، على رأس قوة إفرنجية، الى هذه المدينة لحصارها، وبرفقته البطريرك الجديد: دامبير، وقد استعان القائد الصليبي في هذا الحصار، بالأسطول الجنوي المشار اليه.

كانت اكثرية سكان (حيفا)، من اليهود، أما المسلمون فيها فكانوا أقلية، ومع ذلك، قاوم اليهود والمسلمون معاً ذلك الحصار، بشدّة وضراوة، وثبتوا لصدّ الهجوم، الذي شُنَّ على المدينة برّا وبحراً، من قبل المهاجمين، مدة طويلة، ولكنهم أرغموا بالنتيجة على الإستسلام لتنكرد، فدخلها في العشرين من شهر آب ١١٠٠م - ٤٩٣ هـ.

وأثناء الحصار على مدينة حيفا، رجع غودفروا دي بويون الى القدس، وكان قد شعر بالمرض، فحُمِل على محفّة لضعفه، من شدّة الزحار، وقويت الحُمّى عليه، فلزم الفراش حين وصوله الى المدينة، وساءت حالته، فلم يلبث أن أسلم الروح. في الثامن عشر من تموز ١١٠٠م، أي قبل سقوط حيفا، ولم يكن قد مضى عليه في الحكم سوى سنة واحدة.

وبعد وفاة غودفروا دي بويّون، وُضِعت مسألة خلافته، على بساط البحث، وكثر التساؤل بين الصليبيين، عن خَلَفه المرتقب؛ وقام الخلاف بينهم على هذا الأمر، وكان عودفروا قبل وفاته، قد نظم وصية تتضمن إرادته الأخيرة القائلة، بإعطاء مدينة القدس، وبرج داود الى البطريرك دامبير؛ فلم تنفّذ تلك الوصية، لعدم موافقة أصحابه عليها؛ إذ كانوا قد اتفقوا على تعيين بودوان، شقيق غودفروا، ملكاً على

القدس. وبالفعل فقد أقدم رئيس المتآمرين، غارنير دي غريز، على احتلال برج داود، بسرعة فائقة، وأرسل مبعوثاً خاصّاً الى بودوان في الرّها، ليطلب إليه الاسراع بالحضور الى القدس، لتسلّم زمام المملكة فيها.

وفي تلك الأثناء، عاد البطريرك دامبير مع تنكرد، من حملتهما على حيفا، بعد تقرير أمورها، ودخلا القدس، فعلما بالأمر الواقع، وقد تبيّن للبطريرك، بأن الجميع من بارونات ورجال دين، يقفون منه موقف العداء، وخصوصاً، البطريرك المعزول: أرنول مالكورن، فما كان منه، إلاّ أن أرسل، بالاتفاق مع تنكرد، مبعوثاً الى بوهمند، أمير انطاكية، يطلب منه الحضور الى القدس، لمدّ يد المعونة لهما، والعمل على منع بودوان، أمير الرها، من المجيء الى المدينة المقدسة. الا أن رسالة البطريرك الى بوهمند، لم تصل الى المرسل اليه لوقوعها بيد الكونت دي تولوز، ريموند دي سان جيل، الذي كان يعسكر آنذاك، مع قوّته، قرب مدينة طرابلس، فقبض على المبعوث ثم أطلقه واحتفظ بالرسالة (ومن المعلوم ان ريموند دي سان جيل، كان لا يزال يضمر الحقد على بوهمند بسبب خلافهما السابق على إمارة انطاكية).

هذا، مع الاشارة الى أن بوهمند كان في ذلك الوقت، قد مضى لمناجزة غازي كمشتكين بن دانشمند، بالقرب من مدينة مرعش، وذلك استجابة لنجدة أرمن ملطية، الذين طلبوا منه المعونة، فوقع أسيراً بيد أمير سيواس التركماني المذكور؛ الذي اقتاده مكبّلاً الى عاصمة بلاده، في جبال طوروس، وألقاه سجيناً في قلعة: نِكسار (Néocésaree) بعيداً عن الأعين.

وقد بقي بوهمند أسيراً هناك، مدة ثلاث سنوات، ثم أطلق سراحه، لقاء فدية كبيرة (تموز ١١٠٠م - ٤٩٣هـ) ♣

يقول إبن القلانسي بصدد أسر بوهمند عند ذاك:

[وفي رجب منها، أي من سنة - ٤٩٣ هـ - خرج بيمند، ملك الافرنج، صاحب انطاكية، الى حصن أفامية، ونزل عليه، وأقام أياماً، وأتلف زرعه، ووصل الخبر بوصول الدنشمند الى ملطية، في عسكره من الأتراك، في خلق عظيم، ومن عسكر: قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش، فعاد بيمند عند معرفة ذاك، الى أنطاكية، وجمع وحشد وقصد عسكر المسلمين، فنصر الله تعالى المسلمين عليه، وقتلوا من حزبه خلقاً كثيراً، وحصل في قبضة الاسر، مع نفر من أصحابه، ونفدت الرسل الى نوّابه بأنطاكية، يلتمسون تسليمها[1]].

أما فيما يتعلق، ببودوان أمير الرها، فقد استلم الرسالة، من مبعوث غارنير دي غريز وأصحابه، والمتعلقة بوفاة شقيقه غودفروا. ووجوب حضوره الى القدس، لتملّكها، فما كان منه إلاّ أن أسرع لتلبية الدعوة، فجمع حاشيته الخاصة، بالإضافة الى أربعمائة من الفرسان الافرنج، وألف من المشاة، ويمّم شطر أنطاكية، ترافقه زوجته الأرمنية، بعدما ألقى بمقاليد الأمور في الرها، الى إبن عمه: بودوان دي بورج.

ومن أنطاكية تابع بودوان مسيرته مع عساكره، الى مدينة اللاذقية، حيث ترك فيها زوجته، لتوافيه، عن طريق البحر، الى يافا.

غير أن قسماً كبيراً من العسكر، تخلّوا عنه، وأبوْا مرافقته، في البرّ، خوفاً من الأتراك، الذين كانوا يتربّصون لهم في الطريق الساحلية، فلم يهتم بهم، وواصل سيره، مع من بقي معه، من الحاشية والفرسان، والمشاة، ما يقدّر بحوالي مائة وستين فارساً وخمسمائة من المشاة، الى أن وصل الى جبلة، فارتاح قليلاً، ثم تركها الى بانياس، فطرطوس، فعرقة، وأخيراً الى طرابلس، حيث استقبله صاحبها: أبو علي بن عمّار

---

(١) ذيل تاريخ دمشق: ص - ١٣٧ - ١٣٨ - حوادث سنة ٤٩٣ هـ.

كصديق وحليف (٢١ تشرين الأول ١١٠٠ م). ولكي يثبت، صاحب طرابلس، إخلاصه لبودوان، أطلعه على معلومات سرّيّة، تفيد بأن ملك الشام دقاقاً. وبرفقته أمير حمص: جناح الدولة، يكمنان له في الممّر الضيّق، عند نهر الكلب، بالقرب من بيروت: ويؤازرهما، الاسطول الاسلامي المرسي أمام جونية. فلم يُثنِهِ ذلك، عن مواصلة مسيرته، بل بقي متقدماً نحو بيروت، حتى وصل الى الناحية التي يكمن فيها دقاق وجناح الدولة. واندفع مع قوّته باتجاه نهر الكلب، حيث الممرّ المؤدي الى بيروت، ثم تراجع فجأة نحو صربا وغدير، متظاهراً بالعودة الى طرابلس؛ فلحق به جيش الأتراك، دون أن يفطن قادته الى هذه الحيلة الحربية؛ ولما رأى بودوان، ان المسلمين اقتربوا منه، ارتدّ بسرعة فائقة إليهم، وأحاط بهم، ثم نفذ بين صفوفهم فاخترقها، وأوقع البلبلة بينها، فأرغموا على التفرّق، بحيث تمكّن عند ذاك، من شقّ طريقه، على طول ذلك الممّر، مما دعا دقاقاً ومن معه، الى التقهقر، بعدما رأوا أنفسهم عاجزين عن الوقوف بوجهه.

وهكذا استطاع بودوان في اليوم التالي، اجتياز ممرّ نهر الكلب بأمان، مُغِذّاً السير الى بيروت، فصيدا، فصور، فعكا، دون أن يعترضه عائق ما.

وعندما حطّ رحاله في حيفا (وكانت قد أصبحت بيد أمير الجليل، تنكرد، المحازب للبطريرك دامبير) رحّب الأهالي الافرنج به بحرارة، وعلم منهم بأن تنكرد، موجود في القدس، وبعد ذلك أكمل بودوان سيره، عبر سهل أرسوف، الى يافا. وعند اقترابه من القدس، خرج اهاليها لملاقاته، وهم يرتّلون الأناشيد الدينية، وأدخلوه اليها كأنه ملكهم (١١ تشرين الثاني ١١٠٠ م).

وقد بدا هذا الاستقبال العفوي، من قِبل الأهالي، بمثابة تأييد

ضمني لترشيح بودوان، ملكاً على مملكة بيت المقدس اللاتينية.

وهذا ما جعل البطريرك دامبير، يجد نفسه واقعاً في مأزق حرج، فلجأ الى دير في جبل صهيون للانزواء فيه، بعيداً عن أخصامه، ودون ان يشترك في ذلك الاستقبال.

وما كاد بودوان يرتاح من وعثاء السفر، حتى أخذ بالعمل على تنظيم الحملات، لغزو بعض المراكز الاسلامية المجاورة، فعاث بجيشه أرض الخليل، ووادي العرجة، ووادي الجدي، على الضفة الغربية من البحر الميت، الى أن وصل الى وادي موسى.

وبعد كل غزوة، كان يعود محمّلاً بالغنائم، مما وطّد سلطته، وقوّاها تجاه الجميع.

وعندها وجد البطريرك دامبير، أن من المصلحة، مسالمة بودوان، فسالمه.

أما تنكرد خصم بودوان السابق، فلم يعترف به، وبقي مصّراً على عدم الاجتماع به، الى أن قُيّص له، وحالفه الحظ، فترك فلسطين، ورحل الى أنطاكية، ليحلّ محلّ خاله بوهمند، في إمارتها، وذلك بناء لدعوة الوفد الانطاكي، الموفد اليه، لهذه الغاية، فتخلّص بذلك، من وطأة بودوان، ودسائس أخصامه الآخرين.

وفي عشية عيد الميلاد من عام ١١٠٠م، جرى حفل تكريس بودوان في بيت لحم، بصورة رسمية، وتُوّج ملكاً، على عرش مملكة بيت المقدس، بيد البطريرك دامبير نفسه، وكان حينذاك، في سنّ الأربعين.

وبتاريخ الخامس عشر من آذار سنة ١١٠١م، قدم اسطول جنوي، الى مياه حيفا، ثم انتقل منها، الى مرفأ يافا، حيث ذهب الملك بودوان لملاقاته هناك، فاجتمع بقادته. واتفق معهم، على إبقاء الاسطول بضعة

أشهر في خدمته، مقابل تقاضيهم، ثلث الغنائم التي يحصل عليها، من حملاته ضد المسلمين.

وتنفيذاً لهذا الاتفاق، مضى بودوان والجنويون، لإلقاء الحصار على أرسوف. فعرض أهاليها تسليمها سلماً، شرط ان يخرجوا منها أحراراً. فقبل بودوان بذلك، وحافظ على عهده معهم (أواخر نيسان ١١٠١م - ٤٩٤ هـ).

وبعد أرسوف، حاصر الملك وحلفاؤه، مدينة: قيسارية، واحتلّوها عنوة، وانتقموا من أهاليها المسلمين شرّ انتقام، فذبحوا الرجال والنساء والأطفال، ما عدا القاضي والحاكم، على أمل ان يتقاضوا منهما فدية لائقة.

الفصل الثامن

الحملة الصليبية لسنة ١١٠١م

في خضم الأحداث، التي سردناها سابقاً، كانت ثمة حملة صليبية كبرى، في سبيل التجهيز والتنظيم، عملاً بتوجيهات البابا: بسكال الثاني، الذي راح يدعو الأوروبيين، للانخراط بها، بعدما تأكد له، بأن الحملة الأولى، كانت موفّقة، بالاستيلاء على أراضي المسلمين، مما يقتضي المحافظة على مصالح المسيحيين فيها ومنافعهم، والدفاع عنها، لئلا يتمكن المسلمون، من الوقوف بوجهها، ومنع توسّعها فيما بعد. وإذ كانت الحميّة الدينية، لا زالت تشتعِل، في نفوس مسيحيّي أوروبا الغربية، فقد استجاب لدعوة البابا كثير منهم، فتألفت أربعة جيوش صليبية، كما يلي:

الجيش الأول: وغالبيته من اللومبارديين، وهو يبلغ عشرات الألوف من محاربين ومدنيين، توجّه من إيطاليا، في أيلول سنة (١١٠٠م) وعلى رأسه: الكونت ألبردي بياندرات، والمطران: أنسلم دي بوي (مطران ميلانو)، والكونت دي بارم، وهوج دي مونتبلّو.

وكان نصف هذا الجيش، من المدنيين الذين كان يراودهم الأمل، بانتزاع أراضي العرب واستيطانها في فلسطين، أي باستعمارها والبقاء فيها، على الدوام.

الجيش الثاني: وهو مؤلف من الفرنسيين، ومجهّز تجهيزاً كاملاً. يرأسه: أيتان دي بلوا، وأتيان إبن دوق بورغونيا، وأسقف سواسّون، والقائد

كونراد، ويحتوي على كتائب من الفرسان والمشاة المدرّبين، يبلغ عددها العشرة آلاف جندي.

الجيش الثالث: بقيادة الكونت دي نفر (Nevers) غليوم الثاني، ويبلغ عدده نحواً من خمسة عشر ألف جندي.

الجيش الرابع: بقيادة غليوم التاسع الأكيتاني، ودوق باڤاريا: وِلف الرابع، والكونتيسة: إيدا النمساوية، والدة الدوق ليوبولد النمساوي، ويبلغ عدده، ستين الف رجل، ومن ضمنه عدد كبير من المدنيين الفقراء.

ولقد سارت تلك الجيوش الأربعة، على التوالي، منفردة ومنفصلة عن بعضها، فاجتازت البوسفور، كل منها على حدة، وكان آخرها، قد وصل في أوائل شهر حزيران ١١٠١ م، فاستقبلها الأمبراطور البيزنطي، الكسيس كومنين، بكل ترحاب، وقدّم لقادتها الهدايا، واضعاً تحت تصرّفهم، اسطوله الكبير، وفرقة حراسة مؤلفة، من خمسمائة جندي تركي مرتزق (Turcoples)، أرفقها بالجيش الأفرنسي الألماني.

وقد صادف وقتذاك، وجود ريموند دي سان جيل في العاصمة البيزنطية، القسطنطينية، فتسلّم القيادة العامة لتلك الجيوش، بناء لرغبة الأمبراطور البيزنطي.

وبعد أن انقسمت هذه الجيوش جميعها الى ثلاثة أقسام، قام القسم الأول، المؤلف من اللومبارديين، والفرنسيين والألمان، بقيادة ريمون دي سان جيل، والبالغ عدده ما يقرب من المائة الف شخص، ثلثهم من المدنيين، ما بين نساء وأولاد وشيوخ، ومضى سالكاً ذات الدرب التي كان اتخذها الصليبيون الأوائل، قبل خمس سنوات، واثناء الطريق، أعلن اللومبارديون بلسان رئيسهم: ألبردي بياندرات، (وكان عددهم يفوق نصف عدد هذا القسم). بأنهم يريدون اجتياز أراضي آسيا

الصغرى، للوصول الى نيكسار، في الجبال، على سواحل البحر الأسود، بُغية تخليص الأمير بوهمند، من الأسر (وكان غازي كمشتكين بن دانشمند، قد أخذه أسيراً الى عاصمته، كما مرّ بيانه آنفاً). فحاول القسم الآخر من هذا الجيش، إقناع اللومبارديين بعدم جدوى هذه الفكرة، لصعوبة تحقيقها، فلم يصغوا لكلامهم، وكادوا أن يعلنوا راية العصيان والتمرّد، لولا مجاراة ريموند دي سان جيل، والآخرين لهم، تداركاً لسوء العاقبة، فتقدموا في مسيرتهم حتى ابتعدوا شيئاً فشيئاً عن الأراضيَ، الواقعة تحت سلطة البيزنطيين، الى ان أوصلهم الترحال الى أنقرة، المدينة التابعة للسلطان السلجوقي، قلج أرسلان، فهاجموها وأخذوها (٢٣ حزيران ١١٠١ م) ثم سلّموها لمندوب البيزنطيين، وواصلوا سيُرهم. بعد ذلك، غير عابئين، بالأتراك.

وهذا ما دفع بالسلاجقة والدنشمنديين، الى تناسي خصوماتهم، وتوحيد قواهم، في سبيل الوقوف بوجه الصليبيين، وتلقينهم درساً لا يُنسى، فاجتمع جيشا السلطان قلج، والأمير غازي كمشتكين، وراحا يتعقبان جيش الصليبيين، ويناوشانه، كيفما سار، حتى انهكا قواه.

وبالرغم من ذلك، لم يرجع اللمبارديون، عن فكرتهم، بل أصرّوا على التوجّه الى عاصمة غازي كمشتكين، لتخليص بوهمند، فواصلوا سيرهم حتى دخلوا أراضي الدانشمنديين، وفي ذلك الوقت، كان الأمير غازي كمشتكين، قد أرسل يطلب معونة رضوان السلجوقي، ملك حلب، فلبّى رضوان دعوته، رغم الخصومات القائمة بينهما، وأسرع بجيشه مجتازاً الجبال والوهاد الوعرة، حتى قطع مسافة تزيد عن الستمائة كيلومتراً (بخط مستقيم)، فالتقى السلطان قلج أرسلان والأمير غازي كمشتكين، في منتصف الطريق، وتأهبوا جميعا للمعركة، مع الجيش

الصليبي، الذي تجرّأ على اقتحام أراضي المسلمين، لمحاولة تخليص أمير أنطاكية، عدوّهم، من الأسر، بدلاً من متابعة سيره الى الأراضي المقدسة.

ووقعت المعركة بالقرب، من أماسيا (٥ آب ١١٠١م - ٤٩٤هـ)، واستمرت حامية من الصباح الى المساء، فدارت الدائرة بالنهاية على الصليبيين، وتحطّم جيشهم باكثريته، بعد قتل الألوف منهم، وكان أول من لاذ بالفرار من الجيش الصليبي، فرقة الأتراك المرتزقة، التي أرسلها معه، الامبراطور البيزنطي، وتبعها القائد العام للجيش: ريموند دي سان جيل، متجهاً نحو الساحل.

وإذ رأى باقي القادة، انهزام القائد العام وفراره، ولّوا الأدبارهم كذلك، تاركين جنودهم والمدنيين لوحدهم في ساحة الوغى، نهباً للسيوف والأسنة، فانتقم المسلمون منهم، انتقاماً انساهم هزائمهم السابقة، ووضعوا يدهم على معسكرهم، وغنموا ما فيه، وسَبوْا العديد من النساء والأولاد، ولم يزالوا يتعقبون الهاربين من الصليبيين، حتى قتلوهم، ولم ينج منهم، سوى ثلاثة آلاف رجل تقريباً، راحوا يهيمون على وجوههم، ملاقين من أصناف العذاب والخوف، ما جعلهم يندمون على عملهم، الى أن أوصلتهم أقدامهم الى الساحل، حيث تجمعوا بعدئذ في سينوب، (Sinope) فتمّ نقلهم، بواسطة الأسطول البيزنطي الى القسطنطينية.

والواقع، كانت هذه الموقعة، كارثة على الصليبيين، إذ أبيد فيها جيشان كاملان تقريباً، وبلغ عدد القتلى من الجنود، ما ينوف عن ثلاثين ألفاً سقطوا صرعى، في ساحة الوغى أو اثناء فرارهم منها.

وبعد ان جهزّ الأمبراطور الكسيس كومنين، هؤلاء الفارين من الموت، وأعطاهم من المؤن والأقوات ما يكفيهم نقلوا بالسفن البيزنطية الى سوريا لينضموا الى جيش بودوان في القدس.

اما القسم الثاني من الجيوش الصليبية، الذي كان يقوده: غليوم الثاني دي نفر، فانه، بعد اجتيازه انقرة، اتجه الى الجنوب، متقدماً نحو قونية عاصمة السلطان قلج أرسلان، ولكن قبل وصوله الى هذه المدينة، كان قد أطبق عليه، جيشا السلطان (قلج، أرسلان وغازي كمشتكين معاً، قرب هِرَقلة (Héraclée) وأحاطا به من كل جانب، فقاومها بكل ضراوة، الا ان الأتراك (وكانوا لا يزالون ثملين بخمرة النصر، على القسم الأول من الجيوش الصليبية)، أبدوا كل ما لديهم من شجاعة، ومهارة حربية، فتفوّقوا على أعدائهم، وأعملوا السيف في رقابهم، فلم يتركوا لهم الفرصة للهرب، حتى أفنوهم عن بكرة أبيهم، فلما نجا منهم غير قائدهم ومعه بعض الفرسان، فوصلوا منهوكي القوى، إلى أنطاكية، وهم شبه عراة من ثيابهم، كأنهم قوم من المتسوّلين، لم يعرفهم أحد، حينما دخلوا المدينة.

وأما القسم الثالث من تلك الجيوش الصليبية، فقد اتخذ، بعد مروره بالقسطنطينية، خطّ سير الطريق، التي اهتدى بها القسم الأول، وكان بقيادة، غليوم التاسع، دوق أقيتانيا، وَوِلف الرابع، دوق باڤاريا، والكونتيسة إيدا النمساوية، ولما بلغ هذا القسم، نهر إِركلي (Eregli)، رأى نفسه مطوّقاً بجيشي قلج أرسلان، وغازي كمشتكين. اللذين ما لبثا أن هاجماه، بقوّة فائقة، فأباداه بكامله، ولم يحالف الحظ بالنجاة سوى: الدوق غليوم، والدوق وِلف. في حين بقي مصير الكونتيسة إيدا مجهولاً، فلم يُعلم ما حلّ بها، هل ماتت ام أُسِرت، والأغلب انها وقعت غنيمة بيد الأتراك، ويقال انها كانت أجمل نساء عصرها، (١٥ أيلول ١١٠١ م).

وهكذا كانت نهاية المطاف، لتلك الحملة الصليبية الكبيرة العدد، التي أرسلها البابا بسكال الثاني، ليلقى أفرادها حتفهم في آسيا

الصغرى، فلا تكتحل عيونهم بمرأى المدينة المقدسة، بل وُئِدوا قبل أن يعرف خبرهم أحد.

وكان لهـذا النصر المؤزّر، يحرزه الأتراك، بتهديم اربعة جيوش كببيرة، دفعت بها أوروبا الغربية، من أجل تعزيز مملكة القدس الصليبية الحديثة التكوين، صدى بعيد المدى، في كافة أنحاء البلاد الإسلامية، حيث عمّ الفرح جماهير المسلمين، الذين رأوا فيه، بداءة الفرج، لما هم فيه من ضيق وعناء.

معارك الرملة

بعد تقاعس دام ما يقرب من السنتين، عمد الوزير الفاطمي: الأفضل، الى تجهيز جيش مصري، يبلغ عدده، ثلاثين ألف جندي، وبعث به الى فلسطين، بقصد استعادة القدس، من الصليبيين، فنزل هذا الجيش في عسقلان، وكان بقيادة سعد الدولة القوّاسي، حاكم بيروت السابق، وانتظر في هذه المدينة عدة أشهر، قبل أن يخرج منها الى الرملة، حيث تصدّى له هناك، الملك بودوان، على رأس جيشه البالغ عدده: (٢٦٠) فارساً، و(٩٠٠) من المشاة.

وقبل تصادم الجيشين، أقدم بودوان، على تقسيم جيشه الى فِرَق أربع، وأمر قادتها بالهجوم، على التوالي، تفادياً لما قد يقوم به الجيش المصري، من تخطيط لتطويقهم، نظراً لقلة عدد كل فرقة، ولما شنّت الفرقتان الأوليان من الجيش الصليبي، هجومهما على الجيش المصري، صمد لهما هذا الجيش، ومزّقهما إرباً، فانهزمت فلولهما، منكفئة نحو يافا. وكان النصر، قريباً من المصريين، لو لم يحاولوا عند ذاك، ملاحقة الفلول المنهزمة، إذ في تلك الآونة، اندفع الملك بودوان، تؤازره الفرقتان الأخريان، مهاجماً الجيش المصري، بقوة وسرعة، فهزّ أركانه، واخترق صفوفه؛ وقيل إنه قتل أحد أمراء المصريين، بضربة واحدة مع

الجواد الذي كان يمتطيه، فهلعت قلوب الجنود المصريين، وتبلبلت صفوفهم وعمّتها الفوضى، فتراجعوا مدبرين نحو عسقلان، تاركين معسكرهم، مع ما يحتويه، لقمة سائغة للإفرنج.

وقد سقط قائد الجيش المصري، سعد الدولة، قتيلاً في هذه المعركة (٧ أيلول ١١٠١ م)، التي أضفت على الملك بودوان، هالة برّاقة، من الشهرة، لانقاذه مملكة بيت المقدس، من السقوط في أيدي الفاطميين، وقد جاء في أقوال إبن القلانسي، بصدد هذه الموقعة، ما يخالف هذه الوقائع، إذ أورد ما يلي:

[وفي هذه السنة - أي سنة ٤٩٤ هـ، خرج من مصر، عسكر كثيف، مع الأمير سعد الدولة المعروف بالقواسي ووصل الى عسقلان لجهاد الأفرنج في أول شهر رمضان، وأقام بحيث هو، الى ذي الحجة منها، ورحل عن عسقلان، ونهض إليه من الإفرنج ألف فارس، وعشرة آلاف راجل؛ والتقى الفريقان، فكُسِرت ميمنة المسلمين وميسرتهم، وتبعوهم، وبقي سعد الدولة المقدّم، في نفر يسير من عسكره، في القلب، فحمل الإفرنج عليه، وطلب الثبات، فعاجله القضاء، وكبابه جواده، وسقط عنه الى الأرض، فاستشهد مكانه، رحمه الله. ومضى شهيداً مأجوراً، وعاد المسلمون على الافرنج، وتذامروا عليهم، وبذلوا النفوس، في الكرّة إليهم، فهزموهم الى يافا، وقتلوا منهم، وأسروا، وغنموا؛ وكانت العقبى الحسنة لهم، ولم تفقد إلاّ نفر يسير منهم[1]].

وعلى كل، ومهما كانت نتيجة المعركة، بالنسبة للمصريين والصليبيين، فإن جيش الفاطميين لم يتمكن من تحقيق غايته، ألا وهي

(١) ذيل تاريخ دمشق، ص - ١٤٠ - حوادث سنة ٤٩٤ هـ.

استعادة مدينة القدس، وقد عاد هذا الجيش، الى عسقلان، بدون نتيجة.

في ذلك الحين، وصل الى بيت المقدس، بعض القادة، من الجيوش الاربعة، التي قهرتها جيوش السلاجقة، والدنشمنديين، بقيادة قلج أرسلان، وغازي كمشتكين، ورضوان ملك حلب، أثناء حملة سنة ١١٠١م الصليبية وهم: دوق أقيتانيا: غليوم التاسع دي بواتير، وهوج السادس دي لوزينيان، والقائد الألماني، كونراد؛ وجوفروا كونت دي ڤاندوم، وأتيان إبن دوق بورغونيا، وأتيان كونت دي بْلوا؛ وهو الذي كان هرب من أنطاكية، بعد وقوعها بيد الصليبيين، ومحاصرتها من قبل المسلمين، وكان يرافقهم عدد قليل من الاتباع. ووضع الجميع أنفسهم بتصرف الملك بودوان.

لم ييأس الوزير المصري الأفضل، بعد الفشل الذي أصاب جيشه، بعدم تمكنه من استعادة القدس، فجهّز جيشاً آخر، مؤلفاً من عشرين الف جندي، عربي وسوداني، وسلّم قيادته لإبنه: شرف المعالي، فنزل هذا الجيش، سهل الرملة أيضاً، فلاقاه، الملك بودوان بجيشه القليل العدد هناك، ولم يكد يلتحم الجيشان، حتى سقط أغلب فرسان الإفرنج صرعى (١٧ أيار ١١٠٢م - ٤٩٥ هـ)، ولجأ بودوان منهزماً مع مَن بقيَ من جيشه، الى داخل مدينة الرملة، التي لم يلبث الجيش المصري، أن رمى الحصار عليها.

وفيما كان الإفرنج، يائسين من النجاة، وقد قطع الملك بودوان كل أمل في المقاومة، إذ حضر عند منتصف الليل، تحت أسوار المدينة، شيخ عربي، وسأل عن الملك لمقابلته شخصياً، فأدخله الحرّاس، الى مخدع هذا الأخير، حيث كان لا يزال نائماً، وبعد أن أيقظوه من نومه، أخبره الشيخ العربي، بأن شرف المعالي، يستعدّ لشنّ الهجوم على المدينة في اليوم التالي، وهي لا محالة واقعة بيده؛ وأوعز له بالهرب حالاً

وبسرعة، قبل أن يبزغ الفجر، فوافق الملك على ذلك، وخرج من الرملة، تحت ستر الظلام، يرافقه أربعة فرسان من أعوانه المخلصين، واخترق صفوف العساكر المصرية كالسهم، بصورة مفاجئة، الاّ أن بعض الفرسان المصريين العرب، فظنوا إليه، فلحقوا به، وتمكنوا من اقتناص رفاقه، الواحد تلو الآخر، بينما عجزوا عن مجاراته في الجري، لسرعة فرسه (الغزال)، الذي يسابق الريح: فنجا منهم -.

أما الشيخ العربي، فجلية أمره، أن زوجته كانت قد وقعت بالأسر، على يد الصليبيين، وكانت حاملاً، ففاجأها المخاض، وعلم بودوان بها فغطّاها بردائه، وأوكل بها بعض خدمه، حتى وضعت حملها بسلام، فأطلقها من الأسر، وأعادها الى زوجها، الذي ردّ إليه الجميل، وخلّصه، بأتاحة الفرصة له للهرب من الرملة.

وبعد هرب الملك بودوان، سقطت الرملة، بيد شرف المعالي، عند الهجوم عليها، فأعمل السيف في رقاب الإفرنج المحاصرين فيها، وأرسل الاسرى منهم الى القاهرة، (١٩ أيار ١١٠٢ م).

وقد كان من بين القتلى، الذين وقعوا في هذه المعركة، جميع الفرسان الإفرنج، ويبلغ عددهم المائة، بما فيهم أتيان دي بْلوا.

ويقول إبن الاثير: إن الجيش الصليبي، لم يكن عدده ليتجاوز السبعمائة أو الثمانمائة، فوقع منهم بالأسر، ثلاثمائة كلّهم من المِشاة.

هذا وان الملك بودوان، بعد فراره من الرملة، بقي هائماً على وجهه مدة يومين، في الجبال وحيداً، الى أن وصل الى أرسوف.

ومن هناك نُقل الى يافا، عن طريق البحر، بواسطة غوذريك أحد القراصنة الإنكليز، حيث كانت زوجته الأرمنية، أردا، تقوم بزيارة المدينة، مع عدد كبير من الحجّاج والفرسان الإفرنج.

وفي تلك الاثناء، قدم الى يافا، عن طريق البرّ، هوج دي سانت

أومر (Hugues de Saint - Omer)، صاحب طبريا، مع فرسانه، كما وصل اليها، بعد ذلك، عن طريق البحر، أسطول مؤلف من مائتي سفينة، تقلّ حجّاجاً وفرساناً من الإنكليز والفرنسيين والألمان، ولما رأى الملك بودوان، أن هذه النجدة، غير المنتظرة، قد هبطت عليه من السماء، عمد بسرعة، إلى إعادة تنظيم جيشه، كما يجب، وبادر فوراً الى مهاجمة الجيش المصري، بين يافا وعسقلان، وانتصر عليه (٢٧ أيار ١١٠٢م). وبعد ذلك، أي في شهر أيلول سنة ١١٠٢م، وصلت الى الملك بودوان، قوات إفرنجية من سوريا الشمالية، على رأسها الأمير تنكرد، وبودوان دي بورك، واشتركت معه في مهاجمة عسقلان دون جدوى.

ولما اطمأن الأفرنج الى قواهم العسكرية، التي أخذت تزداد بازدياد قدوم الحجّاج الأوروبيين، الى بيت المقدس، قاموا بهجوم قوي على مدينة عكا فلم يتمكنوا منها (١١٠٣م). وفي أيلول ١١٠٣م، قام الأسطول الفاطمي، بمحاصرة مدينة يافا، بينما بقي الجيش في عسقلان، ولكن عاد هذا الاسطول ففك الحصار عنها، عندما علم قادته، بمجيء الملك بودوان إليها، وحينما وصل اسطول جنوي الى يافا، استعان به الملك بودوان، لمحاصرة مدينة عكا، والاستيلاء عليها، بعد أن أوقع الهزيمة بالجيش الفاطمي (٢٦ أيار ١١٠٤م - ٤٩٧ هـ) ولكن الفاطميين، لم ييأسوا، فكرّروا محاولاتهم، لاسترداد ما فقدوه من ممتلكاتهم، فدفعوا بجيش آخر، الى الرملة، تعزّزه وحدات شامية، انضمت إليه، واصطدموا هناك بالإفرنج (٢٧ آب ١١٠٥م - ٤٩٨ هـ) وكانت المعركة ضارية، استطاع الملك بودوان بالنهاية، تمزيق شمل الفرسان الأتراك أولاً ثم انقلب على القوات المصرية، فصمد له المشاة المصريون والسودانيون، ولكنهم لم يلبثوا أن تضعضعت صفوفهم تحت وطأة ضربات الإفرنج، فأبيدوا، ولم ينج من الموت سوى الفرسان

العرب الذين ولّوا هاربين.

وعلى إثر هذه الانتكاسات، التي مُني بها الفاطميون، خفّت هجماتهم على الإفرنج، وفضّلوا انتهاج خطة الدفاع تجاه ما تحقّقوه من قوى هؤلاء، الذين وضعوا نصب أعينهم، توسيع رقعة ممتلكاتهم، وتوطيد اركان مملكتهم اللاتينية، بمعاونة الاساطيل المسيحية التي كانت تَرِد باستمرار الى الشرق.

الفصل التاسع

إمارة طرابلس

قبل سقوط مدينة طرابلس، بيد الصليبيين الغزاة، كان هؤلاء قد تمكنّوا من تأسيس، ثلاث ممالك في الشرق، هي أولاً كونتية الرها (Edesse)، وتولّى حكمها، بودوان دي بولونيا، شقيق غودفروا دي بويون (١٠٩٧ م). ثانياً: إمارة أنطاكية في الشمال، وقد أستأثر بها، بوهمند النورماني (١٠٩٨ م) ثالثاً: مملكة القدس اللاتينية في الجنوب، وتسلّم زمـــام الأمور فيهـــا، غودفروا دي بويون (١٠٩٩ م). وقـــد اصطـــدم الفاتحون، بالقوى الاسلامية، التي كانت تسيطر على هذه الممتلكات، وتغلّبوا عليها، ثم راحوا يشنّون الغارات المتلاحقة، على المدن التي لم تقع بأيديهم، بغية توسيع رقعة تلك المالك، والمحافظة عليها، لكي يضمنوا لأنفسهم، البقاء في الشرق، العربي، وبعد أن تحطّمت الحملة الصليبية التي قادها ريموند دي سان جيل من القسطنطينية، بناء لرغبة الامبراطور البيزنطي، ألكسيس كومنين، بالقرب من أماسيا، وأركلي، في/٥/آب و ١٥/ أيلول (١١٠١ م) كما سبق بيانه، ترك ريموند دي سان جيل، عاصمة البيزنطيين (وكان قد لجأ اليها، بعد هزيمته، وفراره من المعركة) ويمّم وجهه شطر مدينة أنطاكية، حيث اتفق مع قائد الاسطول الجنوي، الذي صودف وجوده في مرفأ السويدية حينذاك، على مهاجمة مدينة طرطوس، التابعة لإمارة طرابلس العربية.

وقد حالف الحظ هذه المرّة، الكونت دي تولوز، فاستولى بمعونة الجنويين، على المدينة المذكورة (٢١ أيار ١١٠٢م - ٤٩٥ هـ).

وبعد أن قرّر الأمور فيها واتخذها مركزاً له، أخذ يشن الهجمات منها، على النواحي المجاورة، حتى كان يصل الى أسوار طرابلس، فيتوقف عندها، لعجزه عن أخذها.

وكانت جماعة من موارنة الجبل المسيحيين، يعاونون الكونت دي تولوز في غاراته، وعلى الخصوص، حينما قام بمهاجمة مدينة جبيل (بيبلوس القديمة)، واستولى عليها، بمؤازرة الأسطول الجنوي (٢٣ نيسان ١١٠٤م - ٤٩٧ هـ[1]):

ولما كان ريموند دي سان جيل، يطمح بالاستيلاء على مدينة طرابلس نفسها، ليجعلها عاصمة لإمارته العتيدة، التي كان لا ينقطع عن التفكير بها، منذ مجيئه الى الشرق، فقد عمد سنة/ ١١٠٣م/ الى إلقاء الحصار عليها، وتشييد قلعة على أكمة صخرية، تشرف على نهر أبي علي (قاديشا)، عمدّها باسم (تلّة الحجّاج)، وسمّاها المسلمون: قلعة صنجيل.

وقد أضحت هذه القلعة، فيما بعد، مركزاً نما حولها حيّ لاتيني كبير: وهي أولى القلاع العديدة التي بناها الصليبيون أثناء وجودهم في الشرق.

وأخذ صنجيل (كما سمّاه العرب) يعمل على مضايقة صاحب طرابلس: فخر الملك، أبي علي بن عمّار، فيشدّد الحصار على المدينة الاسلامية الكبيرة، برّاً وبحراً، بمعونة، الأساطيل الإيطالية، بحيث لم تثمر النجدات، التي بعث بها طغتكين من دمشق، وجناح الدولة، من حمص لفك الحصار عنها.

ولم يمهل الأجل ريموند دي سان جيل، كونت دي تولوز، ليرى فتح

(1) Rene´Grousset: L'Epopée Des Croisades p. 75 -

وابن خلدون - ج/٥/ ص ١٨٦.

طرابلس، فمات في قلعته هذه، بتاريخ ٢٨ شباط ١١٠٥م، تاركاً زوجته: ألفير دي كاستيل، وإبنه منها: ألفونس جوردان، البالغ من العمر سنة واحدة، والوريث الوحيد لكونتية تولوز.

وقد خلف ريموند دي سان جيل. إبن عمه: غليوم دي جوردان، كونت دي سردانيا، الذي ثابر على حصار المدينة، فأصبحت مهدّدة بالمجاعة، ويقال إن رطل التمر كان يباع بدينار من الذهب فيها وأخذ سكّانها يتركونها، مما دفع بأميرها فخر الملك بن عمّار، للتوجّه الى دمشق، ومقابلة الأتابك ظهير الدين طغتكين: الذي ساعده على السفر الى بغداد، بأن أرفقه بأبنه تاج الملوك بوري. وكان فخر الملك، قبل مغادرته طرابلس، قد عهد بأدارتها الى إبن عمه، أبي المناقب إبن عمّار (١١٠٧م - ٥٠١هـ). ولما وصل فخر الملك وتاج الملوك الى بغداد، لقيا من الخليفة العباسي، ومن السلطان السلجوقي، كل ترحيب وتكريم، إلاّ المعونة العسكرية التي كان يأملها فخر الملك، وانتظرها مدة أربعة أشهر، ولم يحظ بها، فضجر من المقام في عاصمة العباسيين، وعاد الى دمشق، دون أن ينال ما كان يأمله.

وفي تلك الأثناء، وبغياب فخر الملك، أنفذ أبو المناقب والطرابلسيون، الى الوزير الأفضل بمصر، يلتمسون منه، استلام طرابلس، وتعيين والٍ على مدينتهم لحمايتها: فبعث إليهم بشرف الدولة إبن أبي الطيّب على رأس أسطول، يحمل لهم الغلّة والميرة، وفور وصوله الى المدينة، قبض هذا الوالي على جماعة من عائلة إبن عمار وأصحابه؛ وأخذ ما وجده من ذخائر وآلات وأثاث، في خزائن فخر الملك، وأرسله الى مصر، عن طريق البحر[١].

---

(١) إبن الأثير: الكامل - ج - ١٠ - ص - ١٧١ -
وإبن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق. ص ١٦٠ - ١٦١ -
- حوادث سنة /٥٠١/ هـ.

أما غليوم دي جوردان، فقد تابع أعمال صنجيل، من شنّ الغارات على نواحي طرابلس: فاحتلّ (عَرَقة) شمالي شرقي المدينة، مع بعض القلاع في جبل عكار (نيسان ١١٠٨م - ٥٠٢ هـ).

كان صاحب عَرَقة، قد أنفذ رسولاً الى ظهير الدين طغتكين، أتابك دمشق، يلتمس منه المعونة على دفع الأفرنج عنها، وتعيين من يراه جديراً بتسلّمها، فندب طغتكين بعض ثقاته، فتسلّمها وأقام والياً عليها، بانتظار وصول العسكر إليه. وقد علم الإفرنج بالأمر، فبادروا بالنزول عليها، في الوقت الذي كان طغتكين، متوجهاً إليها؛ فصادف الافرنج وهم يحيطون بها، فعجز عن دفعهم عنها، وعاد الى حصن الأكمة، ونزل عليه، وقاتله.

فلما رأى الافرنج ذلك، نهضوا إليه، لنجدة مَن بالأكمة، فرحل عنها كالمنهزم، فتتبعّه هؤلاء، وفرّقوا عسكره، وغنموا من الخيل والكراع غنيمة كبيرة.

ثم رجع الأفرنج الى عَرقة فملكوها بالأمان[١].

وبعد حصار دام خمس سنوات، صمدت طرابلس، صمود الأبطال في وجه الافرنج، بالرغم ممّا عاناه أهاليها من مجاعة وفقدان القوت، وارتفاع في أسعار المعيشة، كل ذلك بمعزل عن أية مساعدة من الفاطميين في مصر، أو من الخليفة العباسي في بغداد، أو سلطان العجم السلجوقي، أو أتابكة الموصل، ودمشق وحلب، الذين كانت إمكاناتهم العسكرية، كفيلة بدفع جيش الافرنج المحاصر لها. لو اتفقوا على إنقاذها.

ولكن الخلافات الشخصية التي كانت تفرّق بين اولئك الحكّام، وتحاسدهم للاستئثار بالسلطة، هما اللذان أديا الى تمادي الافرنج في

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق - ص - ١٦٢ - حوادث ٥٠٢ هـ.

تهديداتهم، ومحاصرة المدينة الباسلة، التي كانت وقتذاك، تبذّ سائر مدائن المسلمين، في جميع النواحي.

ولولا سوء الحظ، وتأخر الأسطول المصري، عن نجدتها، لكانت طرابلس تمادت في مقاومتها الحصار الأفرنجي، مدة أطول، ولكن لكل شيء حدود. وقدرتها على الحرب، لها حدود، فلما يئس أهاليها من مساعدة الحكام المسلمين لهم، وتأكدوا من عجزهم على مواصلة المقاومة، بعد كل ما فعلوا لهذه الناحية، رضخوا للأمر الواقع، وسلّموا مدينتهم للافرنج.

ذلك أنه فيما كان الحصار قائماً على المدينة، وغليوم جوردان في طرطوس، يدير شؤون الحكم، إذ بأسطول، جنوي كبير، يُرسي هناك في مياهها، وهو ينقل على متنه، جيشاً يقدّر بأربعة آلاف رجل، وعلى رأسه: برتراند دي تولوز، الإبن الأكبر للكونت دي تولوز الراحل، ريموند دي سان جيل، من زوجته الأولى، المطلقة منه، لعلّة القرابة المحرّمة. وكان برتراند، يعتبر ولداً غير شرعي، محروماً من إرث والده، وقد أتى الى طرطوس للمطالبة بحقه في البلاد التي تعود لوالده في الشرق (شباط - آذار ١١٠٩ م).

وبالطبع رفض غليوم جوردان مطالب برتراند، لأسباب تذرع بها لتأييد رفضه، فنشب الخلاف بينهما، حتى كاد يحصل الصدام بين جندهما، فطلب برتراند معونة ملك القدس بودوان الأول، والتدخل لمصلحته بهذا الشأن، بينما استعان غليوم، بأمير أنطاكية، تنكرد، أو (طنكري) كما يسمّيه المؤرخون العرب، لمؤازرته ضدّ خصمه.

وقد رأى بودوان الأول، أن الفرصة مؤاتية، لبسط سلطته، على كافة أراضي الافرنج الفلسطينية، السورية، وجعلها تابعة لمملكة القدس اللاتينية، فتوجّه الى مكان، بالقرب من طرابلس، وبرفقته خمسمائة من

الفرسان الافرنج، حيث أرسل من هناك، يطلب من تنكرد أمير انطاكية، وبودوان دي بورج أمير الرها، وتابعه: جوسلين دي كورتناي، حاكم تل باشر، وبرتراند دي تولوز، وغليوم جوردان، موافاته للإجتماع معاً، والبحث في أمر الخلاف المعروض.

وفي المؤتمر الذي عقد في قلعة صنجيل لهذه الغاية، بين الملك بودوان، وبين هؤلاء البارونات، توصل الأول الى إجراء المصالحة بين الخصمين: برتراند وغليوم، فحكم بقسمة إرث ريموند دي سان جيل، بينهما، بحيث يحتفظ غليوم، بمدينتي طرطوس وعرقة، ويأخذ برتراند، مدينة جبيل وقلعة صنجيل، بالإضافة الى مدينة طرابلس، في حال سقوطها بيد الإفرنج.

وبعد الموافقة على هذا القرار، اغتنموا فرصة وجودهم معاً، أمام طرابلس، ووجود الأسطول الجنوي المؤلف من سبعين سفينة بالقرب منها، فشنّوا عليها هجوماً ساحقاً، من البرّ والبحر، ضاق الطرابلسيون به، ولم يعد بمقدورهم الصمود، إذ أرهقهم الحصار الطويل، وتأكلّهم اليأس، فأجروا مفاوضات مع الإفرنج، لتسليمهم المدينة، شرط ان يتركوهم أحراراً، فإما أن يهاجروا منها، وإما أن يبقوا تحت حكم الأفرنج، مقابل دفعهم جزية سنوية لهم، وتمّ الاتفاق على هذا الأساس.

وفي الثاني عشر من تموز ١١٠٩م - ٥٠٢هـ دخل الأفرنج مدينة طرابلس، العربية، ولم يحترموا بنود الاتفاق الجاري مع أهاليها، إذ أن الجنويين، اعتبروا بأنهم غير مقيّدين بالاتفاق المذكور، فأقدموا على نهبها، وتقتيل الطرابلسيين.

وقد كافأهم برتراند دي تولوز، بمنحهم امتيازات تجارية واسعة، وأقطع أمير الأسطول الجنوي: هوج أمير ياكو، مدينة جبيل بكاملها.

لتكون ملكاً له، ولورثته من بعده[1].

وبعد مرور فترة قليلة، على احتلال طرابلس، حصلت مشاجرة بين جماعة من حزب غليوم جوردان، وجماعة من حزب برتراند دي تولوز، أدّت الى تبادل اطلاق السهام: فانـدفـع غليوم جوردان، لتفرقـة المتشاجرين، ووضع حدّ لخلافهم، فأصابه سهم عَرَضاً، في خاصرته، وكانت إصابته مميتة، ولم يُعرف مطلق السهم: إلاّ أن بعض المؤرخين يلمّحون بأن موت غليوم يدعو الى الريبة، دون أن يؤكدوا علاقة برتراند بافتعاله.

وعلى كل حال، فإن برتراند دي تولوز، أضحى المالك الوحيد لممتلكات الافرنج في لبنان، وإليه تعود حصة غليوم جوردان، الذي مات بدون عقب.

وهكـذا تـأسّست نهـائيـاً، الـدولـة الأفرنجيـة الرابعـة، في كونتيـة طرابلس، بعد دولة الرها، ودولة انطاكية ودولة القدس اللاتينية.

وقد دامت إمارة طرابلس الأفرنجية حتى سنة ١٢٨٩م بعد أن بسطت سلطانها على سواحل لبنان الممتدّة بين إمارة أنطاكية ومملكة القدس. وأصبحت تشكل أكبر إقطاعة لهذه المملكة الأخيرة، بحيث إن برتراند دي تولوز، أخذ يعمل بالتنسيق مع ملك القدس، ويؤازره في كل فتوحاته المقبلة.

ففي سنة ١١١٠م، قام برتراند دي تولوز، بمساعدة الملك بودوان والأسطول الايطـالي الجنوي، بمحـاصرة مـديـنـة بـيروت، برّاً وبحراً، ووافاها الى هناك، جوسلين دي كورتناي، صاحب تل باشر، للمؤازرة، وبالتالي للاستنجاد بها، على عسكر الأمير مودود، النازلين على الرها.

---

(1) zoé Oldenbourg: les Croisades P. P. 238 - 239

وبعد أن نصب الافرنج على سور المدينة المحاصرة، برجين كبيرين، اشتدوا في القتال، وشنّوا الهجوم عليها، حتى تمكّنوا من دخولها والاستيلاء عليها، فقتلوا الوالي وجماعة من أصحابه، ونهبوا البلد وسبوا اهاليها (١٣ أيار ١١١٠م - ٥٠٣هـ[١]).

وقبل أن يدخل الافرنج، بيروت، كان الاسطول الجنوي، قد دخل بمعركة مع الأسطول المصري، المرسي في مياهها، فقُتل مقدّمه، وانسحب منها.

وبعد تقريرهم أمر بيروت، رحل الأفرنج عنها، فيما كانت نجدة من ثلاثمائة فارس، آتية إليها من مصر، فلما وصلت تلك النجدة الى الأردن، خرجت عليها فرقة من الأفِرنج وهزمتها، فتفرّق أفرادها ولم يصلوا الى بيروت.

---

(١) إبن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق. ص: ١٦٧ - ١٦٨ - حوادث سنة ٥٠٣هـ.

الفصل العاشر

بدء الجهاد ضد الأفرنج

بعد أن تمّ الصلح بين الأخوين السلطانين، بركياروق ومحمد، إبني السلطان ملكشاه السلجوقي، على أساس اقتسام المملكة بينهما (٤٩٧ هـ)، لم تطل مدة حكم بركياروق، فتوفيّ بشهر ربيع الآخر سنة ٤٩٨ هـ - ١١٠٤ م - وتفردّ محمد بالسلطنة، دون أن ينازعه فيها منازع، عندئذ وضع السلطان نصب عينيه، قتال طائفة الاسماعيلية (الباطنية)، الذين استفحل أمرهم، وقويت شوكتهم بكثرة عددهم، فعاثوا في البلاد فساداً، وقتلوا العباد، وألحقوا أكبر الضرر بالمملكة: فأنزل بهم الضربات المتلاحقة، وحاصر قلاعهم الحصينة، وهدم بعضها، فشغله ذلك عن الاهتمام بأمر الصليبيين، ردحاً من الزمن، الى أن سقطت مدينة طرابلس، بأيدي هؤلاء؛ فكان لسقوطها أثر بليغ في نفوس المسلمين، فتنادوا للجهاد. واستجاب السلطان محمد لندائهم، فطلب من شرف الدولة مودود، صاحب الموصل، وسقمان القطبي، صاحب أرمينية وميافارقين، قيادة حملة عسكرية كبيرة، بعد تجهيزها تجهيزاً كاملاً. وأمرهما بالمسير لجهاد الأفرنج. فلبيّا الطلب، وانضم إليهما، مسعود ابن السلطان محمد، ونجم الدين إيلغازي بن أرتق، صاحب ماردين، وإيلبك ابن أقسنقر البرسقي: أمير همذان، وما جاورها، وغيرهم من المتطوعين.

ومضى هذا الجيش الكبير، فنزل أولاً بجزيرة بني نمير، حتى اذا تكامل عدده بوصول ولاة الأطراف، اتفق الجميع على افتتاح الجهاد،

بقصد مدينة الرها، لرمي الحصار عليها، باعتبارها أضعف مدن الإمارات الصليبية وقتذاك، بحكم مركزها وقربها من بلاد المسلمين؛ ولما شعر أميرها: بودوان دي بورج، باقتراب الجيش الأسلامي منه، حشد من استطاع حشده من الجند، وبعث برسول الى القدس، هو جوسلين دي كورتناي، يطلب المعونة من ملكها بودوان الأول الذي هبّ فوراً فجمع جيشاً كبيراً قدم به الى طرابلس وضم إليه جيش الكونت برتراند دي سان جيل، كما طلب من أمير أنطاكية، تنكرد، الاشتراك معه، بعد أن عمل على مصالحته مع أمير الرها.

واثناء المصالحة، وجّه الملك بودوان، لتنكرد، كلمات قاسية، حينما شعر بمراوغة هذا الأخير، قائلاً له: [إنه - أي بودوان - انتُخب ملكاً من قبل مسيجيي ما وراء البحار، لمقاتلة الكفار، وبهذه الصِّفة، يحق له: أن يُلزمه بمصالحة بودوان دي بورج، وبالتعاون التام في الكفاح ضد الأتراك. وإلاّ فانه لا يمكنه الانتماء اليهم، (اي الى الأفرنج) وسوف يقاتلونه بدون رحمة[1]] - على أن تنكرد، كان يُسرّ في نفسه شيئاً آخر. فما ان بدأ جيش الأفرنج بالتحرك، حتى انسحب منه، متجّهاً نحو سميساط. بينما بقي الجيش الأفرنجي مواصلاً سيره الى الرها، حيث كان الجيش الأسلامي يضرب الحصار عليها (٢٠ أيار ١١١٠م - ٥٠٤ هـ).

وحينما تحقق قادة هذا الجيش، من أن الأفرنج يتقدمون نحوهم على رأس جيش يبلغ الخمسة عشر الف مقاتل، أسرعوا برفع الحصار عن المدينة، منكفئين باتجاه حرّان، لترقّب الفرصة المؤاتية للدخول في المعركة.

بيد أن الأفرنج، لم يفتهم قصد المسلمين، فرأوا أن يُخلي السكان

(1) Zoe Oldenbourg: les Croisades: P.242.

المدنيون من الأرمن واليونان، قراهم ومدنهم المفتوحة والمحصّنة، الواقعة على الشاطىء الشرقي من الفرات، لاجلائهم عنها الى مدن أخرى، تبعاً لضرورات الحرب، ومصلحة السكّان أنفسهم.

وبدلاً من أن يعمل الأفرنج على تنظيم هذه الخطة، بصورة تكفل لأولئك المدنيين سلامتهم، أخطأوا بعبورهم النهر الى الضفة الأخرى، قبل السكان، فتركوهم دون حماية، ولم يحسنوا نقلهم بالقوارب التي لم تكن على كل حال، كافية لاستيعابهم بالنسبة لكثرة عددهم: مما أتاح لجند المسلمين، حيث كانوا لهم بالمرصاد، لكي يهاجموهم في المكان الذي هم فيه، ويصلوهم بوابل من سهامهم. فأفنوا منهم جمعاً غفيراً، يقدّر بالألوف، سوى من غرق منهم بالنهر، وكل ذلك، تحت سمع وبصر الجيش الأفرنجي، الذي عجز عن إغاثتهم، في الحالة التي كانوا عليها، من فوضى وقلّة تدبير.

وعلى إثر ذلك، عاد مودود وأصحابه الى حرّان، يقودون الأسرى من النساء والأولاد، بالاضافة الى الغنائم الكثيرة التي وقعت بيدهم.

وبصدد هذه المجزرة المحزنة، يقول متّى الرهاوي: [لقد كانت مياه النهر (نهر الفرات) تجري دماً، وخَلَتْ إمارة الرها من سكانها].

اما إبن القلانسي فيقول عن هذه الحملة التي قام بها مودود، بجيشه الاسلامي [ولما عرف المسلمون قرب الأفرنج منهم، اتفقت الآراء فيما بينهم، على الأفراج لهم ليتمكنوا من لقائهم في الفضاء من شرقي الفرات. ورحلوا عن الرها في آخر ذي الحجة منها (اي سنة ٥٠٣ هـ) ونزلوا أرض حرّان على سبيل الخديعة والمكر، وكانت حران قد حصلت للأمير مودود، وسلّمها الى نجم الدين إيلغازي بن أرتق. وتوقف المسلمون عن لقاء الأفرنج الى أن يقربوا منهم، ويصل اليهم عسكر دمشق. وفطن الأفرنج لهذا التدبير والأتفاق عليه، فخافوا واستشعروا

الهلاك والخذلان. وأجفلوا ناكصين على الأعقاب، الى شاطىء الفرات وبلغ المسلمين خبرهم؛ فنهضوا في أثرهم. وأدركهم سَرَعات الخيل، وقد قطع الفرات بعض من مقدّميهم، فغنم المسلمون سوارهم وأثقالهم، وأتوا على العدد الدّثر من أتباعهم قتلاً وأسراً وتغريقاً في الفرات.

وامتلأت الأيدي من الغنائم والأسلاب والسبي والدواب. ولم يتمكن المسلمون من قطع الفرات للّحاق بهم، بحكم اشتغالهم بأمر الرها والعود اليها. وكانوا قد أخرجوا منها كل ضعيف الحال، ورتبوا جماعة من الأرمن لحفظها. وخرج بغدوين الرويس صاحبها عنها، وتوجّه صحبة الأفرنج المنهزمين][1]. وفي ذلك الوقت، خرج رضوان السلجوقي ملك حلب، ليعيث في نواحي أنطاكية، وفيما هو كذلك، إذ به يفاجأ بعودة تنكرد؛ فانكفأ بجيشه الى حلب، وتحصّن بها. فما كان من هذا الأخير، الاّ أن ردّ له الضربة، فهاجم بعض المدن التابعة لمملكة حلب، واستولى على اثنتين منها هما: أثارب، وزردانة (اواخر عام ١١١٠م - ٥٠٤هـ) وأرغم ملك حلب على دفع الجزية له، مع أميري شيزر وحماه.

وبعد أن افترق العسكر الأسلامي عن الرها، عاد اليها أميرها: بودوان دي بورج. كما أن ملك القدس، بودوان الأول، رجع الى بلاده.

وفي القدس اجتمع بودوان، بملك النروج: سيغورد، الذي اتى من بلاده البعيدة لزيارة المدينة المقدسة، على رأس أسطوله الأسكندينافي، المؤلف من ستين سفينة مشحونة بالرجال والعتاد: وكان يقوده بنفسه. وقد اتفق الأثنان على مهاجمة مدينة صيدا، بالتعاون مع بنادقة الدوج: أوردالوفالير؛ وألقوا الحصار عليها براً وبحراً. وفي الثالث من ربيع الآخر - ٥٠٤هـ - ٤ كانون الأول ١١١٠م، دخل الأفرنج هذه المدينة، بعدما بقي الحصار عليها مدة سبعة وأربعين يوماً، ولم يستطع

(١) ذيل تاريخ دمشق ص. ١٦٩ - ١٧٠ - حوادث ٥٠٣هـ.

الأسطول الفاطمي الذي كان مرسياً في مياه صور من انجادها، فطلب أهاليها الأمان من ملك القدس، فأمنهم على أنفسهم، وخرجوا مع العسكر والوالي منها، متوجّهين الى دمشق.

وبعد أن رتّب الملك بودوان الأول أمور صيدا، وعيّن حاكماً عليها، قرّر على أهاليها، الذين فضلوا البقاء فيها من المسلمين، غرامة قدرها عشرون ألف دينار ذهبي ونيّف، فأصابهم بالفقر[1].

بوهمند وتنكرد

بعد وقوع بوهمند، أمير أنطاكية، بالأسر، بيد الأتراك، في سنة ١١٠٠ م - ٤٩٤ هـ، كما مرّ آنفاً، قام تنكرد، وهو إبن أخت بوهمند، بأعمال الوصاية على العرش، على أتمّ وجه، فقويت أركان تلك الامارة الصليبية، وبات المسلمون يرهبون جانبها، نظراً لِما كان يُقدم عليه تنكرد، من المضايقات في ممتلكاتهم.

وفي شهر أيار سنة ١١٠٣ م - ٤٩٧ هـ، أُطلق سراح بوهمند من الأسر، بعناية الأمير الدنشمندي: كمشتكين، لقاء فدية قدرها عشرة آلاف دينار، فعاد الى أنطاكية، واستعاد الحكم فيها من يد تنكرد. وبعد أن اطمأن بوهمند، الى مجرى الأمور في أمارته، وطدّ عزمه على فتح الجزيرة، باتجاه الموصل، للعبور منها بالتالي، الى عاصمة العباسيين: بغداد.

وقد اتفق بوهمند مع أمير الرها، بودوان دي بورج، في هذا السبيل، وانضمّ اليهما تنكرد، فبدأوا بمحاصرة حصن: حرّان، جنوبي الرها (٧ أيار ١١٠٤ م - ٤٩٧ هـ).

ولما نمي الخبر الى جكرمش: أتابك الموصل حينذاك، وسقمان

---

(١) إبن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص. ١٧١ - حوادث ٥٠٣ هـ.

- Jean Richard: Le Royaume Latin de Jerusalem. P. 37

الارتقي: صاحب ديار بكر، أسرعا، كل من جهته، الى نجدة ذلك الحصن، فاشتبكا بمعركة عنيفة مع الأفرنج، قرب (بَلِخ)، كانت الغلبة فيها لهما، بالنتيجة؛ ذلك أن جكرمش وسقمان،، حينما رأيا قوة جيش الافرنج الكبيرة، تظاهرا بالانسحاب من المعركة، ليوهما العدوّ بأنهما خافا منه، فانطلت عليه الحيلة، وانقسم جيشه الى قسمين لملاحقتهما، فلما ابتعد هذان القسمان عن بعضهما، انكفأ الجيشان الاسلاميان نحوهما، وهاجماهما بالسرعة الفائقة، فزعزعا صفوف كل قسم منهما، فدبّت الفوضى فيهما. مما جعلهما لقمة سائغة لسيوف الأتراك وأسِنّتهم، فتساقط القتلى منهما بالمئات، ووقع أمير الرها: بودوان دي بورج في الأسر، مع إبن عمه ومساعده: جوسلين دي كورتناي، بينما لاذ بالفرار، الأمير بوهمند وتنكرد، ومَن نجا من القتل، من الجيش الأفرنجي، وهم منهزمون.

وفي أعقاب هذا النصر، عمد الأتراك الى محاصرة مدينة الرها، حيث كان الأمير تنكرد، قد التجأ اليها بعد فراره من المعركة.

في حين أن الأمير بوهمند، أسرع الى أنطاكية، للحصول على النجدة. وقبل وصول تلك النجدة الى تنكرد في الرها، قام هذا الأخير، بالأتفاق مع أهالي المدينة الأرمن، بهجوم مباغت في الليل، على الجيش التركي المتمركز في السهل حولها، فأعملوا فيه السيف، وشتتوا شمله، فانسحب، وبقيت الرها بيد الأفرنج.

بعد ذلك، تكاثرت الضربات وتلاحقت على إمارة أنطاكية من قبل الأتراك، الذين استطاعوا انتزاع العديد من ممتلكات بوهمند، في شرقي العاصي، ومن قبل البيزنطيين، الذين استعادوا مدينة اللاذقية. وتجاه تلك الحالة التي وصلت اليها إمارته، رأى بوهمند، من المناسب طلب المعونة من أوروبا، وليس من القدس، لتعزيز إمارته.

ولهذه الغاية أبحر الى إيطاليا (أواخر سنة ١١٠٤م) بعدما ألقى بمقاليد الأمور في أنطاكية، الى إبن أخته، تنكرد نفسه، ومن إيطاليا انتقل بوهمند الى فرنسا، حيث تزوّج هناك بأبنة الملك فيليب الأول، وتدعى: كونستانس. وما أن انتهى من تجهيز قوة كبيرة من المقاتلين، حتى عزم على مهاجمة الامبراطورية البيزنطية، باعتبارها الخصم الأساسي للإفرنج، حسب رأيه. فأبحر ونزل على شاطيء الأدرياتيك. حيث بدأ بمحاصرة قلعة: (دورازّو) البيزنطية.

وبعد حصار دام مدة طويلة فشل بوهمند في النيل من هذه القلعة، مما مكّن الامبراطور البيزنطي، لملاقاته هناك ومنازلته والتغلّب عليه وإرغامه على الاعتراف، بالتابعية له في حكم أنطاكية، والبلاد المرشّحة للفتح الصليبي في الشرق.

ونتيجة لهذا الفشل يصيبه، أنِف بوهمند من العودة، الى أنطاكية، ولم يرَ ملْجأ، يلجأ إليه، إلاّ إيطاليا، فبقي فيها حتى وفاته في شهر آذار سنة (١١١١م). أما فيما يتعلق بالأمير تنكرد، فإنه اثناء غياب بوهمند، جهد بالعمل على تقوية جيشه، ومجابهة الأتراك بقوة. ففي شهر نيسان سنة ١١٠٥م - ٤٩٨هـ، التقى فخر الملوك، رضوان، ملك حلب أمام مدينة تيزين وجرت بينهما معركة شديدة دارت الدائرة فيها، على رضوان، فلاذ بالفرار مع فلول جيشه، منكفئاً نحو حلب. وعلى إثر هذا النصر، قصد تنكرد حصن أرتاح، الذي كان الأرمن قد سلّموه الى رضوان، تخلّصاً من جور الأفرنج، فلما علم المسلمون الذين في الحصن، باقتراب أمير أنطاكية، منهم، هربوا بأسرهم من الحصن، وتركوه خالياً، فاستولى عليه، هذا الأخير، ثم راح يعيث في ممتلكات المسلمين سلباً ونهباً وسبياً، حتى عاد الى عاصمته.

وفي الثالث عشر من محرّم سنة ٥٠٠هـ - ١١٠٦م، مضى تنكرد

(والمسلمون يدعونه: طنكري) ونزل على حصن أفامية فضايقه حتى تسلّمه بالأمان.

وفي أواسط سنة ١١٠٨ م - هاجم تنكرد مدينة اللاذقية وانتزعها من يد البيزنطيين، الذين كانوا يناصبونه العداء.

وفي الوقت نفسه، الذي كان فيه تنكرد، يدير إمارة أنطاكية، كان أيضاً يتولّى حكم إمارة الرها، طيلة غياب بودوان دي بورج، في أسر الأتراك (وقد أطلق سراح بودوان هذا فيا بعد، وتسلّم زمام الأمور في الرها في أيلول سنة ١١٠٨ م).

ولم ينقطع تنكرد عن شنّ الغارات على أراضي المسلمين، بصورة متواصلة، فتمكن في سنة ٥٠٣ هـ - ١١٠٩ م، من أخذ مدينة طرسوس (Tarse) وما والاها، من يد البيزنطيين، وأخراجهم منها، وبعد ذلك. مضى تنكرد الى شيزر وحاصرها، وقرّر عليها مقاطعة قدرها عشرة آلاف دينار، تحمل اليه. ومن ثم نزل على حصن الأكراد، فتسلّمه من أصحابه[1]. وعمل على توثيق عرى الصداقة مع بني منقذ، أمراء شيزر.

مودود وطغتكين

كانت إمارة الموصل، بحكم موقعها، تجاور إمارة الرها، من الشرق والجنوب، وتواجه املاك البيزنطيين من الشمال، وكان يتولاها الأمير قوام الدولة كربوغا، حين سقوط أنطاكية بيد الصليبيين، كما مرّ بيانه.

وبعد وفاة كربوغا في سنة ٤٩٤ هـ خَلَفه في إمارة الموصل الأمير موسى التركماني، فلم تطل مدته وقتل، وبعده، تولّى تلك الأمارة، شمس الدولة جكرمش، وهو من مماليك السلطان ملكشاه السلجوقي، والد السلطان محمد.

(١) إبن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق - ص - ١٦٧ - حوادث سنة ٥٠٣ هـ.

وقد وقع الجفاء بين السلطان محمد وبين جَكَرمش، إثر معركة بلخ، فهاجمه السلطان بجيوشه، للاقتصاص منه، فانتهز الفرصة عندئذٍ، سلطان سلاجقة الروم (آسيا الصغرى): قلج أرسلان، وهاجم مدينة (حرّان).

وفي تلك الأثناء، قُتِل جكرمش (٥٠٠ هـ)، وعُيّن مكانه، في إمارة الموصل، قائد يدعى: جاولي سقاوه، واصل الحرب ضد قلج أرسلان، وانتصر عليه، ففرّ هذا الأخير منهزماً، وأثناء فراره، تردّى في خندق ماء، فمات غرقاً[١].

على أن جاولي سقاوه، كغيره من رجال الحرب، عندما رأى أنه يتمتع بقوة حربية كافية، سوّلت له نفسه، العصيان والتمرد، على أوامر السلطان محمد؛ فسار هذا لحربه، فلم يكن منه، الاّ أن عمد الى إطلاق سراح امير الرها: بودوان دي بورج، ومساعده جوسلين دي كورتناي، اللذين كانا بالأسر، لديه؛ ثم مضى لمقاتلة رضوان ملك حلب.

وأثناء غياب جاولي عن الموصل، قامت زوجته، بإدارة الحكم فيها؛ فأساءت الى أهالي المدينة، واستبدّت بالسلطة مع أصحاب زوجها؛ فأرسل السلطان محمد الى الموصل، الأمير مودوداً، وأقطعه إياها (٥٠١ هـ).

وقد تمكن مودود، بالاتفاق مع أهالي المدينة، من الدخول إليها وتسلّمها، بعد أن قتل أصحاب جاولي المحافظين عليها[٢]. ولما علم رضوان ملك حلب، قصد جاولي، استنجد بأمير أنطاكية: تنكرد (أو طنكري كما يسميه العرب). في حين استعان جاولي، بأمير الرها: بودوان دي بورج، ونشبت المعركة بين الفريقين على ضفاف الفرات،

---

(١) إبن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص - ١٥٧ - حوادث سنة (٥٠٠)هـ.

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ص - ١٦ و١٧ - - وابن القلانسي: تاريخ دمشق ص - ١٦٠ - حوادث ٥٠١ هـ.

فكان النصر معقود اللواء فيها، لرضوان، وحليفه طنكري، اللذين تمكنا من إلحاق الهزيمة بخصميها، وقتلا من عسكرهما، مقتلة عظيمة.

ويقول متّى الرهاوي بهذه المناسبة: [إن القتلى من الفريقين، بلغ عددهم، الالفي مسيحي، عدا القتلى المسلمين].

وهنا لا بدّ من الاشارة الى أن ملك حلب، رضوان السلجوقي، كان دائماً يلعب على الحبلين، بالنسبة للافرنج جيرانه، فتارة كان يشنّ الحرب عليهم حفاظاً على مصالحه، وطوراً، ينشد محالفتهم، تفادياً لشرّهم، وشرّ الأمراء المسلمين، أخصامه.

ومن جهة ثانية، كان رضوان يحمي الاسماعيلية المقيمين في مملكته، علانية.

وهذا ما جعل أهالي حلب، يعتبرونه مقصّراً تجاه القضية الاسلامية، وعلى الأخص تجاه مصلحة بلدهم، فكلّفوا وفداً مؤلفاً من جماعة من الصوفية والفقهاء والتجار، للسفر الى بغداد، والعمل على إثارة الرأي العام الأسلامي هناك، بغية حمل الخليفة العباسي، والسلطان السلجوقي، على النهوض، لمدّ يد المساعدة إليهم.

فقام الوفد بمهمته، وألقى أفراده الخطب في المساجد، في العاصمة العبّاسية، داعين الناس للجهاد ضد الافرنج، وقد تعرضوا بخطبهم، للخليفة نفسه: المستظهر بالله متظاهرين مع أهالي بغداد، ومنادين بوجوب إنقاذ المسلمين من الخطوب التي دهمتهم في ديارهم.

فلم يرَ الخليفة بدّاً من الاستجابة لطلب الجهاد: فأرسل الى السلطان محمد، يطلب منه تجهيز الجيوش لأغاثة المسلمين. (وكان السلطان محمد قد وصل في ذلك الوقت الى بغداد من همذان). فما كان من السلطان الاّ أن لبّى الطلب.

يقول إبن القلانسي بهذا الصدد:

[ولما كان أول جمعة من شعبان (سنة ٥٠٤ هـ)، حضر رجل من الأشراف الهاشميين من أهل حلب، وجماعة من الصوفية، والتجار والفقهاء، الى جامع السلطان ببغداد، فاستغاثوا، وأنزلوا الخطيب عن المنبر، وكسروه وصاحوا، وبكوا، لما لَحِق الاسلام من الأفرنج، وقتل الرجال وسبي النساء والأطفال، ومنعوا الناس من الصلاة، والخدم والمقدّمون يعدونهم عن السلطان؛ بما يسكّنهم، من إنفاذ العساكر، والانتصار للاسلام من الافرنج. وعادوا الجمعة الثانية (المصير)، الى جامع الخليفة، وفعلوا مثل ذلك، من كثرة البكاء والضجيج، والاستغاثة والنحيب.

ووصلت عقيب ذلك، الخاتون السيدة أخت السلطان، زوجة الخليفة الى بغداد من أصفهان، ومعها من التجمّل والجواهر والأموال والآلات وأصناف المراكب والدواب والأثاث وأنواع الملابس الفاخرة والخدم والغلمان والجوار والحواشي. ما لا يدركه حزر، فيحصر، ولا عدّ فيذكر.

واتفقت هذه الاستغاثة، فتكدّر ما كان صافياً من الحال، والسرور بمقدمها. وأنكر الخليفة المستظهر بالله، أمير المؤمنين ما جرى، وعزم على طلب من كان الأصل والسبب، ليوقع به المكروه، فمنعه السلطان عن ذلك، وعذر الناس فيما فعلوه: وأوعز الى الأمراء والمقدّمين، بالعود الى أعمالهم، والتأهب للمسير الى جهاد أعداء الله الكفار[1]].

وبناء لأوامر السلطان غياث الدنيا والدين محمد، عمل الأمير مودود على تجهيز جيشه الكبير، ومضى به الى (سبختان) حسب ما جاء لدى إبن القلانسي. و(شبختان) كما يقول إبن الأثير، وهي من ممتلكات الافرنج، وبطريقه إليها، افتتح (تل مراد) وعدة حضون أخرى،

(١) ذيل تاريخ دمشق ص - ١٧٣ - حوادث ٥٠٤ هـ.

ووصل إليه الأمير أحمديل في عسكر كثيف الجمع، وتلاه الأمير قطب الدين سقمان القطبي من بلاد أرمينية وديار بكر، فاجتمعوا بأرض (حرّان). وكان قد انضم إليهم، نفر من جند السلطان محمد، يقودهم إبنه مسعود، ومن هناك تلقّى الأمير مودود كتاباً من سلطان بن علي بن منقذ، صاحب شيزر يعلمه فيه بنزول تنكرد امير انطاكية بأرض شيزر ويطلب منهم القدوم الى ناحيته، فحين علم القادة المسلمون ذلك، رحلوا الى الشام، وعبروا الفرات (١٥ محرّم ٥٠٥ هـ) ونزلوا على تل باشر، وأقاموا على هذا الحصن، منتظرين وصول الأمير برسق بن برسق، صاحب همذان، وكان أمره السلطان بالتقدّم عليهم، فوصل مع بعض عسكره، وهو مصاب بداء النِقرس؛ كما كان سقمان القطبي مريضاً.

وأثناء حصارهم لتلّ باشر، اختلف الرأي بين هؤلاء القادة، فانسحب الأمير أحمديل الكردي، بناء لطلب جوسلين صاحب تلّ باشر، بعد أن تلقّى من هذا الأخير، بعض الهدايا والأموال؛ وكان أحمديل يطمع بالاستيلاء على بلاد سقمان القطبي، الذي اشتدّ به المرض، ومات على الطريق قبل وصوله الى الفرات، وعودته الى بلاده.

وإذ لم يتمكن الجيش الاسلامي المتّحد، من فتح تلّ باشر، بعد مضيّ خمسة وأربعين يوماً من الحصار، بالرغم من إنزال الضرر الجسيم بهذا الحصن، قرّر الأمير مودود رفع الحصار عنه، والمسير نحو حلب، لكي يتخذ من هذه المدينة، مركزاً، يوّجه منه، ضرباته على أنطاكية. وبوصول جيش مودود الى ظواهر حلب، ارتعدت فرائص الملك رضوان، خوفاً منه لكثرته، فأغلق أبواب مدينته بوجهه، ورفض استقباله، فلم يرَ الأمير مودود حينذاك، بدّاً من تعديل خطته، ومهاجمة الأفرنج من ناحية العاصي العليا.

وفيما هو بطريقه الى معرّة النعمان لحصارها، أقبل عليه أتابك

دمشق: طغتكين، في جمع كبير من الجند، والمتطوعة، واتفق الرجلان، على العمل، لنجدة صاحب شيزر، أبي العساكر سلطان بن علي بن منقذ، ضد أمير أنطاكية، وتمركز جيشاهما بالقرب من شيزر.

في ذلك الوقت، كان الأفرنج قد لاحظوا رحيل بعض العساكر من جيش مودود وتفرّقهم، فتجمعوا على الناحية الوسطى من نهر العاصي، قريباً من (أفامية)، وعلى رأسهم ملك القدس: بودوان الأول، وبركابه، الأمير تنكرد، صاحب أنطاكية، وبودوان دي بورج، أمير الرها، وبرتراند دي سان جيل أمير طرابلس، (ابن صنجيل)، وكان مجموع عدد جيشهم، يبلغ الستة عشر ألف رجل من فرسان ومشاة.

وتقدّم المسلمون عندئذٍ نحو الافرنج وأحاطوا بهم، في الوقت الذي كان سلطان بن منقذ، قد خرج وجماعته لينضمّ الى مودود.

وعقب ذلك، التحم الجيشان، الاسلامي والأفرنجي، بمعركة قوية، كانت نهايتها لمصلحة المسلمين، فقتلوا من الأعداء مقتلة عظيمة، انسحب على إثرها، هؤلاء الى بلادهم، بعدما كان مضى على نزولهم قرب أفامية، ستة عشر يوماً، حصلت اثناءها مناوشات بين الفريقين قبل المعركة (٢٩ ايلول ١١١١م - ربيع الأول ٥٠٥هـ).

وكذلك عاد المسلمون، الى شيزر، ثم رحلوا الى حماة، واستبشر الناس بعودة الافرنج على هذه الحال من الهزيمة.

وبهذه المناسبة يقول إبن الأثير[١]:

[ثم إن الأمير مودوداً رحل عنها (أي الرها) وعبر الفرات الى الشام. فحصَر تل باشر، خمسة وأربعين يوماً، ولم يبلغ منها غرضاً. ثم سار عنها، الى معرة النعمان، فحصرها. وجاء إليه الأمير طغدكين،

---

(١) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ص - ١٧ و١٨ -

صاحب دمشق، فلما رأى كثرة عسكره، خاف ان يأخذ منه دمشق. فشرع في صلح الأفرنج سرّاً من مودود، فصالحوه، وكانوا قد ضعِفوا عن قتال المسلمين لكثرتهم].

في حين أن إبن القلانسي، يورد خلاف ذلك، فيقول بهذا الصدد:

[وظهر لظهير الدين أي طغتكين] من سوء نية المقدّمين فيه، ما أوحشه منهم، ونفرّ قلبه من المقام بينهم، وذُكِر له أن الملك فخر الملوك: رضوان، راسل بعض الأمراء في العمل عليه، والإيقاع به: فاتفق مع الأمير (شرف الدين) مودود، وتأكدت المصافاة والمعاهدة بينهما،.... ووفى له مودود بما بذله، وثبت على المودّة. وجعل أتابك (أي طغتكين) يحرّضهم على قصد طرابلس.... فلم يفعلوا، وتفرّقوا أيدي سبأ، وعاد برسق بن برسق، وأحمديل وتبعوا عسكر سقمان القطبي، وتخلّف منهم، الأمير مودود مع أتابك، فرحلا عن المعرّة، ونزلا على العاصي[1].

فلو كان الأمر، كما يراه إبن الأثير، لما كان طغتكين اشترك بالقتال مع مودود في تلك المعركة. على أن أمير أنطاكية: تنكرد، بعد أن رأى جند المسلمين ينسحبون عبر الفرات، مضى الى حلب بقوّاته، وضرب الحصار على حصن (عَزازَ) -.

فاستنجد رضوان ملك حلب، بأتابك دمشق: ظهير الدين طغتكين، وكان هذا لا يزال، بالقرب من مدينة حماه، بطريقه الى دمشق، فاجتمع الاثنان في حماه، واتفقا على العمل معاً، ولكن الظروف حالت دون ذلك، إذ ترامى الى طغتكين في ذلك الحين، بأن بودوان الأول ملك القدس، عمد الى محاصرة مدينة صور. فترك حليفه رضواناً، ومضى فوراً نحو الجنوب، مما جعل اليأس يتسرّب الى نفس رضوان فلم

(١) ذيل تاريخ دمشق ص - ١٧٧ - حوادث سنة ٥٠٤هـ.

يستطع أن يفعل شيئاً من أجل حصن عزاز، لنجدة أهاليه.

وهكذا استمرّ الحصار من قبل أمير أنطاكية على هذا الحصن، فقاومه المسلمون فيه مقاومة عنيفة. دون جدوى، فاضطروا بالنهاية، وبعدما وهنت قواهم وتراخت عزائمهم من استحالة قدوم النجدة اليهم، الى طلب الأمان من الأمير تنكرد، فنالوه، وانسحبوا من الحصن، فاستولى عليه هذا الأخير، وانتزعه من ممتلكات ملك حلب.

وفي تلك الأثناء، كان بودوان الأول، ملك القدس، قد قصدَ بجيشه ثغر صور، فبادر والي المدينة وأهلها بمراسلة اتابك دمشق: طغتكين، لنجدتهم، فأرسل لهم قوة من جنده، ينوف عددها عن المائتي فارس، انضم اليهم، عدد وفير من أهالي جبل عاملة، ودخلوا المدينة، قبل أن يبادر الأفرنج الى إحكام الطوق عليها.

ثم لحق بهم طغتكين بجيشه وخيّم ببانياس، وحاول إدخال نجدة اخرى الى المدينة، فلم يستطع ذلك، فاتجه عندئذٍ الى حصن (الحبيس) الذي في السواد، وهو حصن منيع للأفرنج، فأخذه قسراً وقتل من كانوا فيه.

ثم راح اتابك دمشق، يشنّ الغارات على الافرنج لإرغامهم على رفع طوق الحصار عن المدينة، فلم يُفلح، فما كان منه عند ذاك، الاّ التوسل بطرق اخرى، للوصول الى غرضه. فعمد الى قطع جسر صيدا، للحؤول، دون الافرنج وتلقّي الامداد عن طريقه؛ ثم نهض في فريق من جنده، الى ناحية صيدا، وأغار على ظاهرها، فقتل جماعة من البحرية، وأحرق عشرين مركباً على الشاطىء. وبالرغم من قيام الأفرنج على حصار صور مدة أربعة أشهر ونصف الشهر. وانجاز عمل برجين خشبيين كبيرين كل واحد منهما بطابقين. وبعلو خمسة وعشرين متراً تقريباً. لاطلاق القذائف منهما على المدينة، وهدم سورها، بقيت هذه

المدينة صامدة، ولم يتمكنوا من النيل منها بالنتيجة، لسبب احتراق البرجين المذكورين، ومقاومة الأهالي، ومضايقات الأتابك طغتكين؛ فرحلوا عنها وقصدوا عكا وتفرقوا[١] - وكان ذلك في العاشر من شوال ٥٠٥ هـ - (أواخر سنة ١١١١ م).

وقد فقد الأفرنج في هذا الحصار الذي لم يثمر شيئاً، ما ينوف عن الألفي قتيل، مقابل أربعمائة قتيل من المسلمين.

وبعد رحيل الملك بودوان الأول، عن حصار صور، لم يفِ الصوريون ولا والي المدينة: عزّ الملك أنوشتكين، بما كانوا وعدوا به، طغتكين، من تسليمه المدينة وذلك لأسباب سياسية، فلم يأبه لذلك، بل بالعكس فإنه أبدى لهم استعداده الدائم لمساعدتهم، في أي وقت يُطلب منه ذلك، وعاد الى دمشق.

بيد أن الصوريين والوالي أنوشتكين، عادوا فيما بعد، وأجمعوا أمرهم على تسليم مدينتهم الى أتابك دمشق نفسه، ليأسهم من نُصرة الوزير الفاطمي: الأفضل، وخوفاً من عود الأفرنج لمنازلتهم.

ولهذا الغرض، انتدب الصوريون رسولاً من قبلهم، وثقوا به، وأرسلوه لمقابلة والي بانياس، الأمير: سيف الدولة مسعود آنذاك، والتوسط معه، لمباحثة طغتكين بهذا الشأن؛ فرحّب مسعود بالرسول الصوري، ورافقه الى دمشق: فلم يجد أتابكها هناك، إذ كان قد مضى الى ناحية حماه، لتقرير الحال، فيما بينه وبين رضوان ملك حلب. فاتصل مسعود بولده تاج الملوك بوري - نائبه في دمشق، واتفق الاثنان على السير معاً الى بانياس. وانتهاز الفرصة لاستلام صور.

وهكذا حصل. فمضى مسعود من بانياس الى صور، ومعه جماعة من الجند، ودخل هذه المدينة الأخيرة وتسلّمها بارادة أهلها وواليها.

---

(١) إبن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص. ١٧٨ و١٧٩ و١٨٠ - حوادث سنة ٥٠٥ هـ.

ثم لما عاد طغتكين الى دمشق، وعلم بالأمر، وافق على ما أجراه تاج الملوك بوري، وأرسل فرقة تركية من جنده، الى صور، تقوية لها.

وكتب بذات الوقت، الى الوزير الفاطمي بمصر: الأفضل، يعلمه بما حصل، قائلاً في كتابه:

[إن بغدوين (بودوان) قد جمع وحشد للنزول على صور؛ وأن أهلها استنجدوا بي عليه، والتمسوا مني دفعه عنهم، فبادرت بانهاض مَن أثق به لحمايتها، والمراماة دونها، اليه، وحصلوا فيها، ومتى وصل اليها من مصر، من يتولّى أمرها، ويذبَّ عنها ويحميها، بادرت بتسليمها اليه، وخروج نوّابي منها، وأنا أرجو أن لا يُهمل أمرها، وإنفاذ الأسطول بالغلّة إليها والتقوية لها[1]].

وقد ورد جواب الأفضل بالإيجاب، فيما بعد.

مقتل الأمير مودود

في الثاني عشر من شهر كانون الأول سنة: ١١١٢م - ٥٠٦هـ، توفيّ أمير أنطاكية: تنكرد (طنكري) بدون عقب، فتزوّجت أرملته: الأميرة سيبيل دي فرانس، بناء لرغبته الأخيرة، بالأمير بونس **(Pons)** إبن الأمير برتراند، صاحب طرابلس، وقام بالأمر بعده، إبن أخيه الأمير: روجر بن ريشارد دي ساليرن (سيروجال كما سماه المسلمون)، ليحكم الأمارة، بصفته وصياً على العرش، بأسم الولد: بوهمند الثاني، إبن بوهمند الأول الراحل، من زوجته: كونستانس دي فرانس، إبنة ملك فرنسا، فيليب الأول، والتي كانت لا تزال مقيمة مع إبنها في إيطاليا حينذاك.

وكان أول ما أقدم عليه الأمير روجر، هو الطلب من رضوان ملك

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق - ص - ١٨٢ - حوادث ٥٠٦هـ.

حلب، مقاطعة حلب المستقرة، فأجابه الى ذلك. وكانت قيمتها: عشرين ألف دينار والخيل، كما طلب روجر من صاحب شيزر، مقاطعتها وهي عشرة آلاف دينار. فنزل عند طلبه[١].

ثم توفي برتراند دي سان جيل، أمير طرابلس، بعد بضعة أشهر فخلفه إبنه: پونس على الأمارة.

وكان أن تزوج روجر دي ساليرن، بأخت بودوان دي بورج: أمير الرها، فتوحدّت بذلك، إمارتا أنطاكية والرها، بصلة الزواج بين العائلتين الأفرنجيتين.

وفي ذلك الوقت، تلاحقت الغارات من قبل الملك بودوان الأول، على الممتلكات الإسلامية التابعة لدمشق، فانقطعت الطرق، وقلّت الأقوات في تلك النواحي، وغلت اسعار الحاجيات، وتواصلت كتب الأتابك طغتكين الى الأمير مودود، في الموصل. يشرح فيها الأحوال ويطلب المبادرة الى مجاهدة الأفرنج.

فاستجاب مودود لطلب طغتكين، وهو لم يكن لينسى مهمته في الجهاد، فجمع جيشاً من الأتراك والأكراد، وغيرهم ومضى الى الشام قاطعاً الفرات (في ذي القعدة ٥٠٦ هـ - ايار ١١١٣ م) حيث التقى بالأتابك طغتكين، في (سَلَمية)، على مقربة من حماه (ذي الحجة ٥٠٦) واتفق الرأي بينهما على قصد مملكة بيت المقدس.

عند ذاك حاول بودوان، استمالة طغتكين لجانبه، وليثنيه عن مخالفة مودود، عرض عليه المسالمة والموادعة، وتسليمه أحد الحصون مع جبل عاملة، مقابل إعادة حصن الحبيس، الذي كان انتزعه الأتابك سابقاً من يد بودوان[٢] - فرفض طغتكين عرض بودوان، وأقدم مع مودود،

(١) إبن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص - ١٨٣ - حوادث سنة ٥٠٦ هـ.
(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ ص - ١٨٤ - حوادث ٥٠٦ هـ.
- وايضاً: Jean Richard: le Royaume Latin de Jerusalem - p.141.

على مهاجمة منطقة الجليل، ثم على النزول جنوبي بحيرة طبريا، وراء مخرج نهر الأردن.

فهبّ بودوان لمجابهتها، وتمركز بدوره، قرب الشاطىء الجنوبي الغربي لطبرية، في مكان يقال له: (سِنّ النّبرة)؛ وقد نصب له المسلمون فخاً وقع فيه دون احتراز؛ فسحقوا جيشه، واستولوا على معسكره، وكادوا أن يأخذوه أسيراً، لولا سرعة فرسه (٢٨ حزيران ١١١٣م - محرم ٥٠٧)، فتمكن من النجاة بنفسه، والتجأ مع من بقي من جيشه الى طبرية وأكثرهم جرحى.

وبعد ثلاثة ايام من ذلك، وصلت الأمداد التي كان طلبها بودوان من أنطاكية وطرابلس، بقيادة روجر دي سالين وبونس، مع من انضم اليها من الحجاج الأوروبيين الذين كانوا في ذلك الوقت، قد وصلوا الى بيت المقدس، ويناهز عددهم الستة عشر ألف حاجّ. فاستعاد بودوان، بوجودهم ما كان فقده من قوى، ومع ذلك فلم يجرؤ على منازلة الجيش الأسلامي فبقي متربصاً يرقب العمليّات العسكرية، التي يقوم بها هذا الجيش مع الفلاحين العرب المنضمين اليه، من نهب، وسلب للحصون الأفرنجية التي يصادفونها، دون أن يحاول التحرك لاعتراضهم.

وطال الأمد على هذه الحال، فتعِب جند المسلمين، وضاقت صدورهم لبُعد ديارهم، وأخذ الحرّ بالاشتدادوقلت المؤونة لديهم والأقوات، فتفرّق أكثرهم، وعادوا الى بلادهم، بعد أن أذِن لهم مودود بذلك، وواعدهم على العودة اليه، في الربيع من العام المقبل، لمواصلة الجهاد ضد الأفرنج (٣٠ آب ١١١٣م - ٥٠٧هـ) مُعرِباً عن عزمه، للمقام في الشام، نظراً لقربه من العدو، وذلك بانتظار ما يرده من الأمر السلطاني، بهذا الشأن لتنفيذه والعمل به.

ومن ثم عاد مودود برفقة طغتكين الى دمشق (٢١ ربيع الأول

٥٠٧ هـ)، حيث بالغ الأتابك باكرامه، واحترامه، كما يقول إبن القلانسي.

وقضى القدر بغير ما كان يأمله مودود من مواصلة الجهاد في سبيل نصرة الأسلام والمسلمين، إذ لم يمض على وجوده في دمشق أكثر من شهر واحد، حتى حلّ به حكم القضاء.

ذلك أنه في يوم الجمعة الأخيرة من شهر ربيع الآخر سنة ٥٠٧ هـ، قام مودود برفقة طغتكين، بأداء فريضة صلاة الجمعة في الجامع الأموي الكبير: وبعد انتهاء الصلاة، وفيما كان الأثنان يقطعان صحن الجامع، وثِب رجل من بين المصلين، واقترب من الأمير مودود، كأنه يدعو له، ويتصدق منه، وبسرعة خاطفة، طعنه بخنجر كان يخفيه بيده، فأصابه في اسفل سِرّته، باصابتين بالغتين، نفذت إحداهما الى خاصرته، والأخرى الى فخذه، كان فيهما حِمامُه. فمات صائماً ولم يفطر، لأنه اراد لقاء ربه صائماً، كما يقول إبن الاثير[١].

وتساءل الناس، عمن دفع الجاني الى اقتراف جريمته النكراء بحق هذا المجاهد المسلم؛ وما هو السبب لذلك، فمن قائل، إن القاتل ينتمي الى طائفة الباطنية (الأسماعيلية) الذين يقتلون كلّ مَن لا يأمنون جانبه، مثل مودود، ومِن قائل، إن طغتكين، هو الذي دسّ أحد أخصّائه، لقتل ممثل السلطان، خوفاً على سلطته منه، الى آخر ما قيل بهذا الشأن.

ولكن مهما يكن من أمر، فأن القاتل، أخذته السيوف وقُطع رأسه، للتعرف على شخصه فما عُرِف، فأحْرِق[٢].

ومع أن الأفرنج ابتهجوا لموت مودود، خصمهم القوي، إلاّ أن

(١) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية - ص - ١٩.

(٢) إبن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص - ١٨٧ - حوادث ٥٠٧ هـ.

بودوان ملك القدس، رأى نفسه مضطراً لارسال كتاب الى الأتابك: طغتكين، يقول فيه:

[إن أمة قتلت عميدها، يوم عيدها، في بيت معبودها لحقيق على الله، أن يبيدها].[1]

وهنا لا بد من كلمة، للتعريف بطغتكين؛ فهو: سيفُ الإسلام: ظهير الدين طغتكين، نشأ مملوكاً للملك: تُتُش بن ألب أرسلان ثم ترقّى فصار من القادة العسكريين الذين يُعتمد عليهم، وبلغ مرتبة الأتابكة، فأصبح أتابك الملك دقاق بن تتش. وبعد مقتل تتش، استمر طغتكين مع دقاق، وكان مخلصاً له، طيلة حياته.

فلما توفي دقاق سنة ٤٩٧هـ - ١١٠٣م، خطب طغتكين لولده الصغير: تُتُش بن دقاق، الذي اخترمته المنون بعد ذلك بقليل، وكان طغتكين قد قطع خطبته، فحكم دمشق منفرداً، وابتدأت به، دولة أتابكية دمشق.

هذا وفي /٢٨/ جمادي الآخرة سنة ٥٠٧هـ توفي فخر الملوك: رضوان، ملك حلب، وتقرّر الأمر بعده، لولده ألب أرسلان، وعمره آنذاك ست عشرة سنة، فعاونه في الحكم، خادم أبيه، المدعو (لؤلؤ). فأساء التدبير لغاية في نفسه، بحيث إنه دفع سيّده لقتل أخويه: ملكشاه، من أمه وأبيه، ومبارك، من أبيه وإحدى الجواري، ثم أوقع به فقتله في داره، بقلعة حلب فيما بعد. واستلم الحكم مكانه. على أن لؤلؤاً هذا، نال بالنهاية، جزاءه على قتل سيّده، فانتقم منه أصحاب ألب أرسلان، وقتلوه.

(١) ابن الأثير: التاريخ - ص - ١٩ -
- وايضاً: - Zoé Oldenbourg: les Croisades: – p. p. 250 – 251

- وفاة الملك بودوان الأول -

في خضمّ تلك الأحداث، أقدم ملك القدس، بودوان الأول، على تشييد قلعة على تلّ الشوبك، أسماها: قلعة مونتريال (Montréal) في مكان يشرف على وادي العَرَبة، وذلك بقصد قطع الطريق، على القوافل المصرية الذاهبة الى فلسطين، ومراقبة طريق الحجّ الى مكة المكرّمة (١١١٥ م)، كما أقدم بودوان في السنة التالية على بناء حصن في وادي موسى (١١١٦ م) وبذات الوقت راح يوغل جنوبي فلسطين، حتى أدرك ميناء أيلة على خليج العقبة، على البحر الأحمر، حيث أقام موقعاً عسكرياً دائماً، ومن ثَمّ اخترق صحراء سيناء، عائداً الى فلسطين، عن طريق حيرون.

وفي تلك السنة اي سَنَة ١١١٦ م، نهض صاحب طرابلس، الى ناحية البقاع، بهدف التخريب والعيث فيه، فتصدّى له أتابك دمشق: طغتكين، بالاشتراك مع صاحب الموصل: سيف الدين البرسقي، الذي كان قد وصل مع جيشه، الى دمشق لمعونة الأتابك، على الأفرنج.

ولما التقى الجمعان، أسفرت المعركة عن هزيمة صاحب طرابلس، هزيمة شنعاء، إذ قتل من جنده مقتلة عظيمة، وأُسر قسم كبير منه، فعاد الى بلاده يجرّ أذيال الخيبة والفشل (٥١٠ هـ).

وبعد أن أقام صاحب الموصل في دمشق أياماً، رجع الى بلاده مكرّماً.

وبعد قليل من عودة سيف الدين البرسقي الى ولايته في الموصل، توفي السلطان، غياث الدنيا والدين، محمد بن ملكشاه بأصبهان، فخلفه إبنه محمود، في السلطنة، وكان إذ ذاك، في الرابعة عشرة من عمره (١١ ذي الحجة ٥١١ هـ - ١١١٧ م).

وقد وافق الخليفة العباسي: المستظهر بالله، على ذلك، فأمر بذكر

إسم السلطان محمود في الخطبة في جوامع بغداد[1]. وبه ابتدأت دولة سلاجقة العراق وكردستان. في هذا الوقت، أي في سنة ٥١١ هـ، كان المتولي على حلب، يارقتاش الخادم، قد عقد هدنة مع الأفرنج وسلّمهم حصن (القبّة)، الأمر الذي حمل الأمير: أقسنقر البرسقي، على الخروج من الرحبة في عسكره، قاصداً مدينة حلب لتملّكها، فلم يتيسّر له ذلك، فرجع الى الموصل.

وكان الأفرنج في تلك الأثناء، يهاجمون ربض حماه في ليلة خسوف القمر، ويقتلون من أهلها، مائة وعشرين رجلاً[2].

بعد ذلك، وصل الى حلب، الأمير نجم الدين إيلغازي بن أرتق، في عسكره، فدخلها، وتولّى تدبير أمورها، وبقي فيها مدة شهر واحد، ثم خرج منها، وترك إبنه حسام الدين تمرتاش نائباً عنه فيها.

ومن جهته بينما كان الملك بودوان الأول، كعادته، يقوم بأحدى الغارات على قبائل العرب، في ذلك الحين، أصيب بجراح في خاصرته من طعنة رمح، وبقي مدة تحت الخطر، يراوح بين الحياة والموت، الى أن شفي (أذار ١١١٧ م).

وبعد شفائه من جراحه، واصل بودوان غاراته، وأعماله العدوانية كالسابق، فكان تارة يُحمل على المحفة، لضعفه، وطوراً يمتطي جواده. وكان أن قام في اوائل سنة ١١١٨ م، بغزوة جريئة في صحراء التيه، واكبه فيها جماعة من البدو الموالين له، فاحتلّ مدينة (الفرما) وأوغل حتى دلتا النيل.

يقول غليوم الصوري بهذه المناسبة:

[إن بودوان، عند مشاهدته نهر النيل، أخذته الدهشة، فراح

---

(١) إبن الآثير: الكامل - حوادث سنة ٥١١ هـ.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص - ١٩٩ - حوادث سنة ٥١١ هـ.

يتأمله بسرور، لأنه كما يقال، يجري من أنهار الجنة الأربعة].

وبعودة بودوان من هذه الغارة الى العريش، داهمته المنون هناك، فمات قرب المستنقع الذي حمل إسمه، فيما بعد: (سَبخة بردويل) وذلك في ٢ نيسان ١١١٨م.

وكانت وفاته، ناتجة عن التعب والارهاق، اللذين سبّبتهما جراحه التي لم تكن قد شفيت تماماً عند ذاك، وقد خلفه في الملك، إبن عمه: بودوان دي بورج، أمير الرها، ولُقّب بودوان الثاني.

أما إمارة الرها التي شغرت، فقد تولاّها جوسلين دي كورتناي عند ذاك.

- محاولة الأفرنج الاستيلاء على حلب -

بعد تولي الأمير روجر دي سالين، حكم انطاكية باسم الولد بوهمند الثاني، استطاع ان يفرض سيادته على مملكة حلب، فاحتل بعد وفاة الملك رضوان السلجوقي (١١١٥م)، عدة حصون، منها حصن عزاز، وحصن بيزا، وحصن مرقب، في أرمينيا الصغرى، وتقررت المهادنة بينه وبين أمير حلب؛ ثم لما انتهت تلك الهدنة، صمّم على فتح مدينة حلب، نفسها، فأخذ يعمل على مضايقتها بالعيث والافساد في نواحيها، ويشدّد عليها الضغط، حتى عدمت القوت، واستولى على حصن بزاعة، احد حصونها القوية، وعسكر على مقربة منها، إرهابا لأهاليها، وطمعاً بها. فطلب الأهالي، معونة الأمير نجم الدين إيلغازي بن أرتق، صاحب ماردين، فلبّى النداء، وقدم من ديار بكر، بجيش قوي، انضم اليه، بعدئذ، دُبيس بن صدقة صاحب الحلّة في العراق، وسلطان بن منقذ، صاحب شيزر، وطغتكين أتابك دمشق.

واجتاح جيش إيلغازي، إمارة أنطاكية، ما بين جسر الشغر ومعرّة النعمان: فما كان من أمير انطاكية الاّ ان استنجد بملك القدس، بودوان الثاني، وبأمير طرابلس، اللذين جمعا قواتهما، وهبّا لمساعدته.

ولكن قبل ان يلحقا به، اندفع روجر دي سالرن، لمواجهة جيش إيلغازي، مجتازاً نهر العاصي، من جهة جسر الحديد. حيث تمركز في سهل الدم (Ager Sanguinis) كما يسميه الأفرنج، على طريق حلب، قرب قرية دانا الحالية، عند مدخل شعب ضيّق بين جبلين، كما يقول كمال الدين، وكان يحمل معه الصليب الأكبر المرصّع بالأحجار الكريمة، والذي يوجد في كاتدرائية انطاكية.

وعندما علم إيلغازي، بوجود جيش روجر في ذلك الموضع، ترك موقعه عند حصن قسطون، وتقدّم فحاصره، من جميع الجهات، وبعد ثمانية أيام من الحصار، وقبل انضمام حلفائه اليه، طغتكين ودبيس وسلطان، شنّ إيلغازي هجومه المركز على الجيش الأنطاكي، فدارت بين الفريقين رحى معركة ضارية، كان النصر فيها معقود اللواء لجيش الأمير المسلم بعد ان استطاع تدمير جيش الأمير الأفرنجي، فلم ينجُ منه سوى مائة واربعين فارسا، كان الفرار رائدهم، وخرّ روجر نفسه صريعاً في ساحة الوغى، (آخر حزيران ١١١٩م - ٥١٣هـ)[١].

وقُطع رأس روجر من جسده، وحُمل على الحراب، واستولى إيلغازي على كل ما كان في معسكر عدوّه من غنائم، ومن بينها الصليب الأكبر المرصّع.

أما الأسرى من الجيش الأنطاكي، فقد أُسيئت معاملتهم، إذ ربطهم المنتصرون بالحبال، واقتادوهم عراة على الطرقات، ومنعوا عنهم

---

(١) أبو الفدا: المختصر في اخبار البشر. مجلد (١) ج /٤/ ص ١٥١ حوادث ٥١٣هـ
وايضاً: Zoé Oldenbourg: les Croisades: p. p. 265, 266.

الشراب، فمات اكثرهم من الحرّ والعطش. أما من بقي منهم على قيد الحياة، فكان موضع سخرية لأهل حلب (لم تكن هذه الفظاظة التي عومل بها الجيش الأنطاكي، الاّ نتيجة لأفعال روجر المستبدة التي كان يقوم بها، إذلالاً للمسلمين، وخصوصاً طموحه في الإستيلاء على حلب لضمها الى امارته).

لقد كان ذلك اليوم، نصراً للمسلمين والأسلام، تردد صداه في أنحاء العالم العربي كافة.

ولما بلغ الخبر بغداد، بادر الخليفة العباسي المسترشد فأنعم على الأمير إيلغازي، بخلعة التشريف، ولقبّه: نجم الدين، وتغنّى الشعراء بهذا النصر المؤزّر.

كان على الأمير إيلغازي، فور حصوله على هذا الفوز الرائع، أن يجمع حلفاءه، الذين وافوه بعد ذلك، ويندفع معهم بجيوشهم الغفيرة، الى مهاجمة مدينة انطاكية، لأخذها. ولو فعل، لكان حالفه التوفيق بالإستيلاء عليها بكل سهولة، نظراً للهلع الذي أصاب أهلها النصارى، والفوضى التي ضربت أطنابها بينهم، ولخلوّ المدينة من المدافعين، على إثر مقتل أميرها، علماً بأن الأرمن واليونانيين من أهلها، كانوا قد بدأوا يتململون من جور ذلك الأمير، فحاولوا بعد مقتله، العصيان بالمدينة والتخلص من نير الصليبيين، فأسرع البطريرك: برنارد دي ڤالانس، وكان يقيم فيها عند ذاك، وعمل على تجريدهم من أسلحتهم، وأمر بالزامهم بيوتهم تحت حراسة الجند، وضيّق عليهم.

ولكن إيلغازي لم يفعل، وأضاع الفرصة بالشراب، فتركها تفوت.

يقول أسامة بن منقذ، بهذه المناسبة:

[كان إيلغازي، اذا شرب النبيذ يخمر عشرين يوماً، فشرب بعد

كسر الأفرنج وقتلهم، ودخل في الخمار، فما أفاق، حتى وصل بودوان الى أنطاكية بعسكره[1].

سار بودوان بجيشه من القدس، وبرفقته مطران قيسارية، حاملاً الصليب الحقيقي، وبطريقه، انضم اليه، أمير طرابلس، بونس، ودخل الجميع مدينة انطاكية.

وكان الجيشان يؤلفان: /٢٥٠/ فارساً. ثم وافاهما، الى المدينة امير الرها، مع نخبة من فرسانه، بحيث أصبح الجيش الذي تمكن بودوان من حشده، بالاضافة الى الفرسان النورمانديين الذين نجوا من المعركة، والبالغ عددهم: /١٤٠/ فارساً، يناهز السبعمائة فارس، وبعد أن جرى تنصيب ملك القدس، وصياً على إمارة أنطاكية بالاجماع، من قبل أهاليها الأفرنج، وبموافقة شقيقته الأميرة: هوديارن، أرملة الأمير القتيل: روجر دي سالين، خرج بودوان مع أميري طرابلس والرها، لملاقاة المسلمين.

في تلك الأثناء، كان إيلغازي، قد أبلّ من الحمّى التي لازمته ثلاثة أسابيع، على إثر الشراب، فخرج الى الميدان، وفي الرابع عشر من آب: ١١١٩م - ٥١٣هـ، التقى الجيشان: الأفرنجي والأسلامي (وكان جيش المسلمين عند ذاك بقيادة إيلغازي، ومعه طغتكين أتابك دمشق)، في محلة: (تل دانيث)، فيما وراء العاصي، ودارت بينهما معركة قوية لم تسفر عن نتيجة حاسمة، بالرغم من أن كلاً من الفريقين المتحاربين، ادعى النصر له.

وعلى كلٍّ، فقد انسحب الجيش الأسلامي من المعركة، قبل الجيش الأفرنجي.

---

(١) كتاب الاعتبار: صفحة ١١٧ - جزء (١) -

وانصرف إيلغازي الى حلب، التي أضحت من ضمن أملاكه، بعد ان ضمها الى الموصل وماردين، بتفويض من الخليفة في بغداد، ثم رحل عنها الى ماردين، ساعياً لجمع جندٍ آخرين الى جيشه، بينما عاد طغتكين الى دمشق.

وعند عودة إيلغازي من ماردين، راح يعيث في بلاد الأفرنج، ما بين تل باشر وقيسون، ثم مضى نحو أنطاكية يهاجمها. واستطاع ان يفتح حصني الأثارب وزردنا.

اما بودوان الثاني ملك القدس، فقد كان، أثناء وجود إيلغازي في ماردين، قد هاجم بعض الحصون، واستعادها من المسلمين.

وقد قيل في مدح إيلغازي، على إثر مقتل روجر دي سالِرن: (سرجال):

[قـــل مـــا تشاء فقولـــك المقبول
وعليـــك بعـــد الخـــالـــق التعويـــل.
[واستبشر القرآن حين نصرتـــــــه
وبكـــى لفقـــد رجـــالـــه الأنجيـــل[1]

بعد ذلك، وفي ربيع سنة ٥١٤ هـ - ١١٢٠ م، أغار جوسلين دي كورتناي، صاحب الرها، على بزاعة فخربها[2]. وفيما كان إيلغازي، في ماردين، ورده نبأ، بأن إبنه سليمان، متولّي حلب، قد عقد مع الأفرنج

---

(١) أبو الفداء: المختصر: مجلد /١/ جزء /٤/ ص. ١٥١ حوادث ٥١٣ هـ.
(٢) أبو الفداء: المختصر. ج(٤) ص - ١٥٥ - حوادث ٥١٤ هـ.

معاهدة صلح، تتضمن [بأن الأفرنج يحتفظون بكل ممتلكاتهم التي كانت لهم سابقاً قبل هزيمتهم، ما عدا حصن الأثارب]. معلناً عصيانه له[١].

فسارع إيلغازي فوراً من ماردين الى حلب، فدخلها، ولما تحقق من الأمر، وأن الذي حرّض إبنه على عصيانه، هو شخص من أهل حماه. من بيت قرناص، كان إيلغازي نفسه قد جعله مقدّماً على أهل حلب، قبض على هذا الشخص، وأمر بقطع يديه ورجليه وسمل عينيه، ثم قتله.

اما ابنه سليمان، فلم يقتله شفقة عليه، فهرب الى دمشق، مستجيراً بأتابكها طغتكين، وعند ذلك استناب إيلغازي على حلب، إبن أخيه، ويدعى: سليمان بن عبد الجبار بن أرتق، ورجع بعدها الى ماردين[٢].

وكان عقد المعاهدة بين سليمان بن إيلغازي والأفرنج في سنة ١١٢١م - ٥١٥هـ.

وفي هـذه السنـة (٥١٥هـ)، اقطـع السلطـان محمود السلجوقي، ميافارقين للأمير إيلغازي، الذي سار لحرب الأفرنج بعد ذلك ودخل حلب، حيث انضم اليه، إبن أخيه نور الدولة بَلَك بن بهرام بن أرتق، وأتابك دمشق: طغتكين، فاصطدموا بالملك بودوان الثاني، وكلن يستعد للقائهم فيما وراء العاصي، ولم تسفر المعركة عن انتصار أحد الفريقين على الآخر (ربيع الأول ٥١٦هـ - حزيران ١١٢٢م).

ثم بعد ذلك، افترق طغتكين عن إيلغازي، ورجع الى دمشق، بينما عاد هذا الأخير الى حلب بسبب مرضه، اما بَلَك، فقد سار متوجهاً الى بلاده، وبطريقه، عَلِم أن جوسلين دي كورتناي أمير الرها، يتربص به. للانقضاض عليه، على غرّة. فما كان منه الاّ ان أعدّ كميناً لعدوّه، وقع

---

(1) Zoé Oldenbourg: les Croisades: P. 272.

(٢) أبو الفداء: المختصر: ج(٤) ص - ١٥٥ - حوادث سنة ٥١٥هـ.

فيه هذا بسهولة. فأخذته سهام المسلمين، من كل جانب، وحاول جوسلين الفرار فأدركه بعض فرسان بَلَك. وعادوا به مع نفر من أصحابه أسرى. واقتيدوا جميعهم الى قلعة خر تبرت في جبال كردستان حيث ألقوا في غياهب السجن.

وبعد أن تحسنت صحة إيلغازي قليلاً رحل الى ميافارقين، وهناك عاوده المرض، فتوفي (١٧ رمضان ٥١٦ هـ - ٣ تشرين الثاني ١١٢٢ م).

وتقاسم ولداه: تمرتاش وسليمان، ممتلكاته، فكان للأول ماردين، وللثاني ميافارقين، اما حلب فبقيت بيد إبن أخيه سليمان بن عبد الجبار الأرتقي.

وفي السنة ذاتها، اي سنة ٥١٦ هـ، أقطع السلطان محمود السلجوقي، مدينة واسط، لأقسنقر البرسقي، بالأضافة الى ما كان بيده من أعمال كالجزيرة وسنجار، فاستعمل البرسقي، على واسط عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة أقسنقر.

كان لوقوع أمير الرها، جوسلين دي كورتناي، في أسر المسلمين، صدى سيء لدى الأفرنج، وخصوصاً لدى الملك بودوان الثاني، الذي نُصِّب وصيّاً على إمارة الرها، بالاضافة الى وصايته، على إمارة أنطاكية، بحيث أصبح بودوان، مهتماً، أشد الأهتمام لتخليص أمير الرها من الأسر.

ولهذه الغاية، راح يواصل عملياته الحربية ضد المسلمين للانتقام منهم والضغط عليهم.

وفي تلك الأثناء، صادف ان كان الخليفة المسترشد بالله قد اختلف مع الأمير العربي: دبيس بن صدقة، وحاربه، وهُزم دبيس وعسكره، فمضى الى الشام، وتحالف مع الملك بودوان الثاني، وأطمعه في ملك

حلب، فأخذ هذا الاخير، يغزو نواحيها، ويُشدّد الضغط على صاحبها: سليمان بن عبد الجبار الأرتقي، فتنازل له عن حصن الأثارب، لعجزه عن الدفاع عن مدينته.

وكان بَلَك، وقتذاك متجهاً نحو حلب، وبطريقه اليها استولى على حرّان، ولما بلغه عجز إبن عمه سليمان، عن مقاومة الأفرنج وتسليمهم حصن الأثارب، أسرع بمحاصرة قلعة: كَركَر، ليُشغل بودوان عن حلب، فمضى هذا نحوه، والتقى الأثنان، عند أحد الوديان، في الفرات الأعلى، ودارت بينهما معركة عنيفة، أسفرت عن انتصار بَلَك والجيش التركماني، وتبديد شمل الجيش الأفرنجي، ووقوع الملك بودوان في الأسر (١٨ نيسان ١١٢٣م - ٥١٧ هـ).

وأُردف ملك القدس، سجيناً مع أمير الرها، في غياهب سجن قلعة خرتبرت ذاتها.

وبعد ذلك دخل بَلَك مدينة حلب عَنوة وملكها، رغم معارضة إبن عمه سليمان صاحبها، فرتّب أمورها، وتزوج إحدى بنات رضوان السلجوقي ملكها الأسبق.

وهكذا أصبحت ثلاث دول صليبية، من أصل أربع، في سوريا وفلسطين، أي مملكة القدس، وإمارة انطاكية، وكونتية الرها، بدون أسيادها.

وهذا ما حدا بنبلاء مملكة القدس، لتسليم مقاليد الوصاية على العرش، الى القائد العام: أوِستاش غارنير، (Eustache Garnier)، ليحكمها بغياب الملك بودوان الثاني.

في حين تسلّم البطريرك: برنارد دي ڤالانس، زمام الأمور في أنطاكية.

وما أن استقرّت الأمور في حلب، حتى بَرِحها الأمير بَلك قاصداً مهاجمة ممتلكات إمارة أنطاكية، فيما وراء العاصي، فاستولى على مدينة (ألبارة) من الأفرنج، الذين كانوا قد حوّلوا مسجدها الى كنيسة، وأقاموا فيها، أسقفاً. فأعاد المسجد الى أصله، وألغى الكنيسة، ثم شرع بمحاصرة: كفرطاب، جنوبي معرّة النعمان، وفيما الحصار قائم عليها، إذ بلغ بَلَك، نبأ يكاد لا يُصدّق ألا وهو تخلّص الملك بودوان الثاني، وجوسلين امير الرها من الأسر، وتمكنهما من التغلّب على الحامية التركية في قلعة خرتبرت، والاستيلاء على هذه القلعة، وذلك بمعونة السكان الأرمن.

وتفصيل ذلك، أن بعض سكان القلعة من الأرمن، اتصلوا بجوسلين سراً، بناء لطلبه، فسلّمهم رسالة الى أصحابه في الرها. أوصلوها لهم. فانتدب هؤلاء خمسين شخصاً من الأرمن الأشدّاء، الذين تنكروا بزيّ الفقراء، ورجال الدين، واستطاعوا بالحيلة، الدخول الى القلعة، وقتل الحرّاس، وبالتالي الوصول الى السجن، وتخليص بودوان وجوسلين منه.

ولما أصبح الأسيران حرّين، تم الأمر بينهما، على أن يبقى الملك في القلعة مع جماعته، من الأرمن، ويذهب جوسلين لطلب النجدة من سوريا.

وبعد مشقة كبيرة وعذاب مضن، قضاها جوسلين، مع رفيقيه الأرمنيين اللذين صحباه في الرحلة، طيلة عدة أيام، كانوا اثناءها يسيرون في الليل، ويختبئون في الوديان والغابات اثناء النهار، استطاعوا الوصول الى تل باشر، حيث لقي جوسلين زوجته هناك، ففرحت بنجاته، إذ كانت تعتبره في عداد الموتى.

ومن هناك توجّه جوسلين على الفور، الى أنطاكية، ومنها الى القدس، حيث جمع ما تيسّر له، من فرسان الأفرنج، وسار في مقدّمتهم

الى طرابلس، فأنطاكية، ثم بعد أن انضم اليه فرسان هاتين المدينتين، اتجه الجميع، صوب قلعة خرتبرت، من أجل معونة الملك بودوان الثاني الذي كان ينتظر وصولهم، على أحرّ من الجمر.

ولكن حين اقتراب جوسلين مع الجيش الأفرنجي من تل باشر، عَلِم بأن بَلَك، استعاد القلعة من المتمردين، ولم يعد ثمة أمل في الوصول الى الملك.

وجلية الأمر، انه حينما نُمي الى بَلَك ما جرى في قلعة خرتبرت، هبّ مسرعا الى فك الحصار عن كفرطاب والعودة الى حلب، ومنها الى كردستان، وبوصوله الى خرتبرت، عمد الى مفاوضة الملك بودوان، بغية تسليم القلعة، لقاء إطلاق سراحه بدون شروط، فرفض هذا الاخير، ما طُلب منه، وحاول المقاومة، فما أجداه ذلك نفعاً، وغُلب على أمره. فاستسلم ووُهِبت له الحياة (١٦ ايلول ١١٢٣م - ٥١٧ هـ)، كما وُهبت الحياة لابن أخته: غاليران دي بويزه، الذي كان في عداد السجناء في القلعة أيضاً.

اما الأسرى الباقون من الأفرنج، فقد عوملوا معاملة لا رحمة فيها، إذ أُلقوا من فوق الأسوار، الى الوادي السحيق، فتحطمت أجسادهم، جزاء اشتراكهم في التمرّد. وأما الأرمن الضالعون مع الأفرنج في تلك العملية، فقد عُذّبوا بعد القبض عليهم، وسُلِخت جلودهم، وهم أحياء ونصبوا على الأوتاد، فكانوا هدفاً لسهام وحراب الجند التركماني.

هذا، وفيما يتعلّق بجوسلين، فأنه، بعد ما يَئس من المسير لانقاذ الملك بودوان، يمّم وجهه، صوب حلب، وأغار على ما حولها من ممتلكات المسلمين، فعاث فيها، ولكنه لم يتمكن من النيل من المدينة الكبيرة، بفضل مقاومة قاضيها والأهالي، وصمودهم في الدفاع عنها.

وفي ذلك الحين، اجتمعت جيوش بَلَك، وطغتكين، أتابك دمشق،

وأقسنقر البرسقي، صاحب الموصل، وهاجم الجميع حصن: (عزاز)، وفشلوا في الاستيلاء عليه، فانكفأوا عند ذاك، نحو: (تل باشر)، بقصد إرغام جوسلين على الانصراف عن حلب.

ولكن عندما اتصل ببِلَك أن صاحب منبج: حسّان البعلبكي، اتفق مع جوسلين ضدّه، ترك حليفيه، وأسرع يحاصر هذه المدينة وصاحبها فيها، فأقبل جوسلين لمعونته، فاصطدم ببِلَك، وهُزِم، فعاد من حيث أتى.

وتمكن بَلك من أخذ منبج بعد حصارها لمدة طويلة، وقبض على حسّان صاحبها، وواصل حصار قلعتها، التي بقيت صامدة.

وبينما القتال يدور على القلعة، إذ أصيب بَلَك بسهم قاتل، لم يُعرف راميه، فاضطرب عسكره عندئذ، وتفرّق، وخلص حسّان واستعاد المدينة (٢٧ ربيع الثاني /٥١٨ هـ) - ٧ أيار ١١٢٤ م). وكان من جملة القادة في جيش بَلَك، إبن عمه، تمرتاش بن إيلغازي، صاحب ماردين، فحمله مقتولاً الى حلب، وتسلّم المدينة[١].

ويقول كمال الدين في كتابه، صفحة ٦٤٢:

[حين أحسّ بَلَك بحلول أجله، قال: هذه ضربة قاتلة لكل المسلمين].

(١) أبو الفداء: المختصر - ج/٤/ مجلد(١). ص ١٥٨.

الفصل الحادي عشر

سقوط صور بيد الفرنج

في الوقت الذي كان فيه ملك القدس، بودوان الثاني، أسيراً لدى المسلمين، صادف وصول اسطول بندقي، مؤلف من ثلاثمائة سفينة حربية، وعلى متنه، خمسة عشر الف مقاتل، تحت قيادة الدوج: دومنيكو ميشال، الى مياه الشرق.

وكان سبق للملك بودوان الثاني، أن طلب هذا الأسطول لمعونته، قبل ان يقع في الأسر.

وفي ذلك الحين، كان الأسطول المصري، الذي أرسله الوزير الفاطمي: المأمون البطائحي، يلقي مراسيه في مرفأ عسقلان، بعدما فشل في استعادة مدينة يافا، التي دافع عنها أهاليها الأفرنج والسوريون المسيحيون دفاعاً مستميتاً.

فعلم الدوج البندقي بأمر الأسطول المصري، ولم يترك الفرصة تفلت منه، فعمد فوراً الى مهاجمة هذا الأسطول، وإرغامه على القتال، حسب خطة حربية جريئة، قام بها لخداع قائده، بحيث قسم الأسطول البندقي الى قسمين، سار القسم الأول بقيادته، على طول الساحل، باتجاه يافا، دون ان يلفت النظر اليه، فيما أخذ القسم الثاني، وعديده: ثماني عشرة سفينة، أعالي البحر، مقلعاً نحو عسقلان. فاقترب من مرفأها آخر الليل. وعندما بدا للأسطول المصري، أُلقي في روع قادته، أن تلك السفن تحمل بعض الحجاج الزوّار من الأفرنج، الآتين من الغرب، فاندفعوا بدون

حذر نحوها، بغية الاستيلاء عليها. فأخذت تتراجع بانتظام، كأنها تتحاشى المعركة وتخشاها. وراحت تداور المصريين، دون أن تعمد الى الهرب. الى أن تمكن الدوج البندقي، من الدنو، بقسمه الأول من الأسطول، من السفن المصرية ومحاصرتها، في الوقت الذي انضم اليه القسم الثاني منه، وعندها جرت المعركة البحرية بين الأسطولين المصري والبندقي، فكانت نتيجتها، انهزام الأسطول الأول، بعد تدمير جميع سفنه تقريباً (٣٠ أيار ١١٢٣م - ٥١٧ هـ).

وبعد هذا النصر، يحوزه الأسطول البندقي، أصبحت السيادة على البحر المتوسط، للبنادقة، مما شجّع الأفرنج على التفكير، بالاستيلاء على إحدى المدينتين، الأسلاميتين الساحليتين، اللتين لا تزالان بيد المسلمين، وهما صور وعسقلان، وذلك طبعاً بمعاونة الأسطول البندقي الظافر.

وبعد اختلاف الرأي، بين الأفرنج على أيّ من المدينتين، يجب التوجّه لمهاجمتها، عاد البارونات واتفقوا على إجراء القرعة لهذا الغرض، فكتبوا على رقّين إسم المدينتين المذكورتين، وكلفوا ولداً ساذجاً لسحب أحد الرقّين، من المكان الموضوعين فيه، على المذبح، فسحب الرقعة التي فيها اسم مدينة (صور)، فكانت هي الضحية[1].

وهكذا أُلقي الحصار على مدينة صور، من قِبل الجيش الأفرنجي براً، والأسطول البندقي بحراً (١٥ شباط ١١٢٤م - ٥١٨ هـ).

وكان الجيش الأفرنجي عند ذاك، بقيادة صاحب طبريا: غليوم دي بويرس (Guillaume de Bures). الذي نُصّب وصياً على عرش مملكة القدس (بعد وفاة الوصي: أويستاش غارنيرِ)، ومعه البطريرك: جرمون دي بيكيني.

---

(1) Zoé Oldenbourg: Les Croisades: P. 274.

وأثناء، قيام الحصار على المدينة، قدم صاحب طرابلس الأمير بونس، وانضم الى الجيش الأفرنجي، مع مقاتليه.

وطال الحصار على صور، واشتدّ الضغط عليها، فصمدت وقاومت بالرغم من آلات الحصار التي استُعملت ضدها خصوصاً البرج الخشبي الهائل، الذي كانت تُطلق منه السهام على المقاومين، وبالرغم من قطع المياه التي تأتيها من الأقنية الخارجية، وقلّة الأقوات وغلاء الأسعار في الحاجيات، وتفشي الجوع والضعف بين أهاليها والمدافعين عنها.

ومما زاد في عنف الحصار على صور، انقطاع الأمطار، وقتذاك، في الشام والموصل والعراق وبلاد الجزيرة وديار بكر وغيرها، ولم يستطع الفاطميون إرسال اسطولهم البحري لانقاذها، إذ كان قد دُمِّر في المعركة البحرية السابقة من قبل اسطول البنادقة.

وكذلك صُدّ الجيش الذي وجّهه الفاطميون من عسقلان، لاحتلال بيت المقدس، بقصد تخفيف وطأة الحصار عن صور. وذهبت سُدى، جميع الجهود التي بذلها أتابك دمشق: طغتكين، لفك الحصار عنها (وكانت حاميتها المدافعة عنها، والبالغ عددها سبعمائة فارس تركي، مرسلة من دمشق لمعونة واليها).

وتجدر الإشارة هنا، الى أن جماعة من الصوريين خرجوا ليلاً مرة واقتحموا ميناء المدينة. حيث كانت احدى السفن الشراعية البندقية، تقوم بالحراسة، واقتادوها الى الشاطىء وأحرقوها.

كما أن جماعة أخرى من الصوريين، تمكنوا من التسلّل مرة ثانية الى معسكر الأفرنج، وإحراق اكبر منجنيق فيه، لكنهم وقعوا بقبضة الأفرنج، فقتلوا فوراً على مشهد من أهالي المدينة عند ذاك. ولما رأى اهل المدينة، وبخاصة تجارها، أنه لم يعد من سبيل في النهاية، للمقاومة والصمود، رغم كل ما بذلوه من تضحيات، جنحوا للحلّ السلمي،

فطلبوا الأمان من الافرنج، وجرت المفاوضات لهذه الغاية، بين الأتابك طغتكين، وبينهم وتوصل الفريقان الى الغاية المرجوّة، ففتح أهالي صور أبواب مدينتهم للأفرنج، فلما دخلها هؤلاء تركوا لهم الحرية بالبقاء فيها أو بالانسحاب منها مع كل ما يملكونه. (٧ تموز ١١٢٤م - ٤١٨هـ).

وقد أجمع المؤرخون والكتّاب من مسلمين ولاتين. بأن فتح صور ودخول الأفرنج اليها، جرى كل ذلك، بنظام وترتيب تاميّن، دون أن يحصل فيها من قِبل الداخلين، أي عنف أو نهب أو سبي، علماً بأن قسماً من مشاة الجيش الأفرنجي، اعتبروا أنفسهم مغدورين، لحرمانهم من قطف ثمار انتصارهم، ولكنهم بالنتيجة رضخوا للأمر الواقع. وقد رُفعت بعد ذلك، رايات الأفرنج بالمدينة. فكان علم ملك القدس، فوق أبوابها، وعلم صاحب طرابلس، على أحد أبراجها، وعلم دوج البندقية على برج مجاور له. ويقول أبو الفداء، بصدد سقوط صور بيد الأفرنج:

[وفي هذه السنة - أي سنة ٥١٨هـ - مَلَكَ الفرنج، مدينة صور - بعد حصار طويل، وكانت للخلفاء العلويين، أصحاب مصر، وكان مُلكها بالأمان، وخرج المسلمون منها، في العشرين من جمادي الأولى، بما قدروا على حمله، من أموالهم][١].

وقد نال البنادقة، مكافأة لهم، على معونتهم القيّمة، في حصار صور، ثلث المدينة المفتوحة، وثلث الأراضي الزراعية حولها، ومبلغاً من المال، يُدفع لهم سنوياً، من صندوقها، وعدداً من الامتيازات التجارية والسياسية، حسبما جرى الاتفاق عليه، بينهم وبين الأفرنج.

بعد هذا النصر، الذي أحرزه الأفرنج، بفتح مدينة صور، اطمأنوا الى قوة مراكزهم الساحلية.

---

(١) كتاب المختصر في اخبار البشر. مجلد(١) جزء(٤). ص١٥٨.

ومما زاد في اطمئنانهم، أن الملك بودوان الثاني، قد أُطلق سراحه من الأسر، وأصبح حرّاً، بعد سقوط مدينة صور بقليل.

ذلك أنه على إثر تسلّم حسام الدين تمرتاش، حكم حلب، رأى من الأوفق لمصلحته، ان يطلق سراح ملك القدس، فيظهر للأفرنج بذلك، نواياه الحسنة (كان تمرتاش ضعيف الشخصية، لا يرغب بالحرب)، فاتفق مع بودوان، على ذلك، مقابل فدية قدرها ستون ألف دينار، يُدفع منها عشرون ألف دينار مقدّماً، بالاضافة الى تعهّد هذا الأخير، بالتخلّي عن قسم من أراضي إمارة انطاكية، الواقعة على الشاطىء الأيمن للعاصي، وبالتحالف مع تمرتاش في الحرب ضد الأمير العربي: دُبيس بن صدقة (آب ١١٢٤ م). وما كاد بودوان الثاني، ملك القدس، يترك سجنه، حتى نكث بعهده، فلم يُعِد الأراضي المتفق على إعادتها لتمرتاش، معلّلاً ذلك، بأن ملكية تلك الأراضي، لا تعود اليه، فلا يجوز له التصرّف بها، بصفته وصياً على عرش إمارة انطاكية، على اعتبار، ان لهذه الأمارة، أميراً هو: بوهمند الثاني، الذي كان لا يزال ولداً وعمره خمس عشرة سنة، ويقيم في أيطاليا، وقتذاك، مع والدته: كونستانس، إبنة ملك فرنسا: فيليب الأول، وعلى اعتبار ان بطريرك أنطاكية من جهة ثانية، يعارض أشد المعارضة، بالتخلّي عن مدن: عَزاز وأثارب، وزردانة، وكفرطاب، حسبما جاء في كتاب الملك، الذي أرسله الى تمرتاش، وأورد فيه بالأضافة الى ذلك ما يلي:

[إن البطريرك أمره بالرجوع عن هذا البند في الأتفاق، آخذاً على نفسه إثم هذا الرجوع (أي البطريرك)، فلا يسعه هو (أي بودوان)، والحالة هذه، مخالفة البطريرك][١]. هذا، مع العلم بأن الملك بودوان الثاني، كان عند اتفاقه مع تمرتاش، قد ترك لدى هذا الأخير، بحلب،

---

(1) Zoé Oldenbourg: les Croisades: P. P. 275, 276.

عدة رهائن، من بينهم، إبنته الصغيرة: ايفيت، البالغة من العمر، خمس سنوات، وإبن جوسلين دي كورتنـــاي، وسواهما من أولاد النبـــلاء الأفرنج. فلم يحفل بما قد يصيبهم من أذى، بعد موقفه المشين هذا، وبما سيكون ردّ فعل تمرتاش، بالنسبة للرهائن لديه.

ولم يكتفِ الملك بذلك، بل أقدم أيضاً، نكاية بتمرتاش، على التحالف مع الأمير دُبيس بن صدقة، بقصد التعاون معه على الإستيلاء على مدينة حلب، وذلك خلافاً لشروط الأتفاق المشار اليه، مبرّراً عمله بأن مصلحة الدولة العليا، تقتضي هذا التحالف.

ولما دخل ملك القدس، الى انطاكية، لتسيير الأمور فيها، صمّم على القيام بمغامرة أخرى، كمغامراته السابقة، بقصد الإستيلاء على حلب. فجهز جيشاً من الأفرنج، ودعا حليفه، دُبيس بن صدقة، وسلطان شاه ابن رضوان السلجوقي، ملك حلب السابق، وأحد أبناء عم تمرتاش، للانضمام اليه.

وما أن تكامل جمعهم، حتى زحفوا مجتمعين الى حلب وألقوا الحصار عليها (أواخر ذي الحجة سنة ٥١٨ هـ - أيلول سنة ١١٢٤ م). ثم بدأوا ببناء بيوت لهم، في ظاهرها، اعتقاداً منهم بامتداد مدة الحصار عليها. وكان سلطان شاه، يأمل من تحالفه مع الملك بودوان، أن يسانده هذا في المطالبة بشرعية تملّكه حلب، ضد التركمان، المغتصبين.

واستبسل أهالي المدينة في الدفاع عنها رغم المجاعة التي تفشت بينهم، لقلة الأقوات، وغلاء اسعار الحاجيات حتى أكلوا الكلاب كما يقول كمال الدين (كتابه صفحة ٦٤٧)، ورغم تخلّي تمرتاش، حاكمها، عن مساعدتهم (إذ كان قد ترك حلب، والتجأ الى ماردين)، ولم ينل منها الأفرنج، وحلفاؤهم منالاً.

وإذ رأى الحلبيون، أن وضعهم أخذ يسوء، وأن صمودهم قد ينهار،

إن لم يتلقوا المعونة من أحد ، فقد أرسلوا وفداً منهم الى الأمير: آقسنقر البرسقي ، صاحب الموصل ، لدعوته الى حلب لنجدتهم ، وتسلّم المدينة في حال نجاتها ، من قبضة الأفرنج وحلفائهم.

فاستجاب آقسنقر للدعوة ، وهذا ما كان يمنّي النفس به ، دائماً قبل ذلك ، ومضى على رأس جيشه الكبير من الموصل ، ولما التقى الأعداء واصطدم بهم ، لم يستطيعوا الوقوف بوجهه ، وما هي إلاّ جولة وأختها ، حتى أدركوا بأن الدائرة ستدور عليهم ، فانسحبوا منهزمين ، وتفرّقوا ، يجرّ كل منهم أذيال الخيبة والعار معه.

وهكذا دخل آقسنقر مدينة حلب دخول الظافرين ، ونجا أهالي المدينة من اكبر خطر تعرّضوا له (كانون الثاني ١٢٢٥ م - ربيع الثاني /٥١٩/هـ). وتسلّم المدينة مع قلعتها ، ونظّم أمورها ، واستقرّت في ملكه ، إضافة الى الموصل.

بعد عودة الملك بودوان الثاني الى القدس ، مضى آقسنقر بجيشه الى مدينة كفرطاب ، فهاجمها وأخذها من الأفرنج (٥١٩ هـ - ١١٢٥ م).

وهنا انضم اليه الأتابك طغتكين ، صاحب دمشق فسارا الى قلعة: عَزاز فحاصراها.

وفي تلك الأثناء ، كان أهالي أنطاكية قد بعثوا الرسل الى ملك القدس ، لنجدتهم من الخطر المحيط بهم ، فلبّى نداءهم ، وهبّ مسرعاً بجيشه الى طرابلس ، حيث صَحِبه أميرها: پونس مع جنده ، وتوجّه الاثنان الى (عَزَاز) المحاصرة: (Hasart).

وهناك التحمت جيوش الأفرنج بجيوش المسلمين ، بمعركة قوية ، انسحب على إثرها آقسنقر وطغتكين بجيشيها ، بعد تكبّدهما خسائر فادحة في الأرواح (١٣ حزيران ١١٢٥م - ٥١٩ هـ) ، كما استولى بودوان على غنائم كبيرة من معسكرهما ، مكنته من استرداد الرهائن التي

كان تركها، لدى المسلمين، عند إطلاق سِراحه من الأسر.

وبعد هذه المعركة، انكفأ بودوان الثاني عائداً الى مملكته ظافراً. وفي القدس، أنبيء بأن إبنته الصغيرة إيفيت، التي كانت بين الرهائن لدى تمرتاش، قد أعيدت اليه سالمة، بفضل وساطة أمراء شيزر العرب.

على أن بودوان الثاني لم يخلد الى الراحة، بعد ذلك، إذ كان قد وطّد العزم على إكمال فتح الأراضي الأسلامية، ففكّر أولاً بمصر، ولكن وجود مدينة عسقلان بطريقها، يحول دون دخولها.

اما عسقلان فلا مجال للاقدام على شيء بخصوصها، طالما ان ليس هناك أي اسطول مسيحي يمكن الاستعانة به، لمحاصرتها بحراً.

ولم يبق بباله، إلاّ دمشق، فينتقم من صاحبها طغتكين، الذي كثيراً ما وقف بوجهه، وحاربه.

ولهذا الغرض، جهّز الملك حملة كبيرة قادها نحو دمشق مجتازاً الأردن، من جنوبي مصب اليرموك، ومخترقاً أراضي حوران، الى أن اتجه شمالاً حتى نزل عند قرية: تل الشقجب، على مسافة /٣٥/ كيلومتراً من دمشق: فلاقاه هناك، الأتابك طغتكين، قاطعاً عليه طريق العاصمة الكبيرة الأسلامية، والتحم الفريقان بمعركة ضارية، واشتد القتال بينهما، وكاد النصر ان يعقد لواؤه للمسلمين، لولا سقوط الأتابك عن جواده في المعمعة، مما أدّى الى إشاعة الذعر في صفوف جيشه، فلم يقف جنده طويلاً في وجه جند الأفرنج، فتراجعوا منهزمين مع الخيالة، فتبعهم الأعداء حتى مرج الصفر، بالقرب من الكسوة، الضاحية الجنوبية لدمشق، فما كان من المشاة التركمان، الذين لم يتمكنوا من الهرب، إلاّ أن قصدوا مخيّم الأفرنج، وقتلوا من وجدوهم فيه، ونهبوا أثقالهم وأموالهم، بما فيها كنيسة الملك الخاصة.

ولما عاد الأفرنج، من ملاحقة المنهزمين، فوجئوا بنهب مخيّمهم،

الذي كان قد أخلاه التركمان وهربوا. (أواخر ذي الحجة ٥٢٠هـ - ٢٥ كانون الثاني سنة ١١٢٦م)[١].

وما كاد الملك بودوان يعود الى القدس، بعدما تخلّى عن محاصرة دمشق لصعوبة ذلك، حتى أرسل الأمير بونس، صاحب طرابلس، يستعين به، للاستيلاء على قلعة: (رَفَنية (Rafanée)، في جبال العلويين، شمالي حصن الأكراد، فلباه وهبّ مسرعاً اليه، وأعانه على اخضاع القلعة المذكورة (٣١ آذار ١١٢٦م - ٥٢٠هـ).

وكان لامتداد نفوذ الأفرنج في سوريا وفلسطين، ما جعل صاحب الموصل. آقسنقر البرسقي، يخشى على بلاده، فقَدِم الى سوريا بجيشه، وقصد مدينة حمص، التي كان يحاصرها حينذاك، أمير طرابلس: بونس، وأرغمه على فكّ الحصار عنها، وعلى عقد معاهدة معه. ثم عاد آقسنقر الى الموصل، ولكن لم يمهله القدر لاكمال جهاده ضد الأفرنج، فقد اغتالته جماعة من الباطنية، (الإسماعيلية)، اثناء قيامه بتأدية فريضة صلاة الجمعة، في الجامع العتيق بالموصل، وكان ذلك في الثامن، من ذي القعدة سنة ٥٢٠هـ - والسادس والعشرين من تشرين الثاني ١١٢٦م، وقبل اغتياله، تمكن من قتل ثلاثة أنفار من مهاجميه، فتكاثروا عليه، وقتلوه.

وبعد مقتل آقسنقر، أقام السلطان محمود السلجوقي، ولده: عز الدين مسعود، والياً على ما كان لأبيه من أعمال وهي: الموصل والجزيرة وحلب وحماه وجزيرة إبن عمر، وغيرها.

ولم تطل أيام عز الدين مسعود، فقد توفي وهو على حصار مدينة الرحبة (سنة ٥٢١هـ)، فولي الأمر بعده، أخوه الصغير، وقام بتدبير

---

(١) أبو الفداء: المختصر - مجلد(١) - ج(٤) ص - ١٥٩ - ١٦٠ - حوادث سنة ٥٢٠هـ.
- Rene´Grousset: L'epopeé Des croisades. p.p. 130 - 131.

أعمال الدولة، المملوك جاولي، (وهو من مماليك آقسنقر) الذي أرسل الى السلطان محمود، يطلب منه الموافقة على ذلك، فلم يُقرّه السلطان في الولاية، نظراً لحاجة البلاد الى شخصية عسكرية قوية، يكون بمقدورها أن تجابه الأفرنج من جهة، وتحسن سياسة الدولة مع الشعب، من جهة أخرى.

وبعد البحث الجدّي والمشورة، عهد السلطان محمود بالنتيجة، الى عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آقسنقر، بالولاية على الموصل. وديار الجزيرة ونصيبين وحلب (رمضان ٥٢١ هـ).

- عماد الدين زنكي المجاهد -

يرجع أصل الأسرة الزنكية، الى قسيم الدولة آقسنقر، وهو تركي من أصحاب السلطان: ركن الدين ملكشاه بن ألب أرسلان. وقد اقطعه هذا السلطان، مدينة حلب وأعمالها، وحماه ومنبج واللاذقية وما معها، فبقيت في يده الى سنة ٤٨٧ هـ، أي الى حين قتله من قبل تاج الدولة تُتُش، في معركة، بالقرب من تل السلطان بجوار حلب.

وقد ترك آقسنقر بعده ولداً صغيراً آنذاك لا يتجاوز العشر سنوات من عمره. هو عماد الدين زنكي، فضمّه الأمير قوام الدولة كربوغا اليه، وبقي معه في الموصل، الى حين وفاته (سنة ٤٩٤ هـ).

ثم بعد ذلك، انضم عماد الدين الى الأمير شمس الدولة، جَكرمش: صاحب الموصل وتقرّب منه.

ولما قتل جكرمش في سنة /٥٠٠/هـ، اتصل عماد الدين، بصاحب الموصل: جاولي سقاوة، ولم يزل بمعيته حتى أعلن هذا الأمير، عصيانه على السلطان محمد السلجوقي، ففارقه زنكي، ودخل بخدمة الأمير مودود الذي ولي الموصل سنة ٥٠٢ هـ. وشهد معه حروبه، حيث أظهر فيها شجاعة فائقة لم يُسمع بمثلها، وخصوصاً في حرب طبرية ضد الأفرنج.

وبعد مقتل مودود، انضم عماد الدين الى عساكر الموصل، لقتال الأفرنج، بأمرة آقسنقر البرسقي، وقد أبلى في المعارك التي خاضها معه، بلاءً حسناً، لفت اليه الأنظار، مما أدّى الى توليته على الموصل وغيرها.

وفور تولّيه الموصل، أخذ عماد الدين على عاتقه، مجاهدة الأفرنج في سوريا، عملاً بطلب السلطان محمود. فرأى أولاً ان يقوّي مركزه في بلاد الشام، فسار الى جزيرة إبن عمر، شمالي الموصل، وبها مماليك البرسقي، فأخذها، ثم أخذ مدينة إربل وعاد الى الموصل (٥٢٢ هـ). وفي سنة ٥٢٣ هـ. مضى الى سنجار فتسلّمها، ومنها الى الخابور فملكه، وبعده قصد الرحبة فاستولى عليها عنوة، وكذلك افتتح نصيبين.

وراسله أهل حرّان للمجيء اليهم، ففعل. وعبر الفرات وأخذ مدينة منبج وحصن بزاعة.

وفتحت له حلب أبوابها بعد حصاره لها (٥٢٣ هـ). ثم استولى على حماه، وكان والياً عليها: بهاء الدين سونج بن تاج الملوك بوري.

وحاصر حمص فلم يتمكن منها، وقبض على صاحبها: كيرخان وعاد فأطلقه، بعد أن تحالف معه على محاربة الأفرنج، وفي سنة ٥٢٤ هـ، برز حسام الدين، تمرتاش: أمير ديار بكر، وبعض الأمراء، ومنهم ركن الدولة داود بن سقمان، وجمعوا من العساكر، ما يقرب من العشرين ألفاً، وقصدوا متحالفين، مجابهة عماد الدين، لوضع حدّ لأعماله، فالتقوه، وكان جنده لا يتجاوزون الأربعة آلاف، فهزمهم وشتّتهم وملك سَرجة ودارا.

قبل تولّي عماد الدين زنكي لأمارة الموصل، كان الملك بودوان الثاني، قد تخلّى عن وصايته لأمارة أنطاكية، وسلّم السلطة فيها للوريث الشرعي: الأمير النورمندي بوهمند الثاني بن بوهمند الكبير، الذي قدِم الى الشرق ليتسلّم ملكه ويحكم إمارته، خلفاً لوالده، وكان بوهمند

هذا يقيم مع والدته: كونستانس، إبنة ملك فرنسا، في إيطاليا (تشرين الأول ١١٢٦ م). وقد أعجب به بودوان الثاني، وزوّجه من إبنته الثانية: أليس.

وبعد أن ارتاح ملك القدس، من هموم الوصاية على إمارة أنطاكية، عاد الى التفكير، بالاستيلاء على مدينة دمشق. وما هو السبيل الى ذلك؟ فقد علّمته التجارب بأن أخذ تلك المدينة الأسلامية الكبيرة، يستحيل دون معونة مسيحية من أوروبا، ولو أن الخلاف بين الأمراء المسلمين في سوريا وغيرها، من شأنه ان يسهّل له مهمته.

وعلى هذا راح بودوان الثاني يسعى لتحقيق تجهيز حملة صليبية ثانية، كالحملة الأولى، من أجل مؤازرته في حملاته ضد المسلمين.

ولهذه الغاية أرسل مؤسس فرقة الهيكليين أو الداويّة (Templiers): هوج دي باين، الى اوروبا: في سبيل العمل على استنفار المسيحيين، وحثّهم على القدوم الى سوريا (١١٢٨ م).

الاّ أن مهمة هذا المبعوث، أصابها الفشل، فأخفق ولم يلق نجاحاً فيها، لأن النفوس لم تكن مهيّأة كفاية لذلك.

هذا وعلى إثر وفاة ظهير الدين طغتكين، أتابك دمشق، في شهر صفر سنة ٥٢٢ هـ - ١١٢٨ م، وقيام ولده بوري مكانه، جرت المراسلات، بين رئيس فرقة الإسماعيلية في دمشق: أبي الوفا، وبين الملك بودوان الثاني، على أن يسعى الأول بكل قواه، لتسليم مدينة دمشق الى الثاني، مقابل تسليم مدينة صور للاسماعيلية، وكان ذلك بمعرفة واشتراك الوزير: طاهر بن سعد المزدغاني، وزير بوري صاحب دمشق. وتمّ الاتفاق بين المتآمرين، على أن يكون قدوم الأفرنج يوم جمعة، ليجعل أبو الوفا، أصحابه على أبواب جامع المدينة. وعينوا موعداً لذلك.

الاّ ان هذه المؤامرة الدنيئة اكتُشِفت، وعلم بأمرها تاج الملوك بوري، فاستدعى وزيره المزدغاني، وقتله، بعد اعترافه بجرمه، وأعطى اوامره بقتل الاسماعيلية الذين بدمشق، فثار بهم أهالي المدينة، واغتالوا منهم ما يزيد عن الستة آلاف نفس.

وفي الميعاد المعيّن، مع الأفرنج، وصل الملك بودوان الثاني وحاصر دمشق، وكان بصحبته: صهره فولك دانجو زوج إبنته البكر: ماليزاند. فقاومه الدمشقيون وردّوه على أعقابه مع جيشه.

وكان البرد قارساً والشتاء شديداً آنذاك، فرحل الملك عن المدينة منهزماً، وخرج بوري بعسكر دمشق في أثره، ولاحقه حتى قتل كثيراً من جنده[1].

وكانت قلعة بانياس، وقتذاك بيد رجل من الاسماعيلية يدعى إسماعيل الباطني، فلما قُتِل أبو الوفا والوزير المزدغاني، عمد إسماعيل الى تسليم هذه القلعة، للأفرنج، والتحق بهم.

على أن فشل المؤامرة الأفرنجية الاسماعيلية، لم يفتّ في عضد الملك بودوان الثاني، فحاول مرة أخرى، فتح دمشق.

وكان ذلك في شهر تشرين الثاني سنة ١١٢٩م - ٥٢٤هـ - حينما أتى لمحاصرتها، يؤازره أمير الرها: جوسلين، وأمير أنطاكية بوهمند الثاني، وكونت طرابلس، بونس. ولكن هذا الحصار لم يعطِ أية نتيجة، فذهبت جهودهم أدراج الرياح، وأصيبت جيوشهم بالخذلان من جرّاء ما أصابها. فعاد كل منهم الى بلاده خائباً.

ورأى عماد الدين، أن الفرصة سانحة لعقد حلف مع تاج الملوك بوري لمواجهة الأفرنج معاً، ففعل وسار من الموصل الى جهة الشام،

---

(١) ابو الفداء: المختصر. مجلد(٢) - جزء(٥) ص - ٧ و٨ - حوادث سنة ٥٢٣هـ

عابراً الفرات، وأرسل الى بوري، يطلب، منه المؤازرة والاستعداد للحرب، وترددت بينهما الرسل. واستحلفه بوري على المصافاة، والوداد، وبادر بتجريد خمسمائة فارس، وكتب الى ولده بهاء الدولة سونج بحماه، يأمره بالخروج بعسكره والانضمام الى العسكر الدمشقي، ومقدّمه، الأمير شمس الأمراء الخواصّ، وبركابه عدة من الأمراء والمقدّمين، فامتثل سونج لأمر والده، وخرج من حماه في عسكره، وتوجهوآ جميعاً الى مخيّم عماد الدين زنكي، فأحسن وفادتهم، وبالغ في إكرامهم.

ولكنه بعد أيام غدر بهم، وقبض على سونج، وعلى جماعة من المقدمين، وأمر بنهب خيامهم وأثقالهم. فهرب من استطاع الهرب. واعتُقِل الباقون، وأُرسلوا الى حلب تحت الحفظ.

ومن ثم، مضى عماد الدين الى حماة، فاستولى عليها، لخلّوها من الجند (٨ شوال ٥٢٤ هـ)، وسلّمها الى قيرخان بن قراجة، صاحب حمص، الذي كان السبب في التحريض ضد سونج.

ولم يكن حظ قيرخان، أحسن من حظ سونج، إذ اعتقله أيضاً عماد الدين، بعد ستة أيام من تسلّمه حماه، ونهب خيامه وما فيها، وطلب اليه، أن يأمر إبنه وعسكره بتسليمه حمص، فما كان له أن يرفض، نظراً لما هو فيه. فراسل إبنه ونوابه بهذا الشأن، فلم يلتفتوا اليه، وعلموا بالمكيدة.

فما كان من عماد الدين الاّ أن رمى الحصار على حمص، وبقي مدة أربعين يوماً عليها، فلم ينل منها، وقَدِم الشتاء، فرحل عنها الى حلب، ثم الى الموصل، مستصحباً معه سونج، وأمراء دمشق، حيث وضعوا في الإعتقال.

يقول ابن واصل، بشأن سونج وامرائه، وغدر عماد الدين بهم:

[وغدر بهم، بعد أن أفتى له الفقهاء، ممّن لا دين لهم، وجوّزوا ما لا يحسن شرعاً وعرفاً][1].

كما يقول أبو الفداء بهذا الصدد:

[فسار سونج الى عماد الدين، فغدر به، وقبض عليه، وارتكب أمراً شنيعاً من الغدر، ونهب خيامه، والعسكر الذين كانوا صحبته.... وكان قد غدر أيضاً بصاحب حمص: قيرخان بن قراجا، وقبض عليه، وأحضره صحبته الى حمص، ممسوكاً][2].

وتقول زوي أولدنبورغ كذلك:

[ولقد تحالف عماد الدين مع أتابك دمشق بوري بن طغتكين، واستفاد من هذا الحلف لكي يجرّد، غدراً، إبن بوري من مدينة حماه. ومن ثم ليقبض على أمير حمص: قيرخان، ويعذّبه بغية انتزاع مدينته منه، وذلك بعدما كان عقد معه حِلفاً ضد الأفرنج][3].

ولم يزل سونج بن بوري في المعتقل، لدى عماد الدين الى أن اطلقه مقابل إطلاق الأمير دُبيس بن صدقة، الذي كان اعتقله بوري (٨ ذو العقدة سنة ٥٢٥ هـ). وفي تلك الأثناء، سار عماد الدين بعسكره، من الموصل، الى الشام، وقصد حصن الأثارب، لشدّة الضرر، الذي كان يلحق المسلمين منه، وخصوصاً أهل حلب، ونازله، ولما علم بتجمّع الأفرنج ومسيرهم اليه، هبّ لملاقاتهم. وجرت بينه وبينهم معركة شديدة، وبعد عدة جولات، انتصر عليهم وهزمهم، ووقع الكثير من فرسانهم قتلى وأسرى.

وعلى إثر ظفره هذا، رجع عماد الدين الى حصن الأثارب، ونازله

(١) مفرج الكروب - ص - ٤٢

(٢) المختصر - مجلد(٢) جزء(٥) ص. ٨ - حوادث سنة ٥٢٣ هـ.

(3) zoé Oldenboug: Les Croisades: p.p. 278 - 279.

ثانية، وتمكن من أخذه عنوة، بعد أن قتل، وأسر مَن فيه من المقاتلة. ثم أمر بتخريبه، فدكّ الحصن دكاً. (٥٢٤هـ - ١١٢٩م)!

- وفاة ملك القدس بودوان الثاني -

بعد أن استعاد بوهمند الثاني، حصن كفرطاب، الذي كان وقع بيد المسلمين قبل ذلك، أقدم في سنة ١١٣٠م - ٥٢٥هـ، على اجتياح، أراضي امارة قيليقية، منتهزاً الفرصة المتأتية، عن ضعف حاكمها ليون الأول: فحاصر مدينة (أنزرب) الأرمنية، للإستيلاء عليها.

وصادف في ذلك الوقت، أن كان الأمير إيلغازي الدانشمندي، متوجهاً أيضاً الى هذه المدينة لاخذها: فالتقى بالأفرنج على أبوابها، دون أن يكون عالماً بمجيئهم اليها، ونشبت بينه وبينهم، معركة قوية دارت الدائرة فيها بالنتيجة، على بوهمند الثاني، فسُحِق جيشه، وقُتِل هو وأغلب جنده.

أما باقي الجنود الذين تمكنوا من الهرب، فقد وقعوا بأيدي الأرمن، فأبيدوا.

وقد قال ميشال الصوري بهذا الصدد:

[لما حمل الأتراك، رأس بوهمند الثاني، الى الأمير إيلغازي، قام هذا الأخير بأرساله الى الخليفة في بغداد، مع بعض الهدايا القيّمة].

وفي هذه المرة أيضاً، أضحت إمارة أنطاكية، بدون أمير، فتنادى الأهالي وأرسلوا يطلبون من ملك القدس بودوان الثاني، الحضور الى مدينتهم، لمعونتهم وتقرير أمورهم.

وكانت في ذلك الوقت، أرملة بوهمند الثاني، أليس إبنة الملك بودوان الثاني، قد عمدت، من جهتها، وبصورة سريّة، الى إيفاد رسول خاص، لمقابلة عماد الدين زنكي، وطلب المساعدة منه، لكي تتمكن من

حكم أنطاكية، وذلك مقابل عقد معاهدة تحالف معه، وأرفقت مع الرسول، هدية قيّمة، وجواداً (أشدّ بياضاً من الثلج).

ولكن لسوء حظ هذه الأميرة، لم تصل رسالتها الى عماد الدين زنكي الذي كان آنذاك في حلب، إذ أن عيون الافرنج، كانوا لها بالمرصاد، فقبضوا على الرسول، وهو في الطريق الى حلب، وقادوه الى الملك بودوان الثاني، الذي كان على أهبة القدوم الى أنطاكية، مع فرسانه.

وبعد التحقيق مع رسول الأميرة أليس، واعترافه بما كُلّف به، قضى الملك بشنقه، ثم أسرع مغذّاً السير الى أنطاكية. فلما وصل الى هذه المدينة. حاولت إبنته أليس منعه من الدخول إليها، ففشلت خِطّتها، لكون الفرسان الأفرنج وقفوا بوجهها، وعارضوها، فدخل الملك المدينة، مع مرافقيه، ومنهم صهره: الكونت فولك دانجو، وأمير الرها، رغماً عن إبنته. ولما رأت هذه الأخيرة، أن الأمور، خرجت من يدها، أظهرت الخضوع لوالدها، فعفا عنها، وأقطعها مدينتي اللاذقية وجبلة.

وعند ذلك، أعلن بودوان الثاني، تسلّمه الوصاية على إمارة انطاكية، باسم حفيدته الصغيرة: كونستانس، إبنة بوهمند الثاني.

وكان هذا، آخر عمل سياسي، قام به بودوان الثاني، إذ أنه بعد عودته الى القدس، مَرِض وتوفي (٢١ آب ١١٣١ م).

وقد نُصّب الكونت فولك دانجو، زوج الأميرة: ماليزاند، إبنة الملك الراحل، ملكاً على عرش مملكة بيت المقدس اللاتينية، بالإشتراك مع زوجته، وذلك عملاً بوصيّة بودوان الثاني (١٤ أيلول ١١٣١ م). وبعد ذلك، بشهرين توفي أمير الرها: جوسلين دي كورتناي، فخلفه إبنه جوسلين الثاني، على هذه الإمارة.

أما فيما يتعلّق بأمارة أنطاكية، التي خلت أيضاً من الوصاية بعد موت ملك القدس، فأن البارونات هناك، أرسلوا الى الملك فولك

دانجو، يطلبون منه القدوم اليهم، لحسم مسألة الوصاية عليها، ووضع حدّ لسعى الأميرة اليس، التي راحت تعمل، بالاتفاق مع جاريها: جوسلين الثاني، أمير الرها، وبونس: أمير طرابلس، على حرمان إبنتها الصغيرة من إرثها، لكي يخلو لها الجو، وتستأثر بالسلطة، فتتسلّم زمام الحكم في أنطاكية؛ وما أن تسلّم الملك فولك، رسالة بارونات أنطاكية، حتى لبّى طلبهم على الفور، وأسرع بسيره نحو تلك المدينة، ولكن، حين وصوله الى أبواب مدينة طرابلس، عمد أميرها بونس، الى قطع الطريق عليه، لمنعه من متابعة سيره. فعاد الملك من هناك، وبرفقته أحد أصحابه، بزورق صغير، الى مدينة بيروت، ومنها توجّه بحراً الى أنطاكية.

ولما وصل الملك الى مصبّ العاصي، استقبله بارونات أنطاكية، فسار على رأسهم، لمجابهة أمير طرابلس، بونس الذي كان آتياً مع جيشه الى أنطاكية للاستيلاء عليها، فالتقى، الجيشان الأفرنجيان، في محلة تدعى: روجية، (Rugia)، وتصادما، فانهزم بونس، لائذاً بالفرار، فيما دخل الملك فولك مدينة أنطاكية، ووراءه العديد من فرسان طرابلس الأسرى، حيث أعلن نفسه، وصيّاً على الإمارة، وسلّم إدارتها الى القائد العام، رينو مازوير (Renaud Masoier).

ثم أمر الملك بإطلاق الأسرى الطرابلسيين، وصفح فيما بعد، عن بونس - وخلّصه من الحصار الذي كان التركمان قد ألقوه عليه، في حصن مونفرّات (بعرين).

الحرب بين الخلافة والسلطنة

في خضم الأحداث التي مرّت، كان الخليفة في بغداد: المسترشد، قد استردّ بعضاً من نشاط الخلفاء العبّاسيين، السابقين، وقاد الجيوش بنفسه لحرب المخالفين له، فحصلت بينه وبين السلطان السلجوقي: محمود بن محمد بن ملكشاه، مجافاة، فعزم السلطان على دخول بغداد،

فاستعدّ له الخليفة، وتهيأ لمقابلته بالقوّة، ومنعه من الدخول اليها. الاّ أنه عاد وعدل عن رأيه، وجنح للصلح (٥٢١ هـ). وبعد أن استولى السلطان محمود، على قلعة: (أَلَمْوت) من نواحي قزوين. وكانت بيد الحسن بن الصبّاح، رئيس الباطنية، منذ ست وعشرين سنة: (٥٢٤ هـ - ١١٢٩ م) عاجلته المنية سنة (٥٢٥ هـ). وكان لا يزال في السابعة والعشرين من عمره، بحيث بلغت ولايته السلطنة، اثنتي عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً، قضاها في الحروب المتواصلة، وكان حليماً عاقلاً، يعفو دائماً عند المقدرة، وقد أقيم إبنه داود في السلطنة، بمسعى الوزير أبي القاسم النساباذي، وعُين الأقسنقر الأحديلي، أتابكاً له. فنهض السلطان مسعود بن محمد، في طلب السلطنة (وهو عمّ داود). وكذلك تحرّك، سلجوق بن محمد، صاحب فارس (وهو أخو مسعود)، وأتابكه: قراجة الساقي، في طلبها، وقدم سلجوق الى بغداد، حيث اتفق مع الخليفة العبّاسي المسترشد (٥٢٦ هـ).

أما مسعود فقد استنجد بعماد الدين زنكي، الذي سار الى بغداد، لقتال الخليفة وسلجوق، فقابله قراجة الساقي وهزمه، فتراجع عماد الدين الى تكريت، وعبر منها، بمساعدة الدوادار نجم الدين أيوب (والد صلاح الدين بن أيوب). متوجهاً الى بلاده.

ثم عادت الأمور الى مجاريها. فتصالح مسعود مع أخيه: سلجوق والخليفة المسترشد، على أساس أن تكون السلطنة لمسعود، وولاية عهده لسلجوق.

وعاد الجميع الى بغداد، فنزل السلطان بدار السلطنة، ولكن هذه التغييرات السياسية لم ترق للسلطان سنجر، عميد البيت السلجوقي، فأقبل من خراسان، وبرفقته: طغرل بن السلطان محمد، وذلك لانتزاع السلطنة من مسعود، وجرى المصاف بينه وبين هذا الأخير وسلجوق، فكانت الهزيمة على مسعود.

غير أن سنجر بذل الأمان لمسعود، وأجلس طغرل بن محمد، في السلطنة، وخطب له في جميع البلاد.

ثم عاد سنجر الى خراسان بعد أن أقر الخليفة المسترشد بالله، هذا الوضع[١].

أما داود بن محمود، الذي كان قد أقيم في السلطنة، على إثر وفاة والده السلطان محمود، فقد أعلن راية العصيان، على الجميع، وتوجّه الى همذان، حيث خرج إليه عمه، طغرل، وتقاتل الاثنان، فانهزم داود، ولجأ الى بغداد. وقد حذا حذو داود، عمه مسعود بن محمد، ومضى الى همذان أيضاً لمحاربة أخيه طغرل (٥٢٧ هـ)، فلاقاه هذا الأخير؛ ولكنه لم يثبت بوجهه، فانتصر عليه مسعود، وأسرع، فاستولى على همذان، وظفر بعرش سلاجقة العراق[٢]. وقبل ذلك، أي في الحادي والعشرين من شهر رجب، سنة ٥٢٦ هـ، كان قد توفي صاحب دمشق: تاج الملوك بوري بن طغتكين، من جرّاء تلك الجراح التي أصابه بها، بعض رجال الباطنية، فخلفه إبنه شمس الملوك، اسماعيل، بوصيّة منه.

أما إبنه الثاني، جمال الدين محمد، فقد أوصى له بمدينة بعلبك، وأعمالها.

وبعد أن استقرّ إسماعيل في ملك دمشق، زحف بجيشه الى حصن بانياس، على غفلة من الافرنج، فهاجمه، وانتزعه منهم مع المدينة عنوة (٥٢٧ هـ - كانون الأول ١١٣٢ م). وكان الأفرنج قد تسلموها سابقاً من الباطنية، كما مرّ آنفاً.

---

(١) أبو الفداء: المختصر - مجلد (٢) جزء (٥) ص - ١١ و١٢ - حوادث ٥٢٦ - وإبن الأثير: الكامل - حوادث ٥٢٦.

(٢) الراوندي: راحة الصدور - ص٢٠٨ - ٢٠٩

ثم مضى إسماعيل الى حماة، وكانت تابعة لعماد الدين زنكي، آنذاك، فحصرها ثم ملكها مع قلعتها (شوّال ٥٢٧ هـ)، ومنها سار الى شيزر، فحصر قلعتها، فصانعه صاحبها، بمال حمله اليه، فعاد عنها الى دمشق (ذو القعدة ٥٢٧ هـ).

لم يكن الخليفة العباسي المسترشد بالله، ليصفح عن عماد الدين زنكي، بعدما أقدم عليه هذا الأخير تجاهه، مع السلطان مسعود، فسار بجيشه من بغداد الى مدينة الموصل، لإخراجه منها. وعند وصوله إليها، كان عماد الدين قد تركها قبل ذلك متوجهاً الى سنجار.

وكان أن قاوم رجال حامية الموصل، جيش الخليفة المسترشد. أشدّ المقاومة، بغياب عماد الدين، وصمدوا بثبات، فلم يستطع الخليفة دخول المدينة، فعاد الى بغداد بخفيّ حنين.

وفي تلك السنة أي في سنة ٥٢٧/ هـ، تعرّض شمس الملوك إسماعيل لمحاولة إغتيال، إذ وثب عليه أحد مماليك جدّه طغتكين، وضربه بالسيف، فلم ينل منه، ولما قبض على المملوك، أقرّ على بعض الأشخاص الضالعين معه في الجريمة، وذلك تحت وطأة الضرب الشديد، فقتله اسماعيل كما قتل أولئك الأشخاص دون التحقيق معهم حسب الشرع، وكذلك أقدم على قتل أخيه سونج بن بوري للشكّ، فعظم الأمر على الناس، ونفروا منه، فلم يأبه لهم. وفي المحرّم من سنة/٥٢٨/ هـ مضى شمس الملوك اسماعيل من دمشق، الى حصن الشقيف، فأخذه من الضحّاك بن جندل، رئيس وادي التيم، فأثار ذلك غضب الأفرنج، فأرسلوا في شهر أيلول سنة ١١٣٤م - ٥٢٩ هـ، حملة على حوران، للانتقام من اسماعيل، فقابلهم هذا، بالتوغلّ في أراضي مملكة بيت المقدس، ومهاجمة الجليل، ممّا فتّ بعضدهم: بحيث عادوا الى بلادهم

بدون طائل، كما عاد اسماعيل الى دمشق، بعد أن عقد الفريقان اتفاق هدنة، (تشرين الأول ١١٣٤ م).

في ذلك الوقت، كان الخليفة العباسي، المسترشد بالله، على خلاف مع السلطان محمود، فلما توفي هذا، راح الخليفة يراقب الأحداث التي جرت بعد وفاته، ضمن أفراد البيت السلجوقي الحاكم؛ وذلك بغية انتهاز الفرصة الملائمة، للاقدام على الاستئثار بالسلطة، واستعادة ما فقده من النفوذ، وكان أول ما فعله الخليفة، أن أمر بقطع الخطبة عن السلطان مسعود، من منابر مساجد بغداد؛ وتجهيز جيش لمحاربته بدار السلطنة.

إلاّ أن السلطان مسعوداً، حين علم بقدوم جيش الخليفة، سار إليه والتقاه، وقبل وقوع المعركة، ترك كثير من جند الأتراك، مواقعهم في جيش الخليفة وانضموا الى جيش السلطان مسعود. وبعدها لم تكن إلاّ بعض الجولات، حتى حلّت الهزيمة بجيش الخليفة ووقع هو في الأسر، فأخذه مسعود معه من همذان الى مراغة، حيث كان ينوي التوجّه لقتال إبن أخيه داود بن محمود.

وقد أنزل الخليفة على بُعد فرسخين من مدينة مراغة، في خيمة منفردة، بعد أن تقرّر الصلح بين مسعود، وداود، على مال يؤديه الخليفة للسلطان، وعلى أن لا يعود الى جمع العساكر، ولا يخرج من بغداد، وقد اتفق في ذلك الحين، ان وصل رسول السلطان سنجر الى مسعود، فركب مع العسكر لملتقاه.

وكانت جماعة من الباطنية، تراقب الخليفة منذ أنزلوه في خيمته، فلما رأت هذه الجماعة أن الفرصة سانحة وثب بعض الأفراد منها عليه،

فقتلوه بعد أن جدعوا أنفه وأذنيه ومثلوا به، وقتلوا معه نفراً من جند السلطان المحافظين عليه، اثناء الدفاع عنه (١٧ ذي القعدة ٥٢٩ هـ).

وبعد مقتل المسترشد بالله بويع وليّ العهد أبو جعفر المنصور، الراشد بالله، خليفة في بغداد.

وقد عاد الخلاف يذرّقرنه بين الخليفة الجديد وبين السلطان، وحاول الأول أن يأخذ بثأر والده من الثاني، فاتفق الراشد بالله، مع داود بن محمود السلجوقي، ونفر من أمراء الأطراف، ومنهم عماد الدين زنكي، على خلع مسعود، فعلم هذا الأخير بالمؤامرة، المزمع تنفيذها ضدّه، فما كان منه إلاّ أن هبّ مسرعاً الى بغداد، فحاصرها مدة تنوف على الخمسين يوماً. فوقع فيها السلب والنهب من العيّارين. وسرعان ما اختلفت كلمة الأمراء، حُلفاء الخليفة. فتركوا المدينة، وعاد الملك داود الى بلاده أذربيجان، وخرج الخليفة الراشد برفقة عماد الدين زنكي الى الموصل، فدخل مسعود بغداد ظافراً.

وبعد ذلك، جمع مسعود كبار الأمراء والقضاة في بغداد، وعرض عليهم أمر الخليفة الراشد بالله، وطلب اليهم الموافقة على خلع هذا الأخير من الخلافة، لإخلاله بتعهداته، المتضمنة عدم مقاتلة السلطان، ولأسباب أخرى نسبها إليه، فوافقوا جميعهم على ذلك، وقد أقيم في الخلافة مكان الراشد، عمّه، المقتفي بأمر الله، بعد ما نُظّم محضر الخلع وأرسل الى الموصل، حيث حكم به قاضي القضاة الزينبي.

وهكذا لم تدم خلافة الراشد بالله، سوى أحد عشر شهراً وأحد عشر يوماً.

ولما علم السلطان سنجر السلجوقي، عميد السلاجقة، عند ذاك، بلجوء الخليفة المخلوع، الى الموصل، بحماية عماد الدين زنكي، طلب من

هذا الأخير، يأمره باخراجه من بلده ففعل.

وترك الراشد بالله مدينة الموصل الى مراغة.

كان عماد الدين زنكي، يحاول، كلّما سنحت له الفرصة، التقرّب من أهالي دمشق، ليحظى بمدينتهم الكبيرة، على اعتبار أن امتلاكه لها، يزيده قوّة تجاه الأفرنج.

وكادت رغبته في نيل تلك المدينة، أن تتحقق أخيراً، لولا معاكسة الظروف.

ذلك أن صاحب دمشق، شمس الملوك اسماعيل، كان قد أصبح كثير الشكوك، بعد المحاولة التي جرت لإغتياله وقتل بسببها أخاه سونج وغيره من المتهمين بالضلوع فيها. فصار ينظر بعين الحذر الى مَن حوله، من أصحاب الشأن بحيث عدمت الثقة بينه وبينهم، خصوصاً بعد أن أخذ يتّهم والدته بعلاقة مع شحنة دمشق: يوسف بن فيروز وبأنها تنوي قتله[1]. فأراد التخلص من الجوّ الموبوء الذي يحيط به، ورأى أن أنجع وسيلة لهذه الغاية، هي تسليم مدينة دمشق الى عماد الدين زنكي، والخروج منها الى مكان آخر يأمَن فيه على نفسه.

وبالفعل فقد كتب شمس الملوك إسماعيل، رسالة بخطّه الى عماد الدين، إمعاناً في السرية، طلب فيها منه، الإسراع في القدوم لاستلام دمشق، وإلاّ، فإنه سيضطر لتسليمها الى الافرنج، عند تأخرّ عماد الدين عن المجيء.

فما كان من هذا الأخير، بعد تبلّغه الرسالة، إلاّ أن هبّ مسرعاً ملبيّاً الطلب. وفي طريقه الى دمشق، استردّ مدينة حماة؛ وفي تلك الأثناء نمي الخبر، الى بعض الأشخاص، وعَلِمت به والدة اسماعيل،

(١) إبن الأثير - الكامل - ج١١ - ص٨.

زمرّد خاتون، التي كانت تبغض إبنها هذا وتعمل على أن يصير الملك الى إبنها الآخر: شهاب الدين محمود، فجمعت بأسرع ما يمكن من الوقت، أكابر المدينة وأغلبهم من الموتورين، واتفقت معهم على اغتيال اسماعيل، ورصدت له نفراً من غلمانها، فقتلوه غيلة.

وهكذا تولّى مكان إسماعيل في دمشق، أخوه شهاب الدين محمود، تحت وصاية أمه (١٤ ربيع الآخر ٥٢٩ هـ). أما عماد الدين زنكي، فكان وقت حدوث هذا الانقلاب. قد عبر الفرات، ووصل الى ظاهر دمشق، ونزل بأرض عذراء، في عسكر كثيف (جمادي الآخرة ٥٢٩ هـ). وكان قد انضم إليه، أثناء اقترابه من دمشق، صاحب حماه: شمس الخواص.

وفرّق عماد الدين عسكره، في عدة مواضع لحصار المدينة، والتضييق عليها.

إلاّ أن الحصار، الذي ضُرب على دمشق، لم يؤثر بها، إذ أن معين الدين أُنّر، مملوك طغتكين، تولّى الدفاع عنها، وقام بحفظها القيام التام.

فلم يرَ عماد الدين عند ذاك، بُدّاً من المصالحة مع أهالي المدينة، والرحيل عنها، بعدما فاتت الفرصة عليه، فلم يتحقق أمله فيها، وعاد الى حلب.

على أن عماد الدين، أراد أن يعتاض عن دمشق، بانتزاع بعض حصون الأفرنج منهم، فهاجم الاثارب وزردانة ومعرّة النعمان وتلّ أُغدي، وكفرطاب. واستولى عليها (٥٣٠ هـ - ١١٣٥ م)، ثم رجع الى الموصل. وقام نائبه في حلب، الأمير سوار، بعد ذلك، باجتياح بعض مقاطعات الأفرنج في أنطاكية، حتى اللاذقية، وإشعال النار فيها، وسلبها ونهبها، وسبي عدد كبير من الأسرى، من رجال ونساء، ويقال إنه أحرق مائة قرية من قراهم (٥٣١ هـ - ١١٣٦ م).

الفصل الثاني عشر

سقوط مدينة الرها بيد عماد الدين

كان الملك فولك دانجو، في سنّ الأربعين، عند تنصيبه ملكاً على القدس، بعد وفاة بودوان الثاني (١٤ أيلول ١١٣١ م)، ويكبر زوجته الملكة ماليزاند، بعدة سنوات، وقد أضطرّت هذه، للزواج منه، في سبيل مصلحة العرش، إذ كانت قبل زواجها به، على صداقة مع كونت يافا الشاب: هوج دي بويزه (Hugues Du Puiset)، الذي كان من المقرّبين للملك الراحل بودوان الثاني، ويمتّ إليه بصلة القرابة.

وبعد زواج الملكة ماليزاند، بقي هوج يتردد عليها، بصفته رفيق صباها، وكثر تردّده، بحيث انتشرت الأقاويل والشائعات بحقها، فاهتم الملك بذلك، وغضب على الكونت الشاب، وراح يكيد له.

كما أن هوج من جهته، لما شعر بموقف الملك منه، وخشي العاقبة، وما يحيط به من أخطار، عمد الى اجتذاب، فريق من البارونات إليه، للعمل ضد الملك، ممّا أدّى الى انقسام نبلاء المملكة، الى فئتين: إحداهما تؤيد الملك، والثانية، تؤازر كونت يافا.

وذات يوم، فيما كان مجلس الملك يغصّ بالحضور، من كبار البارونات ورجال الدين، برز أحدهم، وهو كونت قيسارية الشاب، المحازب للملك، وراح يوجّه كلامه لكونت يافا، متهّماً إياه بالخيانة، وبالدسّ لإغتيال الملك، ثم تحدّاه لقبول المبارزة الفردية، فلم يسع هوج دي بويزة، الاّ قبول التحدّي.

وعُيِّن يوم للمبارزة، فتهرّب هذا الأخير من النزال خوفاً من مقابلة خصمه.

فما كان من مجلس البلاط، إلاّ أن أصدر قراراً باعتبار هوج مذنباً ومتلبساً بالخيانة، فخشي سوء العاقبة وهرب ملتجئاً الى مدينة عسقلان الفاطمية؛ حيث وضع نفسه بتصرّف قائد موقعها.

في حين ان الملك توجّه الى مدينة يافا، ففتح له أهاليها أبوابها، لتأثرهم من سوء تصرف هوج، واجتمع فولك بالحزب الموالي للكونت، وتم الاتفاق بينهم جميعاً على اصدار قرار بنفي هذا الأخير من كونتيته لمدة ثلاث سنوات، على أن يُضرب صفحاً عن خيانته.

وبدلاً من أن يمتثل الكونت لهذا الاتفاق وينفذه، بذهابه الى إيطاليا، بعيداً عن أعين الملك، دفع به تهوّره للعودة الى القدس، كأن شيئاً لم يكن: فالتقاه أحد الفرسان من بريتانيا، في سوق المدينة وعرفه، وبادره بعدّة طعنات من سيفه محاولاً قتله. فأصابه بجراح غير قاتلة. وعند ذاك راحت الألسن تلهج بأن الملك فولك، هو الذي دفع الفارس البريتاني لهذا العمل وكادت أن تحدث فتنة في المدينة، فحوكم المعتدي وقضي عليه بالقتل، بعدما نفى أن يكون للملك أية علاقة بالحادث.

وبعد شفاء كونت يافا من جراحه، ترك بيت المقدس ولجأ الى صقليّة حيث وافته المنية هناك.

وما أن علمت الملكة ماليزاند، بوفاته، حتى ثار ثائرها، وانقلبت الى لبوءة هائجة، لا يقف بوجهها شيء، وأخذت تعمل على الانتقام من اخصام حبيبها، فرداً فرداً، وتهدّدهم بالويل والثبور وعظائم الأمور، فهابوها وتحاشوها حتى إن زوجها الملك فولك نفسه، بات يشعر، بأن حياته مهدّدة في كل آن ومعرّضة للخطر، فخاف على نفسه، ممّا حمل العقلاء في المملكة، لتدارك الأمر، فبذلوا جهودهم للسعي بالتوفيق بينه

وبين الملكة، فقبلت ماليزاند، بذلك، ولكن ضمن شروط فرضتها على الملك، ونزل عند مطاليبها.

وهكذا صارت الملكة تبدي رأيها في كل أمور الدولة. بحيث لا يجري تقرير شيء فيها الاّ بمشورتها وإرادتها. حتى إنها دفعت بالملك للموافقة على إعادة شقيقتها (أليس) الى الوصاية على إمارة أنطاكية (١١٣٥م) بعد ما كانت حرمت منها سابقاً.

إلاّ أن (أليس) عادت وفقدت تلك الوصاية، نتيجة لزواج إبنتها الصغيرة: كونستانس، بريموند إبن غليوم التاسع دي بواتير، دوق أقيتانيا، الذي اكتسب إمارة أنطاكية بحكم زواجه هذا.

وفي أثناء وصاية الأميرة: أليس، على إمارة أنطاكية عمد عماد الدين زنكي، الى مهاجمة حصون أثارب وزردانة ومعرّة النعمان وتل أُغدي وكفرطاب، وأخذها كما مرّ بيانه آنفاً.

في نهاية شهر آذار سنة ١١٣٧م - ٥٣٢هـ وبينما كان صاحب طرابلس: الكونت بونس - يقوم بحملة، ضد جيش حلب، الذي يقوده، بَزْواج، وقع أسيراً بيد هذا القائد، فقتله بعض المتطوّعة من المجاهدين، فخلفه إبنه ريموند الثاني.

وفي السنة ذاتها، قام عماد الدين زنكي، بمهاجمة مدينة حمص، التابعة لدمشق، وبها صاحبها: معين الدين أُنُر، ففشل ولم يظفر بها، لأن الملك فولك دانجو، زحف بجيشه نحوها لردّه عنها، وعند اقترابه منها، انسحب عماد الدين (حزيران ١١٣٧م - ٥٣٢هـ) متجهاً صوب بعرين (Monferrant)، الواقعة شمالي شرقي حصن الأكراد، وحاصرها، وهي للأفرنج، وضيّق عليها.

وقد استعان أمير طرابلس أيضاً بالملك فولك، الذي انكفأ مسرعاً لنجدته، وبوصولهما الى قرب جبال العلويين، داهمهما جيش عماد الدين،

واصطدم الجميع بمعركة شديدة، حلّ الظفر بنتيجتها في ركاب الجيش الاسلامي، فأسر من الأفرنج قسم كبير.

في حين تمكن الملك، من دخول القلعة مع القسم الآخر من جيشه، ومن هناك أرسل يستنجد بأميري الرها وأنطاكية، وببطريرك القدس.

وقبل وصولهم اليه، اضطر الملك، لتسليم القلعة المذكورة الى عماد الدين، الذي كان حصره فيها، فقبض عليه مع أمير طرابلس، ريمond الثاني (١٠ - ٢٠ آب ١١٣٧م - ٥٣٢ هـ).

غير أن اقتراب النجدة الى الأفرنج، أهاب بعماد كدين لقبول صلح. من شروطه، إطلاق سراح الأسرى وتركهم أحراراً، مقابل إعادة أربعة مراكز مهمة، تابعة لأمارة طرابلس، الى المسلمين، ومن جملتها قلعة بعرين ورفانية، بالإضافة الى مبلغ قدره خمسون ألف دينار.

في ذلك الحين، كان الامبراطور البيزنطي: جان كومنين قد مضى متجهزاً من بلاده، فهاجم بعض مراكز الأتراك واستعادها منهم، وضمّ مقاطعة قيليقية الأرمنية، الى أمبراطوريته (تموز ١١٣٧م). ثم انحدر صوب أنطاكية وحاصرها (٢٩ آب ١١٣٧م)، بغية إرغام أميرها، ريموند دي بواتير، على الإعتراف بتبعيته له. فلم يسع هذا الأخير، سوى الانحناء للقوة مرغماً. فعرض عليه الامبراطور عندئذٍ، مؤازرته، في سبيل الاستيلاء على المدن الاسلامية: حلب وشيزر وحماه وحمص، بحيث تعطى هذه المدن عند فتحها الى ريموند، مقابل تخليه للامبراطور عن أنطاكية، وذلك تنفيذاً للعهود السابقة، التي لم يحترمها الأفرنج، وخصوصاً أمراء أنطاكية السابقون.

وقبل أن يقدم ريموند على عمل ما بهذا الشأن، أرسل مبعوثيه الى الملك فولك، بصفته تابعاً لهذا الأخير، يسأله النصيحة والارشاد، ليقرّر على ضوء ذلك، موقفه من الامبراطور.

فأجابه الملك بالموافقة على ما يطلبه جان كومنين، على اعتبار أن حقوق الامبراطورية البيزنطية التي كان الصليبيون السابقون تعهدوا بالمحافظة عليها، لمصلحة الامبراطور ألكسيس كومنين، لا تزال قائمة، وهي لا تسقط بمرور الزمن.

وهكذا، وبناء لذلك، قام جيش الروم بالإشتراك مع جيش الأفرنج، الذي كان تحت قيادة ريموند دي بواتير وجوسلين الثاني امير الرها، باجتياح أراضي امارة حلب، حيث استولى المهاجمون على بزاغة وأقاموا فيها عشرة أيام (وهي على ستة فراسخ من مدينة حلب)، فتنصّر قاضيها وأربعمائة نفس من أهلها[1]، ثم رحلوا عنها الى الأثارب وملكوها، وبعدها اتجهوا نحو شيزر، فحاصروها مدة (٢٤) يوماً، ونصبوا أدوات الحصار عليها، وأطلقوا على أسوارها المنجنيقات عشرة أيام متواصلة دون جدوى، ومنعوا الماء عنها فلم تستسلم، بل زادت صلابة المدافعين عنها ومقاومتهم، مظهرين من ضروب الشجاعة والتفاني ما يرفع الرأس عالياً.

وقد أرسل صاحبها: أبو العساكر سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني، الى عماد الدين زنكي يستنجد به، فسار هذا ونزل على العاصي بين حماه وشيزر، حيث كان يشرف على الروم والأفرنج المحاصرين للمدينة، فيرسل السرايا، عليهم، فيأخذون كل من يظفرون به منهم، مما حمل الأعداء، على رفع الحصار عن شيزر والعودة الى أنطاكية بدون طائل.

ولاحقهم عماد الدين، فظفر جيشه بعدد كبير ممّن تخلّف منهم - والواقع أن أمير أنطاكية، ريموند دي بواتير، لم يكن متحمّساً لأخذ

---

(١) أبو الفداء: المختصر في اخبار البشر - مجلد(٢) جزء(٥) ص(٢٠) - حوادث سنة ٥٣٢ هـ.

المدن الاسلامية المتفق عليها، مع امبراطور الروم، إذ أن استلامه لها، يعني تسليم أنطاكية لهذا الأخير بالمقابل.

وكان أمير الرها جوسلين الثاني يجاري ريموند في تفكيره هذا، وهما بالرغم من خصوماتهما، لا يقرّان سلطة البيزنطيين على أنطاكية. فكانا وقت حصار مدينة شيزر، يستنكفان عن معاونة الامبراطور البيزنطي في عملياته الحربية، كما كانا يسخران منه، للحماس الذي يظهره في تلك العمليات ويتركانه ليقضيا أوقاتهما في خيمتهما يشربان ويلعبان النرد والشطرنج دون المبالاة بنتيجة الحصار الملقى. إذ لم يكن من مصلحتهما فوز الامبراطور في تلك الظروف لأن فوزه لا بدّ أن يؤدي الى تسلّطه على أنطاكية وسواها من المدن.

وبعد دخول الامبراطور البيزنطي، مدينة أنطاكية، وارتياحه من عناء الحرب، طلب من ريموند دي بواتير، تسليمه المدينة، وفقاً للاتفاق، فعمد هذا الأخير، الى المماطلة، وأخذ بالاتفاق، مع جوسلين الثاني، يعملان على تحريض أهالي البلد اللاتين بالسرّ، للقيام بالثورة ضد البيزنطيين، بداعي المحافظة على حقوقهم فيها، وعدم تسليمها لهم، فهبّ الأهالي هبّة الرجل الواحد، وهاجموا الجيش البيزنطي، مثيرين الشغب بين السكان، بحيث انتشرت الفوضى، وعم الاخلال بالنظام في كل مكان.

فعلم الامبراطور بالأمر، وتحقق له بأن المسألة ليست بالسهولة التي كان يأملها، فاضطر، منعاً للاحتكاك بالافرنج، لاخلاء الجوّ لهم، والانسحاب من أنطاكية، عائداً الى بلاده، والغيظ يتأكل صدره.

يقول رينه غروسيّه في كتابه: ملحمة الحروب الصليبية، بصدد هذه الحادثة[1]:

---

(1) Rene Grousset: L'Epopeé des croisades p. 158.

[إن تصدّع العلاقات من الوجهة المعنوية، بين الأفرنج، والبيزنطيين، قد بات أمراً واقعاً لسوء حظ بين الفريقين، ولمصلحة الاسلام وحده]. وكان من مغبّة هذا الخلاف بين الامبراطور البيزنطي جان كومنين، وبين الأفرنج، أن أتاح لعماد الدين زنكي العودة لمواصلة مضايقاته بوجه هؤلاء الاخيرين وبوجه الحكّام المسلمين معاً، في سبيل تحقيق فكرته، الأساسية الهادفة الى أخذ مملكة دمشق، بغية التقوّي بها على الجهاد ضد الافرنج.

وعلى ذلك، فقد رأى زنكي أولاً، أن يستميل الدمشقيين بوسيلة أخرى، غير الحرب، فأرسل يخطب لنفسه، والدة صاحب دمشق شهاب الدين محمود، وهي الخاتون، صفوة الملك زمرّد، إبنة الامير جاولي، وأرملة بوري بن طغتكين.

وترددت المراسلات بينه وبين شهاب الدين محمود، بهذا الشأن، الى أن تم الاتفاق بينهما، ووافقت الوالدة على الزواج، فجرى العقد بحضور وكيل الخطيبة المنتدب منها لهذه الغاية، وزُفت الى زوجها عماد الدين زنكي، يوم الإثنين (في ١٧ رمضان ٥٣٢ هـ).

وكان من شروط عقد الزواج هذا، ان تتنازل العروس عن مدينة حمص للعريس، فجرى ذلك وتسلّم عماد الدين هذه المدينة مع قلعتها، وكان على ولايتها، الوزير، معين الدين أُنُر. فعوّضه عنها بحصن بعرين أو (بارين) وأقامه نائباً عنه في حمص نفسها.

ولكن أُنُر لم يكد يدخل حمص حتى تركها وعاد الى دمشق، حيث عمد الى تدبير اغتيال شهاب الدين محمود، وذلك بوساطة ثلاثة من خواص غلمان هذا الأخير، وأقرب الناس اليه، وهم الذين يحرسونه عند نومه، ونجحت المؤامرة وقُتِل شهاب الدين بيد حرّاسه الأدنين، الذين، لاذوا بالفرار بعد اقترافهم جريمتهم النكراء، فقبض على إثنين منهم

وصلبا ونجا الثالث. وعندها استدعى أُنُر صاحب بعلبك: جمال الدين محمد بن بوري (وهو أخو شهاب الدين محمود)، للحضور الى دمشق، فحضر وتولّى ملكها (شوال ٥٣٣ هـ) وكان أُنُر قد تزوج بأم جمال الدين محمد. وثارت ثائرة صفوة الملك زمرّد خاتون، لمقتل إبنها، وطلبت من زوجها عماد الدين، الانتقام له، فاستجاب لها، وكان ينتظر مثل هذه الفرصة، لمعاودة المطالبة بدمشق. ولذلك فقد مضى الى حمص، واستعادها من نائب أُنُر.

ثم أرسل عماد الدين، الأمير سواراً الى حلب بالامداد، خوفاً من هجوم مفاجيء للأفرنج عليها، وتابع سيره، الى بعلبك، وحاصرها (ذي الحجة ٥٣٣ هـ). ونصب عليها أربعة عشر منجنيقاً، جعلت ترمي البلدة ليل نهار. فطلب الأهالي فيها، الأمان من عماد الدين، فأمّنهم، فسلّموه إياها، واستمرّ الحصار على قلعتها التي ثابرت على المقاومة، الى أن طلب المقاومون الأمان أيضاً، بعدما تحققوا من عدم إمكان وصول نجدة إليهم من أُنُر، فأمّنهم عماد الدين وتسلّم القلعة.

وبالرغم من أخذ العهود عليه، بترك الحامية المقاومة، تذهب أين تشاء، فقد أخلف زنكي بوعده، وقتل أفراد تلك الحامية بكاملهم، ما عدا الحاكم فأطلقه (٥٣٤ هـ - تشرين الأول ١١٣٩ م).

ومن ثم تابع زحفه نحو دمشق، فنزل في داريا. (١٣ ربيع اول ٥٣٤ هـ)، وأرسل يطلب الى جمال الدين محمد، تسليمه المدينة، ويأخذ عوضاً عنها، ما يقترحه، فلم يجبه الى طلبه.

ولما خرجت طلائع الجيش الدمشقي لمقابلة جيش عماد الدين، هزمها هذا الأخير، ثم تقدم الى المدينة، من ناحية المصلى، فأعمل السيف بالدمشقيين ففرّوا، وكان بمقدوره الدخول إليها، فلم يفعل، مفضلاً أخذها بدون الامعان في إراقة الدماء والعنف، وعند ذاك، رأى جمال

الدين محمد، أن من المصلحة، قبول عَرض زنكي، وأراد أن يستجيب له، غير أن معين الدين أُنُر والمقدّمين والمستشارين، عارضوا بذلك، بسبب ما سبق وأقدم عليه عماد الدين، من غدر بأهل بعلبك، وسواهم.

وفيما كانت المفاوضات والمباحثات، آخذة مجراها بهذا الشأن، توفي جمال الدين محمد (٨ شباط ٥٣٤ هـ) وما أن علم عماد الدين بتلك الوفاة، حتى زحف على دمشق، آملاً بدخولها سلماً وترحيب الأهالي به. ولكن أمله خاب، وسارت الأمور على غير ما يشتهيه، ذلك ان معين الدين أُنُر، صمّم على المقاومة والدفاع عن المدينة، وسعى لتولية مجير الدين أبق بن جمال الدين محمد على ملكها، بعد أن كان أوفد الأمير أسامة ابن منقذ، رسولاً من قبله الى ملك القدس، فولك دانجو، ليعرض عليه، باسمه، عقد معاهدة تتضمن طلب العون من الملك، ضد زنكي، وذلك مقابل إعادة مدينة بانياس الى الافرنج عند استخلاصها من يد زنكي، ودفع نفقات الحملة التي يقوم بها الملك لمساعدة دمشق، وتسليمه عدداً من الرهائن، ضمانة لصدق التعهّد من قبل أُنُر، بالإضافة الى دفع جزية سنوية، قدرها: عشرون ألف قطعة ذهبية.

وقد اقتنع ملك القدس بما عرضه عليه أسامة، من حيث ان زنكي اذا أخذ دمشق، فسيلاقي الأفرنج كثيراً من الضرر في حال ازدياد قوّتـه بها، وهذا ما جعله يوافق على طلب مساعدة أنر، بحيث هبّ فوراً لجمع جيشه والمضيّ نحو دمشق.

وعند اقتراب جيش الأفرنج من هذه المدينة، اضطر، عماد الدين لرفع الحصار الذي كان ألقاه عليها، والعودة الى حلب، بعدما أحرق عدة ضياع من المرج والغوطة على سبيل الانتقام (٤ أيار ١١٤٠ م - ٥٣٥ هـ) وتنفيذاً لشروط المعاهدة بين معين الدين أنر وملك القدس، تعاون الاثنان على الاستيلاء على مدينة بانياس، وتسلّمها الملك فولك (في حزيران ١١٤٠ م) وكان واليها ابراهيم بن طرغت، قد مضى ناحية

صور، للإغارة عليها، فاصطدم بجيش صاحب أنطاكية، الذي كان قاصداً الانضمام الى جيش الملك فولك، لمعونة دمشق، فقتل إبراهيم في المعركة، ورجع من بقي من أفراد جيشه الى بانياس وتحصنّوا بها ولكنهم اضطروا لتسليمها بعدئذٍ لأُنُر والافرنج.

وعلى إثر ذلك، قام انُر، يرافقه أسامة بن منقذ، بزيارة عكا، والاجتماع بالملك فولك هناك. ثم ذهبا الى طبريا والقدس، وتصادق أسامة مع فرسان الداوية (الهيكيلين): وأخلص أنُر للأفرنج في تحالفه معهم كما اخلصوا له[1] -.

لا ريب أن عماد الدين زنكي، استاء كثيراً من الحلف الدمشقي - الافرنجي، وتهيّبه، فكان ذلك دافعاً له للتريث وتخفيف الوطأة عن مدينة دمشق، مكتفياً ببعض المناوشات السريعة مع الافرنج.

هذا، وفي ذلك الحين، تمكّن الاسماعيلية، من الاستيلاء على حصن مصياف بالشام، وكان واليه مملوكاً لبني منقذ أصحاب شيزر.

وبعد ذلك، وما كاد الملك فولك، يقطف ثمار تحالفه مع أنُر، ويأمن جانب عماد الدين من ناحية حلب، ويخلو الى الراحة، حتى وافته المنية في العاشر من تشرين الثاني ١١٤٣م - ربيع الثاني ٥٣٨هـ).

وذلك أثناء قيامه برحلة لصيد الأرانب، برفقة زوجته ماليزاند، في البريّة، قرب عكّا، إذ كبا به جواده، فدُق عنقه ومات بعد ثلاثة أيام من نزاعه.

وقد خلفه إبنه الأكبر بودوان الثالث، وكان يبلغ آنذاك، الثالثة عشرة من عمره، ووُضع تحت وصاية والدته الملكة ماليزاند.

وقبل ذلك بسبعة أشهر تقريباً، كان قد توفي الامبراطور البيزنطي

---

(1) René Grousset: L'Epopée des Croisades. P. P. 159 - 160.

يوحنا كومنين الثاني، فخلفه على العرش، أخوه مانويل.

وكان هذان الحدثان، بالإضافة الى اشتداد الخلاف والجفاء بين ريموند دي بواتير، صاحب أنطاكية، وجوسلين الثاني، صاحب الرها، مما حدا بعماد الدين زنكي، الى وضع فكرته الأساسية، التي كان يمهّد لها سرّاً، وهي القضاء على إمارة الرها، موضع التنفيذ فوراً، لأن هذه الإمارة، بحكم موقعها، كانت لا تزال تشكل عقبة في طريقه، وتعمل دوماً على تهديد حلب، والتحكم في مصيرها ومصير الموصل.

ولهذه الغاية، خرج زنكي من الموصل، متجها صوب ديار بكر بعسكره (وهي تابعة للأمراء الأرتقيين) لأخذها وضمّها الى بلاده، بُغية تحويل الأنظار عن هدفه الحقيقي، وبالفعل، تمكن عند ذاك، من أخذ، ظنزة وحيزان وحصن الروق، وحصن قطليس، وحصن بتاسا، وحصن ذي القرنين، كما أخذ من بلدمار دين، ما هو بيد الأفرنج: مثل جملين والموزر، وتل موزر، من حصون شخآن[١]. وقد اطمأن بال أمير الرها جوسلين الثاني، حينذاك، ولم يفطن الى الغاية التي استهدفها عماد الدين، من مسيرته الى ديار بكر، فترك الرها، وأقام في قصره بتلّ باشر، على الضفة الأخرى للفرات، حسب عادته، ظناً منه، بأن ابتعاد زنكي عن أراضيه، يجعله في أمان،وانصرف الى لهوه ومجونه وهو خالي البال[٢] -.

وبعد أن أنهى عماد الدين أعماله الحربية في ديار بكر، عطف بسرعة، باتجاه الغرب، ومضى يغذّ السير الى مدينة الرها، .فظهر أمامها فجأة بجيشه العرمرم، وألقى الحصار عليها (٢٨ تشرين الثاني ١١٤٤م - ٥٣٩ هـ). وحينما علم جوسلين الثاني بنبأ الحصار على

---

(١) ابو الفداء: المختصر في اخبار البشر - مجلد(٢) جزء(٥) ص.(٢٥) - حوادث سنة ٥٣٨ هـ.

(2) Zoé Oldenbourg: Les Croisades: p.p. 335 - 336.

مدينته، ارتاع، وأرسل يستنجد بالأفرنج في القدس، وبجاره وعدوّه أمير أنطاكية: ريموند دي بواتير، الذي تجاهل نداءه، إذ كان في قرارة نفسه يحسده ويريد أن يفقد خصمه إمارته ولو بيد المسلمين.

أما ماليزاند، الوصيّة على عرش المملكة في القدس، فقد لبّت النداء، إلاّ ان جيشها لم يستطع الوصول الى الرها في الوقت المناسب.

والواقع أن مدينة الرها كانت حصينة بأسوارها القويّة ولكن بسبب غياب اميرها في تل باشر وقتذاك وعجزه عن مؤازرتها من هناك، فقد تولّى الدفاع عنها، الأسقف اللاتيني: هوج، بالاشتراك مع الأهالي الأرمن.

بيد أن البسالة التي أبداها المحاصرون في مقاومتهم. لم تصمد طويلاً تحت ضربات جيش عماد الدين، فاستسلمت المدينة، بعد ثمانية وعشرين يوماً من الحصار، بعدما هدمت اسوارها. ودخلها المسلمون في الثالث والعشرين من كانون الأول (١١٤٤م - ٥٣٩هـ). وأعملوا السيف في رقاب أهاليها من أرمن وإفرنج، وسقط الأسقف هوج نفسه صريعاً في المعركة.

وما أن بدأ الجنود الفاتحون، بالسلب والنهب في المدينة حتى كان عماد الدين زنكي، قد دخلها، فراعه ما رآه فيها، فأنف لمثلها الخراب، فأمر بأعادة ما أُخذ من مال، وأثاث، ورُدّ السبي من الرجال والنساء والأطفال عن آخرهم، ولم يفقد منهم الاّ الشاذ والنادر[١].

وبعد فراغه من ترتيب الأمور في المدينة، أسرع زنكي واستولى على ما كان بيد الافرنج في إمارة الرها، من مدن وحصون، مثل سروج وغيرها في الضفة اليمنى للفرات، دون أن يلقى مقاومة ذات بال فيها.

---

(١) أبو شامة - الجزء الأول - القسم الأول من كتاب الروضتين ص٩٥.

وهكذا كانت إمارة الرها، هي الأولى من بين الدول الصليبية التي قضى عليها المسلمون بفضل جهادهم، الذي توّجه عماد الدين، بعد الجهود الكبيرة التي قام بها، بهذا النصر العظيم، بحيث فقد الأفرنج، بفقدها جسراً قوياً، كان يمتدّ شرقي الفرات، فاصلاً، بين الموصل وحلب، ومباعداً ما بينهما لمدة نافت عن الأربعين سنة.

وكان لسقوط تلك الأمارة رنة فرح كبيرة لدى المسلمين كافة، كيف لا، وقد أعيدت اليهم بعض ممتلكاتهم التي استولى عليها الصليبيون منذ مجيئهم الى الشرق فتعزّزت بذلك قواهم، وأصبح الطريق أمامهم معبّداً، فما عليهم الاّ مواصلة السير عليه لبلوغ النهاية.

وقد تبارى الشعراء وتغنّوا بفضل عماد الدين على المسلمين. ونظموا في ذلك، كثيراً من القصائد الرائعة، ومنهم:

الشاعر، القيسراني، الذي هنأه عند فتح الرها، فقال من قصيدة طويلة:

هو السيف لا يُغنيك إلاّ جِلادُه
وهل طوّق الأملاك إلاّ نجاده

وعن ثغرِ هذا النصر فلتأخذ الظبا
سناها، وإن فات العيون اتقادُه

سَمَتْ قبة الاسلام فخراً بطوله
ولم يك يسمو الدين لولا عماده

الى أن يقول:

لقد كان في فتح الرهاء دلالة
على غير ما عند العلوج اعتقاده

يرجّون ميـــــــــــلاد ابن مريم نصرة
ولم تُغنِ عنـــــد القوم عنــــــه وِلاده
مـــدينـــة إفـــكٍ منـــذ خمسين حجـــة
يفـــلُّ حـــديـــد الهنـــد عنهـــا حـــداده

وينتهي بقوله:

ومَن كـــان أمـــلاك السموات جنـــده
فـــأيـــة أرض لم ترضهـــا جيـــاده
ولله عزم مـــــــاءٍ سيحـــــــان ورده
وروضــــــة قسطنطينيـــــــة مستراده

وبعد ذلك، مضى عماد الدين، الى قلعة: ألبيرة (وهي حصن على الفرات تابع لإمارة الرها)، وأثناء الحصار عليها أتاه الخبر بقتل نائبه بالموصل والبلاد الشرقية: نصير الدين جعفر بن يعقوب، فرحل عنها، وسيّر إليها، حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي، صاحب ماردين عسكراً، فتسلّمها من الأفرنج، الذين فعلوا ذلك خوفاً من عودة زنكي إليهم فيأخذها منهم[1].

وفي سنة ٥٤٠ هـ - ١١٤٥ م - أرسل عماد الدين، نائبه في الموصل، زين الدين علي بن بكتكين، مع العسكر، الى حصن فَنَك لمحاصرته، بسبب مرض في يده ورجله، عرض له.

وبعد ابلاله من مرضه مضى عماد الدين فحاصر: قلعة جعبر، وأثناء ذلك وفيما هو نائم ذات ليلة في خيمته، دخل عليه جماعة من غلمانه، فقتلوه غيلة، وكان على رأسهم خادمه، برتقش (٦ ربيع الآخر ٥٤١ هـ - ١٥ أيلول ١١٤٦ م).

---

(١) ابو شامة: الروضتين. ق(١). ج(١) ص١٠٣هـ.

واختلف المؤرخون في سبب قتل عماد الدين، فذكر إبن القلانسي، أن القاتل برتقش، انفصل من قلعة جعبر وذهب الى دمشق مُدِلاً بما فعله، وظناً منه بأن الحال على ما توهمّه، فقُبض عليه، وأنفذ الى حلب، ثم حمل الى الموصل وقتل بها[1].

أما أبو الفداء فيقول بهذا الصدد:

[في هذه السنة، أي سنة ٥٤١ هـ سار زنكي ونزل على قلعة جعبر، وحصرها، وصاحبها: علي بن مالك بن سالم بن مالك بن بدران بن المقلّد بن المسيّب العقيلي، وأرسل عسكراً الى قلعة: فَنَك، وهي تجاوز جزيرة إبن عمر، فحصرها ايضاً، وصاحبها: حسام الدولة الكردي البشنوي. ولما طال على زنكي منازلة قلعة جعبر، أرسل مع حسّان البعلبكي، الذي كان صاحب منبج، يقول لصاحب قلعة جعبر، قل لي مَن يخلّصك مني؟ فقال صاحب قلعة جعبر لحسّان: يخلّصني منك الذي خلّصك من بَلَك بن بهرام بن أرتق، وكان بلك محاصراً لمنبج، فجاء سهم قتله - فرجع حسّان الى زنكي ولم يخبره بذلك؛ فاستمّر زنكي منازلاً قلعة جعبر، فوثب عليه جماعة من مماليكه، وقتلوه في خامس ربيع الآخر، من هذه السنة بالليل، وهربوا الى قلعة جعبر، فصاح مَن بها على العسكر، وأعلموهم بقتل زنكي، فدخل اصحابه إليه، وبه رمَق[2]].

وبعد مقتله نقلت جثة زنكي الى الرقة، حيث دُفنت هناك. لقد خسر المسلمون، بقتل زنكي، خسارة كبيرة. إذ كان قائداً شجاعاً، ذاهيبة وسطوة، عادلاً في رعيته ومع خصومه، قويّ الشخصية، حكيماً في سياسته، يقدّر الشجعان وأصحاب الرأي، ويحارب المفسدين، بالإضافة الى كونه تقياً، مواظباً على الفرائض.

---

(١) ذيل تاريخ دمشق. ص - ٢٨٨.

(٢) المختصر في اخبار البشر - مجلد(٢) ج(٥) ص - ٢٧ - ٢٨ - حوادث ٥٤١ هـ.

ويُجمع المؤرخون على تسميته بالشهيد، لأنه قُتِلَ وهو في الحرب، فحقّت له الشهادة.

- الجزء الثالث -

- الحملة الصليبية الثانية -

الفصل الأول

نور الدين محمود وجوسلين الثاني

على إثر مقتل الشهيد عماد الدين زنكي، اقتسم دولته، ابناه: سيف الدين غازي، الذي استولى على القسم الشرقي فيها، وجعل مقرّه الموصل. ونور الدين محمود الذي وضع يده على القسم الغربي، واتخذ من حلب، مركزاً له.

وقد انضم فريق من رجال الشهيد زنكي الى سيف الدين، وفريق آخر، الى نور الدين.

فالأول قرّب اليه، الوزير جمال الدين محمد بن علي، والقائدين صلاح الدين محمد بن ايوب الياغيسياني، وعز الدين أبا أبي الدبيسي، وغيرهم.

والثاني جعل من خواصّه، القادة: نجم الدين أيوب، واسد الدين شيركوه، وسيف الدولة سوار، ومجد الدين بن الداية، وسواهم.

تقول زوى أولدنبورغ: [إن تقسيم مملكة الأتابك زنكي بعد موته، الى قسمين، ولئن كان يضعف ظاهرياً قوة الدولة، انه في الواقع، كان يشكل خطراً آخر على سوريا، لأن نور الدين، الشاب المتحمس، لم يكن مضطراً للتطلّع دائماً نحو الموصل. فكرّس نفسه للاستيلاء على الأراضي المجاورة لحلب][1].

---

(1) zoé Oldenbourg. Les Croisades. P. 338.

ولقد كان لمقتل زنكي، تأثير كبير على مجرى الحوادث، كما سنرى، إذ ما ان علم صاحب دمشق: مجير الدين أبق، بذلك، حتى هبّ فوراً قاصداً بعسكره مدينة بعلبك، فحصرها، وكان بها نجم الدين أيوب بن شاذي، مستحفظاً، فاضطر هذا، لتسليمها له مع القلعة، لعجزه عن المقاومة. وأعطي لقاء ذلك، إقطاعاً ومالاً، فتركها وانتقل الى دمشق وأقام بها (٥٤١ هـ).

اما جوسلين الثاني، فقد عاوده الأمل، بعد موت زنكي، باستعادة عاصمة امارته السابقة: (الرها). فعمل على الاتصال بأهاليها الأرمن، واتفق معهم، على دخولها، ومهاجمة حاميتها التركية.

وفي الموعد المضروب، تقدّم جوسلين مع قسم من فرسانه الذين خلصوا من القتل وقت وقوع العاصمة بيد زنكي، وبوصوله اليها، فتح له الأرمن أبوابها، ولاقوه بالترحاب. فدخلها وقضى على الحامية التركية فيها بمعونة حلفائه (٢٧ تشرين الأول ١١٤٦م - جمادى الآخرة ٥٤١ هـ).

ولكن قلعة المدينة، بقيت بيد الأتراك، فقاوموا فيها وأرسلوا لنور الدين محمود، رسولاً ينبئه بما حدث، كما بعث جوسلين الثاني من جهته، بمندوبيه الى أنطاكية، وبيت المقدس، لطلب الأمداد والمعونة.

وما كان لنور الدين أن يقف مكتوف اليدين أمام ما جرى، فلبّى طلب الحامية التركية واسرع من حلب على رأس جيشه ومن انضاف اليه من التركمان وغيرهم، في زهاء عشرة آلاف فارس، قاصداً الرها. ولما وصل اليها أقام الحصار عليها، فيما كانت الحامية التركية في القلعة، تمطر المحاصرين بسهامها، فتزرع الفوضى بينهم، وتبدّدهم.

وعندما تحقق جوسلين من قوة الحصار، وتراخي مقاومة الأرمن، وتباطؤ الأفرنج بالمجيء لمعونته، حاول الخروج من المدينة، مع اهاليها

الأرمن، واقتحموا جميعاً، جيش المسلمين، بغية اختراقه، والافلات من الطوق، بالهرب، ولكن أين لهم أن ينفذوا؟ وقد أحاطت بهم قوى ذلك الجيش من جميع الجهات بسرعة، وأطبقت عليهم فأبادتهم، ولم يسلم من جيش أمير الرها السابق، سوى قلة ضئيلة من فرسانه، استطاعوا الفرار برفقته لسرعة جيادهم. اما الأهالي الأرمن، الذين وقعوا بيد نور الدين، فقد عوقبوا بمايستحقونه، فهلكوا جميعاً، ومَن لم يُقتل منهم، أُسِر، وبيع رقيقاً في اسواق حلب (٣ تشرين الثاني ١١٤٦م - ٥٤١هـ) وكانت حصيلة هذا الخطأ الذي ارتكبه جوسلين الثاني، بدخوله الرها، بعد فتحها من قبل عماد الدين زنكي، ما ينوف عن الـ(٤٥٠٠٠) ضحية، ما بين قتيل وأسير من إفرنج وأرمن؛ وبعد هزيمته، لجأ جوسلين الثاني الى سُميساط، (Samosate) وتحصّن في قصره على الجانب الآخر، من الفرات.

اما مدينة الرها، فقد خيّم الخراب والدمار عليها، بعد هذه المعركة، فلم يعد يُرى فيها، الاّ جثث الموتى، تحوم حولها الطيور الجارحة وتجوسها الحيوانات الكاسرة. وبعد ان انتهى نور الدين من الرها، التفت صوب مقاطعة أنطاكية، (وكان أميرها: ريموند دي بواتير، قد تلكأ عن مساعدة جوسلين الثاني، نظراً للخلاف السابق المستشري بينهما)، وهاجم مدينة أرتاح أو أرتزي **(Artésie)** الحصينة، في شمالي شرقي العاصي، وتمكن من أخذها (١١٤٧م - ٥٤٢هـ).

ويقول ابن الأثير: إن نور الدين، فتح بالسيف، في سنة ٥٤٢هـ ارتاح وحصن بارة، وبصرفوت، وكفرلاثا.

والواقع أن نور الدين، منذ تسلّمه مُلكه، راح يفكّر، في أخذ دمشق. أسوة بما كان يفكر فيه، والده من قبله، وذلك لأهمية هذه المدينة الكبيرة من حيث موقعها. من الناحية الحربية. والتجارية من

جهة، ولكونها، من جهة ثانية، داخلة في حلف صداقة مع الافرنج.

وقد كان صاحبها: مجير الدين أبق، بادره بالمعاداة مسبقاً، حينما زحف على بعلبك وأخذها من نجم الدين أيوب، كما مرّ بيانه. وقد غضب نور الدين عند ذاك، من موقف مجير الدين وأقدم على تنحية أسد الدين شيركوه عن قيادة حلب (وهو أخو نجم الدين)، وولّى مكانه مجد الدين بن الداية.

لكن نور الدين، بالرغم من كل ذلك، أراد التقرّب والتقارب من حكام دمشق، فتزوّج ابنة معين الدين أُنر، ونقلها الى حلب، بعد كتابة العقد في دمشق، بمحضر من رُسُله المفوضين[1].

ولم يكن زواج نور الدين، ليؤثر في صداقة أُنر مع الأفرنج، إذ ظل معين الدين محتفظاً بحلفه معهم كما سنرى،وفي تلك الأثناء، ثار والي مدينتي بصرى وصرخد (من إقليم حوران، التابع لمملكة دمشق). والمعروف: بألتونتاش، وهو غلام أمين الدولة كمشتكين الأتابكي، وأعلن عصيانه على حكام دمشق، واتّصل من ثَمَّ، بالأفرنج، طالباً مؤازرتهم، ضد أولئك الحكام. وذلك مقابل، تسليمهم المدينتين المذكورتين. فوافقت الملكة ماليزاند، على طلبه، وكانت تدير مملكة بيت المقدس، بالوصاية على ابنها الملك بودوان الثالث، البالغ آنذاك السادسة عشرة من عمره. وبادرت حالاً بتجهيز حملة عسكرية لاقتحام أراضي حوران، بالرغم من معارضة فريق من البارونات، مؤيدي حزب الملك الراحل فولك دانجو، فقد كانوا يعتبرون، أن معاهدة التحالف مع دمشق، ما زالت قائمة، وأن ليس من مصلحة مملكة القدس في شيء، العمل على حرقها. فلم تلتفت الملكة لمعارضتهم، وسَيَّرت الحملة نحو حوران.

---

(١) أبو شامة، كتاب الروضتين. ج(١) ص١٢٩.

وعَلِم معين الدين أُنر، بما جرى بين ألتونتاش والافرنج، فمضى مسرعاً الى حوران، وحاصر مدينتي بصرى وصرخد، (اللتين كان ألتونتاش وقتذاك، قد خرج منهما لملاقاة جيش الأفرنج، فنابت عنه فيهما زوجته). وذلك بعد ان كان قد أرسل معين الدين، الرسل لطلب النجدة من نور الدين، فلبّى طلبه، وحضر الى دمشق، في السابع والعشرين من ذي الحجة ٥٤٢ هـ، ثم توجّه منها الى صرخد، وبصرى حيث اجتمع بمعين الدين، واشترك معه في حصار المدينتين المذكورتين، واستسلمت صرخد، وكانت حملة الأفرنج عند ذاك، قد خرجت من طبرية في شهر ايار ١١٤٧ م متجهة الى الجولان، على شاطىء اليرموك. وعند وصولها الى وادي الزيدي، انضمت اليها جماعة ألتونتاش، ثم اكملت سيرها الى صرخد، حيث علم قادتها بسقوط هذه المدينة بيد أُنر، فتحولوا عنها الى بصرى، وهناك كان نور الدين ومعين الدين يتأهبان لملاقاة الافرنج ومَن معهم، فجرت المعركة بين الفريقين، واستظهرت عساكر المسلمين على الافرنج فانكفأوا متراجعين الى بلادهم، وهم عرضة لسهام المسلمين الذين تعقبوهم في انسحابهم، واكثروا القتل والأسر فيهم، الى ان وصلوا ضمن حدود بلادهم، وكان الملك الفتى بودوان الثالث على رأس هذه الحملة، فلم يشأ مفارقتها عند تراجعها، متحمّلاً تلقّي الضربات معها حتى عاد الى بيت المقدس، يحفّ به وبمن بقوا من جيشه، عار الفشل.

وبعد هذه المعركة استسلمت أيضاً مدينة بصرى لمعين الدين أُنر، فرجع بصحبة نور الذين الى دمشق. بعد ترتيب امورها (٢٧ محرم ٥٤٢ هـ - ١١٤٧ م). لا ريب ان الافرنج ارتكبوا خطأً كبيراً، بموافقتهم على مهاجمة أراضي حوران التابعة لمملكة دمشق، على الصورة التي هاجموها بها. مع ان سياسة الدولة، كانت تقتضي الابقاء على

تحالفهم مع معين الدين أنُر، صديقهم الوحيد، لدى المسلمين. خصوصاً أنهم لم يستفيدوا شيئاً من الوجهة الحربية لهذه الحملة، بل بالعكس، ظهروا بمظهر الضعف تجاه المسلمين بالنتيجة.

أما الخائن ألتونتاش، فانه بدلاً من أن يتوارى خجلاً عن الأنظار، لحقارة عمله، أتى الى دمشق. متوهماً أنه سيلاقي الأمان فيها، ولكن ظنّه خاب، فاعتُقِل في الحال وحوكم، وقضي عليه، بالعذاب وبسمل عينيه، جزاءً وفاقاً لما كان قد أقدم عليه سابقاً، من جرائم ضد أخيه خطلخ. وفي ذلك الحين كان نور الدين، لا يتجاوز الثلاثين من عمره، فلما دخل دمشق أُعجب به الدمشقيون، وتمنّوا له أن يبقى عندهم، نظراً لما سمعوا عنه، وشاهدوه من قوة جيشه، (الذي لم يشاهد أحسن من عسكره وهيئته وعدّته) كما يقول ابو شامة[1]. وهذا ما جعل معين الدين أنُر، يخشى على دمشق، من قوة شخصية نور الدين، فظل على حذر منه، لا يأمن جانبه، بالرغم من كل ما كان يظهره هذا الأخير من حسن نية تجاه والد زوجته.

ومع أن الأفرنج هم الذين خرقوا بنود المعاهدة الجارية بينهم وبين معين الدين، فانه عاد وأرسل اليهم، بعد حملتهم على حوران، يطلب تجديد عرى التحالف التي فصموها، فلم يبدوا أية رغبة في ذلك.

ولم يفت نور الدين موقف أنُر تجاهه، فتجاهله، وترك دمشق، عائداً الى حلب، لمواصلة جهاده، كما كان يفعل والده عماد الدين زنكي طيلة حياته.

---

(١) الروضتين ص١٣٠.

الفصل الثاني

فشل الحملة الصليبية الثانية

كان لسقوط مدينة الرها بيد المسلمين، الأثر الكبير، والدافع الأول، لتجريد الحملة الصليبية الثانية، من الغرب. ذلك ان فقدان أول دولة صليبية، تأسّست في الشرق، سرعان ما أثار قلق اوروبا الغربية، كيف لا، والغربيون كانوا يتوهمون أن دولة الصليبيين في الشرق، لا يمكن زوالها بعدما وصلت اليه من قوة واتساع. ولذلك صُدموا أشدّ صدمة، حينما تناهى اليهم، النبأ السيّء. خصوصاً ان انتزاع إمارة الرها من الافرنج من شأنه ان يؤدي الى إبعادهم عن الجزيرة، ووقف مسيرتهم وتوسّعهم في سوريا، كما من شأنه ان يجعل إمارة أنطاكية، مضطرة للتقهقر عن حدودها أكثر فأكثر، غربي الفرات. فكان لا بد للافرنج، من استرجاع الامارة المفقودة أو الاستيلاء على غيرها من الأمارات الأسلامية، عوضاً عنها، لمواصلة الأحتلال للأرض المقدسة، ولهذه الغاية، بادرت الملكة ماليزاند، فبعثت بأسقف جبلة: هوج، لمقابلة البابا، ومطالبته ببذل الجهد في سبيل تجهيز حملة صليبية كبرى لارسالها الى الشرق. فوافق البابا، أوجين الثالث على ذلك وكلّف (القديس): برنارد، للتبشير بها، والاعلان عنها. فقام هذا بما طُلب منه. وكان لخطبه الدينية الحماسية، واجتماعاته بكبار الشخصيات الغربية، تأثير كبير، بحيث تمكن من إقناع امبراطور ألمانيا كونراد الثالث، للانخراط

في الحملة، بعد أن كان ملك فرنسا: لويس السابع، قد أعلن عن رغبته في حمل الصليب والاشتراك بها.

أما ملك صقلية: روجر الثاني، فانه لم يقتنع بجدوى الحملة، وبقي بعيداً عنها.

وإننا نجتزىء من أقوال (القديس) برنارد، التي ألهبت نفوس المستمعين اليه، ما يأتي:

[لقد زُلزلت الأرض زلزالها، وبدأ ربّ السماء، يخسر أرضه، فماذا تنتظرون؟ ألا فاذهبوا ودافعوا عن أرض خلاصكم، عن أورشليم، مدينة الله، وأم الأنبياء والرسل، ومصدر الايمان، ومجد شعب المسيح][1] الى غير ذلك من الخطب التي فاقت بحماستها وقوّتها، خطب البابا أوربان الثاني، محرّك الحملة الأولى الصليبية.

وقد انتهت الاستعدادات لتلك الحملة الثانية في ربيع عام ١١٤٧ م. فخرج الجيش الألماني اولاً، من بلاده، بقيادة الأمبراطور كونراد الثالث (ايار ١١٤٧ م) والى جانبه، الأسقف: أوتو دي فريزنجن، وهو أخو الأمبراطور من أبيه. وفريدريك دي سُوابْ، ابن شقيق الأمبراطور فريدريك بربروس (العتيد) وهنري دوق النمسا، ووُلف دوق دي سواب. وهرمان، حاكم باد، العسكري. وهنري اسقف تول، وأتيان: اسقف متز (Metz). وغليوم: مركيز دي مونفرات، وسواهم من كبار البارونات. بالاضافة الى ملك بوهيميا: لاديسلاف، وملك بولونيا: بولسلاس الرابع؛ ثم تبعه الجيش الافرنسي، بعد شهر من ذلك، وعلى رأسه الملك لويس السابع، ترافقه زوجته: إليانور الأكيتانية، وعدد من كبار البارونات، منهم: غليوم دي نقر، وتياري دي فلاندر، وهنري

(1) Paul Rousset: Histoire des Croisades. P. 175.

كونت دي شامبانيا، وألفونس جوردان كونت دي تولوز، وروبير كونت دي برش، شقيق الملك. وقبل خروجه من بلاده، سلّم الملك لويس السابع. مقاليد السلطة الى القسّ، سوجر، رئيس دير سان دنيس، ليقوم بتدبير أمور المملكة طيلة مدة غيابه عنها. وقد انضم الى الجيشين، الألماني والأفرنسي، الكثير من زوجات البارونات وبناتهم وخدمهم. كما لحق بها أرهاط من الصعاليك والفقراء والأولاد والحجاج، كما حصل في الحملة الأولى.

وفي الوقت ذاته، كانت ثمة حملة عسكرية، مصغّرة، ألّفتها جماعات من الأنكليز والفلمنديين والفريزونيين، قد تجهزت للتوجه الى فلسطين بحراً، وعند وصولها الى البرتغال، طلب اسقف مدينة بورتو، من قادتها، مساعدة المسيحيين في حربهم ضد المسلمين. فقبلوا واشتركوا في حصار لشبونة (وكانت حرب الاستقلال قد بدأت في إسبانيا). وبقي قسم من تلك الجماعات في بلاد البرتغال بعد ذاك، فيما واصل القسم الآخر منها، رحلته الى بيت المقدس.

إما خط السير الذي سلكه الجيشان الملكيان: الألماني والأفرنسي، بالتتالي، فكان ذات الخط الذي اتخذته الحملة الصليبية الأولى طريقاً لها، أي طريق البلقان، حيث واجهتها ذات العقبات والمصاعب التي لاقتها الحملة السابقة.

وقد وصل الجيش الألماني الى حدود الأراضي البيزنطية، في شهر حزيران من تلك السنة. وعند اجتيازه الحدود وقع شغب ضمن صفوفه، مما دفع بأمبراطور الروم الى إرسال قوة للأحاطة بذلك الجيش، في أثناء سيره خوفاً من وقوع بعض الحوادث.

وفي العاشر من أيلول سنة ١١٤٧ م، حطّ هذا الجيش رحاله في ضواحي القسطنطينية.

أما الجيش الأفرنسي فقد وصل الى القسطنطينية، بعد أربعة أشهر من رحلته من فرنسا، وعند التقاء مقدمته بمؤخرة الجيش الألماني، في الأراضي البيزنطية، قام نزاع بينهما على شؤون التموين. كما وقعت مناوشات بين الجيش الألماني، والبيزنطيين، وكاد الأمبراطور كونراد الثالث، يقدم على مهاجمة القسطنطينية، لولا ان الأمبراطور البيزنطي لم يتدارك الأمر بحكمته.

بيد ان الألمان والأفرنسيين لم يكونوا ليطمئنوا الى نيات الأمبراطور البيزنطي، خصوصاً بعدما علموا بمعاهدة التحالف التي عقدها قبل وصولهم بقليل، مع سلطان قونية التركي. فنعتوه بصفة الخيانة، والهرطقة، بحيث رفض العاهلان الألماني، والأفرنسي، حلف يمين التبعية له.

ومن جهته، كان الأمبراطور مانويل كومنين، يودّ ترحيل الصليبيين عن عاصمته بأقصى ما يمكن من السرعة، فَسَيّر معهم الأدلآء على عجل، وغادر الجيش الألماني، مدينة القسطنطينية الى آسيا الصغرى، قبل الجيش الأفرنسي، (١٥ تشرين الأول ١١٤٧ م). وترك نيقيا، مخترقاً الحدود التركية، وبوصوله الى قرب دوريليوم (أسكي شهر). حيث انفصل عنه الأدلاء البيزنطيون، هاجمه جيش مسعود السلجوقي، سلطان قونية، بعدما أحاط به من كل الجهات، وأعمل فيه السيف والرمح والنبل، حتى كاد يبيده، لولا شرذمة ضئيلة منه، تمكنت من الهرب، وعلى رأسها الأمبراطور الألماني، (٢٦ تشرين الأول ١١٤٧ م - ٥٤٢ هـ).

وتقول زوي أولدنبورغ بصدد هذه المعركة:

[من المؤكد ان الأمبراطور الألماني، قد خسر في هذه المعركة كل جنوده المشاة تقريباً، وكل الحجاج الذين يرافقونه، وقسماً كبيراً من

فرسانه. اما القادة فقد تمكّنوا من الهرب. غير أن الجيش الألماني لم يعد له كيان فعلياً][1].

وقد بلغ عدد الأسرى من الألمان، بالألوف. وبعد هذه الهزيمة المنكرة، عاد الأمبراطور كونراد الثالث الى القسطنطينية، حيث أبحر منها رأساً الى بيت المقدس.

أما فلول جيشه، فقد انكفأت نحو نيقيا، وتابعت مسيرتها بعدئذ، مع الجيش الأفرنسي، من هناك. وما ان علم ملك فرنسا، لويس السابع، بالكارثة التي حلّت بجيش الألمان، حتى عمد الى اتخاذ طريق الساحل، لسيره، ضمن الأراضي البيزنطية، بدلاً من اختراق الأناضول السلجوقي.

ويلاحظ هنا، ان الأتراك، بالأتفاق الضمني مع البيزنطيين، كانوا يلاحقون جيش الافرنسيين ويرشقونه بسهامهم أنّى سار، حتى وصل الى جبال بيسيديا (Pisidie) الواقعة على الحدود التركية البيزنطية.

وهناك حاصروه، بعدما قطعوا الطريق عليه، وحينما شقّوه قسمين، هاجموه، فأصابوه بخسائر، جسيمة، وكاد الملك لويس السابع، أن يقع أسيراً في يد الأتراك، لو لم تسعفه بسالته الفائقة، فتمكن من التخلّص منهم، بعد جهد، وتابع سيره منحدراً مع جيشه، الى الساحل، حتى وصل الى مرفأ: أضاليا، حيث عمد الى اكتراء بعض السفن البيزنطية، بأسعار غالية جداً. وأبحر بها مع فرسانه الى أنطاكية (آخر شباط ١١٤٨م - ٥٤٣هـ)، بعدما ترك القسم الآخر، من جيشه، من مشاة وحجاج في أضاليا، على أن يتبعه هذا القسم، فيما بعد، متى تيسّرت له أسباب النقل البحرية.

الاّ ان تلك الأسباب لم تتيسّر، فلم يستطع هذا القسم من الجيش

---

(1) Zoé Oldenbourg: Les Croisades P. 343.

الأفرنسي، الابحار الى أنطاكية، فكان عرضة للقتل والسلب من قِبل العصابات التركية التي أتت عليه بأكمله.

وكان ذلك، بعلم وتحت أنظار البيزنظيين الذين لم يحرّكوا ساكناً بمدّ يد المعونة له.

وحين وصل ملك فرنسا، مع فرسانه الى إسكلة القديس سمعان، قرب مرفأ السويدية في أنطاكية في /١٩/أذار ١١٤٨م، استقبله هناك، أميرها ريموند دي بواتير، بالترحاب، وكانت زوجة الملك: إليانور الأكيتانية برفقته (وهي ابنة اخت ريموند هذا) ولقد أراد أمير أنطاكية، انتهاز فرصة وجود ملك فرنسا في ضيافته، ليطلب منه، المؤازرة في استعادة ممتلكاته، فيما وراء العاصي، وفي حربه ضد نور الدين محمود صاحب حلب، خصم الأفرنج اللدود. فرفض الملك طلب ريموند دي بواتير، على اعتبار أن واجبه المقدس، يفرض عليه أول كل شيء، الدفاع عن مملكة بيت المقدس، وليس عن إمارة أنطاكية أو سواها.

والمرجّح، كما يقول بعض الكتّاب، ان السبب الذي حدا بلويس السابع، للوقوف هذا الموقف من خال زوجته، هو ما تحقّقه من علاقة عاطفية بين زوجته وخالها، وهذا ما جعله يطلب منها فجأة، مغادرة أنطاكية ومرافقته، للقدس، فمانعت، وأظهرت له رغبتها في الطلاق منه. فلم يأبه بذلك، بل أرغمها بالقوة، على النزول على طلبه، إذ حملها معه ليلاً، رغم إرادتها، وبدون أن يعلم ريموند دي بوايتر بسفره، وسار بجيشه الى بيت المقدس. وهناك اجتمع بالأمبراطور الألماني، الذي كان سبقه اليها. فتدارسا الموقف في البلاد مع الملك بودوان الثالث، ومجلس البارونات، وانتهوا الى عقد جلسة في عكا (تموز ١١٤٨م)، تخلّف عنها صاحب طرابلس، وأمير أنطاكية.

وفي تلك الجلسة، قرر المجتمعون بالأجماع تقريباً، مهاجمة مدينة دمشق، والاستيلاء عليها.

وهكذا أخذت الحملة المؤلفة من فلول جيشي الألمان والأفرنسيين، ومن جيش المملكة اللاتينية في القدس، طريقها الى المدينة الاسلامية الكبيرة، فوصلت الى الغوطة. في الضاحية الجنوبية الغربية منها، فاحتلّتها. ثم شرع الجند الصليبي، في قطع اشجار الغوطة، وهدم القناطر وشبكة أقنية المياه، على ضفاف نهر بردى، وبعد ذلك، ألقى الحصار على دمشق (٢٤ تموز ١١٤٨م - ٦ ربيع الأول ٥٤٣ هـ).

كان صاحب دمشق آنذاك، مجير الدين آبق بن محمد بن بوري بن طغتكين، وليس له من الأمر شيء. إنما كان الحاكم الفعلي للمدينة، هو الوزير. معين الدين أُنُر، الذي تولّى الدفاع عنها، بحنكة ودراية، بعد أن أرسل يستنجد، بالأمير سيف الدين غازي، صاحب الموصل.

ووقف المسلمون، بازاء الجيوش الصليبية وقام أهل البلد، على أسوارها، للحراسة والاحتياط.

وفي اثناء الليل، قدِمت الى معسكر المسلمين، أرسال من فرسان التركمان، ومشاة الأطراف، وأعداد كبيرة من المتطوعين، والمجاهدين، من النواحي المجاورة لدمشق. فاشتدت عزيمة الدمشقيين، بهم.

وأخذ الجميع، يحيطون بالصليبيين، ويرمونهم بالحجارة، ويرشقونهم بالسهام، وهؤلاء متحصّنون خلف متاريسهم لا يجرؤون على تخطّيها.

وفي الوقت الذي كان يدور فيه القتال بين الفريقين، كانت المفاوضات السرّية، تجري بين حكّام دمشق وقادة الأفرنج السوريين، دون علم الصليبيين الغربيين. والظاهر أن هؤلاء الأخيرين، علموا بما

يجري في الخفاء عنهم، ومن وراء ظهورهم، فاستاؤوا من ذلك، وأخذ الخلاف يذر بقرنه بينهم، فبرز عند ذاك الكونت تياري دي فلاندر، يطالب بتملّك دمشق، في حال سقوطها بأيديهم، فتصدّى له، بعض بارونات فلسطين، رافضين طلبه، بحجة أنهم أولى بها منه.

ولسبب ما، أقدمت جيوش الصليبيين على إخلاء ضاحية/الغوطة، ونقل معسكرها، الى جنوبي شرقي المدينة (٢٧ تموز ١١٤٨ م). فتركت المجال والحالة هذه للدمشقيين، للاتصال بالخارج.

وفي تلك الأثناء، كان سيف الدين غازي، قد سار من الموصل، ونزل في مدينة حمص. فأرسل معين الدين أُنُر الى الصليبيين، يهدّدهم بوصول صاحب الموصل، لنجدته، وباستعداده لتسليم دمشق اليه، إن لم يرحلوا عنها.

كما أرسل الى إفرنج سوريا، يخوّفهم من أولئك الصليبيين الخارجين الى بلادهم، ويقول لهم:

[انتم بين أمرين مذمومين: إنْ مَلَكَ هؤلاء الغرباء دمشق، لا يبقون عليكم ما بأيديكم من البلاد، وإن سَلّمت أنا دمشق الى سيف الدين، فأنتم تعلمون أنكم لا تقدرون على منعه من البيت المقدّس. وأضاف بأنه يسلّم اليهم بانياس، إن رحّلوا ملك الألمان عن دمشق] فأجابوه الى ذلك وعلموا صدقه[١].

وقد رفع الافرنج حصارهم عن دمشق، وبدأوا بالانسحاب عائدين الى القدس، وهم اكثر خلافاً من ذي قبل (٢٨ تموز ١١٤٨ م - ١١ ربيع الأول ٥٤٣ هـ).

---

(١) أبو شامة: الروضتين - ج(١) ق(١) ص١٣٨

ولم يسلم جيشهم من سهام المسلمين الذين كانوا يتعقّبونه. في انسحابه، بحيث قضوا على كل من استفردوه منه.

ويقول المؤرخ ميشال السوري:

[إن الغربيين اتهموا صراحة، بارونات القدس، بالخيانة والرشوة في هذه الحرب، محدّداً بأن الرشوة صدرت من معين الدين أُنُر، الذي دفع لمجلس البلاط في القدس، مبلغاً يُقدَّر بمائتي ألف دينار، وبأن صاحب طبرية أخذ مائة الف دينار. وكان قسم كبير من تلك الدنانير مزيّفاً[1].

ولقد بدت الحملة الصليبية الثانية الفاشلة، وكأنها نكبة أصابت الصليبيين في الشرق. إذ انها قضت على كل أمل لهم في الاعتماد على أوروبا، لامدادهم بالعون، والمساعدة في المستقبل، بعدما فقدوا الثقة، بأولئك الغربيين، الذين لا يعرفون كيف يتصرّفون، عند مجيئهم الى الشرق.

كما كان من نتيجة تلك الحملة، أن أخذ المسلمون يستضعفون قوة الصليبيين، ويتحدّونهم، أينما كانوا، ليقينهم بأن أوروبا لن تحاول مرة أخرى، تجريد حملة صليبية ثالثة في القريب العاجل.

وهكذا غادر أمبراطور المانيا، كونراد الثالث، ميناء عكا في الخامس من ايلول ١١٤٨م - ٢١ ربيع الثاني ٥٤٣هـ، الى القسطنطينية، ومنها الى وطنه. ثم تبعه ملك فرنسا لويس السابع في اوائل صيف سنة ١١٤٩م عائداً الى بلاده، وكل من العاهلين غير مرتاح للحملة التي قام بها.

ولم يبق في الأرض المقدسة من الحملة الاوروبية الثانية، هذه، إلاّ الكونت برتراند وشقيقته، ولدا الكونت دي تولوز: ألفونس جوردان

---

(١) Zoé Oldenbourg: Les Croisades. P. 350

(الذي كان قد توفي مسموماً في قيسارية).

وكان السبب في بقائها في الشرق، هو الانتقام من ابن عمها: ريموند الثاني، أمير طرابلس، لاعتقادها بأن له يداً في قتل والدها. فأعلنا عليه الحرب وهاجماه في إمارته. فطلب معونة نور الدين، ومعين الدين أُنُر. فلبيا طلبه وأعاناه: ووقع برتراند وشقيقته، أسيرين في يد نور الدين (٥٤٤ هـ - ١١٤٩ م). وبقيا في اسره مدة اثنتي عشرة سنة في حلب.

كانت أنباء فشل الحملة الصليبية الثانية قد هزّت أوروبا بأجمعها. فثار الرأي العام المسيحي عند ذاك ضد (القديس) برنارد، لكونه المسؤول الروحي عنها. وراح الناس هناك، يسألونه، كيف يسمح الإلّه، بتحقيق النصر للأعداء، والفشل للمسيحيين في حملتهم الصليبية تلك، وهي قد رُفِعت رايتها باسمه ولمجده؟ وحاول (القديس) برنارد، تبرير نفسه، فألقى المسؤولية على غيره، مؤكداً بأنه إنما عمِل بوصفه خادماً للبابا، وواعظاً للكنيسة. وقال في كتابه المسمى: الاعتبارات (De Considératione):

[إن حكم الله حق، وسَعيدٌ من يناله هذا الحكم. دون وقوعه بالزلل. ألم يُخطىء الصليبيون. كما أخطأ العبرانيون من قبل؟ إن ذلك هو الخطأ الذي أعطى تلك النتائج الوخيمة. فالصليبيون إذاً هم المسؤولون عن فشلهم في الحملة الصليبية. ولا يحسبنّ أحد ان تلك الحملة أتت في ظروف غير ملائمة. كلاّ بل إنها لَعَمل جيد، وإن عدم نجاحها، إنما يعود الى عدم جدارة الصليبيين الذين قاموا بها].

وقد كان من نتيجة فشل الحملة الصليبية الثانية، أن خلا الجوّ لنور الدين. فلم يعد أمامه سوى إفرنج سوريا يقارعهم ويقارعونه. غير ان

الأحوال السياسية بين هؤلاء والدمشقيين قد عادت فتحسنت: وتوثقت عرى العلاقات بينهم مجدداً، فتوقفت الحرب معهم.

وكان ذلك، بعد ان أغار معين الدين أُنُر على أعمال الافرنج، فضايقهم الى أن ألجأهم لطلب الصلح (أواخر سنة ٥٤٣ هـ). ثم تجددت المهادنة بين الفريقين لمدة سنتين.

وكان نور الدين ايضاً، قد توجه الى أفامية، بعد رحيل الصليبيين عن دمشق، فظفر بعدة حصون ومعاقل إفرنجية. فقصده أمير أنطاكية حيث هو، واشتبك معه بمعركة هزمه فيها، فعاد الى حلب.

وعلى إثر ذلك، اعتقد ريموند دي بواتير، بأن نور الدين، ليس بالخصم الذي لا يُغلب. فصمّم على مهاجمته في عقر داره، دون طلب المعونة من إفرنج القدس أو طرابلس. فمضى يعيث في أعمال حلب، على رأس جيش مؤلف من (٤٠٠) فارس و(١٠٠٠) من المشاة.

وفي ذلك الوقت، كان نور الدين قد أرسل الى معين الدين أُنُر، يعلمه بذلك، ويطلب منه المعاضدة والمؤازرة. فندب اليه أُنُر، القائد مجاهد بن بُزان بن مامين، في قسم وافر من العسكر الدمشقي، لملاقاته في ظاهر حلب. بينما بقي معين الدين، مع باقي العسكر، في ناحية حوران.

هذا، وكان الخليفة العباسي المقتفي آنذاك، قد أوفد من قِبله، الأمير شمس الدين ناصح الاسلام، محمد اِبن عبد الله الحسيني، الذي قدم الى دمشق، بمهمة شخصية، تتعلّق بحضّ الولاة وطوائف التركمان، على الجهاد ضد الافرنج. ومساندة نور الدين.

ولما اكتمل جمع العساكر الاسلامية، البالغ عددهم الستة آلاف فارس، سوى الأتباع والسواد، نهض بهم نور الدين، الى الموضع المعروف:

بأنّب بالقرب من معرّة النعمان (Fonz Murez)، حيث تصدّى لريموند دي بوايتر، أمير أنطاكية، بعدما جرّه الى المعركة التي أرادها له، في ذلك الموضع.

وما هي إلاّ جولات وجولات، حتى ظفر المسلمون باعدائهم وكسروا جيشهم شرّ كسرة. ولم ينج منه الاّ القليل. ووُجد ريموند دي بواتير نفسه، بين القتلى، بالاضافة الى كثير من الفرسان، بما فيهم: رينو صاحب مرعش، (وهو صهر جوسلين الثاني أمير الرها السابق)، والزعيم الاسماعيلي، علي بن وفاء (٢٩ حزيران ١١٤٩م - ٢١ صفر ٥٤٤ هـ).

وقد سُلّم رأس أمير أنطاكية، بعد فصله عن جثته، الى نور الدين، فوصَل حامله بأحسن صلة. وبعث بقسم من الأسرى، الى الخليفة العباسي في بغداد، وبقسم آخر الى سيف الدين غازي في الموصل[١].

ثم بعد الموقعة، أسرع نور الدين بعسكره الى أنطاكية، وطلب من أهاليها تسليمه المدينة، فيصون أرواحهم وأموالهم.

وقد كادوا أن يفعلوا، لولا معارضة البطريرك: أيمري دي ليموج، الذي أخذ يماطل، ويستمهل نور الدين، للجواب، أملاً بالتحقق مما إذا كان سيتلقّى نجدة من ملك القدس. أم لا؟ فلم يرَ نور الدين بداً من إمهاله.

- وإذ كانت المفاوضات آخذة مجراها، انتهى الخبر الى نور الدين، بقيام ملك القدس بودوان الثالث، من ناحية الساحل لنجدة أنطاكية، فما كان منه إلاّ ان ترك محاصرة المدينة، وراح يجوس في أراضي تلك الامارة الافرنجية.

---

(١) أبو شامة: الروضتين: ج(١) ق(١) ص١٥٠ - ١٥١. وايضاً:
- Zoé Oldenbourg: Les Croisades. P. P. 353, 357.

وكان نور الدين قبل ذلك قد كلّف الأمير صلاح الدين، في فريق من العسكر، لمنازلة حصن أفامية. ففعل وتسلّم الحصن بالأمان (١٨ ربيع الأول ٥٤٤ هـ - ١١٤٩ م) وبالنتيجة تمكن نور الدين من الاستيلاء على ما حول أنطاكية، من الحصون والقلاع والمعاقل. حتى تمّ الصلح بينه وبين الأفرنج على أن تكون المراكز القريبة من حلب، ضمن ملكيته، والقريبة من أنطاكية ضمن ملكيتهم.

وقد وافق ملك القدس بودوان الثالث، على هذا الاتفاق، مُكرهاً، بسبب قيام مسعود السلجوقي عند ذاك، بمهاجمة ممتلكات الافرنج في الفرات.

وبعد مقتل أمير أنطاكية، تولت أرملته كونستانس، زمام السلطة في الامارة، بوصايتها على ولدهما الصغير: بوهمند الثالث.

في تلك الأثناء، توفي الوزير، معين الدين أُنُر في دمشق في الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٤٤ هـ.

ثم في أواخر جمادى الآخرة من السنة ذاتها، قضى نحبه الأمير سيف الدين غازي، صاحب الموصل. وخلّف ولداً ذكراً عاش في كنف عمّه نور الدين، وتزوّج بابنة عمه قطب الدين مودود، الذي تولّى الموصل، بعد وفاة شقيقه سيف الدين.

على أن ايام ابن سيف الدين لم تطل كثيراً، فوافاه أجله في عنفوان شبابه فانقرض به عقب والده.

ولما كان نور الدين، يعتبر نفسه مسؤولاً، قبل غيره، عن سلامة المسلمين، وجهادهم ضد الافرنج، ويرى ان حكام دمشق مقصّرون في القيام بما يقتضيه عليهم الواجب، من نصرة اخوانهم في الدين، فقد

أخذ ينتهز الفرصة، في كل حين، للاستيلاء على دمشق، في سبيل تقوية مركزه، تجاه الأعداء.

وفي أحد الأيام، علم نور الدين بوجود الافرنج في نواحي عسقلان، فعزم على صدّهم، وكتب الى مجير الدين أَبَق، صاحب دمشق، من الموضع الذي كان نزل فيه، بجسر الخشب، المعروف بمنازل العساكر، جنوبي مدينة دمشق، رسالة يقول له فيها:

[إنني ما قصدت بنزولِ هذا المنزل طلباً لمحاربتكم، ولامنازلتكم، وإنما دعاني الى هذا الأمر، كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران، والعربان، بأن الفلاحين، أخذت أموالهم، وسُبِيت نساؤهم وأطفالهم، بيد الافرنج، وعدم الناصر لهم. ولا يسعني، مع ما اعطاني الله، وله الحمد، من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين، وكثرة المال والرجال، أن أقعد عنهم، ولا أنتصر لهم، مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذَبّ عنها، والتقصير الذي دعاكم الى الاستصراخ بالافرنج على محاربتي، وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلماً لهم وتعدّياً عليهم. وهذا ما لا يرضي الله تعالى، ولا أحداً من المسلمين. ولا بدّ من المعونة بألف فارس مَزاحيِ العلة. تُجرّد مع مَن يوثق بشجاعته من المقدّمين لتخليص ثغر عسقلان وغزة].

فكان جواب صاحب دمشق، على هذه الرسالة بما يلي:

[ليس بيننا وبينك الاّ السيف، وسيوافينا من الافرنج ما يُعيننا على دفعك إن قصدتنا ونزلت إلينا].

لم يرَ نور الدين عند ذاك، بُدّاً من الزحف على دمشق لمنازلتها، فقد تحقّق من أن مجير الدين أبق، لن يتورع عن تسليم المدينة للافرنج، نكاية به، خصوصاً، ان طلائع جيش هؤلاء الأخيرين، كانت قد

وصلت الى بانياس (٢٦ ذي العقدة ٥٤٤ هـ)، بقصد مساعدة الدمشقيين، ولكن قبل ان يتقدم نور الدين نحو دمشق، أخذت الامطار تهطل بكثرة وبصورة متواصلة دون انقطاع، مما منعه عن مواصلة سيره، وتنفيذ عزمه[١].

وهكذا تخلصت دمشق من الوقوع بيد نور الدين. على أن مجير الدين أبق، عاد واضطر فيما بعد، الى مصالحة نور الدين، وبذل الطاعة له وإقامة الخطبة باسمه على منابر دمشق، بعد اسم الخليفة العباسي والسلطان. مع ضرب السكة (مستهل المحرّم من سنة ٥٤٥ هـ)..

وقوع جوسلين الثاني في الأسر

لم يكن انتزاع الرّها وبعض مقاطعاتها، من يد جوسلين الثاني ليثبط همته أو يثنيه عن حرب نور الدين: بالرغم من ضعف قوته العسكرية. وعدم إمكانية طلبه المعونة من أنطاكية التي قُتل أميرها بعد ذلك. فبقي يقوم بشنّ الغارات على ممتلكات المسلمين، من مقرهِ في تل باشر كلما سنحت له الفرصة بحيث إن نور الدين، صمم على منازلته، لوضع حدّ لأعماله الانتهازية. فسار بجيشه من حلب، قاصداً البلاد التي كانت لا تزال بيد هذا الأمير الافرنجي، ألا وهي القلاع الواقعة شمالي حلب. منها: تلّ باشر، وعينتاب وعزاز، وغيرها من الحصون. فتصدّى له جوسلين، والتقى الفريقان في معركة قوية، انجلت عن هزيمة نور الدين، وأسر وقتل قسم كبير من جيشه. وكان من جملة الأسرى، السلاحدار، ومعه سلاح نور الدين. فأرسل جوسلين، الأسير المذكور وسلاحه الى سلطان قونية السلجوقي: مسعود بن قلج

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق. ص(٣٠٨).

أرسلان (وكان نور الدين قد تزوج بابنة السلطان، الذي هادنه جوسلين الثاني ليتقي شره)، يقول له: [هذا سلاح صهرك، أنفذته إليك، وسيأتي بعده ما هو أعظم منه]. فعظم الأمر على نور الدين، وأعمل الحيلة للقبض على جوسلين الثاني بدون مهاجمته علناً. فاستدعى جماعة من التركمان، وطلب منهم النيل من هذا الافرنجي، إما حيّاً وإما ميتاً. فراحت تلك الجماعة تراقبه، حتى خرج يوماً في عسكره، على عادته، للسبي والنهب. فصادف أنه وقع على طائفة من التركمان فأخذهم أسرى.

والظاهر أن جوسلين استحسن إمرأة من السبي، فخلابها تحت شجرة، ففاجأه جواسيس نور الدين عند ذاك، وتمكنوا من القبض عليه وأخذوه أسيراً قبل أن ينهض لمقاتلتهم. وكان نور الدين في ذلك الوقت بحمص. فبذل لهم جوسلين مالاً ليتركوه، فقبلوا، وكادوا أن يطلقوا سراحه، لولا نائب حلب، ابن الدايه، الذي علم بالأمر، فانتزع الأسير قسراً منهم وأرسله، الى نور الدين (آخر ابار = ١١٥٠م- ٥٤٥هـ)[١] لقد كان وقوع جوسلين الثاني في الأسر، بقبضة نور الدين من أعظم الفتوح على المسلمين كما يقول أبو شامة. ولما نقل هذا الأسير الى حلب، طلب منه اعتناق الاسلام، وجَحْد دين النصرانية، فأبى، فسُمِلت عيناه، وألقي في غياهب السجن، فمات بعد تسع سنوات من أسره.

وقد اضطرت زوجته بياتريس، التي ترمّلت سابقاً من زوجها صاحب حصن صهيون (Saone)، الى بيع مدينة تل باشر وجوارها من البيزنطيين، بموافقة الملك بودوان الثالث، وتركت الامارة مع أولادها الثلاثة وذهبت الى بيت المقدس للعيش هناك. كما رحل عنها الأهالي الأرمن وبعض السريان، الذين رأوا أنهم لا يستطيعون البقاء تحت حكم البيزنطيين. فطلبوا من الملك بودوان، الذي حضر الى تل باشر في ذلك

(١) أبو شامة: الروضتين ص١٨٣ - ١٨٤ - ج(١) ق(١) - حوادث سنة ٥٤٥هـ.
وابو الفدا: المختصر، في أخبار البشر - مجلد(٢) ج(٥) ص٣٣ - ٣٤ - حوادث سنة ٥٤٦هـ.

الحين أن يؤمن لهم بجيشه، الحماية. للوصول الى القدس ففعل، ووصلوها سالمين[١]. بعد ذلك، مضى نور الدين نحو عَزَاز، ونزل عليها، وضايقها حتى فتحها بالأمان. ورتب فيها نوابه وعاد الى حلب(ربيع الأول ٥٤٥هـ- ١١٥٠ م).

ثم استولى على حصن تلّ خالد، القريب من تل باشر، وبعده على كثير من القلاع والبلاد، ومنها: عينتاب وقورس والراوندان وحصن ألبارة وكفرلاثا، وكفر سوت وحصن بسرفوت بجبل بني عليم، ودلوك ومرعش ونهر الجوز، وبرج الرصاص[١].

وفي السنة التالية(٥٤٦ هـ ١١٥١ م) استطاع نور الدين أن يستولي على جميع الأراضي التي اشتراها البيزنطيون مع الممتلكات الافرنجية المتاخمة لوادي الفرات الأعلى، وذلك بالتعاون مع السلطان مسعود السلجوقي والأراتقة، وتقاسموها جميعاً، بحيث نال هؤلاء الأخيرون الممتلكات الشمالية: بينما فاز السلطان مسعود بحصة الأسد. اما نور الدين فكانت مكاسبه ضئيلة في البداية. لكنه عاد فأخذ قسماً من خلفاء مسعود سنة/٥٥٠/هـ فأصبح في تملكه ما يزيد عن نصف سوريا الافرنجية الشمالية[٢] وفي أواخر سنة ٥٤٦ هـ أقدم نور الدين على حصار مدينة دمشق، فهرع الافرنج لمعونتها، وخلصوها منه مرة أخرى (٥٤٧ هـ)، محافظين بذلك على تحالفهم مع صاحبها مجير الدين أبق، حفيد طفتكين. فأمست دمشق محمية إفرنجية، خاضعة لدفع الجزية السنوية لملك القدس. وصار مجير الدين يعمل على تسهيل عمليّات الأفرنج الحربية. في أراضيه كلما طلبوا منه ذلك ، والسماح لعمالهم.

---

(١) ابو شامة: الروضتين ج(١) ق(١) ص١٨٥.

(٢) Zoé Oldenbourg: Les Croisades: P. P. 353 – 356.

بالتجول في أسواق النخاسة للبحث عن الأسرى الافرنج وتسريحهم. وفي اوائل سنة ٥٤٧هـ توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي بهمدان، فتولى السلطنة بعده، ابن أخيه، محمد بن محمود. وفي اواخر تلك السنة توفي حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي، صاحب ماردين وميافارقين وتولّى بعده ابنه نجم الدين ألبلى بن تمرتاش...

الفصل الثالث

سقوط عسقلان بيد الأفرنج، وسيطرة نور الدين على دمشق.

بعد وفاة الملك فولك، تسلمت أرملته ماليزاندا، سلطة الوصاية على مملكة بيت المقدس، لتحكمها باسم إبنها القاصر آنذاك بودوان الثالث، ولما بلغ هذا الأخير الثانية والعشرين من عمره، تُوّج رسمياً في عيد الفصح من سنة ١١٥٢م ملكاً. فطلب من والدته، ترك مقاليد الحكم والابتعاد عن السلطة فما نعت بذلك، مستندة على تأييد القائد العام: منسيّ ديارج، والبطريرك مع رجال الدين اللاتين، فما كان من الملك عند ذاك الاّ أنه استعمل القوة فحاصر القائد العام في قصره المحصّن قرب يافا وأرغمه على الاستسلام ثم انكفأ نحو قلعة القدس حيث كانت والدته متحصّنة فحاصرها كذلك الى أن أبدت خضوعها فطلب اليها الاقامة في نابلس، فنزلت عند طلبه.

وقبل تسلم الملك بودوان الثالث سلطته، قتل صاحب طرابلس: الكونت ريموند الثاني، بيد أحد ارهابيي الاسماعيلية، وكان أول صليبي يقتل بيد الاسماعيليه فتولّى الملك بودوان، الوصاية على الامارة بالاشتراك مع أرملة ريموند هوديارن، بالنيابة عن ابنها ريموند الثالث. البالغ من العمر اثنتي عشرة سنة (١١٥٢م).

ولما كان حكم إمارة انطاكية بعد قتل اميرها ريموند دي بواتير. قد انتقل الى أرملته كونستانس بوصفها وصياً على ابنها القاصر بوهمند يعاونها البطريرك أيمري في إدارة شؤون البلاد وكانت الأمور تستدعي

وجود أمير على رأس تلك الامارة ريثما يشبّ بوهمند ويصبح راشداً، عمد الملك بودوان الثالث الى دعوة كونستانس للزواج من أحد النبلاء عارضاً عليها ثلاثة اشخاص لكي تختار من بينهم زوجاً مناسباً لها (وكانت لا تزال في ميعة صباها) فلم يعجبها احد منهم واظهرت تمنعاً عن الزواج الا ممن تريده هي وقد أيدّها البطريرك إيمري في موقفها، خوفاً من انتزاع الحكم منه في حال زواجها. وبعد الالحاح الشديد من قبل الملك ووالدته وخالته هو ديارن، عادت كونستانس وعزمت على الزواج، ولكنها اختارت شخصاً مغامراً، لا هو في العير ولا في النفير يدعى: رينودى شاتيوّن قالت إنها تحبه بالرغم من فقره وحداثة عهده في البلاد. وحين رأت أن هذا الأختيار لن يلقى القبول من أحد، أجرت خطبتها عليه في السّر، ووضعت الملك تحت الأمر الواقع، فوافق على زواجها منه مرغماً (١١٥٣م). وسرعان ما اختلف رينودى شايتون مع البطريرك ايمري دىليموج، فقبض عليه وأودعه السجن بعد أن جلده حتى أدماه وعلقّه عارياًمن ثيابه على أحد الأبراج ودهن جسمه بالعسل وتركه عرضة لِلذع الذباب والزنابير، تحت الشمس المحرقة وحينما علم الملك بودوان الثالث بهذا العمل الذي اقدم عليه رينو، أنذره بوجوب الافراج فوراً عن البطريرك وإعادته الى كرسي البطريركية، فاضطر للنزول عند طلبه الاّ أن البطريرك لم يستطع تحملّ هذه الاهانة فرحل عن أنطاكية الى بيت المقدس. للعيش هناك.

كانت مدينة عسقلان، بحكم موقعها، عرضة لهجمات الأفرنج المتوالية، لأنهم كانوا يعلقون أهمية كبيرة على الاستيلاء عليها لتصبح الطريق أمامهم معبدة الى مصر. وقد أمر الملك بودوان الثالث ببناء قلعة صغيرة جنوبيّها وسلمها لفرقةالهيكليين (الداوية) وأخذ يشن الغارات منها على المدينة، لمضايقتها. وعندما سنحت له الفرصة ألقى الحصار عليها.

واستمر الحصار بضعة اشهر، وصلت في اثنائها بعض المراكب من الأسطول الفاطمي اليها فاستقوى بها العسقلانيون وأرسلوا يستنجدون بنور الدين محمود ومجير الدين آبق صاحب دمشق فجمع نور الدين عساكره للسير الى عسقلان لنجدتها، وتوجه مجير الدين الى نور الدين في عسكره واجتمعا في ناحية الشمال عند حصن: أفليس، على الطريق بين معّرة النعمان وحلب، الذي كان استولى عليه نور الدين، ومضى الاثنان نحو ثغر بانياس ونزلا عليه وقد خلا من الحماية، ولكن لأمر ما لم يتعرضا له فافترقا وعاد كل منهما الى بلاده، وكان سبب ذلك على ما يظهر عدم تبادل الثقة بينهما، فنور الدين كان يرغب في متابعة السير نحو عسقلان مباشرة، في حين كان مجير الدين يريد أخذ بانياس اولاً، غير أنه لم يكن جادّاً في ذلك نظراً لتحالفه مع الأفرنج: وهذا ما جعل نور الدين يفضل العودة الى حلب دون أن يتمكن من مدّ يد المعونة للعسقلانيين. كما عاد مجير الدين الى دمشق، وهذا ما كان يتوخاّه.

وفي ذلك الوقت أقبل اسطول مصري كبير من سبعين سفينة محملة بالرجال والعتاد وأفرغ حمولته في ميناء عسقلان وعاد أدراجه نحو مصر والحصار مستمر من قبل الأفرنج الذين لم ينقطعوا عن رمي البلدة المحاصرة بالمنجنيق والقذائف الملتهبة حتى تصاعدت السنة اللهب من كل جوانبها، فتهدم بعض جوانب سورها ودخل منه الأفرنج اليها، مما اضطر أهاليها لطلب الأمان والتسليم. فأجيبوا اليها، على أن يخرجوا سالمين من المدينة ويمضوا الى الجهة التي يريدون مع كل ما يستطيعون حمله من متاع. وبعد استيلاء الأفرنج على عسقلان (١٩آب ١١٥٣م - ٥٤٨هـ) وترتيب أمرها أقام الملك بودوان الثالث أخاه الأصغر: أموري كونت يافا، حاكماً عليها.

وقد كان لسقوط عسقلان، آخر حصون الفاطميين في الشام دويّ

كبير في سوريا ومصر، فقام أهالي دمشق وتنادوا لدعوة نور الدين وتسليمه بلدهم، فما كان من مجير الدين آبق الآ أنْ بعث يستنجد بالأفرنج لمعونته، واعداً إياهم بتسليمهم بعلبك وبعض مناطق البقاع، لقاء ذلك. ولكن الأمر لم يتم له إذ دخل نور الدين مدينة دمشق تلبية للدعوة قبل أن تتهيأ للأفرنج فرصة التدخل (٢٥نيسان ١١٥٤م ١٠ صفر ٥٤٩ هـ).

وتفصيل ذلك، أنه بعد انتصار الأفرنج في عسقلان. تألف حزب مؤيد لنور الدين في دمشق قام على رأسه نجم الدين أيوب، وأخذ يبث الدعاية له، باعتباره منقذ المسلمين فضعف مركز مجير الدين آبق في البلد واستهان به العامة هو ووزيره مؤيد الدين، وفشت الفوضى ومنع نور الدين وصول الأقوات الى دمشق فغلت الأسعار فيها، وأرسل أسد الدين شيركوه (وهو شقيق نجم الدين ايوب) لمحاصرتها ومعه ألف جندي فخيّم في الغوطة وزحف على البلد من ناحية الشرق ووقعت مناوشات بينه وبين عساكر مجير الدين، ثم وصل نور الدين بجيشه، واتصل بشيركوه وتقدم الاثنان بالهجوم على العسكر الدمشقي من جميع الجهات فانهزم أمامهما، وأعانهما اهالي المدينة على فتح أبوابها فدخلاها وهرب مجير الدين محتمياً بالقلعة هو وخواصّه فأرسل اليه نور الدين وأمّنه على نفسه وماله وأقطعه عدة أماكن فلم يرق له ذلك فترك الشام ومضى الى بغداد حيث توفي سنة ٥٦٤ هـ. (ابوشامة: كتاب الروضتين صفحة ٢٣٩ و ٢٤٢). وهكذا تحقق حلم نور الدين فتوحدت سوريا الأسلامية على يديه وأصبحت دولته تمتد من الفرات الى حوران اي من الشمال الى الجنوب.

وبعد ان رتب نور الدين أمور دمشق، نقل اليها مركز حكومته وجعل في حلب نائباً عنه: مجد الدين بن الداية. أما نجم الدين أيوب

فقد عُيّن حاكماً على دمشق، لما قام به من خدمات أدّت الى فتح ابوابها أمام نور الدين، وكذلك كان لأسد الدين اليد الطولى في فتحها، فأقطعه نور الدين الرحبة! وعلى إثر فتح دمشق، أقدم أهل تل باشر على مراسلة نور الدين لتسليمها له، فأرسل الى الأمير حسّان (أمير منبج) يأمره بتسلمها منهم. فسار اليها وتسلمها وحصنها. وفي هذه السنة اي سنة ٥٤٩ هـ قتل الخليفة الفاطمي: الظافر بالله أبو منصور اسماعيل بن الحافظ لدين الله، عبد المجيد العلوي، وأقيم ولده عيسى مقامه، وعمره ثلاث سنوات، ولقب بالفائز.

وفي سنة ٥٥٠ هـ استولى نور الدين الدين على بعلبك وأخذها من واليها الضحاّك البقاعي. ثم في نفس السنة أخذ مدينة بصرى. وفي ٢٤ربيع الأول سنة ٥٥٠ هـ ١١٥٥ م تقررت أسباب الموادعة بين نور الدين وملك القدس لمدة سنة واحدة، واستمرت الهدنة الى آخر السنة: إذ كان نور الدين يميل للصلح لاشتغاله بأخذ بعض القلاع، والحصون من بلاد الملك قلج أرسلان بن مسعود سلطان قونيا وما والاها. ثم تهادن نور الدين وملك القدس بودوان الثالث لمدة سنة كاملة (٥٥١ هـ) أولها شعبان،وأن تكون له المقاطعة المحمولة الى الأفرنج من دمشق ثمانية آلاف دينار صورية وكتبت المواصفة بذلك بعد تأكيدها بالإيمان والمواتيق المشدّدة[(١)].

وكان نور الدين قبل ذلك أي في صفر سنة ٥٥١ هـ- ١١٥٦ م قد حاصر قلعة حارم، الواقعة غربي حلب بالقرب من انطاكية وضيق على أهلها، فراسلوه في الصلح فصالحهم على مناصفة الولاية وعاد الى دمشق.

غير ان الأفرنج عادوا ونقضوا المعاهدة المعقودة مع نور الدين، إذ استولى بودوان الثالث ملك القدس، على قطعان المواشي والخيول

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين جزء(١) صفحة ٢٥٨.

العائدة للتركمان، والتي كانت حسب العادة والاتفاق ترعى في منطقة الحدود قرب بانياس[1] بعد ان قتل اصحابها.

وعند ذلك عقد نور الدين صلحاً بينه وبين قلج أرسلان بن مسعود سلطان قونية ليتفرغ لمحاربة الأفرنج الذين نقضوا الهدنة. وأعلن الحرب عليهم. وطلب من عساكره الاجتماع في دمشق، فتوافدت عليه الرسل من أرباب الأعمال والمعاقل والولايات فاحتفل بذلك، ولما شعر الأفرنج بتحركات جيشه عمدوا إلى تعزيز الحدود المجاورة لدمشق والمؤدية الى بيت المقدس، أي بانياس، فأرسلوا سبعمائة من فرسان القديس يوحنا والهيكليين، فخرج اليهم المسلمون وكمنوا لهم، فأبادوهم وأرسلوا رؤوس قتلاهم مع الأسرى الى دمشق وبعلبك حيث ضربت أعناقهم (١٣ ربيع الأول ٥٥٢ هـ ١١٥٧ م).

وبعد ان تكامل اجتماع عساكر نور الدين بوصول أسد الدين شيركوه وجماعته من التركمان تقرر مهاجمة بانياس أولاً: وسار الجيش الأسلامي اليها. فحاصرها، وكان يتبعه جماعات من أحداث البلد والمتطوعين والفقهاء والصوفية، وغيرهم من المجاهدين، وفي ٢٠ ربيع الآخر ٥٥٢ هـ حزيران ١١٥٧ م بدأ نور الدين هجومه على بانياس بشدة. بعد ان كان هزم فرقة الأستبارية في معركة خارجها، وتمكن من دخولها بجيشه وقتل مَن فيها وقد أحدثت المنجنيقات ثقوباً في أسوارها. لكنّ حصنها بقي في يد اونفروادى تورون، واليها: وقبل سقوطه بيد نور الدين أسرع الملك بودوان الثالث الى نجدته وأرغم نور الدين على التقهقر عن المدينة. وفيما كان بودوان عائداً الى القدس، بعد ذلك، وفي اثناء نزوله بالقرب من بحيرة الحولة بين طبريا وبانياس، فاجأه نور الدين هناك وأسر فرقته، وفيها برتراند دى بلانكفورت رئيس الداوية، ولم يفلت منها سوى

---

(١) (Zoé Oldenbourg: Les Croisades P. 366.

عشرة أنفار، من بينهم بودوان الثالث نفسه (٢٨ ربيع اول ٥٥٢ هـ ١٩ حزيران ١١٥٧ م). ووصلت رؤوس القتلى والأسرى الى دمشق [كل فارسين على جمل حاملين راية من رايات العدو ومعها جلود رؤوس قتلاه، اما المقدّمون. وولاة الأعمال فكل واحد على فرس وعليه الزردية والخوذة وفي يده راية، واما الجنود، فكل ثلاثة او اربعة بحبل][1]. وخرج من اهل البلد الخلق الذي لا يحصى لهم عدد من الشيوخ والشباب والنساء والصبيان، لمشاهدة ما منح الله تعالى ذكره، كافة المسلمين من هذا النصر المبين، واكثروا شكر الله تعالى والدعاء لنور الدين المحامي عنهم والرامي دونهم والثناء على مكارمه والوصف لمحاسنه[2]. لم ينم بودوان الثالث على الضيم فعاد وجهّز جيشاً قوياً بصورة مستعجلة ومضى الى بانياس حينما علم بأن نور الدين، أعاد الحصار عليها. وهناك انتهى الى نور الدين خبر وصول. السلطان قلج ارسلان بن مسعود السلجوقي، والنزول على أنطاكية مع جيش كبير: فحاول أن يعقد معاهدة مع ملك القدس، فلم يتوفق، فترك عندئذ حصار المدينة وانسحب.

في ذلك الوقت كانت قد حدثت زلازل شديدة في سوريا (تموز - آب ١١٥٧ م - ٥٥٢ هـ) دمّرت عدة مدن اسلامية:منها حمص وحماه. ثم وقع نور الدين مريضاً، فاغتنم بودوان الثالث هذه الفرصة وعمد الى مهاجمة مدينة شيزر وكان يرافقه رينودى شاتيوّن أمير أنطاكية، والكونت تيارّي دى فلاندر الذي وصل حديثاً الى سوريا لزيارة الارض المقدسة. وبعد حصار عنيف، وقعت المدينة ودخلها الأفرنج فقتلوا الاهالي ونهبوا وسبوا، ولكن القلعة ظلت صامدة وسلمت منهم. وقام الخلاف بين الكونت دي فلاندر ورينو دي شايتون، الذي طلب من

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص٢٤٢.

(٢) ابو شامة: الروضتين جزء(١) صفحة ٢٧١ - ٢٧٢.

هذا الأخير أن يكون تابعاً له في حال تسلمّه حكم المدينة، فرفض الكونت ذلك لأنه يعتبر نفسه أنبل وأعظم من ذلك المغامر الذي أوصلته مغامراته لأمارة انطاكية. وهكذا اضطر الأفرنج لترك مدينة شيزر والعودة الى بلادهم، بعد أن كان الأسماعيلية قد تجمعوا وقدموا لطردهم منها. (آخرسنة ١١٥٧ م)[١].

وفي سنة ٥٥٣ هـ شباط ١١٥٨ م حاصر بودوان الثالث هو والفلمنديون حصناً قريباً من حارم واحتلوه وسلموه الى رينو دي شاتيون. اما نور الدين، فبعد ابلاله من مرضه، بدأ بالاستعداد للجهاد. ولما انتهى خرج من دمشق والتقى ملك القدس قرب القنطرة الخشبية التي يعبرمنها الى الأردن جنوبي طبريا ووقعت المعركة بينهما فهرب بعض القادة من جيش نور الدين بينما ثبت هو مع أصحابه الشجعان فتراجع الأفرنج خوفاً من كمين يظهر عليهم من عسكر الاسلام وعاد نور الدين الى مخيمه سالماً. ولام من كان السبب في اندفاعه بين يدي الأفرنج(٢٣) رجب سنة (٥٥٣ هـ)[٢].

عقب هذه الحرب فترة من الهدوء النسبي بين المسلمين والأفرنج، أقدم خلالها بودوان الثالث على التزوج بابنة اخي امبراطور الروم: مانويل كومنين المدعوة: تيودورا، وكانت لا تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها. وَصَفَت الأحوال بين البيزنطيين والأفرنج على إثر هذا الزواج.

وفي اواخر سنة ١١٥٨ م سار الأمبراطور البيزنطي فجأة باتجاه قيليقية الأرمنية واحتلها بعد أن هرب صاحبها الأرمني توروس الثاني خوفاً منه. ثم تقدم الأمبراطور صوب انطاكية وعسكر بالقرب من

---

(١) ابو شامة الروضتين. جزء(١) صفحة ٢٧٤.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص٣٥٣. وابو شامة: الروضتين ج(١) صفحة ٣٠٠.

ماميسترا (المصّيص) ليرغم صاحب أنطاكية رينودي شاتيون على الاعتراف بتبعيته له. ذلك أن رينودى شايتون كان قبل ذلك قد جهز حملة عسكرية على جزيرة قبرص التابعة للبيزنطيين بالاشتراك مع توروس الثاني الأرمني(١١٥٥ م) واجتاحاها معا وقتلا من أهاليها عدداً كبيراً وسلبا ونهبا وتعدّيا على رجال الدين والنساء وأسرا حاكمها يوحنا كومنين، (وهو ابن اخي الأمبرطور). والقائد ميشال براناس قائد الجيش البيزنطي فيها وفرضا الجزية عليها.

وقبل ان يهاجم الأمبرطور البيزنطي مدينة أنطاكية توسط أسقف اللاذقية، بينه وبين رينودى شايتون في سبيل العفو عن هذا الأخير، فوافقه على ذلك شرط أن يأتي اليه رينو حافياً معفّراً رأسه بالتراب، ذليلاً خاضعاً. ففعل المسكين مكرهاً. وحضر الملك بودوان الثالث الى معسكر الامبراطور بعدئذٍ ووفقه مع عدوّه السابق توروس الأرمني الذي حلف أيضاً يمين التبعية للأمبراطور فأعاده الى ممتلكاته. وبهذه المناسبة، عقد الملك بودوان الثالث، حلفاً مع الامبراطور بقصد مهاجمة نور الدين في حلب، بالتعاون مع رينودي شاتيون وتوروس الثاني.

ولما ألقوا الحصار على المدينة الأسلامية الكبيرة، كان نور الدين قد توجّه صوب حمص وحماة وشيزر، فوصلته الأمداد تباعاً من امراء النواحي، وكان أخوه قطب الدين: أمير الموصل في مقدّمتهم. وبعد مراسلات ومفاوضات بين نور الدين والأمبراطور البيزنطي تمّ الصلح بينهما على فكّ الحصار عن حلب مقابل إطلاق سراح جميع أسرى الأفرنج في المعتقلات الزنكية، وكان عددهم يتجاوز الستة آلاف، ومن ضمنهم: برتراند بن الغونس جوردان، كونت دي تولوز، ورئيس فرقة الداوية: برتراند دي بلانكفورت. وقد أهدى الأمبراطور البيزنطي نور الدين بعض الهدايا الفاخرة من أثواب الديباج والجوهر

النفيس وجملة من الخيول، وعاد الى بلاده، مخيّباً أمل الأفرنج به (١٠ جمادى الأولى ٥٥٤ هـ - ١١٥٩ م)[١].

وهكذا تخلّص نور الدين من خطر كبير كان محدقاً بسوريا الأسلامية. وذلك بفضل حنكته السياسية، وحسن تدبيره. فاطمأنت القلوب بعد انزعاجها وقلقها، كما يقول أبو شامة.

وكعادته، قام رينو دي شايتون في الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني ١١٦٠ م - ٥٥٥ هـ بغزوة على مرعش، فنهب وسلب، وعند عودته محمّلاً بالغنائم هاجمه مجد الدين بن الداية، نائب نور الدين في حلب وأخذه أسيراً. ولم يحاول ملك القدس تخليصه من الأسر، ولا زوجته كونستانس التي رأت بذلك فرصة لها للاستئثار بالحكم بعده. ولما علم البطريرك أيمري دي ليموج بما أصاب رينو دي شايتون من وقوعه في قبضة المسلمين أسرع عائداً الى انطاكية وتسلم وظائفه فيها، كالسابق. وقد بقي رينو في الأسر ست عشرة سنة، وسيكون له فيما بعد، شأن في العمل على تدمير مملكة بيت المقدس، وإلقائها في الهاوية بسبب سوء أعماله.

وإذ وضح للأفرنج بأن كونستانس تريد التفرد بحكم أنطاكية دون اعتبار لابنها بوهمند الثالث الذي كان عند ذاك قد بلغ السابعة عشرة من عمره، ولا للبارونات الذين لهم مكانتهم في الأمارة فقد ارسلوا يطلبون من الملك بودوان الثالث، وجوب التدخل في الأمر، لئلا يحصل ما لا تحمد عقباه، فهبّ مسرعاً الى أنطاكية حيث قام بتدبير أمور الوصاية، على الأمارة، فسلّمها للبطريرك أيمري ليحكم باسم بوهمند الثالث، ولم تُفلح جهود كونستانس التي بذلتها لأقناع الامبراطور البيزنطي مانويل كومنين، بتأييدها مقابل تعهّدها بتسليمه أنطاكية

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص٣٥٦ - ٣٥٨، وأبو شامة: الروضتين صفحة ٣٠٨.

بوصفه حامياً لها. وقد اضطرت أخيراً وبالرغم عنها الى التنحّي عن الحكم، وقضت نحبها بعد ثلاث سنوات من ذلك.

وفي السنة ذاتها اي في سنة ٥٥٥ هـ توفي الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله وبويع ابنه أبو المظفر يوسف ولُقّب بالمستنجد بالله (٢ ربيع الأول).

وفي سنة ٥٥٦ هـ - ١١٦٠ م قصد صاحب صيدا، نور الدين ملتجئاً اليه، فسيّر معه نور الدين عسكراً يمنعه من الأفرنج. فظهر عليهم في الطريق كمين للأفرنج فقتلوا جماعة من المسلمين وانهزم الباقون[١].

كان السلطان قلج أرسلان الثاني بن مسعود السلجوقي بعد استلامه السلطة (١١٥٥ - ١١٩٢ م - ٥٥٠ - ٥٨٨ هـ) يتحيّن الفرص دائماً لمهاجمة البيزنطيين وحليفهم الأمير الدانشمندي يعقوب أرسلان. ففي سنة ٥٥٥ هـ - ١١٦٠ م نشبت معركة بينه وبين هذا الأخير وهُزم فيها واستولى خصمه على عدة مراكز بين (درندة) ومرعش. وفي ذلك الوقت كان الأمبراطور البيزنطي، على رأس جيشه، يهاجم أراضي سلطنة قونية من الغرب، فيما كان قائده كونستفانوس يتجه بفرقة مختلطة من روم وأرمن وأفرنج. الى الأناضول حيث التقى بقسم من جيش قلج أرسلان الثاني وهزمه هناك (١١٦١ م).

وقد تأزم الوضع كذلك بين قلج أرسلان هذا وبين نور الدين، الذي تمكّن من الاستيلاء على بعض النواحي، ومنها مرعش (١١٥٩ - ١١٦٠ م - ٥٥٥ هـ) ولما رأى سلطان قونية نفسه محاصراً من كل الجهات، أرغم على طلب الهدنة من الأمبراطور البيزنطي، واعداً

---

(١) ابن الأثير: الكامل: جزء ١ ص ١٣.

أياه بأن يعيد له جميع المدن البيزنطية الواقعة في أيدي المسلمين (آخر سنة ١١٦١ م). وحضر الى القسطنطينية شخصياً، فاستقبله الأمبراطور مانويل كومنين استقبالاً حاراً أشبه باستقبال التابع للمتبوع (١١٦٢ م). وكان الأمبراطور قبل ذلك بقليل قد تزوّج بابنة أمير انطاكية الراحل: ريمونـد دي بواتـير، المـدعوة مـاريـة، ابنـة كونستـانس (كـانون الأول ١١٦١ م) وجرى حفل الزواج في العاصمة البيزنطية.

وفي العـاشر من شهر شبـاط ١١٦٢ م مـات بودوان الثـالـث ملـك القدس وعمره (٣٢) سنة، ويقال إنه مات مسموماً بيد الطبيب السرياني الذي أرسله له ريموند الثالث صاحب طرابلس، ليعالجه. فخلفه أخوه: آموري الأول صاحب يافا، وكان في السابعة والعشرين من عمره.

عـلى إثر موت بودوان الثـالـث، طلـب القـادة العسكريون من نور الدين، انتهاز الفرصة لمهاجمة مقاطعات بيت المقدس، نظراً لما سببه موت الملك من حالة حزن وفوضى لدى الأفرنج، فرفض بشدّة، القيام بعمل لا يقرّه شرفه العسكري، وبعث بوفد من قبله للتعزية، الى القدس، فقابل الملكة ووعدها عن لسان سيّده، بعدم مهاجمة مملكة الافرنج ما دامت بدون ملك، وتقول: روى أولدنبورغ في كتابها صفحة /٣٧٧/، إن نور الدين أجاب قائلا لمن طلبوا منه اعلان الحرب على الأفرنج: [إنه لعمل شائن ان نهاجم أناساً محزونين خسروا ملكهم الباسل ولم يدبّروا أمرهم بعد][1].

(1) Zoé Oldenbourg: Les Croisades. P. 377. et René Grousset: L'épopée des Croisades. P. 190.

الفصل الرابع

المسألة المصرية

قبل ان يتبوّأ آموري، عرش مملكة القدس، طلب منه قسم كبير من البارونات أن يفترق عن زوجته أنياس دي كورتناي، بحجة أنها لا تناسبه، وأنذروه بعدم موافقتهم على تنصيبه ملكاً على القدس، ما لم يطلّقها، فاستجاب لهذا الطلب وفسخ زواجه منها، لسبب القرابة العصبية، على اعتبار ان جدّي الزوجين لجهة الأب هما أبنا عم شقيقان، وكان له منها ولدان هما: بودوان وسيبيل، أقرّ شرعية نسبهما اليه، فتزوجت أنياس، فيما بعد، من أحد البارونات ويدعى هوج ديبلن، وهكذا ضحّى آموري بزوجته في سبيل مصلحة العرش.

إن أول شيء فكّر به أموري الأول بعد تنصيبه على العرش، هو اهتمامه بالقضية المصرية، التي أصبحت موضوع الساعة، وكان الملك الراحل بودوان الثالث قبل وفاته، قد حاول بقدر الأمكان، التدخل في هذه القضية من حيث إنه اتصل بالبيزنطيين، حلفاء الفاطميين، وقتذاك، وطلب اليهم الانقطاع عن التعامل مع هؤلاء الأخيرين وعدم مدّهم بالسلاح والحديد والأخشاب والقار، مقابل تعويضات مهمة يقدّمها لهم؛ كما انه (اي بودوان) استغل الخلاف الذي كان قائماً بين الوزيرين، في القاهرة، وفرض على الفاطميين دفع جزية سنوية له قدرها

(١٦٠٠٠٠) دينار، لوقوفه على الحياد وعدم تدخله في امورهم (١١٦١ م)[1].

ولما كانت الحدود المصرية مفتوحة امام الأفرنج حتى الدلتا فقد رأى أموري ان الفرصة قد حانت لكي يتجّه بانظاره صوب القاهرة، قبل ان يسبقه اليها نور الدين. ذلك ان الخلافة الفاطمية في مصر، كانت قد اصبحت في حالة تأخر وانحطاط، بحيث لم يعد من مجال لترك الأمور فيها على ما هي عليه.

لقد قامت الخلافة الفاطمية في مصر منذ سنة ٣٥٨ هـ - ٩٦٨ م. وفي منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، بدأت هذه الخلافة بالانحلال، إذ ترك الخلفاء حكم البلاد وأمور الدولة الى خدمهم ومواليهم، واكتفوا بما هم فيه من الترف والرفاهية، فلم يعد لهم حول ولا قوة، وصار وزراؤهم وقادتهم يديرون المُلك كما يحلو لهم، ويتلاعبون بالخلفاء على هواهم، فيرفعون الخليفة الى العرش متى شاؤوا ثم يكيدون له فيقتلونه أو يسقطونه، ويضعون غيره مكانه. وكان أغلب الخلفاء الذين يأتون بهم صغار السن، لا يدركون شيئاً من أمور الحكم، مما ادّى الى تناحر الوزراء فيما بينهم، والاقتتال للاستئثار بالحكم، فأهملوا تحصين البلاد وتقوية حدودها، وأضعفوا الأسطول، ففقد سيطرته على شرقي المتوسط، وتعدّدت جنسية العسكر في الجيش المصري، فصارت أغلبيته خليطاً من السودانيين والأرمن الذين كانت تنقصهم الحماسة الوطنية، والغيرة الدينية، للدفاع عن البلاد. وهكذا بعد سقوط عسقلان بيد الأفرنج، قُتل الخليفة الفاطمي: الظافر أبو منصور اسماعيل بن الحافظ (٥٤٤ - ٥٤٩ هـ - ١١٤٩ - ١١٥٤ م) وأقيم مكانه ولده الصغير ولقّبوه: الفائز بنصر الله (٥٤٩ - ٥٥٦ هـ - ١١٥٤ - ١١٦١ م) ثم خلع

---

(1) Jean Richard: Le Royaume Latin de Jérusalem P. 51.

ونُصّب من بعده، إبن عمه، عبد الله بن يوسف بن الحافظ عبد المجيد ولُقّب: العاضد لدين الله، وكانت سنّه احدى عشرة سنة.

وفي تلك الأثناء، كان والي الصعيد، الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك الأرمني، قد استولى على مقاليد الوزارة في القاهرة ولُقّب بالملك الصالح؛ ولما وَلي العاضد، الخلافة، زوّجه الصالح بأبنته، وبعد ذلك أساء هذا الوزير التصرف في حكمه، فكادت له عمة الخليفة الفائز وأرسلت اليه من اغتاله وهو داخل القصر، فتولّى الوزارة مكانه، اِبنه رزيك بن طلائع، وتلقّب بالعادل، وثقلت يده على الخليفة العاضد، كما أقدم على عزل والي الصعيد شاور بن مجير السعدي، خوفاً منه، فما كان من شاور إلاّ ان زحف على القاهرة مع نفر من اصحابه، وقبض على العادل وقتله وأقام في الوزارة مكانه، ولقّبه الخليفة: بأمير الجيوش (٥٥٧ هـ).

ولما تأخّر المصريون عن تأدية الجزية للأفرنج، قام الملك آموري بحملة على بلبيس لأرغامهم على دفعها بحجة انهم كانوا تعهدوا بها للملك الراحل بودوان الثالث، فتصدّى له والي الصعيد: الضرغام بن عامر اللخمي، وجابهه بقوة حيث سلّط عليه مياه النيل، بعد ان كسر بعض الجسور فأغرق الأرض بها، وكانت مياه الفيضان تملأ الترع، فأرغم آموري على العودة الى فلسطين، دون طائل (ايلول ١١٦٣م - ٥٥٨ هـ).

وكان نور الدين في الوقت ذاته، قد جمع جنده واخترق اراضي إمارة طرابلس، فقابله ريموند الثالث صاحب طرابلس، وبوهمند الثالث صاحب انطاكية وكان برفقتهما هوج دي لوزينيان الثامن كونت دي لامارش، وجوفروا مارتل شقيق كونت دانغوليم، وحاكم قيليقية البيزنطي: قسطنطين كولومان، وهاجمه الجميع وهو في البقيعة تحت حصن الأكراد، وأعملوا في جيشه القتل والأسر وكادوا ان ينالوا

منه وهو في خيمته، لولا تنبّه احد الجنود الأكراد الذي مكّنه من الهرب وافتداه بنفسه، (٥٥٨ هـ - ١١٦٣ م)[١]. ومن ثم سار نور الدين الى بحيرة قدس، ظاهر حمص وبينها وبين المعركة أربعة فراسخ، وتجمّع الجيش عنده، وأقسم بأخذ الثأر من الأفرنج. وبعد ذلك طلب الأفرنج الصلح منه، فلم يجبهم الى طلبهم لعلمه بأن الملك آموري، كان يطمع في مصر، وهو لم يطلب منه الصلح الاّ لتأمين حدوده معه.

ما كاد سرير الوزارة يطمئن بشاور حتى قام لمناوأته، والي الصعيد: الضرغام بن عامر اللخمي، الذي راح يقف بوجهه، بالاتفاق مع الخليفة الفاطمي، حتى اضطرّه الى الهرب من القاهرة. فأخذ الضرغام مكانه في الوزارة، وقتل إبنه الأكبر طيئاً، فيما نجا إبنه الآخر شجاع. وبعد هربه التجأ شاور الى نور الدين في الشام وطلب منه إرسال جيش الى مصر بُغية إعادته الى كرسي الوزارة وذلك مقابل ثلث خراج البلاد المصرية كل سنة، مع إبقاء حامية شامية تحت إمرة احد قادة نور الدين لتمثيله لدى الحكومة الفاطمية.

وبعد تردّد ودرس لكل الأمكانيات والمواقف، قرّر نور الدين إرسال حملة عسكرية بقيادة أسد الدين شيركوه الكردي. لمرافقة شاور الى مصر، وكان صلاح الدين بن نجم الدين أيوب، ابن أخي شيركوه، في عداد تلك الحملة (٥٥٩ هـ) ومضى نور الدين بعد هذا القرار الى أطراف بلاد الأفرنج مما يلي دمشق لمنعهم والحيلولة دونهم والتعرّض الى شيركوه في طريقه الى مصر[٢].

وحين علم الضرغام بخبر مسير جيش نور الدين الى مصر، خاف سوء العاقبة ولم يرَ مخرجاً إلاّ بالاستنجاد بالأفرنج لمساعدته، على أن شيركوه

(١) أبو شامة: الروضتين جزء (١) صفحة ٣١٨، وابن الأثير ج (١١) ص ١١٩.
(٢) ابن العديم: زبدة الحلب ص٣١٦.

أسرع مُغِذّاً السير في الصحراء، فوصل مع جيشه الى الدلتا قبل ان يتهيأ للأفرنج مواجهته، وفي شهر ايار سنة ١١٦٤م - ٥٦٠ هـ اقتربت الحملة الشامية من القاهرة واحتلت الفسطاط، وفي اليوم التالي لوصولها دخل شاور عاصمة الفاطميين، وكان الضرغام مع جنوده فيها، فاحتاج هذا الأخير الى المال، فلم يجد امامه إلاّ مال الاوقاف فأخذه، فامتعض الناس من عمله، وجافاه الخليفة الفاطمي وانفضّ من حوله جنده، إلا البعض من حرسه، فأخذ يطوف الشوارع من باب زويلة، ينادي على مناصريه لنجدته فلم يجبه أحد، وما زال يسير حتى جمح به جواده في أثناء سيره وسط الزحام، فوقع عن ظهره قريباً من جامع السيدة نفيسة، فانقضّ عليه جماعة من عامة الشعب وقطعوا رأسه وحملوه الى الخليفة؛ وبعد أن استتبّ الأمر لشاور في الوزارة، رأى انه لم يعد بحاجة الى شيركوه ومَن معه، فنكث بعهده الذي كان تعهّد به لنور الدين، وعند ذلك بدأ الخلاف، بينه وبين القائد الكردي، فأنفذ هذا الأخير، ابن أخيه صلاح الدين الى بلبيس، كي ينتزعها لتكون هي وإقليم الشرقية بيده رهناً. فغضب شاور لذلك، وقاده تهوّره وطيشه لمراسلة آموري ملك القدس، يطلب مساعدته على جيش نور الدين، فاهتبلها آموري فرصة، وكان ينتظرها، لامتلاك مصر، وهبّ مسرعاً على رأس جيشه، يزحف الى العاصمة الفاطمية. وبوصوله الى بلبيس التقى جيش أسد الدين شيركوه فيها، فحاصرها وبقي ثلاثة اشهر، يناجز هذا الأخير، وذلك بمؤازرة الجيش المصري، فلم يبلغ منها وطراً. (ذو الحجة ٥٥٩ هـ - تشرين الأول ١١٦٤م). ولم يفتْ نور الدين ما أقدم عليه شاور من طلب النجدة الأفرنجية، فسارع الى استقدام اخيه قطب الدين اليه، لمساعدته في الجهاد بغية تخفيف الضغط عن شيركوه بأجبار الملك أموري على النكوص على أعقابه، وعدم البقاء في مصر. فقدم قطب الدين ومقدّم جيشه زين الدين علي كوجك، وكذلك قدم اليه صاحب حصن

كيفا: فخر الدين قره أرسلان، مع جيشه، وتبعه صاحب ماردين: نجم الدين، بعسكره، ومضى الجميع نحو حصن حارم، لألقاء الحصار عليه. وكان صاحب هذا الحصن، رينو دي سان ڤاليري قد جمع كل ما لديه من الجند لملاقاة نور الدين، وخفّ لنجدته أمير انطاكية بوهمند الثالث، وصاحب طرابلس: ريموند الثالث، وابن صاحب الرها السابق: جوسلين الثالث، وحاكم قيليقية البيزنطي: قسطنطين كولومان وتوروس الثاني الأرمني، ويرافقهم جمع غفير من الفرنجة والأرمن والبيزنطيين الذين سارعوا للأنخراط في هذه الجيوش، على مختلف طبقاتهم، بما فيهم، اصحاب الصوامع والأديرة.

ولما رأى نور الدين هذه الجحافل الجرارة تتقدم باتجاهه، انسحب من حارم (Harcne) وانكفأ نحو أرتاح، حيث ضرب معسكره وعبّأ جنده تعبئة كاملة، وفرّق الكمائن في شعاب الجبال، وقد فطن بعض القادة الأفرنج الى خطته هذه، فأحجموا عن ملاحقته ولكن بوهمند الثالث اعتبر انسحاب نور الدين دليلاً على ضعفه، فتبعه الى حيث هو فتظاهر نور الدين، بالتراجع وصار يستدرج الجيش الصليبي شيئاً فشيئا الى ان توسّط مواضع الكمائن، فأحاط به الجيش الأسلامي إحاطة السوار بالمعصم، وأعمل فيه السيف، والرمح، فولّى توروس الأرمني مدبراً مع جيشه، لا يلوي على شيء، عندما رأى بوادر الهزيمة تحيق بحلفائه، وحمل الفرنجة على ميمنة المسلمين وبها عسكر حلب وعسكر فخر الدين قره أرسلان، فتراجعت وفق خِطّة محكمة. بقصد فصل فرسان الفرنجة عن مشاتهم، ووصل هؤلاء الى جوار معسكر المسلمين وكان زين الدين علي كوجك بعسكر الموصل طرف العمق كامناً لهم. فخرج عليهم فأبادهم وخشي فرسان الفرنجة على المشاة ان يصابوا، فرجعوا اليهم فوجدوهم قتلى، وعادت ميمنة المسلمين التي تظاهرت بالتراجع فأحاطت بفرسان

العدو وقتلت منهم حوالي عشرة آلاف فارس، وأسرت الباقين. وكان بين الأسرى الصليبيين الفرسان الثلاثة: بوهمند الثالث وريموند الثالث وجوسلين الثالث. ومعهم القائد البيزنطي قسطنطين كولومان. واقتيد الأسرى جميعهم الى حلب فعرضوا فيها وكانت غياهب السجن مأواهم (١٠ آب ١١٦٤م - ١٩ رمضان ٥٦٠هـ) ثم بعد المعركة هذه سار نور الدين الى حارم فملكها (٢١ رمضان ٥٦٠هـ) وبسقوط حارم أضحت طريق أنطاكية مفتوحة لنور الدين، ولكن هذا القائد العظيم، عندما طلب منه قادته العسكريون مهاجمة هذه المدينة الأخيرة التي أصبحت بدون حماية، أجابهم قائلاً: [إن أخذ المدينة سهل ولكن القلعة، أخذها صعب، وقد يسلّمها أهلها الى الروم، وان مجاورة الصليبيين في انطاكية، أسلم من مجاورة البيزنطيين][1].

وبعد ذلك مضى نور الدين الى بانياس فاستولى عليها لقلة المدافعين عنها (تشرين الأول ١١٦٤م). واغار على طبرية، وعاث في اراضي مملكة بيت المقدس، ولما علم آموري بذلك ورأى أعلام الفرنجة التي وقعت بيد نور الدين والتي كان أرسلها الى بلبيس للتدليل على ظفره، فُتّ في عضده، وصمّم على العودة الى بلاده لحمايتها من نور الدين، فاستمهله شاور ريثما يتدبّر الأمر مع شيركوه وبالنتيجة وبعد التفاوض، تمّ الاتفاق بين الجميع على وجوب انسحاب كلّ من الجيش الأفرنجي والجيش الأسلامي من اراضي مصر، وبقاء شاور على كرسي الوزارة الفاطمية.

وكان أسد الدين شيركوه يتوق الى الخلاص من موقفه الحرج عند ذاك، إذ قلّت الذخيرة لديه وملّ طول الحصار، فرحّب بالصلح. وخرج الجيشان العدوّان من مصر. ورجع الملك آموري الى القدس ثم شَخَصَ

---

(١) ابن الأثير: الكامل ص.١٢٢ - ١٢٣ - ج(١١)

الى أنطاكية، بعدما انضمّت اليه قوات الكونت دي فلاندرَ أخي زوجته، وأخذ يفاوض نور الدين بشأن الصلح واطلاق سراح الأسرى. فأجابه نور الدين بالقبول، وبادر الى اطلاق بوهمند الثالث، لقربه من امبراطور البيزنطيين ولقاء فدية كبيرة.

وبعد إطلاقه توجّه بوهمند الى القسطنطينية لطلب المساعدة من الأمبراطور البيزنطي فساعده مالياً، ولقاء ذلك طلب منه تعيين بطريرك ارثوذكسي في انطاكية، هو: أتناس الثاني الرومي الملكاني، فوافق بوهمند على ذلك واستصحب البطريرك معه الى انطاكية، مما جعل رجال الدين اللاتين يحملون عليه، بحيث كان من نتيجة هذا التعيين ان ترك البطريرك اللاتيني أيمري، مدينة انطاكية الى حصن القصير، وبذلك ترسخت سلطة البيزنطيين على انطاكية، بصورة أقوى.

لقد مضى وقت ليس بالقصير، وشاور سيّد الدولة في مصر، يرتع في بحبوحة من العيش، ظانّاً ان الدهر صفا له بعد الضيق. ولكنه نسي ان عيون آموري، وشيركوه ما زالت مصوّبة نحو بلاده الغنية الواسعة.

فمن جهته، كان الملك آموري يعمل على تحسين علاقاته مع البيزنطيين ويفكّر بذات الوقت بأنشاء سيادة مشتركة بينه وبينهم على الأراضي الممتدة من قيليقية، حتى وادي النيل[1].

اما أسد الدين شيركوه فلم يزل مُلِحّاً على نور الدين لحمله على إرسال جيش الى مصر لاحتلالها، (لكونها بلا رجال). فكان نور الدين يتردّد ويفكّر، بالرغم من أنه كان يعتبر فتح مصر، من قبيل الجهاد الديني، إذ بضمها الى جبهة القتال، ضد الأفرنج، إنما يقّوي جبهته السورية، ويضع هؤلاء بين نارين، الى أن اقتنع اخيراً بصواب رأي قائده، وتأكد

---

(1) Zoé Oldenbourg: Les Croisades P. 382.

من ان الصليبيين سيعودون ولا شك الى مصر، إن هو أحجم عن أخذها، ولذا أرسل وفداً على رأسه أسد الدين شيركوه نفسه الى بغداد ليستصدر من الخليفة العباسي فتوى تبرّر أنّ عمله هذا جهاد ديني. وأجابه الخليفة الى ما طلب وجعل له إمرة مصر في حال أخذه لها.

وفي تلك الأثناء قام نور الدين بمحاصرة حصن القنيطرة قرب طرابلس وأخذه عنوة (٥٦١ هـ - ١١٦٥ م).

وفي سنة ٥٦٢ هـ - ١١٦٧ م، قرّر نور الدين إرسال حملته الثانية إلى مصر، فكلّف القائد اسد الدين شيركوه بقيادتها، واختار له ألفي فارس من أشاوس جنده ومعهم جماعة من الأمراء وفيهم صلاح الدين ابن أخي شيركوه، وسار هذا بجملته، ولم يعلم بها شاور حتى أخبره الملك أموري بها، وكان الأفرنج قد أقاموا تجريدة في الأراضي المصرية، بعد الحملة الأولى عليها. فطلب شاور من الملك إنجاده واعداً إياه بدفع جزية كالمرة السابقة. فلبّى طلبه بعد ان وافق مجلس البارونات عليه، وسار بجيشه على ساحل البحر (٧ ربيع الثاني ٥٦٢ هـ - ٣٠ كانون الثاني سنة ١١٦٧ م)، فيما كان شيركوه يتخذ طريق الصحراء من وادي الغزلان، لسيره، تجنباً للصدام مع الأفرنج، ولكن ريحاً شديدة أثارت عليه الرمال فكادت تطمره، فنجا منها بعد ان أعاقته بعض الوقت، فوصل الى أطفيح على بعد أربعين ميلاً جنوبي القاهرة، ثم أكمل سيره حتى الجيزة فعسكر فيها قبالة الفسطاط، وكان الجيش الصليبي قد سبقه ونزل على ظاهر بلبيس، حيث خرج اليه شاور مع جيشه.

وعند وصول جيش أسد الدين الى أطفيح لم يشأ الملك آموري الاشتباك معه قبل توقيع المعاهدة بينه وبين الخليفة الفاطمي نفسه، وهي التي بمقتضاها تتعهد دولة مصر بأن تدفع خراجاً سنوياً للقدس،

وتضع نفسها تحت حمايتها. وقد أوفد الملك بعثة لمقابلة الخليفة الفاطمي للتأكد من الاتفاق، تتألف من صاحب قيسارية، هوج، وأحد فرسان الداوية المدعو: جوفروا، وكان لا بدّ للخليفة من الموافقة على تلك المعاهدة التي عرضت عليه من قِبل شاور والصليبيين، والتعهد بدفع مائتي الف دينار معجلة ومثلها مؤجلة ثمناً، لمساعدة الأفرنج لمصر، ضد نور الدين.

بعد ذلك، عزم الأفرنج على مباغتة شيركوه وعبور النيل لضربه في المكان الذي هو فيه، فعلم قصدهم، واجتاز الى البرّ الغربي، ولحق به شاور والصليبيون، فسار الى الجيزة وخيّم بها مقدار خمسين يوماً واستمال اليه قوماً يقال لهم الأشراف الجعفريون، وبعث رسولاً الى شاور مع رسالة جاء فيها:

[انا احلف لك بالله الذي لا إله الاّ هو، وبكل يمين يثق به المسلم من أخيه، أني لا أقيم ببلاد مصر ولا أعود اليها أبداً، ولا أمكّن أحداً من التعرّض اليها، ومن عارضك فيها كنت إلباً معك عليه، وما أؤمل الاّ نصر الأسلام فقط، وهو أن العدو قد حصل في هذه البلاد، والنجدة عنه بعيدة، وخلاصه عسير، وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت عليه، وننتهز فيه الفرصة التي قد أمكنت والغنيمة التي قد كتبت، فنستأصل شأفته ونخمد ثائرته، وما أظن أن يعود يتفق للأسلام مثل هذه الغنيمة ابداً].

ولكن أين من شاور، حمية الأسلام، وأين منه حبّ الفداء؟ فقد قتل الرسول وأعلم الملك آموري بأمر رسالة شيركوه، وجدّد معه الأيمان. ولو أصغى لصوت الضمير لكان انقلب الموقف لمصلحة المسلمين، وقضي على الصليبيين، وهي فرصة لا تعوّض.

وعلى كلّ نزل شاور، اللوق والمقسم (اللوق: الأراضي اللّينة عند الباب الصالحي). وأمر بعمل الجسر بين الجزيرة والجيزة، وبشحن المراكب بالرجال، الذين عليهم أن يجيئوا من خلف عسكر أسد الدين[1].

وعلم هذا الأخير باقتراب شاور منه، فسارع بالرحيل الى قرية دلجة ونزل عليها، ونزل شاور، الأشمونين (بين البحر اليوسفي والنيل) وبرفقته جيش الأفرنج. ووقعت المعركة بين شيركوه وشاور وحلفائه في البابين جنوبي المنيا.

كان أهل الأسكندرية، قد ثاروا وولّوا عليهم نجم الدين بن مصال وهو إبن أحد الوزراء المصريئن السابقين، وأرسلوا الى شيركوه خزانة من السلاح، ردّاً على خيانة شاور وتحالفه مع الأفرنج، وكان شيركوه قد استشار أصحابه في المقاومة او الرجوع الى الشام فكلّهم أشاروا بالرجوع، على اعتبار ان قوات الصليبيين والمصريين تفوق قوّاتهم عدداً وعدة، إلاّ أن شرف الدين يرغش، أحد القادة في جيش شيركوه، عارض الرجوع وراح يحرّضهم على القتال فوافقه صلاح الدين، إبن أخي شيركوه، كما وافقه هذا الأخير، وقال لهم: [إن من يخاف القتل والأسر، لا يخدم الملوك، بل يكون في بيته مع امرأته]. وأخذ يحضّهم على القتال ويخوّفهم من عواقب تسليمهم مصر للصليبيين، فثارت حميتهم وأجمعوا على المقاومة.

ولما كانت قوات أسد الدين شيركوه تقلّ عن قوات الحلفاء الصليبيين والمصريين، عمد أسد الدين الى ترتيب جنده بصورة تجعل صلاح الدين في القلب، اي مقابل جند مصر، وهو (اي أسد الدين) في الميمنة مقابل أموري، بينما يكون الأكراد في الميسرة. وكان الثقل، على ما

---

(١) ابو شامة: الروضتين جزء(١) ص٤٢٥.

يبدو، في القلب. وعند التقاء الجمعين، ظهر الصليبيون والمصريون متفوقين في البداية، فقتل من جيش شيركوه قسم كبير فتقهقر صلاح الدين متراجعاً مع جماعته، إما عن حيلة حربية وإما تحت ضغط قوة الخصم، فما كان من أموري إلا ان اندفع بمَن معه، في إثره، فتركه شيركوه مندفعاً ثم أطبق بجناحي جيشه عليه، فأوقع به مقتلة عظيمة وأتى السيف على معظم أصحابه فلم ينج هو من القتل الاّ بشق النفس وكاد أن يؤسر، وانهزم أموري وفي اعقابه شاور، ومن خلص من جيشهما، متجهين نحو الشمال، فعبروا النيل (٢٥ جمادى الثانية /٥٦٢/ هـ - ١٨ اذار ١١٦٧ م). وكانت حصيلة قتلى فرسان الصليبيين (١٧٠) قتيلاً. والأسرى (٧٠) من باروناتهم بمن فيهم: هوج صاحب قيسارية.

ومضى شاور، الى منية ابن خصيب، في الصعيد الأدنى، بينما سار أسد الدين الى الأسكندرية، فدخلها ثم تركها وسلّم زمامها الى ابن أخيه صلاح الدين، وأبقي فيها، مَن كان مريضاً أو جريحاً من الجند، وعاد الى الصعيد بدلاً من ان يقتفي اثر أعدائه الى القاهرة، ويقول ابن تغري بردي [لو ساق اسد الدين خلف اعدائه في الحال لَملك القاهرة][1].

على أن فلول الجيش الصليبي عادت فانضمت الى جند شاور، وأتتها نجدة، بقيادة: جيرار دي بوجي، تبعت النجدة التي سبقتها بقيادة: الهنغري، صاحب شقيف تورون (Honfroi de Touron) وفيليب النابلسي، واحتشدت هذه الجموع في القاهرة، استعداداً للقاء شيركوه، الذي كان قد عاد الى الصعيد ليجمع الأموال والمؤن. ولما تأكد شاور والصليبيون بأنه بعيد عن الأسكندرية، ساروا اليها، وألقوا الحصار

---

(١) النجوم الزاهرة جزء(٥) ص.٣٤٩.

عليها، من البرّ والبحر، وكان قد وصل اليها أسطول بيزاني اشترك معهم في هذه العملية، وقد ضاق هذا الحصار وتضايق منه أهالي المدينة، ولكن صلاح الدين عرف كيف يهدىء من روعهم ويدافع عنهم خير دفاع، فأظهر من البراعة والمهارة والشجاعة والصبر والأقدام، ما بهر العقول واجتذب قلوب الأهالي نحوه. وإذ رأى نفسه بعد ذلك في وضع صعب، أرسل يستنجد بعمّه أسد الدين، وكان إذ ذاك في (قوص)، فتوجّه هذا نحو القاهرة، وفي عزمه ان يحتلّها.

واستمر صلاح الدين يدافع عن المدينة ويقاوم العدوّ حوالي الثلاثة اشهر، ولم يتزعزع الأفرنج ولا شاور عن حصارها، إلاّ بعد ان علموا بأن شيركوه، بدأ بحصار القاهرة من بركة الحبشة، وفي ذات الوقت كانت ترامت الى الملك أموري، أنباء الحملات التي يقوم بها نور الدين على ممتلكات الصليبيين فساوره القلق على مملكته في القدس، ذلك انه على إثر الحملة الثانية التي قادها شيركوه الى مصر، طلب نور الدين من أخيه قطب الدين، مساعدته في جهاده ضد الأفرنج، ليمنعهم من مجابهة اسد الدين واللحاق به الى مصر، فأقبل قطب الدين بعسكره من الموصل، كما أقبل امراء العراق مع جندهم للاشتراك في الجهاد، واجتمع نور الدين بهم في حمص، كما يقول ابن الأثير (الكامل جزء ١١ - ص١٣٢). ثم قام معهم بغزو مقاطعة طرابلس ونهبها، وبمحاصرة (عرقة) وجبلة وتخريبها، وبالاغارة يميناً وشمالاً في شتّى الاتجاهات، فأخذ (العريمة) وصافيتا وبعدئذ عاد مع أصحابه الى حمص، حيث أمضى الجميع شهر رمضان، ومنها توجهّت هذه القوات بأجمعها الى مقاطعة القدس، فعاثت فيها واستولت على حصن هونين، المشرف على وادي الأردن الأعلى، ودكّته دكّاً، ومن ثم عادت الى مواقعها وتفرّقت، وقبل ان يعود قطب الدين الى الموصل، أقطعه أخوه، الرقة[1].

(١) ابن الأثير: الكامل ج١١ - ص١٣٢ - وابن العديم: زبدة الحلب. ص٣٢٤.

وفي سنة ٥٦٣ هـ - ١١٦٧ م - سار نور الدين الى منبج فانتزعها من يد إبن حسّان، ثم مضى الى قلعة نجم وعبر الفرات الى الرها وبعدها عاد الى حلب، وكان ذلك في شهر رجب.

ولما وصلت حالة حصار الأسكندرية الى ما وصلت اليه، من مضايقة للفريقين المتحاربين كما مرّ آنفا، ورأى كل منهما ان ظروفه تقتضي التوقف عن القتال، قامت المفاوضات بينهما للاتفاق على حلّ للمسألة المصرية، وعمد شيركوه من جهته الى تكليف أرنول، صاحب تلّ باشر، وهوج صاحب قيسارية، الأسيرين السابقين في معركة البابين، للتوسط في سبيل الصلح. وتمّ الاتفاق بالنتيجة على عقد معاهدة، يتعهد بموجبها الأفرنج وشيركوه، بالتخلي عن مصر، والعودة الى بلاديهما (آب ١١٦٧ م - ٥٦٣ هـ)، على أن يقدّم شاور لأسد الدين جميع ما غرّمه. في هذه الحملة بالأضافة الى مبلغ ثلاثين الف دينار، وللملك أموري جزية سنوية قدرها مائة الف دينار. وقد رفع الحصار عند توقيع المعاهدة، عن القاهرة والأسكندرية في وقت واحد. وتسلّم المصريون هذه المدينة الأخيرة في منتصف شوال من السنة ذاتها. وسار شيركوه الى الشام. اما الافرنج، فعادوا الى بلادهم بعد ان ابقوا شحنة في القاهرة، كما نصت عليه المعاهدة الخاصة بينهم وبين شاور[1].

* وعلى إثر رفع الحصار عن مدينة الأسكندرية. قام صلاح الدين بزيارة مجاملة، للملك أموري في معسكره، فاستضافه هذا عدة ايام، ثم قدّم له بناء لطلبه، بعض المراكب لنقل المرضى والجرحى من جند المسلمين الى الشام.

وهكذا خلصت مصر مرة ثانية للوزير الداهية شاور ولكن الى حين.

---

(١) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر: ج(٢) صفحة ٦٠.

وما يلفت النظر هنا ان الحامية التي تركها الأفرنج في القاهرة يبلغ عددها ألف جندي، مما يدل على ان مصر غدت محمية صليبية، كما تقول زوى اولدنبورغ في كتابها: (الحروب الصليبية صفحة ٣٨٤).

بعد حملته وعودته من مصر، تزوّج الملك أموري الأول، بالأميرة ماري كومنين البيزنطية، إبنة جان كومنين، إبن اخي الأمبراطور مانويل كومين. وكان موفده الى القسطنطينية لهذه الغاية، المؤرخ وليم الصوري، الذي كلّف أيضاً بأجراء المفاوضات مع الأمبراطور البيزنطي، لتدبير حملة مشتركة على مصر، يعطى البيزنطيون مقابل اشتراكهم فيها، إمارة انطاكية، وقسماً من أراضي مصر. واتفق على هذه الصورة، على ان يكون اللقاء بين الجيش والاسطول البيزنطي مع القوات الأفرنجية في عام ١١٦٩م، وعلى الساحل المصري (ايلول ١١٦٨م)[1].

ولكن قبل الموعد المعيّن لوصول المدد البيزنطي، أقدم الملك أموري على الزحف الى مصر، وذلك تحت ضغط وإلحاح القادة والأمراء وخصوصاً قادة الأسبتارية، على رأس جيش لجب، إشترك فيه البيزانيون، وغادر هذا الجيش عسقلان في العشرين من تشرين الأول ١١٦٨م - ٥٦٤هـ.، متجهاً نحو بلبيس، فوصلها بعد حوالي عشرة ايام، واستولى عليها عنوة في الرابع من تشرين الثاني، وذبح أغلب اهاليها، كباراً وصغاراً بوحشية لم تصدر الا عن الصليبيين الأول. ثم قسم الملك، الاسرى المسلمين الى قسمين: قسم استرقّه، والقسم الآخر، أطلقه لعدم الفائدة منه، وتابع سيره نحو الفسطاط. وكان شاور عندما ورده نبأ مسير أموري الى مصر، أرسل اليه وزيره بدران بغية الاستعلام منه، عن سبب مجيئه وخرقه المعاهدة السابقة، فأعلمه الملك

---

(1) Zoé Oldenbourg: Les Croisades P. 387.

بأنه قادم للخدمة، ولكن شاور استراب منه فعاد وأرسل اليه شمس الخلافة، محمد بن مختار بذات المهمة، فصارحه الملك بأن قوماً من اوروبا جاءوا من وراء البحر. يقصدون مصر، فأتى برفقتهم ليكون وسيطا بينهم وبين المصريين، وطلبوا مبلغاً من المال قدره الف الف دينار، فطلب شمس الخلافة من الملك، البقاء في مكانهم ريثما يخبر شاور بذلك، فرفض أموري هذا الطلب، وعند ذاك قام شاور بمقابلة الخليفة الفاطمي العاضد، طالباً اليه الأستنجاد بنور الدين لنصرته، فوافق الخليفة على ذلك وكتب الى نور الدين كتاباً يطلب فيه منه، المعونة، على ان يكون له مقابلها، ثلث مصر، وأن يكون اسد الدين شيركوه مقيماً عندهم، وأرسل شاور من جهته كتباً مع كتاب الخليفة وألحقها بأخرى بهذا المعنى. وتتابعت الكتب الى نور الدين من العاضد وشاور، كما ضمن الخليفة بعض كتبه شعور نسائه دلالة على الاستغاثة الزائدة، وكان نور الدين في حلب لما أتته كتب الخليفة، وشاور فخشي على مصر، وهو كان يميل الى التدخل في أمورها بطبيعة الحال. فدعا اليه، أسد الدين شيركوه في حلب فحضر واجتمع به فور وصوله. فامره نور الدين بسرعة تجهيز العساكر الى مصر، وأعطاه مائتي الف دينار، سوى الألبسة والآلات والاسلحة والذخائر، واختار ألفي فارس من الجند، ومن التركمان ستة آلاف فارس، وضم اليه نور الدين جماعة من الأمراء منهم: عز الدين جرديك وغرس الدين قلج وشرف الدين يرغش وناصح الدين خمارتكين وعين الدولة بن اليارقي، وقطب الدين ينال بن حسّان المنبجي وغيرهم، وقد تردّد صلاح الدين، إبن أخي شيركوه، كثيراً قبل ان يوافق على مرافقة هذه الحملة (ربيع الأول ٥٦٤ هـ - كانون الأول ١١٦٨ هـ). وبعث نور الدين برسالة ظاهرة الى شاور يعلمه فيها بأن العساكر واصلة الى مصر، وبرسالة سرّية الى الخليفة العاضد، حملها الفقيه عيسى الهكّاري، الذي أمره نور الدين، باطلاع العاضد على اشياء عيّنها،

ويكتم أسرارها عن شاور[1].

وفي تلك الأثناء كان الأفرنج قد تابعوا مسيرتهم نحو الفسطاط، غير ان شاور استبقهم وأحرقها لمنعهم من أخذها، وبقيت النار تشتعل فيها أربعة وخمسين يوماً (٤ صفر ٥٦٤ هـ). فلما رأوا المدينة تحترق، اتجهوا نحو بركة الحبش ثم نزلوا على القاهرة فحصروها، فقاومهم أهالي البلد خوفاً من أن يعاملوهم معاملة أهالي بلبيس.

ولما وصل جيش أسد الدين شيركوه الى سيناء، علم به الملك أموري، فترك حصار القاهرة عائداً الى بلبيس، لكي يفاجئه هناك ويمنعه من دخول القاهرة إلا انه لم يستطع قطع الطريق على شيركوه وفشل في الحؤول دونه ومتابعة السير. فنزل اسد الدين بالمقس ثم واصل زحفه الى بلبيس التي اضطر أموري الى إخلائها، وخشي هذا الأخير الاصطدام مع شيركوه بمعركة قد لا يحالفه فيها النصر، نظراً لمقاومة أهالي مصر ضده، وتحالفهم مع عدوّه، فعاد القهقرى متراجعاً، مخذولاً الى بلاده، وهو يحرق الأرم ويلعن كل من أشار عليه بهذه الحملة على مصر، التي لم يكن من نتيجتها الا أخذه بعض المال من شاور اثناء تفاوضه معه (٨ كانون الثاني ١١٦٩م - ٧ ربيع الثاني ٥٦٤ هـ).

وفتحت القاهرة أبوابها لأسد الدين، واستقبلته استقبال الفاتحين، فأكرمه الخليفة العاضد وشكره على تلبية ندائه، عندما قدم اليه في قصر الخلافة، وتعهد له بتموين جيشه، وإعطائه المال حسبما وعد به نور الدين في رسائله، أما شاور فقد عمد الى المماطلة في تقرير ما بذله الخليفة من مال وإقطاع لشيركوه، وصار يتصل سرّاً بالأفرنج، طالباً منهم المجيء الى دمياط بالبرّ والبحر، ولما رأى تأخرهم في تلبية النداء،

---

(١) ابو شامة: الروضتين ج(١) صفحة ٤٣٢.

لجأ الى الحيلة مع أسد الدين، وأخذ يتردد عليه في مجلسه، ويدخل عليه ويخرج من عنده بدون استئذان، يحيط به رجاله، في الحلّ والترحال، وكان أسد الدين يتظاهر بالترحيب به، ويستقبله بكل حفاوة، فيما كان كلّ منهما ينوي شرّاً بالآخر، ويسرّ بنفسه الأيقاع بخصمه، على أن أمر شاور، لم يكن ليهمّ أسد الدين فقط بل كان الخليفة العاضد وصلاح الدين وسواهما من أمراء الجيش النوري، يفكرون ايضا بقتله ليأمنوا على أنفسهم من غدره ومكره.

وقد سنحت الفرصة لصلاح الدين بن أيوب، ليقوم بهذا العمل كما سيجيء، وذلك قبل ان يتسنى لشاور تنفيذ ما عزم عليه من قتل أسد الدين، ذلك ان ابنه، الكامل، بعدما تحقق من نيات والده بقتل القائد النوري، عارضه بأصرار وقال له: [والله لئن عزمت على هذا الأمر. لأعرّفنّ شيركوه] فأجابه أبوه: [والله لئن لم نفعل هذا لنُقتلنَّ جميعا]، فقال: صدقت، ولئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية، خير من أن نقتل وقد ملكها الأفرنج فانه ليس بينك وبين عود هؤلاء، الاّ ان يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذ لو مشى العاضد الى نور الدين، لم يرسل معه فارساً واحداً، ويملكون البلاد] ثم قال: لأن يكون لنا أمير مسلم خير من أن يكون لنا صديق إفرنجي، فان هذا لا يلبث ان يصير عدوّاً. اما ذاك، فلا يكون الا صديقا حمياً ومخلصاً اميناً وفياً][1].

ويقول أبو الفداء بصدد حادثة قتل شاور ما يلي: [ثم ان شاور عزم على أن يعمل دعوة لشيركوه وأمرائه، ويقبض عليهم، فمنعه ابنه الكامل من ذلك، ولما رأى عسكر نور الدين من شاور ذلك، عزموا على الفتك به، واتفق على ذلك صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك وغيرهما، وعرّفوا شيركوه بذلك، فنهاهم عنه، واتفق ان شاور قصد

(١) أبو شامة: الروضتين. ج(١) ص.٣٩٧ - وابن الأثير: الكامل ج(١١) ص.١٥٢.

شيركوه على عادته، فلم يجده في المخيم، وكان قد مضى لزيارة قبر الشافعي، فلقي صلاح الدين وجرديك. شاور، وأعلماه برواح شيركوه الى زيارة الشافعي، فساروا جميعاً الى شيركوه فوثب صلاح الدين وجرديك ومن معهما على شاور وألقوه الى الأرض عن فرسه، وأمسكوه في سابع ربيع الآخر من هذه السنة، أعني سنة أربع وستين وخمسمائة. فهرب أصحابه عنه، وأرسلوا يعلمون شيركوه بما فعلوه، فحضر ولم يمكنه إلاّ اتمام ذلك، وسمع العاضد الخبر، فأرسل الى شيركوه يطلب منه إنفاذ رأس شاور، فقتله وأرسل رأسه الى العاضد، ودخل بعد ذلك شيركوه الى القصر عند العاضد، فخلع عليه العاضد خلعة الوزارة ولقبّه: الملك المنصور، أمير الجيوش، وسار بالخلع الى دار الوزارة، وهي التي كان فيها شاور، واستقرّ في الأمر، وكُتب له منشور بالأنشاء الفاضلي، يفوّض اليه أمور الخلافة، وكتب العاضد بخطّه على طرّة المنشور: هذا عهد لم يعهد لوزير، بمثله، فتقلّد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحملها. فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخار، بأن اعتزت خدمتك الى بنوّة النُبوّة][1] واما الكامل بن شاور، فلما قُتل ابوه دخل القصر، فكان آخر العهد به.

وبقتل شاور أسدل الستار على حياة هذا الرجل الذي لعب دوراً كبيراً في سياسة الدولة الفاطمية ومصيرها، وأسهم الى حدّ كبير في انقراضها، بما كان يقدم عليه من حبك المؤامرات، والتحالف مع الأفرنج تارة، ومع نور الدين طورا، في سبيل الحفاظ على مركزه في الوزارة، بقطع النظر عن مصلحة المصريين والخلافة الفاطمية.

بعد أن أطلقت يد أسد الدين شيركوه في شؤون مصر، ورتّب أمور الدولة ووضع من يثق بهم من الأمراء في الأعمال المناسبة لهم، لم يهنأ

(١) كتاب المختصر في أخبار البشر. ج(٢) ص.٦٢.

طويلاً في الوزارة، فوافاه أجله وتوفي يوم السبت في (٢٢) جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ - ٢٣ اذار ١١٦٩ م)، اي بعد شهرين وبضعة أيام من توليه الحكم. فخلفه في الوزارة، ابن اخيه،: صلاح الدين يوسف، وكان عمره إذ ذاك احدى وثلاثين سنة، ولقّبه الخليفة الفاطمي: الملك الناصر، وصار يخاطبه نور الدين بعد ذلك، بلقب: الأمير الأسفهلار (أي الأمير الحاكم). وقد اطاعه الأمراء النورية، بعد تردّد، ما عدا الأمير عين الدولة الياروقي، الذي عاد الى نور الدين بالشام، لأنه لم يقبل خدمة صلاح الدين، وبعد قليل من تولّيه الحكم بصفته نائباً لنور الدين طلب صلاح الدين من هذا الأخير، أن يبعث اليه بأبيه وأخوته فلبّى طلبه، مما يدل على ثقته به.

لم يرَ صلاح الدين، التعرّض للمذهب الشيعي في مصر، ولو كان هو سنّي المذهب، فأبقى الأمور على حالها، مكتفيا من هذه الجهة، بذكر إسم نور الدين، في الخطبة على المنابر، بعد اِسم الخليفة الفاطمي؛ على ان أخصام صلاح الدين، وهم كثر، لم يتركوا له المجال. ليتصرف بأمور الدولة كما يريد إذ عرفوا فيه شاباً قويّ الشخصية ذا بأس وسطوة، عنيداً لا يتراجع عما يقرّره، فعمدوا الى دسّ الدسائس ضده، وكان على رأسهم خصيّ أسود، هو مؤتمن الخلافة، الذي أخذ يراسل الأفرنج، ويغريهم للزحف على مصر [حتى إذا خرج صلاح الدين الى لقائهم، يستطيع هو عندئذ القضاء على أصحابه في القاهرة] فكشف أمره لصلاح الدين، فقبض عليه وقتله (٢٥ ذي العقدة ٥٦٤ هـ). وبعد مقتل مؤتمن الخلافة، تعصّب له الحرس السوداني والأرمن التابعون للخليفة، وثاروا على صلاح الدين، وكان عددهم يقارب الخمسين ألفاً، فسيّر اليهم عساكره بقيادة أبي الهيجاء، فأوقع بهم بين القصرين، وذلك بتأييد من الخليفة العاضد، فلم ينج منهم، الاّ القليل، بعد أن اشعل النار في محلتهم المعروفة بالمنصورة، قرب باب زويلة. فطلبوا الأمان وعبروا الى الجيزة،

فلاحقهم الجند حتى أبادوهم، وقد أمر صلاح الدين بتخريب محلتهم وجعلها بستاناً. وكان توران شاه بن أيوب، أخو صلاح الدين قد وصل الى مصر في ذلك الوقت فاشترك بنفسه بقتال السودان.

ومنذ ذلك الحين، جعل صلاح الدين على القصر، خصياً أبيض من رجاله، هو بهاء الدين قراقوش. بيد أن الخليفة العاضد، حينما رأى مدى قوة صلاح الدين، أراد ان يتخلّص من جند الشام، فأرسل الى نور الدين يطلب منه سحب جيشه والاقتصار على صلاح الدين وخواصّه، في مصر، فأجابه نور الدين بأن [قنطاريات الأفرنج ليس لها إلاّ سهام الأتراك (القنطاريات هي نوع من الرماح)، وانه إن سحب الأتراك من مصر، طمع بها الفرنجة ثانية. وأنه يسأل الله ان يُيسّر لهم فتح بيت المقدس][1].

لقد شق على الأفرنج ان تصبح مصر بيد صلاح الدين القائد التابع لنور الدين، وان تتوحد سوريا الأسلامية مع مصر، مما يهدّد كيانهم بالخطر، نظراً لقوة نور الدين، التي اصبحت تسيطر على الشرق الأوسط الأسلامي بأجمعه، فقاموا، على إثر عودتهم الى بلادهم مخذولين، كما مرّ آنفاً، بالاتصال بملك فرنسا: لويس السابع، وبأمبراطور ألمانيا: فريدريك بربروس، طالبين منهما النجدة، ولكن دون جدوى، فأداروا عند ذاك وجههم نحو الامبراطور البيزنطي: عمانوئيل، الذي كان وعد الملك أموري سابقاً بالمساعدة، فتعجل هذا الأخير وقتذاك ولم ينتظر تلك المساعدة، فوقع في شرّ عمله.

وبالفعل، نفّذ الأمبراطور البيزنطي ما كان تعهّد به للصليبيين، فأرسل لهم أسطولاً قوياً مؤلفاً من مائتي سفينة حربية، عُقد لواؤه على الأميرال أندرونيك كونستوستفانوس، فوصل الى عسقلان في شهر أيلول

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ص١٨٣.

سنة ١١٦٩م، حيث انضم اليه، الأسطول الأفرنجي، وأسطول بيزاني كان يعاونه، وأقلع الجميع من مرفأ المدينة في السادس عشر من تشرين الأول ١١٦٩م ووجهتهم الدلتا. بينما سار الجيش براً بقيادة الملك أموري وهدفه مدينة دمياط. وفي آخر الشهر المذكور، بدأت قوات الأفرنج بمحاصرة هذه المدينة التي كان صلاح الدين، قد أخذ إحتياطاته لحمايتها، فشحنها بالمقاتلة والمؤن وحصّنها بقوّة، واثناء الحصار، كان صلاح الدين يقاتل الأفرنج من خارج الأسوار، ومَن في المدينة، من داخلها، ولم يبذل المحاصِرون نشاطاً في القتال، بسبب الخلاف الذي وقع بين الأفرنج وبين البيزنظيين، والناتج عن عدم تبادل الثقة بين بعضهم البعض، بحيث اضطروا بالنتيجة امام استبسال المسلمين وطول الحصار، الى رفعه عن المدينة، والعودة من حيث أتوا، يواكبهم الفشل والخيبة. (١٣ كانون الاول ١١٦٩م - ٢١ ربيع الأول ٥٦٥هـ). وقد استمر الحصار على دمياط مدة خمسين يوماً، كان نور الدين قد أرسل اثناءها، جيشاً بقيادة قطب الدين خسرو الهذباني، لنجدة صلاح الدين، فوصل قبل رحيل الأفرنج، مما عجّل بفك الحصار. كما ان الخليفة العاضد ساهم مساهمة كبيرة في هذه الحرب فأمدّ صلاح الدين بالمال الكثير لتجهيز الجيش وتقويته[١].

لما علم نور الدين بسير الأفرنج نحو مصر، راح يشنّ الغارات على حدود فلسطين لتخفيف الضغط عن صلاح الدين، وحاصر الكرك، فقصده إفرنج الساحل فسار الى لقائهم فارتحلوا وكان في مقدّمتهم، إبن الهنغري.

وكانت حصيلة الحصار على دمياط، ان الأفرنج وحلفاءهم البيزنطيين، فقدوا نصف جيشهم تقريباً إما قتلاً بسيوف أعدائهم، واما

---

(١) أبو شامة: الروضتين ج(١) ٤٥٧ - ٤٥٩.

جوعا بسبب قلة الزاد. اما الاسطول المتحالف فقد هبّت عليه، أثناء عودته، رياح زعزع أغرقت معظمه.

وهكذا خابت آمال الصليبيين والبيزنطيين بعد هذه الحملة الفاشلة.

وبعد هذا النصر يحرزه صلاح الدين، قويت سلطته في مصر، وأصبح مرهوب الجانب من الجميع، وقد أراد اتخاذ خطة الهجوم مع الأفرنج، بدلاً من خطة الدفاع، فعمد منذ أواخر سنة ١١٧٠م - ٥٦٦هـ الى مهاجمة الحدود الجنوبية لمملكة القدس. في الوقت الذي كان فيه الأسطول المصري، يستولي على مرفأ آيلة الأفرنجي، في البحر الأحمر. ويقول ابن الاثير: [كان بأيلة قلعة في البحر، حصينة فسار اليها صلاح الدين في النصف من ربيع الأول، وعمل مراكب نقلها الى البحر بواسطة الجمال. وركّبها هناك وفتح القلعة في العشر الاول من ربيع الآخر، وقتل أهلها، ورجع الى القاهرة في ٢٦ جمادى الأولى ٥٦٦هـ، بعد ان شحنها بالرجال والعدّة، وكان على درب الحجاز منها خطر عظيم[١].

وإذ شعر الملك أموري بالخطر الذي أصبح محدقاً به، من وجود نور الدين وصلاح الدين اللذين أخذا يهاجمانه من جهتين متقابلتين، عزم على الذهاب الى القسطنطينية بنفسه، لأجل العمل على إعادة توثيق عرى التحالف مع الأمبراطور البيزنطي.

وبتاريخ العاشر من اذار سنة ١١٧١م، ابحر الى القسطنطينية، فاستقبله الأمبراطور مانويل كومنين بالحفاوة والأكرام. وبقي العاهل الأفرنجي في عاصمة البيزنطيين ما يقرب من الأربعة اشهر ثم تركها بعد

(١) ابن الأثير: الكامل: ج(١١) ص١٤٧.

ان عقد مع الأمبراطور ميثاق تحالف يضع مملكة بيت المقدس تحت السيادة البيزنطية، وقد وعده هذا الأخير بأرسال اسطول حربي وجيش برّي لفتح مصر، وإظهاراً لحسن استعداده، دخل الأمبراطور فوراً بمفاوضات مع سلاجقة الأناضول، بغية دفعهم لمناوأة نور الدين وعدم التحالف معه.

في تلك الاثناء كان نور الدين يطلب من صلاح الدين، وبناء لطلب الخليفة العباسي في بغداد، المستضيء بالله، قطع الخطبة في مصر للفاطميين وإقامتها للخليفة العباسي. فاعتذر صلاح الدين في البداية، لأسباب بيّنها في ردّه على الطلب، ومنها الحذر من خطر العلويين والسودان وأشياعهم، وكثرة أعدائه. ولكن بعد إلحاح نور الدين المتواصل، وبعد أن أصبح صلاح الدين في مركز قوة بالنسبة لضعف امر العاضد الفاطمي، أقدم على الاستجابة لطلب نور الدين، فقطع الخطبة في المنابر عن الفاطميين، واقامها للعباسيين (محرم ٥٦٧ هـ) في مصر، وأرسل الى نور الدين البشارة بذلك، ولم يحدث اي قتال بسبب قطع الخطبة كما يقول ابن الأثير.

وكان العاضد في تلك الفترة مريضاً، فتوفّي في العاشر من محرم ٥٦٧ هـ واحتفلت بغداد ونور الدين بهذه الخطوة التي أنهت الخلافة الفاطمية، وتألم صلاح الدين لموت العاضد، كما تألّم الشيعة كثيراً لانقضاء الدولة الفاطمية؛ وبعد وفاة العاضد استولى صلاح الدين على قصره، وما فيه من اموال وتحف وأرسل بعض الهدايا الى نور الدين منها، واعتقل أسرة الخليفة، وباعد بين الرجال والنساء منهم في سبيل تشتيتهم وانقراضهم.

اما الأسماعيلية الموجودون في مصر، فقد عظمت عليهم المصيبة فاضطروا للجلاء عنها.

لقد كانت الحصون الصليبية الواقعة جنوبي البحر الميت، تعيق الاتصال بين مصر والشام وأهمها: حصن الكرك والشوبك، فعزم صلاح الدين على غزوها والاستيلاء عليها، كما قرّر نور الدين تدميرها، ولذلك فقد طلب من صلاح الدين اللقاء معه على حصار هذين الحصنين. وخرج صلاح الدين من القاهرة في العشرين من محرّم سنة ٥٦٧ هـ - ٢٥ ايلول سنة ١١٧١ م. وحاصر حصن الشوبك.

وبذات الوقت سار نور الدين نحوه من دمشق، ولما أُنبيء صلاح الدين بسير نور الدين، ترك الحصار وعاد الى مصر، وكان ذلك الحصن على وشك السقوط بيده. وكتب الى نور الدين يعتذر له عن عودته، بسبب اختلال الأمور في مصر، فلم يقبل هذا الأخير عذره، وعزم على المجيء الى مصر وإخراج صلاح الدين منها. فجمع صلاح الدين أهله ومستشاريه، وفيهم أبوه وخاله، وعرض عليهم الأمر، فمنهم من طالب بمحاربة نور الدين، إلا ان نجم الدين أيوب والده، قال إنه لا يوافق على القيام بوجه نور الدين لأن البلادَ بلاده وما هم إلاّ أتباعه، وانفضّ المجلس على نصيحة نجم الدين وهي أن يرسل صلاح الدين الى نور الدين يستميله، ويطلب عفوه.

وبعد المفاوضات بين صلاح الدين ونور الدين استقرّ الأمر بينهما على غزو حصن الكرك، فيخرج صلاح الدين من مصر، ويمضي نور الدين من دمشق، فأيهما سبق صاحبه، يقيم الى أن يصل الآخر اليه، وقد وصل صلاح الدين الى الحصن قبل نور الدين فحاصره، ثم ترك حصاره، لما بلغه قرب وصول نور الدين إليه، عائداً الى مصر. وقد احتج بمرض والده نجم الدين أيوب، فلم يقبل نور الدين عذره هذه المرة أيضاً. وبالفعل توفي والد صلاح الدين بعد قليل من عودته الى مصر، إثر سقوطه عن جواده (أوائل سنة ١١٧٣ م - ٥٦٨ هـ).

بيد أن نور الدين ، كان يعلم في قرارة نفسه ، أن صلاح الدين ، يتجنّب لقاءه قصداً فأخذ الشك يساوره لجهته وصمّم على عزله حينما تتاح له الفرصة ، اما صلاح الدين ، فكان يخشى أن تسوء الأمور بينه وبين نور الدين ، ورأى أن يهيء لنفسه ملجأ آخر غير مصر ، فيما لو تأزمت الأحوال واضطر الى تركها قسراً ، فجهّز لهذا الغرض ، جيشاً سلّم قيادته الى أخيه تورانشاه لفتح بلاد النوبة واليمن ، بعد ان أخذ موافقة نور الدين على ذلك ، ولم يفطن نور الدين لغاية صلاح الدين الحقيقية من تجهيز هذا الجيش ، ولو فطن لذلك فما كان له أن يمنعه. فمضى تورنشاه نحو بلاد النوبة ففتحها ثم سار الى اليمن ، وجرت المعارك بينه وبين صاحبها المسمّى : عبد النبي بن مهدي فانتصر عليه وأسره ثم قصد عدن ، وكان صاحبها ياسر ، قد عزم على مقاومته ، فهزمه تورانشاه ، وأسره أيضاً ، وتمكن من ثم أن يضع يده على بلاد اليمن كلها ، ويستولي عليها باسم صلاح الدين ونور الدين.

ما كاد تورانشاه يغادر مصر بجيشه الى اليمن ، حتّى هبّ أعداء صلاح الدين وهم خليط من الشيعة العلوية ، وبقية من الجند السودانيين. والاسماعيلية يكاتبون الافرنج في فلسطين والنورمانديين في صقلّية ، طالبين معونتهم للوثوب على صلاح الدين والتخلّص منه ، فَفُضحت مؤامرتهم ، بسعي زين الدين علي بن نجا الواعظ ، وكان الرأس المدبّر لها : الشاعر عمّارة اليمني ، فقبض عليه صلاح الدين ، وصلبه مع رفاقه من كبار المتآمرين ، ومن بينهم ، عبد الصمد الكاتب ، والقاضي العُويرس ، وداعي الدعاة وغيرهم. وقد جزت محاكمة المتآمرين أمام القضاء ، فاعترفوا بجريمتهم التآمرية للقيام بالثورة ضد صلاح الدين ، وأعادة الدولة العلوية في مصر ، وبتحالفهم ، مع الأفرنج لهذه الغاية (٦ نيسان ١١٧٤ م - رمضان ٥٦٩ هـ).

وبعد القضاء على هذه المؤامرة، بوقت قليل، توفي الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بن أقسنقر (١١ شوال ٥٦٩ هـ - ١٥ ايار سنة ١١٧٤ م) في دمشق، وأتى نعيه صلاح الدين، فتنسّم نسيم الأمل وانشرح صدره، إذ ارتفع عبء ثقيل عن كاهله.

وقد ترك نور الدين بعد وفاته، ولداً لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره، إذ ذاك، هو الملك الصالح إسماعيل.

كان نور الدين اسمر البشرة، طويل القامة، ليس له لحية الاّ في حنكه، حسن الصورة، طبّق ذكره الأرض، بعدله وحسن سيرته، كثير الزهد والعبادة مُلِمّاً بالفقه الحنفي، غير متعصّب، ولا متزمّت. وهو الذي بنى اسوار مدن الشام بعد تهدّمها بالزلازل الأرضية، مثل دمشق وحمص وحماة وحلب. وشيزر وبعلبك وغيرها، كما بنى المدارس الكثيرة الحنفية والشافعية، وكان لموته صدى مؤلم قوي في البلاد الأسلامية بأجمعها.

وكان نور الدين، يعتبر دائماً صلاح الدين، تابعاً له، ويؤكد في مراسلاته له، بأنه واحد من أمرائه، فلم يخصّه بكتاب خاص، بل كان يوجه له كتبه بصفته قائداً للقوات النورية في مصر، فكان يقول [الأسفهلار صلاح الدين (مقدّم العساكر) وكافة الأمراء بالديار المصرية، يفعلون كذا ولا يكتب اسمه بل علامته][1].

ولما أرسل صلاح الدين بعض الهدايا الى نور الدين، إثر استيلائه على قصور الخليفة الفاطمي العاضد، أوفد نور الدين، وزيره الموفّق القيسراني الى مصر، لتنسّم أخبارها والاستعلام عن دخلها، ومعرفة

---

(١) أبو شامة: الروضتين ج(١) ص٤٠٨.

كيفية صرف أموالها والجهة التي صرفت فيها، وذلك بغية تقرير المبالغ التي يجب على صلاح الدين إرسالها كل سنة[١].

لم يمرّ على وفاة نور الدين، طويل وقت حتى وافت المنية ملك الأفرنج: أموري الأول إثر إصابته بحمّى التيفوس في القدس (١١ تموز ١١٧٤ م). مخلّفاً ولداً عمره ثلاث عشرة سنة، هو بودوان الرابع الأبرص أو (الأجذم).

وكان أموري الأول قبل وفاته، قد ألقى الحصار على مدينة بانياس، مغتنماً فرصة غياب وجه نور الدين عن مسرح الأحداث. وبذات الوقت كان ينتظر وصول الأسطول النورماندي الصقلّي الذي دعاه أعداء صلاح الدين بعد موت العاضد، الى مصر غير ان هذا الأسطول لم يصل الى مياه الأسكندرية ،الاّ بعد غياب الملك أموري بقليل، ودون أن يعلم بفشل المؤامرة المصرية على صلاح الدين. وقد حاصر هذا الأسطول، مدينة الأسكندرية مدة خمسة أيام (٢٨ تموز - ٢ آب ١١٧٤ م - شوال ٥٧٠ هـ). ولم يتمكن منها، علماً بأن إفرنج سوريا لم يهبّوا لمساعدته، كما كان المأمول، نظراً للخلاف الذي وقع بينهم بعد موت أموري. وهكذا لم يجد النورمانديون بدّاً من رفع الحصار عن المدينة، بعدما دافع عنها صلاح الدين دفاعا أوقع الهزيمة بهم بسهولة فعادوا من حيث أتوا. بخفيّ حنين.

كما أن الأسطول البيزنطي الذي اعتمد عليه الملك الأفرنجي الراحل لم يظهر له أثر فخلا الجو عندئذ لصلاح الدين، وصار عليه، أن ينظر الى الأحداث المستجدّة، نظرة أخرى.

---

(١) - ابو شامة: الروضتين. ج(١) ص٥٢٤ - ٥٢٥.
- ابن واصل: مفرج الكروب ص٢٣٢.

الفصل الخامس

سقوط مملكة الأفرنج

على إثر وفاة نور الدين، اجتمع الأمراء النورية، وتعاقدوا على نصرة ابنه الصالح إسماعيل، وكان فيهم: القاضي كمال الدين الشهروزي، وشمس الدين ابن المقدم وجمال الدولة ريحان وهو أكبر الخدم، والعدل أبو صالح بن العجمي أمين الأعمال، والشيخ إسماعيل خازن بيت المال، واتفقوا جميعاً على أن يتولى العدل ابو صالح بن العجمي، منصب الوزارة، وأرسل الصالح إسماعيل الى صلاح الدين يخبره بموت والده، ويطلب منه ان يخطب له بمصر. فأجابه صلاح الدين بكتاب تعزية بالمتوفّى، مبدياً استعداده لخدمته ومجاهدة الأفرنج تحت رايته وبعث اليه مع الكتاب، بدنانير ضُربت باسمه[1].

وفي تلك الأثناء سار شمس الدين محمد بن عبد الملك، المعروف بابن المقدّم، وهو مدبّر الدولة، الى الفرنجة الذين حاصروا بانياس، وبعد مفاوضات تمّ الصلح بينه وبينهم (اوائل حزيران ١١٧٤ م - ٥٦٩ هـ).

وكان صلاح الدين قد خرج لصدّ الأفرنج، وقطع في طريقه الى الشام، اربعة مراحل، فوصلته الأخبار بالهدنة هذه، فلم يرض عنها وكتب الى أمراء دمشق يلومهم عليها (١٢ ذي الحجة ٥٦٩ هـ).

---

(١) - ابو شامة: الروضتين ج(١) صفحة ٤٨٦ - ٥٨٧.
- أبو الفداء: المختصر في اخبار البشر ج(٥) صفحة ٧٥.

وصادف أن كان سيف الدين غازي قادماً بعساكر الموصل بناء لطلب نور الدين سابقاً، فأتاه نعي هذا الأخير، فما كان منه إلاّ ان استولى على نصيبين، والخابور، ثم مضى نحو حرّان فحاصرها وأخذها، كما أخذ الرها والرقة، وسروج وبعدها عاد الى الموصل.

وخشي شمس الدين علي بن الداية والي حلب، من أن يطمع سيف الدين غازي في هذه المدينة، فأرسل سعد الدين كمشتكين (الذي هرب من قلعة الموصل بعد موت نور الدين) الى دمشق، لينتقل بالملك الصالح اسماعيل الى حلب. ولما قام كمشتكين بمهمته وعاد الى حلب برفقة الملك الصالح والعدل أبو صالح بن العجمي واسماعيل الخازن، قبض على شمس الدين علي بن الداية، وعلى أخويه: سابق الدين عثمان وبدر الدين حسين، صاحبي حصون جعبر وتل باشر وحارم، كما قبض على رئيس الشيعة: ابن الخشّاب وقتله.

ولما رأى رئيس عساكر دمشق، مدبر الدولة: شمس الدين بن المقدم وسائر الأمراء في دمشق. ما أقدم عليه كمشتكين من أعمال ضد شمس الدين بن الداية وأخويه، أرسلوا الى غازي يطلبون منه القدوم الى دمشق لتسلّمها فلم يفعل خوفاً من مكيدة يكيدونها له، ثم جرى التفاهم بينه وبين الملك الصالح، بواسطة أمين الدين هاشم. خطيب حلب وقطب الدين بن ينال، على ان تبقى البلدان التي استولى عليها سيف الدين غازي بيده.

عندئذ، وخوفاً من سطوة كمشتكين، قام ابن المقدم وغيره من أمراء دمشق وأهاليها بمراسلة صلاح الدين، ودعوته لتملّك المدينة. فلبّى الطلب، وسارت جريدة في سبعمائة فارس، الى بُلْبيس، وتقدم نحو صدر وآيلة ثم بصرى، وكان معه رسل الأمراء الدمشقيين، فواكبه صاحب آيلة، للخدمة، الى الكسوة ثم الى دمشق، فدخلها يوم الأثنين سلخ ربيع

الأول ٥٧٠ هـ - ٢٨ تشرين اول ١١٧٤ م، بعد مقاومة بسيطة امام المدينة. واستقبله أهاليها والعسكر استقبالاً حسناً، ونزل بدار أبيه المعروفة بدار العقيقي، وبقيت القلعة دون تسليم، وكان فيها من قِبَل الملك الصالح، الخادم ريحان، ففاوضه صلاح الدين واستماله اليه، فسلّمه إياها[1] وكان صلاح الدين، قبل مجيئه الى دمشق، قد تأخر بسبب الثورة التي قام بها رجل مصري من أهل الصعيد يقال له: الكنز، وارتحل الى أسوان، فأرسل اليه صلاح الدين، عسكراً بقيادة أخيه سيف الأسلام طغتكين، فهزمه في ٧ صفر سنة ٥٧٠ هـ (أبو شامة: الروضتين ج(١) ص ٦٠٠ - وابو الفداء ج(٥) ص(٧٦).

وبقي صلاح الدين في دمشق مدة شهر واحد ثبت قدمه خلالها فيها، وقرّر أمرها بأن استخلف فيها أخاه سيف الأسلام طغتكين بن أيوب.

واثناء وجود صلاح الدين في دمشق، أوفد الأمراء النورية بحلب، الأمير قطب الدين ينال بن حسّان، لمقابلته بشأن الملك الصالح، وتذكيره بفضل نور الدين عليه، وقال له ينال عند المقابلة: [انك جئت لأخذ الملك لنفسك ودون ذلك خرط القتاد]، فاحتمل صلاح الدين منه ذلك (أبو شامة: الروضتين: ج(١) ص(٦٠٧).

ومن ثم سار صلاح الدين نحو حمص، في مستهل جمادى الأولى (وكانت حمص وحماة وبارين وسلمية وتل خالد والرها من بلاد الجزيرة في إقطاع فخر الدين ابن الزعفراني)، فحاصرها (١١ جمادى الأولى) ثم أخذها، وامتنعت عليه قلعتها، فجعل عليها من يحاصرها، ورحل الى حماة

---

(١) - أبو شامة: الروضتين ج(١) ص ٦٠٠ - ٦٠٣.
- ابن الأثير: الكامل ج(١١) ص ١٦٨.
- ابو الفداء: المختصر في اخبار البشر ج(٥) ص ٧٦.

فملكها (١٣ جمادي الأولى ٥٧٠ هـ) وكان بقلعتها الأمير عز الدين جرديك (النوري) فامتنع بها، فأقنعه صلاح الدين بأن غرضه من القدوم الى الشام، إنما هو حفظ البلاد للملك الصالح اسماعيل بصفته نائبه. فاستحلفه جرديك على ذلك، ثم سلّمه صلاح الدين رسالة لأيصالها الى الأمراء، في حلب، فلما وصل جرديك الى تلك المدينة بالرسالة واطلع عليها كمشتكين قبض عليه هذا وسجنه بتهمة الخيانة العظمى، وألحقه بابن الداية واخويه، الذين كانوا لا يزالون قيد السجن في جبّ القلعة.

عند ذلك عمد شمس الدين بن علي، أخو عز الدين جرديك، الى تسليم قلعة حماة التي كانت بيده، الى صلاح الدين، الذي كان معسكراً في جباب التركمان (مستهل جمادى الآخرة).

ثم بعد ذلك ترك صلاح الدين حماة متجهاً نحو حلب، وخيّم على جبل الجوشَن وألقى الحصار على هذه المدينة الأخيرة، وبها الملك الصالح! اسماعيل: وخشية من أن يقدم أهل حلب على تسليم مدينتهم الى صلاح الدين، جمعهم إسماعيل، وعرض عليهم وضع المدينة واعداً إياهم بأجابة طلباتهم السابقة التي كانوا اعلنوها وهي: إعادة شرقي الجامع إليهم، ليصلّوا فيه على قاعدتهم، والجهر بحيّ على خير العمل، والأذان والتذكير في الأسواق وقدّام الجنائز بأسماء الائمة الاثني عشر، والصلاة على أمواتهم خمس تكبيرات، ورفع العصبية وقمع الفتنة[١]. وخطب فيهم الملك قائلاً: [انه ربيبهم، ولاجىء إليهم، وأجهش بالبكاء، فهاج الناس ورموا بعمائمهم وبكوا وقالوا له: نحن عبيدك وعبيد أبيك، نقاتل بين يديك، نبذل أموالنا وأنفسنا لك][٢].

(١) ابو شامة: الروضتين ج(١) ص٦٠٩.
(٢) نفس المصدر - ص٦٠٥ - ٦٠٩.

ولما اشتد الحصار على حلب وطال، تضايق الأهالي منه، مما دفع بسعد الدين كمشتكين عند ذاك، لمراسلة الأسماعيلية من أجل التحالف ضد صلاح الدين، وأوفد لهذه الغاية رسولاً من قبله، الى رئيسهم شيخ الجبل راشد الدين سنان، يطلب اليه العمل على التخلص من عدّوهم صلاح الدين، وذلك مقابل بعض المال والضياع يعطيهم إياها إن قتله. فكلف سنان جماعة من الحشّاشين التابعين له للقيام بالمهمة. فتسلّل هؤلاء الى معسكر صلاح الدين، في أحد الايام وكان الطقس بارداً وممطراً، وهم متنكّرون، ودخلوه دون صعوبة، والتقوا بطريقهم صاحب حصن أبي قبيس: الأمير ناصح الدين خمارتكين فعرفهم، فقتلوه قبل أن يأتي بأية حركة، وقصد أحدهم خيمة صلاح الدين، فكُشف أمره وقتله أحد المكلّفين بالحراسة: وهو طغريل أمير جاندار، فحاول رفاقه اقتحام خيمة صلاح الدين، فقاومهم الحاضرون وتغلّبوا عليهم، فقتلوا قسماً منهم وفرّ الباقي فلوحق وقُتل[١].

عند ذاك عمد الملك الصالح الى طلب المساعدة من الأفرنج فلبّاه صاحب طرابلس ريموند الثالث، وكان وقتذاك قيما على الملك الصبي بودوان الرابع. بعد أن اطلق كمشتكين سراحه من الأسر، وأسرع ريموند الى التوجّه جنوباً نحو حمص، بقصد قطع خطّ الرجعة على صلاح الدين الذي اضطر الى رفع الحصار عن حلب، والمضيّ الى حمص لحمايتها، مما دعا صاحب طرابلس الى ترك حمص والنزول الى حصن الأكراد، فما كان من صلاح الدين إلاّ ان حاصر قلعة حمص وملكها بعد ثلاثة ايام من الحصار (٢١ شعبان ٥٧٠ هـ) واثناء عودته الى دمشق، استولى بطريقه اليها على مدينة بعلبك من صاحبها: الخادم (يُمن).

---

(١) أبو شامة: الروضتين ج(١) ص٦١٣ - ٦١٤.

اما الأفرنج فقد عادوا الى بلادهم بعد ان انتهت مهمتهم، وقام كمشتكين بتعهّداته تجاههم، من حيث إطلاق جميع أسراهم في حلب بما فيهم رينو دي شاتيّون وجوسلين دي كورتناي.

هذه الحالة التي وصلت اليها الأمور في الشام، دفعت بصلاح الدين الى العمل على تدبير أمور مصر والشام بصورة اكثر شرعية، وذلك بأخذ موافقة الخليفة العباسي في بغداد، على ما يقوم به من جهاد ضد الأفرنج، وبالتالي على مناهضة أخصامه من المسلمين، الذين يقفون عائقاً في هذا السبيل، فيظهر بذلك للملأ بأنه حامي المسلمين والأسلام، ويبرّر اعماله تجاه الرأي العام الاسلامي (الذي كان يعلّق عليه أهمية كبيرة. وهكذا توالت رسله الى الخليفة المستضيء بالله، ليطلب منه تقليده أمور مصر والشام، مدّعياً، تأييداً لطلبه، بوجوب درء خطر الأفرنج واسترداد بيت المقدس منهم، خصوصاً ان السبب في خروجه الى الشام هو تلبية لرغبة الشاميين أنفسهم، بعد أن ارتكب الملك الصالح أخطاء لا تغتفر، من حيث تقريبه الأسماعيلية وتقرّبه من الأفرنج ودفعه الجزية لهم، الى آخر ما كانت تتضمنه كتبه للخليفة من أمور يرى تبيانها توضيحاً لما كان سبق له أن قام به مع عمه أسد الدين شيركوه في سبيل جهادهما ضد الأفرنج.

واستمرت مكاتبات صلاح الدين للخليفة بهذا الشأن، تتواصل الى أن اقتنع المستضيء بالله بحسن نيته فأجابه الى ما طلب، وكان الخطيب شمس الدين بن الوزير أبي المضاء البعلبكي، رسوله للخليفة، أما الكتب المرسلة باسمه فمن إنشاء القاضي الفاضل.

وأمام القوة التي أظهرها صلاح الدين في حكمه لبلاد الشام، رأى الملك الصالح بالاتفاق مع كمشتيكن وصحبهما، أن لا بد من الاتفاق مع

سيف الدين غازي صاحب الموصل، (وهو ابن عم الملك الصالح) لمواجهة هذا القائد، الصاعد نجمه بسرعة البرق، والتغلّب عليه لأخراجه من الشام مهما كان الأمر، قبل أي يخرجهم من بلادهم. وفي هذا السبيل جهز سيف الدين غازي جيشاً قاده أخوه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي وجعل مقدّمه عز الدين محمود، ولقبه:سلفندار، وطلب أخاه الأكبر عماد الدين، زنكي بن مودود، صاحب سنجار ليسير في النجدة أيضاً فامتنع، مسايرة لصلاح الدين، فمضى غازي لمحاصرته في سنجار، بدلاً من أن يشترك هو في الحملة.

وزحف عز الدين مسعود بجيشه نحو حلب، حيث انضم اليه جيش الملك الصالح، واتجه الجيشان المتحالفان الى حماة فحصراها. وعندها جرت المفاوضات بالصلح، وكان الباديُ بها، صلاح الدين الذي أبدى فيها تجاه أخصامه كل نية حسنة، إذ عرض عليهم إعطاءهم مدينتي حمص وحماة، بينما تبقى دمشق بيده ويكون فيها نائباً للملك الصالح، فلم يستجيبوا الى عرضه، انما طلب كمشتكين، برأي أبي صالح بن العجمي، أن يعطى الرحبّه (وهي لابن عم صلاح الدين: ناصر الدين ابن أسد الدين شيركوه) فرفض صلاح الدين ذلك، على اعتبار أنه لا يمكنه اعطاء شيٍ ليس له: وظن المتحالفون، أن موقف صلاح الدين ناتج عن ضعفه، فأصروا على طلبهم، وكان صلاح الدين، وهو يفاوض أخصامه، يطيل المحاورة قصداً ويماطلهم ريثما يلحق به، باقي جيشه، إذ كان في قلة من الجند، وقد تمكن هكذا ،من استمالة بعض الأمراء الحلبيين أثناء ذلك.

الآن ان الحلبيين والموصليين قررّوا القتال،قبل ان يفلت منهم الزمام، فهاجموا صلاح الدين، فجابهم بقواته القليلة، وعند بدء المعركة، أنجده حظّه، الذي لا يتخلّى عنه، فوصلت جيوشه كلها

واشتركت فوراً بالقتال.وما لبث الأمراء الحلبيون الذين مالأوا صلاح الدين، أن تركوا صفوفهم من جيشي أعدائه، وفرّوا من المعركة، مما أشاع الفوضى وأحدث بلبلة في الجيشين المتحالفين فوقعت الواقعة بهما: وكان النصر من نصيب صلاح الدين، فغنم أموال أعدائه وأثقالهم، فانهزموا لا يلوون على شيء (١٣نيسان ١١٧٥ م-١٩رمضان ٥٧٠ هـ). وقد جرت هذه المعركة في محلة تدعى: قرون حماة. ومن ثم لاحق صلاح الدين فلول جيشي حلب والموصل الى مدينة حلب، بعد لجوئهم اليها فحاصرها للمرة الثانية[١].وكان الحصار هذه المرة أيضاً، من الشدة، بحيث عانى منه الحلبيون ما عانوا.فأرسل الملك الصالح الى صلاح الدين في طلب الصلح: وجرت المفاوضات بينهما بهذا الشأن وانتهت الى اتفاق على الأمور الآتية وهي: أن يقرّ الملك الصالح، صلاح الدين على ما بيده من البلاد الشامية التي افتتحها: دمشق وحمص وحماة، يضاف اليها كفر طاب وبعرين. والمعرّة، وأن يجعل صلاح الدين، الدعوة للملك الصالح في جميع ولاياته وكذلك السكة، وينجده بجيشه اذا قصده عدوّ. على أن يطلق الملك الصالح أخوة مجد الدين بن الداية، السجناء لديه. وقد حلف صلاح الدين اليمين على ذلك كما حلفها الملك الصالح وأمراؤه[٢]-.

ويتبيّن من بنود هذا الصلح بأن الملك الصالح لم يعد بحوزته من البلاد إلاّ حلب وما والاها.

وتنفيذاً للاتفاق، توجه صلاح الدين بعد ذلك الى بعرين ، فأخذها من صاحبها فخر الدين مسعود بن الزعفراني، وهو من كبار الأمراء

---

(١) - ابو شامة: الروضتين ج(١) ص٦٣٣ - ٦٣٩.
- ابو الفداء: المختصر في اخبار البشر - ج(٥) ص٧٧.

(٢) أبو شامة: الروضتين. ج(١) ص٦٣٩ - ٦٤٠.

النورية. ثم عاد الى دمشق، حيث تلقّى فيما بعد، الخلع والتشريفات من الخليفة العباسي، وكتاباً موقعاً من الديوان يعترف له فيه الخليفة، بالسلطنة، في بلاد الشام ومصر (- ١٢ شوال سنة ٥٧٠ هـ).

بعد ذلك، أمر صلاح الدين العساكر المصرية بالعودة الى بلادهم. ولكن تبيّن له إثر عودتهم بأن أخصامه لايزالون يضمرون له الشرّ، لاسيما وان سيف الدين غازي لم يقبل بالصلح الذي عقده مع الملك الصالح، بل لام الحلبيين على ذلك وأرسل اليهم من أخذ يمينهم على محاربة صلاح الدين: فعمد هذا إلى إيفاد رسول من قبله الى الخليفة العباسي، يعرض له واقع الأمر، ويطلب منه أن يتوسط مع سيف الدين، ليحلف اليمين بعدم نقضه العهد معه، والا فليسمح له بمهاجمته لأرغامه على ذلك[١]-.

وإذ كان سيف الدين غازي يستعد لمحاربة صلاح الدين ويعلن جهراً أنه سيهاجم الشام لأخراجه منها، فقد طلب هذا الأخير، الى أخيه العادل، نائبه في مصر، أن يبعث اليه بالجند، نجدة له: ففعل.

وعمد سيف الدين في تلك الأثناء الى مصالحة أخيه عماد الدين صاحب سنجار. بعد أن كان يحاصره في مدينته، عقاباً له على تخلفه سابقاً عن الأشتراك في محاربة صلاح الدين. وعاد الى الموصل وطلب المساعدة من ماردين وحصن كيفا، فاجتمع له ستة آلاف فارس، سار بهم الى نصيبين ثم الى الفرات، فعبره عند ألبيرة، وعسكر بالجانب الشامي منه ثم ارسل الى الملك الصالح يعلمه بمجيئه: فأرسل اليه وزيره كمشتكين. للتفاوض معه. وبعد أن تم التفاهم بين سيف الدين وكمشتكين، التقى الملك الصالح، بسيف الدين قرب قلعة حلب، فاتفقا على طلب المساعدة

---

(١) ذات المرجع - صفحة ٦٤٧ - ٦٤٨.

من الأفرنج ثم افترقا فعاد الصالح الى القلعة، وسار سيف الدين بجيشه حتى نزل بعين المباركة وأقام بها. ولما حان الموعد المعين، اجتمع جيشاهما، وكان الجيش الحلبي بقيادة كمُشتكين وتوجه الجميع نحو تلّ السلطان حيث نزلوا هناك، والتقاهم صلاح الدين، بعد أن وافاه عسكر مصر، وجرت المعركة بينهم، فكان النصر فيها من نصيب صلاح الدين بالنتيجة. فاستولى على أثقال أعدائه المنهزمين وأموالهم وأسر عدداً من جندهم، بعد أن قُتل منهم من قتل وهرب من هرب (١٠ شوال ٥٧١ هـ - ٢٢ نيسان ١١٧٦ م).

وبعد هذه الهزيمة، عادت فلول الجيوش المتحالفة الى حلب، ومن هناك مضى سيف الدين غازي الى الموصل، فيما بقي أخوه عز الدين وبمعيتّه قسم من جيشه في حلب اما صلاح الدين.فبعد ان وزّع الغنائم على جنده وأطلق من وقع في يده من الأمراء والمقدّمين الذين كانوا في الجيوش المتحالفة، زحف الى منبج، وبها قطب الدين ينال بن حسان فملك المدينة ثم القلعة (٢٩ شوال)، وأطلق قطب الدين رغم رفضه خدمته. ومن هناك قصد قلعة عزاز وهي على بعد خمسة عشر ميلاً من حلب. فضيق عليها الحصار الذي استمر ٣٨ يوماً كان عسكر حلب، خلال هذه المدة يقوم بمهاجمة جيش صلاح الدين بصورة خاطفة وبأوقات متفرقة، الى أن استسلم المدافعون عنها، نتيجة الثقوب في أسوارها (١١ ذي الحجة ٥٧١ هـ ٢١٢ حزيران ١١٧٦ م) وكان صلاح الدين قبل ذلك قد استولى على بزاغة وقلعتها (٢٢ شوال ٥٧١ هـ).

واثناء حصار عزاز، تعرض صلاح الدين لمحاولة اغتيال من قبل (الأسماعيلية): ذلك أن كمشتكين، كان قد كاتب زعيم الطائفة: راشد الدين سنان، وأغراه بالمال والضياع، ليعمل على تدبير مؤامرة لقتل صلاح الدين بأية طريقة.كانت فأرسل راشد الدين جماعة من الحشاشين

تزيوا بزي الجند الصلاحي واختلطوا بالجيش واشتركوا في الحرب معه فأبلوا فيها بلاءً حسناً فلم يفطن لهم أحد. وفي اليوم الحادي عشر من ذي القعدة سنة /٥٧١/ هـ كان صلاح الدين جالساً في خباء الأمير جاولي الأسدي ، يشرف منه على الحرب ، ففاجأه أحد هؤلاء الحشاشين وطعنه بسكين حادّ عدة طعنات في جسمه ورأسه ، لم تؤثر فيه بسبب الزردية التي كان يرتديها دائماً ، تحت ثيابه ، وقبل أن يمسك به صلاح الدين استطاع الحشاش أن يصيبه بجرح بسيط في خده ، فأمسك بيده عندئذٍ صلاح الدين وعاونه عليه: يا زوكوج فقتله ، فوثب إليه آخر. فقتله داود بن منكلان. بعد أن أصيب بطعنة من الحشاش مات إثرها: وتبعها حشاش ثالث فأمسك به علي بن ابي الفوارس ، وهرب الرابع فقتله الجند[1].

وبعد أن انتهى هذا الحادث بسلامة ، عمد صلاح الدين الى استعراض جنده ليتحقق مما اذا كان هناك من ينتمي الى الحشاشين ، ويبعد من ينكره منهم. وبقي الحصار على عزاز من قبله حتى سقطت بيده.

وقد بعث القاضي الفاضل كتاباً الى الملك العادل يطمئن خاطره على هذا الحادث يقول له فيه[السلامة شاملة ، والراحة بحمد الله للجسم الشريف الناصري حاصلة ، ولم ينله من الحشيشيّ الملعون إلاّ خدش قطرت منه قطرات دم خفيفة ، انقطعت لوقتها واندملت لساعتها ، والركب على رسمه ، والحصار لعزاز على حكمه ، وليس في الأمر بحمد الله ما يضيق صدراً ولا ما يشغل سرّاً][2] -.

---

(١) أبو شامة: الروضتين ج(١) ص٦٥٨ - ٦٦١.
(٢) الدكتور احمد بيلي: حياة صلاح الدين الأيوبي. ص١٣٢ - ١٣٣.

ولا شك أن من حق صلاح الدين أن يغضب ويتأثر لهذه المحاولة الخبيثة التي كان أعداؤه يستهدفون بها حياته، فأسرع الى حلب، ليحاصرها وبها الملك الصالح (منتصف ذي الحجة ٥٧١ هـ) وعسكر على جبل جوشن، ومنع الدخول اليها او الخروج منها. ولم يسمح لعساكره بمقاتلتها لأن أهلها كانوا يحفظونها جيداً ويدافعون عنها. ولما اشتد الحصار على الحلبيين وطالت مقاومتهم له، جرت المراسلات والمفاوضات للصلح، فوافق عليه الفريقان، ودخل فيه صاحب الموصل وصاحب الحصن وصاحب ماردين. وعقد الصلح في ٢٥ تموز ١١٧٦ م - اوائل محرم ٥٧٢ هـ -. ومن الشروط المتفق عليها في هذا الصلح أن يترك للملك الصالح حلب وأعمالها فقط، ويبقى بيد صلاح الدين كل ما ملكه من البلاد.

وقد أقدم صلاح الدين في هذه المناسبة على رد قلعة عزاز الى الحلبيين إذ أعطاها لأخت الملك الصالح، وهي ابنة نور الدين محمود، الصغرى أرسلها قومها لتطلبها منه فلبّى طلبها. بعد ذلك رحل صلاح الدين عن حلب قاصداً بلاد الأسماعيلية، وألقى الحصار على قلعة مصياف، من معاقلهم القوية(صفر٥٧٢ هـ) ولم يرفعه عنها الاّ بعد أن تم الصلح بينه وبين زعيمهم: راشد الدين سنان(شيخ الجبل)، وذلك بناء لتوسط صاحب حماة: شهاب الدين الحارمي. خال صلاح الدين.

وفي ربيع الاول ٥٧٢ هـ رحل صلاح الدين الى مصر، لتفقد شؤونها بعد طول غيبته عنها، وترك أخاه شمس الدولة، نائباً عنه في دمشق، وكان قد تزوج من الخاتون عصمة الدين أم الملك الصالح اسماعيل وأرملة نور الدين محمود.

ولما وصل صلاح الدين الى مصر أمر ببناء سور القاهرة والقلعة التي

على جبل المقطم كما أمر ببناء المدرسة التي على الشافعي بالقرافة بمصر وأنشأ بالقاهرة مارستاناً[١]....

بودوان الرابع (الأجذم) ملك القدس

بينما كانت الحرب دائرة بين صلاح الدين وأخصامه من الأمراء المسلمين، انتهز الأفرنج تلك الفرصة، وعلى رأسهم الملك بودوان الرابع الأجذم البالغ من العمر (١٤) سنة، للقيام ببعض الحملات على الشام. فتقدموا الى داريا، التي لا تبعد عن دمشق أكثر من خمسة كيلومترات وعاثوا فيها، واستولوا على بلدة: بيت جِنّ، وهدموها (آب ١١٧٥ م - ٥٧١ هـ). فاضطر صلاح الدين عند ذاك، نظراً لوضعه الدقيق مع الملك الصالح اسماعيل، وابن عمه سيف الدين غازي، صاحب الموصل، إلى عقد هدنة مع الأفرنج ليمكنه التفرغ الى مشاكله الداخلية. غير أنهم عادوا ونقضوا تلك الهدنة. ذلك أنهم، أثناء وجود صلاح الدين في مصر، قاموا، بقيادة الملك بودوان الرابع، بغزوة الى البقاع، محاولين الاستيلاء على بعلبك، ولكن بدون طائل، إذ قابلهم شمس الدولة تورانشاه في عنجر، وجرت معركة بين الفريقين، انتصر فيها الأفرنج، وأسروا القائد: ابن السلار. ثم عادوا الى صور يحملون الغنائم. وفي هذا الوقت، كان الكونت دي فلاندر: فيليب الألزاسي، الذي وصل حديثاً الى الأرض المقدسة مع جيش كبير من الأفرنج، ينضم الى جيش ريموند الثالث، صاحب طرابلس، ويهاجمان معاً مدينة حماة، حيث لقيا مقاومة قوية من قبل سيف الدين بن أحمد بن المشطوب قائد حاميتها، فيتركانها ويسيران نحو حصن حارم فيحاصرانه (جمادى الآخرة ٥٧٣ هـ - ١١٧٧ م). واستمر الحصار عليه أربعة اشهر دون طائل، فرحلا عنه

(١) أبو الفداء: المختصر في اخبار البشر. ج(٥) ص٨٠.

فاشلين، مما دفع بأهل هذا الحصن بعدئذ، لتسليمه الى الملك الصالح اسماعيل، درءاً لخطر الصليبيين (العشر الأواخر من شهر رمضان ٥٧٣ هـ).

كان حصن حارم بيد سعد الدين كمشتكين، مقدم عسكر الملك الصالح. فطلب منه هذا تسليمه الحصن قبل أن يحاصره الأفرنج، فرفض، فقتله الملك ثم بعد أن فكّ الأفرنج الحصار عنه، تسلمه الصالح من أهاليه كما مرّ.

ولما علم صلاح الدين وهو في مصر، بما كان من أمر الفرنجة ونقضهم الهدنة السابقة، كان لا بدّ من أن يعود الى الشام، فجهزّ جيشه وخرج متجهاً نحو فلسطين، فاجتاح الدارون وغزة، حتى اضطر ملك القدس للجوء الى مدينة عسقلان، فحاصره فيها. وبدلاً من أن يعمد السلطان الى مهاجمة هذه المدينة، وأخذها نظراً لضعف حاميتها وقلة عدد جيش الملك الأفرنجي، أبقى حولها قوة من جيشه، وتركها متابعاً سيره على طريق القدس. حيث قام بحرق القرى ونهبها والعبث في أرض الصليبيين. وعندما رأى الملك بودوان الرابع، من أعلى ابراج المدينة ان صلاح الدين ابتعد عنها، خرج منها ولحق به دون أن يشعره بذلك. فدار بجيشه نحو الشمال على الساحل، ثم انعطف جنوباً لشرق، الى أن فاجأ جيش السلطان، وهو يعبر نهراً في الوادي، بالقرب من الرملة. فهاجمه، وأوقع به هزيمة شنعاء، وكبده خسائر فادحة، وشتت جنده، وكاد صلاح الدين نفسه أن يفقد حياته، لولا عنَاية الله، ودفاع أصحابه البواسل عنه.

وقد جرت هذه الموقعة بين تل الجسر وتل الصافية في ٢٥ تشرين الثاني ١١٧٧ - اواخر جمادي الأول ٥٧٣ هـ - ووقع في الأسر من جيش المسلمين، عدد كبير من الجنود، يبلغ (١٥٠٠) أسيراً من

بينهم، الفقيه عيسى الهكاري، صديق صلاح الدين؛ الذي افتداه السلطان بعد سنتين من الأسر بستين ألف دينار. اما القتلى من المسلمين فيقدر عددهم بحوالي ثلاثين ألفاً، كما يقول جان ريشار في كتابه: مملكة القدس اللاتينية صفحة ٥٦، في هامشها[1]. ويسمى الأفرنج هذه الموقعة: (Montgisard) ويعتبرون أنها خلصّت سوريا من أكبر خطر تعرضت له حتى ذلك التاريخ.

وكان جيش الصليبيين إذ ذاك، تحت قيادة ملك القدس: بودوان الرابع وبمعيته فرسان الهيكل ورينو دي شاتيون (أرناط) وجوسلين الثالث دي كورتناي: خال الملك بودوان (كان رينو وجوسلين أسيرين لدى المسلمين وأطلقا سابقاً)؛ والأخوان: ديبلن: وصاحب صيدا: رينو وكاهن بيت لحم: أوبير، الذي كان يحمل الصليب الحقيقي. ويبلغ عدد ذلك الجيش: ثلاثة آلاف، منهم: (١٧٥). فارساً، والباقي من المشاة. يقول أبو الفداء بمناسبة هذه الموقعة: [في هذه السنة (٥٧٣ هـ) في جمادى الأول، سار السلطان صلاح الدين من مصر، الى ساحل الشام لغزو الفرنج، فوصل الى عسقلان في الرابع والعشرين من الشهر فنهب وتفرق عسكره في الأغارات. وبقي السلطان في بعض العسكر، فلم يشعر الاّ بالفرنج قد طلعت عليه فقاتلهم أشد قتال. وكان لتقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن أيوب ولداسمه أحمد، وهو من أحسن الشباب، اول ما قد تكاملت لحيته، فأمره أبوه تقي الدين بالحملة على الفرنج، فحمل عليهم وقاتلهم، فأثر فيهم أثراً كثيراً وعاد سالماً. فأمره أبوه بالعود إليهم ثانية، فحمل عليهم. فقتل شهيداً. وتمت الهزيمة على المسلمين. وقاربت حملات الفرنج السلطان فمضى منهزماً الى مصر على البرية، ومعه من سلم. فلقوا في طريقهم مشقة وعطشاً شديداً. وهلك كثير من الدواب. وأخذت الفرنج العسكر

---

(1) Jean Richard: Le Royaume Latin de Jerusalem, P. 56.

الذين كانوا يتفرقون في الأغارات أسرى. وأسر الفقيه عيسى وكان من اكبر أصحاب السلطان صلاح الدين. ووصل السلطان الى القاهرة نصف جمادي الآخرة] وقد تركت الهزيمة أثراً عميقاً في نفس صلاح الدين، فكتب من مصر الى أخيه توران شاه (شمس الدولة) نائبه بدمشق يذكر له الموقعة، مستهلاً كتابه بهذا البيت من الشعر:

ذكرتك والخطي تخطر بيننا　　وقد نَهلتْ منّا المثقفّة السمرُ

ثم يقول فيه [لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة، وما نجانا الله منه الاّ لأمر يريده سبحانه وتعالى، وما ثبتت إلاّ وفي نفسها أمر].

لم يطل صلاح الدين المكوث في مصر، فعاد الى الشام بعد ثلاثة اشهر، وكان الأفرنج بغيابه عن الشام، قد بدأوا بأقامة حصن بالقرب من بانياس، عند بيت يعقوب، بمكان يُعرف بمخاضة الاحزان، وهو حرم بين المسلمين، والصليبيين، وذلك بغية درء الغزوات عن منطقة الجليل، وأكملوا بناءه وملأوه بالذخيرة والميرة (تشرين الأول ١١٧٨ م) وسُمي هذا الحصن: قلعة يعقوب؛ ويشرف بموقعه على الطريق ما بين طبرية والقنيطرة. فطلب السلطان من الملك بودوان الرابع، هدم هذه القلعة مقابل مائة ألف دينار، فرفض وقام بحملة على دمشق لمقاتلتها، اعتقاداً منه بأن الحظّ سيكون بجانبه دائماً في حربه مع صلاح الدين ولكن هذا الأخير، أرسل لملاقاته إبن أخيه الأمير فرّخشاه، بينما مضى هو الى ناحية طبرية لتخريب تلك القلعة، المشار اليها. وقد التقى فرخشاه بالملك بودوان في غابة بالقرب من بانياس وجرت بينهما معركة مريرة، انتصر بنتيجتها الجيش الأسلامي انتصاراً باهراً، على جيش الملك الصليبي، فقتل منه عدداً كبيراً، وكان من بين الجرحى: القائد

الأعلى لهذا الجيش : أنفروا دي تورون (الهنفري)، الذي توفي بعد أيام في حصن هونين (نيسان ١١٧٩م - ٥٧٥هـ). وبقي صلاح الدين يحاصر قلعة يعقوب، ويرسل السرايا خلال ذلك الى نواحي صيدا وبيروت وغيرها للغزو والنهب.

عندها صمّم الملك بودوان الرابع، على مهاجمة السلطان، فجمع جيشاً كبيراً قاده بنفسه، يرافقه صاحب طرابلس وسار نحو سهل مرجعيون الواقع بين نهر الليطاني وحرج بانياس: وبوصوله الى أعالي بلدة هونين، ظهر له جيش صلاح الدين، وهو يقوم بالتجمع في السهل؛ فأراد مباغتته، ومفاجأته كما فعل في معركة تل الجسر السابقة؛ بحيث إنه اندفع بفرسانه صوب بعض الفصائل المتفرقة من ذلك الجيش وصدمها بقوة فاندحرت منهزمة، فما كان من السلطان إلا أن أسرع بتجميع قواته، بصورة تمكن معها من التقدم نحو الأفرنج والانقضاض عليهم كالصاعقة، فأوقع فيهم مقتلة عظيمة وسقط منهم قسم كبير بين جريح وأسير وكان من بين الأسرى مقدم فرقة الداوية (الهيكليين): أود دي سانت أرمان (١٠ حزيران ١١٧٩م).

وبعد شهرين من هذه الموقعة المظفرة، عاد السلطان الى حصار قلعة يعقوب فلم تصمد أمامه أكثر من خمسة أيام حيث استولى عليها وأسر من لم يقتل من حاميتها والمدافعين عنها من الأفرنج وأرسلهم الى دمشق، بعد أن أطلق المعتقلين فيها من المسلمين. ثم أمر بهدمها. وغنم كل ما فيها من أسلحة وذخائر وأقوات.

وفي ذلك يقول علي بن محمد الساعاتي الدمشقي[1]:

---

(١) - أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ج(٥) ص٨٢ - ٨٣.
- Zoé Oldenbourg: Les Croisades P. 409.

أتسكن أوطان النبيين عصبةٌ | تمينَ لدى إيمانها وهي تحلف
نصحتكم والنصح للدين واجب | ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

وكما كان جيش صلاح الدين يخوض الحرب ضد الأفرنج، كذلك كان يخوضها ضد المسلمين في الوقت ذاته، ذلك أن ابن أخيه: تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب سار الى حصن رعبان الذي بيد شمس الدين ابن المقدم، ليخلّصه من الحصار الذي كان يضربه عليه، قليج أرسلان ابن مسعود بن قليج أرسلان، صاحب بلاد الروم، فالتقى جيشاهما بمعركة كان النصر فيها حليف تقي الدين. فهزم بألف فارس، جيش عدّوه البالغ عدده عشرين ألفاً، ولم يمكن قليج أرسلان من أخذ الحصن.

وفي هذه السنة أي سنة ٥٧٥ هـ توفي المستضيء بأمر الله، الخليفة العباسي (٢ ذي القعدة ٥٧٥ هـ) وبويع بالخلافة بعده، ابنه الناصر لدين الله.

كان الأفرنج لا ينقطعون عن التفكير في فتح مصر، والتحالف مع البيزنطيين لهذه الغاية، معتمدين أيضاً على مساعدة الأساطيل الأيطالية، ولكن بعد أن جَهد صلاح الدين في تقوية جيشه البري وأسطوله البحري، بمضاعفته وإنشاء ديوان الأسطول، كما يقول المقريزي (أي وزارة البحرية) وأخذ يهاجم المرافىء الصليبية كلما سنحت الفرصة، فينهبها ويحرقها ويفرض الحصار البحري عليها، مثل عكا وغيرها، لم يعد يرى بودوان الرابع، أن ثمة مجالاً لتنفيذ ما كانوا يعدّونه لفتح مصر، نظراً لما وصلت اليه أوضاع الدولة الصليبية على يد صلاح الدين، خصوصاً وان البيزنطيين كانوا لا يزالون في شغل شاغل بحروبهم مع سلاجقة الروم، في حين ان البنادقة والجنوبيين والبيزانيين ، عمدوا الى عقد معاهدات تجارية مع السلطان، وعادوا

الى تهريب الأسلحة وغيرها الى البلدان الأسلامية، فلهذه الأسباب طلب الملك بودوان الرابع عقد الهدنة. فوافق صلاح الدين على طلبه، ليمكنه التفرغ لفصل خلافات الحكام والأمراء المسلمين الكثيرة، بصفته حكماً أعلى بينهم وعقدت الهدنة مع الملك (٥٧٦ هـ - ١١٨٠ م). وقد انضم اليها فيما بعد صاحب طرابلس: ولم تدخل بها أنطاكية، بسبب خلافاتها الداخلية وكانت مدة تلك الهدنة سنتين قابلة للتجديد.

وفي هذه السنة نفسها توفي سيف الدين غازي بن مودود صاحب الموصل، والديار الجزرية. بعد أن كان أوصى بالملك الى أخيه عز الدين مسعود، وأعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها الى ولده سنجار شاه (٣ صفر ٥٧٦ هـ). وأصبح مجاهد الدين قيماز، الحاكم الفعلي في الدولة.

ثم توفي شمس الدولة توران شاه أخو صلاح الدين الأكبر في الأسكندرية بعد أن كان تنازل عن مدينة بعلبك وأخذ عوضها مدينة الأسكندرية فأقام بها.

وبعد ذلك تم عقد مهادنة بين السلطان وأخصامه أمراء الجزيرة (جمادى الأول ٥٧٦ هـ - تشرين الأول ١١٨٠ م) وهم: أمير الموصل وصاحب الجزيرة وأربل وكيفا وماردين، وسلطان قونية السلجوقي وملك أرمينيا، ومدة المهادنة سنتان تعهد فيها هؤلاء جميعاً بالولاء لصلاح الدين، وعدم اشهار الحرب عليه.

ولما اطمأن صلاح الدين من هذه الناحية، رحل الى الديار المصرية ليكمل ما كان بدأه فيها من أعمال عمرانية، وأناب عنه في الشام ابن أخيه: عز الدين فرخشاه، الذي أظهر في كل ما عهد اليه من مهمات، تفوقاً يلفت الأنظار.

موت الملك بودوان الرابع وبدء انهيار مملكة القدس

بعد عقد الهدنة مع المسلمين، لم تعد الأمور في مملكةبيت المقدس، تسير على طبيعتها، إذ أخذت صحة الملك بودوان الرابع تزداد سوءاً، وتدعو للقلق الشديد، فتفشى مرض الجذام في كل انحاء جسمه وبدت عليه آثاره بما فيها من بشاعة متناهية، ودمامة، فجعلته متجهماً، عبوساً كثير الشك في بطانته، خوفاً من أن يقدم المستفيدون من موته، على تنحيته عن الحكم، خصوصاً وان اخته الكبرى سيبيل، وريثته الشرعية، كانت قد ترملت وهي حامل عند مقتل زوجها: غليوم دي مونتفرّات، وأنجبت صبياً هو: بودوان الخامس العتيد، ففكر بتزويجها قبل أن يعلم بأنها انتقت زوجها بنفسها، وهو غي دي‌لوزيتيان القادم حديثاً الى فلسطين: فلم يسعه الا الموافقة عليه، وأقطعه يافا وعسقلان (١١٨٠ م) بالرغم من عدم كفاءة هذا الزوج، وبعدها تزوجت أخته الصغرى: إيزابيل، من شخص تافه هو أنفروا الرابع دي‌تورون البالغ من العمر (١٤) عاماً، وفي ذلك الوقت كانت حالة الملك الصحية تسير من سيء الى اسوأ بحيث بدأت أعضاؤه تتساقط عضواً فعضواً، فحجز في غرفته وراحت أمه آنياس دي‌كورتناي، مطلقة الملك أموري الراحل، وشقيقها جوسلين الثالث دي‌كورتناي، وكيل الملك، يديران أمور المملكة حسب أهوائهما، ويشاركهما في الحكم غي دي‌لوزنيان، يضاف اليهم، رينو دي‌شاتيون، ذلك المغامر، أمير أنطاكية السابق، الذي أصبح زوجاً لوالدة أنفروا الرابع دي‌تورون: ستيفاني دي‌ميللى. صاحبة الكرك ما وراء الأردن. وكان رينودي شاتيون، يحمل حقداً دفيناً للمسلمين، خصوصاً بعد تمضيته في الأسر لديهم مدة طويلة، ولذلك فأنه ما كاد يعلم بالهدنة الواقعة بين السلطان والملك بودوان الرابع، حتى أعلن عن نيته بأنه لا يتقيد بها، وصار يواصل عملياته في غزو ممتلكات المسلمين،

بمعاونة بعض قبائل البدو المرتزقين، لنهبها وسلبها. وقد دفع به الغرور الى التفكير بالزحف على المدينة المنورة لاحتلالها. فمضى في صيف سنة ١١٨١ م - ٥٧٧ هـ بجيشه واجتاح أراضي الحجاز حتى وصل الى تيماء الواقعة بين الشام ووادي القرى، ولكنه لم يتمكن من تحقيق غايته فعاد على أعقابه، وفي عودته فاجأ إحدى قوافل الحجاج المسلمين الذاهبة من دمشق الى مكة المكرمة، وأغار عليها واستولى على ما فيها من غنائم. فاحتج صلاح الدين على هذا الخرق للهدنة من قبل الأفرنج وأرسل يطلب من الملك بودوان الرابع إرغام رينو دي شاتيون على إعادة الأسلاب ملقياً عليه المسؤولية الناتجة عن هذا العمل. ولما طلب الملك ذلك من رينو دي شاتيون، رفض هذا الأخير رفضاً باتاً ولم يقدر الملك ان يفعل شيئاً ضدّه[١].

فغضب صلاح الدين غضباً شديداً، من بودوان الرابع، آخذاً عليه مسؤولية خرق الهدنة، وقد صادف آنذاك أن كان أحد المراكب الأفرنجية الآتي من إيطاليا الجنوبية وهو يقلّ حجاجاً مسيحيين الى القدس، قد غرق على الساحل المصري: فوقع هؤلاء الحجاج بيد السلطان أسرى واقتادهم الى القاهرة، في حين كان ابن أخيه عز الدين فرخشاه، يقوم بالأغارة على نواحي الكرك وتخريب بعض قراها.

وفي خريف تلك السنة نفسها، عقد السلطان في القاهرة مع رسول الامبراطور البيزنطي، صلحاً أرسى قواعد الصداقة والسلام بينهما.

وفي الخامس والعشرين من رجب ٥٧٧ هـ - ٤ كانون الأول ١١٨١ م توفي الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكي ابن أقسنقر صاحب حلب وعمره تسع عشرة سنة، بعد أن كان اشتد به المرض، وأوصى بحلب الى ابن عمه: عز الدين مسعود، ليضمها الى

(1) Zoé Oldenbourg: Les Croisades. P. 414.

الموصل حماية لها من صلاح الدين. وكان متوليّ القلعة فيها. شاذبخت، فطلب من عزالدين المجيء اليها ففعل (٢٠ شعبان ٥٧٧ هـ) وسار اليها من الموصل يرافقه مجاهد الدين قيماز. وكان قسم من عسكره قد سبقه اليها وعلى رأسه الأمير مظفر الدين بن زين الدين، وصاحب سروج. ثم عاد وتنازل عن حلب الى اخيه عماد الدين صاحب سنجار لقاء تنازل هذا الأخير له عن سنجار وجرى التسّلم والتسليم بينهما في ١٣ محرم ٥٧٨ هـ - ١٩ ايار ١١٨٨ م وعندئذ رجع عزالدين الى الموصل.

كان صلاح الدين يعتبر نفسه، صاحب الحق بملكية حلب بعد الملك الصالح إسماعيل، غير ان غيابه عن مسرح الأحداث في الشام حال دونه واتخاذ الأجراءات المناسبة لمنع هذا التقسيم. فصمم على مغادرة الأراضي المصرية، ليكون عن كثب من أخصامه. ولينتقم من الأفرنج الذين نقضوا العهد معه وخرقوا الهدنة بدون سبب مبرّر. وكان قد أرسل الى الخليفة العباسي في بغداد: الناصر لدين الله، يطلب منه الموافقة على أخذ حلب[لكونها من جملة البلاد التي كان شملها تقليد الخليفة السابق المستضيء بالله، وإنما تركها في يد إبن نور الدين، لاجل أبيه، والآن يريد أن يرجع اليه حقه][1].

وغادر السلطان صلاح الدين مدينة القاهرة في الخامس من محرم سنة ٥٧٨ هـ ١١ ايار سنة ١١٨٢ م، فوصل الى دمشق في صفر من السنة، وبعد فترة قصيرة من الاستراحة فيها، تركها متوجهاً بجيشه المصري، نحو شرقي الأردن، قاصداً محاصرة رينودى شايتون صاحب الكرك والاقتصاص منه. فما كان من هذا الأخير إلآ ان طلب النجدة من ملك القدس، فأنجده، بموافقة مجلس البارونات. وقاد الملك بودوان الرابع جيشه وهو محمول على محفة، ميمماً نحو بحيرة طبرية،. حيث كان

---

(١) أبو شامة: الروضتين ج(٢) ص٢٣.

جيش السلطان في طريقه اليها. وهناك التقى الجيشان، ونشبت بينهما معركة ضارية انهزم على إثرها جيش الأفرنج (تموز ١١٨٢ م- ٥٧٨ هـ). وقبل ذلك الوقت بقليل كان نائب دمشق فرّخشاه يقوم باجتياح الجليل.

وبعد هذه المعركة. تابع صلاح الدين سيره على الساحل حتى وصل الى بيروت فحاصرها برّاً وبحراً (آب ١١٨٢ م- ٥٧٨ هـ) ليقطع الأتصال بين مملكة القدس وإمارة طرابلس. الآ ان الجيش الصليبي، بعد أن لملم نفسه لحق به الى بيروت، وقبل وصوله، ترك صلاح الدين حصارها ليمضي الى بلاد الجزيرة بناء لدعوة من مظفر الدين كوكبري، صاحب حرّان، الذي دخل في طاعته، وبعد أن عبر الفرات وكاتب اصحاب الأطراف لمساعدته، وأجابه نور الدين محمد بن قرا ارسلان صاحب حصن كيفا .توجه السلطان صوب الرها، وكان بها .الأمير فخر الدين مسعود الزعفراني، فحاصرها وملكها وسلمّها الى مظفر الدين كوكبري ثم سار الى الرقة فاستولى عليها من قطب الدين ينال بن حسان المنبجي. وواصل سيره فملك الخابور وقرقيسيا وماكسين وعرابان فنصيبين، وأقطع نصيبين أميراً كان معه يقال له: أبو الهيجا السمين. ثم عاد وعزله عنها.

وإذ كان أمد المعاهدة السابقة بينه وبين امراء الجزيرة قد انتهى، فقد قصد السلطان الموصل وحاصرها. وكان صاحبها عز الدين مسعود قد شحنها بالرجال والسلاح بمعونة مجاهد الدين قيماز. ونزل صلاح الدين محاذاة باب كندة، وصاحب جسر كيفا على باب الجسر، وتاج الملوك بوري (أخو صلاح الدين) على باب العمادي. وطال الحصار مدة شهرين، تضايقت المدينة فيها ولكنها لم تفتح أبوابها للمحاصرين، ولما لم ينل منها السلطان تركها وفك الحصار ورحل عنها الى سنجار فأخذها (٢رمضان

٥٧٨ هـ ـ ٣٠كانون اول ١١٨٢ م) واستناب بها سعد الدين بن معين الدين أنر. ثم سار نحو حصن آمد وملكه وبه صاحبه بهاء الدين بن ينسان (١٠محرم ٥٧٩ هـ) وسلمه الى نور الدين محمد بن قرا ارسلان بن داود الأرتقي. وفي تلك الأثناء، كان الملك بودوان الرابع يقود جيشه وهو في محفّته فيجتاح منطقة حوران جنوبي دمشق ويغزو بصرى وبانياس ويخرب بيت جنّ ويصل الى داريا مهدّداً دمشق نفسها، فوصلت أخباره الى صلاح الدين فلم يعبأ به.

وكان مندوب الخليفة العباسي، ناصر الدين شيخ الشيوخ، قد وصل من بغداد وبرفقته بشير الخادم، وهو يحمل شروطاً للصلح بين صلاح الدين وأخصامه. ولكن الصلح لم يتم بينه وبينهم، لصعوبة تلك الشروط التي فرضها الخليفة على أخصام صلاح الدين[1].

وفي آمد وردت الأنباء الى السلطان، بأن صاحب الموصل قد اتفق مع الأفرنج لِشنّ الحرب عليه، فما كان منه الاّ ان عبر الفرات واستولى على عينتاب وبها ناصر الدين محمد فأقره على حصنها، وتابع سيره متوجهاً نحو حلب. فلما وصلها عسكر على أبوابها (٢٦ محرم ٥٧٩ هـ) وحاصرها، وبها صاحبها عماد الدين زنكي بن مودود بن عماد الدين زنكي بن اقسنقر، وخلال هذا الحصار، وفيما كانت العساكر النورية تجدّ في القتال، جرت مفاوضات سرية بين عماد الدين. وبين السلطان، بواسطة حسام الدين طمان. على تسليم حلب للسلطان على أن يعوّض عنها عماد الدين بمدينة سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج، وتم الاتفاق على ذلك، ولم يعلم أحد إلاّ بعد أن أعلنه عماد الدين بنفسه، وقد ورد في ذلك الاتفاق شرط، يتعهد بموجبه عماد الدين بخدمة صلاح

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ج(١١) ص(١٩٨).

الدين مع عسكره، اذا استدعاه، دون أن يكون له الحق بالاحتجاج عن ذلك ولما تسلم السلطان مدينة حلب (١٧صفر ٥٧٩ هـ) ودخلها بين فرح الأهالي وسرورهم، أقام عماد الدين حفلة على شرفه دعا إليها علية القوم، وفيما هم في سرورهم إذ ورد صلاح الدين نبأ مؤلم، بنعي أخيه تاج الملوك بوري، الذي توفي إثر طعنة أصيب بها في معركة حلب[١].

وترك عماد الدين زنكي الثاني مدينة حلب، برفقة ولده قطب الدين بعد ان أذن له السلطان، بأخذ ما في القلعة من مؤن وذخائر، وكان نوابه قد تسلموا المدن التي تنازل له عنها صلاح الدين. بعد ذلك، أرسل السلطان، يطلب من صاحب حارم المدعو: سرخك (وهو من المماليك النورية). تسليمه هذه المدينة التي هي من أعمال حلب فلم يجبه الى ذلك وامتنع بها، وكاتب الأفرنج طالباً حمايتهم ومؤازرتهم ضد صلاح الدين فوثب عليه أهل القلعة وقبضوا عليه وسلموا حارم الى السلطان (٢٩ صفر ٥٧٩ هـ)[٢].

وإذ انتهى السلطان من تقرير أمور حلب وبلادها. وأقطع (عزاز) أميراً يقال له سليمان بن جندر، قفل عائداً الى دمشق (٣ جمادى الأولى ٥٧٩ هـ) يجر أذيال النصر والفخار، بعد أن أصبحت سوريا الأسلامية بكاملها، بالأضافة الى مصر وما يتبعها، ملكاً له. وقد أصيب الأفرنج، بكارثة جديدة، من جرّاء امتلاك صلاح الدين لحلب، إذ أصبحوا تحت رحمة ما يمكن أن يمنجهم إياه من مهادنات، في حين أن الملك بودوان الرابع المريض، كان يشتد به الجذام فيفقد نظره تقريباً ويعجز عن استعمال يديه ورجليه. وقبل أن يعود السلطان الى دمشق. ويجعل ولده الملك الظاهر غازي، على حلب، كان رينو دي شايتون، صاحب شرقي

---

(١) ابو الفداء: المختصر في اخبار البشر ج(٥) صفحة ٨٩.
(٢) ذات المرجع - صفحة ٨٩ - ٩٠.

الأردن ووادي موسى، قد بنى اسطولاً صغيراً، نقل اجزاءه على ظهور الجمال من شرقي الأردن الى خليج العقبة على البحر الأحمر، وأنزله الى البحر وقسمه الى فرقتين: فرقة اقامت على حصن أيلة لمحاصرته، وفرقة سارت نحو عيذاب، لتغزو السواحل الأسلامية من مصر والحجاز، وتصادر السفن الصغيرة التي تلتقيها في مياه البحر الأحمر وذلك بقصد قطع الطريق على الحجاج المسلمين، وفرض الجزية على التجارة في البحر الهندي، مما أثار شعور المسلمين فأخذوا يطالبون بوضع حدّ لهذا المغامر الأفرنجي.

وكان الملك العادل أبو بكر نائباً عن أخيه السلطان في مصر فعهد الى قائد أسطوله، حسام الدين لؤلؤ (الحاجب)، بمطاردة الأسطول الأفرنجي المذكور: فأبحر مجداً في طلبه، وأوقع بالفرقة التي كانت تحاصر مرفأ أيلة، وقتل أفرادها وأسر بعضهم، ثم لحق بالفرقة الثانية، وكانت قد عزمت على الدخول الى الحجاز للوصول الى مكة المكرمة، فأدركها بساحل الخوار، وقاتلها وظفر بأفرادها وأخذ بعضهم أسرى أرسلهم الى (منى) لينحروا هناك وعاد الى مصر بباقي الأسرى فقتلوا جميعهم. أما السلطان صلاح الدين فأنه بعد استراحة قصيرة في دمشق سار بجيشه الى منطقة الجليل، فاجتاحها وأغار على بيسان فأحرقها (٢٩ ايلول ١١٨٣ م جمادي الآخرة ٥٧٩ هـ)، ثم التقى بين صفورية وعين جالوت جيش الأفرنج الذي كان أتى لملاقاته بقيادة: غي دي لوزينيان، الوصي على العرش وصهر الملك (زوج أخته)، وفي ركابه، صاحب طرابلس، وصاحب الكرك والشوبك نفسه: رينو دي شاتيون، وآموري أخو غي دي لوزينيان، والقائد العام: جوسلين الثالث دي كورتني وغيرهم من كبار البارونات. وبعد أن قام جيش المسلمين بحركة التفاف حول جيش الأفرنج الذي تجمّع في جهة الفولا، راح يناوشه ويستفزه للقتال بضعة

أيام. ولكن الجيش الأفرنجي كان يتلقى هجمات المسلمين ويتحاشى الرد عليها تجنباً لخوض المعركة معهم. فرأى صلاح الدين في النهاية، تفادي الهجوم على عدوه، فترك الساحة عائداً الى دمشق (٨ تشرين الأول ١١٨٣ م ٥٧٩ هـ).

لما اشتدّ المرض بالملك بودوان الرابع كما مرّ سابقاً، وأخذت حالته الصحية بالتدهور، لم يرد التخلي عن العرش، بالرغم من نصيحة أصحابه، بل عهد الى صهره زوج أخته: غي دي لوزينيان بالوصاية على العرش. خوفاً من أن يموت ويترك أمور المملكة بدون تدبير، وبعد أن علم الملك بما جرى في المعركة السابقة، وما نُسب الى صهره من تخاذل فيها وتحاشيه خوض الحرب مع صلاح الدين، اعتبر هذا الصهر مقصراً في القيام بمهمته، فنزع الوصاية على العرش منه، كما ولاية العهد، وقرر المناداة ببودوان الخامس، اِبن اخته: سيبيل المولود لها من زوجها الأول غليوم دى مونفرّات والبالغ من العمر، خمس سنوات: ملكاً مشاركاً في العرش وولياً للعهد: وإقامة صاحب طرابلس وصياً على العرش في حال موته (اي الملك)، وذلك في ٢٠ تشرين الثاني ١١٨٣ م.

بيد أن السلطان صلاح الدين، لم يكتفِ بالحملة السابقة التي شنها على الأفرنج ولم تسفر عن نتيجة، فأعاد الكرة ومضى بجيشه هذه المرة صوب شرقي الأردن، حيث وافاه أخوه الملك العادل بجيشه المصري الى هناك، بغية محاصرة حصن الكرك الواقع على الطريق بين دمشق والقاهرة. والذي يهدد بحكم موقعه دائماً مع حصن الشوبك. طريق البرّ، الى مكة المكرمة، قاطعاً مملكة صلاح الدين الى قسمين.

ولدى حصار هذا الحصن (تشرين الثاني ١١٨٣م ربيع الآخر ٥٨٠ هـ) كان صاحبه رينو دى شايتون وزوجته: اسيتفاني دى ميللي، منهمكين بالأحتفال بزفاف ابن هذه الأخيرة: أنفروا على الأميرة

الصغيرة: إيزابيل، أخت الملك بودوان الرابع. وعندما أخذت القذائف تنهمر على الحصن من قِبل جيش المسلمين، حاولت أم العريس، إستيفاني دى ميللي إشراك صلاح الدين في أفراحها بالرغم من الحرب، فأرسلت له بعض الهدايا والمأكولات من اللحوم المشوية وغيرها. فشكرها على عاطفتها وأعطى الأوامر لجيشه بعدم قذف البرج الذي يضم العروسين والمدعوين، ولكنه استمر في محاصرة الحصن وقذفه من جهاته الأخرى. وما أن أخذت أسوار الحصن تتداعى شيئاً فشيئاً تحت وطأة الضرب، حتى لاحت أعلام جيش ملك القدس من ناحية البحر الميت تبشر أصحاب الحصن بقرب وصول النجدة الملكية اليهم، فصمدوا وكان لا بد لصلاح الدين من أن يعمد الى فك الحصار ورفع آلاته والرحيل عن الحصن (٤ كانون الأول ١١٨٣ م).وقد وصل الجيش الأفرنجي بعد رحيل المسلمين، وعلى رأسه الملك المريض، محمولاً على محفته، يكاد يلفظ أنفاسه من شدة المرض، فهو أعمى، أشلّ، يخيل للناظر بأنه ليس من الأحياء.

اما الملك العادل، نائب السلطان في مصر، فأنه بقي معه في سوريا، فأعطاه السلطان مدينة حلب وقلعتها وأعمالها، وأحضر ولده الملك الظاهر غازي منها الى دمشق وأرسل إبن أخيه المظفر تقي الدين عمر الى مصر مكان الملك العادل.

ثم في شهر ربيع الآخر من سنة ٥٨٠ هـ سار صلاح الدين بجيشه من دمشق الى شرقي الأردن مرة ثانية، بعد أن انضم اليه جند مصر، بقيادة الملك المظفر، وضرب الحصار على حصن الكرك فلم يتمكن منه لقوة الدفاع عنه (آب ١١٨٤ م جمادى الأولى ٥٨٠ هـ) فتركه ورحل عنه الى نابلس وأحرقها ونهب ما بتلك الناحية ثم سار الى سبصطية،

فاستنقذ من بها من أسرى المسلمين، وبعدها الى جنين فعاث جيشه فيها. ومن ثم قفل عائداً الى دمشق.

وفي دمشق استقبل السلطان رسول الخليفة العباسي، ومعه الخلع فلبسها صلاح الدين وألبس أخاه الملك العادل، وإبن أسد الدين، خلعاً خصصت لهما كما خلع بعد ذلك خلعة الخليفة على إبن قرة أرسلان وأعطاه دستوراً والعساكر. وفي ذلك الوقت وردت الأنباء للسلطان من إبن زين الدين، بأن عسكر الموصل وعسكرقزل، نزلوا مع مجاهد الدين قايماز على إربل فصدهم إبن زين الدين (سيرة صلاح الدين لابن شداد صفحة ٥٤) وكسرهم. فما كان من صلاح الدين عندئذٍ الا أن ترك دمشق متوجهاً نحو تلك البلاد، فسار بجيشه حتى أتى حران (٢٢ صفر ٥٨١ هـ). وهناك التقى مظفر الدين بن زين الدين صاحب قلعة حران والرها فقبض عليه ثم أطلقه وأعاد اليه قلعة حران دون الرها. ومن ثم واصل السلطان سيره الى رأس العين حيث وصلها رسول من قبل قليج أرسلان. فأعلمه بأن ملوك الشرق كلهم اتفقوا على محاربته إن لم يعد عن الموصل وماردين، فعندئذ قصد صلاح الدين دنيسر ثم الموصل، فنزل موضعاً يعرف: بالأسماعيلان قرب المدينة وعسكر هناك (١١ ربع الأول ٥٨١ هـ) ورفض الصلح مع صاحب الموصل، عز الدين مسعود ،إذ أرسل اليه هذا الأخير والدته وإبنة عمه الراحل نور الدين محمود بن زنكي، وغيرهما من النساء وجماعة يطلبون منه ترك الموصل فردهم فاستقبح الناس منه هذا الموقف، وأبقى الحصار على الموصل وضايقها. وفي اثناء ذلك بلغه وفاة شاه أرمن صاحب خلاط، فارتحل عن المدينة، متوجهاً نحو خلاط، بعد أن كان سير إليها الفقيه عيسى الهكاري وغرس الدين قلج لاستلامها من بكتمر، غلام شاه أرمن الذي صمم على تسليمها لصلاح الدين خشيةً من أن يطمع بها بهلوان بن الدكز ويأخذها. وقبل أن يصل صلاح الدين الى خلاط نزل على ميافارقين

فحاصرها وكان بها رجل يدعى (الأسد) قاوم الحصار بضراوة ولكنه بعد قتال شديد أرغم على التسليم [٢٩ جمادى الأول ٥٨١ هـ]. وفي تلك الأثناء تصالح بكتمر مع بهلوان بن الدكز، فلم يعد بحاجة للسلطان فاعتذر اليه فقبل اعتذاره وعاد الى الموصل لمحاصرتها، ونزل بموضع يقال له: كفر زمار. وهناك داهمه المرض فرحل الى حران وهو مريض فوافاه اليها أخوه الملك العادل من حلب ومعه إطباؤه لمعالجته، ثم اتاه القاضي بهاء الدين بن شداد، موفداً من قبل صاحب الموصل عز الدين مسعود على رأس وفد لمفاوضته بالصلح، وكان قد بدأ يتماثل للشفاء فوافق على ذلك. وتم الصلح. ومن شروطه، أن يسلم عز الدين مسعود الى السلطان شُهرزور وأعمالها وولاية القرابلي، وجميع ما وراء نهر الزاب من بلاد الجزيرة وأن يخطب للسلطان على جميع منابر الموصل وما بيده، وأن يضرب بأسمه (أي باسم السلطان) على الدراهم والدنانير (٩ ذي الحجة ٥٨١ هـ)[1].

وفي ذلك الوقت أتى السلطان نبأ وفاة إبن عمه ناصر الدين بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص، ثم وفاة بهلوان بن الدكز. وبعد ان استعاد نشاطه، رحل من حران الى حلب فوصلها في الرابع عشر من محرم ٥٨٢ هـ فأقام بها أربعة أيام ثم تركها عائداً الى دمشق، وفي طريقه اليها لقيه أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين المتوفى، وكان شاباً صغيراً ومعه أخته، فأقرّه على حمص مكان أبيه. ووصل صلاح الدين الى دمشق في الثاني من ربيع الأول سنة ٥٨٢ هـ ١١٨٦ م.

بعد أن قرر الملك بودوان الرابع تجريد صهره غي دى لوزينيان من الوصاية على العرش، وولاية العهد كما مر بيانه حاول إبطال زواج أخته سيبيل، نكاية بزوجها هذا. لكن الزوج لم يقف مكتوف اليدين

---

(١) ابو الفداء: المختصر جزء (٥) ص ٩٣.

تجاه الملك فقد انتهز فرصة غياب هذا الأخير عن القدس ورحل مع زوجته الى عسقلان حيث أقام متحصناً بها، فما كان من الملك عندما علم بذلك الآ أن جمع مجلس البارونات في عكا وطلب من صهره المثول أمامه لبيان دفاعه عما نسب إليه إذ ان المجلس قرر محاكمته فتمنع غي عن الحضور متمرداً على أوامر المجلس. مما دعا الملك للمضي الى عسقلان للقبض عليه فأغلق أبواب المدينة بوجهه، فتوجه الملك عند ذاك الى يافا، وهي من إقطاعة غي دى لوزينيان، فصادرها. فثارت ثائرة صاحبها وأقدم على قتل جماعة من البدو المسالمين الذين كانوا يرعون مواشيهم بالقرب من عسقلان متحدياً بذلك أوامر الملك الذي كان قد أعطاهم الأمان وهكذا زاد عنف الخلاف بين الملك وصهره لدرجة أن الملك عاد وجمع مجلس البارونات ثانية ليؤكد أمامهم تعيين ريموند صاحب طرابلس وصياً على العرش وتجريد غي دى لوزينيان من كل حقوقه وطلب من إعضاء المجلس أن يقسموا اليمين لبودوان الصغير، ابن أخته، الذي توج رسمياً في كنيسة السيد المسيح.

وفي السادس عشر من أذار ١١٨٥ م أسلم بودوان الرابع الروح بعد نزاع طويل ولم يكن قد تجاوز الرابعة والعشرين من عمره فخلفه ابن أخته بودوان الخامس، البالغ من العمر ست سنوات بوصاية صاحب طرابلس: الكونت ريموند الثالث، الذي عمد منذ تسلمه الوصاية على العرش الى إجراء صلح مع السلطان صلاح الدين لمدة أربع سنوات. ذلك الصلح الذي كان فيه منفعة كبيرة. للأفرنج، إذ كان القحط في تلك السنة أي سنة ١١٨٥ م قد عم بلادهم وخيم الجوع عليها، فعمل صلاح الدين استجابة لطلب الكونت ريموند الثالث على تأمين المؤن والأقوات لهم وخلصهم بذلك من الموت جوعاً[1] فزاد احترامه عندهم. ولم يمض

(1) René Grousset: L'Epopée des Croisades P. 233.

العام على تولي بودوان الخامس عرش مملكة القدس حتى دهمته المنون في عكا (ايلول ١١٨٦م - ٥٨٢هـ). ولم يخل هذا الموت من شكوك بعض المؤرخين من أن تكون والدته سبيل هي التي تسبّبت به بطريقة لم يعرف احد كنهها. ومهما يكن من امر فان الخلاف بين الأفرنج حول التاج بعد موت الملك الصغير قد ذر قرنه من جديد فانقسم أصحاب الرأي الى فئتين: الأولى تؤيد والدة الملك المتوفى سيبيل وزوجها غي دى لوزينيان وهي الأقل عدداً، والثانية تؤيد ريموند الثالث الذي كان عُينّ حسب وصية الملك الراحل بودوان الرابع وصياً على العرش لمدة عشر سنوات، وهي الأكثر عدداً. وهذا الخلاف كان له ما يبرره، ذلك أن الأميرة سيبيل، تبقى من الوجهة القانونية، هي المستحقة للعرش مع زوجها المذكور، المحروم من الأرث كما مر بيانه سابقاً، بفعل وصية الملك بودوان الرابع. أما ريموند الثالث، فبصفته سبط الملك بودوان الثاني الأسبق، يعتبر من العائلة المالكة، وله حقوق من هذه الناحية.

بيد ان الأميرة سيبيل استطاعت بالنتيجة، وباعتماد الحيلة والدهاء أن تستخلص التاج لنفسها ولزوجها، بعد ان حظيت بمؤازرة مؤيديها وأهمهم: بطريرك القدس هير كليوس، ومقدم فرسان الهيكل: (الداوية): جيرار دى ريد فورت، ورينودى شايتون صاحب الكرك والشوبك، وجوسلين الثالث دى كورتناي؛ ذلك أنها، بالرغم من معارضة أخصامها، طلبت من البطريرك هيركليوس أن يقوم بتتويجها في مدينة القدس، ففعل، ولما وضع التاج على رأسها، رفعته وتوجت به زوجها بيدها بعد ان خاطبته قائلة: [مولاي، تقبل هذا التاج مني، فأنني لا أرى من هو أجدر منك به]. فجثا زوجها أمامها عندما وضعت على رأسه التاج، ونودي بهما ملكاً وملكة، على مملكة بيت القدس.

وقد أثار هذا التتويج سخط الكونت ريموند الثالث صاحب طرابلس، فدعا مجلس البارونات الذي كان منعقداً في ذلك الوقت بنابلس، الى اتخاذ قرار بعدم صحة تتويج غي دي لوزينيان، فأصدر المجلس عند ذاك قراراً ينصح فيه، بعرض التاج على أنفروا الرابع دي تورون، زوج ايزابيل، أخت سيبيل الصغرى، الاّ أن أنفروا، رفض التاج وأعلن خضوعه لعديله دي لوزينيان، فما كان من الكونت ريموند إلاّ أن أعلن العصيان وامتنع عن الاَعتراف بالملك الجديد، وأخذ يتقرّب من السلطان صلاح الدين ليكون عوناً له على الملك، والتجأ الى طبريّة متحصّناً بها. فطلب منه الملك تأدية الحساب عن الأموال التي دخلت اليه أثناء وصايته على عرش المملكة، فرفض رفضاً مطلقاً، وبناء لطلبه أرسل اليه صلاح الدين جماعة من فرسانه الأشاوس لحمايته ومرافقة الأسرى الأفرنج الذين أطلق السلطان سراحهم من الأسر عنده.

على أن هذا الأمر، لم يمنع صلاح الدين من تجديد الهدنة بينه وبين غي دي لوزينيان، تلك الهدنة التي كانت لا تزال سارية المفعول أيضاً مع رينو دي شاتيوّن صاحب الكرك والشوبك، عندما خرقها هذا الأخير، دون سبب.

وتفصيل ذلك أنه في أوائل سنة ١١٨٧م - ٥٨٢هـ صادف أن كانت قافلة غنية من قوافل المسلمين آتية من مصر الى دمشق ومارّة في أراضي صاحب الكرك: رينو دي شاتيون، فأعلمه بها بعض البدو من أتباعه (وكان رينو يستوفي من القوافل التي تمرّ في أراضيه بوادي موسى وشرقي الأردن، جزية كبيرة في وقت السلم) فسوّلت له نفسه مهاجمة تلك القافلة، رغم الهدنة، فأغار عليها واستولى على كل ما تحمله من بضائع وأمتعة، بعد أن فتك بقسم من رجالها وأسر الباقي، ولم يكتف بذلك بل أخذ عند ذاك يجدّف على إسم النبي محمد ويقول لأسراه: [إن كنتم

تعتقدون في محمد فادعوه الآن ليفك أسركم ويخلّصكم من شرّ ما وقعتم فيه]. فنُمي الخبر الى صلاح الدين فغضب وحَلَف لئن وقع رينودي شاتيوّن بيده ليقتلنّه بنفسه.

وهناك من المؤرخين الغربيين من يقول إن أخت السلطان صلاح الدين كانت في عداد الأسرى في تلك القافلة[1]، ولكن ليس في المصادر العربية ما يؤكد ذلك.

يقول أبو الفداء بصدد هذه القافلة: [في هذه السنة، اي سنة ٥٨٢ هـ غدر البرنس صاحب الكرك، وأخذ قافلة عظيمة من المسلمين وأسرهم، فأرسل السلطان يطلب منه إطلاقهم بحكم الهدنة التي كانت بينهم على ذلك فلم يفعل، فنذر السلطان انه إن ظفره الله به قتله بيده][2].

قبل ان يقدم صلاح الدين على أي عمل عدائي ضد الأفرنج، طلب من الملك غي دي لوزينيان إرغام صاحب الكرك على إعادة أسلاب القافلة الأسلامية والأموال المنهوبة بدون حق، وإطلاق الأسرى الذين هم لديه منها؛ غير ان رينودي شاتيوّن، حسب عادته، لم يظهر الاّ عدم المبالاة فيما طُلب اليه، ورفض أوامر الملك بكل صلف، مجيباً بأنه حرّ في تصرّفه وفي أراضيه. فكان والحالة هذه، لا بدّ لصلاح الدين من الاستعداد والتجهز للحرب التي أصبحت معلنة بينه وبين الأفرنج بعدما خرقها هؤلاء، وإعلان الجهاد في جميع أنحاء بلاده، وقد طلب الجيوش من مصر والشام وحلب والجزيرة وديار بكر، وكل سوريا الشمالية، واستحضر الفقهاء والعلماء والدراويش وكذلك الرواة لتلاوة القصص الحماسية وأخبار غزوات الجيوش الأُسلامية المظفّرة، سواء في

---

(١) Zoé Oldenbourg: Les Croisades P 424.

(٢) المختصر في أخبار البشر صفحة (٩٥) جزء(٥).

المجالس العامة وأوساط الجيش. وما أن انتهى من استعداده حتى خرج السلطان من دمشق ومعه ولده الملك الأفضل نور الدين علي، الذي بقي عند رأس الماء قرب دمشق، بينما عسكر هو في قصر السلام بالقرب من بصرى، بانتظار جيش مصر، ثم سار الى تل عشتراة حيث التحقت به باقي الجيوش الأسلامية من كافة انحاء المملكة، في الوقت الذي كان فيه الأسطول المصري، يتّجه الى شواطىء الفرنجة، بقيادة الأمير حسام الدين لؤلؤ، وبعد تجمّع الجيوش الأسلامية وانتشارها بين الوديان والمنحدرات والتلال، على امتداد مساحة كبيرة، في كل الجهات، قام صلاح الدين باستعراضها، وتنظيمها استعداداً للمعركة الكبرى، وكان عدد الفرسان فيها إثني عشر ألفاً والمشاة ثلاثة عشر ألفاً، وذلك عدا الجيش الاحتياطي والمتطوعة الكثر (كتاب الروضتين ج(٢) ص٧٦).

ويقول ابن العماد: [إن اليوم الذي استُعرضت فيه هذه الجيوش يذكّر بيوم القيامة].

بعد ذلك، بدأ صلاح الدين بالأغارة على ممتلكات رينو دي شاتيّون فاجتاحها (اذار - نيسان ١١٨٧م - ٥٨٣هـ). وطلب من ريموند الثالث، عملاً بأحكام المعاهدة بينهما، السماح لقسم من جيشه، بالمرور في أرض الجليل، لكي يجوس أراضي عكا دون مهاجمة القرى والمدن، فوافق ريموند على ذلك، على أن لا تستمر هذه العملية اكثر من يوم واحد بحيث يقود العسكر ويعبر الأردن قبل هبوط الظلام. وهكذا كان.

وفي ذلك الوقت، وبالتحديد في ٢٩ نيسان ١١٨٧م، اجتمع مجلس البارونات في القدس، بحضور الملك غي دي لوزينيان وتقرّر تسوية النزاع مع الكونت ريموند الثالث من جهة ومع بودوان صاحب الرملة، من جهة ثانية (وكان هذا الأخير قد لجأ الى أنطاكية بعدما رفض التصويت

للملك غي وقت تتويجه). ولهذه الغاية أرسل ملك القدس وفداً الى ريموند الثالث في طبرية لاسترضائه ومصالحته، وكان هذا الوفد مؤلفاً من أسقف صور: جوزف، وصاحب بيت جبرين: باليان، وصاحب صيدا، ومقدّم الهيكليين (الداوية): جيرار دي ريد فورت خصم ريموند اللدود (وسبب خصومة ريموند مع جيرار، ان هذا الأخير كان في خدمة الأول في طرابلس، فطلب منه إقطاعة البترون فرفض ريموند، فتركه جيرار وانخرط في سلك فرقة المعبد وتدرج فيه حتى أصبح رئيساً له). وبقي حاقداً على مخدومه السابق من ذلك الوقت. وعندما علم جيرار دي ريدفورت، بما جرى الأتفاق عليه بين ريموند وصلاح الدين، جمع ما يمكن جمعه من فرسان المعبد وبعض فرسان الأسبتارية الموجودين في تلك الناحية، ومضى على رأسهم وعددهم (١٥٠) فارساً، الى قرب صفورية حيث كان الجنود المسلمون عائدين الى مركزهم، بعد قيامهم بمظاهرتهم المشار اليها، وهناك هاجمهم جيرار دي ريدفورت، بالرغم من تحذير مساعده جاك دي مايّي، بعدم المجازفة، فقابله الجنود المسلمون بثبات وتمكنوا من سحق فرسانه فلم يفلت منهم سوى ثلاثة، كان هو أوّلهم (أول ايار ١١٨٧ م).

وبعدما رأى ريموند الثالث رؤوس فرسان الداوية وهي معلّقة على حراب جند المسلمين العائدين الى مراكزهم، عند مرورهم في اراضيه أخذته الحمية الدينية ووافق على مصالحة الملك، وهبّ مسرعاً مع الوفد المرسَل اليه، والذي كان لا يزال في ضيافته، الى نابلس حيث يعسكر الملك وجيشه، واعتذر اليه عن موقفه السابق منه، وبعد التشاور في الأمر، اتفق الجميع على حشد الجيش الافرنجي في صفورية، قرب الناصرة وسط الجليل، في منتصف الطريق بين طبرية والبحر، لملاءمة الموضع للعمليات الدفاعية.

يقول أبو الفداء بهذا الصدد: [في هذه السنة (٥٨٣ هـ) جمع السلطان العساكر، وسار بفرقة من العسكر، وضايق الكرك خوفاً على الحجاج من صاحب الكرك. وأرسل فرقة أخرى مع ولده الملك الأفضل؛ فأغاروا على بلد عكّا وتلك الناحية وغنموا شيئاً كثيراً. ثم سار السلطان ونزل على طبرية وحصر مدينتها وفتحها عنوة بالسيف، وتأخّرت القلعة، وكانت طبرية للقومص صاحب طرابلس، وكان هادن السلطان ودخل في طاعته، فأرسلت الفرنج الى القومص المذكور، القسوس والبطرك ينهونه عن موافقة السلطان ويوبّخونه فصار معهم، واجتمع الفرنج لملتقى السلطان)[1].

- موقعة حطين وسقوط القدس -

اجتمعت جيوش الأفرنج القادمة من القدس وباقي المقاطعات الصليبية في المكان المقصود، بجيش الملك، فيما كان صلاح الدين قد نزل بجيوشه الى حدود الجليل، بانتظار تجمّع الصليبيين لضربهم الضربة القاضية؛ وكانت جيوش الأفرنج تقدّر بأربعة آلاف فارس وخمسة وثلاثين ألف راجل، وتضمّ أيضاً فرقة المرتزقة المؤلفة من جند المسلمين من أهالي البلاد (الـ Turcoples) وجماعات كبيرة من الحجاج الأوروبيين وبعض البحارة، القادمين حديثاً الى القدس للزيارة (آخر حزيران ١١٨٧ م)، والذين طلب منهم الملك الالتحاق بجيشه

وفي التاسع من شهر تموز ١١٨٧ م - ٢٤ ربيع الثاني ٥٨٣ هـ . عمد صلاح الدين الى عبور نهر الأردن بجيوشه، من جهة جنوبي بحيرة طبرية، متقدّماً على طول الساحل، حتى ألقى الحصار على مدينة طبرية من كل الجهات. ويقول أبو شامة: [كانت جيوش السلطان كالبحر تطوّق بحيرة

(١) المختصر في أخبار البشر. ج(٥) صفحة (٩٥).

طبرية والسهول الواسعة تختفي تحت انتشار الخيام][1]، ولم تصمد المدينة أمام هجوم جيش المسلمين اكثر من ساعة، فاقتحمها صلاح الدين واستولى عليها، ولكن قلعتها امتنعت عليه. وكانت الكونتيسة أشيف (Echive)زوجة ريموند الثالث، محاصَرة فيها مع حاشيتها والحامية المدافعة عنها.

ولما ورده نبأ سقوط طبرية بيد صلاح الدين واستغاثة الكونتيسة أشيف به لنجدتها في القلعة، جمع الملك غي دي لوزينيان، مجلس البارونات واستشارهم فيما يجب القيام به؟ هل يهاجم السلطان حيث هو أم يبقى مكانه قرب صفورية حيث الماء متوفّر، والبلاد حصينة ومحمية جيداً؟. أجاب الجميع بوجوب الزحف على طبرية، ما عدا الكونت ريموند الثالث (القومص) الذي اعترض على ذلك، مقترحاً عدم خوض المعركة في ذلك الوقت، نظراً لحرارة الطقس، واتخاذ موقف الدفاع، بقطع النظر عن محاولة تخليص طبرية وزوجته المحصورة في قلعتها، وأضاف قائلاً للملك: [مولاي اني ناصح لك، ولكنني أعلم مسبقاً بأنك لن تعمل بنصيحتي. فقال الملك، قل فأنا مُصغٍ اليك، فقال: أنصحك يا مولاي ان تترك العدوّ يأخذ قلعة طبرية، فطبرية هي لي وصاحبتها هي زوجتي وما فيها من مال هو ملكي. فأنا المنتفع الأول من استعادتها ولا أحد يتضرّر مثلي اذا سقطت قلعتها، ولكنني أدرك بأن المسلمين إذا اخذوها، فلا يمكنهم الاحتفاظ بها. وإن هدموا اسوارها، أعيد بناءها، وإذا اسروا زوجتي ورجالي فأدفع الفدية عنهم. وأحبّ إليّ ان أرى زوجتي أسيرة ومدينتي مأخوذة، من أن أرى الأرض المقدّسة ضائعة. فأنكم ستهلكون إن مضيتم في هذا الوقت الى طبرية، إذ على طول الطريق لن تجدوا نقطة ماء واحدة، وسوف تموت الجنود والخيل من العطش قبل ان تحيط بكم جيوش صلاح الدين اللجبة].

---

(١) الروضتين: ج(٢) ص٢٦٣.

وما كاد ريموند ينتهي من كلامه، حتى انبرى مقدّم الداوية (الهيكليين) قائلاً: [ان هذا الاقتراح ينطوي على الخيانة، ويُشتم منه رائحة الغدر] فلم يتراجع الكونت ريموند عن رأيه بل أصر عليه، ووافقه الملك في بالنتيجة، مع البارونات، حيث تقرّر بأن تبقى الجيوش الأفرنجية معسكرة مكانها، في موضع قوي التحصين، تفادياً لمواجهة صلاح الدين [ولكن بعد ارفضاض المجلس في ساعة متأخرة من الليل، وخروج المجتمعين من خباء الملك، عاد اليه مقدّم الداوية: جيّرار دي ريدفورد وحده، وقال للملك، بعد ان أخذ يطعن بسمعة ريموند الثالث: [مولاي، لا تأخذ بنصيحة الكونت الخائن، فأنت تعلم بأنه لا يحبّك، ويريدك أن تخسر المملكة، ولذا فأني أرى بأن تذهب من هنا ونحن معك، لنهزم صلاح الدين، الذي، إن لم تهاجمه، فهو الذي سيهاجمك هنا، وعندئذ ستكون الفضيحة أكبر، في حال انتصاره عليك] ولما سمع الملك هذا الكلام، أعطى الأوامر فوراً بتحرك الجيش والسير الى طبرية، فهرع البارونات وأمراء الجيش، الى الملك، وهم يتساءلون بدهشة، لماذا وبناء لأية نصيحة غيّر رأيه؟ فأجابهم بأن ليس لهم أن يسألوه عن قراره، وهو يريد أن يستعدّوا حالاً للذهاب الى طبرية، فنزلوا على أمره[1].

وهكذا ظهر للبارونات بأن الملك لا يثبت على رأي. فتحرّك الجيش الصليبي عند الفجر في الثالث من تموز ١١٨٧م - ٢٥ ربيع الثاني ٥٨٣هـ - متجهاً نحو الروابي المحصبة والقاحلة، الواقعة جنوبي - شرقي جبل طوران. فلما رأى صلاح الدين تحركات جيش العدوّ، انشرح صدره وهتف فرحاً: [الحمدلله، هذا ما كنت أرجوه، لقد أوقعهم الله في أيدينا].

(1) Régine Pernoud: Les Croisades. P. P. 178, 179.

وكانت غاية صلاح الدين من محاصرة طبرية، إرغام الأفرنج على إخلاء مواقعهم الحصينة في صفورية، لكي يقطع عليهم الطريق، ويمنعهم من الاقتراب من الماء المجاور له، يقيناً منه، بأنهم سيحتاجون الى الماء حتماً بسبب شدّة الحرارة في ذلك الفصل من السنة.

وبعد اجتياز جيش الأفرنج ما يقرب من ستة عشر ميلاً في ذلك الجوّ الخانق وتلك الطرقات الوعرة. حيث كان عرضة لهجمات جيش المسلمين، تارة على مقدّمته، وتارة على مؤخّرته، رأى نفسه منهكاً من التعب، ومُجهداً من العطش، فهو لم يكن يحمل من الماء ما يكفي لإرواء الظمأ، فتوقف الجنود على رابية حطّين، لقضاء الليل الذي ادركهم، في ذلك الموضع، المقفر من المياه. مما زاد في نكالهم، فباتوا على أسوأ حال، وهم يشعرون بأن مصيرهم في كفة القدر، وان النحس يدور حولهم، ألم يفاجئوا إحدى الساحرات (وهي خادمة مسلمة عند سرياني من الناصرة)، تسحر جيشهم، ليظفر به صلاح الدين، كما اعترفت بذلك، قبل ان يجعلوها طعمة للنار؟ فهل يا ترى، سيكون لسحرها مفعوله في جيشهم؟.

وما كادت تباشير فجر اليوم التالي (٢٦ ربيع الثاني - ٤ تموز) تلوح في الأفق، حتى كان الجيش الأسلامي يحيط بالأفرنج من كل الجهات، إحاطة السوار بالمعصم: فيأمر صلاح الدين، جنده بأضرام النار في الهشيم الذي يكثر هناك، بعد إذ هبت الريح باتجاه جيش الأفرنج، ثم بالكرّ عليهم. فتتقارع السيوف والأسنة، ويشتد الخناق على الأفرنج، ويأخذهم الأرهاق بحيث اجتمع عليهم حرّ الظمأ وحر الدخان وسعير القتال، فيشعرون بأنهم لن ينجوا من الموت الا باقتحام صفوف الأعداء. فحمل فرسانهم على المسلمين حملات متداركات باءت جميعها بالفشل، ولو أدت لحظة الى زعزعة صفوف الجيش الإسلامي وبلبلته قليلاً غير أن

صاحب طرابلس الكونت ريمond الثالث، وأمير أنطاكية: ريموند، وباليان ويبلن، ورينو صاحب صيدا تمكنوا، بعد هجمات عدة قوية يائسة، من اختراق ذلك الجيش، والأفلات من الطوق المضروب حولهم، ثم الفرار مع قواتهم، صوب صفورية، وهم لا يلوون على شيء. وكان فرارهم إيذاناً بانهيار معنويات ما بقي من الجيش الصليبي، فتداعت صفوفه، وناءت تحت ضربات المسلمين خصوصاً بعدما وقع الصليب المقدس في أيدي هؤلاء (وكان يحمله أسقف عكا): فأبيد قسم كبير منه. بالرغم مما أبدى بعض فرسان الداوية والأسبتارية وغيرهم من ضروب البسالة والتضحية، ما أدهش صلاح الدين والقادة المسلمين. إذ ان مرارة اليأس وخيبة الأمل، وخشية الفشل، جعلت أولئك الفرسان يبيعون أنفسهم غالية جداً. اما القسم الآخر فتخاذل واستسلم فأسر، وكان من بين الأسرى، أغلب القادة وكبار الفرسان وفي طليعتهم الملك غي دي لوزينيان، يتبعه أخواه جفري وأموري، ثم رينودى شايتون (البرنس أرناط) صاحب الكرك، ومقدم الداوية: جيراردى ريدفورت وهوج: صاحب جبيل، وهنفروا الرابع صاحب تبنين، ومقدم الأستبارية وسواهم.

في هذه المعركة. معركة حطين. تحطم جيش الأفرنج بكامله تقريباً، فلم يعد هناك لا جنود ولا قادة ولا ملك وأضحت سوريا الأفرنجية بدون دفاع أو مدافعين مما يعرّضها لهجمات المسلمين. بمعنى أن مملكة القدس لم يعد لها في الواقع، كيان وهذا ما جعل صلاح الدين ينتهز الفرصة بسرعة لقطف ثمار انتصاره، كما سنرى.

عشية هذا اليوم الأغر، وبعدما أنهى صلاح الدين صلاته، شاكراً لله ما حباه به من تحقيق آماله، أمر بأحضار الأسرى الأفرنج الرئيسيين وعلى رأسهم الملك غي، الى خيمته، فأحضروا أمامه فراح يستعرضهم

ووقع نظره على البرنس أرناط(رينودى شايتون)، فتجهم وجهه، إذ كان صلاح الدين قد نذر أن يقتل البرنس أرناط، بيده إن مكنه الله منه، وذلك قصاصاً له على ما كان يقدم عليه من خرق للصلح وتعدٍ على المسلمين وقت الهدنة. وقد تحقق نذره، فوقع البرنس بيده، وها هو بعد المعركة أسير لا حول له ولا قوة، فهل يعفو عنه السلطان أم ينفذ فيه قضاءه؟ لقد رأى صلاح الدين أن يعطي أسيره فرصة واحدة يمكن أن تشفع به للعفو عنه، إن انتهزها، فعرض عليه الأسلام فأبى أن يجحد دينه، فعند ذاك، أخذ صلاح الدين يوبخه على ما سبق من أفعاله المخزية، ضد المسلمين، وعلى ما تفوه به بحق النبي فأجابه رينو إجابة لا تنطبق على الواقع وقال:[هذه هي عادة الملوك وأنا لم أفعل سوى اتباع طريقهم]، وكان قوله بالعربية التي كان يحسنها، فأثار غضب صلاح الدين بهذا الجواب، إذ كيف يدعي رئيس عصابة مثل هذا البرنس، لاهم له الا السلب، بأنه يفعل ما يفعل الملوك وهو يجهل ويتجاهل عادات الملوك؟ لقد أظهر صلاح الدين، بعد فوزه، ما لايمكن تصوره من علوّ النفس والشهامة الأنسانية تجاه أعدائه المغلوبين، فأكرم الملك غي دي لوزينيان بأن أجلسه بقربه وطيب خاطره إذ كان في غاية الأضطراب والخوف وسقاه ماءً مثلجاً بالجلاب كما عامل باقي الأسرى معاملة حسنة ما عدا رينودى شايتون، فأنه بعد أن شرب هذا الأخير من الكأس التي ناوله إياها الملك قال صلاح الدين: [أيها الملك أنت سقيته الماء وأما انا فما سقيته] ذلك أنه كان من عادة العرب إذا أكل الأسير أو شرب من مائدة آسره، أمن بذلك، جرياً على مكارم الأخلاق (كما يقول القاضي ابن شداد في الصفحة ٦٤، من كتابه: سيرة صلاح الدين).

وتبعاً لهذه العادة العربية لم ينل رينودى شايتون الأمان الذي كان يريده له الملك بأعطائه كأس الماء ليشربها. على أن صلاح الدين، ولئن لم يعط الأمان لعدوه، البرنس أرناط، إلا انه لم تطاوعه شهامته على منع

هذا الأخير من الشرب لأطفاء ظمئه، فتركه حتى ارتوى لآخر مرة في حياته،ثم تقدم منه وضربه بالمنجاة فحلّ كتفه الأيمن، وقام بعض الحاضرين من القادة، فأجهزوا عليه وألقوا بجثته في الخارج. وقد اشتد خوف الملك غي، وأخذته الرجفة، مما رأى وما حلّ برينو، فصارت فرائصه ترتعد كأنه ينتظر العقاب، فالتفت إليه السلطان وقال يسكن جأشه: [كن مطمئناً فليس من عادة الملوك أن يقتلوا الملوك][1]. ثم في اليوم التالي أي في الخامس من تموز - ٢٧ ربيع الثاني، نزل صلاح الدين الى طبرية، فتسلم قلعتها، وأقام بها ثلاثة أيام حيث كان أثناء ذلك يبعث بمن يريد الأبقاء عليهم من الأسرى الى دمشق مكبلين بالأصفاد بينما كانت يده شديدة على رجال الداوية والأستبارية الذين كان يعتبرهم ألد أعداء الأسلام، فيضرب رقابهم، وكان عددهم كبيراً.

يقول أبو شامة بهذه المناسبة عند ما جمع أسرى الأفرنج كالسائمة بعد المعركة: [من كان يرى القتلى يظن أن ليس هناك من أسرى، ومن كان يرى الأسرى، يظن أنه لم يكن هناك من قتلى]. وفي طبرية طلبت الكونتيسة أشيف زوجة ريموند الثالث، السماح لها بالذهاب الى طرابلس (حيث كان زوجها قد سبقها الى تلك المدينة، بعد فراره من معركة حطين ولم يلبث حتى توفي بداء الجنب بعد ثلاثة اشهر من فراره). فلبى السلطان طلبها ومنحها جوازاً بذلك، فحملت كل ما يمكن حمله من متاع ومال، ورحلت مع حاشيتها وخدمها.

ومن طبرية مضى صلاح الدين الى عكا فتسلمها بالأمان (١٠ تموز- مستهل جمادى الأولى)، واستنقذ من كان فيها من الأسرى المسلمين ويبلغ عددهم الأربعة آلاف. وأظهر تجاه الأفرنج فيها كل شفقة فمنحهم الحرية في البقاء في المدينة أو الذهاب الى حيث يريدون بأمان. وكانت

(١) ابن الأثير: ج(١١) ص٣٥٢ - ٣٥٥ - وابو شامة ج(٢) ص٢٧٥ وما يليها.

الغنائم كبيرة فيها. فتقاسمها القادة والأمراء بأن أعطي كل منهم منزلاً بالأضافة الى المال، وكان من حصة الفقيه عيسى الهكاري كل اموال الداوية في المدينة. وقد حزن صلاح الدين كثيراً على ما إصاب الممتلكات من تخريب ونهب خصوصاً تخريب مصنع السكر الكبير وغيره.

وتابع السلطان مسيرته الى الساحل ففرق جنده لأخذ الحصون والقلاع والأماكن المنيعة، فاستولى على نابلس وسبطية وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرة والفولة وتبنين وصيدا (بعد أن لجأ حاكمها الأفرنجي الى الشقيف) وبيروت (٦ آب) وجبيل (وقد اشترط حاكمها في تسليمها أن يخلى سبيله، إذ كان من جملة الأسرى. وتم له ما طلب)، والبترون: (٢٩ جمادى الأولى ٥٨٣ هـ). ولم يبق على الشاطىء اللبناني في أيدي الأفرنج سوى صور الحصينة، ذات الأسوار المنيعة (التي ارتدت اليها فلول جيوش الأفرنج بعد معركة حطين ودخلتها)، ومدينة طرابلس. وفي هذا الوقت كان الملك العادل شقيق السلطان، يأتي بجيشه المصري فيستولي على يافا ومجد ليابة عنوة Mirabel ثم يقصد مع صلاح الدين، مدينة عسقلان. فيحاصرانها معاً (٢٦ جمادي الآخرة) وبقي الحصار عليها مدة شهر وفي الطريق اليها أخذ الرملة وبينا والداروم بعد قتال شديد. وتسلم السلطان بدون قتال غزة وبيت جبرين والنطرون وحمان بواسطة جيرار دي ريد فورت مقدم الداوية الذي كان قد نال عفو صلاح الدين لتعهدّه بتسليم الحصون التي بيده في المملكة حينذاك، بعد موقعة حطين. ولما سقطت عسقلان بيد السلطان (٥ أيلول ١١٨٧ م - سلخ جمادي الآخرة ٥٨٣ هـ) أمر باجلاء أهاليها الأفرنج عنها وإرسالهم الى الأسكندرية مع أموالهم وأمتعتهم، حيث قام عماله بترحيلهم الى أوروبا بواسطة البحارة الطليان، الذين فعلوا ذلك مرغمين (جان ريشار، مملكة القدس اللاتينية صفحة ١٤٢).

وبعدما فرغ صلاح الدين من أمر عسقلان وما جاورها من البلاد، أعطى أوامره للأسطول المصري (وكان بقيادة الأمير حسام الدين لؤلؤ) بالخروج الى البحر لقطع الطريق على الأفرنج الذين قد يقدمون بحراً للنجدة. في حين سار هو الى مدينة بيت المقدس وألقى الحصار عليها، وكان قد دخلها صاحب الرملة: باليان ديبلن، الذي فر من موقعة حطين ليأخذ زوجته منها: ماري كومنين (أرملة الملك أموري الأول الراحل)، ولكن البطريرك هيركليوس والأهالي، طلبوا منه البقاء لتولي أمورها والدفاع عنها، بعد إذ كان قد تجمع فيها عدد كبير من فراري حطين والبلدان التي استولى عليها صلاح الدين بعد تلك المعركة، فألف باليان حكومة موقتة في القدس وأنشأ جيشاً انخرط فيه بعض النبلاء والفرسان الموجودين هناك، واستعان بمال الكنيسة لضرب السكة، وأخذ يعمل على تحصين المدينة، الى أن قام السلطان بمحاصرتها، فقاومت ولم تستسلم وعندما طلب هذا الأخير، من باليان، أن يسلمه المدينة ويكف عن المقاومة، رفض ذلك اعتقاداً منه بأن النجدة سوف تأتيه من اوروبا قبل أن يتمكن المسلمون من أخذها. وراودته الفكرة بأن يفاجئ صلاح الدين، فيخرج ليلا من المدينة ويخترق صفوف جيشه، ويضرب ضربته بقوة فاما أن ينفذ مع الأفرنج وإما أن يفشلوا فيموتوا كراماً. غير أن البطريرك هيركليوس عارضه بذلك واستطاع بالنتيجة إقناعه بالتسليم، على إثر قيام المسلمين بعبور الخندق ونقب السور. وخرج باليان مع بعض فرسانه لمقابلة صلاح الدين، وعرض الصلح عليه فاحتفى به السلطان كعادته، ولكنه بعدما علم شروط الصلح منه قال له: [وهل لمدينة تقع في الأسر، أن تطلب شروطاً للصلح؟]. وزاد قائلاً: [إني لن أعاملكم إلا كما عامل آباؤكم آباءنا الذين قتلوا جميعاً واستعبدوا يوم فتح الافرنج القدس]. فأجاب باليان واليأس يتملكه: [إعلم ايها السلطان، أن في هذه المدينة

خلقاً كثيراً وهم يرغبون في الحياة فلو رأينا الموت لا بد منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا، ونحرق اموالنا وأمتعتنا، ولا نترككم تغنمون ديناراً أو درهماً واحداً، ولا تأسرون او تسبون رجلاً او امرأة او طفلاً، فأذا فرغنا من هذا قمنا على الصخرة فخربناها وألحقنا المسجد الأقصى وغيره من الأماكن المقدسة بها. ثم بعد ذلك نقتل من عندنا من أسرى المسلمين وهم زهاء خمسة آلاف أسير ولا نبقي لنا دابة ولا حيواناً تستفيدون منه. ونخرج حينئذ إليكم في جمعنا نقاتلكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه فلا يقتل منا الرجل حتي يقتل منكم أمثاله، فنموت أعزاء أو نظفر كرماء» هذا ما يقوله ابن الأثير بهذا الصدد. وقد جاء مثل هذا القول لدى العماد كذلك؛ فلما تحقق صلاح الدين من صحة عزيمة الأفرنج على المقاومة إن لم ينالوا صلحاً مشرفاً، جمع مجلسه واستشار أمراءه والقادة فاشاروا بقبول الصلح، وتم الاتفاق بالنتيجة على السماح للأفرنج بالخروج من المدينة في مدة أربعين يوماً، يدفع الرجل منهم عشرة دنانير، والمرأة خمسة والولد ديناراً واحداً ومن لم يستطع ذلك فهو أسير (٢٧ رجب ٥٨٣ هـ - ٢ تشرين الثاني ١١٨٧ م). ومكث السلطان خارج المدينة، حتى يغادرها من أراد مغادرتها. فلما خرجوا منها دخلها. وقد عاد باليان ولفت نظره بأن هناك عدداً كبيراً من الفقراء لا يملكون من المال المفروض عليهم شيئاً. فوافق السلطان عند ذاك على تقاضي مبلغ مقطوع منهم قدره ثلاثون ألف دينار، عن سبعة آلاف رجل.

وأراد صلاح الدين أن يظهر نبل عواطفه تجاه باليان والبطريرك، فأطلق إكراماً لهما ألفي رجل مجاناً وجاراه أخوه الملك العادل ففعل مثل ذلك ثم سمح لعدد كبير من الأفرنج بالرحيل من غير فدية، وأغلبهم من العجزة والفقراء كما أذن لرجال الدين وغيرهم أن يأخذوا ما يشاؤون

من الأموال والأمتعة، فما لم يستطيعوا نقله ابتاعه المسلمون منهم وأعطى أوامره للمسؤولين من القادة والجند بالمحافظة على النظام وعدم التعرض للمهجرين أينما ذهبوا فجرت الأمور وفق مشيئته ولم يقع أي حادث يسيء الى الافرنج المغلوبين، وأثناء قيام هؤلاء بمغادرة المدينة هال السلطان ما رآه من كثرة المرضى والعجزة. والمسنين منهم. فقرر اعطاءهم المال والدواب لنقلهم مع أثقالهم كما أبدى احتراماً فائق الحد تجاه النساء الأفرنجيات: فسمح للملكة سيبيل بالذهاب الى نابلس لمقابلة زوجها الملك غي السجين في القلعة والبقاء معه هناك. وأناط ببعض الحرس مرافقتها ومرافقة غيرها من النبيلات اللائي أردن الخروج. وكان قبل ذلك، لدى محاصرته القدس قد ترك ماري كومنين زوجة باليان ديبلن تخرج منها وأرسل معها من يواكبها الى صور فيما كان زوجها يتولى أمر الدفاع عن المدينة المقدسة.

وجاء لمقابلة السلطان، وفد من النسوة اللائي فقدن أزواجهن وأبناءهن وآباءهن في الحرب وطلبن منه العون والمساعدة واطلاق سراح من يكون منهم في الأسر وقيد الحياة، فأرسل يتحرى عن هؤلاء المفقودين فمن وجد منهم حياً أو أسيراً أطلقه وانضم لذويه. ثم تكرم بمنحهن من المال ما جبر خاطرهن تعويضاً لهن عما أصابهن من ضرر وخسارة لفقد أهليهن.

ونمي الى صلاح الدين بأن في المدينة شخصين إفرنجيين مسنين يتجاوز عمرهما المائة سنة وكانا قد حضر الى القدس في أيام غودفروا دى بويون، فأخذته الشفقة عليهما وقرر لهما معاشاً دائماً، ليكفيهما مؤونة الحاجة طيلة ما بقي من حياتهما.

وقيل للسلطان يوماً في مجلسه، والبطريرك هيركليوس خارج بأمواله وذخائره كلها الخاصة، به وبالمعابد التي كانت تحت يده بأن بعض تلك

الذخائر والأثاث يعتبر من قبيل الأموال غير المنقولة ويقتضي ابقاؤها في مكانها، مثل المصوغات والأعمدة والأجهزة والمواد الثمينة والسجاد والطنافس والمنسوجات الموجودة في داخل المعابد فوافق على أن تلك الأشياء يمكن اعتبارها غير منقولة، ولكنه مانع في مصادرتها وقال لمخاطبيه: [لا آخذ من البطريرك غير العشرة دنانير، ولا أغدر به].

ويقول أبو الفداء في كتابه: المختصر في أخبار البشر صفحة ٩٧ (ج ٥): [ان السلطان رتب على أبواب البلد من يقبض المال المفروض على الأفرنج فخان المرتبون في ذلك ولم يحملوا منه الا القليل].

وقبل دخول صلاح الدين مدينة القدس، عمل على تنظيم ترحيل أهاليها المسيحيين الى الساحل نحو صور وطرابلس، فقسمهم الى ثلاث قوافل، تواكب كلاً منها فرقة من جنده، لحراستها من هجمات البدو، على طول الطريق. وقد أدت تلك الفرق مهمتها بإيصال المهجّرين بأمان وعناية، دون أي خلل، مما جعل هؤلاء يلهجون بالثناء على السلطان وعلى جنده.

وبعد الانتهاء من عملية تنظيم الهجرة، دخل صلاح الدين المدينة وأعطى أوامره فوراً بأصلاح ما تهدّم فيها من أبنية وإعادة ما كان قد غيّره الأفرنج من معالمها أبّان مقامهم فيها. وأسقط الصليب الكبير المذهب الذي كان مرفوعاً على قبّة الصخرة، وطهّر المسجد الأقصى وأزال ما بُني في الأماكن الطاهرة فيه، وأعاده الى ما كان عليه، وغير ذلك من الأمور التي كان يتطلبها التنظيم.

وقد أحدث دخول المسلمين بيت المقدس فاتحين، رنّة فرح تردد صداها في أنحاء العالم الإسلامي كافة، فقصد المدينة المقدّسة كثير من العلماء، والشعراء والكتّاب، من مصر والشام وغيرهما من البلاد الإسلامية، وأخذوا يتبارون في نظم آيات المديح للبطل المسلم العظيم،

الذي طهّر المسجد الاقصى من دنس الطغيان، وكان العماد الأصفهاني من بين المهنئين الذين مدحوا السلطان بفوزه في حطين واستيلائه على القدس، بقصيدة عصماء جاء فيها:

[جنودك أملاك السماء وظنّهم، عداتك جنّ الأرض في الفتك لا الأنسا
[فلا يستحق القدسَ غيرك في الورى، فأنت الذي من دونهم فتح القدسا -
[وطهّرته من رجسهم بدمائهم، فأذهبت بالرجس الذي اذهب الرجسا
[نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها وألبستها الدين الذي كشف اللبسا -

ثم يقول مخاطباً صلاح الدين:

[سحبت على الأردن ردناً من القنا، رُدينية ملداً وحِطِية ملسا -
[حططت على حطّين قدر ملوكهم، ولم تبقِ من أجناس كفرهم جنسا -

ويقول أخيراً:

[فللّه ما أهدى يداً فتكت به، وأطهر سيفاً معدماً رجسه النجسا -
[نسفت به رأسَ البرنس بضربة، فأشبه رأسي رأسه العهن والبرسا -
[تبوّع في أوداجه دم بغيه فصال عليه السيف يلحسه لحسا -

[ومن قصيدة له

[يا يوم حطين والأبطال عابسة، وبالفجاجة وجه الشمس قد عبسا -
[رأيــت فيها عظيم الكفر محتقراً، معفّراً خدّه والأنف قد تعسا -

وقال أبو الحسن بن علي الجويني مهنئاً صلاح الدين بقصيدة طويلة منها:

[جند السماء لهذا الملك أعوان، من شكّ فيهم فهذا الفتح برهان -
[هذي الفتوح فتوح الأنبياء وما، لها سوى الشكر بالافعال أثمان -
[أضحت ملوك الفرنج الصيد في يده، صيداً وما ضعفوا يوماً وما هانوا -
[تسعون عاماً بلاد الله تصرخ، (م) والأسلام أنصاره صمّ وعميان -

[فالآن لبّى صلاح الدين دعوتهم ، بـــأمر مَن هو للمعوان معوان -
[إذا طوى الله ديوان العباد فما ، يطوى لأجر صلاح الدين ديوان -

ولقد كان من أثر الاستيلاء على معاقل الأفرنج الكثيرة بعد معركة حطين ، أن أخذ هؤلاء يتركون مواقعهم ويتجمّعون في صور ، ولو أن صلاح الدين استولى على هذه المدينة قبل فتحه بيت المقدس ، لكانت النتيجة غير ما آلت اليه الحال فيما بعد. ذلك أن هذا الميناء الأفرنجي محصّن تحصيناً طبيعياً ، وقد زاد الصليبيون في مناعته بما أقاموا حوله من قلاع واستحكامات ، وعلم السلطان مؤخراً خطأه من هذه الناحية فعزم على قصد صور قبل أن يشتدّ أمرها اكثر مما اشتدّ ، إذ إنه في اليوم التـــالي لمعركـــة حطين ، صـادف أن كـــان المركـــيز كونراد دي مونتفرات أخو غليوم دي مونتفرات زوج سيبيل المتوفى ، وخال الملك الصغير الراحل بودوان الخامس ، آتياً من القسطنطينية ، عن طريق البحر ، نحو عكا ، وبرفقته جماعة منَ الفرسان ، بغية الانضمام الى جيش الملك غي دي لوزينيان ، في القدس ، ولم يكن يعلم بما جرى للافرنج من مصائب ، فلما رأى رايات المسلمين على أسوار عكّا ، تختال عالية ، انكفأ صوب صور ونزل فيها ، فانتخبه الأهالي والحامية التي فيها ، رئيساً لهم فوراً. وكان قويّ العزيمة ثابت الجنان ، فعمل على تحصين المدينة وتطمين أهاليها بأن المدد سوف يصلهم قريباً من أوروبا ، ويُطرد صلاح الدين من سوريا. وكان جيش السلطان عند ذاك يحاصر المدينة وهي على وشك التسليم له ، فاشتد عزم الأفرنج على الصمود وازدادت حميّتهم في المقاومة.

وجلية الأمر ، أن صلاح الدين غادر مدينة القدس ، بعدما مكث فيها نحواً من شهر ، ووجهته صور ، وفي طريقه اليها ، عرّج على عكّا فنظر في أحوالها ثم تابع سيره على الساحل اللبناني فلما وصل الى صور

نزل قريباً منها، بانتظار آلات الحصار. وكان قد أرسل الى ولده الملك الظاهر، يستحضره من حلب، فقدم عليه بعد اثني عشر يوماً من ذلك، وحين تمت الاستعدادات للنزال، قام صلاح الدين بمهاجمة المدينة وقاتلها قتالاً شديداً، بعد أن استدعى الأسطول المصري لمحاصرتها بحراً. ثم بعث بطلب أخيه الملك العادل الذي خلّفه في القدس. فحضر اليه، ومن ثمّ سيّر فرقة من الجند الى هونين فاحتلّتها عنوة. وفي تلك الأثناء كان المركيز كونراد دي مونتفرّات قد وصل بأسطوله الصغير الى صور، وكانت المفاوضات لتسليم المدينة جارية بين أهاليها وبين صلاح الدين، كما مرّ أعلاه. فلما رفض المركيز طلب صلاح الدين بتسليم المدينة، هدده هذا الأخير بقتل أبيه غليوم الثالث دي مونتفرات الذي كان قد وقع في الأسر في حطين. فلم يبال بذلك وأصرّ على المقاومة، وعندها أحضر السلطان، المركيز دي مونتفرّات الأب، وأوقفه تحت أسوار المدينة ليراه إبنه، فلعلّه يشفق عليه ويقبل بالعرض الرامي الى تسليم المدينة. غير ان المركيز، حينما رأى أباه على تلك الحالة قال للسلطان: [انني لا أتأخر عن تسديد سهامي الى صدر والدي وقتله بيدي، ولا أتنازل عن حجر واحد من سور المدينة][1].

بعد ذلك: حصل أن هاجم الأسطول الأفرنجي الذي كان راسياً في ميناء صور، قطع الأسطول المصري، الآتية من مصر لمحاصرة المدينة، فهزمها واستولى على بعضها، وقتل عدداً كبيراً من بحارتها، وعاد الى مرساه. ولما رأى صلاح الدين شدّة دفاع الأفرنج عن المدينة، وتصميمهم على الأحتفاظ بها، داخله اليأس منها، والألم لما انتهت اليه حالها، فدعا مجلس شوراه لأخذ رأيه فيما يجب عمله. فأشار عليه أغلب الأمراء بالرحيل، ليمكن للجند، أن يأخذوا قسطهم من الراحة، بعد الجهد

---

(1) Zoé Oldbourg: Les Croisades P. 452.

المتواصل والتعب الشديد، خصوصاً وقد داهمهم الشتاء ببرده، ممّا يحطّ من همتهم في القتال. فلم يرَ صلاح الدين بدّاً من الموافقة على رأيهم، فأمر بالرحيل عن صور، عائداً الى عكا للراحة بعد أن فرّق عساكره، وأذن لهم بالعودة الى بلادهم مؤقتاً (آخر شوال ٥٨٣ هـ - ١ كانون الثاني ١١٨٨ م) -[١] - وبعد ان استمر الحصار شهرين.

قضى السلطان فصل الشتاء في عكا، وكان قد أرسل للخليفة العباسي، الناصر لدين الله، رسالة يبشّره فيها بفتح القدس وغيرها من بلاد الأفرنج، ويخبره بأن العقبة الوحيدة التي تحول دون الأستيلاء على جميع بلاد الأعداء، هي صور. المدينة التي تجمّع فيها عدد كبير من مهجّريهم، وأخذوا يقومون بالدفاع عنها دفاع المستميت. ثم بعدما نظم أمور عكا وعهد بها الى بهاء الدين قراقوش لأدارة الحكم فيها وتحصينها، غادرها وسار بمن معه من الجند قاصداً (كوكب). فحاصرها وجعل على حصارها أميراً يقال له: قيماز النجمي، وتابع طريقه الى دمشق فدخلها في العاشر من ربيع الأول سنة ٥٨٤ هـ، حيث بقي فيها مدة خمسة أيام كتب أثناءها الى الأطراف باجتماع العساكر. ثم تركها ونزل على بحيرة (قدس) غربي حمص، فوافته العساكر اليها. وكان أول من وصل الى المكان: عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي بن أقسنقر صاحب سنجار ونصيبين. ولما تكامل جنده، رحل صلاح الدين من هناك الى حصن الأكراد فنازله، فلم ينل منه، فتركه ومضى الى جبلة واللاذقية فاحتلّها ثم نزل على طرطوس واحتلّها (٦ جمادي الأولى ٥٨٤ هـ) وهناك أطلق الملك غي دي لوزينيان، بعد أن أخذ عليه المواثيق بمغادرة الشام الى أوروبا، وبعدم محاربة المسلمين، كما أطلق معه عشرة من أعيان كبار الصليبيين ومنهم أخو الملك أموري، ومقدّم الداوية وغيرهم. وكانت

---

(١) ابو الفداء: المختصر في اخبار البشر ج(٥) ص.٩٧.

الملكة سيبيل هي التي الحّت على صلاح الدين بأطلاق سراح زوجها الملك غي، فأجابها الى طلبها، بعد أن رأى بثاقب فكره، أن وجود الملك حرّاً قد يسبّب بعض الخلافات بين الأفرنج، نظراً للوضع الذي هم موجودون فيه. وهذا ما حصل، إذ بعد اطلاق الملك ورفقائه، توجّهوا جميعاً الى صور، والملكة سيبيل معهم، وعندما حاولوا دخول المدينة منعهم كونراد دي مونتفرّات، فرجعوا الى طرابلس، وقد نكث الملك غي بعهده الى السلطان فيما بعد ولم يترك سوريا، على عادة أغلب الصليبيين.

وكان صاحب طرابلس ريموند الثالث، الذي نجا من موقعة حطّين، قد مات فيها، بعد إصابته بداء الجنب، وذلك بعد ثلاثة اشهر من نجاته (آخر سنة ١١٨٧ م)، ولم يترك ولداً، فانطفأت بموته سلالة ريموند دي سان جيل في الشرق. وخلفه في حكم طرابلس، الفتى بوهمند، ابن أمير انطاكية بوهمند الثالث، الذي أصبح بعد وفاة والده وأخيه البكر، يجمع بين حكم أنطاكية وطرابلس.

ثم من طرطوس، سار صلاح الدين، الى مرقية، فوجدها خالية من أهاليها، فتجاوزها الى حصن المرقب، وهو للأسبتار، فوجده لا يُرام، فتركه ومضى الى قلعة صهيون فامتلكها وما حولها من قلاع، وسلّمها الى أمير من أصحابه يقال له: ناصر الدين منكورس صاحب قلعة أبي قبيس ثم فرّق السلطان عسكره في تلك الجبال فملكوا حصن بلادنوس وحصن العبد وحصن الجماهيريين بينما سار هو الى قلعة بكاس، فأخلاها أهلها وتحصنوا بقلعة الشُغر، فحصرها وضايقها، فطلبوا الأمان وتسلّمها (٦ جمادي الآخرة).

وأرسل صلاح الدين، ولده الملك الظاهر غازي صاحب حلب فحاصر سرمينية وملكها وهدم حصنها، وكان فيه وفي غيره من الحصون

الأفرنجية المأخوذة، الجمّ الغفير من أسرى المسلمين، فأطلقوا وأعطوا الكسوة والنفقة؛ وبعدها توجّه السلطان من الشغُر الى برزية وملكها بالسيف وأسر صاحبها وأمرأته وأولاده، وأخلى سبيلهم وبعث بهم الى أنطاكية. (وصاحبة برزية هي التي كانت تعمل لمصلحة صلاح الدين ضد الأفرنج فتكاتبه وتهاديه وتفشي له أسرار الدولة وأحوالها، وهي أخت زوجة أمير انطاكية).

ثم تابع السلطان سيره فاحتلّ دربساك وتسلّمها بالأمان، على شرط ان لا يخرج أحد منها الاّ بثيابه فقط (١٩ رجب): Darbessac. كما تسلّم بعدها، بغراس (وهو حصن قريب من أنطاكية نفسها).

وإذ رأى صلاح الدين أن جنوده أخذوا يتبرّمون ويتململون من كثرة ما لاقوه من جهد المعارك، استجاب لطلب أمير انطاكية، بوهمند الثالث، وعقد معه هدنة لثمانية أشهر فقط[١].

بعد ذلك توجّه صلاح الدين الى حلب، فمكث فيها بضعة أيام عند ابنه الملك الظاهر، ومنها عاد إلى دمشق فوصلها في النصف الثاني من شعبان ٥٨٤ هـ - ٢٠ تشرين الأول ١١٨٨ م.

ومن دمشق نزل السلطان على مدينة صفد فحاصرها ما يقرب من الشهر الى ان استسلمت اليه، فسار منها الى الكوكب ودخلها بعد حصار مرير سلّمت الحامية على إثره، (منتصف ذي القعدة ٥٨٤ هـ - أوائل كانون الثاني ١١٨٩ م).

وفي ذلك الوقت أتى السلطان نبأ سقوط الكرَك بيد أخيه الملك العادل، الذي كان يحاصرها اثناء سير صلاح الدين الى الشمال، ثم تبعه سقوط الشوبك بعد بضعة اشهر.

---

(١) ابو الفداء: ج(٥) صفحة (١٠٠).

الجزء الرابع

الفصل الأول

الحملة الصليبية الثالثة

بعدما ترك صلاح الدين حصار مدينة صور متابعاً جهاده في فتح البلدان والحصون الصليبية، أتيح للمركيز كونراد دى مونتفرّات ، أن يثبت مركزه في هذه المدينة الصامدة، ويعمل على تحصينها وتقويتها، ويدعو الأفرنج الذين أخلوا مدنهم المحتلة الى اللجوء إليها، ثم يرسل أسقفها (Josse)جوس، الى أوروبا لطلب النجدة.

وكان البطريرك هيركليوس. قد أبحر الى أوروبا، بعد خروجه من القدس وتوجه الى روما. ومن هناك راح يتجول في العواصم الأوروبية، داعياً الى الحرب، وتجهيز حملة صليبية أخرى لتخليص بيت المقدس ثانية من أيدي الكفار.

وهكذا، عندما تلقت أوروبا المسيحية خبر ضياع بيت المقدس من الأفرنج هبت بأجمعها تطالب بالحرب، وتستعد لتجهيز الحملة الصليبية الثالثة، ضد المسلمين. وكان أول من أخذته الحمية الدينية هو غليوم الثاني، ملك صقلية النورمندي، فأوقف الحرب التي كانت مستعرة بينه وبين الأمبراطور البيزنطي، وأرسل الى بوهمند الرابع، صاحب طرابلس، عمارة بحرية صغيرة عليها مائتا فارس، أتبعهم بخمسمائة آخرين، فيما كان هو يجهز نفسه لقيادة حملة كبيرة يأتي على رأسها الى الشرق، برفقة ملك انكلترا. ولكن الموت عاجله قبل تحقيق أمنيته، أما

خلفه: تانكرد فلم يستطع القيام بتلك المهمة لدواع شخصية تتعلق. بحقوقه الأرثية (١١٨٩ م).

هذا مع العلم، بأنه حسب العرف في ذلك العصر، كان يعود للبابا، تنظيم الحملات الصليبية والتبشير بها ووضع امتيازاتها، وفقاً للخطة المتبعة التي نهج عليها البابا أوربان الثاني لدى أول حملة صليبية.

فعندما علم البابا اوربان الثالث بسقوط بيت المقدس، كان تأثره شديداً بحيث ألم به الحزن والأسف، فلم يقو على تحمل الصدمة، وكان مريضاً، فمات على الأثر. وقام خلَفُه البابا غريغوا الثامن، ببذل كل جهوده، لتنظيم الحملة الصليبية. وقد جاء في الكتب التي وجهها الى الملوك والأمراء، وغيرهم من كبار المسؤولين في العالم المسيحي [بأن خسارة بيت المقدس هي ثمرة الخطيئة والقصاص الناتج عنها، ولذا فيجب قبل كل شيء، التكفير عن الذنوب بالندم والتوبة وطلب المغفرة والصفح من الأله].

ولما كان تخليص بيت المقدس، فرضاً على كل مسيحي، فقد فرض البابا على جميع المسيحيين، الصوم يوم الجمعة من كل اسبوع لمدة خمس سنوات، فضلاً عن الصلاة، كما دعا رجال الدين خاصة الى ترك زخارف الدنيا وأباطيلها، وتطهير نفوسهم من أدران الحياة. كذلك أهاب بالملوك والأمراء والأسياد الذين تتنازعهم الحروب الداخلية، ان يكفوا عما هم فيه من خلافات ويحقنوا دماءهم ودماء المسيحيين التي تذهب هدراً. وقبل أن يرى البابا غريغوار الثامن ثمرة جهوده داهمته المنون بعد بضعة اشهر من انتخابه: فخلفه البابا كليمانت الثالث الذي واصل عمل سلفه بهمة ونشاط زائدين. فأرسل الرسل المبشرين الى كافة أنحاء أوروبا، بما فيها انكلترا وإسكندينافيا على الأخص، يحملون رسائله وتعليماته الى الملوك والأمراء معلَقاً أهمية كبرى على جمع قوى العاهلين

الأنكليزي والأفرنسي. مع الامبرطور الألماني في جيش واحد.

وكان من اكثر المبشرين تحمساً للحملة الصليبية هذه الكاردينال دالبانو: (DAlbano)الذي أخذ يطوف فرنسا من أولها الى آخرها وبرفقته أسقف صور: جوسلم حيث كانا يدعوان الى الانخراط فيها لمحاربة المسلمين. وقد تمكن الكردينال دالبانو من أن يصلح ما بين ملك فرنسا:فيليب أوغست وملك انكلترا هنري الثاني بلانتا جنيت، فاجتمعا في مكان في البرية بين جيزور (GISORS) وتري (Trie)وبعد اتفاقها، قاما وتعانقا أمام الجمهور وأقسما على الصلح والصداقة حاملين الصليب معاً وسط التصفيق والفرح (٢١ كانون الثاني ١١٨٨ م).

وكان قبل ذلك قد اجتمع في تورسي على نهر الموز (Meuse) العاهلان الفرنسي والألماني فيليب أوغست وفريدريك الأول، المعروف بفريدريك بربروسا حيث حاول هذا الأخير اقناع ملك فرنسا بالاشتراك في الحملة الصليبية المزمع تجهيزها.

وقد اتخذ العاهلان الفرنسي والأنكليزي بعض الأجراءات الآيلة الى الأسراع بالعمل: كما قررا فرض ضريبة عشرية، سميت في البلدين: ضريبة (صلاح الدين) لأنفاقها في تجهيز الحملة. على أنه بعد تباطؤ ملكي فرنسا وانكلترا وترددهما عن السفر الى الشرق، دون سبب معقول، قام الأمبراطور الألماني بتجميع جيشه في مدينة رايتسبون، من أعمال باڤاريا، والأنطلاق به من هناك نحو الجنوب (١١ ايار - ١١٨٩ م) ويتجاوز عدده المائة الف مقاتل، فاجتاز المجر، وما كاد يدخل الأراضي البيزنطية، حتى قطع عليه، البيزنطيون، الطريق وأوقفوا قوافله وقبضوا على سفراء الأمبراطور الألماني متذرعين بشتى الحجج لوضع العراقيل بوجه الجيش، مما أثار سخط فريدريك بربروسا، ودفعه الى مهاجمة الحصون البيزنطية الواقعة في طريقه والاستيلاء عليها فتعالى

احتجاج الأمبراطور البيزنطي إسحق لانج، على هذا العمل ولكنه اضطر بالنتيجة لأطلاق سراح السفراء الألمان الذين اشتكوا لعاهلهم ما لقوا من متاعب وما اظهره لهم البيزنطيون من عداء. فما كان من الأمبراطور الألماني إلا أن هاجم مدينة أدرنة (٢٢ تشرين الثاني ١١٨٩ م) ودخلها بعد انتصاره على جيش البيزنطيين ثم أحرق مدينة فيليبو بولي، وصمّم على الوثوب على القسطنطينية، فأرسل الى إبنه هنري يطلب اليه تجهيز اسطول إيطالي وتوجيهه نحو القسطنطينية التي كان يستعد هو (اي الأمبراطور) لألقاء الحصار عليها براً، يعاونه بذلك الصُرب والبلغار. وفوق ذلك، فقد طلب فريدريك من البابا القيام بحملة صليبية ضد الأمبراطور اسحق لانج، الأمر الذي جعل هذا الأخير ينحني أمام القوة ويوقع معاهدة مع امبراطور الألمان، يتعهد فيها بالسماح بتمرير الصليبيين من الدردنيل وبتأمين المؤن لهم والتعويض على السفراء الذين قبض عليهم ثم أطلقهم.

والواقع أن السبب الذي دفع بأمبراطور البزنطيين، إلى إثارة المتاعب بوجه الجيش الصلبي الألماني الكبير، كان على الأخص، نتيجة اتفاقه مع السلطان صلاح الدين ضد الأفرنج.

فقد جاء في كتاب الروضتين: [إن ملك الروم كان يبلغ صلاح الدين، برسائله المتتابعة عن سير الجيش الألماني، خطوة خطوة، وعن كل ما يلقاه هذا الجيش من متاعب، ويعتذر بأنه لم يستطع إيقافه عن عبور الدردنيل.]. وهذا ما تقوله أيضاً زوي أولدنبورغ في كتابها: الحروب الصليبية (صفحة ٤٦٥) - [1].

ذلك أن البيزنطيين كانوا في ذلك الوقت على نزاع مع قليج أرسلان الثاني سلطان السلاجقة الروم وكان من مصلحتهم نيل صداقة صلاح

(1) Zoé Oldenbourg: Les Croisades., P. 465.

الدين لئلا يعمد هذا الأخير الى مصالحة السلاجقة فيما لوترك للجيش الألماني حرية العبور الى آسيا الصغرى.

وعلى كل فقد اجتاز الجيش الألماني الحدود البيزنطية الى آسيا الصغرى. (أواخر أذار ١١٩٠م - ٥٨٦هـ)، متخذاً ذات الطريق البري الذي كان سار عليه الصليبيون في حملتهم الأولى والثانية. ففي المرحلة الأولى من مسيرته، اتبع تقريباً، الطريق الذي أخذه الملك لويس السابع. واوتون دي فريزنجن داخل الأراضي البيزنطية حتى وصوله الى قونية، (Jconium) عاصمة السلاجقة الروم حيث حاول السلطان قليج أرسلان الثاني، في البدء الوقوف بوجهه عبثاً، فانهزم جيشه ودخل ابن الأمبراطور: فريدريك دي سواب، هذه المدينة عنوة وبقي الألمان فيها مدة خمسة أيام للاستراحة (آخر ايار). ولما كان قليج أرسلان يرى في تفوق صلاح الدين الحربي خطراً عليه في بلاده، فقد آثر الاتفاق مع الأمبراطور الألماني على تسهيل سير جيشه في الأراضي التركية وتأمين مؤنه حتى وصوله الى قيليقية: وقد دفع قليج أرسلان ببعض أمرائه كرهائن تدليلاً على حسن نيته تجاه الأمبراطور، وبعد ذلك مضى الجيش الألماني فاجتاز جبال طوروس الى قيليقية حيث كان بانتظاره ملك أرمينية: ليون الثاني، الذي تلقى الأمبراطور فريدريك مرحباً.

وكان لاقتراب الجيش الألماني من سوريا رد فعل شديد في بلاد الأسلام فدبّ الذعر في النفوس، وأخذ القادة التابعون لصلاح الدين يخلون المدن الواقعة على الحدود السورية القيليقية، مثل بغراس وسواها، أو يهدمونها، كيلا يستولي عليها الألمان.

ولكن الله لطف بالمسلمين، قبل أن ينالهم شر من الجيش الألماني: فقد وقع حادث مميت للأمبراطور فريدريك بربروسا غير وجه المسألة الشرقية، وجلية الأمر، أن الأمبراطور الألماني البالغ من العمر،

السبعين عاماً (كان هذا الأمبراطور قد شارك في الحملة الصليبية التي قادها عمه الأمبراطور كونراد، سنة ١١٤٧ م)، بعد اجتيازه لارندرا، وبوصوله الى وادي السلف (Selef) أراد أن يبترد في المياه المنعشة المتساقطة حتى سفح الجبل، نظراً لشدة القيظ والشمس المحرقة، في ذلك اليوم، فاندفع بجواده، الى النهر، وما كاد يقطع منه مسافة قليلة حتى سقط به جواده، وغاص في الماء، فلم يتمكن حرسه من انتشاله الاّ بعد جهد، وبعد أن كان قد لفظ أنفاسه (١٠ جزيران ١١٩٠م - ٤ جمادي الآخرة ٥٨٦ هـ). فانطوت بموته صفحة من كتاب الحملة الصليبية الثالثة.

ويقول ابن الأثير، بهذا الشأن: [لولا لطف الله بالمسلمين، وتخليصهم من ملك الألمان، في الوقت الذي كان يريد فيه اختراق أراضي سوريا، لكان قيل اليوم: كانت سوريا ومصر من ممتلكات المسلمين].

وهكذا أصيب الصليبيون بنكبة كبيرة، فتوقفت مسيرة الجيش الألماني، وأخذت صفوفه بالتردي والتصدّع، فنال اليأس من قادته، وضعفت معنويات الجند فيه، فعمت الفوضى بينهم. وكان ابن الأمبراطور: فريدريك دى سواب، الذي استلم القيادة بعد موت والده، ضعيف الشخصية، فأفلت الزمام من يده، ولم يستطع السيطرة على رجاله، فتفرقوا. فكان أن عاد قسم من القادة مع رجالهم الى بلادهم، وتابع قسم آخر طريقه نحو انطاكية بقيادة فريدريك نفسه، في حين تاه قسم ثالث على وجهه فتلقفه جنود صلاح الدين، وقتلوا منه من قتلوا وأسروا الباقي.

ولما وصل فريدريك مع رجاله الى أنطاكية، استقبله صاحبها بوهمند الثالث استقبالاً حسناً ووفر له ما يلزمه من حاجيات، حتى إذا انتهى فريدريك من إجراءات دفن جثة والده، في كاتدرائية القديس بطرس

في المدينة، أبحر مع جيشه الذي لم يكن ليتجاوز الألفي رجل، الى مدينة عكا.

الفصل الثاني

حصار عكا

في ذلك الوقت، كان الأفرنج في سوريا يعملون على تعزيز مراكزهم الدفاعية ويستعدون لاستعادة مدن الساحل التي استولى عليها السلطان صلاح الدين. وقد ساعدهم في ذلك، وصول جماعات كبيرة العدد، من أوروبا ما بين سنة ١١٨٨ و١١٩٠م: ومن بين الأسياد الكبار الذين وصلوا الى سوريا: الكونت دي بار والكونت دي بريان، والكونت دي شامبانيا وغيرهم، كما وصلت اليهم أساطيل بيزانية وجنوية ونورماندية وإنكليزية ودانمركية ونروجية وفلمندية، تمكنت من السيطرة على السواحل السورية، بكل سهولة، وبسرعة.

وكان الملك غي دي لوزيتيان، بعد إطلاق سراحه من الأسر، وتعهدّه لصلاح الدين، بعدم شهر السلاح في وجهه، قد حنث بوعده، وعاد الى صور مع زوجته الملكة سيبيل، بقصد تسلّم المدينة، التي كان المركيز كونراد دي منتفرات، قد استأثربها، كما مرّ بيانه، فمنعه المركيز المذكور من دخولها، فذهب الملك عند ذاك الى طرابلس ومكث فيها مدة بقي خلالها يتابع الأحداث في صور، ويواصل مطالبته بتلك المدينة دون جدوى، حتى اذا وجد نفسه عاجزاً عن الحصول عليها، عمد الى إعداد جيش صغير، جمعه من الفرسان الأفرنج الفلسطينيين القدامى، وبعض الحجاج القادمين حديثاً من أوروبا، ومضى على رأسه، يرافقه أخوه غودفروا، عبر ممتلكات المسلمين، نحو مدينة عكا، حيث عسكر تحت أسوارها (٢٧ آب ١١٨٩م - ٥٨٥هـ)، على أكمة تل

الفخّار، قاصداً حصارها والاَستعاضة بها عن صور إن وُقعت بيده.

وكان صلاح الدين، حينذاك، قائماً على حصار قلعة شقيق أرنون (أوعرنون)، فلما علم بنبأ قدوم الملك غي، استغرب الأمر، وهبّ مسرعاً لملاقاته؛ ولكن الجيش الأفرنجي كان قد تحصن وراء خنادقه، حول عكا، فكان لابد للسلطان من التمركز بدوره وراء خطوط العدو، بحيث أصبح هذا العدو محاصراً ومحاصَراً بالوقت ذاته. ونصب صلاح الدين خيمته على تل كيسان.

وفيما كان القتال يدور بين المسلمين والأفرنج حول خنادق عكّا، كانت الأمداد ترد لجيش السلطان ولجيش الفرنجة. وقد وصل لمؤازرة العدوّ بالتتابع أسطول بيزاني مؤلف من (٤٢) سفينة حربية ثم اسطول جنوي وبعده أسطول بندقي. وفي أعقابه أسطول مُشترك مؤلف من (٥٠٠) سفينة عليها، عشرة آلاف مقاتل من الدنماركيين والفريزونيين والفلمنديين.

وفي منتصف أيلول ١١٨٩م وصلت طليعة الأسطول الفرنسي مع الكونت دي بار: إيرار الثاني دي بريان وروبير دي درو وأخيه الأسقف فيليب دي بوفي وبعدها وصل غي دي دمبيار ونارجو دي توسي وريموند دي تورين، وجوفروا دي جوانفيل، ترافقهم فرقة من الفرسان الشامبانيين. وأخيراً وصل المركيز كونراد دي مونفرات آتياً من صور (٢٤ ايلول ١١٨٩م).

وكان جيش السلطان صلاح الدين، قد أتاه المدد أيضاً، فوصلت جيوشه، متلاحقة، الاّ الملك العادل تأخر وصوله؛ ولكن ذلك لم يمنع جيش المسلمين، من التحرك، وشنّ الهجمات المتكررة، لاختراق طوق الجيش الفرنجي من جهة باب القلعة المسماة بقلعة الملك، الى باب قراقوش، وتأمين الاتصال بينه وبين المدينة المحاصرة، بحيث أخذ

المسلمون يترددون اليها فيدخلونها ويخرجون منها.

على أن الجيوش الأفرنجية عادت وتمكنت من قطع هذا الاتصال، فتمّ لهم بذلك حصار المدينة من سائر جهاتها (٤ تشرين الأول ١١٨٩م - ٥٨٥هـ). وفي ذلك اليوم قتل مقدّم الداوية: جيرار دي ريدفورت، الذي كان اسيراً في موقعة حطين وأطلقه صلاح الدين فيما بعد.

وعلى إثر ذلك، أصيب السلطان بالقولنج ومرض، فأشار عليه الأطباء بالانتقال، من موضعه فوافقهم ورحل عن عكا (١٤ رمضان ٥٨٥هـ) الى الخروبة، حيث توفي الفقيه عيسى الهكاري هناك.

وبعد أن مضى فصل الشتاء واستعاد كل من الفريقين المتحاربين راحته وقوته رجع السلطان الى موقعه في تل كيسان لمنازلة العدوّ، وكان قد أرسل اسطوله المصري، بقيادة حسام الدين لؤلؤ، الى مياه عكاً لتموينها بالأقوات، فجرت معركة بحرية بين الأسطول الأسلامي والأسطول الأفرنجي، استطاع فيها الأسطول الأول ان يهزم الثاني، ويدخل ميناء عكّا سالماً فقويت بذلك قلوب أهالي المدينة، وفي ذلك الوقت، وصل أيضاً الملك العادل بعسكر مصر، وبالسلاح الى أخيه السلطان[1].

وكان قبل ذلك أي في الخامس عشر من ربيع الأول ٥٨٦هـ، قد استسلم الأفرنج المحاصرون في قلعة الشقيف، ودخلتها القوة التي كان السلطان أبقاها على حصارها؛ ورحل منها الأفرنج الى صور؛ بعدما كان صاحبها رينو (أرناط) قد قبض عليه السلطان وأرسله الى دمشق سجينا قبل الحصار.

حينما عاد السلطان الى تل كيسان، كان الأفرنج قد أقاموا ثلاثة

(١) ابو الفداء: المختصر في أخبار البشر ج(٥) ص١٠٢.

أبراج سيارة، قرب سور المدينة، لقذفها بالنار، وكان طول البرج ستين ذراعاً، ومؤلفاً من طبقات، ومكسوّاً بجلود البقر والطين، عليها الخلّ لئلا تعمل فيها النار، وشحنت هذه الأبراج بالسلاح والمقاتلة، فلحق المسلمين منها ضرر كبير. ولكنهم تمكنوا بعدئذ من إحراقها واحداً بعد الآخر بمن فيها من الرجال والسلاح، وذلك بفضل شاب نحاس مسلم من دمشق، عمل على طبخ بعض العقاقير مع النفط، وألقاها على تلك الأبراج فأشعلها، ووضع حدّاً لضررها (٢٧ ربيع الأول ٥٨٦ هـ - ايار ١١٩٠ م).

وبقي المسلمون والأفرنج على عكّا يتناوشون القتال الى العشرين من جمادى الآخرة ٥٨٦ هـ - ٢٥ تموز ١١٩٠ م)، حيث قام الأفرنج بغتة بهجوم كبير على طرف ميمنة جيش السلطان، وكان فيها مخيّم الملك العادل، فنهبوه بعدما أزالوا العادل عن موضعه، فعطف عليهم المسلمون وطوقوهم، وأثخنوا فيهم قتلاً، فنكصوا على أعقابهم عائدين الى خنادقهم، وقد تخطفتهم السيوف وفقدوا أكثر من سبعة آلاف قتيل، وكان ذلك اليوم عليهم عسيراً[1].

بعد هذه الموقعة بيومين، وصل الكونت هنري الثاني دي شامبانيا في البحر ومعه عدد كبير من الرجال والذخائر، ثم تبعه اسقف كانتربري مع رجاله الأنكليز وبعده أطل فريدريك دوق سوابيا إبن الأمبراطور الألماني الغريق، مع بقية جيشه، فقوي بهم عزم الأفرنج وازداد القتال حدة بين المسلمين وبين هؤلاء، دون ان يقوى احد من الفريقين على زحزحة خصمه من مواقعه.

وقد رأى صلاح الدين، عند ذاك، أن ينسحب الى جبل الخروبة بجنده، لتوسيع حلقة الحصار ونطاقه، وأرغام العدوّ، على التحوّل عن

(١) ذات المرجع: ص١٠٤.

خنادقه بغية إضعاف ضغطه على المدينة، غير أن ذلك لم يجد نفعاً، فبقيت المناوشات والأعمال الحربية، على قدم وساق، بين الطرفين، والكتب والمراسلات متواصلة من مدينة عكا الى الجيش الأسلامي، ومنه اليها، على اجنحة الحمام الزاجل (شعبان ٥٨٦ هـ - اول آب ١١٩٠ م)، وبواسطة العوّامين الذين يتسلّلون من المدينة الى البحر، ثم يعودون اليها بذات الطريق.

ولما شعر الأفرنج بازدياد قواهم البرية والبحرية بسبب توالي النجدات عليهم، اشتد طمعهم بالمدينة، ودأبوا على قذف اسوارها بالمنجنيقات التي ركبوّها من كل جانب، بصورة متواصلة، مما كان يدفع بأهل البلد، وعلى رأسهم الوالي، الأمير بهاء الدين قراقوش، والمقدّم الأمير حسام الدين أبو الهيجاء، على الخروج من المدينة بين حين وآخر، ومهاجمة العدوّ في خيامه فيوقعون به ويأسرون بعض رجاله وينهبون ويسلبون ما تصل إليه أيديهم. كما استطاع بعض الزّراقين في عكا، أن يضرموا النار في المنجنيقات المنصوبة من العدو.

ولكن بعد أن أحاط العدوّ بعكّا من البحر وحفر الخنادق حولها وقلّت الأقوات والمؤن فيها، كتب بهاء الدين قراقوش للسلطان يعلمه بواقع الحال، وبضعفه عن حفظ البلد للمدى الطويل، فأرسل صلاح الدين الى مصر، يطلب تجهيز بعض السفن وشحنها بالمؤن وما يجب لاحتياجات الأهالي طيلة فصل الشتاء، الذي كانت بوادره تنذر باشتداد هبوب الرياح، فأبحرت السفن من الديار المصرية متجهة نحو المدينة، فخرج عليها اسطول الأفرنج لمنعها من دخول الميناء، فتخلصت منه، وأحبطت مسعاه، ووصلت الى الميناء سالمة بالرغم من كل العقبات.

الفصل الثالث

سقوط عكا بيد الأفرنج

في خضم الحوادث، التي أشرنا اليها، لم ين الأفرنج عن الاهتمام بمسألة كانت لا تزال تفرق بينهم وتقسمهم الى فئتين، ألا وهي مسألة وراثة العرش. ذلك أن ملكة القدس سيبيل، زوجة الملك غي دي لوزينيان، قد ماتت في شهر تشرين الأول ١١٩٠م أمام عكا هي وإبنتاها أيليس (Aelis) وماري. ولم يكن لها غيرهما، وإذ كان زوجها غي لا يعتبر، وفقاً لأحكام قانون مملكة القدس اللاتينية، إلاّ كأمير مشارك في العرش معها، فان وراثة العرش، لا تعود اليه، شرعاً، بل يجب أن تعود الى أخت سيبيل الصغرى: الأميرة إيزابيل زوجة البارون أونفروادي تورون، ذلك الشاب الجميل، الذي سبق ورفض تاج مملكة بيت المقدس، عندما عرض عليه كما مر آنفاً. ولما كان الأمر يتطلب وجود أمير قادر على قيادة الأفرنج في الحرب الضروس التي يخوضونها ضد المسلمين، بغية استعادة مملكة القدس الضائعة. ويكون بمستوى السلطان صلاح الدين الأيوبي، ويضاهيه بسالة وخبرة في الحرب، وكان غي دى لوزينيان وأونفروادى تورون، غير صالحين أو مؤهلين لقبولهما من البارونات لأسباب عدة، فقد اتجهت الأنظار نحو المركيز كونراد دي مونتفرات، سيد صور الجديد، الذي نظم المقاومة في تلك المدينة بصورة تستدعي الاهتمام والأعجاب.

ولكي يمكن إضفاء صفة الشرعية على انتخاب كونراد، ملكاً على

إفرنج سوريا، صمم البارونات على العمل لتطليق الأميرة إيزابيل من زوجها أو نفروا، وتزويجها من كونراد. وبالطبع رفضت ايزابيل الطلاق من زوجها الشاب لشدة حبها له (وكانت بعد لم تتجاوز العشرين من عمرها)، فاستعان المتآمرون بوالدتها الملكة الأم، ماري كومنين، لأرغامها على الطلاق، فبذلت هذه الأخيرة جهدها في إسداء النصح لأبنتها وإفهامها بأن مصلحة الدولة تقتضي منها التضحية بزوجها وبحبها له، وبعد الألحاح والضغط الشديدين، وافقت إيزابيل مرغمة على طلاقها من زوجها، والزواج بكونراد.

بيد أن ذلك، لم يكن ليحل المشكلة، إذ بقيت مسألة كيفية إبطال الزواج الجاري بين إيزابيل وأو نفروا، فيما لو مانع الزوج بتطليق زوجته، وما هو السند الشرعي الواجب اعتماده لهذه الغاية؟ وبعد البحث والدرس، وجد أصحاب الغايات أن ثمة سنداً، يجوز أن يؤدي الى إبطال الزواج، وهو أن إيزابيل، قد زُوجت وكانت صغيرة لم تتجاوز الحادية عشرة من عمرها وبدون موافقتها، فزواجها غير صحيح وغير مقبول شرعاً، لفقدانه المقومات الشرعية، وهذا ما دعا زوجها اونفروا للاحتجاج والممانعة، فانتصب بوجهه أحد البارونات من حزب كونراددي مونتفرات المدعو:غي دى سانليز، وألقى اليه بقفازه، متحدياً إياه للمبارزة، فجبن الزوج العاشق، ولم يستجب للتحدي: فألغى زواجه بالأميرة إيزابيل وعقد زواجها من جديد على كونراددي مونفرات، وجرى ذلك في جلسة واحدة، منعاً للأخذ والرد.

وهكذا أصبح المركيز كونراد، في وضع شرعي، يعطيه الحق بالمطالبة بعرش القدس. ولكن كان هناك أيضاً غي دي لوزينيان، الذي لا زال يطالب بالعرش ذاته، وله أنصاره من الداوية وغيرهم: ولئلا يؤدي احتدام الخلاف بين حزبي الفريقين المتنازعين على العرش، في تلك الظروف الحرجة، الى ما لا تحمد عقباه، استقر الرأي بينهم على ترك

الأمور كما هي، حتى مجيء العاهلين: الأنكليزي والأفرنسي، المنتظر وصولها بفارغ الصبر الى الشرق، فتُعرض القضية عليهما، لفصلها كما هو الأوفق للمصلحة العامة.

رأينا آنفاً كيف جرى اجتماع ملك انكلترا هنري الثاني بلانتا جنيت وملك فرنسا فيليب أوغست، في جيزور، للمصالحة، وتباطؤهما في السفر الى الشرق. وكان السبب في تقاعسهما عن القيام بحملتهما الصليبية، عودة الخصام والحرب بينهما، الى أن مات ملك الأنكليز في (٦ تموز ١١٨٩ م). فوضع حد لتلك الحرب.

وبعد انتخاب ريشارد قلب الأسد، ملكاً على عرش انكلترا، خلفاً لوالده، ترك بلاده، واجتمع بملك فرنسا فيليب أوغست في فزلاي (Vézélay) في شهر تموز ١١٩٠ م، حيث أقسم الملكان لبعضهما قسم الصداقة والصلح. ومن هناك اتجها مع جيشيهما الى مدينة ليون مجتازين نهر الرون، ثم افترقا. فأبحر ملك فرنسا الى جنوى، وملك انكلترا الى مرسيليا. وبعد ذلك التقيا في مسينا، بصقلية، حيث بقيا في هذه المدينة، ستة اشهر، بسبب اختلافاتهما الدائمة الناتجة عن فقدان الثقة بينهما من جهة، ونظراً لتصادم الأنكليز مع الصقليين من جهة أخرى. وكان أن استولى ريشارد قلب الأسد، على قلعة مسينا ورفع رايته عليها. ولكنه عاد فتركها بناء لطلب فيليب أوغست، وبتاريخ ٣٠ أذار ١١٩١ م - أبحر الملك الفرنسي من مسينا الى عكا، فوصلها في ٢٠ نيسان من السنة ذاتها.

اما ملك الأنكليز، فانه ترك مسينا، في العاشر من نيسان ١١٩١ م، ومعه والدته أليانور، وخطيبته: بيرانجير دى نافار (De Navarre Berangere) وأخته: حنّة أرملة ملك صقلية، وبعد اجتيازه جزيرتي اقريطش (Crete) ورودس، جنحت بعض سفنه، على سواحل جزيرة

قبرص: وكانت خطيبته وأخته في إحدى تلك السفن الجانحة، فما كان من أمير الجزيرة: إسحق كومنين، إلا أن عمل على مصادرتها والأساءة الى ركابها.

ويتهم الأفرنج هذا الأمير البيزنطي بأن صداقته للسلطان صلاح الدين، هي التي أملت عليه مصادرة السفن الأنكليزية لعرقلة مسيرتها: وبالتالي مسيرة الحملة الصليبية.

وجرت مفاوضات بين ملك الأنكليز وأمير الجزيرة بشأن السفن المصادرة وركابها لم تسفر عن نيتجة، فعمد عند ذاك قلب الأسد، الى النزول في مدينة: ليماسول، ومهاجمة الأمير البيزنطي منها، والتغلب عليه وأسره. ومن ثم الدخول الى عاصمة قبرص: نيقوسيا (آخر أيار ١١٩١ م) فاتحاً. وفي نيقوسيا، استقبل الملك الأنكليزي وفداً حضر اليه من عكا يتألف من الملك غي دى لوزينيان، وأونفروادى مونتريال، وجوفروا دى لوزينيان، وسواهم، ليضعوا أنفسهم تحت تصرفه ويساعدوه على فتح الجزيرة، بعد أن طلبوا منه المؤازرة في الخلاف الواقع بين غي دي لوزينيان وكونرادديمونتفرات، على تاج مملكة القدس طالما أن فيليب أوغست ملك فرنسا، أسرع الى تبني اختيار كونراد للعرش.

لقد كان لفتح جزيرة قبرص، من قبل ملك الأنكليز، تأثير قوي في نتيجة الحصار الملقى على عكا، إذ ان ذلك سهل كثيراً إرسال الأقوات منها الى الصليبيين، فتصلهم خلال يومين على الأكثر، وهذا ما كان يزيد في تثبيت مواقعهم حول عكا، فيما بعد.

ولما فرغ ريشارد من تدبير أمور قبرص وتزوج بخطيبته بيرانجير، عهد بحكم الجزيرة الى فرقة الداوية، وأبحر الى عكا فوصلها في (٧ حزيران ١١٩١ م)، وفي طريقه اليها استحوذ على مركب كبير للمسلمين كان يحمل القوت والذخائر لأهالي عكا.

وكان لقدوم الأسطول الانكليزي بشوانيه الخمس والعشرين، المملوءة بالرجال والعتاد رد فعل قوي لدى الأفرنج، فأوقدوا في تلك الليلة التي وصل فيها نيراناً كثيرة في خيامهم، واستقبلوا ملك الأنكليز، والفرح يأخذ منهم كل مأخذ.

وانقضى فصل الشتاء الثاني على حصار عكا وهي لا تزال صامدة، بالرغم مما أصابها من أضرار. ولكن كل الدلائل كانت تشير الى قرب استسلامها، إذ قلت فيها الأقوات ونقص عدد المدافعين عنها، وخفت حماستهم، يأساً من عجز السلطان عن دفع العدو عنهم وعن أرسال النجدات اليهم كالسابق خصوصاً بعد أن اشترك الجيشان الأفرنسي والأنكليزي يالحصار، وعاد الأفرنج يجددون غاراتهم على المدينة، فضاق الحصار على أهاليها، براً وبحراً، وقد أوت مواصلة الضرب بالمنجنيقات على أسوارها، الى خلخلة تلك الأسوار وزعزعة بنيانها، بحيث رأى الأفرنج بذلك، فرصة مناسبة للزحف عليها بغية احتلالها، إلا أن صلاح الدين، حاول عرقلة زحفهم فحمل عليهم مع الملك العادل حملات متلاحقة، فأوقفهم مؤقتاً دون أن يتمكن من إخراجهم من مواقعهم، فواصلوا هجومهم في اليوم التالي، حتى وقعت الخنادق بيدهم، وثقب سور الباشورة فأشعلوا النار فيه. وعندها ضاق الأمر على أهل البلد، وتيقّنوا بالهلاك، فبدأوا التفاوض مع العدو في سبيل الصلح، وكان المفاوض باسمهم: الأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب، فاشترط الأفرنج عليه شروطاً قاسية، لم يقبلها صلاح الدين في البدء عندما علم بها، ولكنه عاد فوافق عليها، لعدم قدرته على إعانة المدينة، وتلك الشروط هي كما يلي: تسليم البلد للفرنجة بما فيه من آلات وأعتدة ومراكب، ودفع مائتي ألف دينار لهم نظير الأسرى المسلمين، وإطلاق سراح ألف وخمسمائة فارس من مجاهيل الأسرى الأفرنج ومائة فارس معينين من جانبهم، ورد صليب الصلبوت المأخوذ في موقعة حطين، إليهم على أن

يخرج المسلمون من المدينة سالمين بما معهم من أمتعة. وفي اليوم الثاني عشر من تموز ١١٩١ م- السابع عشر من جمادى الآخرة ٥٨٧ هـ دخل الأفرنج مدينة عكا، وكان صلاح الدين من أعالي مواقعه، في شرقي سهل عكا يشاهد الجيوش الصليبية وهي تدخل المدينة وقلبه يتفطر ألماً، لعجزه عن تخليصها مما هي فيه.

وكان اول الداخلين الى عكا المركيز كونراد دي مونفرات ومعه أعلام الملوك المسيحيين فنصب علماً منها على قلعة وعلماً آخر على مأذنة وكان ذلك يوم جمعة. لقد سقطت عكا ثانية بيد الأفرنج، بعدما استعادها المسلمون، لفترة قصيرة وبسقوطها، عاد الأمل يداعب نفوس الصليبيين باسترداد بيت المقدس، وما فقدوه من مملكتهم؛ فأن القوى التي بعثت بها أوروبا المسيحية الى الشرق لمناصرتهم، كفيلة بذلك. وصلاح الدين نفسه كان يخشى العاقبة. وقد ارسل الى الخليفة الناصر لدين الله في بغداد كتاباً يتألم فيه من فتور همة المسلمين في الجهاد، ويشيد باندفاع الأفرنج لنصرة قضيتهم، وكيف أنهم يضحون بأموالهم وأنفسهم في سبيلها، لا فرق بين ملك وأمير وغني وفقير وكبير وصغير. وكان قبل ذلك قد بعث برسالة الى سلطان بلاد المغرب: يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، يطلب فيها منه العون. بقطع طريق البحر بين الشرق والغرب، منعاً لوصول الأمداد الى الأفرنج في صور. بعد موقعة حطين، ولم يلب سلطان بلاد المغرب نداء صلاح الدين، فلم يمنع الحملة الصليبية الثالثة التي أتت الى الشرق، ولا غيرها، وبقيت الطرق مفتوحة في البر والبحر امام الافرنج. وكان الخلاف قد توقف مؤقتاً بين الأفرنج، ولكن عاد وذّر قرنه بعد انتصارهم في عكا. ذلك أن ريشارد قلب الأسد تبنى قضية غي دى لوزينيان، في حين تبنى فيليب أوغيست قضية كونراد دى مونتفرات، وتفادياً للانشقاق الذي أخذ يشل صفوف الجيوش الصليبية، اجتمع مجلس البارونات السوري،

في ٢٨ تموز ١١٩١ ونظر في المسألة المتعلقة بوراثة عرش مملكة بيت المقدس، فتوصل بالنتيجة الى اتفاق يرضي الفريقين، من حيث إنه يقضي بأن يحتفظ غي دي لوزينيان بعرش المملكة طيلة حياته، ثم يخلفه على العرش، كونراد دى مونتفرات، بصفته زوجاً للأميرة إيزابيل. وفي الوقت ذاته، أعطي كونراد، الحق بأخذ مدينتي بيروت وصيدا في حال الاستيلاء عليها بالأضافة الى مدينة صور التي يحكمها.

كما ان جوفروا دي لوزينيان شقيق غي، مُنح بدوره حق فتح مدينتي يافا وقيسارية وأخذها.

وما ان تحقق هذا الاتفاق بين الأفرنج حتى أعلن الملك فيليب أوغست عن رغبته في العودة الى بلاده، فرنسا، بالرغم من سخط الصليبيين وشجبهم لموقفه. وفي الثاني من شهر آب ١١٩١م، أبحر الى طرابلس، ومنها الى برندزي، تاركاً في فلسطين، قسماً من جيشه، تحت قيادة هوج الثالث، دوق بورغونيا، الذي أعطي الأوامر للحفاظ على حقوق الفرنسيين. والحيلولة دون ملك انكلترا واقامة دولة انكليزية في الأرض المقدسة.

أما ريشارد قلب الأسد ملك الأنكليز، فأنه بقي في فلسطين، وبصفته الرئيس الأعلى للجيوش الصليبية، تمنع عن تنفيذ جميع الشروط المتفق عليها مع المسلمين، وقت سقوط عكّا، وأقدم بتاريخ ٢٠ آب ١١٩١م - ٢٧ رجب ٥٨٧هـ، على قتل الأسرى المسلمين لديه، وكانوا حوالي الثلاثة آلاف أسير، دفعة واحدة، مرتكباً بذلك اكبر خطأ سياسي، كما يقول الأفرنج. علماً بان صلاح الدين كان قد وفى بوعده معه، فأطلق أسرى الأفرنج، ودفع المال المتفق عليه، بعدئذ؛ وأعاد الصليب الحقيقي.

وقد جرت هذه المذبحة، في وسط المرج بين تل كيسان والعياضية.

وقال عنها المؤرخ رينه غروسيّه: [كان هذا العمل الوحشي، فضلاً عن ذلك، يشكل خطأ فادحاً].[1] وقد حفزّ هذا العمل المسلمين للأخذ بالثأر، وقابله صلاح الدين بعد ذلك بالمثل، ويزيد رينه غروسيه بقوله: [وليس للتاريخ أن يؤاخذه على ذلك]. أي صلاح الدين.

وبعد أن أمضى الأفرنج مدة شهر ونصف يرتاحون في عكا من عناء الحرب، ويقررون أمرها استقر رأيهم على الزحف الى عسقلان، والاستيلاء على المدن الساحلية الواقعة بينها وبين عكا للوصول بعدئذ الى القدس.

وبتاريخ ٢٢ آب ١١٩١م - ٢٩ رجب ٥٨٧هـ - انطلق جيشهم في سبيله وعلى رأسهم الملك ريشارد قلب الأسد (الأنكتار) كما سماه المسلمون، والملك غي دي‌لوزينيان، وفي المؤخرة: هوج دوق بورغونيا والفرنسيون، ووجهته الجنوب، متخذاً الطريق الساحلي، ليكون بحماية اسطوله البحري الذي امتلك سيادة البحر، بدون منازع، فيمونه بالعتاد والأقوات مرحلة بعد مرحلة، ويبعد هجمات المسلمين.

اما صلاح الدين، فقد سار بجيشه إزاء الجيش الصليبي، لجهة التلال، بقصد مناوشته وانتهاز الفرصة الملائمة لمباغتته وقطع مواصلاته، ولكن جيش العدوّ، بقي متابعاً مسيرته دون عائق، حتى وصل أمام حيفا التي كان المسلمون قد اخلوها. وبعد الاستراحة فيها بعض الوقت حيث أخذ الأسطول الصليبي يؤمن التموين فيها. تركها، متجهاً صوب قيسارية (مستهل شعبان) فدخلها ووجدها خالية من أهاليها والدمار مخيماً عليها. ثم قصد الأفرنج مدينة أرسوف، فتبعهم صلاح الدين وفي نيته منازلتهم هناك. وفي تلك الأثناء جرت المفاوضات بين الفريقين بالصلح. واجتمع الملك العادل بملك الأنكليز لهذه الغاية. ويقول القاضي بهاء الدين في

(1) René Grousset: L'Épopée des croisades p. 270

كتابه: سيرة صلاح الدين صفحة ١٧٤ [لما علم الأنكتار وصول الملك العادل الى اليزك. طلب الاجتماع به، فأجابه الى ذلك، فاجتمعا بفرقة من أصحابها، وكان يترجم بينهما، ابن الهمفري وهو من إفرنج الساحل، من كبارهم: وهوشاب حسن، إلاّ أنه محلوق اللحية، على ما هو شعارهم. وكان الحديث بينهما أن الأنكتار شرع في ذكر الصلح وان الملك العادل قال له: أنتم تطلبون الصلح ولا تذكرون مطلوبكم فيه حتى أتوسط أنا، الحال مع السلطان. فقال له الأنكتار، القاعدة ان تعود البلاد كلها الينا، وتنصرفوا الى بلادكم. فخشّن له الجواب، وجرت منافرة اقتضت أنهم رحلوا بعد انفصالهم].

وكان ذلك في ١٣ رمضان ٥٨٧ هـ - ٥ ايلول ١١٩١ م، وإذ اخفقت المفاوضات، واصل الجيش الصليبي سيره نحو أرسوف حتى وصل الى بساتينها، رغم تعرضه لسهام المسلمين طيلة سيره. وفي تلك المحّلة جرت المعركة بين الفريقين، وكان الصدام قوياً فثبت الصليبيون في مواقعهم، ثم كروّا مراراً على ميسرة الجيش الأسلامي وميمنته وقلبه، معاً فألقوا الروع فيه، وهزموه شرّ هزيمة فولى الجنود الأديار من كل جانب. وكان ممن ثبت في ذلك اليوم، الملك العادل، والطواشي قايماز النجمي، والملك الأفضل، وعلاء الدين صاحب الموصل (١٤ شعبان ٥٨٧ هـ - ٧ ايلول ١١٩١ م) وعلى أثر هذه الوقعة، رأى صلاح الدين، أن من المصلحة هدم بعض المدن الجنوبية لئلا يأخذها الأفرنج. نظراً لمواقعها المهمة. فأمر بتخريب يافا وعسقلان، وحصن الرملة، وكنيسة لدّ، ثم توجه الى بيت نوبة وبعدها الى القدس. لسدّ كل خلل فيها وتحصين أسوارها وزيادتها. ومن ثم عاد الى الجيش في النطرون بعد ان كان ترك الملك العادل يقوم بتخريب المدن.

وفي ذلك الوقت، وبدلاً من أن يقدم ملك الأنكليز على انتهاز الفرصة ويزحف الى القدس ليأخذها بسرعة، كما أشار عليه كونراد

دي مونتفرات، تابع السير نحو يافا فدخلها وعمد الى إعادة بنائها، وبقي فيها نحواً من شهرين أجرى خلالها مفاوضات للصلح مع صلاح الدين، وبناء بعض المعاقل في الصحراء.

وفي أواخر تشرين الأول ١١٩١م، عزم ريشارد قلب الأسد على الزحف الى القدس، فمضى الى الرملة فدخلها وأقام فيها بعض الوقت، بعد أن كان هزم المسلمين في يازور (Yazûr) في الثلاثين من تشرين الأول. ثم تابع سيره الى بيت نوبة (Bétênoble) فوصلها في الخامس والعشرين من كانون الأول. وكان البرد قد اشتد وانهمرت الأمطار غزيرة متواصلة، وهناك استعر الخلاف بين الأفرنج، وأثيرت المسألة، فيما اذا كان يجب محاصرة بيت المقدس التي لا تبعد اكثر من اثني عشر ميلاً، أم لا؟ فالأفرنج المقيمون، اي السوريون، بالأضافة الى الداوّية والأستبارية والأفرنسيين قالوا لا، بالنظر لكثرة الأخطار الناشئة عن ذلك، حتى في حال أخذ المدينة، فلن يكون بالأمكان، الاحتفاظ بها، بعد مغادرة ملك الأنكليز لفلسطين بجيشه. أما القسم الآخر من الصليبين، فكان رأيهم مغايراً لرأي القسم الأول، وخلافاً لكل ما ابدوه وتذرعوا به من حجج وأسباب، فان الملك ريشارد انحاز للرأي الأول، وأعطى أوامره بترك بيت نوبة والعودة الى الساحل. (١٣ كانون الثاني ١١٩٢م). وهذا ما جعل الجيش الصليبي يفقد تلاحمه، ويتفكك بحيث انصرف الأفرنسيون أما الى يافا وإما الى عكا أو صور، في حين ان الملك الأنكليزي مضى، يرافقه الكونت دي شامبانيا مع جيش صغير، الى عسقلان، التي كانت أصبحت أنقاضاً وخراباً، فعمل على إعادة بنائها. ولما تمّ له ذلك، أخذ يشن منها الهجمات على البلدان المجاورة، فيما كانت المفاوضات اثناء ذلك تدور بينه وبين صلاح الدين، بشخص الملك العادل، لأجل الصلح، وكانت تلك المفاوضات ترمي الى ما يلي: يتزوّج الملك العادل بأخت الملك ريشارد التي رافقته الى فلسطين، وتدعى

حنة؛ وهي أرملة حاكم صقلية: غليوم الثاني. ويتنازل السلطان للملك العادل، عن البلاد الساحلية المحتلة، كما يتنازل ملك الأنكليز عن البلاد التي دخلها، وذلك كصداق لأخته؛ وتبقى القدس ملكاً للزوجين، يفتحان ابوابها للمسلمين والمسيحيين على السواء، ويتبادل الفريقان اي المسلمون والأفرنج أسراهم.

وقد وافق السلطان صلاح الدين على تلك الشروط، عند عرضها عليه، رغبة منه في حقن الدماء، وإشاعة السلام في تلك الربوع. ولكن رجال الدين المسيحيين، أقنعوا أخت الملك الأنكليزي، بوجوب رفض الزواج من الملك العادل لأنه مسلم، فنزلت عند طلبهم؛ كما رفض الملك العادل اعتناق المسيحية للتزوج بها، وفشلت المفاوضات بالصلح.

بينما كانت هذه المفاوضات دائرة، كان كونراد دي مونتفرات صاحب صور يتقرب من صلاح الدين، ويفاوضه ايضاً بالصلح، بداعي الخلافات التي عادت وذرّت قرنها بين الصليبيين.

ذلك ان هوج دي بورغونيا، قائد الجيش الأفرنسي، احتاج الى المال لدفع أجور جنده، فطلب من الملك ريشارد، أن يعينه على ذلك، فرفض هذا الأخير، فما كان من القائد الأفرنسي، الا ان غادر عسقلان مستاءً إلى عكا.

وفي عكا كانت الاحقاد الخامدة قد انفجرت أيضاً بين البيزانيين، مناصري الملك غي دي لوزينيان، والجنويين، مناصري كونراد دي مونتفرات: فتقاتلوا في شوارع المدينة؛ ولما كان هوج دي بورغونيا يؤيد الجنويين، فقد انسحب الى صور، لأن ربع أحياء عكا كانت بيد البيزانيين حسب الاتفاقيات السابقة. وعندها أراد كونراد محاصرة عكا، فعلم ملك الأنكليز بالأمر، وعمل على حسم الخلاف بين الفريقين المتقاتلين.

ثم بعد ذلك، وتحت ضغط البارونات ورجال الدين، صمم ريشارد على الزحف على بيت المقدس، فدعا مجلس الأعيان الى جلسة تعقد في عسقلان في شهر نيسان ١١٩٢م، لأخذ رأيهم بهذا الشأن. وفي الموعد المعين حضر الاجتماع جميع بارونات المملكة، الأفرنج والقادة الصليبيون، فعرض عليهم ملك الأنكليز، حقيقة الخلاف الواقع بين الملك غي دي لوزينيان وكونراد دي مونتفرات، وطلب رأيهم في هذا الصدد، وبعد التشاور والتباحث تقررّ بالأجماع تقريباً، على أن ينصب كونراد ملكاً عليهم بدلاً من غي دي لوزينيان. فلم يرَ ريشارد عند ذاك، بُدّاً من الموافقة على ما قرّروه. وأرسل يدعو إليه كونراد ليصالحه. وبالمقابل أعطى الملك غي دي لوزينيان، جزيرة قبرس بعد أن اشتراها من الداوّية أصحابها، وذلك لقاء ما لقيه غي من خسارة عرش مملكة القدس.

ونُصب كونراد ملكاً على مملكة بيت المقدس. أي ملكاً على صور وعكّا ويافا، وعسقلان بالأحرى. غير أنه لم يهنأ بما ناله من الملك طويلاً، فقد وقع قتيلاً بيد فدائيين من الأسماعيلية، في أحد شوارع صور، بعد بضعة أيام من تنصيبه (٢٨ نيسان ١١٩٢م - ١٣ ربيع الآخر ٥٨٨ هـ).

ويقول بهاء الدين في كتابه: سيرة صلاح الدين صفحة ٢٠٢: [إن القاتلين هما من أصحاب كونراد، ولما سؤلا عن هذا الأمر ومن حضّهما عليه، قالا إن الأنكتار حملها عليه].

أما ابن الأثير من جهته فيتهم صراحة، السلطان صلاح الدين، بأنه هو الذي دفع الأسماعيليين لقتل كونراد. في حين أن مؤرخي الأفرنج يعتبرون أن الأسماعيليين قتلا كونراد بدافع من الزعيم راشد الدين سنان، انتقاماً منه، لما كان أقدم عليه من قتل بعض الأسماعيليين.

ومهما يكن من امر، فأن موت كونراد دي مونتفرات، قد أفرح قلب ملك الأنكليز، فلم يعد له خصم في الأرض المقدسة بين الصليبيين، وأضحى الحكم الوحيد الأعلى لهم فيها. كما إن موته أزاح من طريق المسلمين خصماً قوياً كان هدفه الأول، استعادة الأراضي التي فقدها الصليبييون.

وعلى أثر ذلك، قامت حركة شعبية دعا اليها أهالي صور وفرسان الأفرنج وبارونات سوريا، والجيش الصليبي، للمناداة بالكونت هنري دي شامبانيا ملكاً على مملكة بيت المقدس. وقد رضي هذا الكونت بلبس .التاج. ولكن كان عليه أن يضمن موافقة ملك الأنكليز، الذي، حالما علم بهذا الانتخاب الفجائي، رحّب به وتقبّله بكل طيبة خاطر؛ خصوصاً وان الملك الجديد يمتّ اليه بصلة القربى. كما هو قريب لملك فرنسا فيليب أوغست بذات الدرجة، (أي ان أم الكونت هنري: ماري، هي ابنة لويس السابع ملك فرنسا، ووالد فيليب أوغست وأليانور داكيتان والدة ريشارد قلب الأسد). ويرضى به الحزبان الأفرنسي والأنكليزي.

وعملاً بالأعراف المتبعة، والقواعد الواجب التقيد بها، كان على الكونت هنري، أن يتزوج بأيزابيل. أرملة الملك الراحل، بالرغم من احتجاجها ومعارضتها لذلك، كما حصل لها في السابق. غير أن مصلحة الدولة العليا، ومصلحة المسيحية، قضت عليها بالتضحية، فضحت بعواطفها، ونزلت بالنتيجة على رغبة الجميع، وكانت حاملاً من زوجها كونراد، فعقد قرانها، على الكونت دي شمبانيا، بعد أسبوع من موت ذلك الزوج (٥ ايار ١١٩٢ م) في مدينة صور[١] وقد قيل بهذه المناسبة إن الوقت لم يسمح للبكاء على المركيز، الذي نصبّ ملكاً قبل أقل من

(1) Zoé Oldenbourg: Les Croisades P., 478.

أسبوعين، حتى برز آخر واخذ تاجه وأرملته الحامل. وكأنهم بذلك، كانوا ينتقدون هذا الزواج. لمخالفته شريعتهم، بعدم تقيّد الملكة بعدتها الشرعية بعد وفاة زوجها.

وبعد أن هدأت النفوس وزالت الخلافات بين الصليبيين، على إثر انتخاب هنري دي شامبانيا ملكاً لمملكة بيت المقدس، قام هذا الأخير. يرافقه قائد الجيش الأفرنسي: هوج دي بورغونيا، لموافاة الملك ريشارد، الى بيت نوبة. من أجل بحث بعض المسائل المهمة التي كان لا يزال الخلاف عليها واقعاً، وكان ملك لأنكليز قد وصلها، بعد استيلائه على حصن الـداروين، جنوبي عسقـلان. وهنـاك عـاد الخـلاف يـدّب بين الأفرنسيين والأنكليز، على مسألة القدس، من حيث وجوب متابعة الزحف عليها، أم العودة الى بلادهم؟ وكان من رأي ملك الأنكليز، أن الظرف غير مؤاتٍ لمحاصرة المدينة المقدسة، إذ بأمكان صلاح الدين، أن يقطع عليه سبل التموين من البحر، بنزوله في سهل الرملة، فتدور الدائرة عليه (اي على ريشارد). وقد جاراه في الرأي أغلب بارونات سوريا وقادة الداوّية والأسبتارية ونصحوه بعدم المخاطرة في محاصرة القدس. مشيرين عليه بالاستيلاء على بيروت وإلاّ بالتوجه الى مصر، بمعونة الأساطيل البيزانية والجنوية، لأخذ دمياط او الأسكندرية، بحيث يمكنه فيما بعد، مبادلتها بالقدس، وبالنتيجة، استقر الرأي على العودة الى الرملة (٢٣ حزيران ١١٩٢ م) وفي الطريق اليها، علم ريشارد من شخص مسيحي سوري يسمىّ برنارد الجاسوس، بأن قافلة مهمة تنقل أمداداً من مصر، وتحرسها قوة كبيرة، هي في مكان ما، بين الخليل وعسقلان: فأخذ جماعة من فرسانه والقائد الأفرنسي هوج دي بورغونيا. الى المكان المعين؛ وفاجأوا القافلة المصرية، عند بزوغ الفجر، واستولوا على ما فيها من غنائم وأقوات وذخائر. وقد أورد بهاء الدين في كتابه: سيرة صلاح الدين، صفحة ٢٠٩ و٢١٠؛ ذكر هذه الحادثة فقال: [أما

الأنكتار فلما بلغه الخبر لم يصدّقه وركب مع العرب (عملاء الأفرنج) بجمع يسير، حتى اتى القفل، فطاف حوله في صورة عربي ورآهم ساكنين قد غشيهم النعاس، فعاد واستركب عسكره، فكانت الكبسة قريب الصباح، فبغت الناس ووقع عليهم بخيله ورجله، وكان الشجاع هو الذي ركب فرسه ونجا بنفسه، وانهزم الناس الى جهة القفل والعدو يتلوهم، فلما رأوا القفل أعرضوا عن قتال العسكر، وطلبوا القفل فانقسم القفل ثلاثة أقسام، قسم قصدوا الكرك مع جماعة من العرب وعسكر الملك العادل، وقسم أوغلوا في البرية مع جماعة من العرب أيضاً، وقسم استولى عليهم العدو فساقهم بجمالهم وأحمالهم وجميع ما كان معهم. وكانت وقعة شنعاء لم يصب الأسلام بمثلها من مدة مديدة. وجمع العدو ما امكنهم جمعه من الخيل والبغال والجمال والأقمشة وسائر انواع الأموال...

وإن الجمال تناهز ثلاثة آلاف، والأسارى خمسمائة وتقرب من ذلك عدة الخيل.. .. جمادى الآخرة ٥٨٨ هـ].

بعد هذه الغنائم التي استولى عليها ريشارد قلب الأسد، عاد الى الرملة حيث كان باقي الجيش قد وصلها قبله؛ وانضمّ اليه الملك هنري دي شمبانيا وجيشه. وهناك، أثيرت مرة أخرى مسألة الزحف على القدس، وكان اكثر المجتمعين تحمساً لذلك، هو الملك الجديد وكان لابد لريشارد، بعدما رأى من إجماع البارونات على استعادة المدينة المقدسة، من أن يجاريهم فيما عزموا عليه، ويمضي متجهاً بجيشه نحوها. ولكن عند وصوله الى بيت نوبة، توقف في ذلك المكان، وامتنع عن التقدم أبعد من ذلك، معتبراً بأن محاصرة القدس، فيها كثير من المخاطرة، في الوقت الذي كان فيه صلاح الدين قد جَهد في تهيئة اسباب الدفاع عنها.

ذلك ان السلطان، ما كاد يتحقق من نوايا الأفرنج من هذه الجهة

حتى أخذ في إفساد المياه بظاهر المدينة، وتخريب الصهاريج والجباب، وعمد الى تقسيم أسوارها على الأمراء، للمدافعة عنها، وكعادته في الظروف الحرجة، راح يحثهم على الجهاد في سبيل الله، ويبين لهم أهمية بقاء القدس بيد المسلمين، بعدما تمكن الصليبيون من استرجاع قوّتهم بفضل الجيوش التي أتت من الغرب لمناصرتهم؛ ومما قاله صلاح الدين للأمراء الذين جمعهم لديه ما يلي:

[إعلموا أنكم جند الأسلام اليوم ومنعته، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة بذممكم. وإن هذا العدو ليس له من المسلمين من تلقاه الاّ أنتم فان وليتم بأنفسكم، والعياذ بالله، طوى البلاد طيّ السجلّ للكتاب. وكان ذلك في ذمتكم، فأنكم أنتم الذين تصدّيتم لهذا، وأكلتم مال بيت المال، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام].

وقد أجابه الأمراء بأنهم مماليكه وعبيده وليس لهم إلاّ رقابهم وهي بين يديه، فلا يرجع أحد منهم عن نصرته الى ان يموتوا؛ فانبسطت نفس صلاح الدين بهذا المجلس وطاب قلبه. ولكن بعض الأمراء عادوا وتنكروا لموقفه من الحصار وقالوا ان لا مصلحة في ذلك، فأنهم يخافون أن يحصروا ويجري عليهم مثلما جرى على عكّا، وحينئذ تؤخذ بلاد الأسلام أجمع، والرأي أن يلقوا مصافاً، فأن قدر الله أن يهزموا الأفرنج، ملكوا بقية بلادهم. وإن تكن الأخرى، يسلم العسكر وتذهب القدس، وقد حفظ الأسلام بعساكره مدة بغير القدس؛ وجاء ايضاً في رسالتهم هذه ما يلي: [إن أردت أن نقيم فتكون معنا أنت أو بعض أهلك، وإلاّ فالأكراد لا يدينون للأتراك، والأتراك كذلك،[1] - الأمر الذي يدل على أن آراء الأمراء كانت متباينة فيما يختص بالبقاء داخل

(١) القاضي بهاء الدين: سيرة صلاح الدين ص.٢١٢ - ٢١٣.

القدس والاستعداد لمجابهة الحصار عليها.

ولو أن ملك الأنكليز، عمد عند ذاك الى مهاجمة هذه المدينة، لكان استولى عليها بسرعة، نظراً لتردد أمراء الجيش الأسلامي في الدفاع عنها، واختلافهم بالرأي مع السلطان، بالأضافة الى ضعف معنويات المسلمين في ذلك الوقت، وعدم كفاية تحصينها. ولكن بالرغم من ذلك. وخلافا لارادة الجيش الصليبي قرر ريشارد التقهقر نحو الرملة، بين سخط الأفرنج ونقمتهم، فلم يحاصر القدس ولم ينازلها، فخلصت من ويلات الحرب، ورأى المسلمون في ذلك فرجاً من الله (٤ تموز ١١٩٢ م).

وفي تلك الأثناء، عادت المفاوضات للصلح، تأخذ مجراها بين السلطان وملك الأنكليز؛ وتبودلت الرسائل بهذا الشأن، وكانت عباراتها مغلفة بالكياسة واللباقة، الاّ انها لم تؤدِ الى نتيجة.

وكان من جملة ما عرضه ريشارد على صلاح الدين، كبنود للصلح، إنشاء مملكة في الساحل، تحت حماية صلاح الدين؛ بحيث يكون هنري دي شمبانيا ملكاًعلى الساحل السوري، إن لم يكن على القدس، وتابعاً للسلطان، يعاونه على أعدائه، ويسترد المسيحيون قبر السيد المسيح، ويعطون الحرية لزيارة الأماكن المقدسة، ولكن صلاح الدين رفض ذلك.

بعد ذلك سار ريشارد من عكا متجهاً نحو بيروت لمهاجمتها، فيما كان صلاح الدين يترك القدس ويمضي الى بيت نوبة ثم الى الرملة، وبازور. وبيت جبرين حتى يصل الى يافا (١٥ رجب ٥٨٨ هـ). ويرمي الحصار عليها.

وفي الثامن عشر من رجب تمكن جيش السطان من الدخول الى يافا، بعد مقاومة ضارية من الأفرنج، الذين انهزموا الى القلعة للتحصّن فيها.

ولما علم ريشارد، وهو في طريقه الى بيروت بما جرى في يافا، قفل مسرعاً إليها في البحر، لنجدتها، مما اضطر صلاح الدين لأخلائها والانسحاب منها، بعد أن أوشكت قلعتها على التسليم، بواسطة البطريرك راوول (اول اب ١١٩٤ م). وكان انسحاب صلاح الدين من يافا، مدعاة لتندر الأنكتار (كما يقول بهاء الدين في كتابه: سيرة صلاح الدين صفحة ٢٢٧): [كان الانكتار قد صادق جماعة من المماليك، مثل الأمراء بدر الدين دلدرم، وأيبك العزيزي، وسنقر المشطوبي، والحاجب أبا بكر العادلي وغيرهم، وصار يجتمع بهم في أوقات متعددة. فلما حضر عنده هذا الجمع، جد وهزل ومن جملة أقواله: هذا السلطان عظيم، وما في هذه البلاد للأسلام أكبر ولا أعظم منه، كيف رحل عن المكان بمجرد وصولي، والله ما لبست لأمة الحرب، ولا تأهبت لأمر، وليس في رجلي رذول البحر، فكيف تأخر؟].

وقد تأثر صلاح الدين كثيراً من النتيجة التي آلت اليها حالة يافا، فأراد أن ينتقم من ريشارد، عندما سنحت له الفرصة بذلك: إذ بلغه أن الأنكتار، قد خرج من يافا في نفر يسير بخيم قليلة، فرأى أن ينال منه. فسار أول الليل، من العوجاء، يقطع الطريق الى أن وصل في الصباح الى خيام العدو فوجدها لا تتجاوز العشر خيم، فحمل عليه مع عسكره، فثبت ريشار مع قوته الضئيلة، في مكانه، ثم كر على عسكر المسلمين، فهزمهم وشتتهم، فاغتاظ السلطان، مغيظة عظيمة، كما يقول بهاء الدين، ودار على الأطلاب يحثها، فلم يجب دعوته، سوى ولده الملك الظاهر وقال له الجناح، أخو المشطوب: [قل لغلمانك الذين ضربوا الناس يوم فتح يافا وأخذوا منهم الغنيمة]. ولما رأى صلاح الدين أن أحداً من جنده لم يتعرض لريشارد، عندما حمل عليهم، من طرف الميمنة، الى طرف الميسرة، غضب وأعرض عن القتال وسار حتى أتى بازور، ثم النطرون ونزل به وبعدها سار الى أخيه الملك العادل يتفقده

ودخل القدس ثم عاد من يومه الى الثقل وبات فيه على النطرون [1]. وكان ذلك في الرابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٨ هـ.

ويقول المؤرخ امبرواز: [كان قلب الأسد يخترق الصفوف، فيشقها: وفي هذه الوقعة، ضرب بسيفه أميراً مدرعاً بالزرد فقطع رأسه وذراعه معاً، وأرسله رأساً الى الجحيم] [2]-.

وفي ٢٦ رجب ٥٨٨ هـ عاد رسول ملك الأنكليز، لمفاوضة السلطان صلاح الدين بالصلح، بواسطة الملك العادل.

وفي تلك الأثناء مرض ريشارد قلب الأسد وبناء لطلبه أرسل له صلاح الدين بعض الفواكه والثلج. وبهذه المناسبة صارا يتبادلان الرسائل بشأن الصلح مجدداً، بعد إذ رأيا أن كليهما أصبح مضطراً اليه، فريشارد، مشغول البال لجهة مملكته، حيث كانت الأخبار ترده من بلاده، وهي تدعو الى التشاؤم. فأخوه جان أخذ يدس الدسائس عليه، ويعمل على الاتفاق مع ملك فرنسا فيليب اوغيست ضده. في سبيل خلعه عن العرش. اما صلاح الدين، فان موقف بعض الأمراء المناوئ له، جعله يعجل في قبول مبدأ الصلح، ريثما يتدبر الأمور. وهكذا بعد الأخذ والردّ في المباحثات، تم الوصول الى عقد معاهدة الصلح بين المسلمين والصليبيين، أو بالأحرى بين صلاح الدين وريشارد قلب الأسد لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر (٢ - ٣ ايلول ١١٩٢ م - ٢٤ شعبان ٥٨٨ هـ).

وكان من شروط هذه المعاهدة أن تكون بلاد الساحل من شمالي صور حتى جنوبي يافا بيد الأفرنج، أي أن تستقر بيدهم: يافا وقيسارية وأرسوف وحيفا وعكا، وما يتبع هذه المدن من أعمال. وأن تخرب عسقلان

---

(١) بهاء الدين: سيرة صلاح الدين ص٢٢٩ - ٢٣٠.
(٢) Dominique Paladilhe: La Grande Aventure des Croisés, P. 221.

ولا يقيم بها أحد من الفريقين، وأن تقسم أملاك اللدّ والرملة، بين المسلمين والأفرنج مناصفة،ويسمح للحجاج المسيحيين بزيارة القبر المقدس دون دفع ضريبة ما. وقد اشترط صلاح الدين دخول بلاد الأسماعيلية في عقد الهدنة، كما اشترط ريشارد، دخول أمير أنطاكية وصاحب طرابلس في عقد هدنته (١)-.

وبعد توقيع هذه المعاهدة اختلط الجند الصليبي بالجند الأسلامي، وقام بعض القادة والبارونات من الأفرنج بزيارة صلاح الدين للتعارف بعدما تحققوا من صفاته العالية، وذهب جماعة من المسلمين الى يافا للتجارة. ووصل خلق كثير من الأفرنج الى القدس للزيارة، ولما أنبىء ريشارد بأن الفرنسيين يدخلون بكثرة الى بيت المقدس، صعب عليه ذلك وأرسل يطلب من صلاح الدين منعهم وألا يؤذن لهم بدون إشارة أو كتابة من جانبه. فعظم الأمر على الفرنسيين إذ اعتبروا هذا الموقف يقفه منهم ملك الأنكليز، عدواناً عليهم. غير أن السلطان أجاب على ما طلبه ملك الأنكليز بقوله: [إن قوماً وصلوا لزيارة هذا المكان الشريف فلا استحلّ منعهم](٢) -.

وبتاريخ التاسع من تشرين الأول ١١٩٢م، غادر ملك الأنكليز مدينة يافا الى عكا حيث أبحر من هذه المدينة الى بلاده تاركاً وراءه ذكرى رجل الحرب الكبير، كما أبحر أغلب فرسان الصليبيين وجنودهم، إذ لم يعد ثمة ما يفعلونه في الشرق بعد الهدنة.

ومن المعلوم، أن ريشارد قلب الأسد كان أثناء حصار عكا، سابقاً قد أهان دوق النمسا: ليوبولد: فكان له هذا بالمرصاد. وعند عودة ريشارد الى بلاده قبض عليه ليوبولد، حين اجتيازه أراضي دوقيته، وألقاه في السجن.

(١) أبو الفداء: ص١٠٨ - ١٠٩ - جزء(٥).

(٢) Zoé Oldenbourg: Les Croisades. P. 480.

اما صلاح الدين فقد مضى بعد الهدنة الى القدس حيث أعطى أوامره بتشييد أسوارها. وأرسل الحجارين الى عسقلان لتخريبها حسب اتفاق الهدنة، وإخراج الافرنج منها. ثم تركها الى بيسان فكوكب، فطبرية، فبيروت. وهناك اجتمع بصاحب أنطاكية بوهمند الثالث وتعاهد معه ثم اكمل صلاح الدين مسيرته وعاد الى دمشق ففرح الناس به بعد أن طالت غيبته عنهم (٥ شوال ٥٨٨ هـ) وفي دمشق أعطى السلطان العساكر الدستور فودّعه ولده الملك الظاهر وداعاً لا لقاء بعده، كما يقول أبو الفداء. وبقي عنده ولده الملك الأفضل والقاضي الفاضل. ثم أتى الى دمشق الملك العادل واجتمع به.

ويروي المؤرخ جوا نفيل، بعد زيارته لمملكة القدس. باكثر من خمسين سنة على رحيل ريشارد قلب الأسد، بأن اسم ملك الأنكليز هذا كان لا يزال له رهبة في نفوس المسلمين. فاذا أحجم جواد المسلم عن السير، لظل رآه أو لعارض اعترضه، يقول له صاحبه [أتظن أن ملك الأنكليز هو هنا؟، وإذا أرادت المسلمة أن تهدد أولادها المتشيطنين، تقول لهم: اسكتوا اسكتوا، والا فاني ساستدعي الملك ريشارد من انكلترا].

ولم يكد يطيب المقام لصلاح الدين في دمشق ويجتمع بأهله، حتى أصابته حمى صفراوية ولزم الفراش مدة اثني عشر يوماً مات بعدها (٢٧ صفر ٥٨٩ هـ)، ودفن في قلعة دمشق. وقد بكاه العالم الأسلامي بكامله. لأيادية البيضاء على الأسلام. وحزن عليه الشاميون حزناً لا يوصف. وكان عمره عند ذاك قريباً من السبعة وخمسين عاماً. وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً وبنتاً واحدة تدعى مؤنسة، تزوجها فيما بعد، إبن عمها الملك الكامل صاحب مصر- ولم يترك صلاح الدين في خزائنه بعد موته غير سبعة وأربعين درهماً، ولم يخلف داراً ولا عقاراً وهو الذي كان يملك الديار المصرية والشام وبلاد الشرق واليمن ويقال انه لم يؤخر صلاة

عن وقتها. ولا صلّى الا في جماعة. وكان ذا عزم قوي حسن الخلق، صبوراً على ما يكره كثير التغافل عن ذنوب أصحابه. يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك، ولا يتغير عليه. حليماً، كريماً طاهر اللسان لا يذكر احد في مجلسه أحداً الا بالخير. فما يولع بشتم قط. قال العماد الكاتب [مات بموت السلطان، الرجال، وفات بوفاته الأفضال، وغاضت الأيادي، وفاضت الأعادي، وانقطعت الأرزاق وادلهمّت الآفاق، وفجع الزمان، بواحده وسلطانه، ورزىء الأسلام بمشيد أركانه.

الفصل الربع

تقسيم مملكة صلاح الدين

ما ان مات صلاح الدين، حتى هبّ اولاده الكثر، وإخوانه وأقاربه دفعة واحدة، يطالبون باقتسام تلك المملكة العظيمة الموحّدة التي انشأها السلطان الراحل ببسالته، وحسن تدبيره وسياسته، وتركها لهم، وللمسلمين عامة، وهي في أوج قوّتها وعزّها وعنفوانها، ويتقاتلون عليها كأنها غنيمة، فأضعفوها وأضعفوا انفسهم بالتالي، ممهّدين بذلك، الفرصة لأعدائهم، فيما بعد، لاستعادة ما فقدوه من ممتلكات قبل الهدنة الأخيرة، كما سنرى.

وكان هذا التقسيم على الوجه التالي: استقر في الملك بدمشق وما نسب اليها من بلاد، الملك الأفضل نور الدين علي اكبر أولاد السلطان، واحتفظ الملك العزيز عماد الدين عثمان، بمصر التي كان والياً عليها. اما الملك الظاهر غياث الدين غازي، فقد امتلك حلب، واما الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن ايوب (أخو السلطان) فكان له الكرك والشوبك، والبلاد الشرقية (عمّان). فيما كان نصيب الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر، مدن حماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم. واما الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرّخشاه بن شاهنشاه ابن ايوب، فكان من نصيبه مدينة بعلبك، وأما شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذي، فأخذ حمص والرحبة وتدمر، بينما بقي طغتكين بن أيوب في اليمن، وأما الملك الظافر خضر بن صلاح الدين، فكانت له

بصرى، (وهو في خدمة أخيه الملك الأفضل).

هذا وكانت ثمة بعض الحصون والبلدان، بأيدي جماعة من أمراء الدولة، منهم: سابق الدين عثمان بن الداية، وبيده شيزر وأبو قبيس، وناصر الدين بن كورس بن خمارتكين، وبيده صهيون وحصن برزية، وبدر الدين ولدرم بن بهاء الدين ياورق، وبيده تل باشر. وعز الدين أسامة وبيده الكوكب وعجلون. وعز الدين ابن إبراهيم بن شمس الدين بن المقدم، وبيده بَغراس وكفرطاب وأفامية. وإلى جانب هؤلاء، احتفظ عز الدين مسعود بالموصل، وعماد الدين زنكي بسنجار، وقطب الدين سقمان بكيفا وآمد. وعماد الدين أبو بكر قره أرسلان بخرتبرت.

ولم يمرّ طويل وقت على تقسيم المملكة على هذا الوجه المبيّن، حتى دبّ الخلاف بين أولاد السلطان صلاح الدين، وذرّ قرنه في البدء بين الملكين الأفضل والعزيز، وكان السبب في ذلك، أن الملك الأفضل، بصفته أكبر أولاد صلاح الدين، والمعهود اليه بالسلطنة، استوزر ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير، مصنّف المثل السائر، وهو أخو عز الدين بن الأثير، مؤلف التاريخ المسمّى بالكامل، فحسّن للملك الأفضل طرد أمراء أبيه، ففارقوه الى أخويه العزيز والظاهر، كما أن اكابر الأمراء لما اجتمعوا بمصر، حسّنوا للملك العزيز الانفراد بالسلطنة، ووقعوا في أخيه الأفضل، فمال الى ذلك، وحصلت الوحشة بين الأخوين المذكورين[1]. فسار العزيز بعدئذٍ في عسكر مصر، الى دمشق، فحاصر أخاه الأفضل فيها، فأرسل الأفضل الى عمه الملك العادل، وأخيه الملك الظاهر، وابن عمه الملك المنصور صاحب حماة، يستنجدهم، فلبّوا نداءه وأتوا الى دمشق وأصلحوا بينه وبين أخيه العزيز، حيث تمّ الاتفاق بينهم جميعاً على تعديل ممتلكات الأخوة

(١) أبو الفداء: ص١١٤ - ١١٥ - جزء (٥).

الثلاثة: الأفضل والعزيز والظاهر، بحيث يأخذ العزيز فلسطين، بالأضافة الى مصر. ويأخذ الظاهر جبلة واللاذقية بالأضافة الى حلب، ورجع الملك العزيز الى مصر، والملك العادل الى بلده والملك الظاهر الى حلب.

ولكن لم يدم هذا الاتفاق طويلاً، إذ ان الملك الأفضل أقبل على شرب الخمر وسماع الأغاني، وفوّض أمور المملكة الى وزيره ضياء الدين ابن الأثير، الجزري، فأفسدها، فعاد الملك العزيز وقصد الشام لمنازلة اخيه الأفضل، ونزل الغوار من أرض السواد من أعمال دمشق، فاضطرب بعض عسكر العزيز عليه وهم طائفة من الأمراء الأسدية وفارقوه، فاضطر للعودة الى مصر بمن بقي معه من العسكر. وفي تلك الأثناء كان الملك الأفضل قد استنجد بعمّه الملك العادل، فأتى اليه، واتفق الاثنان على اللحاق بالعزيز، الى مصر، وانضم اليهما الأمراء الأسدية الذين فارقوا العزيز، ولكن الملك العادل، لغاية في نفسه لم يترك الملك الأفضل يواصل مسيرته الى القاهرة بل أبقاه في بلبيس، وأرسل يطلب من العزيز أن يبعث بالقاضي الفاضل ليصلح بينه وبين أخيه، ففعل وحضر القاضي الفاضل الى بلبيس، واجتمع بالعادل وأصلحا بين الأخوين.

وبعد عودة الملك الأفضل الى دمشق، توجّه الملك العادل الى مصر للاجتماع بالعزيز، وهناك بلغهما اضطراب الأمور في دمشق فقرّرا الرحيل اليها وأخذها وتسليمها الى العادل، على أن تكون الخطبة والسكة للعزيز بسائر البلاد كما كانت لأبيه. وخرجا معاً من مصر لهذه الغاية، فنزلا على دمشق، وقد حصّنها الملك الأفضل. ودخلاها بالاتفاق مع بعض الأمراء من داخلها، وتسلّماها مع القلعة (٢٦ رجب ٥٩٢ هـ) بدون مقاومة. وكان الملك الظافر خضر بن صلاح الدين صاحب بصرى،

مع أخيه الأفضل معاضداً له، فأُخذت منه بصرى أيضاً، فلحق بأخيه الملك الظاهر وأقام عنده بحلب. اما الملك الأفضل فقد أُعطي صرخد، فسار اليها بأهله واستوطنها.

وتسلّم الملك العادل مدينة دمشق من الملك العزيز، حسب الأتفاق فيما بينهما. ومن ثم رحل هذا الأخير عائداً الى مصر، بعد أن تسلّم بيت المقدس. وفي ذلك كتب الملك الأفضل علي، الى الخليفة العبّاسي الناصر لدين الله، في بغداد، يشكو من عمه العادل أبي بكر، وأخيه العزيز عثمان، ويطلب منه المعونة، ويقول:

مولاي إن أبا بكر وصاحبه ... عثمان قد غصبا بالسيف حقَّ علي

وهو الذي كان قد ولّاه والده ... عليهما واستقام الأمر حين ولي

فخالفاه وحلّا عقد بيعته ... والأمر بينهما والنقض غير خلي

فانظر الى حظ هذا الأسم كيف لقي ... من الأواخر ما لاقى من الأولِ

فكتب اليه الناصر لدين الله الجواب وهو يقول:

وافى كتابك يا ابن يوسف معلناً ... بالصدق يخبر أن أصلك طاهر

غصبوا عليّاً حقّه إذ لم يكن ... بعد النبيّ له بيثرب ناصر

فاصبر فان غداً عليه حسابهم ... وابشر فناصرك الأمام الناصر

فلم ينصره الناصر، ولا غيره، لاستعادة دمشق.

وفي شوال ٥٩٣ هـ، توفّي سيف الأسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب صاحب اليمن.

وفي المحرّم من سنة ٥٩٤ هـ، توفي عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي بن أقسنقر صاحب سنجار والخابور والرقّة.

وفي جمادى الاولى ٥٩٤ هـ مضى نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود ابن زنكي صاحب الموصل، الى نصيبين فاستولى عليها وأخذها من ابن عمه، قطب الدين محمد بن زنكي، ولكنه عاد وتركها له، بعد أن سار اليها الملك العادل لنجدة صاحبها.

في هذه الأثناء كان الملك هنري دي شمبانيا، بعد استلامه السلطة في مملكة القدس (عكّا) ورحيل ملك الأنكليز الى بلاده، قد أظهر كثيراً من الشدّة والحزم في حكمه، بحيث تمكّن من استعادة هيبة السلطة، فيما ظلّ مثابراً على علاقاته الودية مع الأيوبيين، بالرغم من بعض المناوشات التي حصلت بينه وبينهم. وقام في سنة ١١٩٤ م بمهمة الحكم في قضية هامة دعي الى القيام بها، وهي تتعلّق بأمير انطاكية بوهمند الثالث، الذي وقع في أسر أمير قيليقية الأرمني، ليون الثاني، فانتقل بنفسه الى قليقية، حيث نجح بالتوفيق بين الأميرين، وفكّ أسر بوهمند الثالث.

وفي طريق عودته الى بلاده، عرّج الملك هنري، على قلعة الكهف، لزيارة شيخ الجبل رئيس الحشّاشين، راشد الدين سنان، الذي تلقّاه بالترحاب، ودعاه لمشاهدة القلعة وما فيها. وفي أثناء طوافه، أراد شيخ الجبل ان يُظهر للملك مدى الطاعة العمياء التي يكنّها له الحشّاشون، فقال لهنري [لنراهن يا صاحب الجلالة، بأن فرسانك لا يفعلون لأجلك، ما يفعله لأجلي رجالي]. وقبل أن يفوه الملك بكلمة ويجيب على هذا السؤال. لوّح شيخ الجبل بمنديل بيده، بأشارة معيّنة، فما رأى الملك الاّ والحارسان الواقفان في أعلى برج المراقبة في القلعة، يلقيان بنفسيهما في الفضاء الى الوادي السحيق، فيتحطّم جسداهما. ولم يكد يستفيق الملك من وهشته حتى عرض عليه راشد الدين بأن يريَه مشهداً آخر، أشدّ فظاعة من هذا المشهد، فاضطرب هنري دي شمبانيا، ورجاه أن لا يفعل ذلك. ثم عند انصراف هذا الأخير، حمّله راشد الدين بالهدايا

الثمينة وأسرّ في أذنه، بأنه مستعدّ لقتل مَن يعيّنه له من أعدائه، كائناً مَن كان. وانفصلا كصديقين وحليفين.

هذا وطيلة مدة حكم هنري دي شمبانيا، بقي محافظاً مع الأفرنج على معاهدة الصلح المعقودة مع صلاح الدين، ولم يجرؤوا على خرقها قبل ان تأتيهم الأمداد من أوروبا.

ولقد وصلت هذه الأمداد بالفعل الى عكّا في شهر أيلول ١١٩٧ م. وتفصيل ذلك، أن هنري السادس دي هوهانستوفِن، أمبراطور، المانيا وملك إيطاليا وآرل وصقلّية، كان قد آلى على نفسه وهو في باري، بالقيام بحملة صليبية، لاستعادة بيت المقدس التي لم يتمكن ريشارد قلب الأسد من دخولها. وقد بدأ بتجهيز حملته في /٣١/ايار سنة ١١٩٥ م بعد إعلام البابا سيلاستن الثالث (Célestin) بنواياه بهذا الشأن. ونظراً لكونه ابن الأمبراطور الكبير الراحل، فريدريك بربروسا، فقد ظنّ أن عمله هذا سيعطيه الحق بتزعّم مسيحيّي الشرق كما هو زعيم لمسيحيّي الغرب، وقد استنجد به ملك قبرص الجديد: أموري دي لوزينيان، أخو غي دي لوزينيان وخليفته، لأقراره في مملكته، على أن يكون تابعاً له، أسوة بما فعل ملك أرمينية القيليقية: ليون الثاني.

ولكن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن، فقدْ قامت ثورة في صقلية ضد هنري السادس دي هوهانستوفن، فقمعها بشدّة. ولما مضت طلائع الحملة التي أرسلها إلى الأرض المقدّسة، بقصد اللحاق بها فيما بعد. للتجمّع في مسّينا، وقع مريضاً ولم يمكنه مرافقتها، فسلّم قيادتها لكونراد، رئيس اساقفة مايانس، الذي أبحر الى عكّا، فوصلها في اوائل ايلول ١١٩٧ م وبرفقته الدوق هنري دي بريان، والكونت دي هولستاين. ولم يمضِ الا القليل حتى توفّي هنري السادس في ٢٨ أيلول ١١٩٧ م ولم يعلم جيشه بموته الاّ فيما بعد كما سنرى، وما ان حطّ الألمان

رحالهم في عكّا حتى اقدموا على أعمال تسيء الى أهاليها، فأخلوهم من منازلهم بالقوّة ولم يحسبوا للملك هنري دي شمبانيا حساباً كأنهم دخلوا فاتحين للبلد. وممّا زاد الطين بلّة، أنهم راحوا يهاجمون المسلمين بالرغم من قيام الهدنة بينهم وبين الأفرنج. فما كان من الملك العادل الاّ ان قابل هؤلاء الألمان، بالقرب من عكّا، وكاد ان يحيط بهم ويفنيهم لولا المعونة التي قدّمها لهم هنري دي شمبانيا، إذ أحدق جيشه بمؤخرة جيش العادل، مما اضطر هذا الأخير الى الانسحاب باتجاه يافا، فدخلها وقتل مَن فيها من الألمان الذين وقعوا في يده. وفي هذا الوقت جرى للملك هنري دي شمبانيا حادث أودى بحياته، ذلك أنه بينما كان هذا الأخير، يطلّ من نافذة قصره لمشاهدة القوّة التي أمر بأرسالها الى يافا لمؤازرة الألمان فيها. وكان عند ذاك يستقبل وفداً بيزانياً جاء لمقابلته، فتراجع الى الوراء بدون انتباه، ولم يكن للنافذة حاجز، فسقط من عل ودُق عنقه (١٠ أيلول ١١٩٧م) وقد حاول قزمه المدعو: القرمزي (Ecarlate) أن يجذبه اليه، لمنعه من السقوط، فتعلّق بثيابه، فَوقع معه ومات أيضاً. وهكذا خسرت عكا ملكها وترمّلت زوجته إيزابيل للمرة الثالثة، فعادت عقدتها الى الظهور، وها هي الآن تضع نفسها بتصرّف الأفرنج، لتصنع من أحدهم ملكاً للمرة الرابعة، على مملكتهم اللاتينية، بزواجها منه.

وكأن القدر جعل منها صانعة للملوك وهي بعد لم تتجاوز السادسة والعشرين من عمرها، فاجتمع مجلس البارونات في عكّا، وقرّر، بناء على توصيات رئيس أساقفة مايانس الألماني كونراد، ومساندة الداوية والأسبتارية، دعوة الملك أموري دي لوزينيان، ملك جزيرة قبرص لأعطائه تاج مملكة الأفرنج ومعه أرملة الملك الراحل إيزابيل. (كان أموري قد خلف أخاه غي دي لوزينيان بعد وفاته في نيسان ١١٩٤م على مملكة قبرص). فلبّى أموري الدعوة، وهبّ مسرعاً الى عكّا، حيث

تزوّج بالأرملة، ونُصِّب ملكاً على مملكة القدس تحت اسم أموري الثاني، فجمع بذلك بين المملكتين.

وفور تسلّمه زمام الأمور، قام الملك أموري الثاني بحملة على مدينة بيروت، قادها بنفسه، يرافقه الجيش الألماني بقيادة الدوق دي برابان (Brabant)، وبعد اجتيازه صور ومروره بمدينة صيدا، التي كانت خالية من سكانها، التقى جيش الملك العادل، قبل مدينة بيروت، حيث كان يحاول قطع الطريق عليه، فاصطدم الجيشان الأسلامي والصليبي بمعركة انقشعت عن انهزام المسلمين، فدخل أموري الثاني مدينة بيروت في الرابع والعشرين من تشرين الأول ١١٩٧م - ٥٩٤هـ، وجعل عليها جان ديبلين أميراً. فعادت بذلك، المواصلات بين افرنج عكّا وطرابلس حرّة لا يعيقها عائق، وبعد هذا الظفر يناله الصليبيون، وُضعت مسألة الزحف على القدس موضع البحث. وبعد تبادل الرأي، رؤى بالنتيجة تأخيرها الى ما بعد الاستيلاء على تبنين (Toron) الواقعة في الداخل على طريق القدس، وحاصر الصليبيون تبنين (٢٨ تشرين الثاني ١١٩٧م) الاّ انهم لم ينالوا منها منالاً، فانسحب الجيش الألماني عائداً الى صور وتبعه الجيش الأفرنجي السوري (٢ شباط ١١٩٨م)، فيما كان جيش الملك العادل يتقدم اليها بقوة كبيرة.

وكان السبب في انسحاب الجيش الألماني في البدء وعدم متابعة الحصار، أن أنباء وصلته عن وفاة الأمبراطور هنري السادس، وانتخاب أمبراطورين متخاصمين هما [فيليب دي سواب أخو الأمبراطور الراحل وأوتو دي برونسويك] فدبّ الذعر بين جند الجيش الألماني وعمّته الفوضى. فآثر بعض كبار قادته العودة الى بلادهم خفية، مما عمل على تفكيك صفوفه، كما حصل وقت وفاة الأمبراطور فريدريك بربروسا عندما غرق في نهر السِلف.

يقول أبو الفداء بصدد بيروت ويافا وتبنين ما يلي:

[وفيها (اي سنة ٥٩٤ هـ) وصل جمع عظيم من الفرنج الى الساحل واستولوا على قلعة بيروت. وسار الملك العادل ونزل بتلّ العجول وأتته النجدة من مصر، ووصل اليه سنقر الكبير صاحب القدس، وميمون القصري صاحب نابلس. ثم سار الملك العادل الى يافا وهاجمها بالسيف وملكها، وقتل الرجال المقاتلة. وكان هذا الفتح ثالث فتح لها. ونازلت الفرنج تبنين، فأرسل الملك العادل الى الملك العزيز صاحب مصر فسار الملك العزيز بنفسه بمن بقي عنده من عساكر مصر، واجتمع بعمه الملك العادل على تبنين، فرحل الفرنج على أعقابهم الى صور خائبين[1].

بعد ذلك اشتد الخلاف بين فلول الجيش الألماني وإفرنج سوريا وتأزم فعاد مَن بقي من تلك الحملة الألمانية الى بلادهم، وتنفّس الأفرنج الصعداء لتخلّصهم منهم.

وهذا ما دفع بالملك أموري الثاني لمفاوضة الملك العادل بالصلح، فتمّ الاتفاق بينهما في اول تموز ١١٩٨م وكانت الهدنة لمدة ثلاث سنوات. احتفظ بموجبها المسلمون بمدينة يافا، والأفرنج بمدينتي بيروت وجبيل.

وفي /٢٧/ محرّم ٥٩٥هـ أواخر تشرين الثاني ١١٩٨م توفي الملك العزيز عثمان، وكان وزيره فخر الدين جهاركس، فأقام في الملك، ولد العزيز الملك المنصور محمد، وعمره لا يتجاوز العشر سنوات. فاجتمع بعض الأمراء المخالفين، واستدعوا، بناء لمشورة القاضي الفاضل، الملك الأفضل، وهو حينئذ بصرخد، الى مصر، ليسلّموه إياها. فوصلها، واستقبله في القاهرة، الملك المنصور محمد، على اعتبار انه أتابكه. ثم تراسل الأخوان الأفضل والظاهر واتفقا على انتزاع دمشق من يدعمها الملك العادل، الذي كان في ذلك الوقت يحاصر قلعة ماردين، بعد

(١) المختصر في أخبار البشر ص.١٢٢ - جزء (٥).

استيلائه على ربضها. وسار الملك الأفضل الى دمشق، وحاصرها. وكان الملك العادل قد علم بمسير جيش الملك الأفضل، فترك جيشه محاصراً لتلك القلعة، بقيادة ابنه الكامل، وهبّ مسرعاً الى دمشق فدخلها قبل وصول جيش الأفضل بيومين. وفي الوقت ذاته، كان نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود، صاحب الموصل، وابن عمه قطب الدين محمد صاحب سنجار، وابن عمه سنجر شاه صاحب الجزيرة، يجتمعون في دنيسر، وينزلون بحرزم، للزحف على جيش الملك العادل المحاصر لقلعة ماردين، وذلك بتحريض من الملك الأفضل عليّ. ليتسنى له إشغال جيش عمه، ومنعه من مساعدة دمشق، لكن الملك الكامل تصدّى للجيوش الزاحفة لتخليص قلعة ماردين، فلم يقوَ على صدّها وأصيب بهزيمة منكرة، بعد حصار أحد عشر شهراً (٧ شوال ٥٩٥ هـ)، وكان حسام الدين بن إيلغازي، صاحب ماردين، يقاتل من أعلى الجبل، فنزل من قلعته واجتمع الى نور الدين ارسلان شاه ثم عاد اليها. اما الملك الكامل فقد رحل مع فلول جيشه الى ميافارقين، ونور الدين ارسلان شاه الى الموصل.

واثناء حصار الملك الأفضل لدمشق، وصل أخوه الملك الظاهر صاحب حلب واشترك معه، بمضايقة المدينة، وبقي الحصار مدة ستة أشهر فلم يتمكنا منها، فتخلّيا عن حصارها وافترقا، كل الى بلده، فلما كان من الملك العادل الاّ ان لحق بالملك الأفضل الى بلبيس فأوقع به الهزيمة هناك. فانسحب الى القاهرة، فلحقه ونازل المدينة ثمانية أيام، فأُرغم الأفضل على الاستسلام فأعاده الملك العادل الى حوران (٢١ ربيع الآخر ٥٩٦ هـ).

وأقام العادل بمصر بصفته أتابك الملك المنصور محمد، مدة يسيرة ثم أزاله عن الملك واستقلّ بالسلطنة في مصر.

ولم يمض وقت طويل، حتى عاد الملكان الأفضل والظاهر، واتفقا مرة اخرى على الاستيلاء على دمشق. وإخراج الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل، منها، فحاصراها وانضم اليهما، فارس الدين ميمون القصري، صاحب نابلس، ومن وافقه من الأمراء الصلاحية، ولما بلغ الملك العادل نبأ حصار الأخوين لدمشق. خرج بعساكر مصر، وأقام بنابلس، وفي ذلك الوقت، اختلف الأخوان على اقتسام غنيمتهما المرتقبة، فتحلّيا عن الحصار، وتفرّقت عساكرهما، فرحل الملك الظاهر الى حلب، والأفضل الى حمص.

وبعد رحيلهما عن دمشق، قدم اليها الملك العادل، فمكث فيها مدة ثم سار منها الى حماة، لمهاجمة الظاهر في حلب، فراسله هذا الأخير متلطفاً وتمّ الصلح بينهما. فرجع العادل الى دمشق وأقام بها. واستطاع بعد ذلك بذكائه ودهائه، توحيد المملكة الأيوبية تحت سلطانه، بعد إذ تفرّقت شيعاً وكادت ان تفقد دعائمها، فأصبح ملكاً على الشام وأعالي الجزيرة ومصر وجزيرة العرب دون منازع، ودان له الملك الأفضل والملك الظاهر والملك المنصور محمد بن العزيز، وغيرهم، ودخلوا في

طاعته، فعين لكل منهم إقطاعه، وأناب عنه إبنه الكامل محمد في مصر، وإبنه المعظم عيسى في دمشق وإبنه الأشرف، موسى في حوران وإبنه نجم الدين في ميافارقين. [وصار يتنقل في ممالك أولاده والعمدة في كل الممالك عليه].

وفي ذي القعدة /٥٩٧/ هـ تمّ الصلح بين نور الدين، أرسلانشاه وبين الملك العادل. الاّ ان الحرب عادت وذرّت قرنها بين نور الدين وأخصامه. ففي سنة /٦٠٠/ هـ استمال الملك العادل قطب الدين محمد صاحب سنجار اليه فخطب له هذا في بلاده، فاستاء نور الدين أرسلان شاه من ذلك وهاجم نصيبين واستولى عليها دون قلعتها ثم تركها وعاد الى الموصل، ومنها مضى الى بلدة: تل أعفر وهي لصاحب سنجار، فحاصرها واستولى عليها، وأقام عليها سبعة عشر يوماً (ابن الأثير - الكامل. ج١٢ ص٨١). فتألّب عليه الملك الأشرف موسى بن العادل وأخوه نجم الدين صاحب ميافارقين، وصاحب الجزيرة، ومظفر الدين، وهاجموه بالقرب من بوشري، فانهزم جنده وفرّ هو الى الموصل (شوال ٦٠٠ هـ).

ثم عاد الصلح يخيّم في تلك البقاع، بعدما وافق نور الدين على تسليم تل أعفر الى قطب الدين محمد صاحب سنجار (اوائل سنة ٦٠١ هـ). وتزوج الأشرف بأخت نور الدين، وهي الأتابكية بنت عز الدين مسعود.

الجزء الخامس

الحملة الصليبية الرابعة

الفصل الأول

القسطنطينية بدلاً من مصر

كان لفشل النجدة الصليبية الألمانية، بعد عجز ريشارد قلب الأسد، عن الدخول الى القدس فاتحاً، أثره البليغ لدى البابا سلستن (Célestin) الثالث الذي كان يأمل باستعادة المدينة المقدسة من قبل المسيحيين، وترميم المملكة اللاتينية في الشرق. ولكن خاب ظنّه، عندما رأى ان القدس لا تزال بأيدي المسلمين. وقد مات وأمنيته لم تتحقق، أما خلفه البابا إينوسنت (Innocent) الثالث، فقد عمد، من حين انتخابه للسدّة البابوية، الى التبشير بحملة صليبية رابعة (اواخر ١١٩٨ م) فعمّت نداءاته المثيرة للعواطف، كافة أنحاء اوروبا، وخاطب الملوك والأمراء والأسياد ورجال الدين، يحثّهم على الأنخراط فيها، معتبراً بأن حمل الصليب لمقاتلة المسلمين، هو واجب معنوي وعمل تقوى. وفي رسالته لملك فرنسا: فيليب أوغيست، طلب منه البابا، الاتفاق مع ملك انكلترا: ريشارد قلب الأسد، للاشتراك في الحملة الصليبية. كما عرض على الامبراطور البيزنطي، الاشتراك فيها، والتفاوض في سبيل توحيد الكنيستين. وبقيت المخابرات بين البابا والأمبراطور من سنة /١١٩٨/ حتى سنة /١٢٠٢/ م، ولكنها انتهت الى الفشل بالنتيجة، نظراً لفقدان الثقة بين الكنيستين، والأحقاد المتراكمة في النفوس، منذ وقوع الانفصال عن الكنيسة الرومانية في سنة ١٠٥٤ م.

وكان أن رفض الملك فيليب أوغيست طلب البابا، وكان محكوماً بالحُرم لجرم الزنى، كما عارض ملك إنكلترا، جان سانتير (Sansterre) بالذهاب الى فلسطين، ومنع فرسانه الأنكليز من الذهاب ايضا.

ولم يحالف التوفيق البابا إينوسنت الثالث في استمالة الملوك المسيحيين الآخرين، لتلبية طلبه، في الاشتراك بالحملة، الاّ ان ذلك لم يمنعه من متابعة التبشير بها، بين البارونات والأسياد، فاستجاب له الكثير منهم. وبهذه المناسبة، أقام تيبو، كونت دي شمبانيا حفلة رياضية، دعا اليها فرسان مقاطعته، وأعلن أمامهم اشتراكه في الحملة الصليبية المزمع تجهيزها فحذا الجميع حذوه، وتبعهم جمهور غفير من فرسان شمالي فرنسا وشرقيها، ومن جملة الذين حملوا الصليب: لويس، كونت دي بلوا وشارتر، وبودوان دي فلاندر، وسيمون دي مونتفورت والكونت دي سان بول، ورينو دي مونتميراي، وغودفروا دي ڤيلهاردوان (مؤرخ الحملة) وهنري دي هينو، وسواهم الكثير من الأسياد وصغار الفرسان، وعامة الشعب.

وقد عقدت عدة اجتماعات لتهيئة وتنظيم الحملة، في سواسون، وكومبياني (Compiègne)، وانتُخب تيبو الثالث، كونت دي شمبانيا رئيساً لها، يعاونه بودوان دي فلاندر، ولويس دي بلوا.

وبعد مناقشة المسائل المعروضة على بساط البحث، قرّ رأي المجتمعين على أن يكون الهدف، مهاجمة مصر (القاهرة) أولاً، بحكم مركزها في القوى الأسلامية، إذ اعتبروا بأنهم إذا انتصروا على المسلمين هناك، فسيعجز هؤلاء فيما بعد، عن المحافظة على ممتلكاتهم في سوريا وفلسطين، أو على الأقل، فقد يقبلون بالمبادلة بينها وبين القدس، ولا خيار لهم غير ذلك.

وهكذا عُيّن موعد للسفر، في شهر حزيران /١٢٠٢/ م، وقد وافق

البابا على تلك المقررات، عند عرضها عليه.

ولما كان نقل الأشخاص والمعدّات والحيوانات وغيرها يحتاج الى مراكب كثيرة وقوية في البحر، فقد اتجهت الأنظار الى أهل البندقية الذين كانوا يملكون اكبر اسطول بحري في المتوسط آنذاك. ولهذا الغرض، أرسل منظمو الحملة، وفداً الى دوج البندقية، هنري داندولو (وكان بين الوفد جوفروادي فيلهاردوان)، بغية التفاوض معه، على شروط النقل البحري.

وجرى الاتفاق معه، بعد الأخذ والردّ، على نقل الصليبيين البالغ عددهم (١٤٠٠٠) فارساً و(٢٠٠٠٠) راجلاً مع (٤٥٠٠) جواداً، وتقديم المؤونة لهم والعلف لدوابّهم، طيلة مدة تسعة أشهر، وتجهيز، خمسين سفينة شراعية حربية للاشتراك معهم في الحرب، ومساعدتهم في فتوحاتهم، بشرط ان يكون له، نصف، الغنائم التي يحصلون عليها، سواء في البحر ام في البر، وذلك كلّه لقاء مبلغ قدره (٨٥٠٠٠) مارك من الفضّة. وفيما التجهيز قائم، توفي الكونت دي شمبانيا: تيبو الثالث، قائد الحملة، (ايار ١٢٠١م)، فاختير المركيز بونيفاس دي مونتفرّات (١٤ ايلول ١٢٠١م)، ليحلّ محلّه في القيادة، (وهذا المركيز هو شقيق كونراد دي مونتفرّات، الذي تولّى الدفاع عن صور، بعد سقوط القدس بيد المسلمين)، على أن بعض المجتمعين لم يرضوا عن هذا الأختيار، فانسحبوا من الحملة.

وفي صيف /١٢٠٢/م، وصل القسم الأكبر من الصليبيين الى البندقية، للابحار منها، غير ان فريقاً منهم، وخصوصاً الفلمنديين، فضلوا الرحيل الى سوريا، بطريق أخرى. بينما عجز فريق آخر، عن دفع الأجرة المفروضة بكاملها، مما أثار بعض الصعوبات مع البنادقة، على اعتبار ان الاتفاق على النقل جرى على مبلغ مقطوع، يوزّع على

المسافرين، بالنسبة لعددهم. فكلّما نقص العدد، كلما زادت القيمة على الشخص. ولذلك تمنّع كثير من البارونات عن الدفع زيادة عما يتوجّب عليهم.

ولما رأى الدوج داندولو، أنه يتبقّى له اكثر من ثلث القيمة المتفق عليها، وأن إصراره على وجوب دفع كامل المبلغ، سيؤدي الى فسخ الاتفاق. عرض على الصليبيين حلاً يرضي الجميع وهو أن يأتوا معه لمساعدته، على احتلال مدينة زارا، الواقعة على الساحل الشرقي، من بحر الأدرياتيك، والتي كان ملك المجر قد انتزعها من البنادقة قبل بضعة أعوام، فأخذت تنافس البندقية في تجارتها؛ وذلك لقاء قبوله بتأجيل موعد دفع الباقي من الأجرة، الى وقت آخر، على أن يصير نقلهم بعد ذلك الى مصر.

فوافق قادة الحملة الصليبية على هذا العرض، بعد أن عقدوا، اجتماعاً في كنيسة القديس مرقص لهذه الغاية، وحضره الدوج داندولو، مظهراً رغبته في الاشتراك، بالحملة الصليبية شخصياً حيث وضع الصليب على قبعته القطنية الكبيرة. وحذا حذوه جمهور كبير من مواطنيه.

وفي الوقت ذاته كان البابا قد أرسل مندوباً من قِبله الى البندقية، هو الكاردينال كابيانو، لمرافقة الحملة باسم: (المخلّص).

وما أن تحقّق هذا المندوب البابوي، من تغيير اتجاه الحملة الصليبية على هذا النحو حتى أبدى معارضة شديدة بهذا الشأن، ولكن دون جدوى، وعجز عن فعل أي شيء للوقوف بوجه الدوج.

وبعد ذلك، أقلع الأسطول الصليبي، من مرفأ البندقية، في أول تشرين الأول /١٢٠٢/م وعلى متنه، جُموع الصليبيين، والبنادقة، فوصل الى مرفأ زارا في العاشر من تشرين الثاني /١٢٠٢/م. وألقى

الصليبيون الحصار على المدينة. ففاوضهم الأهالي بالتسليم، على أن بعض الفرنسيين، والكهنة، عارضوا بمحاصرة هذه المدينة عملاً بأوامر البابا، القاضية بمنع أيّ صليبيّ كان، من مهاجمة المدن المسيحية.

ولكن الدوج داندولو، أنذر قائد الحملة بونيفاس دي مونفرّات، والكونت دي فلاندر، والكونت دي بلوا، مهدّداً إياهم، بوجوب تنفيذ تعهداتهم كما هي، وإلاّ فأنه يتركهم، وينسحب. فخشوا العاقبة، وأبقوا الحصار على زارا، فاستسلم أهاليها بعد خمسة أيام، من ذلك، دون قيد أو شرط.

وبدلاً من ان يتابع الصليبيون رحلتهم الى مصر، بعدما استولوا على زارا، كما هو المتفق عليه، تأخروا فيها، نزولاً عند رغبة الدوج داندولو، الذي أقنعهم بارجاء سفرهم، والتريث حتى عيد الفصح، نظراً لاقتراب فصل الشتاء، وصعوبة الابحار في ذلك الفصل.

ونتيجة لذلك، اقتسم الصليبيون والبنادقة، هذه المدينة المفتوحة، فكان لهؤلاء جانب المرفأ، وللفرنسيين، الجانب الآخر.

في ذلك الوقت، أتى الى مدينة زارا، الأمير البيزنطي: ألكسيس بن الأمبراطور إسحق آنج الثاني، مستنجداً بالصليبيين والبنادقة بُغية تخليص والده من السجن، وإعادته الى العرش، وذلك مقابل دفعه لهم مبلغاً كبيراً من المال، ومدّهم بالرجال لقتال المسلمين، (كان الأمبراطور إسحق آنج، في السجن، بعدما خلعه عن العرش أخوه الكسيس الثالث، وفقأ عينيه، وأخذ مكانه).

ذلك ان القسطنطينية كانت في سنة ١١٩٥/م مسرحاً لحوادث دامية ومفجعة جرت فيها وقتذاك، فقد قام الخلاف بين الأمبراطور إسحق آنج، حليف صلاح الدين السابق، وبين أخيه الكسيس، وأدّى الى تقاتلهما، فكان من نتيجته ان انتصر هذا الأخير، وأطاح بأخيه

الأمبراطور، عن عرشه، وسمل عينيه، وألقاه في السجن مع إبنه الأمير الكسيس، واعتلى عرش البيزنطيين تحت اسم الكسيس الثالث، على أن الأمير الكسيس، تمكّن من الفرار من سجنه فيما بعد، واللجوء الى إيطاليا حيث قابل البابا إينوسنت الثالث، وطلب منه المعونة، مقابل سعيه، في حال عودة والده الى العرش، الى العمل على توحيد الكنيستين، بكل إخلاص؛ فلم يلق من البابا أذناً صاغية، فعزم عند ذاك، على الذهاب الى ألمانيا، لكي يستغيث بصهره (زوج اخته إيرين): الأمبراطور الألماني فيليب دي سواب، ويطلب معونته، فتلقّاه هذا الأخير مرحّباً، واجتمع بقائد الحملة الصليبية: بونيفاس دي مونتفرّات، في مدينة: هاغنو (Haguenau) بتاريخ ٢٥ كانون الثاني /١٢٠١/م وعرض عليه قضية الأمبراطور المخلوع، وإبنه الأمير الكسيس، فوعده بونيفاس بالمساعدة ضد الأمبراطور الكسيس الثالث المغتصب.

وكان ان انتهز الأمير البيزنطي الكسيس، فرصة وجود الصليبيين في زارا، فاجتمع بهم هناك وطلب معونتهم، كما مرّ آنفاً.

وبعد ان تناقش الصليبيون والبنادقة في العَرض، الذي طرحه، عليهم، الأمير البيزنطي، وافقوا عليه، بالرغم من معارضة بعض الفرنسيين، الذين تخلّوا عن الحملة الصليبية، وعادوا، أدراجهم الى بلادهم.

وقد جرى توقيع الاتفاق بين الأمير البيزنطي من جهة وبين الصليبيين والبنادقة من جهة ثانية، في مدينة كورفو، (ايار ١٢٠٣ م). خلافاً لارادة البابا، الذي اضطر، بالنهاية، لتفويض أسقف سوّاسّون، باتخاذ ما يراه مناسباً في هذا الصدد، من أجل حَلّ الصليبيين من قسمهم.

وفي الرابع والعشرين من شهر ايار /١٢٠٣/م، أبحر الأسطول

الصليبي من كورفو، متجهاً نحو جنوبي البيلوبوينز، ومصعّداً صوب الشمال، وبعد اجتيازه بحر أيجه (Egée) دلف الى الدردنيل، حيث تزوّد بالمؤن، ثم أقلع عبرَ، بحر مرمرة، فوصل الى سان ستيفانو، في /٢٣/ حزيران. /١٢٠٣/م على أبواب القسطنطينية.

ولما رأى الأمبراطور الكسيس الثالث، أسطول الصليبيين، متقدّماً نحو عاصمته، أرسل لقادته رسالة، مع مبعوث له، يعرض عليهم، مالاً ومؤونة، إن كانوا فقراء وبحاجة للمال، فأجابه الكونت كونون دي بتون (Conon De Béthune) باسم الدوج والقادة الصليبيين، بأنهم إنما جاءوا، ليعيدوا الحق الى نصابه، لأن الأمبراطور اغتصب العرش من صاحبه اغتصاباً، وأعلموه بأن الأمير الكسيس قادم معهم. ويعود اليه هذا العرش شرعاً.

ولما لم يتوصل الصليبيون مع مبعوث الأمبراطور الى نتيجة، اقتربوا بالأسطول من أسوار العاصمة البيزنطية، وراح قادتهم يطوفون بالأمير المرافق لهم، أمام انظار الشعب البيزنطي، ليراه، فعسى ان يثور لمرآه ضد الامبراطور المغتصب، ولكن بقي ذلك دون جدوى.

عند ذاك، أرسى الأسطول الصليبي في أسكوتاري أو أوسكودار بمواجهة القسطنطينية على البوسفور.

وبعدما نظم الصليبيون قيادة جيشهم، وتمكنوا من الاستيلاء على غالاتا (Galata)، واقتحام مداخل القرن الذهبي، (خليج صغير على البوسفور) لجهة الشاطىء الشمالي، تقدّموا، من العاصمة، واستقرّوا في أقوى موضع من سورها، وعقدوا مجلساً للتشاور في ٧ تموز /١٢٠٣/م، قرّروا فيه، خطّة الحرب، وذلك بأن يقوم البنادقة بالهجوم من البحر، (من القرن الذهبي)، والفرنسيون، من البرّ.

وهكذا كان الأمر. ففي /٧/ تموز/١٢٠٣/م، بدأ الفرنسيون

هجومهم على العاصمة البيزنطية من الشمال، والبنادقة من القرن الذهبي، دفعة واحدة، ففشل الفرنسيون في هجومهم البرّي واضطروا للانسحاب بينما تقدم الدوج البندقي، بمراكبه الحربية، أمام الاسوار، حتى لصق بها، وبعد ان أعطى أوامره، باطلاق القذائف والسهام، نزل الى اليابسة مع جنده، واقتحموا الأبراج، وأضرموا النار فيها، فارتدّ الأمبراطور البيزنطي، الى حيث كان الفرنسيون، معسكرين شمالي المدينة، وحاول محاصرتهم، بفرسانه ومشاته فأنجدهم الدوج داندولو، بمددٍ، لم يَتمكن الأمبراطور، من مجابهته فانسحب عائداً الى المدينة.

وفي الليل، عند هبوط الظلام، ترك الأمبراطور الكسيس الثالث القسطنطينية، ولم ينسَ ان يأخذ معه كنزه، وكل ما يمكن حمله، من متاع، وغادر البلاد على إحدى السفن التي كانت في انتظاره، وأما زوجته واولاده الآخرون، فقد تعذّر عليهم الهرب، فبقوا في المدينة، تحت رحمة الأقدار.

وكم كانت دهشة البيزنطيين كبيرة، عندما اكتشفوا في الصباح، فرار الأمبراطور، ورحيله عن البلاد. فأعلنوا خلعه عن العرش، واندفعوا نحو السجن الذي فيه الأمبراطور السابق إسحق آنج، فأخرجوه منه، وألبسوه الثوب الرسمي الملكي، وحملوه الى قصر البلاشرن (Palais Des Blachernes)، حيث اقسموا له يمين الطاعة، وأرسلوا المبعوثين الى معسكر الصليبيين، لاعلامهم بما جرى، من خلع الأمبراطور الهارب، وإعادة الأمبراطور السابق إسحق آنج الى عرشه.

عندها، ونظراً لعدم الثقة المتبادلة، بين اللاتين والروم، فقد طلب الصليبيون من الأمبراطور الأب، ضمان التعهّدات التي كانوا اتفقوا عليها مع إبنه الأمير الكسيس، وإلاّ، فانهم لن يسمحوا لهذا الأخير، بالدخول الى المدينة، إذا لم يجب طلبهم. ثم أوفدوا رسولهم: ڤيلاردوان، لمقابلة الأمبراطور لهذا الغرض. فوافق إسحق آنج على تلك التعهّدات،

عندما عُرضت عليه، واجتمع إبنه به. وتُوّج الأبن، باسم الكسيس الرابع. أمبراطوراً مشاركاً في الحكم مع أبيه (١٧ تموز ١٢٠٣ م).

وهكذا أخذ الصليبيون مدينة القسطنطينية، ورابط جيشهم في ضاحية (ربض) غالاتا، بناء لطلب الأمبراطورين: الأب والأبن، ومنذ ذلك الحين، بدأت الخلافات، تذرّ قرنها بين الصليبيين وبين الأمبراطورين البيزنطيين، فقد دفع هذان الأخيران قسماً من المال المتوجب عليهما، وتأخرا عن دفع الباقي.

وزاد الطين بلّة، ان الشعب اليوناني، استشاط غيظاً من كثرة، دفعه الضرائب المطلوبة، منه، وأخذ يتململ من وجود الجيش الصليبي، في بلده، ولم يعد يطيق، الاهانات التي يتلقّاها منه.

وذات يوم حصلت مشاجرة بين البيزنطيين، وبين اللاتين، المقيمين في القسطنطينية، فأقدم الفلمنديون، والبنادقة، على نهب إحدى كنائس اليهود، وإضرام النار في بعض المنازل، فامتدّ الحريق، الى قسم من المدينة، ذهب ضحيته عدد كبير من الأهالي، مما حدا بجماعة اللاتين المقيمين في ذلك القسم، الى الالتحاق، مع عائلاتهم، بالصليبيين المعسكرين في الضاحية، ثم تأزمت الأمور كثيراً، على إثر اجتماع الأمبراطور الأبن، بالدوج البندقي: داندولو، في أحد المراكب في المرفأ، حيث أقدم هذا الأخير، على شتم الأول، وتهديده بالأسوأ، إذا امتنع عن تسديد دينه وأخلف بوعده.

وبدأ إعلان الحرب الخفيّة بين الفريقين، وأول ثمرة تلك الحرب، ان البيزنطيين، حاولوا إضرام النار، بواسطة الحرّاقات، بالأسطول البندقي، ففشلوا. وعند ذاك، راحوا يصبّون جام غضبهم على الأمبراطور الأبن، ويدسّون الدسائس ضدّه، باعتباره صنيعة الغرباء، وضعيف الارادة، وينقصه الحزم، في أمور السلطة.

وكان المحرّض الأكبر، ضدّ الأمبراطور الأبن، أحد اقاربه، المدعو، ألكسيس دوكـــاس، والمعروف بـــاسم: المرزوفـــل (Murzuphle)، اذو الحاجبين المكوّنين من خط واحد. وقد عرف هذا الرجل، كيف يستفيد من النقمة العارمة ضد الأمبراطور فأخذ ينفخ بالشعب، روح الثورة والعصيان، ويدعو، الى إسقاط الأمبراطورين: الأب والأبن، حتى استطاع تأليب الرأي العام ضدهما، ثم الاستيلاء على السلطة مكانهما، وتتويج نفسه أمبراطوراً في كنيسة القديسة صوفيا، باسم: الكسيس الخامس، وبعد ذلك ألقى القبض على خصميه المخلوعين، فأعاد الأب الى سجنه، حيث وافاه الأجل بعد قليل، وأمر بخنق الأبن، الذي لم يهنأ بحكمه الاّ بضعة اشهر (أول شباط - ١٢٠٤ م).

لم تكن الثورة التي قام بها الكسيس الخامس، تستهدف الأمبراطورين الأب والأبن فحسب، بل كذلك، الصليبيين بذات الوقت، بما فيهم البنادقة.

ولذا فإن الفرنسيين، رأوا من المصلحة، التباحث مع البنادقة بهذا الشأن، واجتمعوا معاً بمجلس توصّلوا فيه الى عقد معاهدة، صداقة، تعاهدوا بها، على التعاون للاستيلاء على العاصمة البيزنطية، وخلع الأمبراطور الجديد ألكسيس الخامس، ثم العمل، على انتخاب أمبراطور سواه، من الصليبيين، لادارة الحكم، وتعيين بطريرك للقسطنطينية، يُختار من البنادقة، على أن تقسم المدينة مناصفة بين الفرنسيين والبنادقة الذين يمثّلهم في الحكم، حاكم مطلق التصرّف.

وقد أوجبت هذه المعاهدة، انتخاب الأمبراطور الصليبي، من قبل مجمـع أو هيئـة انتخـابيـة، مؤلفـة من أثني عشر شخصـاً، نصفهم إفرنسيون، والنصف الآخر بنادقة (آذار ١٢٠٤ م).

ووافق الكهنة الصليبيون على هذه المعاهدة، ومنحوها، بركتهم

الرسولية معتبرين بأن المعركة هي معركة حق وعدل، طالما أن عرش البيزنطيين كان يعتليه مغتصب.

لقد سنحت الفرصة للصليبيين، لنيل مأربهم من عاصمة البيزنطيين، التي طالما علّلوا النفس، بالاستيلاء عليها، منذ قامت أول حملة صليبية للشرق، نظراً لما فيها من كنوز وغنائم، وبسبب ما يفصل بينهم وبين البيزنطيين من خلاف في العقيدتين، وانفصال في الكنيستين، أخذت دائرته تتّسع على مرّ السنين، ولكن الظروف كانت دائماً تعمل على منعهم، من تدمير الأمبراطورية البيزنطية، فيؤخرون تنفيذ ما يضمرون، حتى جاء الوقت الذي رأوا انفسهم فيه قادرين على ذلك، فاستعدوا للضربة القاضية ومهّدوا لها بهذه المعاهدة مع البنادقة، وكان الموعد المعيّن لاقتحام القسطنطينية، في التاسع من نيسان ١٢٠٤ م، حيث انقض الصليبيون والبنادقة في آن واحد على المدينة من الجهة الشمالية الشرقية، فثبت البيزنطيون في مكانهم وراء الأسوار، وردّوهم على أعقابهم، مما أثبط عزيمة المهاجمين، بحيث كاد اليأس يمنعهم من تكرار الهجوم، لولا ان الكهنة لم يأمروا بابعاد جميع النسوة الجانحات من معسكر الصليبيين لأن وجودهن هو الذي سبّب فشل الهجوم الشرعي الذي قام به هؤلاء. وعلى كل، ففي الثاني عشر من نيسان، أعاد الصليبيون الكرة، وقاموا بهجومهم الثاني، فاقترب الأسطول من الأسوار المشحونة بالمدافعين، من البيزنطيين، وأخذ المهاجمون يقذفون النار الأغريقية على الأبراج فأحرقوا بعضها، ثم نزلوا الى اليابسة، واقتحموا معسكر الأمبراطور: (مرزوفل) واحتلّوه بعد أن لاذ هذا الأخير بالفرار، من الباب الذهبي في الجهة الجنوبية. وعند حلول الظلام في ذلك اليوم، أضرم الصليبيون النار في الأحياء المختلفة من المدينة، فاشتعلت الحرائق فيها، واستولوا عليها بعدئذ، وأخذوا يعملون فيها سلباً ونهباً فجرّدوها من كل ما فيها من كنوز وأشياء ثمينة، سواء في

القصور ام في الكنائس، بينما كانوا يقتلون الرجال ويغتصبون النساء، ويدنّسون المعابد، حتى كنيسة القديسة صوفيا استباحوها.

وقال المؤرخ فيلهاردوان بهذه المناسبة، وكان مشتركاً في الهجوم [منذ أن خلق الله العالم، لم يوجد في مدينة، من الغنائم مثلما وُجد في هذه المدينة، اي القسطنطينية].

ولما سقطت القسطنطينية بيد الصليبيين، اجتمعت الهيئة الناخبة المؤلفة من إثني عشر شخصاً، نصفهم فرنسيون، والنصف الآخر بنادقة، في التاسع من أيار /١٢٠٤/م، وانتخبت بودوان، كونت دي فلاندر، أمبراطوراً، وتُوّج، بعد ثمانية أيام من انتخابه، في كنيسة القديسة صوفيا. كما انتخبت الدوج هنري داندولو، حاكماً مطلق التصرف. ثم جرى اقتسام الأراضي، فنالت البندقية جميع الجزر والمرافىء الهامة أي ثلاثة اثمان العاصمة من جهة القرن الذهبي، والساحل الشرقي لبحر الأدرياتيك وجزر أيونيا وغربي وجنوبي البيلوبونيز، وجزر الأرخبيل وجزيرة اقريطش.

أما الفرنسيون، فقد أخذوا الباقي المتفق عليه، ونُصّب بونيفاس دي مونتفرّات، الفاشل في الانتخاب، ملكاً على تيسّالونيكا (Thessalonique) أو سالونيك، كما عُيّن فيلّهاردوان مشيراً، والكونت دي بلوا: دوقاً على نيقيا، وغليوم دي شامبليت أميراً على آشاي: (Prince D'Achaïe).

والواقع انه قبل سقوط القسطنطينية بيد الصليبيين، نجح صهر الأمبراطور الكسيس الثالث: تيودور لسكارس (Lascaris)، في تنصيب نفسه أمبراطوراً على البيزنطيين، وأقام في نيقيا حيث أخذ من هناك، يعمل بالتعاون مع السلاجقة الأتراك، على تأسيس أمبراطورية أخرى، لمناصبة الصليبيين العداء، وإخراجهم من بيزنطة. وقد سقطت

الأمبراطورية اللاتينية في الشرق، سنة ١٢٦١ م، بعد حروب عدة، لا مجال هنا لسردها.

وهكذا فشلت الحملة الصليبية الرابعة، التي كان مقرّراً إرسالها الى مصر، في الوصول الى مقاصدها، وانحرفت عن الطريق المعيّن لها، فكان هذا لمصلحة المسلمين، إذ ان القسم الذي انشق عن الصليبيين في البندقية، ولم يقبل بالمشاركة في فتح مدينة زارا، ومن بعدها القسطنطينية، لم يكن له أيّ تأثير، في مجرى الحوادث، بمجيئه الى فلسطين، نظراً لقلة عدده.

وفي خضمّ هذه الحوادث، كان الصليبيون في فلسطين ينتظرون وصول الحملة الصليبية الرابعة، إليهم، ولكن لم تصلهم سوى بعض فلولها، فعلموا بما آلت اليه تلك الحملة، التي غيّرت اتجاهها، فتغيّر معها مجرى التاريخ، وطويت صفحة من صفحاته، فاتهموا البنادقة صراحة، بأن الملك العادل اشتراهم، ودفع لهم مالاً لكي ينحرفوا بالحملة المذكورة الى غير هدفها، ولذلك فان الملك آموري الثاني، سعى الى عدم استفزاز المسلمين، قبل ان يتلقّى حملة صليبية أخرى، يمكن ان يعتمد عليها في خرق الهدنة معهم عند الضرورة.

اما المسلمون من جهتهم فكانوا أيضاً قلقين من وصول بعض الأفرنج الى فلسطين ويخشون من تتالي الحملات الصليبية، التي تطلّ عليهم، من آونة الى أخرى، وقد حصلت اثناء ذلك، بعض المعارك المحلية بينهم وبين الصليبيين في البر والبحر، مما حدا بالفريقين، الى تجديد معاهدة الصلح، لمدة ست سنوات بقصد اكتساب الوقت (١٢٠٤ م - ٦٠١ هـ). وبموجب هذه المعاهدة تخلّى الملك العادل، للملك أموري الثاني عن مدينة يافا، وعن قسم من اللدّ، والرملة.

ولما استقرّت الهدنة أعطى الملك العادل، العساكر دستوراً، وسار هو

الى مصر، وأقام بدار الوزارة في القاهرة.

كما أن الأمبراطور اللاتيني الجديد: بودوان دي فلاندر، قد طلب، من بعض الفرسان والمستوطنين في سوريا، المجيء الى القسطنطينية، للانضمام اليه، فلبّى دعوته، ما ينوف عن المائة فارس وعشرة آلاف مستوطن والتحقوا بالقسطنطينية (١٢٠٥ م). وكان من بين هؤلاء النازحين، بعض الكهنة، وفيهم كاهن بيت لحم، الأمر الذي أثار غضب البابا إينوسنت الثالث، فانحى باللائمة عليهم، لتركهم الأرض المقدسة بدون سبب، وإضعاف الدفاع عن ممتلكات الصليبيين فيها.

الفصل الثاني

انفصال مملكة القدس اللاتينية عن مملكة قبرص

مـات الملـك أموري الثـاني دي لوزينيـان في عكّـا (اول نيسان ١٢٠٥م - ٦٠٢هـ). وبموته، حصل الانفصال بين مملكة القدس اللاتينية (مملكة عكا) وبين مملكة قبرص، وذلك حسب القواعد الدستورية للمملكتين، فآل عرش مملكة قبرص، الى إبنه هوج الأول دي لوزينيان، الحاصل له من زواجه الأول: أما تاج المملكة اللاتينية، فقد أعطي لماري مونتفرّات إبنة الملكة إيزابيل، الحاصلة لها من زوجها الأسبق: كونراد دي مونتفرات (وإيزابيل لم تنجب ولداً ذكراً من أموري الثاني). فوُضعت تحت وصاية خالها جان ديبلن، صاحب بيروت، لعدم تجاوزها الرابعة عشرة من عمرها في ذلك الوقت.

ولقد ساد السلام بين المسلمين والأفرنج، طيلة مدة الهدنة تقريباً، إذ كان الفريقان يحافظان على التقيّد بها وعدم خرقها. ولكن حصل، قبل انتهائها بقليل ان هاجم بعض القراصنة من الأفرنج، بعض السفن الاسلامية في البحر، فاستولوا عليها، فسار الملك العادل من مصر الى سوريا، وقاد جيشه الى ضواحي عكّا، ليحاسب الصليبيين على خرقهم الهدنة، فأثبت له جان ديبلن الوصي على العرش، بأن أولئك القراصنة، إنما اندفعوا من قبرص، وليس من مرافىء مملكة القدس، فاقتنع الملك العادل، بما ادّعاه الوصي على العرش، وعرض عليه تجديد الهدنة عند انتهائها، على ان يُعطى الأفرنج مقابل ذلك، عدة قرى

واقعة في مقاطعة عكا، فقبل جميع البارونات بذلك ووافقهم رؤساء فرقتي الأسبتارية والتوتون، ولكن المجلس رفض العرض تحت ضغط رئيس فرقة الداوية وأغلب الرؤساء الدينيين، بالرغم من أن قوى الفرنجة لم تكن لتعادل وقتذاك، قوى المسلمين، الذين كانوا يؤثرون السلام على الحرب، ولو على حساب تضحيتهم ببعض الأراضي. وهنا يلاحظ، جان ريشار في كتابه: [مملكة القدس اللاتينية صفحة ١٧٣]، ويتساءل، هل إن رئيس الداوية كان على اتفاق مع الملك الظاهر ملك حلب، للوقوف هذا الموقف المتشدّد؟.

الواقع انه كان من مصلحة الملك الظاهر، نشوب حرب محلية تحوّل انظار الملك العادل وتشغله في جنوبي سوريا، إذ في ذلك الوقت كان قد نقض الصلح مع عمه العادل (٦٠٦ هـ) وعادت الإحن بينهما[١].

وعلى كل، فقد انتهت الهدنة في شهر أيلول ١٢١٠م - ٦٠٧هـ وقام الملك المعظم بن العادل، باجتياح ضواحي عكا، ردّاً على الغزوة التي بدأها الأفرنج، دون أن يحاول محاصرة المدينة (تشرين الأول ١٢١٠م - ٦٠٧ هـ).

وعمل الملك العادل على تشييد حصن منيع على جبل الطور، ليهدّد به مدينة عكا وطريق قيسارية على الساحل (برج عكا).

ولم يفت ذلك، البابا إينوسنت الثالث، فقال عن هذا الحصن، إنه اكبر خطر يهدّد عكا. وهذا ما دعاه لارسال مبعوث من قبله الى ملك الكرج للسيحي، في سبيل مساعدة مملكة القدس (حزيران ١٢١١م)[٢].

في العام ١٢٠٨م بلغت الملكة ماري، السابعة عشرة من عمرها، ففكّر خالها الوصي على العرش، بتدبير عريس لها. ولهذا الغرض أرسل

(١) أبو الفداء - جزء (٦) صفحة (٦).

(٢) Jean Richard: Le Royaume Latin de Jérusalem. p. 173.

الى ملك فرنسا، فيليب أوغيست، يطلب رأيه باختيار الزوج المناسب لها. فاختار الملك، المدعو جان دي بريان، وهو بارون شمباني في الستين من عمره، فحضر هذا الى عكا (١٤ ايلول ١٢١٠ م) وتزوج بالملكة، ونُصِّب ملكاً على مملكة القدس اللاتينية في كاتدرائية صور (٣ تشرين الأول ١٢١٠ م).

وكان أول عمل قام به هذا الملك ضد المسلمين، هو إرساله عمارة بحرية الى مصر بقيادة غوتيردي مونبليار (Gautier De Montbéliard) الذي دخل النيل واعمل السلب والنهب على ضفافه لجهة دمياط، فما كان من الملك العادل، الاّ ان سار نحو الجليل، بقصد الانتقام من الأفرنج. فعرض عليه الملك جان دي بريان عقد صلح آخر لمدة ست سنوات فاستجاب العادل للطلب، وتّم الصلح في آخر حزيران ١٢١١ م - ٦٠٨ هـ وعلى إثر هذه الهدنة، تقدم البابا إينوسنت الثالث، باجراء المفاوضات مع الملك العادل، بغية تبادل الأسرى بين المسلمين والمسيحيين، وإعادة القدس للأفرنج، ففشلت تلك المفاوضات ولم تقترن بنتيجة، لأن الملك العادل رأى ضرراً لمصلحة المسلمين فيها.

وهذا الموقف، جعل البابا، يفكّر جدّياً بالدعوة مجدداً الى تنظيم الحملة الصليبية الخامسة، التي كانت توقفت الدعوة لها فعلياً منذ سنة /١٢٠٤/م. في هذا الوقت بالذات، كانت حملة صليبية من نوع جديد تظهر في فرنسا والمانيا، وهي الحملة التي حاول القيام بها، أولاد صغار للزحف على القدس: وبيان ذلك، ان راعياً صغيراً يدعى أتيان، من كلواي، قرب ڤاندوم في فرنسا، زعم انه رأى السيد المسيح في منامه، بصورة حاج فقير، فدعاه الى تخليص مدينة القدس، وعملاً بتعاليم السيد المسيح، راح يدعو الناس الى مرافقته لفلسطين، فتبعه عدد كبير من الصبيان والبنات، وأخذ يطوف بهم في القرى والمدن، وهم يحملون الرايات والصلبان، فإذا سئلوا عن وجهتهم أجابوا بأنهم ذاهبون نحو

(الآله). الى أن حط بهم الترحال في مرسيليا، حيث عاد قسم منهم أدراجهم الى بلادهم، اما القسم الآخر فقد تلقّفهم البحّارة المرسيليون، وألقوهم في مراكبهم، ونقلوهم الى الأسكندرية فباعوهم هناك، بيع الرقيق (حزيران ١٢١٢ م).

أما في المانيا فإن صبياً آخر من كولونيا يدعى نقولا، راح يطوف في البلاد داعياً الى تخليص بيت المقدس من ايدي الكفّار، فجرّ وراءه عدداً كبيراً من الصبيان والبنات ايضاً، بالاضافة الى الرجال المغامرين والنساء الساقطات، واجتاز بهم وادي الراين، وجبال الألب حتى وصل الجميع الى إيطاليا (آب ١٢١٢ م)، ويمموا صوب جنوا، حيث بقي قسم منهم هناك، فيما صعد القسم الآخر، الى المراكب الراسية فيها، فنقلهم بحّارتها الى البلدان الاسلامية، وباعوهم فيها كالأرقاء.

وقد نسجت الأقاصيص الكثيرة حول هؤلاء الأولاد الصغار وخصوصاً حول نقولا الألماني. فمن قائل إنه هلك على الطريق ومن قائل إنه تمّكن من السفر الى فلسطين، واشترك بحرب الصليبيين مع المسلمين في عكا، ودمياط، وعاد بعد سنتين من ذلك الى كولونيا مكلّلاً بالغار.

وتقول أغنية كان الأولاد يتغنون بها وهم يسيرون وراء نيقولا:
[نيقولا خادم المسيح، سيجتاز المراحل.

وسيدخل مع الأبرياء، المدينة المقدّسة.
وفي اليمّ سيسير رويداً على قدميه بدون جزع.
وسيجمع، بالعفة، بين الفتيان والفتيات.
إكراماً لله، سيصنع أشياء كثيرة.
والكفار والمخادعون، سيعمّدهم بيده.
وهذا النشيد سيرتّله الجميع في القدس.
والسلام الآن على عبّاد المسيح.

الذي سيعود وينشر نوره الباهر.
على الذين افتدوا انفسهم بالدم.
كل (اولاد) نيقولا سيتوّجهم بنفسه[1]].

والواقع ان هذه الهجرة، التي قام بها الأولاد الفرنسيون والألمان قد تأثرت بالدعوة التبشيرية الصليبية، التي تولاّها مندوبو البابا إينوسنت الثالث في انحاء أوروبا، في ذلك الوقت، فاندفع اولئك الأولاد، بحماستهم البريئة الى مجاراة الكبار، في سبيل تخليص بيت المقدس من أيدي الكفّار. وكان من أمرهم ما كان.

---

(1) Dominique Paladilhe: La grande Aventure des Croisés P. 254.

الجزء السادس

الحملة الصليبية الخامسة



الفصل الأول

في أوائل عام /١٢١٣/ م، بعث البابا إينوسنت الثالث برسائل ونداءات الى جميع المسيحيين، يحضهم فيها على الاستعداد لتنظيم حملة صليبية من أجل تخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين، دون اعتبار لحالة الهدنة القائمة حينذاك بين الملك العادل وإفرنج عكا، ولهذه الغاية، عقد مجمع مقدّس في مدينة (لاتران). حضره مندوبون عن الملك جان دى بريان، وبطريرك الموارنة، وممثلون عن بطريرك الأرثوذكس الشرقيين (الملكانيين) في الأسكندرية، بالاضافة الى سائر المندوبين من كافة المناطق في اوروبا تقرر فيه، تجهيز حملة صليبية كبيرة لارسالها الى سوريا، والموافقة على ما تقدم به البابا من فرض الحصار التجاري على مصر وحرمان كل من يتعامل مع المسلمين في تلك الديار، سواء ببيعهم اسلحة أو حديداً أو خشباً او مراكب، أو يستخدم في بحريتهم (١٢١٥ م- ٦١٢ هـ). وذلك لمدة أربع سنوات [١] - وقبل أن تتحقق أمنية البابا إينوسنت الثالث، برؤية الحملة الصليبية العتيدة، تقوم بمهمتها، داهمته المنية في /١٦/ كانون الثاني ١٢١٦ م، فخلفه على السدة البابوية هونوريوس الثالث، الذي تابع العمل للحملة، على غرار سلفه، وكلف رئيس أساقفة (عكا) جاك دى فيتري ليقوم بالتبشير بها، وبعث الحماس في نفوس إفرنج سوريا، الذين انصرفوا الى حياة الدعة والراحة، نتيجة للرخاء الذي شهدته مرافئ طرابلس وصور وعكا، في ذاك الوقت بعد إجراء معاهدات الصلح مع

(1) Jean Richard: Le Royaume Latin de Jerusalem P. 175.

المسلمين [حيث كانت جاليات مدن البندقية وبيزة وجنوى، ومرسيليا وقطالونيا ،الموجودة فيها، تفكر بتجارتها وباسعار التوابل اكثر مما تفكر باستعادة بيت المقدس]. وقام جاك دى فيتري بدعوته، فتنقل بين عكا وبيروت وطرابلس،وطرطوس وأنطاكية، مبشراً بقرب وصول الحملة الصليبية المزمع إرسالها الى الشرق، من أوروبا، ومثيراً الهمم للتعاون معها.

وقد ترجمت خطبه ومواعظه الى اللغة العربية، بمعرفة الموارنة، والسريان.

ومنذ ايلول ١٢١٧ م- ٦١٤ هـ بدأت طلائع الجيوش الصليبية تفد الى عكا عن طريق البحر، فوصل أولاً ملك المجر، اندره الثاني ثم ليوبولد السادس دوق النمسا، فملك قبرص هوج الأول دي لوزينيان واخيراً أمير أنطاكية - طرابلس: بوهمند الرابع.

وعند اجتماع هذه الجيوش في عكا، مع الجيش الأفرنجي، كانت تؤلف اكثر من (٢٠٠٠) فارس، و (٢٠٠٠٠) من المشاة: وما أن جرى البحث في قيادة هذه الجيوش، وانتقاء قائد لها، حتى نشأ الخلاف بين قادتها ،إذ رفض ملك المجر وملك قبرص،ترؤس الملك جان دي بريان عليها، فتولى عند ذاك مجلس البارونات، زمام القيادة بنفسه. وفي الثالث من تشرين الثاني ١٢١٧ م- ٦١٤ هـ،تحركت جيوش الصليبيين، وسارت نحو الجليل، فتصدى لها الملك المعظم بن الملك العادل فدحرته، واجتاحت الأردن، عن طريق الفولة، وهناك، أرغمت الملك العادل على الفرار قرب بيسان (Bethsan) واحتلت هذه المدينة وأخذت جميع أهاليها أسرى، ثم راحت تلقي الحصار على بانياس لمدة ثلاثة أيام فلم تنل منها منالاً. وبعدها عادت الى عكا تجرّ وراءها الأسرى المسلمين، حيث أخلد الجند الى الراحة بعض الوقت (كان الملك العادل وقتذاك،

في مصر فحضر بجيش قليل، عندما علم بوصول الحملة الصليبية الى عكا).

وفي التاسع والعشرين من تشرين الثاني ١٢١٧م ٦١٤ هـ أعاد الصليبيون الكرة فزحفوا لمحاصرة حصن الطور، وتخلّف ملك المجر عن مرافقتهم لمرضه: وكان البابا قد شدد في رسائله ونداءاته على أهمية هذا الحصن، من الناحية العسكرية وطلب من الصليبيين أن يضعوا نصب أعينهم الاستيلاء عليه قبل كل شيء. وفي طريقهم اليه، اعترضهم الجيش الاسلامي ولكنه لم يتمكن من منعهم من رمي الحصار عليه.

ودام هذا الحصار مدة ثمانية أيام، أقدم الصليبيون خلالها على القيام بعدة هجمات على الحصن، تكسّرت جميعها على صخوره، وبقي صامداً لا يهزّه ريح وحُماته مستبسلون في الدفاع عنه،مما أوقع اليأس في نفوس الصليبيين، بعد التعب، فاضطروا لفك الحصار عنه، والعودة الى عكا (٧ كانون الأول ١٢١٧ م).

ويقول أبو الفداء بصدد هذه الحوادث: [في سنة أربع عشرة وستمائة، والسلطان الملك العادل بالديار المصرية، وقد اجتمعت الفرنج من داخل البحر، ووصلوا الى عكا في جمع عظيم. ولما بلغ الملك العادل ذلك خرج بعساكر مصر، وسار حتى نزل على نابلس، فسارت الفرنج اليه. ولم يكن معه من العساكر ما يقدر به على مقاتلتهم، فاندفع قدّامهم الى عقبة أفيق. فأغاروا على بلاد المسلمين، ووصلت غارتهم الى نوى من بلد السواد، ونهبوا ما بين بيسان ونابلس، وبثواسراياهم، فقتلوا وغنموا من المسلمين ما يفوت الحصر: وعادوا الى عكا.... وأقام الملك العادل بمرج الصفر، وسارت الفرنج وحصروا حصن الطور، وهو الذي بناه الملك العادل على ما تقدم ذكره. ثم رحلوا عنه][1]-

---

(١) أبو الفداء: ج (٦) صفحة ١٢.

بعد ذلك جرد الصليبيون حملة ثالثة على وادي الليطاني(مرجعيون)، وتمكن أمير مجري من احتلال (جزين) الاّ أن المسلمين فاجأوه هناك وأبادوا فرقته.

وما كاد ملك المجر يسترد عافيته حتى قررّ العودة الى بلاده، بالرغم من توسّلات بطريرك القدس له بالبقاء. ولما سافر، رافقه ملك قبرص هوج الأول، وأمير أنطاكية - طرابلس بوهمند الرابع، الى طرابلس وطرطوس (اوائل سنة ١٢١٨ م). ولم يبق في سوريا سوى قسم ضئيل من تلك الحملة الصليبية الكبيرة، وعلى رأسه دوق النمسا: ليوبولد.

وهكذا خلا الجوّ للملك جان دي بريان، فاتفق مع دوق النمسا ورئيس فرقة الداوية، على إعادة تحصين قيسارية، التي كانت قد هُدمت في سنة ١١٩١ م وهجرها أهاليها مدة عشرين سنة، وبدأت الأعمال فيها (في شباط ١٢١٨ م). كما إنهم عمدوا الى تشييد حصن جديد في تلك الناحية على طريق يافا؛ سميّ: قصر الزائر Chatel Pélérin وسلم للداوية.

وإذ لم يتوصل الصليبيون الى ما كانوا يأملون من احتلال حصن الطور أو استعادة بعض المدن المهمة، من أيدي المسلمين في سوريا فقد اتفق رأيهم على منازلة اعدائهم في مصر قلب مملكة الملك العادل بالذات، للضغط عليهم، في سوريا، وإرغامهم على تسليم القدس، خصوصاً وأن عدداً كبيراً من الأفرنسيين والأيطاليين، كان قد وصل حديثاً، الى عكا، بعد رحيل ملك المجر الى بلاده.

وقد قيل آنذاك، إن مفاتيح القدس، هي في القاهرة. وفي /٢٧/ايار ١٢١٨ م أبحر الأسطول الصليبي من عكا على المراكب الأيطالية، ووجهته دمياط، وعلى رأسه الملك جان دي بريان، الذي سلم السلطة في مملكته، الى البارون الألزاسي: غارنير لالمان (Garnier : L'aleman) طيلة مدة غيابه.

ووصل الأسطول الصليبي الى دمياط، بعد يومين من رحيله، أي في /٢٩/ ايار ١٢١٨م - ربيع الأول ٦١٥هـ وعسكر الملك مع جيشه على الجانب الآخر من مصبّ نهر النيل، ولم يتمكن من عبور هذا النهر، الاّ بعد ثلاثة أشهر من وصوله. ذلك لأن المصريين،بقيادة الملك الكامل بن الملك العادل، كانوا قد أقاموا برجاً على النهر ربطوه بمآصر، أي بسلاسل حديدية من على الشاطىء ليحولوا بذلك دون وصول الأفرنج الى المدينة. فقطع هؤلاء تلك السلاسل فيما بعد، واستولوا على البرج فأصبح النهر مطية لهم ولمراكبهم (٢٤ آب ١٢١٨م)، ووقعت مفاتيح مصر بيدهم كما يقول أبو شامة في الروضتين.

وكان الملك العادل في ذلك الوقت، نازلاً بمرج الصفر، وقد أرسل العساكر الى ولده الملك الكامل بالديار المصرية، ثم رحل الملك العادل الى عالقين وهي عند عقبة أفيق فنزل بها ومرض، وما كاد يرده نبأ سقوط البرج المذكور بيد الصليبيين،حتى اغتمّ لذلك كثيراً، وما لبث أن مات من شدة حزنه. فخلفه إبنه الملك الكامل في السلطنة.

لما توفي الملك العادل. وبلغ نبأ وفاته الملك الكامل وهو في قتال الأفرنج، عظم عليه ذلك جداً. وشعر بضعفه، وطمع به هؤلاء، على أنهم بقوا معسكرين على الضفة الغربية للنيل، دون أن يجرأوا على العبور الى الضفة الشرقية منه، حيث تقع مدينة دمياط، ويخيّم الملك الكامل بجيشه. وفيما الحال كذلك. إذ وصل الى معسكر الصليبيين، جماعات من القبارصة والفرنسيين، ومعهم هوج دي لوزينيان الأول ملك قبرص، وغويتر صاحب قيسارية، وإيراردى شاسناي، وجان دى بواسيّ وغويتر دى ينيمور وجان دارسي، كما وصل اليه، مندوب البابا: الكاردينال بيلاج أو (بيلا جيوس)، Pelage الذي بادر فور مجيئه، بالمطالبة بقيادة الحملة (آخر ايلول ١٢١٨م).

وفي التاسع من تشرين الأول ١٢١٨ م - ٦١٥ هـ قام الملك الكامل بهجوم مباغت على الجيش الصليبي مجتازاً النيل على جسر كان ألقاه على عجل، فقابله الملك جان دي بريان مع فرسانه وأحبط هذا الهجوم، بعدما صدّ المشاة الذين حاولوا إلعبور الى الضفة الأخرى. بعد ذلك أخذ الجيشان الإسلامي والصليبي يتبادلان الهجمات، قاصداً كل منهما عبور النيل واحتلال الضفة المقابلة التي يعسكر عليها عدوّه. ولكن دون جدوى.

وفي خضم هذا العراك، برزت أحداث داخلية تجري في مصر، حيث تآمر على الملك الكامل، جماعة من قادة جيشه، بزعامة عماد الدين أحمد، المعروف بابن المشطوب وهو من مقدمي الأكراد الهكارية، وعزموا على خلعه من السلطنة، فعلم بالمؤامرة، وحصل الاختلاف في عسكره فتسرع وترك مواقعه سراً منسحباً الى أشموم طناح، بانتظار أخيه الملك المعظم عيسى، الذي وعده بموافاته الى مصر.

ولما شعر قادة الجيش بانسحاب الكامل من المعسكر، حذوا حذوه وغادروا مواقعهم مع جندهم وتفرقوا في البلاد.

وكانت هذه هي الفرصة المنشودة التي هيأها القدر للصليبيين، فاجتازوا النيل منتقلين الى الضفة الشرقية، حيث احتلّوا مواقع الجيش الأسلامي وغنموا من معسكره، الغنائم الكثيرة، وأصبحوا وراء أسوار دمياط. فضربوا الحصار عليها (٥ شباط ١٢١٩ م - ٦١٦ هـ)، وفي أثناء ذلك وصل الملك المعظم، من دمشق مع جيشه الى مصر لنجدة أخيه الملك الكامل، فاجتمعا، واعتقلا عماد الدين أحمد المعروف بابن المشطوب، وأرسلاه موقوفاً الى الشام، ثم مضيا سوية إلى فارسكور لمباغتة الصليبيين من الخلف فيما لو قاموا بمهاجمة دمياط، وأرسلا البعوث بطلب الأمداد من العواصم الاسلامية، فلم يستجب لهما أحد واشتدت مضايقة

الصليبيين للمدينة المحاصرة، وانتاب الضعف أهاليها دون أن يتمكن الأخوان من تخليصها، فخشي المسلمون على مصر أن تقع بقبضة الأفرنج، وكان الخطر عليها كبيراً، فعند ذاك لم يرَ الملك الكامل بُدّاً من عرض الصلح على الصليبيين، والتنازل لهم عن القدس مقابل رفع الحصار عن دمياط، بالاضافة الى جزية سنوية يدفعها لهم (وكان ذلك بالاتفاق مع الملك المعظم).

ووافق الملك جان دي بريان ومن معه من بارونات مملكته الفرنسيين على هذا العرض، الاّ أن الكاردينال بيلا جيوس، مندوب البابا، رفض ذلك قطعاً، لأنه كان يطمح الى الحصول على مصر، وعلى القدس معاً، نظراً لتأكده من ضعف المسلمين، وقد أيدّه في موقفه هذا رؤساء الداوية والاسبتارية، والأيطاليون، وتغلّب رأيهم على رأي الملك والفرنسيين، فصُرف رُسُل الملك الكامل بدون جواب (اوائل صيف ١٢١٩م - ٦١٦هـ).

عندئذٍ، طلب مندوب البابا من الجميع، تشديد الحصار والخناق على مدينة دمياط، لاسقاطها بسرعة، ومع هذا، لم يهن أهاليها المحاصرون عن الدفاع عنها، وصمدوا بثبات، رغم توالي الهجمات عليهم من قبل أعدائهم.

وكان دوق النمسا ليوبولد، قد أبحر الى بلاده في آخر نيسان ١٢١٩م فأتت نجدات أخرى للصليبيين من الفرنسيين الذين وصلوا في أيلول ١٢١٩م وكان من بينهم، الكونت دى جوانفيل، وغويتردى ينمور وسواهم من البارونات، فاشتد عزم الجيش الصليبي، بمجيئهم: وبدأ الأيطاليون بمحاولة احتلال المدينة المحاصرة، فهاجموها بقوة، ولكن الملكين الأخوين الكامل والمعظم، كانا لهم بالمرصاد، فأخذاهم من الخلف، ودحراهم. ولم يثبط هذا الفشل من همة الصليبيين، فأعادوا

الكرة، وأرسلوا حملة أخرى بقيادة هوج دي لوزينيان، وراوول صاحب طبرية، لمهاجمة معسكر الملكين الأخوين، فوجداه خالياً، وقد تركه الجيش الأسلامي على حين غرّة، مبتعداً الى مكان آخر. وفيما كانت هذه الحملة عائدة الى مراكزها بدون نظام، نظراً لشدة الحرّ، تعقبّها المسلمون، الذين كانوا يراقبونها، وأثخنوا في أفرادها قتلاً وجراحاً، فانهزمت هزيمة منكرة، ولم تنفعها مؤازرة رجال فرقتي الداوية والأسبتارية، الذين خفوّا لنجدتها. وكان من بين الأسرى الذين وقعوا بأيدي المسلمين، أسقف بوڤي، (Beauvais)وجان أرسي.

وبدلاً من أن يستغل الملك الكامل وأخوه هذا الظفر ينالانه بعد تلك الانعكاسات ويواصلا هجومها على الأفرنج، توقفا في مكانها، وأرسلا يجددان عرض الصلح مرة ثانية على هؤلاء الأخيرين، بالشروط السابقة ذاتها. ومرة ثانية، وافق الملك جان دي بريان على الصلح ورفضه مندوب البابا، يسانده الأيطاليون في موقفه حيث كانوا لا يزالون يتلهفون الى احتلال المدينة. فكانت الكلمة الأخيرة له ولهم.

لا شك ان حالة أهالي دمياط، قد ساءت كثيراً، اثناء الحصار، فالجوع والأمراض تفشيا في المدينة، فضعفت مقاومتهم في الدفاع عنها، ولم يكن وضعهم، بخافٍ عن الأفرنج فتشجّع مندوب البابا، خصوصاً بعدما وصل المدد اليه، وكان ممثلاً بعدد كبير من الأنكليز بقيادة الكونت دى شستر، والكونت داروندل والكونت دى ساليسبوري: ومن الفرنسيين بقيادة أنكران دي بوف وساڤاري دي موليون، ومن الأيطاليين، يرافقهم رجلا دين هما: بيار دي قاطان، وفرنسوا الأسيزي. (François d'Assise).

وحين وصول هذا الأخير الى جيش الصليبيين أظهر رغبته بالاجتماع

بالملك الكامل، ليحاول إقناعه باعتناق المسيحية، ووضع حدّ للحرب المشتعلة بين المسلمين والأفرنج. فذهب الى معسكر الملك وطلب من الحرس أن يقودوه اليه، ففعلوا. وجرت المقابلة بينهما، وأخذ الراهب المسيحي يعظ الملك المسلم، ويتكلم عن المسيح كثيراً. ثم تلت هذه المقابلة، مقابلات أخرى، كان الراهب يحاول فيها شرح الدين المسيحي، وبيان فضائله، فيصغي الملك الكامل لحديثه بكل بشاشة وطيبة خاطر. ويقول جان دي فيتري الذي حضر إحدى المقابلات [وعند انصراف الأخ فرنسوا من حضرة الملك قال هذا: يا أخي صلِّ من أجلي لكي يلهمني الله، اختيار الشريعة والعقيدة اللتين يرضاهما لي].

ويضيف جان أليموزينا، الذي دوَّن هذه الواقعة في مجموعة أخباره، بعض التفصيلات عنها، ومنها أن فرنسوا عرض تجربة النار على نفسه، تدليلاً على صدق عقيدته، ويقول المؤرخ! [لقد قيل إنه (أي فرنسوا الأسيزي) حضر امام السلطان، فقدّم له السلطان بعض الهدايا والهبات وقال له. بعد أن رفضها فرنسوا: خذها ووزعها على الكنائس والفقراء، ولكن خادم المسيح رفض ذلك مؤكداً أن العناية الألهية هي التي توفرّ للفقراء حاجاتهم. وإذ كان الطوباوي فرنسوا يعظ الملك، أظهر استعداده للدخول في النار مع أحد رجال الدين المسلمين، لكي يبرهن له عن صحة شريعة المسيح. غير أن السلطان أجابه: يا أخ، أنا لا أعتقد بأن أحداً من رجال الدين المسلمين، يريد الدخول في النار لأجل دينه][1]..

وقد أوضح بعض المؤرخين، بأن أحد مستشاري الملك الكامل، لم يرق له عَرض تجربة النار من قبل الراهب فرنسوا، فترك المجلس وانصرف. ويقال انه الأمير فخر الدين ألفانسي المتقشف.

(1) – Régine Pernoud Les Croisés, P. P. 243 – 244.
– Dominique Paladilhe: La grande Aventure des Croisés P. P. 271 – 272.

وعلى كل فان التحكيم الأهلي أي المحاكمة بالتعذيب كما كان ينتهجه المسيحيون في القرون الوسطى، لم يكن ليقبله المسلمون، تديناً، وكان من كرم أخلاق الملك الكامل أن تقبّل بصدر رحب، الاجتماع بالراهب فرنسوا الأسيزي عدة مرات، والإصغاء الى مواعظه، في الوقت الذي كان فيه الصليبيون يحاصرون مدينته، ويقتلون رعيته. ولما ضاق طوق الحصار على أهالي دمياط وباءت بالفشل جميع المحاولات لتحرير المدينة، شنّ الأفرنج عليها هجمات سريعة متتابعة، أسفرت عن إحداث فجوة في سورها الكبير، من جرّاء ضربه بالمنجنيق، بحيث تسنّى لهم تسلقّ ذلك السور ليلاً والدخول اليها، واحتلال قلعتها (٥ تشرين الثاني ١٢١٩م - ٢٥ شعبان ٦١٦ هـ).

وهكذا سقطت المدينة التجارية الأسلامية الكبيرة، ذات الأسوار المزدوجة، والأبراج العديدة، بيد الصليبيين، بعد حصار طويل امتد تسعة اشهر (من ٥ شباط حتى ٥ تشرين الثاني ١٢١٩م). واستحوذ الأفرنج على كل ما وجدوه في المدينة من غنائم وقتلوا اهاليها واسترقوا كثيراً منهم، وأقاموا فيها، فحوّلوا الجامع الكبير الى كنيسة، كما يقول أبو شامة.

ويقول ابو الفداء بهذه المناسبة: [وفي هذه السنة (٦١٦ هـ)، لم يزل الفرنج يضايقون دمياط حتى هاجموها في هذه السنة، عاشر رمضان، وقتلوا وأسروا من بها. وجعلوا الجامع كنيسة. واشتد طمع الفرنج بالديار المصرية، وحين أخذت دمياط، إبتنى الملك الكامل مدينة، وسمّاها المنصورة، عند مفترق البحرين الآخذ أحدهما الى دمياط، والآخر الى أشمون طناخ. ونزل فيها بعسكره] [١].

وكان لسقوط مدينة دمياط بيد الصليبيين، دويّ كبير لدى المسلمين، فقدم الملك الأشرف، ملك خَلاط والجزيرة، الى مصر، لمؤازرة

(١) المختصر في اخبار البشر، جز(٦) ص١٨.

أخويه، الكامل والمعظم. وخشي المسلمون من أن ينتهز الأقباط، الفرصة السانحة لاعلان العصيان، بعدما توطدت أقدام الأفرنج في مصر، الأمر الذي دفع بالملك الكامل، لتقديم عروض جديدة وسخية لهؤلاء، في سبيل عقد الصلح.

يقول إبن الأثير: [ان المسلمين عرضوا على الأفرنج، تسليمهم القدس، وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية، وجميع ما افتتحه، صلاح الدين في سوريا من مدن، ما عدا الكرك، وذلك مقابل إعادة دمياط للمسلمين].

هذا مع العلم بأن أغلب المدن التي عرض الملك الكامل تسليمها للصليبيين قد كانت دُمرت حصونها وأبراجها بمعرفة الملك المعظمّ، مثل تبنين، وبانياس وصفد، والطور، والقدس (ما عدا برج داوود فيها). وكان الكامل يعتبر وقتذاك بأن سوريا قد ضاعت وخرجت من أيدي الأيوبيين الذين يكفيهم الاحتفاظ بشرقي الأردن والبتراء. أما ما كان في غربي الأردن تابعاً لمملكة بيت المقدس في السابق فقد تركه المسلمون للصليبيين.

وهذا ما جعل الوضع المتأزم في البلاد، عرضة لشتىّ الدعايات والروايات المصطنعة، الصادرة عن أوساط المسيحيين واليهود في الشرق فكانت بعض تلك الروايات تقول: إن ملك النوبة المسيحي، سيجتاح (مكة) ويهدم قبر النبي محمد، والأخرى، تروّج بأن إبن القس حنا الخفي، ملك الهند، قد اجتاح بلاد العجم وأصبح على عشرة أيام من بغداد، حيث مضى مندوبون من قبله الى عاصمة العباسيين، ليطلبوا من الخليفة تحرير أسرى الأفرنج الذين بعث اليه بهم سلطان مصر، (وقد أرسل الكاردينال بيلا جيوس كتاباً الى البابا هونوريوس الثالث بهذا الشأن، سمى فيه، إبن القس حناّ، بالملك داوود). والملك داوود هذا،

قال عنه مخبرو فرقة الداوية، بأنه كان يقود جيشاً من أربعة ملايين مقاتل، ويملك مملكتين، كلاً منها تضم ثلاثمائة مدينة كما أن رواية ثالثة كانت تنبيء بأنه عندما تسقط مدينة مصرية بحرية، سوف تؤخذ معها مدينة الأسكندرية، ومدينة دمشق في وقت واحد، وإن ملكين أحدهما من الشرق والآخر من الغرب، سيلتقيان في القدس، في تلك السنة. (وقد انتشرت هذه الرواية في كتاب صادر باللغة العربية، منسوب الى الفيلسوف كليمانت الأسكندراني، من فلاسفة القرن الثالث الميلادي).

والواقع أن كل تلك الدعايات والروايات، كانت تخفي في طيّاتها الضجة التي أثارتها إغارات المغول على بلاد خوارزم والعجم، وكانت الغاية منها زرع الفوضى في البلاد الاسلامية، لاضعاف معنويات المسلمين وترويعهم للاعتقاد بأن ممالكهم على وشك السقوط والانهيار. ومهما يكن من أمر، فإن الخلاف بين الصليبيين، قد تأزم، على إثر سقوط دمياط، فالملك جان دي بريان، أخذ يتصرف في المدينة كأنها ملك له، فضرب السكة باسمه، وخصص نفسه بربعها (اي المدينة) وأنشأ فيها محكمة، فلم يرق ذلك لمندوب البابا، على اعتبار أن الكنيسة هي التي حرّضت على تهيئة هذه الحملة الصليبية، ومن حقها الاحتفاظ بالفتوحات الناشئة عنها. وقد أيده الأيطاليون في موقفه كما هو دأبهم، إذ كان يهمهم قبل كل شيء، الحصول على هذه المدينة التجارية. ولكي يقوي مندوب البابا موقفه عمد الى توقيع عقوبة الحرمان بكل من يعارضه في رأيه.

وبالنتيجة تغلب الكاردينال على الملك جان دي بريان، فرفض ما عرضه الملك الكامل على الصليبيين، لعقد صلح معه، بالشروط المبينة آنفاً. وبعد ذلك، وقعت بعض المعارك في شوارع دمياط بين الفرسان الافرنسيين وبين الأيطاليين المنحازين لمندوب البابا، مما حمل الملك على ترك المدينة بتصرف هذا الأخير. والعودة الى (عكا) —

(٢٩ أذار ١٢٢٠ م -٦١٧ هـ) لكي يتسنى له الوقوف بوجه الدسائس التي أخذت تحيكها له زوجته الصبية من جهة، ومن جهة ثانية، للاهتمام بشؤون دولته التي أصبحت على شفير الأفلاس، بسبب الفقر الذي أصابها بعد اجتياح جيش الملك المعظم لها والتخريب الذي أحدثه في ممتلكاتها، بحيث أخذ التجار يتهافتون على الذهاب الى دمياط، لأهميتها التجارية، بدلاً من صور وعكا. وما أن تفرّد الكاردينال بيلاجيوس بالسلطة في دمياط، بعد رحيل ملك القدس عنها، حتى راح يتصرف بأمورها تصرف الحاكم المستبد، فقرّر من جملة ما قرره، منع الصليبيين من الأبحار من دمياط أو من صور دون إذن منه، أو نقل شيءٍ من أموالهم أو أشيائهم الخاصة معهم، عند رحيلهم. وكل مخالفة لأوامره، تعرّض صاحبها لعقوبة الحرمان، ذلك السيف الذي لا يني يشهره كلما دعته الحاجة اليه. ولقد بقي الجيش الصليبي في دمياط، مدة سنة ونصف وهو سجين عزلته، بانتظار المدد من الغرب أو من المغول، ولكن شيئاً من ذلك لم يحصل. ولحسن حظ المسلمين لم يعمد الكاردينال بيلاجيوس الى الاحتفاظ بعمارة بحرية، أمام المدينة للمراقبة والاستعانة بها عند اللزوم، مما أتاح للملك الكامل، العمل على تقوية أسطوله البحري، ومضايقة الأفرنج كثيراً، بقطع مواصلاتهم بين دمياط وعكا، وتعزيز مراكزه الدفاعية البرية، بانشائه مدينة المنصورة الحصينة في الجنوب الشرقي من رأس الدلتا.

وبعد أن اتخذ الملك الكامل، بعض التدابير القسرية بحق المسيحيين الملكانيين والأقباط، لتعاونهم مع مندوب البابا، عاد للمرة الأخيرة وعرض على الصليبيين ذات العروض السابقة في سبيل توقيع معاهدة صلح معهم، ولكن الكردينال بيلاجيوس أصرّ على الرفض، لاعتقاده بأن مصر أصبحت ملك يديه. وقيل إن ملك فرنسا فيليب أوغست، عندما علم بذلك، أخذه العجب، وصاح: [كان بامكان المندوب أن

يبادل بمدينة واحدة، مقابل مملكة بكاملها ورفض إنه لمجنون إذن].

وكان أن وهنت عزيمة الجيش الصليبي، وثبطت همة الأفرنج، فالتحق عدد منهم، بجيش المسلمين، واعتنقوا الأسلام[1].

وكان قسم من الصليبيين، على وشك مغادرة دمياط، عندما وفد اليها المدد وهو مؤلف من خمسمائة فارس ألماني، يقودهم دوق باڤاريا، وبرفقته قائد فرقة التوتونيين، فصمم عندئذٍ، مندوب البابا، بعد انتظار طويل، على الزحف على القاهرة، لفتحها دون أخذ رأي الملك جان دى بريان. وخرج من دمياط، وسار بجيشه حتى وصل الى إحدى القرى المصرية الصغيرة. وهناك أدركه ملك القدس (وكان قد أبحر من عكا الى دمياط، بعد علمه بنبأ الحملة على القاهرة من ضبّاطه، فوصل الى تلك القرية في /٧/تموز ١٢٢١ م). وطلب الملك من المندوب، وقف التقدم نحو القاهرة، والبقاء في مكانه. ريثما تأتيهم، النجدات، بحيث يظل الأسطول الصليبي على اتصال دائم بهم ويكون فيضان النيل قد خفّ فعندئذ، يتابعون السير نحو القاهرة خصوصاً وأن عدد الجيش الصليبي قليل، وهو غير متجهز كفاية لمثل هذه الحملة. فأجابه الكاردينال المتعجرف، بعظمة وخيلاء كعادته:[أنت خائن أيها الملك، ونحن لن نستطيع الاستيلاء على القاهرة إن لم ندركها الآن]. وبالرغم من ذلك واصل الجيش الصليبي تقدمه في الاراضي المصرية باتجاه الجنوب، بمحاذاة نهر النيل. الى أن وصل الى المثلث المنخفض (الجزيرة) الواقع بين بحيرة المنزلة (Menzalé) شمالاً وفرع النيل الشرقي غرباً والقنال (بحر الصغير) جنوباً. وفي هذا الوقت كان الأسطول المصري، يراقب مواصلات الصليبيين البحرية، بين القاهرة ودمياط، لقطع الطريق عليها ومنع، تموينها.

---

(1) Jean Richard: Le Royaume Latin de Jérusalem, P. 182.

ولما تحقق الصليبيون، من المأزق الذي وقعوا فيه عند اقترابهم من المنصورة، التي كان انتهى العمل من بنائها، أسقط في يدهم، فتوقفوا عن الزحف (٢٤ تموز ١٢٢١ م ٦١٨ هـ).

وعند ذاك كان المسلمون قد رفعوا السدود عن المياه، فطافت في السهل، وحصرت الجيش الصليبي من جميع الجهات، فَفُتّ في عضده. وأراد المندوب الرجوع الى دمياط، فقرّر الانسحاب (٢٦ آب). ولكن كان النيل في ذلك الوقت، في أوج فيضانه، فارتفعت مياهه، مُغرقة الجيش الصليبي، الذي أخذ يتخبط في الوحل، جاهداً للوصول الى بَرَمون حيث تعذّر عليه، الانتشار والتقدم خطوة واحدة، لاختراق صفوف الجيش الأسلامي المحيط به، والذي كان يلاحقه بسهامه وهو عاجز عن الدفاع عن نفسه. فلم يرَ مندوب البابا عند ذاك، بُدّاً من الاستعانة بالملك جان دى بريان، للعمل على تخليصه، من هذه الورطة الواقع فيها، فأجابه الملك: [أيها السيد المندوب ليتك لم تترك بلادك إسبانيا، لأنك قدت المسيحية الى الهلاك. وأنت الآن تطلب مني إنقاذ الوضع، الذي لم يعد بمقدور أحد إنقاذه، فنحن كما ترى، لا نستطيع لقاء العدو للقتال، ولا مواصلة الانسحاب، حتى ولا التمركز في هذه المياه. وفوق ذلك فلا مؤونة لدينا لرجالنا ولا علف لخيولنا][1].

ولم يكن من مناص للصليبيين، إلا الاستسلام، فجرت المفاوضات بين ملك القدس والملك الكامل، فتم الاتفاق على تخليص ما تبقى من جيش الأفرنج، مقابل إعادة دمياط للمسلمين (٣٠ آب ١٢٢١م - ٢١ رجب ٦١٨ هـ). وسُميت هذه المعاهدة [إستسلام بَرَمون]. وتنفيذاً لها، قدمّ الملك الكامل لفلول جيش الصليبيين، ما تحتاجه من أقوات ومؤن، فنجاّها من الموت جوعاً. فأظهر بذلك من كرم الأخلاق ما جعل

---

(1) René Grousset: L'épopée des croisades. P. 302

الأفرنج يلهجون بالثناء عليه، وكان قادراً على إبادتهم، بعد إذ رفضوا عرضه السخيّ السمح، مقابل إعادة دمياط له.

ويقول أوليفـــــــــير دى كولوني (Olivier De Cologne): [هؤلاء المصريون الذين قتلنا أبناءهم وأخوانهم، وسلبناهم ممتلكاتهم وطردناهم من ديارهم، يمدون لنا اليوم، يد المساعدة، فيزودوننا بالمؤن، ويخلّصوننا من الموت جوعاً،، في الوقت الذي كنا فيه تحت رحمتهم].

وكان من جملة شروط هذه المعاهدة أن يقدمّ الطرفان رهائن حتى يتّم تسليم دمياط، فأرسل الملك الكامل إبنه الصالح نجم الدين أيوب وبعضــاً من قــادتــه، كما أرسل الأفرنــج بعضــاً من كــبرائهم، وعــلى رأسهم:ملك القدس(عكا) جان دى بريان والكردينال بيلاجيوس نفسه، فأحسن الكامل استقبالهم واكرم وفادتهم في خيمته، بحضور أخويه الملكين: المعظم والأشرف، ودعاهم الى مائدته، فلم يستطع الملك جان دى بريان عندما رأى مدى اعتناء الملك الكامل به، وحفاوته الزائدة بشخصه، أن يتمالك نفسه عن البكاء، فقال له الكامل:[لماذا تبكي؟ فالبكاء ليس من شِيم الملوك، فقال جان: وكيف لا أبكي، وأنا أرى هناك كل اولئك الأشخاص التعساء الذين، أودعهم الله بين يديّ يموتون من الجوع].[1]-.

في ذلك الوقت بالذات، قدم إلى دمياط، أسطول الماني مؤلف من أربعين سفينة حربية، بقيادة كونت مــالطــة، كان أرسله الأمبراطور فريديريك الثاني، لنجدة الصليبيين. فتأخر وصوله، وكانت المعاهدة قد وقعت بين المتحاربين: ولما رآه الأيطاليون، يصل الى المدينة (وكانت لم تسلم بعد للمسلمين). سوّلت لهم أنفسهم، الاستفادة منه والأستيلاء بمعونته، عليها، للحيلولة دون تسليمها للمسلمين، فقاموا بأعمال الشغب،

(1) René Grousset: L'épopée des croisades, P. 303.

وهاجموا مركز الحكومة، وحاولوا سلب مستودعات الداوية والاسبتارية وما فيها من كنوز. وبعد مقاومة عنيفة من هؤلاء تمكنوا بالنتيجة من إخماد هذا العصيان، ثم تسليم المدينة الى أصحابها المسلمين (١٧ايلول ١٢٢١م - ٢٩ رجب ٦١٨هـ).

وجلا الأفرنج عن مصر عائدين الى عكا، وتبخّرت أحلام مندوب البابا: بيلاجيوس، ولم تتحقق أمنيته، إذ كان فشل هذه الحملة الصليبية من صنع يديه، لقصر نظره وطمعه المتزايد، وعجرفته التي لا تعرف حداً. وقد أنبه البابا، فيما بعد لما سببّه من ضرر للأفرنج في الحملة الصليبية الخامسة هذه، وذلك عند مقابلته له في إيطاليا، فاعتبره مقصراً في اداء مهمته، لسوء إدارته، وجهله بأمور الحرب.

ويقول أبو الفداء بصدد هزيمة الأفرنج وطلبهم الصلح، [وفي هذه السنة- اي سنة ٦١٨هـ - قوي طمع الفرنج المتملكين دمياط في ملك الديار المصرية وتقدّموا عن دمياط، الى جهة مصر، ووصلوا الى المنصورة واشتد القتال بين الفريقين براً بحراً. وكتب السلطان الملك الكامل متواترة الى إخوته وأهل بيته يستحثهم على إنجاده، فسار الملك المعظم عيسى بن الملك العادل، صاحب دمشق، الى أخيه الملك الأشرف، وهو ببلاده الشرقية، واستنجده، وطلب منه المسير الى أخيهما الملك الكامل فجمع الملك الأشرف عساكره، واستصحب عساكر حلب. وكذلك استصحب معه الملك الناصر قلج أرسلان بن الملك المنصور صاحب حماه... وكذلك سار مع الملك الأشرف، كل من صاحب بعلبك الملك الأمجد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن ايوب، وصاحب حمص الملك المجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذي وسار الملك المعظم عيسى بعسكر دمشق، ووصلوا الى الملك الكامل وهو في قتال الفرنج على المنصورة فركب والتقى أخويه ومن في صحبتهما من الملوك واكرمهم. وقويت نفوس المسلمين، وضعفت نفوس الفرنج بما شاهدوه من كثرة

عساكر الاسلام وتحملهم. واشتد القتال بين الفريقين، ورسل الملك الكامل وأخويه مترددة الى الفرنج في الصلح. وبذل المسلمون لهم تسليم القدس وعسقلان وطبرية واللاذقية وجبلة، وجميع ما فتحه السلطان صلاح الدين من الساحل ما عدا الكرك والشوبك، على أن يجيبوا الى الصلح ويسلموا دمياط الى المسلمين. فلم يرض الفرنج بذلك. وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضاً عن تخريب أسوار القدس. فأن الملك المعظم عيسى، خربها كما تقدم ذكره وقالوا: لا بد من تسليم الكرك والشوبك وبينا الأمر متردد في الصلح والفرنج ممتنعون عن الصلح، إذ جماعة من عسكر المسلمين عبرت في بحر المحلة الى الأرض التي عليها الفرنج من برّ دمياط. ففجرّوا فجرة عظيمة من النيل وكان ذلك في قوة زيادته والفرنج لا خبرة لهم بأمر النيل. فركب الماء تلك الأرض وصار حائلاً بين الفرنج وبين دمياط. وانقطع عنهم الميرة والمدد. فهلكوا جوعاً. وبعثوا يطلبون الأمان، على أن ينزلوا عن جميع ما بذله المسلمون لهم، ويسلموا دمياط ويعقدوا مدة للصلح. وكان فيهم عدة ملوك كبار، نحو عشرين ملكاً. فاختلفت الآراء بين يدي السلطان الملك الكامل في أمرهم، فبعضهم قال لا نعطيهم أماناً. ونأخذهم ونتسلم منهم ما بقي بأيديهم من الساحل مثل عكا وغيرها. ثم اتفقت آراؤهم على إجابتهم الى الأمان لطول مدة البيكار وتضجرّ العساكر لأنهم كان لهم ثلاث سنين وشهور في القتال معهم. فأجابهم الملك الكامل الى ذلك وطلب الفرنج رهينة من الملك الكامل، فبعث إبنه الملك الصالح أيوب وعمره يومئذٍ خمس عشرة سنة الى الفرنج رهينة. وحضر من الفرنج رهينة على ذلك ملك عكا، ونائب البابا صاحب رومية الكبرى، وكندريس وغيرهم من الملوك. وكان ذلك سابع رجب من هذه السنة. واستحضر الملك الكامل ملوك الفرنج المذكورين وجلس لهم مجلساً عظيماً ووقفت بين يديه، الملوك من إخوته وأهل بيته جميعهم. وسُلمت دمياط للمسلمين تاسع عشر

رجب من هذه السنة. وقد حصنّها الفرنج الى غاية ما يكون وولاّها السلطان الملك الكامل، الأمير شجاع الدين جلدك التقوي وهو من مماليك الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه إبن أيوب. ثم سار السلطان الملك الكامل ومعه إخوته وأهل بيته ودخلوا دمياط. وكان يوماً مشهوداً. ثم توجه الى القاهرة. وأذن للملوك في الرجوع الى بلادهم. - [(١)] -.

(١) المختصر في أخبار البشر جزء (٦) ص - ٢٦ - ٢٧.

الجزء السابع

الحملة الصليبية السادسة



الفصل الأول

بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة، على ما هو مبيّن آنفاً، لم يرَ الملك جان دي بريان بدّاً من طلب المساعدة من أوروبا، لدعم مملكة بيت المقدس (عكا). ولهذه الغاية، أبحر من عكا الى إيطاليا حيث قابل البابا. هونوريوس الثالث، وعرض له النتيجة التي آلت اليها تلك الحملة وأسباب فشلها، وموقف الكاردينال بيلاجيوس منه، فوعده البابا بمدّ يد المعونة له، على أن تكون الحملات الصليبية التي سوف تأتي الى سوريا بقيادة الأمبراطور الألماني (تشرين الأول ١٢٢٢ م). وإذ كان البابا يعوّل كثيراً على الأمبراطور فريدريك الثاني، الذي تخلّف عن قيادة الحملة السابقة، فقد فكر في وسيلة ناجعة لحمل هذا الأمبراطور، على الوفاء بوعده، من حيث قيامه بحملة صليبية سادسة واهتمامه بمملكة (عكا). فاتصل برئيس .فرقة التوتونيين. هرمان فون سالزا، صديق الأمبراطور فريدريك المخلص. وعرض عليه مسألة تزويج الأمبراطور بالأميرة إيزابيل إبنة جان دي بريان، بصفتها وريثة لعرش المملكة اللاتينية، مما يؤدي الى إتاحة الفرصة لكي تصبح قوى الأمبراطور بتصرّف الصليبيين. فوافقه رئيس فرقة، التوتونيين على ذلك. آخذاً على نفسه العمل على إقناع الأمبراطور، بالقبول، خصوصاً وأن هذا الأخير كان قد زوجته حديثاً. وقام البابا من جهته بعرض الأمر على الملك جان دي بريان، فرحّب بذلك.

اما الأمبراطور فريدريك الثاني، فأنه، بمجرد عرض هذه الفكرة عليه، وجدها في صالحه، فوافق على الزواج فوراً، وأرسل رئيس

الأساقفة جان دي باتيّ الى عكا، على رأس اسطول بحري صغير مؤلف من أربع عشرة سفينة. لينوب عنه بعقد قرانه بالوكالة على الأميرة إيزابيل. البالغة من العمر وقتئذ، أربع عشرة سنة. وجرت احتفالات زواج الأميرة في كنيسة (عكا)، ومراسم تتويجها امبراطورة، في كاتدرائية صور. وبعد ذلك تركت الأمبراطورة الملكة مدينة عكا الى برندزي حيث كان الأمبراطور فريدريك الثاني بانتظارها واستقبالها، والاحتفال بزواجه منها في تلك المدينة (٩ تشرين الثاني ١٢٢٥ م).

وكان الأمبراطور فريدريك الثاني قد أعلن للبابا بأنه سيحمل الصليب ويقود الحملة الصليبية بنفسه بعد زواجه، ولكنه، أخذ يماطل بالسفر الى سوريا؛ وبعد أن جرّد والد زوجته جان دي بريان، من وصايته على عرش مملكة القدس (عكا)، أوفد البارون توماس داسيرّا، حاكماً على عكا من قبله، فاضطر جان دي بريان للجوء الى روما (١٢٢٦ م) ومنها بعدئذ الى القسطنطينية (١٢٣١ م) حيث نودي به هناك شريكا للأمبراطور، ومات في سنة ١٢٣٩ م. اما الزوجة إيزابيل فقد ماتت بعد ثلاث سنوات من زواجها. تاركة للأمبراطور ولداً ذكراً، أصبح فيما بعد كونراد الرابع العتيد. ولما انقضت المهلة المعينة لبدء الحملة المزمع ارسالها الى سوريا، دون أن يبدي الأمبراطور استعداده للتنفيذ، راح البابا يتساءل فيما لو كان الأمبراطور سيخلف وعده هذه المرة كالسابق ام لا؟ ذلك أن الأمبراطور فريدريك الثاني لم يكن ليحفل كثيراً بقيادة الحملة الصليبية. طالما كان على علاقات طيبة، مع الملك الكامل، فيتراسلان ويتهاديان، وكلاهما معجب بالآخر. فالأمبراطور فريدريك نشأ في صقلية، وتعرّف هناك على الأسلام، حيث كانت ما تزال آثار مدنية العرب ماثلة للأذهان، وحيث كان أغلب المقربين اليه من العرب، ومن جملتهم، ولد ابن رشد.

ويقول المقريزي، إن الأمبراطور فريديك كان عالماً بالفلسفة

والهندسة والرياضيات والعلوم الصحيحة، وقد أرسل مرة للسلطان الملك الكامل يسأله عن نظرية الأعداد، فعرض الملك الكامل السؤال على بعض العلماء ثم كتب الجواب بنفسه، وأرسله الى الأمبراطور. وكان الكامل لا يقلّ معرفة عن فريدريك.

ولقد أجرى الأمبراطور في مملكته بعض الأصلاحات في الشؤون الحربية والسياسية وفي غيرها، واستند الى العرب في برنامجه الأصلاحي. وأعدّ له ميخائيل أسكوت، عن طريق الترجمة من العربية الى اللاتينية، موجزاً تضمّن خلاصة مؤلفات أرسطو، مع شروحات ابن سينا.

وعندما أسّس الأمبراطور جامعة نابولي (١٢٢٤م) عني بترجمة التآليف العربية الكثيرة، وفرض تدريسها في تلك الجامعة. كذلك كان فريدريك الثاني مفتوناً بالغناء العربي والموسيقى العربية، ولذا فلم يهتمّ كثيراً بنداء البابا غريغوار التاسع الذي دعاه للقيام بالحملة الصليبية التي وعد بها سابقاً. إلاّ أن الدوافع التي اضطرته بعدئذ للمجيء الى سوريا، بالرغم من البابا، كانت نتيجة لصداقته مع الملك الكامل، على الأخص.

في ذلك الحين، كان الخلاف قد ذرّ قرنه بين أبناء الملك العادل الثلاثة، الذين كانوا يتقاسمون الدولة، وهم: الكامل سلطان مصر، والمعظم ملك دمشق، والأشرف ملك ما بين النهرين، لأن الطمع جعل كلاً منهم يحاول الإيقاع بأخيه ليأخذ منه بعض ممتلكاته. وهكذا أقدم الملك المعظم على مهاجمة حماة والاستيلاء على قسم من أعمالها مثل المعرّة، وسَلَمية. وكانت حماة لابن عمه، فلم يرق ذلك للأشرف والكامل، فطلبا منه، تركها والرحيل عنها، فنزل عند طلبها وهو مرغم، وأعيدت المعرة وسَلَمية لصاحبها الملك الناصر قليج أرسلان (١).

---

(١) ابو الفداء. ج(٦) ص٢٩ - حوادث سنة ٦٢٠هـ.

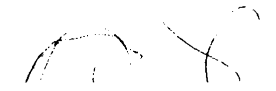
ثم عاد الخلاف وتجدّد عندما قبض المعظم على أخيه الأشرف في دمشق لأكراهه على مساعدته في الاستيلاء على حمص وحماة، ومهاجمة أخيهما الكامل في مصر. ولكن الأشرف بعد تعهّده بالتحالف مع أخيه المعظم، رجع عن إيمانه التي حلفها وأخبر الكامل بكل ما حدث معه.

ونتيجة لهذه الخلافات، بعث المعظم يتصل بملك فارس: جلال الدين منكبرتي بن شاه خوارزم محمد علاء الدين، طالباً مؤازرته ضد أخيه الأشرف الذي تمتد ممتلكاته على مقربة من إقليم جورجيا، حيث كان جلال الدين متوجهاً لمهاجمة هذا الأقليم. وأجابه هذا الأخير بالقبول. وعندها قطع المعظم، الخطبة للملك الكامل في دمشق (١).

وكان جلال الدين بعد موت والده في إحدى قلاع جزيرة أبسكون في بحر طبرستان (Caspienne) قد هرب من أمام المغول، لائذاً الى سلطان دلهي. الذي زوجه من ابنته. وإذ كان أخوه غياث الدين قد أنشأ مملكة له في أطراف فارس الغربية وأذربيجان، وأساء التصرف في مملكته، فقد اغتنم جلال الدين فرصة هدنة المغول، لاجتماع زعمائهم في قره كوروم، للاشتراك بمهرجان مبايعة أقطاي، خلفاً لجنكيزخان الذي توفي في طريقه الى مملكة الصين الجنوبية (٦٢٤هـ - ١٢٢٧م)؛ وسار على رأس جيش أنجده به سلطان دلهي، فأقصى أخاه عن عرشه وتولّى مكانه، ثم تمكن من بسط فتوحاته على البلاد المجاورة حتى دخلت في حكمه فارس وقسم من خراسان وأذربيجان، وهزم الكرج والقفقاسيين الذين عاثوا في ديار الأسلام (٢).

وبعدما انتهت حفلة تتويج أقطاي، عادت جيوش المغول، لاكمال الفتح وتوزّعت ما بين بلاد الاسلام وأوروبا، والقره قيطاي والتيبت. وكان جلال الدين في ذلك الوقت قد دخل مدينة (إخلاط) عاصمة

(١) المقريزي: السلوك ج(١) ص٢٢٢.
(٢) ابن الأثير الكامل. ج.١٢. ص.٤٣٠.



الأشرف ونهبها جنده، ووضعوا السيف في رقاب أهاليها بعد حصار دام ستة أشهر (٦٢٨ هـ - ١٢٣٠ م). وكانت زوجة الأشرف من بين الأسرى. ثم ترك جلال الدين تلك المدينة عائداً الى كرمان، حيث وردته الأنباء بقيام الثورة ضده فيها. وفي طريقه اليها بلغه أن المغول يجدّون في طلبه وقد عبروا نهر أمويه، فاستجار بملوك المسلمين، فلم يجره أحد منهم، وعند وصوله الى كردستان هارباً قتله الأكراد (٦٢٩ هـ - ١٢٣١ م).

أما الملك الكامل، فانه من جهته أيضاً، كان اتصل بالأمبراطور فريدريك الثاني، ليشدّ أزره ضد أخيه المعظم وحلفائه، واعداً إياه بأن يعطيه القدس، إذا لبى طلبه [١]. وكان رسوله إليه، هو الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ (آخر سنة ١٢٢٦ م - ٦٢٣ هـ).

وقد استمرت المفاوضات بين الملك الكامل والأمبراطور، حوالي السنة تقريباً حتى تمّ الاتفاق أخيراً بينهما على هذا الأساس. وأرسل الأمبراطور مبعوثين من قبله هما: توماس داسيرّا والأسقف بيرار دي بالرم.

ويقول المقريزي إن هذين المبعوثين قدّما للملك الكامل جواد الأمبراطور الخاص مع سرجه المذهَّب والمرصّع بالجواهر، وإن الكامل استقبلهما بنفسه ووضع تحت تصرّفهما قصر الوزارة في القاهرة، وبادل الأمبراطور بهدايا ثمينة من اليمن والهند.

وفي شهر أذار ١٢٢٧ م - مات البابا هونوريوس الثالث، فخلفه على سدّة البابوية: غريغوار التاسع، الذي ما ان استلم مهامّه، حتى أرسل الى الأمبراطور فريدريك الثاني كتاباً يذكّره بقسمه السابق للبابا الراحل، ويطلب منه أن يجهّز نفسه للسفر الى سوريا وحمل الصليب،

---

(١) ابو الفداء: المختصر في اخبار البشر. ج(٦) ص.(٣٦) حوادث سنة ٦٢٤ هـ.

نظراً لأهمية المهمة التي أخذ على عاتقه إنجازها بصفته امبراطوراً وحامي المسيحية.

لقد كان الأمبراطور قد أعلن للبابا هونوريوس الثالث المتوفي بأنه عيّن شهر آب ١٢٢٧ م موعداً لسفره. وعلى ذلك فقد دعا لاجتماع يعقد في مدينة برندزي بهذا الشأن فوافته الى هناك وحدات من انكلترا وفرنسا وألمانيا بسلاحها الكامل.

وفي الثامن من أيلول ١٢٢٧ م، امتطى الأمبراطور فريدريك الثاني متن سفينته، على رأس الأسطول المرافق له. متجهاً نحو الشرق، ولكن عند اجتياز الأسطول سواحل إيطاليا، وقع الأمبراطور مريضاً، واضطر للنزول في أوترانت (Otrante), بينما بقي قسم كبير من الأسطول متابعاً سفره نحو سوريا تحت قيادة الدوق هنري الرابع ديلمبورج.

لم يقبل البابا غريغوار التاسع عذر الأمبراطور بتخلّفه عن مرافقة الأسطول الى سوريا. واعتبر بأن تلكّوه هذا مقصود، ودليل على سوء النية، فقضى عليه بالحرمان (٢٨ أيلول ١٢٢٧ م). فقابله فريدريك عند ذاك بمصادرة جميع أملاك البابوية، مدّعياً بأن البابا هو تابع للأمبراطورية الجرمانية المقدّسة.

وفي تلك الأثناء توفي الملك المعظم فجأة في دمشق (١٢ تشرين الثاني ١٢٢٧ م - ذي القعدة ٦٢٥ هـ) وخلفه ابنه الملك الناصر داود.

ولما علم الأمبراطور فريدريك بوفاة الملك المعظم، بعد رحيل الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، من إيطاليا بقليل، رأى أن من مصلحته الأسراع بالسفر الى سوريا، خصوصاً وقد اشتدّ عليه الضغط من أوروبا، فحاول البابا منعه من تنفيذ رغبته بسبب الحرمان الذي تمتد آثاره الى كل الأقطار بما فيها القدس. وأرسل رجلين من الفرنسيسكان. يعلمانه بواقع الحال، وبأنه ممنوع من السفر طالما لم يبدِ

خضوعه للبابا. فلم يأبه لهما الأمبراطور، وأبحر في ٢٨ كانون الثاني ١٢٢٨م من برندزي، وفي طريقه عرّج على جزيرة قبرص، فاستقبله الوصي على عرش المملكة: جان ديبلن، بكل ترحاب في مرفأ ليماسول (٢١ تموز ١٢٢٨م).

كان ملك قبرص هنري الأول ولداً لمّا يبلغ السنة العاشرة من عمره حينذاك، وكان صاحب بيروت جان ديبلن، يتولّى الوصاية على مملكة قبرص باسم هذا الولد. فطالبه الأمبراطور بتسليمه مدينة بيروت، باعتبار أن أموري دي لوزينيان، سبق وحلف يمين التابعية لهنري السادس والد الأمبراطور، علماً بأن إبن الأمبراطور من الملكة إيزابيل، المتوفاة، كونراد الرابع. أصبح هو الوريث الشرعي لعرش مملكة القدس (عكا) تحت وصاية والده الأمبراطور.

وعلى كل، وبعد الأخذ والردّ وافق الوصي على عرش قبرص، على الاعتراف مرغماً، بتابعيّة الجزيرة للأمبراطورية.

وقد صادف في ذلك الحين وصول بوهمند الرابع أمير أنطاكية - طرابلس، الى قبرص، بغية تقديم خضوعه للأمبراطور فريدريك، الاّ أنه عندما رأى ما جرى للوصي على عرش هذه المملكة مع الأمبراطور، خشي على إمارته، فتصنّع الجنون، وأسرع هارباً الى طرابلس.

وفي الثالث من أيلول ١٢٢٨م ترك الأمبراطور قبرص الى عكا فوصلها في السابع من الشهر ذاته. وكان يواكبه في رحلته هذه ملك قبرص هنري الأول. وجان ديبلن، الوصي على عرش المملكة، وفرسان الجزيرة. في تلك الأثناء كان الملك الكامل يترك مصر، مع جيش كبير، الى سوريا، ويحتل مدينتي القدس ونابلس، وينتزعها من يد ابن

أخيه الناصر داود ملك دمشق (آب ١٢٢٨م - ٦٢٥هـ) [١].

هذا وقبل أن يأتي الأمبراطور فريدريك الى عكا، كان قد أرسل وحدة من جيشه، بقيادة الدوق هنري الرابع دي لمبورج، كما مرّ سابقاً. فلما وصلت هذه الوحدة الى عكا. كان أول ما فعلته، أن احتلت قسماً من مدينة صيدا، عائداً للملك المعظّم، وحصّنت مدينتي قيسارية ويافا، وساعدت هرمان فون سالزا، مقدّم فرقة التوتونيين، على تشييد حصن مونفورت (Montfort) أو قلعة القرين، في الجليل الأعلى، فأضحى أهم مركز للفرقة هذه.

أما الناصر داود، فأنه كان قد ترك نابلس قبل أن يأخذها عمه الملك الكامل، ورحل الى دمشق حيث لحق به عمه الأشرف وحصره بها، نزولاً على أوامر الملك الكامل، الذي أعلن بأنه سيدافع عن فلسطين ويمنع احتلال القدس من قبل الأفرنج. ذلك أن الملك الكامل كان يخفي من وراء هذا الأعلان، حقيقة موقفه تجاه الأمبراطور، فهو الذي دعا هذا الأخير للمجيء الى سوريا بغية مؤزارته ضد أخيه الملك المعظم. وقد توفي المعظم فلم يعد هناك من سبب للاستعانة بالأمبراطور، فأخذه الندم على دعوته له ولكن ماذا ينفع الندم، طالما ان المسلمين لن يغفروا له تصرّفه فيما لو حاول مسايرة الأمبراطور وسلّمه القدس. ويقول المقريزي بهذا الخصوص [ان السلطان الكامل هو في حيرة من أمره إذ بعد المعاهدة التي كان عقدها مع الأمبراطور لم يعد بمقدوره الآن الرجوع عن كلامه والامتناع عن التنازل عن بيت المقدس دون إعلان الحرب على الأمبراطور].

والواقع أن فريدريك الثاني، منذ وصوله الى عكا، باشر اتصالاته بالملك الكامل، فارسل له رسالة مع حاكم صيدا، باليان، وتوماس

(١) ابو الفداء - ج(٦) ص٣٩٠ - حوادث سنة ٦٢٥هـ

داسيرًا، يطالبه فيها، بتنفيذ المعاهدة المعقودة بينهما، بواسطة الأمير فخر الدين، والمتعلقة بالتنازل عن مدينة القدس. وأرفق الرسالة، بهدايا ثمينة، ويقول له: [إنني صديقك، وانت لا تجهل كم تعلو رتبتي فوق ملوك الغرب. ومجيئي الى هنا، كان بدعوة منك، فالملوك والبارونات، على علم بسفري، وإن عِدْتُ بدون الحصول على شيء، فسأخسر احترامي لديهم. ومهما يكن، أفليست مدينة القدس هذه، هي مهد الديانة المسيحية؟ ألستم أنتم الذين هدمتموها، ويخيم عليها البؤس، الآن؟ فلتكن منك، مِنّة، وتعيدها لي في الحالة التي هي عليها، كيما يبقى رأسي مرفوعاً أمام الملوك عند عودتي: إنني منذ الآن أتخلّى عن كل المنافع التي يمكن اجتناؤها منها][1].

وكان جواب الملك الكامل على الرسالة [أنه يعتذر للتغييرات التي طرأت على الوضع، إثر وفاة الملك المعظم، والتي قلبت الموازين بكاملها، بحيث أصبح من المستحيل، التخلّي عن القدس، دون إثارة الرأي العام الأسلامي عليه].

وقد نقل ذلك الجواب، الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ نفسه، الذي شدّد في تفاوضه مع الأمبراطور، على أن القدس، يقدّسها المسلمون كما يقدّسها المسيحيون. فكيف يمكن التنازل عنها للأفرنج وبالتالي عن المسجد الأقصى الذي استعاده صلاح الدين، بعد تلك الجهود التي بذلها؟ أفلا يسبب ذلك ثورة دينية قد تؤدي الى إسقاط الأسرة الأيوبية عن الحكم، وتعرّض الملك الكامل لملامة الخليفة في بغداد؟.

ولم ينس الملك الكامل، مبادلة الأمبراطور بالهدايا، فبعث اليه بأشياء ثمينة متنوّعة، من الحرير والدمقس، وبجياد عربية وفيلة وغيرها.

ولما تحقق الأمبراطور من أن المفاوضات الديبلوماسية لن تثمر طالما

---

(1) Dominique Paladilhe: La Grande Aventure des Croisades, P. 280.

ان الملك الكامل منهمك بخلافه مع ابن أخيه: الملك الناصر داود. عمد الى القوّة، لنيل غرضه، فجمع كل من يمكن جمعه من فرسان عكّا، وكتائب ألمانية وإيطالية وحجّاج وزوّار، وسار على رأسهم من عكا، على طول الساحل، حتى يافا، وتبعه رئيسا فرقتي الداوية والأسبتارية بيار دي مونتفي، وبرتراند دي تسّي، مع فرقتيهما عن كثب لحمايته من أي هجوم قد يشنه المسلمون عليه. ولدى وصوله الى يافا، أعاد الأمبراطور تحصين المدينة (منتصف تشرين الثاني ١٢٢٨م - ٦٢٦ واسوارها. وأثناء إقامته فيها، وردته أنباء سيئة من إيطاليا، مفادها بأن جيش البابا غريغوار التاسع، وعلى رأسه جان دي بريان، قد بدأ باجتياحِ ممتلكات الأمبراطور في صقلّية. فاهتمّ كثيراً للنبأ، ورأى نفسه واقعاً بين شرّين، شرّ فقدان مملكته في صقلّية إذا بقي في سوريا، وشرّ العار والفضيحة إن تخلّى عن مطلبه في استعادة بيت المقدس، ورجع الى بلاده بدون نتيجة. ومن هنا أصبح قلقاً، وفي عجلة من أمره لحسم الموقف. وقد أعانه الأمير فخر الدين على التخلّص من هذه الورطة فطلب اليه إعادة فتح المفاوضات بينه وبين الملك الكامل، فعسى ان تقترن بنتيجة إيجابية، نظراً للظروف التي يتخبط فيها هذا الأخير، ففعل وأرسل مبعوثين للملك الكامل هما: توماس داسرّا، وباليان صاحب صيدا، ليجريا معه المفاوضات بالصلح.

في ذلك الوقت كان الملك الكامل قد لحق بأخيه الملك الأشرف واشترك معه بحصار دمشق، لأرغام ابن أخيهما الملك الناصر داود على التسليم، (اوائل كانون الثاني ١٢٢٩م - ٦٢٧هـ). وإذ كان الملك الكامل يخشى قيام الأمبراطور فريدريك الثاني، بعمل عسكري كبير، بعد تحصينه مدينة يافا، فينال منه بالضرر، فقد وافق على إعادة فتح المفاوضات مع هذا الأخير، واستمرت تلك المفاوضات مدة قصيرة، توصّلا بنهايتها الى اتفاق في يافا، صُدّق رسمياً في ١٨ شباط

١٢٢٩م - ربيع الآخر ٦٢٧هـ، وهو يتضمّن عقد هدنة لمدة عشر سنوات، بالشروط الآتية:

أولاً: تسليم بيت المقدس وبيت لحم والناصرة الى الصليبيين شرط أن يبقى سور القدس خراباً ولا يعاد تجديده أو بناؤه، ويحتفظ المسلمون بالمسجد الأقصى وقبّة الصخرة (جامع عمر)، ويكون الحكم في الرساتيق الى والي المسلمين (الرساتيق: جمع رستاق، أي القرية والكور).

ثانياً: يكون على مُلك الصليبيين، القرى الممتدة على الطريق من القدس الى مملكة عكا الصليبية.

ثالثاً: يتعهد فريدريك الثاني، بمساعدة الملك الكامل ضدّ خصومه سواء أكانوا مسيحيين أو مسلمين، كما يتعهد الأمبراطور بالحيلولة دون الأمداد الصليبية، الى الأمراء الصليبيين بالشام مدة عشر سنوات ونصف[(١)]. وكان أن استغلّ أعداء الملك الكامل هذا الصلح للتشهير به، وخصوصاً الملك الناصر داود، فعقدت المجالس العامة في دمشق، وقام الأمام شمس الدين يوسف، (وهو سبط أبي الفرج ابن الجوزي) يخطب في الجامع الأموي، ويذكر فضائل بيت المقدس، وما حلّ بالمسلمين من تسليمه الى الأفرنج، فيستدرّ الدموع من أعين مستمعيه، وأخذ الأئمة والخطباء ينعتون الملك الكامل بالمنبوذ علناً[(٢)].

اما الصليبيون فلم يكونوا ايضاً راضين عن هذا الصلح، إذ كان من أشد الأمور عليهم، تعهّد فريدريك بمساعدة الملك الكامل، ومنع الأمداد الجديدة الى الأمارات الصليبية، مع أن تلك المعاهدة كانت لمصلحتهم، والواقع ان هذا الصلح جعل بيت المقدس مدينة مشتركة بين المسلمين والمسيحيين إذ احتفظ كل منهم بأماكنه المقدّسة. ولكن لم يكن مرضياً عنه لا من المسلمين ولا من الصليبيين، لأسباب مختلفة.

---

(١) ابو الفداء: ج(٦) صفحة ٤٠ - حوادث سنة ٦٢٦هـ.

(٢) ابو الفداء - ذات المرجع صفحة ٤٠ - ٤١.

ويقول رينه غروسّيه (René Grousset) في كتابه: ملحمة الحروب الصليبية صفحة ٣٣٣، عن الصلح المذكور [يقتضي التسليم بأن صلحاً كهذا يكشف على الأخص، سواء من ناحية السلطان، كما من ناحية الأمبراطور، عن روح تسامح، متقدّمة عن عصرهما](١).

ويقول المقريزي، إن الملك الكامل، كان يدّعي، تبريراً لموقفه، بأنه لم يتنازل للأفرنج إلاّ عن كنائس ومنازل متهدّمة.

ولما توجّه الأمبراطور فريدريك الثاني، الى القدس لزيارتها (١٧ أذار ١٢٢٩م - ٦٢٧هـ) استقبله فيها قاضي نابلس: شمس الدين، نيابة عن الملك الكامل، ورحّب به عامة الشعب المسيحي، وفي اليوم التالي وكان يوم أحد، دخل الأمبراطور كنيسة القيامة (Saint - Sépulere) ليجري الاحتفال بتنصيبه على عرش مملكة القدس اللاتينية، فرفض البطريرك جيرو (Géraud) الاشتراك بشعائر التنصيب، بحجة ان الأمبراطور محكوم بالحرمان من قبل البابا، ولكن فريدريك لم يأبه لذلك، فوضع التاج بنفسه على رأسه، بينما تقدّم رئيس فرقة التوتونيين: هرمان ڤون سالزا، بقراءة بيان باللغة الألمانية ثم بالفرنسية، حاول فيه تبرير سياسة الأمبراطور، والموقف الذي اتخذه تجاه المسلمين. وبعد تنصيبه، زار الأمبراطور، برفقة القاضي شمس الدين، الحرم الشريف، فأُعجب كثيراً بالمسجد الأقصى وقبّة الصخرة (مسجد عمر)، وفيما هو يطوف بالحرَم، شاهد قِسّاً مسيحياً، يدخل وبيده الأنجيل، ويبدأ بجمع الصدقات، فتقدّم منه فريدريك وصفعه على وجهه بقوّة حتى كاد يلقيه أرضاً وصرخ به [أيها الخنزير، إن السلطان منحنا، تطوّعاً منه، حق المجيء للزيارة وها أنت تقوم بجمع الصدقات، فاذا عاد أحدكم الى هذا العمل فسأعدمَه](٢). وكان يرافق الأمبراطور عند ذاك، أحد أساتذته

---

(1) René Grousset: L'Epopée des croisades. P. 333.

(2) René Grousset: L'Epopée des croisades P. 333.

وهو فيلسوف عربي مسلم من صقلّية، ساهم في الصلاة مع جمهور المسلمين. ويقول المقريزي، إن الأمبراطور فريدريك كان يصرّح، بأن غايته الأساسية من المجيء الى القدس [هي أن يشنّف أذنيه بسماع المسلمين، أثناء صلاتهم، يذكرون إسم الله في الليل].

كذلك كان الأمبراطور، عند اجتماعه بالأمير فخر الدين، يردّد دوماً أمامه، بأنه لم يكن ليطلب من السلطان استعادة مدينة القدس لولا خشيته من فقدان اعتباره لدى الأفرنج.

وهكذا بعد أن عقد الملك الكامل هدنته مع الأمبراطور، استطاع التشديد في حصار دمشق، حتى تمكّن من أخذها. وعوّض الناصر داود عنها، بالكرك والبلقاء والصَلت والأغوار والشوبك، ثم تنازل الناصر عن الشوبك للملك الكامل، فقبلها، وسُلّمت دمشق للملك الأشرف.

الفصل الثاني

الحرب الداخلية بين الصليبيين

ما إن أنهى الأمبراطور فريدريك الثاني زيارته لبيت المقدس، حتى تركها فوراً، وهو في غاية التأثر من عمل مندوب البطريرك، أُسقف قيسارية، الذي كان أعلن قبل ذاك، قرار الحرمان على المدينة: وعاد الى يافا. ومنها الى عكا (٢٣ آذار ١٢٢٩م) دون أن يهتم بتحصين القدس أو تقويتها كما كان يطلبه الأفرنج. ويلحّون عليه.

وحال وصوله الى عكا، دعا الأمبراطور الى اجتماع عام. عُقد بحضور رجال الدين والبارونات والحجّاج وعامة الشعب، حيث عرض على أسماعهم سياسته السلمية التي توصل بنتيجتها الى استرداد بيت المقدس، مدافعاً عن موقفه مع الملك الكامل، في المعاهدة التي أجريت في يافا، ومبرّراً تصرّفه بالحفاظ على السلام في المنطقة. وبعد ارفضاض الاجتماع، أعطى أوامره لجنده اللمبارديين، بضرب الحصار على مدينة عكا وإقفال ابوابها لمنع الدخول اليها والخروج منها، ومهاجمة معسكر فرقة الداوية وحصنها وإقامة الحراسة على البطريرك جيرولد، الذي اعتُبر قيد التوقيف في قصره، ومن ثم عمل على تدبير أمور المدينة، بنقل السلطة وتسليمها الى مناصريه من الألمان وجماعة التوتون.

وقد عاونه البيازنة المؤيدون للحزب الجبليني والموجودون في عكا، في الأجراءات التي اتخذها. ولكن حزب الغلف (Guelfe) تصدّى له، وقام دعاته وخطباؤه يندّدون في كنائس عكا، بسياسته الأسلامية،

ويحرّضون الشعب على الثورة ضدّه، فاستعمل القوّة، لأسكاتهم، على انه عاد وتدارك الأمر، حينما رأى ان الوضع يهدّد بالانفجار، فصالح أخصامه من نبلاء الفرنسيين، وخاصة جان ديبلن أو الأبليني، صاحب بيروت، فهدأت الحالة في المدينة. وإذ كانت الأخبار لا تفتأ تتوارد على الأمبراطور من إيطاليا فيما يتعلّق بثورة حزب الغلف، وإغارة جيش البابا، بقيادة جان دي بريان على صقلّية، فقد آثر التعجيل في العودة الى بلاده، ليكون عن كثب من الأحداث، فأبحر من عكا في اول ايار ١٢٢٩م - ٦٢٧هـ. وفي طريقه بحراً، عرّج على جزيرة قبرص، فأمضى بها وقتاً قصيراً، قبل أن يواصل سفره الى إيطاليا فحطّ الرحال فيها في ١٠ حزيران ١٢٢٩م.

لقد غادر فريدريك الثاني سوريا وفي اعتقاده أنه أحرز كسباً رائعاً للمسيحيين، بطريقة سلمية لم يحرزه ريشارد قلب الأسد، بجيشه القوي في حربه مع المسلمين، والواقع ان حصة المسيحيين من معاهدة يافا، كانت تنوف عن حصة المسلمين منها، ولهذا كان للأمبراطور أن يعتز ويفخر بحملته الصليبية السلمية، ولو أن اخصامه ومن جملتهم البابا، حاولوا التقليل من شأن تلك الحملة والنيل منه لسياسته الأسلامية، التي كانوا يرون فيها دليلاً على تفضيله الأسلام على المسيحية.

اما قرار الحرمان الذي كان أوقعه به البابا، فلئن لازمه بعض الوقت كالسيف المصلّت على رأسه (وهو لم يكن ليهتم به أو يأبه له)، الاّ انه استطاع التخلّص منه، بعقده مع البابا صلح سان جرمانو سنة ١٢٣٠م، ذلك الصلح الذي اعترف به البابا، للأمبراطور، بتحقيق كسب للمسيحية بفضله بحيث رفع قرار الحرمان بمقتضاه.

ومن الثابت أن الأمبراطور، بعد عودته الى الغرب، بقي على اتصال دائم مع الملك الكامل، سلطان مصر، بواسطة السفارات التي

كانت تتردد بينها. وفي سنة ١٢٣٢ م - ٦٣٠ هـ أرسل الملك الكامل للأمبراطور خيمة محكمة بدقّة، ومجهّزة جوانبها الداخلية بآلة تبيّن حركة السيارات والكواكب (كالقبّة الفلكية الأصطناعية الحديثة).

هذا وان الامبراطور فريدريك الثاني، كان قبل عودته الى الغرب، قد عهد بالوصاية على عرش قبرص. الى آموري بارلي وأربعة بارونات آخرين مخلصين له، وأناط بهم أيضاً الوصاية على الملك الصغير: هنري الأول دي لوزينيان.

وفي أثناء ممارسة هؤلاء الأوصياء لمهاتهم،اساؤوا معاملة أشياع حزب جان الأبليني، وحاولوا قتل الفارس الشاعر فيليب دي نوفار الممثل الرئيسي لهذا الحزب، فتمكن من الأفلات منهم واللجوء الى برج الداويّة، ولكنهم لاحقوه وحاصروه فيه، فما كان من جان الأبليني، عندما علم بهذا النبأ حتى هبّ مسرعاً من بيروت الى قبرص، حيث هاجم بجيشه، جيش الأوصياء على ملك وعرش قبرص، والتحم معهم بمعركة طاحنة بالقرب من نيقوسيا وتغلّب عليهم (١٤ تموز ١٢٢٩ م) فانسحبوا واحتموا بأحد الحصون، قرب سارين وهو حصن: إله الحب: (Dieu Damour) أو حصن: هاجيوس هيلا ريون، وكان الملك هنري الأول برفقتهم، فألقى جان، الحصار على الحصن، مدة عشرة أشهر الى أن سقط بيده واستسلم المحاصرون (منتصف شهر ايار ١٢٣٠ م) دون ان يتمكن الأمبراطور فريدريك الثاني، في هذه المدة، من مدّ يد المساعدة الى اولئك الأوصياء.

وبهذا النصر، استلم جان ديبلين حكم الجزيرة لحساب الملك هنري الأول إبن شقيقته، حتى بلوغ هذا الأخير سنّ الرشد سنة ١٢٣٢ م. على ان الامبراطور، ولئن لم يفعل شيئاً في قبرص، الاّ انه أرسل في شهر شباط ١٢٣١ م حملة عسكرية الى الشرق بقيادة ريكاردو فيلانجياري

مؤلفة من ستمائة فارس وسبعمائة من المشاة، بالأضافة الى ثلاثة آلاف من البحّارة، لتدعيم نفوذه في سوريا وقبرص، فتوجهت تلك الحملة، بطريقها، الى قبرص، فلم يسعفها الحظ بالنزول فيها، نظراً لتصدّي الجيش القبرصي لها، فأكملت طريقها الى بيروت، فاستولت على هذه المدينة دون قلعتها التي استعصت عليها لشدة مقاومة حاميتها، فترك قائدها قوة لمحاصرتها، وزحف من هناك على صيدا وصور وعكا، فاحتلّها جميعاً تباعاً، في حين كان جان ديبلن، يهرع الى قبرص لتحصينها وإقناع الملك هنري الأول دي لوزينيان، لمؤازرته ضد قائد الجيش الأمبراطوري؛ ولما تحقق من موقف الملك الأيجابي، عاد مع جيشه وأنزله جنوبي طرابلس (٢٥ شباط ١٢٣٢ م)، ومن هناك زحف على بيروت فاستعادها، ثم استعاد صيدا، ومن ثم أبحر الى عكا، بعد أن ترك جيشه في عهدة ابنه صاحب أرسوف.

وفي عكا اختير جان ديبلن، من قِبَل الأمراء والبارونات والتجار، الذين ألّفوا مجلساً بلدياً لحكم المدينة. رئيساً لهذا المجلس، يعاونه أعضاء بلديون في مهامّه، بحيث خرجت عكّا بحكم هذا التدبير والتغيير، من ممتلكات الأمبراطورية الفريدريكية.

وفي الوقت ذاته، كان القائد فيلانجياري، يهاجم قرب الناقورة جيش جان ديبلن، فيوقع به هزيمة شنعاء (٣ ايار ١٢٣٢ م). ثم يبحر الى جزيرة قبرص، ويتغلّب على اكثر معاقلها.

ولكن جان ديبلن، بعدما نظم أمور جيشه، لحق بفيلانجياري الى قبرص، وبرفقته الملك هنري الأول دي لوزينيان، حيث احتلاّ مرفأ فماغوستا (١٥ حزيران ١٢٣٢ م) ومن ثم اشتبكا مع القائد الأمبراطوري، بمعركة قوية، في أغريدي، بين نيقوسيا وسَرين، وانتصرا عليه فيها. فاضطر عند ذاك هذا الأخير، الى إخلاء الجزيرة (٣ نيسان

١٢٣٣ م). وفي سنة ١٢٣٦ م مات جان ديبلن، فخلفه إبنه البكر باليان الثالث في إمارة بيروت، والذي تمكن في سنة ١٢٤٣ م، من أخذ مدينة صور الباقية في يد الجيش الأمبراطوري، وإعطائها الى فيليب دي مونفورت (وكان فيليب قد اشترك مع باليان في انتزاع صور من يد جيش الأمبراطور].

الفصل الثالث

الأيوبيون وخلافاتهم

بعد أن استرد الملك الأشرف عاصمة ملكه (خَلاط) التي كان استولى عليها جلال الدين منكبرتي، وأخذ المغول ما كان بيد هذا الأخير من بلاد. وهدّدوا العراق والايوبيين في الجزيرة، وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى، لم يحاول الأيوبيون التحالف مع سلاجقة الروم لأبعاد خطر المغول عنهم: بل إن علاء الدين كيقباذ الأول بن كيخسرو بن قليج أرسلان، سلطان قونية، استغلّ الموقف الناجم عن مقتل جلال الدين المذكور لمنازعة الأيوبيين ملكية بلادهم، ذلك أن علاء الدين كان منذ سنة ١٢٣٠م - ٦٢٨هـ لا ينقطع عن مراسلة الأمبراطور فريدريك الثاني والبابا غريغوار التاسع، عارضاً عليهما المساعدة للاستيلاء على الأراضي المقدسة، ولكن الأمبراطور لم يأبه له[1]، وفي سنة ٦٣١هـ تعرّض علاء الدين الى بلاد (خلاط) للأستيلاء عليها، فاستعان الملك الأشرف بأخيه الملك الكامل، لدفع الخطر السلجوقي، فرحل الكامل من مصر بعساكره ونزل شمالي سلمية في شهر رمضان من السنة، وعمل على تجميع القوى الأيوبية حوله: فلبّاه كل من: الملك الأشرف موسى صاحب دمشق. والملك المظفر غازي صاحب ميافارقين، والملك الحافظ أرسلان شاه صاحب قلعة جعبر، والصالح اسماعيل أحد أولاد

---

(1) Jean Richard: le Royaume Latin de Jerusalem. P.P. 192 - 193.

الملك العادل: والملك المعظم توران شاه بن السلطان صلاح الدين (مرسل من قبل إبن أخيه الملك العزيز صاحب حلب مقدماً على عسكر حلب). والملك الزاهر صاحب البيرة: داود بن السلطان صلاح الدين وأخوه الملك الأفضل موسى صاحب سميساط ،ابن السلطان صلاح الدين، والملك المظفرّ محمود صاحب حماة، ابن الملك المنصور محمد: والملك الصالح أحمد بن الملك الظاهر. صاحب عينتاب، والملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل، صاحب الكرك، والملك المجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه، صاحب حمص، وغيرهم:

ولما تكامل جمع العسكر، سار الملك الكامل على رأسه ونزل على النهر الأزرق، قاصداً الأناضول (٦٣٢هـ - ١٢٣٤م). ولكنه لم يتمكن من الدخول الى بلاد الروم من هذه الناحية، نظراً لشدة حفظها بالرجال والمقاتلة. فأرسل بعض العسكر الى حصن منصور (من بلاد علاء الدين) فهدموه ثم مضى الملك الكامل وقطع الفرات ،الى السويدا . في حين سار الملك المظفر، بقوة تقدر بألفين وخمسمائة فارس، الى خرتبرت، حيث التقى علاء الدين، فاقتتلا، فانهزم المظفرّ، وانحصر في المدينة مع جملة من عسكره، وجدّ قيقباذ في حصارهم، والملك الكامل بالسويدا. عاجز عن التحرك لقتال هذا الأخير، لأن الملوك الذين في خدمته، تقاعدوا عن مؤازرته وخامر بعضهم عليه، وفسدت نياتهم، بسبب ما كان يروّجه شيركوه صاحب حمص، من إشاعات، مؤدّاها أن السلطان الكامل، يبيت النية لتجريد أهل بيته مما بأيديهم من الشام، وإعطائهم عوضاً عنه، ما قد يملكه من بلاد الروم، ليستأثر وحده بالشام جميعه، وينفرد بملك الشام ومصر. وعلم الكامل بذلك، فآثر التريث بالقتال وبقي في السويد!.

وإذ رأى الملك المظفر أن النجدة تأخرت عليه، طلب الأمان من كيقباذ، فأمنه وأطلقه هو ومن معه.واضطر الملك الكامل بعد ذلك، الى

التراجع عن الأناضول مما أتاح الفرصة لعلاء الدين، لاحتلال آمد وخرتبرت وحران والرها (٦٣٣ م)[١] وهي من املاك السلطان، الذي انثنى عزمه عن قصد بلاد الروم للتخاذل الحاصل في عسكره، فعاد الى مصر، وعاد كل واحد من الملوك الى بلده.

وبعد ذلك، توفي الملك الزاهر: وملك البيرة بعده ابن أخيه الملك العزيز محمد صاحب حلب. ولم يلبث الملك الكامل في مصر، الاّ بعض الوقت، فسار الى البلاد الشرقية، واسترجع حرّان والرها من يد كيقباذ، ثم مضى الى دمشق وأقام عند أخيه الملك الأشرف، الى أن عاد الى مصر.

وفي سنة ٦٣٤ هـ - توفي الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي إبن السلطان صلاح الدين، وكان عمره (٢٣) سنة، وبضعة شهور: فتقرّر الملك بعده في حلب، لولده الملك الناصر يوسف وعمره نحو سبع سنين وقام بتدبير الدولة شمس الدين لولو الأرمني وعز الدين عمر إبن مجلس وجمال الدولة إقبال الخاتوني، والمرجع في الأمور الى والدة الملك العزيز: ضيفة خاتون بنت الملك العادل.

كما توفي في هذه السنة، علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو صاحب بلاد الروم. وملك بعده، ابنه غيات الدين كيخسرو. وعلى إثر وفاة الملك العزيز صاحب حلب، اتفق الملك الأشرف مع ضيفة خاتون أخت الملك الكامل ومع باقي الملوك على منازعة الملك الكامل، خلا الملك المظفر، صاحب حماة. فلما امتنع هذا تهدده الملك الأشرف، فخاف وقدم الى دمشق موافقاً على القتال معه. وكاتب الملك الأشرف بذات الوقت، صاحب بلاد الروم: كيخسرو واتفق معه على قتال الملك الكامل، إن خرج من مصر.

---

(١) المقريزي: السلوك جزء(١) ص(٢٤٩) - وابو الفداء: جز(٦) ص.٥٥ و٥٦ و٥٨.

اما الناصر داود صاحب الكرك، فلم يوافق على الأَشتراك بالمؤامرة ضد الملك الكامل، مع أن هذا الأخير. كان ينفر منه، وألزمه مرتين بطلاق ابنته فطلقها. ولكنه رحل الى مصر وصار مع الملك الكامل على ملوك الشام فسُرّ به هذا، وجدد له العقد على إبنته وتدعى: عاشور، ووعده بمملكة دمشق، عندما ينتزعها من يد الأشرف (٦٣٤ هـ). في هذه الأثناء أغار الأفرنج على ربض: دربساك وهي لصاحب حلب، فهزمهم عسكر حلب، وأوقع بهم القتل والأسر.

وفي المحرم من سنة ٦٣٥ هـ - توفي الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك العادل، ولم يخلف من الأولاد الاّ بنتاً واحدة، تزوجها الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل. وقد خلفه في ملك دمشق، أخوه الملك الصالح عماد الدين اسماعيل صاحب بصرى، الذي، ما ان استقر في الملك بعهد من أخيه الراحل حتى كتب الى الملوك من أهله، وإلى كيخسرو صاحب بلاد الروم، يطلب منهم العون على أخيه الملك الكامل. لمنازعته في الحكم، فوافقوه على ذلك، الاّ الملك المظفر صاحب حماة. ولما بلغ الملك الكامل نبأ وفاة أخيه الملك الأشرف، ترك مصر مع جيشه وسار الى دمشق وألقى الحصار عليها وكان برفقته، الناصر داود صاحب الكرك (جمادى الأولى ٦٣٥) اما الملك الصالح اسماعيل،فقد استعد للحصار ووصلت اليه نجدات من حلب وحمص، ولكنه لم يصمد الاّ القليل في المقاومة، حتى استسلم لأخيه الكامل، فعزله هذا عن حكم دمشق وعوض عليه باقطاعات في بعلبك والبقاع وبصرى والسواد، وتسلم هو المدينة، ثم لم يلبث الملك الكامل أن توفي فيها على إثر مرض شديد (٩ رجب ٦٣٥ هـ) فخلفه في السلطنة، ابنه العادل الثاني، أبو بكر، وهو حينئذٍ نائب أبيه بمصر، وأقيم في دمشق،

الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل، نائباً عن الملك العادل أبي بكر[1].

وبعد وفاة الملك الكامل. هاجم الحلبيون، المعرة وأخذوها من الملك المظفر صاحب حماة. ثم نازلوا حماة وحاصروها، بقيادة المعظم توران شاه بن صلاح الدين، وطال حصارها ولم ينالوا منها، فرحلوا عنها، بأمر من ضيفة خاتون بنت الملك العادل. صاحبة حلب (٦٣٦ هـ) واتسع النزاع بين الأيوبيين، فقام الملك الصالح أيوب ابن السلطان الملك الكامل، وزحف على دمشق، يعاضده الملك المظفر صاحب حماة واستولى عليها بتسليم الملك الجواد يونس بن مودود، نائب الملك العاذل أبي بكر (جمادى الآخرة ٦٣٦ هـ). ثم خرج الملك الصالح أيوب من دمشق، طالباً مصر، ليستولي عليها، بعد أن أناب لحكمها، ولده الملك المغيث فتح الدين عمر، ولما وصل الى نابلس، بلغه أن عمه الصالح اسماعيل صاحب بعلبك، ومعه شيركوه صاحب حمص، استولى على قلعة دمشق واعتقل ابنه المغيث عمر، فرحل الى الغور وتخلى عنه أصحابه ومن معه من الملوك والأمراء، ففارقوه. ولم يبق بمعيته غير مماليكه وأستاذ داره حسام الدين بن أبي علي، فعاد الى نابلس بمن بقي، معه. فعلم الناصر داود بذلك. فنزل بعسكره الى هناك وأمسكه وأرسله الى الكرك سجيناً، وامتنع عن تسليمه لصاحب مصر، الملك العادل أبي بكر (٦٣٧ هـ)، الذي كان يلحّ بطلبه. وكانت زوجة الصالح أيوب شجر الدر، برفقته حينذاك.

---

(١) أبو الفداء - ج(٦) ص.٦١ و٦٢ و٦٣ - حوادث سنة ٦٣٤ - ٦٣٥.

الفصل الرابع

الحملة الصليبية الفرنسية

على إثر مبارحة ممثّلي الامبراطور، فريدريك الثاني بلاد الشام؛ بقيت مملكة عكا، بدون رأس يديرها، وهي مقسمة الى عدة ولايات إقطاعية صغيرة مستقلة؛ مما دعا البابا غريغوار التاسع، للقيام بالتبشير لحملة صليبية جديدة، في سبيل شدّ أزر الصليبيين في سوريا. ولتكون بالنتيجة على استعداد لمجابهة المسلمين، عند انتهاء أجل معاهدة الصلح المعقودة معهم لمدة عشر سنوات، بموجب صلح يافا لسنة ١٢٢٩م.

وقد استجاب لنداء البابا قسم كبير من النبلاء الفرنسيين منهم:

تيبو الرابع كونت دي شمبانيا ملك الناڤار، ودوق بورغونيا: هوج الرابع، وكونت بريتانيا: بيار موكلرك، والكونت هنري دي بار، وراوول دي سواسّون، وهنري دي غرانبري، وماتيو دي مونتمورنسي، وغليوم دي سنليز، وفيليب دي نانتيل، وريشارد دي بومونت، وكونت دي ماكون، وكونت دي شالون، وكونت دي نڤر - فوريز وكونت دي سانسِرّ، وكونت دي جوالي وغيرهم.

وقد أبحرت الحملة بقيادة ملك الناڤار: تيبو دي شمبانيا الرابع، من فرنسا، فوصلت الى عكا في أول أيلول ١٢٣٩م - ٦٣٧هـ.

في هذه الأثناء، علم الناصر داود صاحب الكرَك بوصول الصليبيين الى عكا، فانتهز الفرصة وهاجم مدينة القدس، فاستولى عليها، وألقى الحصار على قلعتها لمدة (٢١) يوماً فاستسلم الأفرنج المدافعون عنها،

فأرسلهم الى الساحل، (أواخر أيلول ١٢٣٩ م - ٦٣٧ هـ) ثم عمد الى هدم الأسوار والتحصينات التي أقامها الصليبيون في المدينة، خلافاً لمضمون معاهدة الصلح السابقة[١].

وقد قيل بهذه المناسبة:

المسجد الأقصى له آية ... سارت فصارت مثلاً سائرا
إذا غدا للكفر مستوطناً ... ان يبعث الله له ناصرا
فناصر طهّره أولاً ... وناصر طهّره آخرا

(إشارة الى السلطان الناصر صلاح الدين، والملك الناصر داود).

وما ان ترامى نبأ استيلاء الملك الناصر داود على القدس، الى مسامع الصليبيين في عكا، حتى اجتمع قادتهم للتداول بالأمر، وتقرير الموقف الواجب اتخاذه، بهذا الشأن. وانقسم الرأي بينهم، فمنهم مَن اقترح الزحف على مصر، ومنهم مَن رأى أن مهاجمة دمشق في البدء هي الأفضل، وبعد الأخذ، والردّ، قرّ رأيهم على التوجّه صوب عسقلان، بغية إعادة تحصينها، على أن تكون مركزاً لانطلاق الجيش الصليبي منها لاحتلال دمشق.

وفي الثاني من تشرين الثاني ١٢٣٩ م - ٦٣٧ هـ، ترك الصليبيون مدينة عكا باتجاه الجنوب، على طول الساحل الرملي؛ وفيما هم في سيرهم نحو غايتهم، علموا بوجود قافلة كبيرة محروسة، ذاهبة الى دمشق، وهي غير بعيدة عن خط سيرهم. فأسرع بيار موكِلرك والكونت دي سواسّون، على رأس مايتي فارس، الى اللحاق بها، ونصبوا لها كميناً وقعت فيه،

---

(١) أبو الفداء: المختصر، ج(٦) ص٦٧ - حوادث سنة ٦٣٧ هـ.

فتمكنوا من الاستحواذ عليها بعد معركة قصيرة، وعادوا بها ظافرين الى معسكرهم.

وفي ذلك الوقت، كان سلطان مصر قد أرسل جيشاً الى غزّة لمحاولة وقف زحف الجيش الصليبي على عسقلان؛ فأراد الصليبيون مباغته مقدّمة ذلك الجيش المصري، التي وصلت الى غزة حينذاك؛ فانفصل الكونت دي بار عنهم يرافقه أربعمائة فارس فيهم دوق بورغونيا، وأموري دي مونفورت وماتيو دي مونتمورنسي وفيليب دي نانتيل، وأود دي موبيليارد. وباليان صاحب صيدا، وغوتير دي بريان، وجان ديبلن صاحب أرسوف، واتجهوا نحو غزة عند هبوط الليل، فوصلوا في اليوم التالي الى قربها (١٢ تشرين الثاني ١٢٣٩م). وتوقفوا لتناول الطعام على بعض التلال المنزوية والمجاورة هناك، دون أن يلاحظوا وجود الجيش المصري، الذي كان يتتبع خطاهم ساعة فساعة، بالخفاء، بين الوادي والتلال المحيطة به، والذي راح يحاصرهم من جميع الجهات. حتى اذا تمّ له ذلك، أظهر نفسه فجأة على ضجيج الأبواق والطبول، وأخذ يرشقهم بسهامه؛ فحاولوا الكرّ بجيادهم لدفع المهاجمين، فما استطاعوا التحرّك. بسبب الرمال التي كانت تُغرق تلك الجياد وتمنعها من الكرّ. فكانوا هدفاً سهلاً لسهام المسلمين، الذين أبادوا قسماً كبيراً من هذه الفرقة الصليبية، وأسروا القسم الآخر، بحيث لم يخلص من الأسر منها، الا عدد ضئيلاً، تمكّن من الفرار وكان من ضمنه غوتير دي بريان ودوق بورغونيا وأود دي مونبليارد. كما كان من بين القتلى، الكونت دي بار، ومن بين الأسرى الفارس الشاعر فيليب دي نانتيل، أما عدد القتلى فكان (١٢٠٠) والأسرى (٦٠٠[1]). وبعد الخيبة التي أصابت الجيش الصليبي والفشل الذي مني به، لم يَسع قائده تيبو دي

---

(1) Jean Richard: le Royaume Latin de Jérusalem P. 25.

شمبانيا، سوى ترك عسقلان دون تحصين، والعودة الى عكا، ثم الرحيل منها الى صفورية في الجليل.

والواقع أن انتصار الجيش المصري على الصليبيين، بدلاً من أن يؤدي الى توحيد قوى المسلمين، عمل على تفريقها أكثر مما هي عليه من الفرقة، فاستفاد الصليبيون من هذه الحالة، كما سيتبين فيما بعد.

ذلك أن الملك الصالح أيوب، بعد أن أبقاه الملك الناصر داود في الأسر، لديه مدة طويلة، عاد فأطلقه واتفق معه على القيام بحملة مشتركة على مصر، لانتزاعها من يد العادل أبي بكر (آخر رمضان ٦٣٧ هـ)؛ وكان أساس هذا الاتفاق، أن يأخذ الصالح أيوب، مصر، والناصر داود، دمشق والبلاد الشرقية. وسارا معاً الى غزة متجهين نحو مصر. وفي ذلك الوقت بالذات، كان الاستياء من العادل قد بلغ أشدّه لدى قادة الجند والأمراء في مصر، (لكثرة تحجبّه واشتغاله باللّهو عن مصالح العباد). فثاروا به وقبضوا عليه، واستدعوا الملك الصالح أيوب ليحلّ محله في حكم مصر (وكان مقدّم المماليك الأشرفية: أيبك الأسمر، الذي قبض على العادل).

وبناء لهذه الدعوة، دخل الملك الصالح أيوب مدينة القاهرة وبرفقته الملك الناصر داود (أواخر ذي القعدة ٦٣٨ هـ - ١٩ حزيران ١٢٤٠ م) ليصبح سلطاناً على مصر، دون أن يضطر لفتحها عنوة.

وظل العادل في السجن حتى مات سنة ٦٤٥ هـ - وكان من جملة ما أُخذ عليه في حكمه - وتسبّب في عزله، أنه أدّى الشهادة لدى قاضي القضاة في مصر، شرف الدين محمد بن عين الدولة، في واقعةٍ، مراراً، والقاضي يسوّف، في قبول شهادته. فتفطنّ العادل لذلك فقال للقاضي: هل تقبلني أم لا؟ فأجابه هذا الأخير: لا أقبلك، وكيف أقبلك، وفلانة تطلع إليك بجنكها كل ليلة، وتنزل ثاني يوم سكرى، على أيدي

الجواري، وتنزل فلانة من عندك أكثر خلاعة من الأولى، فتناوله العادل بالشتم، فردّ القاضي عليه كلامه في وجهه، فعزله العادل ثم رجع الى نفسه، فخشي أن تردّ شهادته بسبب فسقه، ويعرف به الناس، فذهب بنفسه الى منزل القاضي وترضّاه وأعاده الى القضاء.

وبعد أن استقرّ الملك الصالح أيوب في مصر، كان أول ما فعله، هو القبض على أيبك الأسمر، مقدّم المماليك الأشرفية، وغيره من الأمراء المماليك، الذين أقدموا على خلع أخيه العادل، وإيداعهم السجون، ليقيم محلهم، مماليكه الموثوق بهم.

في ذلك الوقت كان الخوارزمية، يعيثون فساداً في البلاد الشرقية بعد مفارقة الملك الصالح أيوب لها، فقصدوا حلب، فخرج إليهم عسكر المدينة مع الملك المعظم تورانشاه بن صلاح الدين، فهزموه وأسروا المعظم، وقُتِل الملك الصالح بن الملك الأفضل بن السلطان صلاح الدين مع خلق كثير من الحلبيين، وبعدها ساروا الى منبج وهاجموها بالسيف (ربيع الأول ٦٣٨ هـ) وقتلوا أهلها ونهبوها؛ وكان الملك الصالح اسماعيل، المستولي على دمشق، قد أرسل نجدة للحلبيين، على رأسها الملك المنصور ابراهيم بن شيركوه، صاحب حمص (وكان والده شيركوه قد توفي سنة ٦٣٧ هـ)، لملاحقة الخوارزميين، فالتقاهم، قرب الرها، بعد أن قطعوا الفرات، فنشبت بينه وبينهم معركة شديدة انهزموا على إثرها، وقُتل وأسر منهم عدد كبير؛ ثم لحق بهم الى حرّان (وهي بلادهم) فاستولى عليها، فهربوا منها (٩ رمضان ٦٣٨ هـ).

وكان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، قد مضى الى نصيبين ودارا، وهما للخوارزمية، فاستولى عليهما، وخلص مَن كان بهما من الأسرى ومنهم الملك المعظم تورانشاه ابن السلطان صلاح الدين، فحمله بدر الدين الى الموصل، ثم بعث به الى حلب، واستولى عسكر حلب على الرقة

والرها وسروج ورأس عين وغيرها، كما استولى صاحب حمص، المنصور إبراهيم على بلد الخابور.

وبعدها أقدم عسكر حلب، بالاتفاق مع نجدة من الروم انضمت إليهم، على محاصرة الملك المعظم ابن الملك الصالح أيوب بآمد، وتسلموها منه، وتركوا له حصن كيفا وقلعة الهيثم[1].

لم يكن تملّك الصالح أيوب لمصر، الاّ ليزيد الخلاف حدّة بين العائلة الأيوبية التي انقسمت على نفسها، ما بين مؤيد له، ومؤيد للصالح اسماعيل، إذ كان كل فريق يخشى على نفسه من الآخر، فيدس الدسائس عليه، ويحاول في كل مناسبة، النيل منه.

وقد كان الصليبيون على علم بتلك الخلافات، بين الأيوبيين، فحاولوا استغلالها لمصلحتهم، وكان الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل، كبش المحرقة فيها، فأنه لما فقد كل ما كان بيده من بلاد، ورفض الصالح أيوب استقباله في مصر، التجأ الى عكّا وأقام مع الأفرنج؛ فأرسل الصالح اسماعيل صاحب دمشق، يطلب الى هؤلاء تسليمهم إياه لقاء بعض المال،.بذله لهم، فوافقوا على ذلك وسلّموه إياه، فاعتقله ثم قتله خنقاً.

وجرت المخابرات بين تيبو دي شمبانيا وبين صاحب حماة الملك المظفر تقي الدين، في سبيل التحالف ضد صاحب حمص، وصاحبة حلب، ضيفة خاتون، وكان ذلك بواسطة أحد رجال الدين من المبشرين الأفرنج ويدعى غليوم، وهو صديق حميم لصاحب حماة في الوقت الذي كان فيه الملك الصالح اسماعيل، يطلب من الصليبيين مساعدته على أخصامه، فتوصل بالنتيجة الى عقد اتفاق مع قائد حملة الصليبيين، تيبو المذكور، يتضمن تعاون الأفرنج والدمشقيين معاً للعمل على قطع

---

(١) أبو الفداء: ج(٦) ص.٧٠ - ٧١ - حوادث سنة ٦٣٨ هـ.

الطريق، من يافا أو عسقلان، على الجيش المصري، في حال مسيرته الى سوريا، وذلك مقابل تعهد ملك دمشق بأعادة جميع الأراضي الواقعة وراء صيدا حتى الليطاني، الى الأفرنج، بالإضافة الى حصن الشقيف (أرنون)، وجميع أراضي الجليل، بما فيها طبرية وصفد، مع الوعد باعادة مملكة القدس القديمة لهم ما عدا النواحي الواقعة شرقي الأردن[1].

وعندما تمنع المدافعون عن تسليم الشقيف (أرنون) للأفرنج أرغمهم الملك الصالح اسماعيل على تركه بالقوة. وضجّ المسلمون وثاروا لهذا الاتفاق، في مصر والشام، على الصالح إسماعيل لتفريطه ببلادهم، ويقول أبو الفداء: (وأكثر الشيخ عز الدين بن عبد السلام التشنيع على الصالح اسماعيل بسبب ذلك؛ وكذلك جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب، ثم خافا من الصالح اسماعيل، فسار عز الدين بن عبد السلام الى مصر، وتولّى بها القضاء كرهاً، وسار جمال الدين بن الحاجب الى الكرَك، وأقام عند الملك الناصر داود صاحب الكرك ونظم له مقدمته الكافية في النحو، ثم بعد ذلك سافر إبن الحاجب الى الديار المصرية[2]).

وكان من نتيجة هذا الاتفاق أيضاً، أن انسحب الجنود الدمشقيون، من جيش الحلفاء وانضموا الى الجيش المصري؛ مما اضطر الأفرنج الى الانكفاء نحو عسقلان.

ومع ذلك، فقد عرض الصالح اسماعيل على الصليبيين، مهاجمة مصر معاً لانتزاعها من يد الصالح أيوب؛ الاّ أن تيبو دي شمبانيا، قائد الحملة الصليبية، بضغط من مقدّم الاسبتارية، رفض ذلك العرض، وراح يفاوض الملك الصالح أيوب ويعقد معه معاهدة، هدفت الى إطلاق

---

(١) المقريزي: السلوك. ج(١) ص - ٣٠٣ - وايضاً:

- Jean Richard: Le Royaume Latin de Jerusalem P. 252.

(٢) - المختصر في اخبار البشر: ج(٦) صفحة ٧١ - حوادث سنة ٦٣٨ هـ.

- والمقريزي: السلوك، ج(١) ص - ٣٠٤ - ٣٠٨.

سراح الأسرى الأفرنج الذين وقعوا في معركة غزّة المشار إليها آنفاً (١٢٤٠م - ٦٣٨هـ).

غير أن بارونات سوريا وفرقة الداوية لم يرضوا بتلك المعاهدة. وفي أواخر أيلول ١٢٤٠م، أبحر تيبو دي شمبانيا مع القسم الأكبر من جيشه، من عكّا، الى بلاده. بينما بقي في سوريا، هوج الرابع، دي بورغونيا، والكونت دي نفر فوريز، حيث عمل هوج الرابع على إعادة بناء أسوار مدينة عسقلان.

وكانت حصيلة هذه الحملة الصليبية أن أعيدت الى الصليبيين، جميع ممتلكاتهم السابقة تقريباً، مع أنهم لم يحرزوا أي نصر عسكري في حملتهم، ضد المسلمين.

الفصل الخامس

الحملة الصليبية الأنكليزية واحتلال القدس من قبل المسلمين

في الوقت الذي غادرت فيه الحملة الفرنسية، مدينة عكا، قدمت حملة صليبية أخرى الى هذه المدينة، يقودها ريشارد دى كورنواي شقيق ملك الأنكليز، وصهر الأمبراطور فريدريك الثاني (زوج اخته) (١١ تشرين الأول ١٢٤٠ م). وفور وصوله، عمد ريشارد الى محاولة إصلاح ذات البين بين مختلف الأحزاب في عكا فلم يوفق، بل اختلف بدوره، مع أركان فرقة الداوية، وبارونات سوريا، وهذا ما دفعه للذهاب الى عسقلان حيث قام مع هوج الرابع دي بورغونيا، بأكمال بناء اسوارها (اذار ١٢٤١ م - ٦٣٩ هـ) وتسليمها الى ممثل الأمبراطور فريدريك الثاني: غويتردي بنانبيه. (Penanpié)

هذا وكان السلطان الصالح أيوب، قد أرسل يعرض على ريشارد دي كورنواي. عقد معاهدة، تكون مكملة للمعاهدة السابقة المعقودة في سنة ١٢٤٠ م- بحيث تتضمن اعتراف الصالح أيوب بما كان الصالح اسماعيل قد تنازل عنه للصليبيين من ممتلكات، أي أن تصبح مملكة القدس، شاملة كل منطقة الجليل، وضاحية يافا وعسقلان، وكل ناحية القدس، وبيت لحم ومجدل يابا، ما عدا نواحي نابلس والجليل وبيسان حتى أريحا. فتبقى بيد المسلمين، فوافق ريشارد على ما عرضه عليه مبعوثو السلطان بعد أن استشار غوتيردى بريان وهوج دى بورغونيا ومقدم

الاستبارية، وعقدت المعاهدة في (٢٣ نيسان ١٢٤١م - ٦٣٩هـ) وكعادتهم، لم يقبل الداوية عقد هذه المعاهدة مع المصريين، لانها لا تتفق ورغباتهم.

وفي الثالث من أيار ١٢٤١م، عاد ريشارد دي كورنواي الى بلاده، دون أن يتوصّل الى إحلال السلام محل الخصام بين مختلف الأحزاب الصليبية، وكأن حملته هدفت الى مسالمة المسلمين لا الى حربهم، وكانت على الطريقة الفريدريكية.

بعدما أعلن الداوية رفضهم للصلح مع المصريين، أقدموا على غزو ناحية الخليل (Hébron) التابعة للملك الناصر داود، فقابلهم هذا بالمثل وغزا ممتلكاتهم: فما كان منهم إلاّ أن اجتاحوا نابلس ونهبوها. (٣٠ تشرين الأول ١٢٤٢م - ٦٤٠هـ) . عند ذاك أرسل السلطان الصالح أيوب جيشاً من مصر، لحصار يافا، ولكن وقفت الحرب عند هذا الحدّ. الا أن الخلاف اشتد بعد ذلك بين الملك الصالح ايوب سلطان مصر من جهة وبين الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق وملك الأردن الناصر داود من جهة ثانية، فاستعان الناصر داود بالصليبيين مقابل إعطائهم الحرم الشريف بما فيه المسجد الأقصى وقبة الصخرة، كما تقدم الصالح أيوب في الوقت ذاته، بنفس العرض طالباً منهم التحالف معه ضد اخصامه أي ان كلاً من الاثنين أظهر تنازله للصليبيين عن الأماكن المقدسة الأسلامية نكاية بالآخر، ففضل هؤلاء التفاهم مع سلطان مصر. وقبلوا عرضه، (١٢٤٣م - ٦٤١هـ). وتسلم الداوية تلك الأمكنة، كما كانوا في السابق[١].

وحينما علم البابا إينوسنت الرابع بهذا الخلاف بين الأيوبيين والتنازل الذي قدموه للصليبيين، عن بعض أملاكهم، عمد الى

(1) Jean Richard: le Royaume Latin de Jérusalem P. 254.

الاستفادة من هذا الوضع فكتب الى بطريرك القدس، يطلب منه فرض ضريبة على الأفرنج في سوريا، للعمل على إعادة بناء اسوار مدينة القدس..

على أن الأمور لم تقف عند هذا الحدّ، فقد عاد الخلاف يذرّ قرنه بين الافرنج مع بعضهم البعض وبين المسلمين مع بعضهم أيضاً، بحيث إن الداوية وحلفاءهم الغلف (Guélfes). اتفقوا مع ملك دمشق الصالح اسماعيل، وملك الأردن الناصر داود، وملك حمص المنصور إبراهيم على أن يكونوا جميعاً ضد سلطان مصر الصالح أيوب. وقد تعهد الملوك المسلمون الثلاثة المتحالفون، بأعطاء الصليبيين جزءاً من مصر، بعد الاستيلاء عليها. فكان لا بدّ عندئذ من أن يستعين الصالح أيوب، بأصحابه السابقين، الخوارزمية، المرابطين في بلاد ما بين النهرين، للدفاع عن بلاده. فهبّوا مسرعين لنجدته، وعديدهم عشرة آلاف مقاتل،وبطريقهم الى غزة، أغاروا على المدن والقلاع التي صادفتهم، واستولوا على طبرية فنابلس ومنها قصدوا بيت المقدس، وهاجموها، فقاومهم الأهالي، في البدء، ولكنهم لم يستطيعوا الثبات والصمود، ولم يتلقوا معونةمن أحد، فتوسطوا الملك الناصر داود للخروج منها، فسعى الى ذلك وخرج الأفرنج من القدس (في ٢٣ آب ١٢٤٤م ٦٤٢هـ) وعددهم يقرب من السبعة آلاف شخص لم يصل منهم الى يافا سوى (٣٠٠)، فيما هلك الباقون. الذين لاحقهم الخوارزميون والأهالي المسلمون، فقضوا عليهم قبل وصولهم الى الساحل. وفي هذه الأثناء كان السلطان الصالح أيوب. قد أرسل جيشاً، بقيادة المملوك ركن الدين بيبرس. الى غزةّ للاجتماع بالخوارزميين، فلاقوه هناك (تشرين الأول ١٢٤٤م ٦٤٢هـ). ولكن قوات الحلف الصليبي الشامي المؤلفة من جيش الملك المنصور ابراهيم صاحب حمص وصحبته جيش دمشق، وجيش الناصر داود صاحب الكرك بالأضافة الى جيش الصليبيين، تقدمت باتجاه

الجيش المصري وحلفائه الخوارزمين وهاجمتهم قرب غزة، بعد أن كان انسحب منها جيش دمشق وانضم الى جيش مصر، ودارت معركة طاحنة بين الفريقين، قضي فيها على الجيش الصليبي- الأسلامي المتحالف. وكان بين القتلى رئيس فرقة الداوية، وبين الأسرى، رئيس فرقة الأستبارية، وغوتير دى بريان صاحب يافا (١٧ تشرين الأول ١٢٤٤م ٦٤٢ هـ). وهذه المعركة يسميها الافرنج معركة: (Forbie) ويقدر بطريرك القدس، الذي نجا من المعركة. في كتاب أرسله الى البابا، خسارة الصليبيين، بحوالي (١٦٠٠٠) قتيل، ما عدا الجنود المرتزقة ال: (Turcoples)

اما ملك حمص فقد خسر من جهته (١٧٢٠) جندياً. والواقع أن خسارة الجيش الصليبي، كانت فادحة جداً إذ ان كافة القوات الأفرنجية التابعة لملك قبرص وأمير أنطاكيه - طرابلس ومطران اللدّ، وصاحب يافا، وأسقف صور وصاحب حيفا، وفرسان القديس لازار، وفرسان التوتون، وفرسان الداوية، وفرسان الأسبتارية، قد سُحقت بكاملها تقريباً وقُتل وأسر أغلب رؤسائها. مما أدّى الى فراغ كبير في مملكة القدس كانت له عواقبه فيما بعد. وبعد هذه المعركة القاصمة، سيق الأسرى الصليبيون الى القاهرة، تتقدمهم رؤوس القتلى الذين سقطوا في ساحة الوغى. وكان اليوم الذي عُرض فيه الأسرى هؤلاء في العاصمة المصرية الكبيرة بشوارعها وأبنيتها، يوم عيد للمصريين، فعُلِّقت رؤوس القتلى على أبواب القاهرة. أما الأسرى فقد كانوا نزلاء السجون لكثرتهم.

يقول ابو الفداء بصدد هذه الموقعة: [في هذه السنة، أي سنة ٦٤٢ هـ وصلت الخوارزمية الى غزة باستدعاء الملك الصالح أيوب، لنصرته على عمه الصالح اسماعيل. وكان سيرهم على حارم والروج الى أطراف بلاد دمشق، حتى وصلوا غزة. ووصل اليهم عدة كثيرة من العساكر المصرية، مع ركن الدين بيبرس مملوك الملك الصالح أيوب.

وكان من أكبر مماليكه ،وهو الذي دخل معه الحبس ، لما حُبس في الكرك. وأرسل الملك الصالح اسماعيل عسكر دمشق مع الملك المنصور إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص. وسار صاحب حمص جريدة ودخل عكا، فاستدعى الفرنج على ما كان قد وقع عليه اتفاقهم، ووعدهم بجزء من بلاد مصر. فخرجت بالفارس والراجل. واجتمعوا ايضاً بصاحب حمص وعسكر دمشق والكرك، ولم يحضر الناصر داود ذلك. والتقى الفريقان بظاهر غزّة، فولّى عسكر دمشق وصاحب حمص ابراهيم والفرنج منهزمون. وتبعهم عسكر مصر والخوارزمية، فقتلوا منهم خلقاً عظيماً. واستولى الملك الصالح أيوب صاحب مصر على غزة والسواحلَ والقدس. ووصلت الأسرى والرؤوس الى مصر ودقت بها البشائر عدة أيام]. [1].

وكان من نتائج هذه المعركة أن تمكن الملك الصالح أيوب، من أخذ القدس والخليل وبيت جبريل (جبرين) والأغوار، من يد الناصر داود. كما ان عسكر مصر في الشام والخوارزمية، قاموا بعد ذلك، بمحاصرة دمشق، وكان الملك الصالح أيوب قد أرسل باقي عسكر مصر، مع معين الدين الحسن ابن شيخ الشيوخ، فاجتمع بهم، قبل وصولهم للمدينة، وتعاون الجميع على محاصرتها، وبها ملكها الصالح اسماعيل، والمنصور ابراهيم بن شيركوه صاحب حمص واستمر الحصار عليها الى أن أرغم الصالح اسماعيل والمنصور ابراهيم على تسليمها، بعدما تخلى الحلبيون عنها وقلت الميرة بالقلعة (٤٦٣ هـ) فدخلها الصاحب معين الدين الحسن ابن شيخ الشيوخ قائد القوات المصرية العام، مع جيشه وبذلك أعاد الصالح أيوب وحدة مصر مع الشام.

وكان من شروط التسليم أن يعوّض الصالح اسماعيل عن دمشق،

---

(١) المختصر: ج(٦) ص - ٧٥ - حوادث سنة ٦٤٢.

ببعلبك وبصرى والسواد، ويكون للمنصور ابراهيم، حمص وتدمر والرحبة[١].

واتفق بعد تسليم دمشق أن معين الدين ابن شيخ الشيوخ مرض وتوفي فيها، وكان حسام الدين بن أبي علي الهذباني أحد قادة عسكر مصر، قد وصل إليها، فعيّن نائباً عليها من قبل السلطان الصالح أيوب.

ثم إن السلطان الصالح أيوب، أباح للخوارزمية الاستقرار بالشام وبالتالي مناجزة الصليبيين والأغارة على بلادهم لمنعهم من تحويل انظارهم الى مصر، فما لبثوا أن أخذت جموعهم تغير على ممتلكات الأفرنج ووصلوا الى عكا. ولكنهم عادوا وقلبوا ظهر المجن للصالح أيوب، وخرجوا عن طاعته. بحجة أنه تمنّع عن مقاسمتهم البلاد، ولم يتركهم يدخلون دمشق، وراحوا يعتدون على ممتلكاته، فنهبوا داريا، وصاروا مع الملك الصالح اسماعيل، وانضم اليهم الناصر داود صاحب الكرك، واتصلوا بالأمير ركن الدين بيبرس وكان في غزة واستمالوه إليهم ثم ساروا الى دمشق فحاصروها، وبقي حصارهم عليها لمدة ثلاثة أشهر، حتى مات كثير من الناس جوعاً وهلك اكثر من الوباء، وقاسى أهل المدينة شدة عظيمة لم يسمع بمثلها، كما يقول أبو الفداء وأبو شامة، وقام حسام الدين بن أبي علي الهذباني، بحفظ دمشق أتم قيام، ولم يترك الخوارزمية ينالون منها.

اما الناصر داود ملك الأردن والكرك، والصالح اسماعيل، طريد دمشق، فقد انتهزا فرصة محاصرة دمشق، وعمدا للانتقام من الصالح ايوب، فاجتاحا ممتلكاته واستعادا نابلس والخليل وبيت جبريل (جبرين) والأغوار، التي كان انتزعها من يد الناصر داود.

---

(١) - المقريزي: السلوك. ج(١). ص٣٢١ - وابو الفداء: المختصر: ج(٦) ص.٧٥ - ٧٧ - حوادث ٦٤٢ - ٦٤٣ هـ.

على أن السلطان الصالح أيوب، لم يتطرّق اليه اليأس على إثر هذه الحوادث بل لجأ الى السياسة والتدبير، للخروج من هذه المحنة، فعمل على استمالة الحلبيين، ومسايرة المنصور ابراهيم ملك حمص، فحالفوه، وقبض على الأمير ركن الدين بيبرس، بعد أن استدعاه الى مصر وقتله، لمالأته الخوارزمية، ثم انه طلب من حلفائه، مدّ يد المعونة لدمشق، فتوجّه الحلبيّون والحماصنة لنجدتها، فتركت الخوارزمية حصارها وقابلوا هؤلاء بين بعلبك وحمص، ونشبت بينهم معركة فاصلة أسفرت عن انتصار حلفاء الصالح أيوب وانهزام الخوارزمية هزيمة ساحقة (٢٠ أيار ١٢٤٦م - ٦٤٤هـ) فتشتت شملهم، ولم تقم لهم قائمة بعدها، وقُتل مقدّمهم حسام الدين بركة خان وحمل رأسه الى حلب. ومضت طائفة منهم، مع مقدّمهم كشلو خان الخوارزمي، فلحقوا بالتتر (المغول) وانضموا اليهم، وانقطع منهم جماعة وتفرّقوا بالشام، وخدموا به.

ولما وصل خبر هزيمة الخوارزميه الى السلطان الصالح أيوب في مصر فرح كثيراً. واما الملك الصالح اسماعيل فانه عند ذاك، خاف على نفسه والتجأ الى حلب مستجيراً بصاحبها، الملك الناصر يوسف، الذي امتنع عن تسليمه الى الصالح أيوب عندما طلبه منه.

وكان أولاد الصالح إسماعيل في بعلبك، فمضى اليها نائب دمشق حسام الدين بن أبي علي الهذباني، وحاصرها ثم تسلمها بالأمان. وحمل اولاد الصالح اسماعيل الى السلطان في مصر فاعتقلوا هناك. هم وأمين الدولة الوزير، وناصر الدين يغمور استاذ دار الصالح اسماعيل [١]. واما الملك الناصر داود، صاحب الأردن، فأنه خسر جميع ممتلكاته ولم يعد له سوى الكرك إذ استولى عليها الأمير فخر الدين يوسف ابن الشيخ، من قبل السلطان الصالح أيوب.

---

(١) - ابو الفداء: المختصر. ج(٦) ص - ٧٨ - حوادث سنة ٦٤٤هـ.

في تلك الأثناء، كان البابا إينوسنت الرابع أرسل كتاباً للسلطان الصالح أيوب، يطلب منه الأتفاق على عقد هدنة بين المسلمين والصليبيين، فكان ردّ السلطان، المرسل حسب الأصول الديبلوماسية، في غاية اللباقة، (٣ حزيران ١٢٤٥ م ٦٤٣ هـ) إذ هو يوافق فيه على ما يطلبه البابا من صلح، لكنه يريد أن تجري المفاوضات لهذ الغاية مع المسيحيين،بواسطة الأمبراطور فريدريك الثاني، عملاً بأحكام معاهدة يافا لسنة (١٢٢٩م) وليس بواسطة أحد سواه.

ولم يكن جواب السلطان ليرضي البابا، ذلك لأن الأمبراطور هو عدوهّ الأكبر وهو الذي كان يعمل على منع ارسال المؤن، والجنود الى سوريا، كما ان مقدمي فرقتي الداوية والأستبارية، حاولا التفاوض مع السلطان الصالح أيوب، لا فتداء رجالها من الأسر، فأفهمها هذا الأخير، بأنه مستعدّ لأجابة طلبها، فيما لو أيده الأمبراطور فريدريك، ولأطلاق الأسرى في هذه الحالة، مجاناً بدون مال: فلم يقبلا بذلك، نظراً لما يمثله الأمبراطور لدى مسيحيي سوريا من خيانة بتحالفه مع المسلمين، حسب نظرتهم اليه[1]. ولم تكن الخلافات بين البابا وبين الأمبراطور فريدريك الثاني، والمتصاعدة أبداً، إلاّ لتساهم في شلّ أعمال الأغاثة التي يحتاجها صليبيو سوريا من الخارج، يضاف الى ذلك، تجدد الخصومات بين الغلفيين (guelfes) والجبلينيين (gibelins) مما دعا البابا إينوسنت الرابع إلى الاعتراف بتجريد الأمبراطور فريدريك من ممتلكاته في سوريا من قبل الصليبيين.

ففي سنة ١٢٤٧ م وافق البابا على حلّ ملك قبرص هنري، من يمين التابعية للأمبراطور فريدريك الثاني. والتي كان حلفها له سابقاً (وهكذا صارت قبرص تابعة للبابوية). وفي ١٧ نيسان ١٢٤٧م اعترف البابا بملك قبرص سيداً لمملكة القدس..

(1) Jean Richard: Le Royaume Latin de Jerusalem, P. 263.

وكذلك في ٢٥ ايار ١٢٤٨م طالب البابا، بطرد توماس داسّرا ممثل الأمبراطور في طرابلس، من البلاد. كما عمد البابا الى إعطاء الأوامر بمنع السفن البيزانية من الدخول الى مرفأ عكا تحت العلم الأمبراطوري. وكان لا بدّ للسلطان أيوب، من استغلال هذه العوامل الداخلية التي تفرّق بين الصليبيين فعمد الى إرسال قوّة بقيادة الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ المحاصرة قلعة طبرية، فاستولت عليها في ٧ حزيران ١٢٤٧م ٦٤٥هـ ثم حاصرت عسقلان التي كانت في حمَى الاسبتارية، من البرّ والبحر.

كانت هذه المدينة قوية التحصين: وطلب الأستبارية معونة ملك قبرص، فأنجدهم بمائة فارس قبرصي، تحت قيادة: بودوان ديبلن، أو الأبليني وبأسطول مؤلف من تسع سفن، انضم اليه اسطول سوري يقوده جان ديبلن صاحب أرسوف. وقد هبّت عواصف شديدة اثناء حصار عسقلان فاضطر الأسطول المصري البالغ عدد سفنه (٢٤). الى الآلتجاء للساحل بينما انسحب الأسطولان السوري والقبرصي الى ميناء عكا لاتقاء تلك العواصف على ان الجيش المصري المحاصر للمدينة من البر: تمكن من جهته من حفر نفق طويل تحت القلعة، والأنطلاق منه، لمباغتة المدافعين عنها واحتلالها (١٤ تشرين الأول ١٢٤٧م ٦٤٥هـ).

وقد بادر قائد القوة المصرية الى تدمير تحصينات المدينة المفتوحة، والتي كان أقامها هوج دى بورغونيا وريشارد دى كورنواي سابقاً وذلك كيلا يتخذها الصليبيون مرة أخرى قاعدة للهجوم على المسلمين[1].وكان من نتيجة انتصارات السلطان الصالح أيوب، أن أخذت حدود مملكة القدس اللاتينية تضيق فيما شملت وحدة الدولة الأيوبية مصر ودمشق وبيت المقدس وحلب والجزيرة العليا.

(١) أبو الفداء: المختصر: ج(٦). ص٧٩ - حوادث سنة ٦٤٥هـ.

ولما حضر السلطان الى الشام زار القدس سنة ٦٤٧ هـ وأعاد تجديد حصونها، وتوافد اليه الملوك والأمراء لاعلان ولائهم له، ومنهم ملك حماة المنصور الثاني وملك حمص الأشرف موسى.

الجزء الثامن

الفصل الأول

الحملة الصليبية السابعة

منذ إعلان الصلح الذي جرى بين السلطان صلاح الدين الأيوبي، وبين ملك الانكليز، ريشارد قلب الأسد، وتوافد المسيحيين لزيارة بيت المقدس، واختلاطهم بالمسلمين، أخذت النفوس تهدأ، والتعصّب الذميم يتبخّر منها، نتيجة للتساهل الذي ناله المسيحيون من قبل المسلمين، بعد ذلك الصلح، فصار كل من الفريقين، ينظر الى الآخر، نظرة تختلف عن نظرته السابقة إليه، ويبادله الاحترام.

وثمة عوامل أخرى كثيرة، منها إنسانية، ومنها اقتصادية، ومنها اجتماعية ومنها ثقافية، ساهمت جميعها في العمل على تخفيف حدّة التوترّ بين المسلمين والمسيحيين، بحيث لم يعد للدعوات الصليبية التي كانت البابوية تفرضها على مسيحيّي أوروبا من حين إلى آخر، أثر كبير مُلزم. فبدلاً من أن يأتي الصليبيون الى سوريا لاسترداد بيت المقدس، في الحملة الرابعة التي دعا إليها البابا إينوسنت الثالث، يمّموا وجههم صوب القسطنطينية، عاصمة البيزنطيين لاحتلالها ونهب ثرواتها، وتأسيس مملكة لاتينية فيها سنة ١٢٠٤م، دون أن يعبأوا بتهديدات البابا، وبقرارات الحرمان الصادرة عنه بحقهم؛ ذلك أن الصليبيين فضلوا الاستحواذ على ثروة القسطنطينية عوضاً عن الاستيلاء على القدس، أي أنهم، فضلّوا قضيّتهم المادية على القضية العامة الروحية.

يقول ميلهاردوان، الذي أرّخ هذا الفتح، يصف نهب القسطنطينية

من قبل أولئك الصليبيين [كانت الغنائم كبيرة، لدرجة أن أحداً لم يكن يعرف ما هي كميات الذهب والفضة والأحجار الثمينة، والأقمشة الحريرية وسواها، التي وُجدت عند النهب، حقاً لم يغنم أحد منذ بدء الخليقة، من مدينة ما، مثل ما غنمناه من هذه المدينة، فلقد اختار كل واحد ما يحلو له من مسكن، وكانت تلك المساكن كثيرة، وبفضل نعمة الله، أصبح الفقير غنيّاً ومسروراً].

كما أن الصليبيين في حملتهم الخامسة، آثروا التشبّث بفتح مصر لخيراتها العديدة، على الحصول سلماً على بيت المقدس، ورفضوا عرض السلطان الكامل بهذا الشأن، فخسروا بالنتيجة مصر والقَدس.

أما الحملة السادسة، بقيادة الامبراطور فريدريك الثاني، ذي الثقافة العربية التي نشأ عليها في صقلّية والتي أبعدته عن التعصّب الديني، فبالرغم من تعرّضه للحرمان من قبل البابا غريغوار التاسع، فقد كان، بالنظر لصداقته مع السلطان الكامل، يؤخر من وقت الى آخر، تنفيذ حملته، ولما نفّذها، لم يضطر الى حرب المسلمين، إذ عقد مع السلطان معاهدة صلح في سنة ١٢٢٩ م، نال بموجبها، المدن المقدسة الثلاث: بيت لحم والناصرة وبيت المقدس سلماً، بحيث اعتبر المسيحيون والمسلمون أن القدس هي مدينة مقدسة بالاشتراك بينهم.

وقد رأينا بعد ذلك كيف كانت عاقبة الحملتين الأخريين: الفرنسية، والانكليزية، وتنازل كل من الملوك الأيوبيين، للصليبيين عن بعض ممتلكاتهم، ومن جملتها بيت المقدس، ثم استعادة هذه المدينة من قبل المسلمين.

تلك المراحل التي سبقت الحملة السابعة الصليبية، كان لها أثر ملموس في تلكّؤ المسيحيين في أوروبا، عن تلبية نداء البابا للانخراط بها، ما عدا الفرنسيين الذين استجابوا لطلب ملكهم لويس التاسع،

ولو مرغمين. مع الاشارة الى أن الامبراطور فريدريك الثاني، الذي كان النزاع بينه وبين البابا آنذاك قد بلغ أقصاه، أرسل ينصح الملك لويس التاسع، بعدم المغامرة بحملة صليبية، فلم يستمع لنصحه.

وما تجدر الإشارة إليه هنا، أن مملكة الافرنج في سوريا، بعدما فقدت كل ما كانت ربحته سلماً، وخسرت القدس مرة ثانية، كما مرّ بيانه آنفاً، أضحت ضعيفة البنيان، مختلّة القواعد، تقف على شفير الهاوية، وتوشك على الانهيار، لولا اختلاف السلطان الصالح أيوب، مع جموع الخوارزمية الذي أدّى الى ايقاف اكمال الفتح، ولولا بقية من الأمل أخذت تراود الصليبيين، عندما تحقّقوا من استعداد الملك لويس التاسع للقيام بحملته الصليبية في سبيل نجدتهم، وإعادة ما فقدوه في سوريا.

وقد وصف القسّ متّى الباريسي، المؤرخ الأنكليزي، وضع الصليبيين، عند ذاك كما يلي: [إن أهالي عكا أنفسهم، كانوا يخشون الابتعاد عن مدينتهم، وينتظرون، في أي حين، محاصرتها من قبل المسلمين واستسلامها لهم، ذلك أنهم كانت تنقصهم المؤن والازواد، ولا يأملون بالخلاص لما ينتابهم من الفزع].

كما أن الحصون القوية لدى الأفرنج، كحصن عتليت وغيره، كانت تبدو للمدافعين عنها، وكأنها سجن يدعو للخوف وليس للاطمئنان.

وفي الوقت الذي أظهر فيه لويس التاسع رغبته بتجهيز حملة صليبية على الشرق بعد إبلاله من مرضه الذي كاد أن يودي به، صادف أن أتى أسقف بيروت: غاليران (Galeran) الى فرنسا، لاطلاع الرأي العام الأوروبي، عمّا أصاب الصليبيين من فواجع، بعد معركتهم قرب غزة مع المسلمين.

وقد استغلّ البابا إينوسنت الرابع هذا الحدث، ليعقد مجمعاً دينياً

في ليون (حزيران - تموز ١٢٤٥ م) ويُعلن رسمياً عن الحملة الصليبية المزمع تجهيزها لتخليص بيت المقدس، ولم ينس البابا في هذا المجمع، أن يقرّر عقوبة الحرمان بحق الامبراطور فريدريك الثاني للمرة الثالثة، وأن يرسل مبعوثاً الى خان المغول، هو جان دي بلانكاربن، للعمل على إقناعه باعتناق الدين المسيحي.

على أن دعوة البابا للحملة الصليبية هذه، لم تلاق قبولاً في أوروبا، بعد إذ كانت قد هدأت ثورة التعصب الديني فيها، وفتُر الحماس لمحاربة المسلمين. وبالرغم من كل ما بذله رجال الملك لويس التاسع من نصائح في سبيل إرجاعه عن عزمه فقد أصرّ على القيام بما عاهد نفسه عليه؛ وراح يبذل جهده في السعي لتجهيز حملته على أحسن وجه. ولما تحقّق له ذلك، عيّن موعد الانطلاق، في عيد القديس جان بابتيست سنة ١٢٤٨ م.

وفي تلك الأثناء، كان المسلمون يشعرون بالخوف والاضطراب، من مواجهة حملة صليبية أخرى في بلادهم، بعد أن علموا بها، بواسطة الامبراطور فريدريك الثاني، الذي كان يخبر السلطان الصالح أيوب، بصورة مستمّرة، عن المراحل التي وصلت إليها هذه الحملة[١].

وبعد أن تمكّن الملك لويس التاسع من إقناع أغلبية الأسياد الكبار الفرنسيين لمرافقته في حملته، بما فيهم أخوانه الثلاثة وزوجاتهم: روبير دارتوا، وألفونس دي بواتير، وشارل دانجو، بالإضافة الى بيار موكلرك، وهوج الرابع دوق بورغونيا مع أولادها؛ والكونت هوج الخامس دي سان بول، والكونت دي لامارش، وهوج دي لوزينيان وإبنه، والكونت دي بار، والدوق دي برابانت، والقائد العام للجيش: هومبر دي بوجيو، وأرشامبو دي بوربون، وكونت دي سارّبروك، وجان دي

(1) – Jean Richard: Le Royaume Latin de Jérusalem, P. P. 264, 265.

جوانفيل (مؤرخ الحملة)، وريموند السابع كونت دي تولوز، وجوفروا دي سرجين، وفيليب دي نانتيل وكونت دي فلاندر وغيرهم، ألقى العاهل الفرنسي بمقاليد أمور الدولة، الى والدته بلانش دي كاستيل، لتديرها طيلة تغيّبه عن بلاده؛ وحينما ودّعها قالت له هذه الأخيرة: [يا إبني الحنون، إن قلبي يحدّثني بأنني لن أراك بعدُ أبداً]. وسار الملك لويس الى مدينة ليون، فالتقى هناك، البابا إينوسنت الرابع، وتداول معه بالأمر، وبعدها تابع سيره الى مرفأ: [Aigues - mortes]، حيث أبحر منه في ٢٨ آب ١٢٤٨م - أول جمادي الأولى ٦٤٦هـ، ترافقه في سفينته، زوجته مرغريت دي بروڤانس، وشقيقاه كونت دارتوا، وكونت دانجو، وزوجة هذا الأخير، ومندوب البابا.

في هذا الوقت بالذات، كانت الحرب قائمة بين السلطان الصالح أيوب، وبين صاحب حلب، الملك الناصر، بسبب إقدام هذا الأخير، على مهاجمة مدينة حمص، وأخذها من الملك الأشرف موسى، ولكنهما أوقفاها، بناء لتوسّط رسول الخليفة العباسي: نجم الدين الباذراي، واتفقا على أن تستقرّ حمص بيد الحلبيين، ويعوّض عنها الملك الأشرف موسى، بتلّ باشر، مضافاً الى ما بيده من تدمر والرُحبة (٦٤٦هـ - ١٢٤٨م). ثم رحل الملك الصالح عن دمشق الى مصر، لدى سماعه بابحار الحملة الصليبية الى الشرق.

وبعد عشرين يوماً من إبحاره، وصل أسطول الملك لويس التاسع مع جيشه الى ميناء ليماسول في قبرص (١٨ أيلول ١٢٤٨م)؛ فاستقبله ملكها هنري الأول دي لوزينيان، في عاصمة ملكه: نيقوسيا، بكل ترحاب، وقدّم له كل ما يحتاجه من مؤن وأقوات، وكان قوام القوة الحربية التي قادها الملك الفرنسي، عشرين ألف فارس، وأربعين ألف راجل، تحملهم ألف وثمانمائة سفينة.

وقبل أن تفد باقي الجيوش الصليبية، للإلتحاق بالملك الفرنسي في

قبرص؛ أعلن هذا عن عزمه، في مهاجمة مصر فوراً، بُغية مباغتة المسلمين هناك، كيلا يتمكنوا من استكمال الاستعدادات للدفاع عنها. فوافق مجلس البارونات الذي عقده الملك لهذه الغاية، على غزو مصر، ولكنه رأى التريث والبقاء في الجزيرة لتمضية فصل الشتاء فيها حتى الربيع، ريثما ينتظم عقد الجيوش الصليبية كلها وتردها الامداد من كافة أنحاء سوريا وغيرها، فضلاً عن الكتيبة الأنكليزية المنتظر وصولها، بقيادة الكونت دي سالزبوري؛ فلم يسع الملك لويس الاّ النزول عند رأي المجلس. ونشير هنا الى أن حوالي المائتين وخمسين جندياً ماتوا أثناء وجودهم في قبرص، بسبب تفشي الأمراض في الجزيرة، ومن بينهم أرشامبو دي بوربون والكونت دي ڤاندوم.

وقد حضر في ذلك الوقت، الى قبرص، مندوبان من قبل قائد المغول في بلاد فارس، وقابلا الملك لويس التاسع، وعرضا عليه، عقد تحالف بينه وبين القائد المغولي؛ لمحاربة المسلمين، بحيث يهاجم الأفرنج الديار المصرية، في الوقت الذي يندفع فيه المغول، الى بلاد الخليفة العبّاسي، للإستيلاء عليها، مما يجعل التعاون بين الفريقين منظماً وذا فاعلية (٢٠ كانون الأول ١٢٤٨ م)، فاهتم الملك الفرنسي بهذا العرض، لدرجة أنه أرسل مندوبين لمقابلة القائد المغولي في فارس، للتأكد من حقيقة موقفه ومندوباً آخر، هو أندره دي لونجيمو، للسفر الى عاصمة الخان الأكبر، والاتفاق مع هذا الأخير، على التعاون معاً ضد المسلمين (كانون الثاني - ١٢٤٩ م). وقد عاد أندره دي لونجيمو بعد سنتين من سفره، دون أن يحقق أي اتفاق مع المغول.

وهنا نرى التوقف قليلاً، لنرجع الى أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، أو أواخر القرن السادس الهجري، ولنلقي نظرة خاطفة، على ما جرى من حوادث في ذلك الوقت، كان لها تأثير في مجرى الأمور، في

البلاد الاسلامية، جعلت المغول يلعبون دوراً كبيراً فيها، أثناء الحروب الصليبية في المشرق؛ بقيادة زعيمهم جنكيز خان، ومن بعده خلفاؤه.

المغول وجنكيز خان

وُلد جنكيز خان سنة ٥٥١ هـ - ١١٥٦ م. وكان يسمّى في صِغره: تيموجين، وكان أبوه يسوكي بهادر، من آل بروديجان، على زعامة المغول؛ ولما مات ترك أولاداً صغاراً أكبرهم تيموجين البالغ من العمر ثلاث عشرة سنة حينذاك، فاستضعفتهم قبائل المغول، واغتصب الزعامة، أحد أنسبائهم: فهاجرت أُمُّهم بهم الى رحاب أمير ترك النيمن، النازلين على الشاطىء الأيمن من نهر الأنون. ولما بلغ تيموجين السابعة عشرة من عمره، تزوج بأبنة أحد زعماء المغول، وتدعى (بورتَ، Börtè).

ولما كان تيموجين ذا همّة عالية وعزيمة لا تفلّ فقد استطاع بوقت قصير، أن يستخلص الزعامة لنفسه، ويلمّ شعث قومه، ويضمّ إليه قبائل المغول؛ ويحارب جميع القبائل التركية وينتصر عليها، ويستأصل شأفة القبائل التترية الأربع (١٢٠٢ م)؛ التي كانت دائماً تناصبه العداء.

وفي سنة ١٢٠٦ م، بعدما اجتمع زعماء المغول في عاصمة الترك: قره كوروم وبايعوه بالزعامة، ومنحوه لقب: جنكيز خان، أي السيّد المطلق؛ أعلن جنكيز بأن قره كوروم، أصبحت عاصمة لمنغوليا.

وسرعان ما طلب من زعماء المغول، التهيّؤ للخروج من البلاد، لاكتساح العالم المتمدّين، فرحّبوا بذلك؛ وتبعوه في كل غزواته.

ففي سنة ١٢١١ م، بدأ بغزو الصين الشمالية، جارته، وتمكن في سنة ١٢١٥ م من فتح عاصمتها: بكين، ثم افتتح مملكة قرا قيطاي القديمة وكل بلاد التركستان الشرقية (١٢١٨ م).

وبعد ذلك يمّم جنكيز خان وجهه شطر الشرق الأدنى، على إثر خلاف حصل بينه وبين السلطان علاء الدين محمد شاه بن تكش الخوارزمي الذي كانت تمتدّ مملكته من جنوبي بحر أرال، فتشمل تركستان الروسية (الحالية) والجزء الأكبر من أفغانستان (الحالية) وإيران (١٢١٩ م)؛ فعبر بجيشه البالغ حوالي المائتي ألف مقاتل، بما فيهم مقاتلو القبائل التابعة للمغول مثل قبائل أرسلان ملك الترك الكارلوك، وأيدوك - كوت ملك الويغور وسواها، نهر سيحون، وسار نحو مدينة بخارى، وكان بها عشرون ألفاً من الجنود الخوارزمية، تركوها عند وصوله إليها، فدخلها (٤ ذي الحجة ٦١٦ هـ)، وأعمل جنده النهب والقتل فيها؛ وأخذ أهاليها أسرى، ثم رحل نحو مدينة سمرقند، وكان بها خمسون ألفاً من جند محمد خوارزمشاه فلم يفعلوا شيئاً، ولكن الأهالي أبدوا مقاومة كبيرة من دون جدوى، إذ احتال عليهم المغول ونصبوا لهم كميناً وقعوا فيه؛ ثم فتحت المدينة للمغول فوضعوا السيف في أهاليها وفي الجند الخوارزمية الذين طلبوا الأمان، ولم يُبقوا على أحد منهم.

ولما تمّ لجنكيز خان ذلك، أرسل عشرين ألف فارس، في إثر السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه، ساروا نحو غرب خراسان، فوصلوا الى موضع يقال له، بنج آو، وعبروا هناك نهر جيحون، حيث داهموا جيش السلطان محمد، الذي انهزم أمامهم وتفرّق، وهرب السلطان لا يلوي على شيء في نفر من خواصّه ووصل الى نيسابور، ثم رحل الى مازندران ومنها الى مرسى من بحر طبرستان، يُعرف بالسكون، حيث عبر هو وأصحابه الى قلعة له في البحر؛ ولم يقدر فرسان المغول اللحاق به الى هناك، فاستقر في تلك القلعة حتى مات بها.

ثم أكمل المغول فتوحهم، فأخذوا مازندران وقتلوا أهلها، وفعلوا في الريّ وهمذان مثلما فعلوا فيها، ثم ملكوا مراغة (صفر ٦١٨ هـ) فحرّان، فخوارزم، وقتلوا أهل تلك البلدان بعدما سَبوها ونهبوها.

ثم أرسل جنكيز خان جيشاً كثيفاً الى غزنة، لمنازلة ملكها، جلال الدين منكبرتي بن السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه، فهزمهم هذا وشتّتهم، وكذلك تمكن جيش جلال الدين منكبرتي من الفوز على المغول عندما هاجموا مدينة كابول، ولكن بعض القادة من جيشه اختلفوا مع بعضهم، ففارقوه، فضعف هذا الجيش ولم يعد يقدر على الوقوف بوجه المغول، مما أهاب بجلال الدين، الى الفرار من البلاد، والسير نحو الهند، فعبر نهر السند، قبل أن يلحق به، جنكيزخان، والتجأ الى ملكها مدة ثم عاد الى بلاده. وفي هذه الأثناء عاد جنكيزخان فاستولى على غزنة وقتل أهلها ونهب أموالهم، وكان قد سار من جيشه، قسم، الى جهة القفجاق، فاستولى على مدينتهم العظمى: سوادق، ثم قصد بلاد الروس فكسرهم مع القفجاق الذين حالفوهم، وبعدها مضى الى بلغار (أواخر سنة ٦٢٠ هـ - ١٢٢٣ م).

وكان جنكيزخان قد أقام بسمرقند، بعد أن سَيّر ذلك القسم من جيشه، فأرسل أحد أولاده، للإستيلاء على خراسان، فعبر النهر واتجه نحو مدينة بلخ، فحاصرها وتسلّمها بالأمان؛ وتابع استيلاءه على تلك البلاد شيئاً بعد شيء دون صعوبة؛ ولم يمض إلاّ القليل حتى دخل معظم البلاد الفارسية تحت حكمه، وهكذا استطاع جنكيزخان تشكيل مملكة عظيمة واسعة، مترامية الأطراف، تبتدىء شرقاً من بلاد الصين وتنتهي غرباً الى بلاد العراق وبحر الخزر، وبلاد الروس، وجنوباً ببلاد الهند، وشمالاً بالبحر الشمالي.

ولولا وفاته أثناء زحفه الى الشرق الأقصى للقضاء على مملكة الصين الجنوبية؛ (٦٢٤ هـ - ١٢٢٧ م) لما كان اكتفى جنكيزخان بما حقّقه من فتوحات. وكان قبل وفاته، قد قسم مملكته الى أربعة أقسام بين أبنائه الأربعة وهم: دوشي، وجنطاي وتولي وأوكداي. فلما مات تقرّر في المجمع الكبير الذي عُقد في العاصمة: قره كوروم سنة ١٢٢٧ م تثبيت أوكداي

على كرسي الأمبراطورية المنغولية، ومبايعته خلفاً لوالده، ثم بعد موت أوكداي؛ خلفه إبنه كيوك، الذي مات بعد عام من خلافته، وانتخب منكو أومونكا إمبراطوراً (١٢٤٦م - ٦٤٤هـ) وهو الخان الأكبر الذي أرسل له الملك لويس التاسع مبعوثه أندره دي لونجيمو، كما مر آنفاً.

لويس التاسع ومصر

لما كانت غاية الصليبيين، مهاجمة مصر، لكونها مركز قوّة المسلمين وضعفهم في آن معاً، توصّلا للإستيلاء على سوريا، واستعادة ممتلكات مملكة القدس اللّاتينية، فقد جهد الملك لويس التاسع بتجهيز وتأمين كل ما تحتاج إليه حملته من عتاد ومؤن وذخائر وأسلحة ومواد لبناء الجسور والطرقات، وبذار للزرع وأدوات للفلاحة، مع المهندسين والفنيين والأطباء والكهنة وغيرهم، ظناً منه بأن حملته ستكون طويلة المدى، في الديار المصرية، ولذلك فقد انتظر في قبرص، حتى وفدت إليه باقي الجيوش الصليبية من أوروبا، يليها جيش الأفرنج في سوريا بقيادة: جان ديبلن الثاني صاحب يافا، ثم كتيبة إفرنسية يبلغ عدد افرادها (٤٠٠) فارس، من إمارة أكاي (Achaie) أو الموره (Morée) الأفرنجية في بلاد اليونان، بقيادة أميرها: غليوم دي ڤيلهاردوان، ومن انضم الى جيش الملك من الفرسان القبارصة بقيادة ملك قبرص هنري الأول.

ولما تكامل عقد الجيش الصليبي، أقلع اسطول الملك من لياسول في الثلاثين من أيار ١٢٤٩م - ٦٤٧هـ متجهاً نحو الساحل المصري. وظهرت طلائعه تجاه شاطىء دمياط في يوم (٤) حزيران، وعلى رأسه الملك لويس التاسع. أما بقية الاسطول، وتبلغ أكثر من نصف السفن، فقد بدّدتها العواصف الشديدة في البحر، وجنحت الى سواحل سوريا. وقد أشار مستشارو الملك عليه، بعدم النزول الى البّر قبل وصول تلك السفن؛ لئلاّ يعجز عن دخول دمياط، بالقوة الحالية الموجودة معه،

فرفض هذا الرأي خشية أن يشجّع تردّده، الجيش المصري على مهاجمته في البحر، وأعطى أوامره بالنزول الى البرّ الغربي للنيل، وهو المقابل لدمياط، في اليوم التالي.

في ذلك الوقت، كان السلطان الصالح أيوب قد انتقل من الشام الى مصر، عندما علم بأمر الحملة الصليبية، وعسكر عند أشمون طَنَاخ قرب دكرنس (صفر ٦٤٧ هـ أيار ١٢٤٩ م). بعد أن قام بتحصين مدينة دمياط وزوّدها بكل ما يؤمن احتياجاتها للدفاع؛ وعهد بها الى حامية قوية من فرسان بني كنانة، وأناط بالأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، قيادة قوة مرابطة، على البر الغربي، لفرع دمياط، بغية مواجهة الصليبيين عند نزولهم من سفنهم الى البّر فيما لو حاولوا النزول.

وبعد أن استعد الصليبيون وأكمل الإستعداد للنزول الى البرّ، دعا الملك الفرنسي قادة الجيش والزعماء والأسياد الكبار، وألقى فيهم الكلمة التالية: [أيها الأصدقاء المخلصون، إعلموا أننا لن نُغلب طالما لازمتنا المحبة، ولولا إرادة الله، لما كنا وصلنا الى هنا بهذه السرعة، فلنقتحم هذه البلاد، مهما تكن، ولنحتلّها بقوة. فأنا لست ملك فرنسا ولا الكنيسة المقدسة، بل أنتم كل ذلك. وما أنا سوى فرد تنتهي حياته مثل أي فرد آخر عندما يأذن الله بذلك. فأن غلبنا فسنصعد الى السماء شهداء، وإن انتصرنا فنحمد الله على نعمائه. وسيكون مجد فرنسا أو بالأحرى مجد المسيحية بأجمعها كبيراً[1].

وفي الموعد الذي حدّده الملك، بدأت المراكب والصنادل والقوارب، وزوارق الإنقاذ بنقل فرسان الأفرنج عند الفجر، مع أسلحتهم الكاملة الى الشاطىء. وكان أول النازلين: جان ديبلن صاحب يافا. وجوانفيل، ثم تبعهما الآخرون مع الملك.

---

(1) Dominique Paladilhe: La Grande Aventure des Croisés. P. 299.

أما الأمير فخر الدين، فقد كان بانتظارهم مع قوّاته، على الشاطىء، يحاول التعرّض لهم، لمنعهم من الوصول الى اليابسة، ورغم كل ما فعله، لم يُفلح بالوقوف في وجههم، إذ كان الصليبيون يندفعون بقوة نحو الجند الاسلامي، فيدفعونه الى الوراء، ويشتبكون معه بمعركة دامت حتى المساء، دون نتيجة، وعندئذٍ لما رأى فخر الدين نفسه عاجزاً عن إيقافهم، وإعادتهم الى سفنهم، آثر الانسحاب بمن معه، بعدما فَقَدَ من جنده حوالي الخمسمائة قتيل بينهم الأمير نجم الدين والأمير حسام الدين أزبك، وقطع بهم الجسر الى الجانب الشرقي، لجهة مدينة دمياط، بحيث أصبح البرّ الغربي خالياً تماماً للصليبيين؛ ثم اتجه نحو أشمون طناخ حيث كان يعسكر السلطان الصالح أيوب، دون أن يبقى في ساحة المعركة أو يعود الى دمياط للمدافعة عنها؛ فتسبب بعمله هذا، في كارثة كادت تحلّ بالبلاد؛ إذ ما أن رأته حامية دمياط، لائذاً بالفرار، حتى رحلت خلفه تاركة هذه المدينة مجرّدة من المقاومة؛ الأمر الذي دفع بأهاليها لهجرها والهيام على وجوههم حيارى، دون أن يحتاطوا ويتلفوا وراءهم مراكب التعدية، وهم ينحون باللائمة على الأمير فخر الدين، ويشنّعون عليه، لما عرّضهم إليه من أخطار، لأنه كان السبب في ترحيل حامية المدينة.

والمرجح أن الأمير فخر الدين، لم ينسحب من المعركة الاّ بعد أن نُمي إليه كذباً، بأن السلطان الصالح أيوب قد توفي، فأراد التحقق من ذلك والأسراع للاستحواذ على الحكم (كان الصالح أيوب يعاني آنذاك من مرض السلّ وإصابته بالناصور، فأجريت له عملية جراحية). وكان نبأ وفاة السلطان غير صحيح، وفي اليوم التالي، وكان يوم أحد، اتجه الصليبيون صوب دمياط، بعد استكمال نزولهم الى البر، فإذا أبوابها مفتوحة لهم ولا أحد يحميها؛ فخشوا في البدء أن يكون في الأمر مكيدة للإيقاع بهم، فتمهلّوا قليلاً، وأرسلوا طلائعهم تتلمّس الأخبار، وعندما

تحققوا من خلّوها من المقاتلة، دخلوها واستولوا على جميع ما فيها من غنائم وخيرات وذخائر وأسلحة وعثروا على (٥٣) رقيقاً مسيحياً كانوا أسرى فيها منذ (٢٢) سنة فأطلقوهم. كما كان فيها عدد من المسيحيين الأقباط، الذين طلبوا مقابلة الملك لويس التاسع ومندوب البابا وعرضوا عليهما أمرهم، فتُرِكت لهم أموالهم وممتلكاتهم. وفور دخوله مدينة دمياط، عمد لويس التاسع الى تحويلها لمدينة لاتينية، فقلب المساجد الى كنائس، وسمح باقامة الأديرة فيها، وعمل على تقويتها وتعزيز تحصيناتها، واحتلّ الصليبيون منازل المسلمين وسكنوها.

ثم انتقل الملك مع جيشه، ليعسكر على الجانب الآخر من النيل.

ونشير هنا الى ان ملك فرنسا، إثر دخوله الى دمياط، كتب الى السلطان الصالح أيوب مهدّداً متوعداً داعياً إياه الى الاستسلام، وقد جاء في رسالته إليه، حسب رواية المقريزي، ما نصه: [أما بعد، فلا يخفى عليك، أن عندنا خزائن الأندلس، وما يحملون الينا من الأموال، ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال ونرمّل النساء، ونستأثر بالبنات والصبيان ونخلي منهم الديار وأنا قد أبديت لك الكفاية، وبذلت لك النصيحة الى الغاية والنهاية، فلو حلفت لي بكل الايمان ودخلت عليّ بالقسس والرهبان، وحملت الشمع أمامي، طاعة للصلبان، لكنت واصلاً إليك وقاتلك في أعزّ البقاع عليك. فأما أن تكون البلاد لي فهي هديّة حصلت في يدي، وإما أن تكون البلاد لك والغلبة عليّ ويدك اليمنى ممتدة إليّ وقد عرفتك وعرفت ما قلته لك، وحذرتك من عساكر حضرت في طاعتي، تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك، بأسياف القضا].

ويقول المقريزي، فلما قرأ الصالح كتاب ريد إفرنس، بكى واسترجع وأمر القاضي شهاب الدين محمد بن زهير، أن يكتب الجواب فكتب:

[بسم الله الرحمن الرحيم، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه؛ أما بعد، فقد ورد كتابك، وأنت تهدّد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك. ونحن أرباب السيوف، ما قُتِل مناقرن إلاّ جدّدناه، ولا بغى علينا باغ إلاّ دمّرناه، فلو رأت عينك أيها المغرور حدّ سيوفنا وعظم حروبنا، وفتحنا منكم الحصون والسواحل وتخريبنا منكم الأواخر والأوائل، لكان لك أن تعضّ على أناملك بالندم، ولا بدّ أن يزل بك القدم، من يوم أوّله لنا وآخره عليك، فهنالك تسيء بك الظنون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، فأذا قرأت كتابي هذا. فتكون منه على أول سورة ص: ولتعلمن نبأه بعد حين، وتعود الى قوله تعالى وهو أصدق القائلين: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين، وقول الحكماء: الباغي له مصرع وبغيك يصرعك والى البلاء يسلّمك].

ولما تحقق السلطان الصالح أيوب، مما كان من أمر الأمير فخر الدين والحامية المدافعة عن دمياط، استبّد به الغضب، وحنق على الأمراء، فأمر بشنق مَن كان في تلك المدينة من المقاتلين الهاربين بدون إذنه، فشنقوا وكان عددهم يفوق الخمسين أميراً؛ أما الأمير فخر الدين، فقد أفلت من بطش السلطان لمناصرة بعض الأمراء له ولضعف السلطان في ذلك الوقت بسبب مرضه.

وكان التدبير الذي اتخذه السلطان بحق الأمراء المشنوقين، مرتكزاً على فتوى العلماء؛ ثم انتقل السلطان الى المنصورة، مع شدّة مرضه، حيث عمل على إعادة تنظيم جيشه وإقامة إسوارها وتجديد بنيانها، وتزويدها بالسلاح والعتاد، وقد وفدت إليه هناك، الشوافي والسفن مع المحاربين، وتتالت وفود المتطوعين المجاهدين من عامة الناس، من جميع أنحاء مصر، من الاسكندرية الى أسوان، وذلك للجهاد في سبيل الله، وبدأت مناوشات هؤلاء المتطوّعين تؤتي ثمارها، إذ راحوا يتخطّفون

الأفرنج، كلما استفردوهم في أي مكان من حول دمياط، ويرسلونهم الى القاهرة، من حين الى حين، بحيث ألقوا الذعر في قلوب الصليبيين، فصاروا يحتاطون لأنفسهم لئلا يتعرضوا للخطف، فحفروا الخنادق حول المدينة لمنع تسرّب المسلمين إليها.

وفيما يحدث هذا في وادي النيل، والناس في كرب وشدّة، إذ بالأخوين، الأمجد حسن والظاهر شاذي، إبني الملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، يقبضان على أخيهما عيسى، المستناب من قبل أبيه على الكرك، ويذهب أحدهما الأمجد حسن، الى مصر ويقابل السلطان الصالح أيوب باذلاً له تسليم الكرك، على إقطاع له ولأخيه الظاهر شاذي، بديار مصر، فأحسن إليه السلطان، وأعطاه مع أخيه الاقطاع الذي أراداه، وأرسل الى الكرك فتسلّمها في ١٢ جمادي الآخرة سنة ٦٤٧ هـ، وفرح بها فرحاً عظيماً مع ما هو فيه من المرض، لِما كان في خاطره من صاحبها الملك الناصر داود، الذي كان في حلب عند ذاك[١].

وعلى كل، فبدلاً من أن ينتهز الملك لويس الفرصة السانحة ويتقدم جنوباً بسرعة نحو القاهرة قبل حلول زمن الفيضان في النيل، ظل منتظراً وصول المراكب التي بعثرتها العواصف، حتى وصلت أخيراً، وعلى رأسها ألفونس دي بواتير، مع زوجته وزوجة أخيه دارتوا في ٢٤ تشرين الأول سنة ١٢٤٩ م - ٦٤٧ هـ.

وعندما رأى السلطان الصالح أيوب أن قوة الصليبيين قد تعزّزت بما انضم إليها، أخيراً من قوى، أرسل يعرض على ملك فرنسا إعطاءه المدينة المقدسة وعسقلان وطبريا والجليل الشرقي مقابل إخلاء الصليبيين، مدينة دمياط وإعادتها للمسلمين، فرفض الملك هذا

(١) ابو الفداء: المختصر ج(٦) ص٨٢ - ٨٣ حوادث سنة ٦٤٧ هـ.

العرض، تحت ضغط أخيه الكونت دارتوا، لاعتقاده، بأنه حاصل ولا ريب، على مصر والشام معاً، نظراً لتفوّق قواه الحربية على قوى المسلمين؛ وكان مثله هنا، مثل الكردينال بيلاج الذي حاول الحصول على مصر والشام دون طائل وعاد بخفيّ حنين كما مرّ بيانه سابقاً.

عند ذلك عقد لويس التاسع مجلساً حربياً لتقرير الخطة الواجب اتخاذها، بهذا الشأن، فانقسم رأي المجتمعين، ما بين الزحف على الاسكندرية، أم على القاهرة. وبالنتيجة، تمّ الإتفاق على التوجّه الى القاهرة قلب مصر، فانتقل الجيش الصليبي على الفور، الى الضفة الشرقية للنيل، وشرع في الزحف على القاهرة في ٢٠ تشرين الثاني ١٢٤٩م تاركاً في مدينة دمياط حامية كبيرة، يؤازرها قسم من الأسطول تحت قيادة أوليفير دي ترم وبقيت الملكة والأميرات هناك.

وأثناء تقدّم الصليبيين، بطريقهم الى القاهرة، توفّي السلطان الصالح أيوب بالمنصورة في الثالث والعشرين من تشرين الثاني ١٢٤٩م - ١٤ شعبان ٦٤٧هـ - وكان إبنه ووليّ عهده: المعظم تورانشاه بعيداً عن مصر، بحصن كيفا الواقع على الضفة الغربية لنهر دجلة، بالقرب من آمد، بديار بكر، وجاءت وفاته في تلك الظروف الحرجة خسارة كبيرة للمصريين، ولكانت غيّرت مجرى الحوادث، لولا همة زوجته شجر الدر، وسداد رأيها، وسرعة خاطرها، فكتمت موته عن الجميع، حتى لا يتطرّق اليأس والوهن الى نفوس المسلمين، فيتركون ساحة القتال، ويخلو الجو عند ذاك للصليبيين، فيملكون مصر. وعمدت الى إحضار الأميرين، فخر الدين بن الشيخ، والطواشي جمال الدين محسن، وأسّرت إليهما بموت السلطان، واتفقت معهما على القيام بتدبير شؤون الدولة حتى حضور إبنه (أي ابن السلطان) تورانشاه، من حصن كيفا، وأرسلت الفارس أقطاي كبير المماليك البحرية وقتئذٍ للمجيء به على عجل، وأخذت تصدر الأوامر مذيّلة بتواقيع السلطان الصالح

أيوب، للتدليل على بقائه على قيد الحياة، مع أن تلك التواقيع مزوّرة، وكانت تكتب بخط خادم يقال له السهيلي وتشابه توقيع الصالح أيوب، كلّفته شجر الدرّ، للاقدام على هذا التزوير، خدمة للمصلحة العامة.

ولما وقف حسام الدين بن أبي علي، نائب المملكة بمصر، على حقيقة الأمر، وعلم سرّاً بوفاة السلطان، أمر الخطباء في المساجد بالدعوة على منابر القاهرة يوم الجمعة، لتورانشاه بعد الدعاء لأبيه الصالح أيوب[1].

وبالرغم من التكتم الشديد الذي رافق موت السلطان الصالح أيوب، علم الصليبيون بالأمر، بواسطة جواسيسهم، وعمدوا الى الإسراع بزحفهم الى القاهرة لمباغتتها، متخذين خط السير الذي كان سار عليه سابقاً، الملك جان دي بريان، ولكن جهلهم الطرقات المؤدية الى عاصمة مصر، تسبّب في تأخيرهم، بحيث كانوا يسيرون، وسفن اسطولهم الناقلة قسماً من الجيش مع المعدات والأدوات والأقوات، تمخر عباب الماء بأزائهم ببطء في النيل.

لقد كان على الصليبيين، للتقدم جنوباً، عبور فرع دمياط أو قناة أشمون طناخ، فاختار الملك لويس، الطريق الأسهل، وأعطى أوامره بطمر هذه القناة لتخفيف مجرى النهر الصغير (الذي عرف فيما بعد باسم البحر الصغير)، وبناء سدّ في عرض النهر، لتحويل مياه القناة الى النيل، وإنشاء أبراج متحركة لحماية الجنود العاملين في البناء (٢١ كانون الأول ١٢٤٩ م ٦٤٧ هـ).

على أن المسلمين لم يكونوا ليتركوا الصليبيين يتقدمون في بلادهم، وهم مكتوفو الأيدي، بل كانوا يقومون بتنظيم هجمات مفاجئة عليهم مع الاستمرار في المناوشات معهم. وقد أقدمت ذات يوم فرقة مؤلفة من

---

(١) - المقريزي: السلوك: ج(١) القسم (٢) ص - ٣٤٤ - ٣٤٥.
- وابو الفداء: المختصر: ج(٦) - ص - ٨٣ - ٨٤ - حوادث سنة ٦٤٧ هـ.

خمسمائة فارس مصري، على عبور النهر، من مكان آخر بعيد محاولة تطويق مؤخرة الجيش الأفرنجي، ففشلت وطاردها قسم من هذا الجيش وقتل منها مقتلة عظيمة.

لم يكتف المسلمون بذلك، بل راحوا يستخدمون النار الأغريقية، لاحراق الأبراج المتحركة التي كان االصليبيون في سبيل إنشائها، حيث كانوا من مراكزهم في الضفة الجنوبية من القناة لجهة المنصورة، يقذفون عليها قذائف النفط الملتهب، بواسطة الآلات المعدّة لذلك، فتحرقها والجنود معها. وقد وصف الفارس المؤرخ جوانفيل هذه النار كما يلي [كانت النار الأغريقية تتطاير بحجم كبير كأنها برميل عصير الحصرم، وكان لها ذَنب بطول الرمح الطويل؛ ويسمع لها هزيم كهزيم الصاعقة او التنّين الطائر ويصدر عنها ضوء ينير المعسكر في الليل، وكأنه في النهار]. ويضيف جوانفيل الى ذلك قوله: [إن أوصاله كانت ترتجف وتختلج في كل مرة يلقي فيها المصريون، بقذيفة من قذائفهم هذه. وإن المسيحيين (اي الصليبيين) كانوا لدى وصول كل قذيفة يجثون على ركابهم، بينما يرفع الملك لويس يديه نحو السماء ويهتف باكياً: أيها السيد الأله، إحفظ لي عشيرتي][1]. وهنا يتساءل المرء إن كانت هذه القذائف التي يصفها المؤرخ الصليبي، هي النار الاغريقية التي كان يعرفها العرب حينذاك، أم إنها من مركبات البارود، الذي استعمله هؤلاء واستنبطوا مركباته للقتال، حوالي النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي؟.

وقد ذكر المؤرخ الفرنسي سيديّو في كتابه: تاريخ العرب العام: [إن المصريين كانوا يستعملون في القرن الثالث عشر ملح البارود، لدفع القذائف بصوت يشبه صوت الرعد]..

(1) René Grousset: L'Epopée des Croisades. P. P. 354 – 355.

كما ورد في مخطوطة عنوانها: كتاب التعريف بالمصطلح الشريف، تأليف شهاب الدين أبي العباس أحمد بن فضل الله العمري، إشارات الى (عقارب البارود المصرورة) التي امتدت كأنها سحاب وهددت كأنها رعود واضطرمت كأنها حريق وجعلت الكلّ رماداً [1]. وكان المصريون فوق ذلك، يعمدون من جهتهم، على الضفة الجنوبية المعسكرين فيها، الى توسيع مجرى القناة، بحفر الضفاف المرتفعة، لاحباط أعمال العدوّ، كلما قام حفاروه، على الضفة الشمالية للنهر الصغير، بانشاء السدود مما أوقع الملك الفرنسي بورطة كبيرة، فلم يعد يعرف ماذا يفعل، الى أن قيّض الله له خائناً من أهالي بلدة سلامون، أعلمه عن وجود مخاضة كبيرة بقرب هذه البلدة، بنقطة مجردة من الحرس المصري، تصلح للعبور منها الى المنصورة، وذلك مقابل مبلغ من المال، فاستعان به الملك كدليل، بعدما عهد بحراسة المعسكر الصليبي الى دوق بورغونيا، وقاد جيشه فوراً الى المخاضة المطلوبة (٧ شباط ١٢٥٠م ٦٤٨ هـ)، فسارت فرقة الخيالة على ثلاث دفعات: أولها الفرسان الداوية. وثانيها، الرماة، وعلى رأسها أخو الملك، الكونت روبيردارتوا وثالثها فرقة الملك، وبمعيته أخواه الآخران، وفرقة الاسبتارية وبوصول الجميع الى تلك المخاضة، بدأوا بعبور النهر (٨ شباط). وكانت العملية بطيئة، بسبب عمق المياه، وكان أول العابرين، الكونت دارتوا يتبعه الداوية، ولم يكد يصل هو ومن معه، الى الضفة الأخرى حتى اندفع منطلقاً على رأس فرقته، نحو طلائع الجيش المصري، ضارباً عرض الحائط، بأوامر أخيه الملك القاضية بالانتظار حتى عبور كافة الجنود. وكانت المفاجأة على جيش المصريين كبيرة إذ اقتحم الكونت مراكزهم واخترقها الى مؤخرتها، بالسرعة المتناهية، وأعمل السيف فيهم، فتقهقروا تجاه حدائق

---

(١) – الدكتور زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، بين العرب والأفرنج خلال الحروب الصليبية ص١٦٢، والمرجع الوارد فيه.

المنصورة، فما كان منه، بعدما أخذته نشوة النصر في شدة اندفاعه إلاّ أن أمر فرسانه بتعقبهم، والتقدّم في أثرهم صائحاً: الى الأمام، الى الأمام. فسمعه قائد فرقة الداوية: غليوم دى سوناك، فاقترب منه قائلاً: ألا تنتظر الملك حتى يعبر؟ ينبغي المحافظة على مواقفنا حسب أوامره. فأجابه الكونت دارتوا محتدّاً: إن كنت خائفاً، فابق حيث أنت أما أنا فلن أترك العدوّ يفلت مني، فردّ قائد الداوية: لا أنا ولا أخواني، يداخلنا الخوف. وسوف نذهب معك: ولكن عليك أن تعلم بأن الشك يساورنا بأننا لن نرجع لا نحن ولا أنت.

وهنا حاول الكونت دى سالزبوري، قائد فرقة الأنكليز، وكان تحت إمرة الكونت دارتوا، أن يثني هذا الأخير عن عزمه، ويقنعه بالعمل حسب أوامر الملك فنعته الكونت أيضاً بالجبان والنذل، قائلاً له بهزء: أي شجعان متخاذلين فرسانك الأنكليز، قصار الذيول هؤلاء؟ فردّ عليه الكونت سالزبوري بعبوس قائلاً: ليس ثمه من يقول إني أجبن عن ارتياد مكان ترتاده أنت. وأمر فوراً فرسانه بالتقدم كما تقدم أيضاً دى سوناك بفرسان الداوية. وفي هذا الوقت بالذات وصل عشرة فرسان من قبل الملك، لانذار الكونت دارتوا بوجوب الانتظار والتوقف في المكان الذي هم فيه. فلم يلق بالاً إليهم بل قال: إن المسلمين أصيبوا بالهزيمة وإنه ذاهب لطردهم، بدلاً من بقائه مكتوف اليدين. وقرن القول بالفعل، فانطلق ورفاقه صوب المنصورة، وكانوا يبلغون حوالي الألف وخمسمائة فارس، ولم يشعر المصريون الاّ والصليبيون معهم في المعسكر وفي الطرقات، فعلَت ضجتهم، وصادف حينذاك أن كان الأمير فخر الدين قائد الجيش في الحمّام فسمع صراخ الناس وضجيجهم بان الصليبيين هاجموا المعسكر المصري، فخرج مدهوشاً قبل أن ينهي خضاب لحيته بالحنة، وركب فرسه بدون احتياط ولا درع، وراح يطوف على الجند ويستحثهم على القتال، وليس برفقته غير نفر قليل من

الجند، فلقيه أحد فرسان الداوية، وطعنه طعنة قاتلة بالرمح، فخرّ صريعاً في ساحة الوغى، وكفرّ بذلك عما كان أظهره من ضعف وتخاذل، حين فرّ من وجه الأفرنج اثناء نزولهم الى الشاطىء من سفنهم. وعلى إثر مقتل قائد الجيش المصري دبتّ الفوضى فيه، وتفرق الناس منهزمين يميناً وشمالاً، وكاد النصر أن يحفّ بالصليبيين، الذين ما لبثوا أن وصلوا الى باب قصر السلطان وأوشكوا ان يدخلوه لولا أن هيّأ الله للماليك قائداً منهم هو بيبرس البندقداري (وسيكون له شأن عظيم فيما بعد) الذي، تمكن بفضل همته وشجاعته وتوجيهه، من جمع صفوفهم، ومواجهة الصليبيين المهاجمين والحمل عليهم حملة واحدة أزالتهم عن مواقعهم وأشاعت الذعر في نفوسهم، فتشتتت جموعهم، وتفرقوا بين الأزقة، والشوارع، التي كانت مداخلها ومخارجها قد سدّت بالمتاريس، فوقعوا في مأزق، لم يعودوا يعرفون كيف التخلص منه، فأينما اتجهوا، كان الجند المصري وراءهم يعمل فيهم السيف، وأهالي المدينة من رجال ونساء وأولاد، يقذفونهم بكل ما تصل اليه أيديهم، من حجارة وآجرّ وغير ذلك من أعلى السطوح والشرفات، فيختلط الأمر عليهم، وتهيج خيولهم تحتهم، فيتعذر عليهم الفرار، بحيث باتوا لقمة سائغة للمسلمين، فأكثروا القتل فيهم فلم ينج منهم الاّ النزر القليل مَمن كُتبت له النجاة.

وكان بين القتلى، الكونت دارتوا، والكونت دى سالزبوري. وإيرار دى بريان، وراول دى كوسّي وجان دى شريذي ورجر دى روزوي وغيرهم كثير من النبلاء الذين كانوا مرافقين للكونت. أما قائد الداوية غليوم دى سوناك، فقد أفلت من الموت واستطاع الهرب وقد فقد إحدى عينيه.

في هذا الوقت كان الملك لويس التاسع قد انتهى من عبور النهر الصغير، مع قلب الجيش، فتصدّى له المصريون، وكانوا قد استجمعوا

قواهم وعادت اليهم ثقتهم بأنفسهم، فانطلقوا نحوه وأحاطوا به، فعزلوه هكذا عن مؤخرته التي بقيت تحت إمرة دوق بورغونيا، مع المشاة، على الضفة الشمالية للقناة. ثم راح المصريون يمطرونه بوابل من سهامهم، وبالنار الأغريقية الحارقة، فعند ذاك أمر الملك الفرنسي، بالهجوم العام على العدوّ وما هي إلاّ لحظات ، حتى التحم الجيشان الصليبي والاسلامي، بمعركة قاسية، ظفر فيها الجيش الأول، بفضل ثبات لويس التاسع وشدة مراسه، بردّ الجيش الثاني، بالنتيجة، وإرغامه على التراجع، وذلك بعدما انضمت اليه نجدة من حملة القسيّ من الضفة الثانية.

ويقول هنا المؤرخ رينه غروسيه في كتابه: ملحمة الحروب الصليبية، صفحة: ٣٥٩: [إن ستة من المماليك، أحاطوا بالملك لويس التاسع، في هذه المعركة، وأمسكوا بلجام جواده، واقتادوه أسيراً. ولكنه تخلص منهم بضربات قوية من سيفه].

وانتهى ذلك اليوم، دون نصر حاسم لأحد، إذ حينما رأى المسلمون النجدة التي انضمت الى جيش الملك الفرنسي، قد دخلت المعركة، انسحبوا منها، عند غروب الشمس.

وفي ذلك المساء، تقدّم نائب قائد فرقة الاسبتارية: جان دى روناي (Ronay) من الملك لويس، ليهنئه على ما أبداه من بطولة ورباطة جأش في المعركة، فسأله الملك، عمّا اذا كان يعلم شيئاً عن أحوال أخيه الكونت دارتوا، فأجابه، روناي، بأن أخاه هذا هو لا شك في الجنة. فبكى لويس التاسع أخاه بدمع غزير، ولكن ماذا ينفع البكاء؟ فالكونت دارتوا ذهب ضحية تهوّره، وعدم تقديره للأمور حق قدرها، وعلى الملك الآن أن يفكر بما سوف يأتي به الغد.

والواقع أنه في الحادي عشر من شباط ١٢٥٠ م ٦٤٨ هـ، قام فرسان

المماليك، ومعهم مشاة الجيش المصري، وجموع من المتطوّعة والعربان، بالهجوم على المعسكر الصليبي، فردّوا على أعقابهم بعد قتال عنيف، أبدى فيه الفريقان بطولات نادرة، وتراجع المسلمون الى المنصورة، فيما بقي الصليبيون في أماكنهم على ضفاف البحر الصغير، وفكرة الزحف على القاهرة ما زالت تسيطر على أذهانهم، بالرغم من أن فرصة النصر قد فاتتهم. ذلك أن الملك لويس لم يشأ العودة الى دمياط، معتبراً بأن واجبه كجندي صليبي، يفرض عليه التقدم الى الأمام لا القهقرى. وقد ارتكب خطأً كبيراً ببقائه حيث هو فلو رجع الى دمياط، لكان لحملته هذه نتيجة غير التي انتهت اليها. فالمدة التي قضاها جيشه في تمركزه في ذلك الموضع، من (١١) شباط حتى (٥) نيسان بدون عمل قد أثرت على معنوياته، بالاضافة الى ما كان لانتشار وباء الوافدة الأسبانيولية المصحوبة بالزحار، وحمىّ التفوئيد، من ضحايا بين أفراده، فلم يعد باستطاعته القيام بأي مجهود عسكري ضخم، يؤهله لانجاز المهمة التي ندب نفسه اليها؛ أما لوعاد الملك وقتذاك الى دمياط، لكان أصبح بمأمن من هجمات المسلمين، ولكان اتخذ من هذه المدينة، قاعدة لجيشه ينطلق منها لفتح مصر، بعد أن يكون قد أعاد تنظيم جيشه، ووفر له الوقت للراحة خصوصاً وان أحوال مصر السياسية والعسكرية أصبحت في وضع متردٍ بعد وفاة السلطان الصالح أيوب.

وعلى كلّ، ففي ذلك الحين وصل الملك المعظم نورانشاه، الى المنصورة (٢٧ شباط ١٢٥٠م ١٧ ذي القعدة ٦٤٧هـ)، وكان شاباً في الخامسة والعشرين من عمره، يتمتع بحيوية كبيرة، فنزل في قصر السلطنة، وسلمته شجر الدرّ، زوجة أبيه، مقاليد الأمور، فأخذ يشرف على الأعمال الحربية بنفسه، ويدير خططها وكان قد أعلن عنه سلطاناً وهو في دمشق أثناء مجيئه الى القاهرة. فكان لوصوله الى مصر، أثر عميق في نفوس المصريين، مما أدىّ الى ارتفاع معنوياتهم. وما كاد

تورانشاه، يطلع على الحالة العامة في مصر، وعلى وضع الجيش الصليبي، القريب من المنصورة، وما يتخبط به من فوضى، بسبب انتشار الأمراض بين ظهرانيه، حتى فكر في قطع مواصلات الصليبيين،للحيلولة دون تلقيهم النجدات والمعونات، من الحامية الأفرنجية الموجودة في دمياط، عن طريق النيل. ولهذه الغاية أعطى أوامره بنقل قسم من الأسطول المصري، الى بحر المحلة ليكون خلف معسكر الأعداء، فنفذت الخطة ونقلت السفن مفككة من سمنود، على ظهور الأبل، الى فرع دمياط حيث أعيد تركيبها وأرست في النيل، بعد شحنها بالمقاتلة، شمالي المنصورة.

وهكـــذا سُدّ عـــلى الصليبيين، منفـــذهم الوحيـــد، وجرت بين الأسطولين، المصري والأفرنجي، بعض المعارك، انتهت جميعها، بظفر الأسطول المصري واستيلائه على ما يقرب من ثمانين سفينة من سفن العدوّ، مع حمولاتها من أقوات وأسلحة وذخائر، وأسر حوالي الألف جندي صليبي (١٦ اذار ١٢٥٠ م ٦٤٨ هـ) وقد حاول الصليبيون عدة مرات إختراق الحصار البحري فلم يوفقوا، لأن زمام البحر أصبح بيد المسلمين.

واشتدّ الضغط على الجيش الصليبي، الذي رأى نفسه محصوراً في المثلث الواقع بين فرع النيل وبحيرة المنزالة والبحر الصغير (النهر الصغير)، وانقطع المدد بحراً عنه من دمياط، فقلّ الزاد لديه، ونال منه الجوع بعد الأوبئة، فضاقت به السُبل مما دفع بالملك لويس التاسع للتفكير بالانسحاب أخيراً والتقهقر جهة دمياط لوضع حدّ لتأفّف الجند، من الحالة السيئة التي تحيق بهم.

وقبل الانسحاب، عمد الملك لويس الى المفاوضة مع المسلمين، للوصول الى صلح، يرتكز على أساس تسليم دمياط للمصريين وتخلي

الأفرنج عنها، مقابل استعادتهم لبيت المقدس وبعض بلاد الساحل. ولما سُئل الملك لويس عن الضمانات التي يستطيع تقديمها لتأمين تنفيذ الأتفاق، عرض تسليم أحد أخويه كرهينة لدى المسلمين، فأبى السلطان تورانشاه ذلك وطلب أن يكون الملك نفسه رهينة لديهم. فلم يوافق مجلس مستشاري الملك على هذا الطلب. وقال عند ذاك جوفروادي سرجين: [لأحب إليه أن يرى الأتراك يقتلونهم جميعاً من أن يُقال إنهم سلموا ملكهم رهينة][1]. وهنا توقفت المفاوضات إذ كان السلطان متصلّباً في موقفه لعلمه تماماً بما آلت اليه حالة الجيش الصليبي من وهن، وما أصابه من ضعف في معنوياته. فضلاً عن خسائره الجسيمة في الأرواح.

وواصل الجيش الأسلامي ملاحقة الصليبيين والفتك بهم، حتى لم يعد بامكانهم تحمل الضربات النازلة بهم، فعين الملك الفرنسي يوم الانسحاب، وأمر باحراق الخيام والعتاد؛ وفي الخامس من نيسان ١٢٥٠م ٢ محرم ٦٤٨هـ بدأت أولى خطوات الانسحاب، في جو يخيم عليه الحزن واليأس، والذل، والخيبة؛ ولم يكد الجيش الصليبي يخلي مواقعه، ويتجه نحو دمياط بحذاء الضفة الشرقية لفرع دمياط، حتى اندفع المصريون وراءه، مجتازين جسر التعدية الذي كان أقامه الصليبيون، بين ضفتي البحر الصغير، (الذي كان جوسلين دي كورنو، الموكل اليه أمر هذا الجسر قد نسي أن يقطعه)، وراحوا يطاردونه من كل النواحي، تارة بالسهام. وطوراً بالسيوف والرماح، فقتلوا المرضى والجرحى، قبل نقلهم في السفن الى دمياط. وكان الصليبيون، في تقهقرهم يبدو عليهم الضعف، وهم كالأشباح، والملك نفسه يعاني من المرض ويكاد لا يثبت على صهوة جواده لولا معونة مرافقه الأمين: جوفروا دي سرجين، الذي كان يدافع عنه كما يدافع الخادم المخلص عن كأس شراب سيده من الذباب كما يقول جوانفيل..

(1) Dominique Paladilhe: La Granae Aventure des Croisés. P. 313.

في السادس من نيسان وصلت مقدمة الجيش الصليبي الى فارسكور بينما اجتازت مؤخرته شارمشاح ودخلت قرية: منية أبي عبد الله. وكان الملك في هذه المؤخرة، فاضطر جوفروادى سرجين الى نقله لأحد الأكواخ في القرية المذكورة لشدة إعيائه وعجزه عن متابعة السير وفي هذا الوقت أعطى السلطان تورانشاه أوامره بالهجوم على مؤخرة الجيش الصليبي دفعة واحدة، فالتحم الجيشان، ولم يستطع الصليبيون برغم تصديهم ببسالة فائقة لهجوم المسلمين، الثبات طويلاً أمامهم، الأمر الذي حدا بفليب دي مونفورت صاحب حصن تبنين الى الدخول بمفاوضات الصلح مع السلطان واجتمع لهذه الغاية بقائد الجيش المصري، الذي وافق على انسحاب الصليبيين مقابل تسليمهم دمياط للمسلمين، وعند عرض الأمر على الملك لويس التاسع لم يسعه سوى الاشارة بالقبول. وفيما كان القائدان المصري والصليبي يتبادلان العهود إذ بأحد الجنود الأفرنج، ويدعى مارسيل، يبرزمن بين الصفوف، وينادي بأن الملك يدعو الجميع للاستسلام فصدقه الجنود وأسرعوا الى إلقاء أسلحتهم، فتلقفهم المسلمون كلقمة سائغة، وأمعنوا فيهم قتلاً وأسراً. عندها أسقط في يد فيليب دى مونفورت. فلم يعد يعرف ماذا يفعل فأفهمه القائد المصري بأن اتفاقاً على الوجه المبين، فقد مسوّغه، وليسوا بحاجة اليه..

وهكذا كان لاستسلام الصليبيين نتائج وخيمة إذ بقي المسلمون عدة أيام يجهزون عليهم ويخيّرونهم بين الارتداد عن دينهم وبين الموت ولم يتركوا على قيد الحياة الاّ من كان يؤمل منه دفع الفدية أو من كان يمت بصلة أو سبب ما الى الأمبراطور فريدريك الثاني، صديق المسلمين الدائم.

وقد ورد على لسان جوانفيل الطرفة الآتية: إن أحد أمراء الجيش المصري دعاه الى خيمة لتناول الطعام، تكريماً له، نظراً لصلة القرابة

التي تربطه بالأمبراطور فريديريك الثاني، فرآه أحد الفرنسيين من مدينة باريس فقال له: ايها السيّد ماذا تفعل؟ ولما أبدى جوانفيل دهشته، نبهه الباريسي الى أنه يتناول الطعام في يوم جمعة، وهذا ممنوع.

ولما تقدم المسلمون للقبض على الملك لويس التاسع في الكوخ الذي لجأ اليه في مرضه بدا في غاية الحزن والغمّ، ونُقل الى المنصورة أسيراً. حيث أكرمه السلطان المعظم تورانشاه، وخصّص له من يقوم بخدمته وأخويه السجينين معه: كونت دانجو وكونت دى بواتير، في دار كاتب الأنشاء، القاضي فخر الدين ابراهيم بن لقمان، وعهد بحراستهم الى الطواشي صبيح المعظمي (٤ محرم ٦٤٨ هـ).وبعد ذلك رحل الملك المعظم تورانشاه، من المنصورة ونزل بفارسكور، وحينما علم الأفرنج في دمياط بالكارثة التي حلت بجيشهم وبملكهم، بواسطة مندوب البابا، الذي كان تمكن من الفرار من المعركة ران اليأس عليهم وأخذ الخوف بمجامع قلوبهم، فاضطربت أحوالهم، وفكروا بترك المدينة.فجزعت الملكة مرغريت دى بروڤانس، وكانت حاملاً، ووضعت مولوداً ذكراً بعد ثلاثة أيام من علمها بالخبر السيء وأسمته جان الحزين (Tristan) تيمناً بالظرف الكئيب الذي رأى النور فيه؛ وبعدما قامت من فراشها جمعت اليها البحارة الجنويين والبيزانيين والتجار المرافقين لهم، والموجودين في دمياط وطلبت اليهم عدم مبارحة المدينة لئلاّ يسبب ذلك ضرراً للملك ومن معه في أسرهم. ولما تذرّعوا بغلاء المعيشة وقلة ذات يدهم، تعهدّت بتقديم الأعاشة لهم مجّاناً على حسابها، وتسلمت زمام الأمور، فعززت دفاع المدينة كأنها تستعد للمقاومة.

وأثناء سجن الملك لويس التاسع. جرت المفاوضات معه لعقد معاهدة الصلح، فتم الأتفاق بالنهاية على أن يسلم الملك مدينة دمياط للمسلمين كفدية شخصية عنه، ويدفع مبلغاً قدره (٥٠٠٠٠٠) دينار ملكي عن جيشه، وعلى أن تكون مدة الصلح عشر سنوات (٦ نيسان ١٢٥٠ م

٦٤٨ هـ)، مع إطلاق الأسرى من الفريقين الموجودين في السجون منذ ست سنوات فصاعداً.

انقلاب الحكم في مصر

قبل تنفيذ المعاهدة التي عقدت مع الملك لويس التاسع، جرت حوادث دامية كان لها أثرها الكبير في تغيير مجرى التاريخ، بالنسبة للمسلمين آنذاك. وتفصيل ذلك أن المماليك في الجيش المصري، أقدموا على قتل السلطان المعظم تورانشاه بن السلطان الصالح أيوب.

كان هؤلاء المماليك من الجنس التركي، جلبهم التجار من بلاد الخزر والقوقاز، وسواحل البحر الأسود، الى البلاد الأسلامية، فاشترى، السلطان الصالح أيوب، عدداً كبيراً منهم، ليؤلف منهم جنداً وحرساً خاصاً به وأقام لتربيتهم، معلمين مختصّين، لتعليمهم حرفة الجندية مع الآداب الدينية والخلقية الى أن أصبح لديه منهم ما يناهز الألف عنصر، فبنى لهم قلعة بجزيرة الروضة بالنيل، فسمّوا: المماليك البحرية أو التركية. وقد ساعدتهم الظروف وتفاقم أمرهم. وأصبح لهم نفوذ كبير في الجيش وفي الدولة فغشاهم الطمع، وعرفوا كيف يستغلّون الفرص، فهابهم كبار الدولة، وكانوا شجعاناً أقوياء لا يهابون المخاطر، فتقدّموا في صفوف الجيش، ولدى السلطان، الذي عاملهم معاملة خاصة، فأخلصوا له: ولكن بعد موته، حصل بينهم وبين إبنه السلطان المعظم تورانشاه بعض سوء التفاهم، فقلبوا له ظهر المجن وقتلوه.

فمنذ أن وصل تورانشاه الى المنصورة وتسلّم زمام الحكم لاحظ بثاقب بصره ما للمماليك البحرية من نفوذ وتأييد في الجيش وخصوصاً رؤساؤهم، بعد إذ حالفهم التوفيق في معركة المنصورة، فسوّلت له نفسه إبعادهم والتخلص منهم خشية من نفوذهم، وتقريب خاصّته من القادة الذين رافقوه من حصن كيفا في ديار بكر، فلم يرق للمماليك ذلك،

وأخذوا الحيطة لهذا الأمر، ووقفوا على حذر منه، لاسيما بعدما ترامى إليهم من أنه يدبر للايقاع بهم، ومما زاد الطين بلة أن تورانشاه، لم يقتصر على إغضاب المماليك البحرية فقط بل تعدّاهم الى زوجة أبيه شجر الدرّ، فخاصمها وأخذ يطالبها بمال أبيه مهدّداً إياها بالويل والثبور وهي التي توصّلت بأخلاصها وحسن درايتها، الى منع أنهيار الجيش حينما طلبت اليه الحضور من حصن كيفا، بعد وفاة زوجها وكتمانها تلك الوفاة، وتدبيرها شؤون الحكم حتى وصوله، الأمر الذي أوغر صدرها عليه، فاتصلت سراً بهؤلاء المماليك، وأغرتهم على التخلص من تورانشاه، قبل أن يتخلص منهم، فلقي طلبها أذناً صاغية لديهم، وترقبوا الفرصة للقيام بعملهم، حتى كان مساء ٢٧ محرم ٦٤٨ هـ ٢ أيار ١٢٥٠ م، فاجتمع ركن الدين بيبرس البندقداري وقلاوون الصالحي واقطاي الجامدار، وعز الدين أيبك التركماني وغيرهم، وهجموا على السلطان في خيمته في فارسكور، وبأيديهم السيوف مجرّدة، فلما رآهم قام من مكانه فبادره بيبرس بضربة من سيفه قطعت أصابع يده ففرّ تورانشاه من أمامه وأسرع الى البرج الخشبي الذي كان أعدّه على النيل لراحته أثناء إقامته بفارسكور، وأغلق الباب عليه، فلحقوه الى هناك وأضرموا النار في البرج، فألقى بنفسه في النيل طالباً النجاة، فرموه بالنشاب من كل ناحية وهو يستغيث ويقول: [ما أريد هلاكم، دعوني أرجع الى حصن كيفا يا مسلمين]. فلم يأبه له أحد: وانتهى أمره، بأن مات قتيلاً غريقاً حريقاً. ولما أيقن القاتلون، أنه مات انتشلوا جثته من الماء وتركوها على شاطئ النيل مدة ثلاثة أيام، ولم يجرؤ أحد من حاشيته، على دفنه، ثم ووري الثرى في مكانه بشفاعة رسول الخليفة[١].

ولم يستمر حكم تورانشاه، سوى شهرين من بعد وصوله الى المنصورة.

---

(١) المقريزي: السلوك: ج(١) القسم(٢) ص.٣٥٨ - ٣٦٠.
وابو الفداء: المختصر: ج(٦) ص٨٥ - حوادث سنة ٩٤٨هـ.

وعلى إثر مقتله، اجتمع أمراء المماليك وأركان الدولة المصرية، واتفقت كلمتهم على تولية شجر الدر، مَلكة على مصر بوصفها أرملة السلطان الصالح أيوب وحلفوا لها،، واستحلفوا جميع العساكر المصرية والشامية وعلى تنصيب الأمير عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحي المعروف بالتركماني، أتابكاً للعسكر أي قائداً للجيش (١٠ صفر ٦٤٨ هـ)[١]. وخُطب لشجر الدر على المنابر، وضُربت السكة باسمها، وكان نقش السكة هكذا: «المستعصمية الصالحية. ملكة المسلمين. والدة الملك المنصور خليل»: وكانت شجر الدر قد ولدت من الملك الصالح أيوب ولداً مات صغيراً وكان إسمه خليلاً، فسمّيت والدة خليل.

وما أن تسلمت شجر الدر، زمام السلطة حتى رأت من المصلحة إعادة التفاوض مع الملك السجين، لويس التاسع، بُغية إجلاء الصليبيين عن الأراضي المصرية بسرعة، واستلام دمياط ففوّضت الأمير حسام الدين محمد بن أبي علي الهذباني نائب السلطنة السابق، بالتباحث مع ملك فرنسا بهذا الشأن، ففعل وتوصل معه الى تثبيت المعاهدة السابقة، على أن يخفض المبلغ المتفق عليه، الى أربعمائة ألف دينار ملكي بدلاً من خمسمائة ألف، يُدفع على دفعتين ويبقى أخو الملك الكونت دى بواتير رهينة بيد المسلمين حتى دفع القسم الأول.

وفي السادس من أيار ١٢٥٠م تمكن الملك لويس التاسع من دفع القسم الأول من الفدية، بعدما أرغم الداوية على إقراضه المبلغ، فأطلق سراحه مع جيشه، وأعيدت دمياط للمسلمين. وانتقل إليها الملك فكانت زوجته بانتظاره هناك.

وفي الثامن من الشهر ذاته، أبحر الملك ومن معه من الصليبيين، من دمياط باتجاه عكا، فوصلها في الثالث عشر منه بعد أن كانت زوجته

---

(١) ابو الفداء - ذات المرجع ص٨٦.

سبقته اليها. ودخل المسلمون مدينة دمياط واستلموها، ورفعوا العلم السلطاني على سورها بعدما أقام فيها الصليبيون مدة أحد عشر شهراً وسبعة ايام. وقد شاع على إثر ذلك بأن لويس التاسع يبغي العودة الى دمياط لفتحها ثانية وغزو مصر فقال في ذلك جمال الدين بن مطروح:

[قــل للفرنسيس إذا جئته	مقال صدقٍ من قؤول فصيح
[آجرك الله على ما جرى	من قتل عبّاد يسوع المسيح
[أتيت مصرَ تبتغي ملكها	تحسب أن الزمر يا طبل ريح
[فساقك الحَيْنُ الى أدهم	ضاق به عن ناظريك الفسيح
[وكل أصحابك أودعتهم	بسوء تدبيرك بطن الضريح
[خمسون ألفاً لا ترى منهم	إلاّ قتيلاً أو أسيراً أو جريح
[وفّقك الله لأمثالها	لعلّ عيسى منكم يستريح
[إن كان (باباكم) بذا راضياً	فرُبَّ غش قد أتى من نصيح
[وقل لهم إن أضمروا عودة	لأخذ ثأر أو لعقد صحيح
[دار ابن لقمان على عهدها	والقيد باق والطواشي صبيح

كانت الملكة شجر الدر ذكية فساست الرعيّة بلين ودهاء، وخفّضت الضرائب عنها، لتستميل القلوب، وراحت تتقرّب من أركان الدولة، والأمراء فمنحتهم الرتب والأقطاعات ولكن بالرغم من كل ما قامت به من أعمال مفيدة في سبيل إعلاء شأن الدولة، لم يلاق تعيينها على عرش مصر، قبولاً حسناً، لا لشيء إلاّ لكونها إمرأة، إذ لم تجرِ عادة المسلمين وقتذاك، بأن يتقلّد حكمهم إمرأة. فأنف كثير من الأمراء الخضوع لسلطتها، وخرج أهل دمشق عن طاعتها وبايعوا صاحب حلب: الملك الناصر يوسف حفيد صلاح الدين، وسلّموه مدينتهم[1] وذلك في

(١) ابو الفداء: المختصر. ج(٦) ص٨٧ - حوادث سنة ٦٤٨ هـ.

ربيع الآخر ٦٤٨ هـ. كما غضب الخليفة العباسي المستعصم (٦٤٠ - ٦٥٦ هـ) حينما علم بالخبر، وأرسل الى بلاد مصر يقول: [إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسيّر اليكم رجالاً]، على حسب رواية المقريزي.

وما كان لشجر الدر، أن تتوقع هذا العداء نحوها، وهي التي اختارها المماليك وأركان الدولة المصرية لعرش مصر، فهالها الأمر، وتهيبت الموقف. فهل تجابه الرأي العام الأسلامي، وتنافح في سبيل عرشها وليكن ما يكون؟ أم تخضع للواقع وتتخلّى عن الحكم، فتصون بذلك كيان الدولة؟ لا شك أن ما تميّزت به من نبل في الطبع، وحكمة سياسية اكتسبتها بالتجارب، قد جعلاها تتغلّب على عواملها النفسية، فمالت نحو الحل الثاني، وأعلنت عن رغبتها في التنازل عن العرش، غير أن بعض القضاة والأمراء، مِمّن يحفظون لها الجميل، أقنعوها بالتزوّج من قائد الجيش (الأتابك) عز الدين أيبك التركماني، وتفويض أمور الدولة اليه، فتتفادى بذلك، خلق مشكلة سياسية، لا يعلم نتيجتها الاّ الله. فنزلت عند نصيحتهم، وتزوجت بأتابك الجيش عز الدين أيبك، ثم تنازلت له عن الحكم (آخر ربيع الثاني ٦٤٨ هـ). فنصّب سلطاناً على مصر، وتلقب بالمعزّ. وكانت المدة التي مارست الحكم فيها شجر الدر، حوالي الثمانين يوماً، برهنت في خلالها، عن كفاءة وبعد نظر، في إدارة الدولة، ما يعجز عنه كثير من الحكّام.

وهنا أيضاً، لم ينظر الملوك الأيوبيون في سوريا، بعين الرضى الى تسلّم المماليك مقاليد الحكم في مصر، فأعلنوا معارضتهم لعزّ الدين أيبك، كما أبى بعض امراء المماليك، الخضوع لسلطانه، وطالبوا بتنصيب أحد أمراء البيت الأيوبي معه في السلطنة، فرضخ عز الدين لهم، ووقع الاتفاق على موسى بن يوسف ابن الملك الكامل محمدابن الملك العادل أبي

بكر بن أيوب، ليكون شريكاً صورياً في الحكم مع هذا الأخير، ولُقّب: بالملك الأشرف موسى: وكان له من العمر ست سنوات (٥ جمادي الأولى ٦٤٨ هـ).

الفصل الثاني

الملك لويس التاسع في سوريا

بالرغم من فشل الملك لويس التاسع في حملته الصليبية على مصر، فان أهالي عكّا، استقبلوه عند وصوله الى مدينتهم، استقبال الفاتحين، نظراً لما كان يتمتع به من نفوذ لدى الأفرنج، ولما يمثّله من قيم روحية وأخلاقية، جعلته فيما بعد، في مصاف القدّيسين. وكان الصليبيون يأملون أن يبقى الملك في سوريا، ليؤلف بينهم ويساعدهم على النهوض من كبوتهم، بعدما زعزعت كيانهم تلك الهزيمة القاصمة، التي أفقدتهم هيبتهم وحرمتهم من خيرة فرسانهم وأبطالهم، فكانت حاجتهم لشخصيته القوية، تدفع بهم، للإحتفاظ به في سوريا، بكل ما لديهم من قوة إقناع. والواقع أن الملك الفرنسي، عند إبحاره الى عكا، لم يكن يعتبر، كغيره من أمراء الأفرنج بأن حملته هذه قد انتهت، وعليه العودة الى بلاده رأساً قبل أن يتمّ مهمّته. بل كان يتردّد كثيراً في اتخاذ الخطوة الواجب عليه اتخاذها؛ فمن جهة، كانت والدته، ترسل له من فرنسا، للإسراع بالعودة الى بلاده، من أجل معالجة الحالة المضطربة الناتجة عن تهديد ملك الأنكليز، بمهاجمتها؛ ومن جهة ثانية، كان الأفرنج في سوريا يلّحون عليه في البقاء للدفاع عنهم، وحفظ كيانهم من الانهيار؛ فما كان منه، إلاّ أن دعا الى عقد مجلسه الاستشاري في (٢٦) حزيران ١٢٥٠م في عكا، وعرض على أعضائه الأمر، طالباً رأيهم، فيما اذا كان يجب عليه، الرحيل من سوريا أم البقاء فيها؟ فكان رأيهم بالإجماع تقريباً، متفقاً على الرحيل الى فرنسا؛ ولما أعلن الملك بأنه سيبدي رأيه فيما بعد؛

انفضّ المجلس والجميع يعتقدون، بأنه سيجاريهم، في رغبتهم، ولكن شدّ ما كانت دهشتهم، عندما قرّر أمامهم عن موقفه، بالبقاء في سوريا (٣ تموز)، ولكي لا يكون لأحد منهم أي اعتراض، أفهمهم بأنه لا يرغمهم على البقاء معه، بل يعطي الحرية لكل منهم ليفعل ما يريد.

وهكذا أقام الملك لويس التاسع في سوريا، بناء لإرادة الأفرنج فيها، وبصحبته المؤرخ جوانفيل، وجماعة قليلة من الفرسان الفقراء الذين أخذ على عاتقه، الانفاق عليهم، طالما هم في معيتّه، بينما رحل أغلب البارونات الكبار والفرسان والجنود، يرافقهم أخوا الملك؛ كونت دانجو وكونت دي بواتير، الى فرنسا. وكان أول ما فعله الملك لويس في سوريا هو أنه وضع نصب عينيه، إعادة تحصين المدن والمناطق التي تتطلب ذلك؛ فعمد لأجل هذه الغاية، الى تكليف المهندسين والبنّائين، بالكشف على المدن والحصون الصليبية التي هي بحاجة الى البناء، وإبلاغه عنها، ففعلوا، وبينّوا بتقاريرهم، ماهية الأعمال الواجب القيام بها.

لقد كان من بنود تلك المعاهدة التي عقدها الملك مع المصريين عند أسره، كما مرّ آنفاً أن تعاد الأرض المقدّسة الى الحالة التي كانت عليها في سنة ١٢٤٨ م، الاّ أن الملك تجاوز نصوص المعاهدة، وقام بأعمال إضافية لم يكن يحقّ له القيام بها، لأنها تزيد في تقوية المملكة، على الصعيد الحربي؛ فبدأ العمل أولاً من عكا، حيث بُنيت فيها الأسوار من جهة باب القديس انطوان، الى باب القديس لازار على البحر، أي في ضاحية مونموزارت، التي لم يكن تحصينها كافياً في السابق.

ثم انتقل الملك الى حيفا، وبعدها الى قيسارية، فرفع اسوارها (١٢٥١ م) ومنها الى يافا، فبنى فيها حصناً قوياً، وقوّى تحصين المدينة السفلى (١٢٥٢ - ١٢٥٣ م). وأخيراً شيّد في صيدا قلعة على البرّ

متممة للقلعة البحرية، وبنى سوراً كبيراً حول المدينة بكاملها.

وفي الوقت الذي كان يبذل فيه الملك الفرنسي، جهده في تقوية المملكـة الصليبيـة، عـلى الصعيـد الحربي، لم يفتـهْ أن يلعـب دوره الـديبلومـاسي بـانتهـاجـه سيـاسة وديـة مـع الملوك والأمراء المسلمين، وباستغلال خلافاتهم مع بعضهم أحياناً، لمصلحة الأفرنج.

فقدِ بينّا سابقاً ان الناصر يوسف ملك حلب تسلّم دمشق، بارادة الدمشقيين وضمّها الى ملكه، على إثر مقتل تورانشاه؛ وبعد ذلك سار عسكره الى غزة، فأخرج منها عسكر مصر، مع مقدّمهم: خاص ترك، واستولى عليها؛ فلما علم عز الدين أيبك بذلك أرسل جيشاً من المماليك بقيادة فارس الدين أقطاي الصالحي الجمدار الى تلك المدينة فاستعادها وأخرج منها الجند الدمشقي. (تشرين أول ١٢٥٠م - ٦٤٨هـ). وهذا ما حدا بالأيوبيين لتوحيد جهودهم، وإعداد العدّة لغزو مصر، وطرد المماليك منها، فاجتمعوا في دمشق، وبعدما تكامل جمعهم، خرجوا منها، ووجهتهم القاهرة (منتصف رمضان ٦٤٨هـ). وكان على رأسهم الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الملك العزيز، وبصحبته من الأيوبيين؛ الصالح اسماعيل ابن العادل بن أيوب؛ والأشرف موسى صاحب حمص وتل باشر والرحبة وتدمر، والمعظّم تورانشاه بن السلطان صلاح الدين؛ وأخوه نصرة الدين، والأمجد حسن، والظاهر شاذي ابنا الناصر داود ابن الملك المعظم عيسى ابن العادل بن أيوب؛ وتقي الدين عباس ابن الملك العادل بن أيوب، ومقدّم الجيش شمس الدين لولو الأرمني.

وبعد عبور جيش الأيوبيين صحراء سيناء، وبوصوله الى قرب العباسية في الشرقية على طريق القاهرة، التقى الجيش المصري، بقيادة المعزّ أيبك نفسه، ودارت بين الجيشين الاسلاميين معركة ضارية، استقرّ النصر فيها للماليك بالنتيجة، وانهزم الأيوبيون، بعدما كادوا يظفرون

باعدائهم، لولا تقاعس الملك الناصر، وعدم ملاحقة المصريين الذين كانوا قد أشرفوا على الهزيمة، مما أتاح الفرصة للمعزّ أيبك للثبات في مركزه مع جماعة قليلة من المماليك البحرية؛ وبالتالي، كسب المعركة (١٠ ذي القعدة ٦٤٨ هـ). وقد وقع أسرى شاميون كثيرون في أيدي المصريين منهم: قائد الجيش شمس الدين لولو، فضربت عنقه فوراً؛ والأمير ضياء الدين القيمري، فضربت عنقه أيضاً، والملك الصالح إسماعيل، والأشرف موسى صاحب حمص، والمعظم تورانشاه بن صلاح الدين وأخوه نصرة الدين وغيرهم.

ودخل أيبك التركماني والمماليك البحرية الى القاهرة منتصرين في (١٢) ذي القعدة ومعهم الأسرى الذين أدخلوا سجن قلعة الجبل[١].

وهنا انتهز الملك لويس التاسع، الفرصة السانحة، لاستغلال خلاف المماليك مع الأيوبيين، فطالب المعزّ أيبك بالإسراع، بإطلاق الأسرى الأفرنج الموجودين لديه في السجون المصرية، فنزل ايبك عند طلبه، اعترافاً بجميل الملك لويس لرفضه محالفة الملك الناصر يوسف مقابل العَرض الذي قدّمه له هذا الأخير [والرامي الى تسليمه بيت المقدس]، وأفرج عن قسم من أسرى الصليبيين بلغ نحواً من ثلاثة آلاف أسير.

وبعد ذلك عقدت معاهدة بين الملك لويس والمعزّ أيبك الذي كان ينوي مهاجمة دمشق لمدة خمس عشرة سنة تضمنت ايضاً تسريح الأسرى الصليبيين المعتقلين منذ تنصيب الأمبراطور فريدريك الثاني على عرش مملكة الأفرنج (١٢٢٦ م) وإعطاء الصليبيين البلاد الواقعة غربي الأردن بما فيها القدس، والخليل ونابلس، على أن تبقى غزة والداروم وبيت جبرين للمسلمين، مجرّدة من التحصين (آذار ١٢٥٢ م - ٦٥٠ هـ). إلاّ

---

(١) أبو الفداء: المختصر. ج(٦) ص٨٨ و٨٩ و٩٠ - حوادث سنة ٦٤٨ هـ.

أن هذه المعاهدة لم يتمّ تنفيذها، بفضل مساعي الخليفة العبّاسي المستعصم بالله، الذي استطاع أن يوفق بين المماليك والأيوبيين، بأن أرسل مندوباً من قبله هو: الشيخ نجم الدين القادري ليكون وسيطاً بالصلح بينهم فنجح في مهمته (أول نيسان ١٢٥٣ م - ٦٥١ هـ). وكان من مضمون هذا الصلح ان يكون للمصريين الى نهر الأردن، وللملك الناصر يوسف ما وراء ذلك[١].

ولم يغفر الملك الناصر يوسف لملك فرنسا موقفه منه، فهاجم مدينة صيدا ونهبها بعد أن قتل وأسر من الصليبيين ما يقرب من الألف ومايتي شخصاً (حزيران ١٢٥٣ م - ٦٥١ هـ).

أما الملك لويس التاسع، فقد حاول ردّ الضربة الى الأيوبيين، فأرسل قسماً من جيشه الى بانياس ليعيث فيها، وكاد أن يأخذ حصن الصبيبة القوي المشرف عليها، لولا انه صُدّ بالنتيجة وولّى الأدبار نحو صيدا.

ثم إن الملك الفرنسي، عقد محالفة مع شيخ الجبل، زعيم الحشاشين لتفادي شرّه وبعث بمندوب الى خان المغول، هو الفرنسيسكاني روبروك، ليتحقق من نواياه تجاه الحرب الدائرة بين المسلمين والأفرنج، فلم يكن جواب الخان مشجّعاً بل بالعكس كان سلبيّاً.

وعلى هذا، رأى الملك لويس أن مهمته انتهت في سوريا، فأبحر من عكا الى بلاده، تاركاً قسماً من جيشه لدى الصليبيين على رأسه صديقه جوفروا دي سرجين (٢٥ نيسان ١٢٥٤ م - ٦٥٢ هـ).

وبعد رحيل الملك الفرنسي عقد جان الابليني صاحب يافا والوصي على مملكة القدس الصليبية، هدنة مع الدمشقيين لمدة عشر سنوات لم

---

(١) ذات المرجع. ص.٩١ - حوادث سنة ٦٥١ هـ.

تدخل فيها يافا (١٢٥٥م) وتكرّست هذه الهدنة في سنة ١٢٥٦م بدخول يافا فيها: وذلك بعدما كان جان الأبليني وجوفروا دي سرجين، اشتبكا بمعركة، مع حاكم القدس، وهزماه فيها؛ وكان الحاكم من جملة القتلى (١٧ آذار ١٢٥٦م - ٦٥٤ هـ).

المماليك البحرية والأيوبيون

بعد انتصار المعزّ أيبك على جيوش الشام الأيوبية، ازداد نفوذ المماليك قوة، فأقدموا على ارتكاب الفظائع مع أهل مصر، وانتهز المعزّ فرصة عقد الصلح الذي جرى سابقاً بينه وبين الملك الناصر يوسف صاحب حلب والشام، فأزال اسم الملك الأشرف موسى من الخطبة معه، وقبض عليه، وبعث به الى عماته القبطيات. وكان موسى آخر من خُطب له من الأيوبيين بالسلطنة في مصر، وبه انقضت دولتهم في الديار المصرية[١]. وبعد تفرّد المعزّ بالسلطة، عيّن الأمير سيف الدين قطز، نائباً للسلطنة بمصر: ثم دبّر مؤامرة ضد الأمير فارس الدين أقطاي الذي كان يعارضه بالاستقلال بالسلطنة، ويشكّل خطراً عليه، فاتفق مع قطز، وبهادر وسنجر الغنمي على قتل أقطاي، فقتلوه غدراً، أثناء مروره ببعض دهاليز قلعة الجبل؛ بواسطة بعض أعوانهم.

ولما علم أنصار أقطاي بمقتله، خافوا على أنفسهم؛ فاجتمعوا وقرّروا الخروج من مصر الى الشام، وكان من بين الرؤساء المماليك المجتمعين: ركن الدين بيبرس البندقداري، وقلاوون الألفي، وسنقر الأشقر، والأمير بيسري وغيرهم. وتناهى للمعزّ أيبك، ما عزموا عليه، فأغلق دونهم أبواب القاهرة؛ ولكنهم أحرقوا بعض الأبواب وهربوا منها؛ وعند وصولهم الى غزّة، كاتبوا الملك الناصر يوسف صاحب حلب والشام، يستأذنونه بالقدوم عليه، فرحّب بطلبهم وقابلهم بالتلطّف

(١) ابو الفداء: المختصر. ج(٦) ص(٩٥) حوادث سنة ٦٥٢هـ.

وأقطعهم بعض البلاد الساحلية[١]، ومن ثمّ اتفق الناصر يوسف مع هؤلاء المماليك البحرية، على مهاجمة القاهرة، والاستيلاء على مصر، بعدما أطمعوه فيها؛ فرحل بجيشه من دمشق ونزل عمقاً من الغور، وأرسل الى غزة عسكراً فدخلوها؛ وكان المعزّ أيبك، عند علمه بسير الجيش الشامي الى مصر، قد قطع الطريق عليه، أمام قرية العباسية حيث نزل بانتظاره هناك مع جيشه. ولما التقى الجيشان في تلك الناحية دارت المفاوضات بين المعز والناصر وتوسط الخليفة العباسي من جديد للحؤول دون اشتباكهما، فأرسل نجم الدين الباذراي لهذه الغاية؛ وتمّ الوصول الى اتفاق، يتعهّد بموجبه المعزّ أيبك، بردّ كل القطاع الاسلامي من فلسطين، إلى الناصر يوسف حتى العريش، على أن يبقى للمعزّ، كل الديار المصرية، بحيث تكون العريش هي الحدّ الفاصل بين الدولتين (٦٥٣ هـ). وانفصل الحالُ على ذلك ورجع كلٌّ الى بلده[٢].

وبعد ذلك، رأى كلّ من الملك الناصر، والمعزّ أيبك، التودّد الى الخليفة العباسي المستعصم بالله، فبعث الأول برسول من قبله الى بغداد، هو كمال الدين المعروف بابن العديم، وحمّله بتقدمة جليلة للخليفة، فأدّى الأمانة وطلب من الخليفة خلعةَ لمخدومه، كما وصل عند ذاك الى بغداد، مبعوث من قبل الثاني، هو شمس الدين سنقر الأقرع، محمّلاً بتقدمة جليلة للخليفة أيضاً وسعى في تعطيل خلعة الناصر، وارتبك الخليفة تجاه ذلك، ولم يَسَعْهُ إلاّ أن يرجىء خلعة الناصر، ويعدَه، بواسطة رسوله، بإرسالها له في وقت آخر. وهكذا عطّل المعزّ سعي الناصر (أبو الفداء: المختصر: ذات المرجع. ص.٩٦)، فلم يحصل على خلعة الخليفة عند ذاك، ولكن الخليفة اوفى بوعده، فيما بعد وأرسل الطوق والتقليد والخلعة الى الناصر، وكان ذلك بعد مقتل المعزّ أيبك.

(١) المقريزي: السلوك. ج(١) القسم الثاني. ص(٣٩٢).
(٢) ابو الفداء: المختصر. ج(٦) ص(٩٥ - ٩٦) - حوادث سنة ٦٥٣ هـ.

- مقتل المعزّ أيبك -

بعدما خلعت الملكة شجر الدر نفسها من الحكم، وسلّمت العرش لزوجها المعزّ أيبك، بقيت تتصرف بأمور الدولة كسابق عهدها، فكأنها ما زالت هي الملكة، تأمر وتنهي، وتقدّم المشورة لزوجها، بما يجب أن يفعله، وكبار الأمراء، يتسابقون لارضائها، الى أن دبّ الخلاف بينها وبين زوجها، على إثر الزامها له بتطليق زوجته الأخرى، أم ولده نور الدين، فتجافيا، وبلغ الخلاف ذروته بينهما حينما اتصل بها أن زوجها قد خطب إبنة الأمير بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فأخذتها الغيرة، بأشد ما تأخذ الغيرة النساء في مثل هذه الحالة، وأضمرت الشرّ لزوجها، وصممت على التخلص منه. وإذ كان قد أقام بقناطر اللوق، بعيداً عنها بعد المجافاة التي حصلت بينه وبينها، فقد بعثت اليه تدعوه للحضور اليها، مستعطفة حلمه، وقائلة إنها لا تزال على طاعته، فصدّقها، وأتى الى القلعة حيث تقيم زوجته واجتمع بها، وبعد ذلك دخل الحمام، ليغتسل، فهاجمه خمسة من خدمها، على رأسهم سنجر الجوجري، (وهو مملوك طواشي)، كانت شجر الدر قد كلّفتهم بقتله، فأخذوا بخناقه، فاستغاث بها، فرقّ قلبها له، وطلبت اليهم، ان يدعوه وشأنه، فقالوا لها: متى تركناه لا يبقي علينا ولا عليك، ثم قتلوه (٢٣ ربيع الأول ٦٥٥ هـ)، وأشيع في القلعة بأن المعزّ أغمي عليه، وهو مريض، ولكن في الصباح، ذاع خبر مقتله بين الناس، فاستهجنوا الأمر، وحاول مماليكه قتل شجر الدر فحماها المماليك الصالحية، ثم اجتمع الأمراء واكابر الدولة، واتفقت كلمتهم على تولية الملك المنصور نور الدين علي، ابن المعزّ، ملكاً على مصر مكان أبيه، وكان في الخامسة عشرة من عمره، ولما تم له الأمر، قبض على خدم شجر الدر الذين قتلوا والده وصلبهم على باب القلعة، اما هذه الأخيرة فقد نُقلت الى البرج الأحمر، قيد التوقيف، ثم سُلّمت الى أم الملك المنصور، التي كان

المعزّ قد طلّقها، فضربتها الجواري بالقباقيب حتى ماتت، وأُلقيت جثتها شبه عارية في خندق بقيت فيه ثلاثة ايام، ثم دُفنت بتربتها الخاصة المعروفة باسمها، بجوار بيت الخلفاء (١٦ ربيع الآخر ٦٥٥ هـ).

وكان اول ما قام به الملك المنصور علي، في تدبير أمور الدولة، أنه قبض على الوزير شرف الدين بن صاعد الفائزي، واستولى على أمواله، وعزل علم الدين سنجر الحلبي، من أتابكية العسكر، وولّى عليها بدلاً منه: فارس الدين أقطاي المستعرب الصالحي. أما نيابة السلطنة بمصر، فقد بقيت بتولّي سيف الدين قطز.

في ذلك الوقت، كان المماليك البحرية، الذين خرجوا من مصر الى البلاد الشامية بعد خلافهم مع الملك المعزّ، كما مرّ آنفا، قد فارقوا الناصر صاحب حلب والشام والتجأوا الى الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الملك العادل ابن الملك الكامل، صاحب الكرك، وأطمعوه في ملك مصر، فجهّزهم بما احتاجوه، وساروا جميعاً متجهين الى مصر، فالتقوا بالجيش المصري بالصالحية وكان بقيادة سيف الدين قطز، نائب السلطنة، ونشبت بين الفريقين معركة، انهزم فيها عسكر الملك المغيث، والمماليك البحرية، ومَن معهم، ووقع في أسر المصريين، قلاوون الصالحي، وبلبان الرشيدي وغيرهما، وكان ركن الدين بيبرس البندقداري مع المماليك البحرية عند ذاك، فلحق بأصحابه الى الكرك (منتصف ذي القعدة ٦٥٥ هـ) ثم أفرج عن قلاوون، فعاد الى الكرك[1].

---

(١) المقريزي: السلوك ج(١) قسم(٢) ص.٤٠٦ - وأبو الفداء: المختصر: ج(٦) ص.٩٨ - حوادث ٦٥٥ هـ.

الفصل الثالث

الحرب الأهلية على أراضي الأفرنج

كان الملك لويس التاسع الفرنسي، قد رحل الى بلاده، كما مرّ سابقاً، وهو يأمل ان يحافظ الصليبيون على المكاسب التي حققّها لهم طيلة وجوده في سوريا، ويعملوا على تدعيم الدولة، وتقوية أساساتها، لكي يستطيعوا مواجهة المسلمين، ريثما تردهم النجدات من أوروبا، ولكن خاب فأله، إذ ما أن خلا الجو للأفرنج بغيابه، حتى عادت الخلافات السياسية تذرّ قرنها بين أوساطهم، فانتشرت الفوضى بين ظهرانيهم، وراحت كل فئة تعمل على الاستئثار بالمنافع على حساب الفئة الأخرى، فبعد ان انقلبت عكا، العاصمة الرسمية لمملكة بيت المقدس الاسمية، الى مقاطعة مستقلّة، تتمتّع بالحكم الذاتي، وطُرد منها، محازبو الأمبراطور فريدريك الثاني، اشتدت الحزازات أكثر ما اشتدّت، بين الجالية الجنوية، والجالية البندقية، بسبب تجاورهما وتشابك مصالحهما المتعدّدة. وقد انفجر الوضع بين هاتين الجاليتين الكبيرتين، عندما راحت كل منهما تطالب بملكية دير القديس سابا (Saint - Sabas) الواقع على قمة رابية مونجوا (Montjoie)، بقرب أحد الأبراج الجنوية، مع ما يتبعه من منازل وعقارات في شارع السلسلة، وتأييداً لادعاءاتها، اعتمدت كلّ منهما، براءة بابوية، بهذا الخصوص؛ وهذا ما أدّى الى انـدلاع حرب الشوارع المحليـة بين أفرادهما في سنـة: (١٢٥٦ م) - (٦٥٤ هـ)[1]، والتي امتدت فشملت جميع البلاد الصليبية

---

(1) Jean Richard: Le Royaume Latin de Jerusalem. P. P. 286 - 287.

وقسمت الأفرنج الى معسكرين متنازعين، أخذ كل منهما يطلب معونة المسلمين أحياناً ضد خصمه، وبالتالي، انتشرت، مع الوقت، في حوض البحر المتوسط باكمله. فالبنادقة، كانوا على حلف مع أسياد بيروت ويافا، آل إبلن، والداوية، والتوتون والبيازنة، والتجار البروفنسيون، والجنويون كانوا مع فيليب دي مونفورت صاحب صور، والأسبتارية والتجار القطالنة.

ولما احتدمت الحرب بين الفريقين وحلفائهم، استعملوا فيها جميع أنواع الاسلحة سواء في البر أم في البحر، وكان من نتيجتها تهدّم الأبنية والمنازل والقلاع وتخريب الطرقات والشوارع، وغرق السفن وما فيها، واحتراق الأخضر واليابس.

وقد أصاب شرَرَ هذه الحرب إمارة أنطاكية - طرابلس، التي انقسمت على نفسها وانضم أميرها بوهمند السادس، الى البنادقة، بينما انحاز تابعه: برتراند، صاحب جبيل، الى الجنويين، وتحاربا تحت أسوار طرابلس، فجُرح في المعركة بوهمند السادس بيد برتراند نفسه (١٢٥٨ م). اما برتراند فقد قتله بعد بضعة اشهر، أحد الفلاحين الأفرنج، وأرسل رأسه هدية الى بوهمند[١].

وكانت حصيلة هذه الحرب الأهلية بين الأفرنج في سوريا، ما يقرب من العشرين الف قتيل، من الفريقين المتخاصمين، انسحب على إثرها، الجنويون من عكا ورحلوا الى صور، في حين استولى البنادقة على عكا وبقوا فيها. ولم تهدأ الحرب الأهلية هذه بين البنادقة والجنويين الاّ في سنة (١٢٧٠ م) بناء لطلب الملك لويس التاسع، حينما وافق الجميع على إجراء الصلح.

بيد ان هذا الصلح لم يوقف الحرب نهائياً، إذ استمرت المناوشات

(1) René Grousset: L'Epopée de Croisades. P. 372.

بينهم لغاية سنة ١٢٨٨ م، حيث وُضِع لها حدّ، بعقد معاهدة وافق عليها جميع الفرقاء المتحاربين مع حلفائهم.

ومما لا شك فيه، أن هذه الحرب الأهلية، قد أضعفت الأفرنج في سوريا وساهمت بقسط كبير في زعزعة أركان مملكتهم، مما أدّى بالنهاية الى انهيارها وزوالها شيئاً فشيئاً تحت ضربات المسلمين، كما سيأتي.

- المغول في بلاد الاسلام -

بعد وفاة جنكيزخان، توقف الفتح المغولي، مؤقتاً، ثم عاد فانتشر بواسطة إبنه أوكداي، الذي أكمل اخضاع بلاد فارس والكرج، واجتاح الروسيا والمجر وبوهيميا، ووصلت طلائع جحافله الى الأدرياتيك، ثم غيّرت طريقها نحو الشرق. فتخلصت المجر وبوهيميا من قبضته، في حين بقيت الروسيا يغلّلها نير المغول هؤلاء.

وشعر المسلمون بأن الخطر المغولي أخذ يحيق بهم وهم عاجزون عن اتقائه، والوقوف بوجه هذا التيار المندفع، الذي يُرهب العالم بأجمعه. وفكروا بالتعاون مع مسيحيّي أوروبا لمجابهة الغزاة. ولهذه الغاية ذهب وفد من السفراء، من مسلمي آسيا الصغرى (١٢٣٨ م) لمقابلة ملك فرنسا آنذاك: لويس التاسع، والطلب اليه، تقديم المعونة لهم ضد التتر (المغول) لأن هؤلاء، إذا اخذوا بلاد الاسلام، فلن يتورعوا عن اجتياح بلاد الغرب بعدئذٍ، وانفصل احد السفراء من الوفد الاسلامي أثناء وجوده في فرنسا، وتوجه الى انكلترا، ليعرض على ملكها هنري الثالث، ذات العرض، ولكن الملكين لويس وهنري، لم يلبيّا طلب الوفد الاسلامي[1]، بناء لتوجيهات البابا.

ونشير هنا، إلى ان مندوب البابا جان دي بلانكاربن، الذي كان

---

(1) A. Mallet & J. Isaac: - XV - XVI Siécles. P. P. 28 - 29.

أوفد في سنة ١٢٤٦م الى خان المغول، لاقناعه باعتناق المسيحية، لم يحظَ بما كان يتمناه البابا، لأن الخان كيوك، آنذاك، استهجن الطريقة التي اتبعها هذا المندوب لاتمام مهمته، إذ، فور وصوله الى منغوليا، راح يبشر بالسرّ، بالمسيحية بين المغول ودون إذن الخان.

كما ان الراهبين الفرنسيسكانيين اللذين بعث بهما الملك لويس التاسع الى الخان المغولي وهما: أندره‌دي لونجيمو وغليوم‌دي روبروك، بقصد تجديد التفاهم ضد المسلمين، فشلا في رحلتهما، لأن الخان طلب ان يدفع له ملك فرنسا جزية سنوية باهظة (١٢٥٣)م.

ولما فشلت المفاوضات التي دارت بين البابا وملك فرنسا من جهة وبين خان المغول من جهة ثانية، للأسباب المشار اليها، حاول هاتون الأول ملك أرمينيا، التقرّب بدوره من المغول، إذ ما كاد هؤلاء ينتهون من الاستيلاء على إيران، حتى أعلن ملك أرمينيا خضوعه لهم، وأوفد شقيقه سامبات سفيراً لدى الخان، ليطلب حمايته (١٢٤٧م). ثم توجّه ملك أرمينيا بنفسه الى قره كوروم لتقديم واجبات الطاعة للخان مونكا (١٢٥٤م)، فأحسن هذا وفادته، وتعهّد له، بالدفاع عن مملكته والحفاظ عليها. وقد حذا حذوه، صهره زوج إبنته: أمير انطاكية - طرابلس، بوهمند السادس: فوضع جيشه تحت تصرّف المغول، وأقام، بناء لطلب الخان، بطريركاً أرثوذكسياً على أنطاكية، الأمر الذي أثار ثائرة بطريرك بيت لحم، ودفعه لمعاقبة بوهمند السادس بالحُرم.

في ذلك الوقت، أعدّ الخان مونكا، شقيقه هولاكو، للزحف على الشرق الأدنى وديار الأسلام (١٢٥٥م) وشيّعه عند رحيله مع جيشه قائلاً له: [ستدخل من جهة طوران، ممالك إيران، فانشر هناك، (يَسَق) وتقليد جنكيزخان كافة، من جيحون الى جوف مصر].

وإذ تمكن هولاكو من تثبيت أركان دولة المغول في إيران، فقد

خضع له حكّام تلك البلاد المحلّيون، من بقايا الدولة الخوارزمية، وأعلنوا ولاءهم لخان المغول الأكبر. ولم يشذّ عن ذلك سوى الباطنية (الأسماعيلية) الذين ظلوا معتصمين في قلاعهم في بلاد فارس وهي: ألَمْوت وفهستان، وكرده كوه ومهرين وسرتخت ولبسر، وغيرها من المعاقل الكثيرة التي كان زعيمهم شيخ الجبل ركن الدين خورشاه يتحكم بها. فشنّ عليهم هولاكو حرباً ضروساً وأرغمهم على الاستسلام (كانون الأول ١٢٥٦م - ٦٥٤هـ). وقبض على شيخ الجبل وأرسله مع رجاله وحاشيته ونسائه وأطفاله، الى قره كوروم، حاضرة المغول، فأمر مونكا بقتلهم جميعاً، وبذلك، تبددّ شمل الباطنية في بلاد فارس، بعدما كانوا مصدراً للقلاقل في بلاد الاسلام كافة.

ثم عزم هولاكو على فتح بغداد عاصمة الخلافة العباسية، حينما رأى أن الظروف مؤاتية لهذا الغرض، ذلك ان البغداديين كانوا على خلاف مع بعضهم، فالسُنّة كانوا يميلون الى افراد البيت العبّاسي ومن جملتهم ابن الخليفة الذي كان يؤازرهم، بقوة، اما الشيعة فكانوا ينتمون للوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي، الشيعي، الذي كان يحميهم في نزاعهم مع السنّة، ويكاتب المغول سرّاً ويحرّضهم على قصد بغداد، ويطمعهم فيها[1].

ويشير إبن الوردي في تاريخه الى رسالة بعث بها الوزير إبن العلقمي، الى وزير إربل جاء فيها: [إن الكرخ المكرّم قد نُهب، وديس البساط النبوي المعظم، ونُهبت العترة النبوية، واستؤسرت العصابة الهاشمية].

وقبل ان يُعلن هولاكو الحرب على الخليفة العباسي المستعصم بالله، طلب منه الاعتراف بسيادة المغول على بغداد. فرفض الخليفة بشدّة هذا الطلب، وأرسل الى هولاكو، بجواب، ينضح بالغرور، ومما جاء فيه:

(١) أبو الفداء: المختصر. ج(٦) ص.٩٩ - حوادث سنة ٦٥٦هـ.

[لقد جعلت نفسك فوق العالم أجمع، وظننت أن أوامرك هي أوامر القضاء. كيف تطلب مني طلباً لا تستطيع تنفيذه. أيخيّل إليك أنك بذكائك وقوة جيشك وشجاعتك ستأسر نجماً من النجوم؟ ثم أخذ الخليفة يمجّد الخلافة ويقول: إن العديد من الفرسان والرجالة على استعداد للقتال، وهم رهن إشارتي، حتى إذا حلّت ساعة الأنتقام جففوا مياه البحر. ثم ختم الخليفة كتابه بما يلي: فما بالك بخنادق رعيتي وحصونهم، فاسلك طريق الودّ، وعُد الى خراسان، وإن كنت تريد الحرب، فلا تتوان لحظة، ولا تعتذر إذا عزمت. إن لي ألوفاً مؤلفة من الفرسان والرجالة على أتم استعداد لخوض غمار الحرب][1].

وصل الكتاب الى هولاكو ومعه بعض الهدايا والتحف، فأبدى امتعاضه من عباراته وقال: لقد ألقى الله في روع هؤلاء القوم مثل هذه الأوهام. ثم ردّ هولاكو على الخليفة بكتاب يحتوي على عبارات التهديد والوعيد، جاء فيه: [إنك تركت نهج آبائك، فاستعدّ للحرب، وانتظر جيشاً قويّاً. ولو أن الشيطان وضع عراقيله أمام خططي لانتصرت عليه بعون الله].

واضطرب الخليفة لهذا الجواب، واستعد للحرب، وكان أن أقدم أهل بغداد على إهانة رسل هولاكو، وأساؤا معاملتهم. فغادروا عاصمة العباسيين وهم على أشد ما يكون من الاستياء.

وزحف هولاكو الى بغداد بجحفل عظيم، يبلغ المائتي ألف محارب، وحاصرها[2] بعدما كان قسم جيشه الى ثلاثة اقسام: قسم تولّى قيادته بنفسه من همذان، لمهاجمة المدينة من الشرق، وقسم قاده بايجونوين، لاقتحامها من الغرب، وقسم بقيادة كتبغا، لاقتحامها من الجهات

---

(١) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ، مجلد(٢) ١/٢٦٨ - ٢٦٩ - ٢٧٠.
(٢) ذات المرجع - (ج) ١/٢٨١.

الأخرى (١٥ محرّم ٦٥٦ هـ - ٤ شباط ١٢٥٨ م). وأعدّ المغول عدّة الحصار.

ولما علم الخليفة المستعصم بالله بزحف المغول الى بغداد، أسقط بيده، وما كان منه إلاّ أن جمع على عجل، جيشاً من المرتزقة جلّه من الفرس والأتراك المقيمين في العراق، واكتفى باقفال أبواب عاصمته، فجدّ المغول في القتال حتى ملكوا الأسوار بعد عشرة أيام من الحصار، وتمّ لهم ملك المدينة، فدخلوها وأعملوا السيف في رقاب أهاليها، ونهبوا كل ما فيها، فأرسل الخليفة الى هولاكو، يُعلن التسليم ووقف القتال، ويطلب الخروج من بغداد، فأمره هذا الأخير، بالنزول الى باب كلواذي، أحد أبواب المدينة، ففعل، ثم استحضره هولاكو مع أولاده، فساروا اليه، ومعهم ثلاثة آلاف من القضاة والفقهاء والصوفية والأمراء وأعيان المدينة، ولما اقترب موكب الخليفة من دار هولاكو، حُجب مرافقوه عنه، ولم يبق معه سوى سبعة عشر شخصاً منهم، اقتيدوا جميعاً فمثلوا بين يدي القائد المغولي، وكان الخليفة عرضة للاضطراب، يبدو عليه التعب، فقال له هولاكو: «انت المضيف ونحن الضيوف، فأحضر ما يليق بنا». فأمر الخليفة باحضار النفائس الموجودة في قصره، فأحضر منها الشيء الكثير، من أثواب متنوعة وجواهر ثمينة ولآليء ودرر مُعبّأة في أطباق، وعشرة آلاف دينار. فلم يلتفت اليها هولاكو، وفرّقها على أمرائه، ثم التفت الى الخليفة وقال له: «ان الأموال التي تملكها على وجه الأرض ظاهرة، وهي ملك عبيدنا. ولكن أذكر لنا ما تملكه من الدفائن، وما هي، وأين توجد؟ فاضطر المستعصم بالله عند ذاك، للاعتراف بوجود حوض مملوء بالذهب في ساحة القصر. فحفروا الأرض. فكان الحوض مليئاً بالذهب الأحمر وكلّه من سبائك تزن الواحدة مائة مثقال[1].

(١) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ (م)٢ - ج - ١/٢٩١ - ٢٩٢.

وبعد ذلك، استباح هولاكو مدينة بغداد لمدة اربعين يوماً، فأقدم جنده على قتل من فيها من الرجال، والنساء، والاطفال، ولم يعفوا عن أحد من العلماء والفقهاء وحملة القرآن، وخربوا المساجد ليحصلوا على ذهب قبابها، وجرّدوا القصور مما فيها من التحف النادرة، وأحرقوا كل ما في المدينة من كتب، وأصبحت بغداد قاعاً صفصفاً، والقتلى في الطرقات، تسدّ شوارعها لكثرتها، ولما نودي بالأمان، خرج من تحت الارض، أناس كانوا اختفوا في المقابر والمطامير تلوح عليهم آثار الجنون، وهم كالموتى، لا يكادون يُعرفون لضعفهم وهزالهم. ولما انتشرت الأوبئة، من جرّاء الجثث الملقاة على الطرقات، مات من كان نجا من القتل، وقد بلغت حصيلة الضحايا في بغداد ما يزيد عن المليون شخص، إذ كانت وقتذاك غاصّة بأهل الأطراف من الذين أجفلوا أمام الجيش المغولي، ظنّاً منهم، بأن العاصمة تعصمهم من المغول، فكانوا هدفاً لسيوف الغزاة.

ثم أمر هولاكو بقتل الخليفة المستعصم بالله، مع أولاده وخواصّه، على باب كلواذى، ولم يسلم من إبنائه الاّ ولد صغير، يدعى مبارك شاه، شَغفت به أولدجاي خاتون، فأرسل الى بلاد المغول حيث ترعرع هناك وتزوّج منهم فيما بعد. وتجدر الإشارة هنا، الى أن كثيراً من المسيحيين النساطرة والأرمن، اشتركوا في جيش المغول، عند زحفه على بغداد.

وبعد هذا الفتح، استطاع هولاكو السيطرة على مدن العراق، كالبصرة والموصل والنجف وغيرها.

وهكذا أفلت شمس الخلافة العباسية عن بغداد، بعدما أشرقت منها على العالم الأسلامي مدة (٥٢٤) سنة، وبقي المسلمون ثلاث سنوات [illegible]صف السنة من غير خليفة، الى أن بويع في مصر، أحمد بن الظاهر بالله [illegible]باسي، كما سنبينه فيما بعد.

الفصل الرابع

المغول في سوريا

على إثر سقوط بغداد وباقي مدن العراق بيد هولاكو، أرسل هذا، قسماً من جيشه، لمحاصرة مدينة ميافارقين، ما بين النهرين، وكان صاحبها حينئذٍ الملك الكامل محمد ابن الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، واستمر الحصار عليها لمدة سنتين تقريباً، حتى فنيت الأزواد وتفشّى الوباء فيها، ولم يعد باستطاعة أهاليها المثابرة على القتال، فاستولى عليها التتر، وقبضوا على الملك الكامل محمد وقتلوه، وذبحوا الأهالي المسلمين دون غيرهم فيها (جمادى الأولى ٦٥٨ هـ)[1]. وبعد مقتل الملك الكامل محمد، حمل المغول رأسه على رمح وطافوا به في البلاد، حتى وصلوا الى دمشق وعلّقوه في شبكة بسور باب الفراديس، الى أن عادت دمشق الى المسلمين، فدُفن بمشهد الحسين داخل باب الفراديس. وفيه يقول الشيخ شهاب الدين بن أبي شامة أبياتاً منها:

[إبن غازي غزا وجاهد قوماً   أثخنوا في العراق والمشرقين
[طاهراً عالياً ومات شهيداً   بعد صبر عليهم، عامين
[لم يَشِنْهُ إذ طِيف بالرأس منه   وله أسوة برأس الحسين
[ثم واروا في مشهد الرأس ذاك   الرأس واستعجبوا من الحالين

(١) Jean Richard: le Royaume Latin de Jérusalem, P. 305.
وأبو الفداء: ج(٦) ص١٠٢ و١١٠ - حوادث سنة ٦٥٨.

وكان هولاكو، قد بعث برسله الى ملوك وأمراء المسلمين، يأمرهم بالحضور اليه، وبذل الطاعة له، فلبّى دعوته فريق منهم وتخلّف آخرون من بينهم الملك الكامل محمد، فكان نصيبه القتل. أما الفريق الذي استجاب له، فكان منه، بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وسعد بن أبي بكر، أتابك فارس، والسلطان عز الدين كيكاوس، وأخوه ركن الدين قليج أرسلان، إبنا كيخسرو بن كيقباذ، والناصر يوسف الأيوبي ملك حلب ودمشق، الذي أوفد إبنه العزيز مكانه. ثم عزم هولاكو، على إكمال الفتح، فانحدر بجيوشه الى شرقي الفرات (اوائل ايلول ١٢٥٩م - ٦٥٧ هـ) ونازل حرّان وأخذها، وبعدها استولى على آمد ونصيبين والرها وسروج وألبيرة، ومن هناك أرسل إبنه سموط الى الشام، وبوصوله الى ظاهر حلب (العشر الأخير من ذي الحجة - ٦٥٧ هـ) خرج اليه نائبها الملك المعظم نورانشاه بن السلطان صلاح الدين (عمّ الملك الناصر يوسف) على رأس الجيش الحلبي لقتاله ودارت المعركة بين الفريقين عند (بانقوسا) فانهزم المسلمون طالبين المدينة، والمغول يقتلون فيهم، حتى دخلوها. وبعد ذلك رحل المغول الى (عَزاز) فتسلّموها بالأمان.

عند ذاك، كان هولاكو قد عبر الفرات بجموعه، وكان ملك أرمينية، هاتون الأول وصهره أمير انطاكية - طرابلس بوهمند السادس، قد وافياه بجندهما قرب الرها وسارا بركابه لفتح حلب.

ولما وصل هولاكو الى حلب وحاصرها، أرسل يطلب من الحلبيين تسليمه المدينة والقلعة ليبقي فيها شحنة، ويتوجّه هو في سبيله، وكان رسوله اليهم: صاحب أرزن الروم، فلم يجب الملك المعظم تورانشاه الى ذلك، وقال له: ليس لكم عندنا الاّ السيف.

وهاجم هولاكو المدينة الكبيرة التي كان دأبها الصمود في وجه

الأعداء، وذلك من عدة نواحٍ، وبذل السيف في المسلمين، وصعد الى القلعة خلق عظيم. ودام القتل والنهب من نهار الأحد تاسع صفر الى الجمعة رابع عشر منه (٦٥٨ هـ)، فأمر هولاكو برفع السيف، ونودي بالأمان على الأهالي، وكان الملك المعظم تورانشاه مع قسم من جيشه في القلعة، فحاصرها القائد المغولي واستمر الحصار عليها مدة شهر، ثم سلّمت بالأمان (١١ ربيع الأول). وجعل هولاكو نائباً على حلب، عماد الدين القزويني، كما عيّن محيي الدين بن الزكي على قضاء الشام.

وما أن سقطت حلب بيد هولاكو حتى أسرع كثير من الحكّام المسلمين المتخاذلين الى الاستسلام له، والدخول في طاعته، فأتى اليه صاحب حمص: الأشرف موسى بن إبرهيم بن شيركوه الأيوبي، وقدّم له خضوعه، فأقرّه على ملك حمص، وحضر ايضاً الى حلبَ، شخصيات كبيرة من حماة، ومعهم مفاتيح المدينة وطلبوا الأمان من هولاكو، لأهلها وشحنة يكون عندهم. فأعطاهم الأمان وارسل الى حماة شحنة رجلاً أعجمياً، يدّعي أنه من ذرية خالد بن الوليد، يدعى خسروشاه، وكان صاحب حماة الملك المنصور بن المظفر، وقتذاك بدمشق، فرحل مع عياله الى مصر.

اما الملك الناصر يوسف الأيوبي ملك دمشق وحلب، فقد بعث يستغيث بصاحب الكرَك، الملك المغيث، فلم يغثه، وطلب نجدة من مصر فلم ينجده أحد، فهجر دمشق ومن فيها هارباً الى غزة ليعبر الحدود الى مصر، الاّ أنه عاد وغيّر رأيه، وعرّج على الأردن، فوقع بيد القائد المغولي كتبغا، الذي أرسله الى هولاكو.

وفي تلك الأثناء، أوفد الدمشقيون بعض أعيانهم الى هولاكو في حلب، حيث سلّموه مفاتيح مدينتهم، فتسلّمها وعيّن نائباً عنه عليها، هو القاضي محي الدين بن الزكي، ولكن قلعة دمشق عَصَت فيها حاميتها

فلم تسلّم، فأسرع القائد كتبغا إليها وحاصرها مدة اربعين يوماً حتى استسلمت الحامية وسلمت القلعة.

وقد ساعد في محاصرة قلعة دمشق، أمير أنطاكية - طرابلس، الذي أقام قدّاساً في احدى كنائس دمشق، فيما كان جنوده يدخلون الجوامع ويدنّسونها.

وتابع المغول فتحهم لمدن الشام الاسلامية، فاستولوا على سائرها حتى وصلوا الى غزة دون مقاومة تذكر، واستقرت شحناتهم بهذه البلاد، بحيث أصبحوا خلال مدة وجيزة، يتمتّعون بالسيطرة على ديار بكر وديار ربيعة، والشام بأسرها، فضلاً عن بغداد ومدن العراق.

وفي خضمّ هذه الحروب، استُدمي هولاكو الى قفقاسيا، فترك سوريا بعد أن عيّن كتبغا نائباً عنه فيها، وكان هذا مسيحيّاً نسطورياً، على أمل أن يستميل بواسطته بارونات عكّا الصليبيين اليه.

موقعة عين جالوت وهزيمة المغول

قبل استسلام دمشق للمغول، وهرب الملك الناصر يوسف منها، كان ركن الدين بيبرس البندقداري قد لجأ إليها، مع باقي المماليك البحرية الذين اختلفوا هم والملك المغيث، فلما استولى هولاكو على حلب اغتنم بيبرس الفرصة، وسار وأصحابه الى غزّة، بعدما تحقق من ان هناك بعض الأمراء في دمشق مثل الأمير زين الدين الحافظي، يريدون مداراة المغول، والدخول في طاعتهم تفادياً للقتل، ويلحّون على الملك الناصر يوسف للقبول بالاستسلام، فثارت ثائرة بيبرس عندئذٍ وقال للأمير زين الدين: «أنتم سبب هلاك المسلمين» ووجّه إليه صفعة قوية، وخرج من المدينة الى غزة؛ حيث أقدم على عمل كان فيه فائدة كبيرة للمسلمين؛ وهو أنه أوفد من قبله، علاء الدين طيبرس الوزيري، الى مصر، ليطلب من الملك المظفر قطز، الأمان له ولرفاقه. فدعاه قطز للحضور اليه،

ووعده بالوعود الجميلة، فرحل بيبرس مع جماعته الى مصر ووصلها في ربيع الأول سنة ٦٥٨ هـ فاستقبله قطز مرحّباً وأنزله في دار الوزارة، وأقطعه قليوب وأعمالها[١]. ثم عينّه قائداً للجيش المصري.

كان سيف الدين قطز نائباً للسلطنة، في مصر، وكان السلطان الملك المنصور نور الدين علي،مستهتراً بأمور الدولة لصغر سنّه، لا يهتم الاّ بأموره الخاصة، مما دعا والدته للتدخل في شؤون الحكم، فاضطربت الأحوال في المملكة، وطمع قطز بالتسلّط على السلطة، خصوصاً وأن المغول، بفتحهم بغداد، ثم استيلائهم على الشام وغيره، باتوا يهدّدون مصر ذاتها، فرأى أن الوقت حان للتخلّص من الملك المنصور؛ فجمع أمراء الدولة وقال لهم ((لا بدّ من سلطان قاهر يقاتل هذا العدوّ، والملك المنصور، صبيّ لا يعرف تدبير المملكة)). فلم ينكر الأمراء عليه هذا القول: فقبض على المنصور مع أمّه وأخيه، واعتقلهم بقلعة الجبل، وأعلن نفسه سلطاناً على مصر، (تشرين الثاني ١٢٥٩م - ٦٥٨هـ) وتلقّب بالملك المظفّر قطز.

ولما اعترض بعض الأمراء على هذا الانقلاب الأبيض، قال لهم قطز: «إني ما قصدت إلاّ أن نجتمع على قتال التتر؛ ولا يتأتى ذلك بغير ملك، فاذا خرجنا وكسرنا هذا العدوّ، فالأمر لكم، أقيموا في السلطنة من شئتم[٢]».

وكان هولاكو، قبل رحيله عن الشام، قد أرسل الى المظفر قطز، كتاب تهديد ووعيد، يطلب فيه منه التسليم والدخول في طاعة الخان الأكبر؛ فلما قرأ قطز الكتاب. أخذته الحميّة، فأمر بقتل رسل هولاكو، فقتلوا وعُلّقت رؤوسهم على باب زويلة[٣]؛ وأخذ يستعدّ لتجهيز جيشه؛

---

(١) أبو الفداء: المختصر. ج(٦) ص١٠٦ - ١٠٧ - حوادث سنة ٦٥٨ هـ.
(٢) المقريزي: السلوك. ج(١) قسم (٢) ص.٤١٧.
(٣) ذات المرجع - ص - ٤٢٩.

فجمع العلماء والقضاة لمشاورتهم فيما يجب أن يتقاضاه من الرعية، من أجل الاستعانة بهم على قتال العدو؛ فقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام، الذي حضر الاجتماع: «لا يجوز أن يؤخذ شيء من الرعية، حتى لا يبقى في بيت المال شيء، وتبيعوا أموالكم من المواشي والآلات، ويقتصر كل منكم على فرسه، وسلاحه». فاتفق أنه أخذ من كل رأس ديناراً وأخذ من الأملاك أجرة شهرين، ومن الغيطان كذلك؛ فكان جملة ما جمعه ستمائة الف دينار.

وفي آخر شعبان سنة ٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م سار الملك المظفّر قطز من مصر بالعساكر الاسلامية الى الشام لقتال المغول، وصحبته الملك المنصور محمد صاحب حماة وأخوه الملك الأفضل علي، بعد أن كان عهد إلى الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، بالتقدّم الى بلاد الشام، مع فرقة من الجيش، للتعرّف على أحوال العدوّ؛ فمضى بيبرس الى غزة، واستولى عليها؛ وانسحبت منها الحامية المغولية، المؤلفة من ألف جندي بقيادة بيدرا، الذي انكفأ للإنضمام الى جيش كتبغا.

ولما قدِم المظفر بجيشه الى غزّة، أخذ بمفاوضة الأفرنج في عكّا للسماح له بالمرور في أراضيهم لمجابهة المغول؛ فاجتمع مجلس البارونات للتداول في الموقف الذي يجب أن يتخذوه تجاه المغول والمسلمين؛ فقرّ رأيهم بالنهاية على البقاء على الحياد، مع الموافقة على ما طلبه قُطز، بعدما كان فريق منهم حاول الاصرار على معارضة دخول الجيش الاسلامي الى أراضيهم(١).

وهكذا ضمن قطز حياد الأفرنج، فواصل تقدّمه بمحاذاة الساحل نحو الشمال، وهناك بالقرب من بيسان في المكان المعروف بعين جالوت،

---

(١) - Jean Richard: Le Royaume Latin de Jerusalem P. 307.
- René Grousset: L'Epopée des croisades. P. 373.

نصب المسلمون كميناً للمغول، فسار كتبغا بجيشه الذي جمعه من المغول في الشام، وكان بصحبته الملك السعيد صاحب الصبيبة، إبن الملك العزيزابن الملك العادل بن أيوب؛ والتقى بالجيش الاسلامي في الغور، فجرت معركة ضارية بينهما، أسفرت عن هزيمة الجيش المغولي هزيمة تامّة. فقضي على معظم عسكره، وقُتل كتبغا في ساحة المعركة ووقع ابنه بالأسر، وتمكنت شرذمة ضئيلة من المغول، من الافلات من القتل والفرار، مع قائدها (ألكانويان) - (٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ - ٣ أيلول ١٢٦٠ م).

وبعد هذا النصر، جرّد قطز، القائد ركن الدين بيبرس البندقداري في أثر المغول الهاربين، فتبعهم الى أطراف البلاد الشرقية. وكان أيضاً في صحبة المغول، الملك الأشرف موسى صاحب حمص ففارقهم وطلب الأمان من المظفر قطز فأمّنه وأقرّه على ما بيده؛ أما الملك السعيد صاحب الصبيبة فإنه وقع بالأسر، وأحضر بين يدي قطز، فأمر به، فضربت عنقه.

- وترك المغول سوريا ورحلوا الى الأناضول، وخلا الجو للماليك، فسيطروا على الأراضي السورية التي كان احتلّها المغول وطهّروها منهم، وأعاد قطز الأمنَ في سوريا الى نصابه؛ وأحسن الى الملك المنصور محمد صاحب حماة وأقرّه على حماة وبارين، وأعاد إليه المعرّة، وكانت في أيدي الحلبيين.

وأتم الملك المظفر قطز، السير بالعساكر، وصحبته الملك المنصور صاحب حماة، حتى دخل دمشق، فابتهجت الرعيّة بقدومه؛ وقد أمر عند ذاك بشنق جماعة من المنتسبين الى المغول، فشنقوا، وكان من جملتهم: جين الكردي سرّدار الملك الناصر يوسف، وهو الذي أوقع الناصر في أيدي المغول[١].

---

(١) أبو الفداء: المختصر ج(٦) ص.١١٢ - ١١٣ - حوادث سنة ٦٥٨.

ويقول بعض الشعراء في هذه المناسبة السعيدة:

هلـــكَ الكفر في الشآم جميعـــاً واستجدّ الأسلام بعد دحوضه
بـــالمليـــك المظفر الملـــك الأر وع سيف الاسلام عند نهوضه
ملـــك جـــاءنـــا بعزم وحزم فـــاعتززنـــا بسُمره وببيضـــه
أوجـــب الله شكر ذاك علينـــا دائماً مثـــل واجبـــات فروضـــه

ثم إن الملك المظفر قطز، جهّز عسكراً الى حلب لحفظها: وفوّض نيابة السلطنة فيها الى علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ؛ كما عيّن شمس الدين أقوش البرلي العزيز، أميراً بالسواحل وغزّة ورتّب معه جماعة من العزيزية. وقبل مغادرته دمشق، أقام الأمير علم الدين سنجر الحلبي، نائباً للسلطنة فيها.

الفصل الخامس

مقتل السلطان قطز

لما دخل الملك المظفر قطز مدينة دمشق، وقرّر أمر الشام، على ما بيناه آنفاً هبتّ رياح الخلاف بينه وبين قائد جيشه: بيبرس، الذي تأثر كثيراً من موقف السلطان تجاهه. فبعد أن وعده هذا الأخير، باقطاعه ولاية حلب مكافأة له على ما أبداه من ضروب الشجاعة والتضحية في معاركه التي خاضها ضد الأعداء، عاد ونكث بوعده. فأعطى نيابة السلطنة بحلب، الى علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ. فكان ذلك الخلف مدعاة لتصميم بيبرس وأصحابه على قتل السلطان والتخلص منه، خوفاً من إقدامه على إساءة معاملتهم، بعد استتباب الأمر له، بقهر المغول.

والواقع أنه ما كاد الملك قطز يترك دمشق، متوجهاً الى مصر، حتى كان له أخصامه بالمرصاد، مترقبين الفرصة الملائمة لتنفيذ مؤامرتهم. وقد سنحت تلك الفرصة عندما توقف لقضاء بعض الوقت في القنص والصيد، على الطريق بين القصير بطرف الرمل وبين الصالحية. فبينما هو يسير، إذ قامت أرنب بين يديه، فساق عليها، ولحق به بيبرس والمملوك أنز والهاروني وعلم الدين صفن أغلي. ولما ابتعدوا قليلاً عن الموضع الذي توقفوا فيه، تقدم أنز من السلطان وشفع عنده في إنسان فأجابه إلى ذلك، فتظاهر أنز عند ذاك بتقبيل يده عرفاناً للجميل، وانحنى لأجل ذلك وقبض على يد قطز الممدودة له. وبأسرع من لمح البصر، كان بيبرس قد امتشق حسامه وانقضّ به على هذا الأخير،

وعاونه أصحابه، فرموه عن فرسه، واجهزوا عليه (١٧ ذي القعدة ٦٥٨ هـ). ثم عاد بيبرس وأصحابه ولحقوا بالعسكر والدهليز الى الصالحية، حيث كان فارس الدين أقطاي المستعرب مع العسكر بالانتظار. فأعلموه بما حصل. فقال لهم، من قتله منكم؟ فقال بيبرس. أنا. عندها قال له أقطاي: يا خوند إجلس في مرتبة السلطنة فجلس. واستدعي الأمراء والعساكر فبايعوا بيبرس بالسلطنة وحلفوا له.[(١)] وبعد ذلك قام بيبرس ودخل القاهرة يصحبه قلاوون وبلبان الرشيدي وغيرهما من الأمراء. فلقيهم في الطريق عز الدين أيدمر الحلبي نائب السلطنة، وكان خارجاً لمقابلة قطز، ولم يعلم بمقتله فأطلعوه على ما جرى، فما وسعه سوى الرضوخ للأمر الواقع، ومبايعة بيبرس،ثم توجه الجميع الى قلعة الجبل، ففتحت لهم أبوابها، واستقر بيبرس في السلطنة.

وهكذا ذهب الملك المظفر قطز ضحية السياسة، وكان في أوج انتصاره، ولم يكن قد مضى على تسلمه عرش السلطنة، سوى أحد عشر شهراً وثلاثة عشر يوماً، ونقلت جثته ودُفنت بالقصر في أرض الشام.

وتلقّب بيبرس عند اعتلائه عرش السلطنة، بالملك القاهر ركن الدين بيبرس الصالحي. ثم بعد ذلك غيّر لقبه عن الملك القاهر، وتلقب بالملك الظاهر. وما أن تسلم بيبرس زمام الحكم والسلطة في مصر حتى ظهرت عبقريته وتكشفت عن أنه رجل دولة لا يشق له غبار، وجندي لا يضاهى. وقد بدأ حكمه بتوزيع المناصب على الأمراء وكبار رجال الدولة، كل حسب استحقاقه العملي، فعين فارس الدين أقطاي المستعرب أتابكاً للعسكر. واستناب عنه في السلطنة: الأمير بدر الدين الخازندار، وولى على قضاء مصر، تاج الدين بن بنت الأعزّ. وعزل

---

(١) أبو الفداء: المختصر. ج(٦) ص. ١١٤ - ١١٥ - حوادث سنة ٦٥٨ هـ.

الصاحب زين الدين بن الزبير من الوزارة، ونصّب مكانه، الصاحب بهاء الدين بن حنا.

ثم اتخذ بعض المقررات فيما يتعلق بالأمور المالية والاقتصادية، وعمل على إبطال ما أحدثه المظفر قطز، من ضرائب ومكوس: فاطمأن الناس ومالوا اليه، ولما انتهى بيبرس من تنظيم أمور الدولة، أخذيتهيأ لتجهيز جيش قوي ليكون على استعداد لمجابهة المغول إن أرادوا العودة الى سوريا، ولحسم الموقف مع الصليبيين، الذين لم يعد من مصلحة المسلمين، بقاؤهم في فلسطين. وفيما هو كذلك، إذ أتته الأخبار بأن علم الدين سنجر الحلبي نائب دمشق قد ثار عليه، ونادى بنفسه سلطاناً، وتلقب بالملك المجاهد، وضرب السكة باسمه، وخطب له بمساجد دمشق، وراسل بعض الأمراء للدخول في طاعته، فلم يلبوّا طلبه (١٠ ذي الحجة ٦٥٨ هـ)[١]. فما كان من بيبرس عند ذاك إلاّ أن انتدب علاء الدين أيدكين البندقداري، وأرسله على رأس قوة من الجيش لمحاربة ذلك الثائر، صنيعة قطز.

وفي هذه الأثناء أي في أواخر سنة ٦٥٨ هـ. بعث هولاكو، بقسم من جيشه الى الشام، للاستيلاء على حلب، فلما وصل هذا الجيش الى ألبيرة، تصدى له نائب حلب: السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ، بأن جرد الى جهته شرذمة قليلة من العسكر، بقيادة سابق الدين أمير مجلس الناصري، فلما التقاهم المغول أبادوهم بالقرب من البيرة، فهرب من نجامنهم الى داخل المدينة، وتابع المغول زحفهم على حلب، وهذا ما دفع بالحلبيين الى اعتبار السعيد علاء الدين، مسؤولاً عن هذه الهزيمة التي ألحقها بهم المغول فقبضوا عليه، وولوا مكانه حسام الدين الجوكندار العزيزي، وذلك بموافقة السلطان، على أن الجيش المغولي، تمكن من

---

(١) أبو الفداء: المختصر - ذات المرجع. ص١١٦.

الدخول الى حلب بعد أن هزم حسام الدين الجوكندار، الذي انسحب مع جيشه الى حماة، حيث اجتمع بصاحبها الملك المنصور محمد، وأنهى اليه بأن المغول عازمون على اقتحام مدينته فما كان منه الا أن خرج منها مع الجوكندار ومضيا سوية الى حمص، وبرفقتها الملك الأفضل علي، أخو المنصور محمد، والأمير مبارز الدين مع باقي العسكر، واجتمعوا بالملك الأشرف صاحب حمص، واتفقوا جميعاً على الوقوف بوجه المغول ولما التقى الجيشان الأسلامي والمغولي بظاهر حمص، دارت بينهما معركة ضارية أسفرت عن انتصار المسلمين بالرغم من قلة عددهم بالنسبة للمغول (الذين لاذوا بالفرار، وتبعهم المسلمون يقتلونهم ويأسرون منهم العدد الكبير أواخر المحرم ٦٥٩ هـ)[١].

وبعد رحيل المغول، توجه الملك المنصور محمد وأخوه الملك الأفضل علي، في جماعة قليلة الى دمشق وبقي الطواشي مرشد في باقي العسكر بحماة. وكذلك لحق بهم الى دمشق، الملك الأشرف صاحب حمص، وأقاموا جميعاً في دورهم ولم يدخلوا في طاعة علم الدين سنجر الحلبي. أما حسام الدين الجوكندار فقد سار الى مصر. وفي شهر صفر سنة ٦٥٩ هـ وصل علاء الدين أيدكين البندقداري الى دمشق فخرج اليه علم الدين سنجر الحلبي، واقتتلا بظاهر المدينة، فتغلب الأول على الثاني، الذي فرّ منهزماً الى بعلبك فتبعه جند علاء الدين وقبضوا عليه وحُمل الى الديار المصرية معتقلاً، فأطلقه بيبرس بعدئذٍ. واستقرت دمشق تحت سلطة هذا الأخير وتولّى علاء الدين أيدكين نيابتها[٢]، وأقيمت الخطبة لبيبرس في حماة وحلب وحمص وغيرها من بلاد الشام..

وقد استاء هولاكو، بعدما بلغه انكسار عسكره، على حمص، فأحضر

---

(١) أبو الفداء: المختصر: ذات المرجع. ص - ١١٧.

(٢) أبو الفداء: المختصر: ذات المرجع ص - ١١٨ - والمقريزي: السلوك: ج(١) ق(٢) ص - ٤٤٤ - ٤٤٥ - ٤٥١.

اليه الملك الناصر يوسف الأيوبي ملك حلب ودمشق السابق (وكان قد وقع بيد كتبغا وأرسل الى هولاكو أسيراً). وأخاه الملك الظاهر غازي، وقتلهما، ثم قتل الملك الصالح ابن صاحب حمص والجماعة الذين كانوا معهم. واستبقى الملك العزيز بن الملك الناصر، لأنه كان صغيراً.

بيبرس وإحياء الخلافة العباسية

بعدما خلت الخلافة العباسية من بغداد، على إثر مقتل المستعصم بالله من قبل هولاكو، فكّر بعض الملوك والأمراء المسلمين في مصر وسوريا، بإحياء تلك الخلافة، لما يتفق ومصلحتهم، ولكنهم لم يصلوا الى تحقيق هذه الفكرة؛ علماً بأن المسلمين كانوا وقتذاك، يحبّذونها بأغلبيتهم؛ وكان أول من سعى الى ذلك، الملك الناصر يوسف الأيوبي، قبل وقوعه بيد المغول، ثم الملك المظفر قطز، الذي لم يمهله القدر، في التمتّع بالسلطنة؛ فتحققت بعهد الظاهر بيبرس.

ذلك أنه لَمّا تولّى بيبرس السلطنة، نمي إليه بأن رجلاً يدّعي الانتساب الى العباسيين، قد وصل الى دمشق وصحبته جماعة من عرب خفاجة، فأمر بارساله الى مصر، بغية معرفة حاله، فجيء به اليه، في القاهرة، فاستقبله بيبرس استقبالاً رسمياً، وعقد مجلساً حضره القضاة والعلماء والأمراء وسائر أرباب الدولة؛ ومنهم: الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، والقاضي تاج الدين عبد الوهاب بن خلف المعروف بابن بنت الأعَزّ، وذلك للتثّبت من نسب هذا الشخص (رجب ٦٥٩ هـ).

وقد شهد العرب المرافقون له، بأنه هو ذاته المدعو أحمد بن الامام: الظاهر محمد بن الامام الناصر؛ فيكون عمّ الخليفة المستعصم بالله. وأقام القاضي جماعة من الشهود اجتمعوا بأولئك العرب، وسمعوا شهاداتهم ثم شهدوا بالنسب بحكم الاستفاضة، فأثبت القاضي تاج الدين نسب أحمد

المذكور، وبايعه السلطان الملك الظاهر بيبرس، والناس، بالخلافة: «على كتاب الله وسُنّة رسوله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، وأخذ اموال الله بحقّها وصرفها في مستحقها[1] ». ولُقّب: المستنصر بالله أبا القاسم أحمد بن الظاهر بالله محمد.

ثم إن الخليفة العبّاسي كتب تفويضاً للسلطان، بتقليده السلطنة،أورد صورته النويري والمقريزي وأبو المحاسن، نقتطف منه هذا المقطع: [ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالي المولوي السلطاني الملكي الظاهري الركني شرفّه الله وأعلاه، ذكره الديوان العزيز النبوي الأمامي المستنصري، أعزّ الله سلطانه تنويهاً بشرف قدره واعترافاً بصنعه الذي تنفذ العبارة المسهبة ولا تقوم بشكره، وكيف لا وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان، ومنح أمير المؤمنين عند القدوم عليه حنواً وعطفاً..... وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع... وقد قلّدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً، وفوّض أمر جندها ورعاياها إليك... ومما يجب أيضاً تقديم ذكره، أمر الجهاد الذي أضحى على الأمة فرضاً وبك يُرجى أن يرجع مقرّ الخلافة الى ما كان عليه في الأيام الأول].

وقد اهتم السلطان بيبرس بأمر هذا الخليفة (الذي كان أسود اللون) كما يقول أبو الفداء «وعمل له الدهاليز والجمدارية وآلات الخلافة، واستخدم له عسكراً». وبعد ذلك لم يبق الخليفة طويلاً في مصر، فخرج منها في رمضان ٦٥٩ هـ الى دمشق، وبصحبته الظاهر بيبرس، ولما وصلا الى هذه المدينة، نزل بيبرس بالقلعة، والخليفة بجبل الصالحية، مع أمرائه وأجناده، واتفق السلطان مع الخليفة على أن يمضي

(١) المقريزي: السلوك. ج(١) ق(٢) ص٤٤٩ - ٤٥٠ - وأبو الفداء: المختصر: ج(٦) ص - ١٢١ - حوادث سنة ٦٥٩ - والنويري: نهاية الأرب: ج(٢٨) ق(١) ص - ١٨ - ١٩.

هذا الأخير الى العراق للاستيلاء على بغداد، وإخراج المغول منها، وهكذا سار الخليفة بجيشه من دمشق ورافقه الملك الظاهر الى ضاحيتها مودّعاً، ثم عاد الى المدينة ومكث بها قليلاً ورجع الى الديار المصرية؛ فيما تابع الخليفة مسيرته في الصحراء مع جيشه، ولما وصل الى الرحبة أقام بها ثلاثة أيام ثم رحل عنها، الى مشهد علي، ومنها الى عانة، وهناك انضم إليه الأمير أبو العباس أحمد بن علي بن ابي بكر بن الخليفة المسترشد، يواكبه سبعمائة فارس من التركمان، ودخل في طاعته، وبعدها توّجه الخليفة الى الحديثة فدخلها بدون مقاومة ومنها قصد الى هيت ففتحها عنوة، وقبل أن يصل الى بغداد خرج المغول الى قتاله، فدارت بينه وبينهم معركة أسفرت عن انتصارهم وهزيمته واستشهاده، ولم ينج إلاّ القليل من جيشه، مع بعض الأمراء ومن بينهم الأمير أبو العباس أحمد (٦٦٠ هـ). وقد أصبح هذا الأمير فيما بعد، خليفة وتسمّى بلقب: الحاكم بأمر الله، أمير المؤمنين، حينما جرى تنصيبه في القاهرة، بموافقة الملك الظاهر بيبرس، الذي أشركه في الخطبة لا غير (أواخر سنة ٦٦٠ هـ).

وفي ربيع الآخر من سنة ٦٦١ هـ، أتى بيبرس الى غزة، ثم عقد مجلساً في بيسان، جمع فيه القضاة والفقهاء، وأطلعهم على كتب كان صادرها بواسطة عملائه، وهي صادرة عن الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، صاحب الكرَك، وعن المغول، الذين كانوا يكاتبونه ويكاتبهم بشأن التحالف ضد المسلمين، من أجل الاستيلاء على الشام ومصر، واتهم بيبرس الملك المغيث بالخيانة العظمى، وطلب من المجتمعين تنظيم محضر بذلك، ففعلوا، وأُثبت المحضر ونشر[1]. وكان الملك المغيث

(١) أبو الفداء: المختصر. ج(٦) مجلد (٢) ص.١٢٦ - ١٢٧ حوادث ٦٦١ هـ.

قد اعتُقل قبل ذلك، فأرسل موقوفاً الى القاهرة حيث كان آخر العهد به. ثم عاد الملك الظاهر الى مصر.

بيبرس والصليبيون

قبل أن يبدأ بيبرس بشنّ الحرب على الصليبيين، عمد الى التقرّب من بعض الدول المحيطة بمملكته، ليكون بمأمن منها، عندما يهاجم الأفرنج، فعقد معاهدة مع بركة خان سلطان مغول القفجاق، ضد هولاكو (وكان بيبرس أصلاً من القفجاق، وبيع رقيقاً في بلاد الاسلام). وتبادلا البعوث (١٢٦١ - ١٢٦٣م - ٦٦٠ - ٦٦٢ هـ)، كما عقد محالفة دفاعية مع إمبراطور الروم، ميخائيل باليولوغ، وكذلك مع سلطان سلاجقة الروم. ثم لما استتبت له الأمور في مملكته؛ أدار عينيه نحو الصليبيين في سوريا.

وكان أول من تعرّض لنقمة بيبرس، هو بوهمند السادس (بيمند) أمير أنطاكية - والحليف الدائم لهولاكو، فقد أصدر أوامره الى بعض أمرائه لمهاجمة هذا الصليبي، عقاباً له على ما كان قام به من أعمال وحشية، برفقة المغول، في البلاد الاسلامية. فحاصر المسلمون عند ذاك، مدينة أنطاكية التي أوشكت على الوقوع بيدهم والتسليم، لولا تدخل الجيش المغولي لنجدتها مرتين (١٢٦١ - ١٢٦٢م - ٦٦٠ - ٦٦١ هـ).

وكان الصليبيون، قد حاولوا في الوقت ذاته، مهاجمة بلاد الشام الاسلامية التي أقفرت من سكانها على إثر اجتياحها من قبل المغول، إذ قام جان ديبلن الثاني صاحب بيروت مع فرسان الداوية، بمهاجمة فرقة تركمانية في الجليل، فتغلّبت عليهم واوقعت بهم الهزيمة وأسرت صاحب بيروت بالإضافة الى غيره من القادة والفرسان، ولم تطلق سراحهم إلاّ بعد دفعهم فدية كبيرة.

على أن الصليبيين رأوا إثر ذلك، التفاوض مع السلطان لتوقيع معاهدة صلح، فأظهر القبول لمبدأ الصلح، ولكنهم قدّموا شروطاً، قوبلت منه بالرفض (١٢٦٢ - ٦٦١ هـ[١]). ثم عادت المفاوضات بين الفريقين لتأخذ مجرى آخر، بعد إذ أوشكت الهدنات المعقودة في سنتي ١٢٥٢ - ١٢٥٥ م. على الانصرام؛ فطلب بيبرس تبادل الاسرى بينهم (أول سنة ١٢٦٣ م - ٦٦٢ هـ) فوافق الصليبيون على ذلك، ولكنهم لم يفوا بتعهداتهم لجهة إطلاق الأسرى المسلمين، وذلك نتيجة لرفض فرقتي الداوية والأسبتارية الذين احتجّوا بأن الأسرى المسلمين يوفّرون اليد العاملة بأدنى كلفة من غيرهم، وتجاه ذلك طلب منهم بيبرس إعادة قلعتي صفَد والشقيف (أرنون) للمسلمين، فأبوا ذلك، فما كان منه إلاّ أن عمد الى الإعلان عن بخل الداوية والاستبارية، ذريعة لاجتياح منطقة الجليل، والتقدم نحو عكّا لمحاصرتها (١٤ نيسان ١٢٦٣ م - ٦٦٢ هـ)؛ بعد أن كان وجّه الأمير علاء الدين طيبرس الى كنيسة الناصرة لهدمها.

لم يتمكن السلطان بيبرس من أخذ مدينة عكّا لشدّة الدفاع عنها، ومقابلته بهجمات مضادّة؛ من قبل المحاصرين، فعمد الى إحراق بساتينها، وما يحيط بها، بحيث أوقع بالعدو كثيراً من القتلى والاسرى، وكان من بين الجرحى؛ جوفروا دي سرجين. وبعد ذلك رجع السلطان الى بيت المقدس حيث أعطى أوامره ببناء خان للقوافل على باب المدينة، ولم يمكث في سوريا إلاّ قليلاً حتى غادرها الى الديار المصرية، وفي ذلك الوقت تنادى الصليبيون الى طلب النجدة من الغرب، فكتبوا الى كل من ملك إنكلترا والبابا يعلمونها عن حاجتهم الى المال والمؤن وغيرها من المعونات، ثم بعثوا بوفود الى أوروبا لهذه الغاية؛ فتوجّه غليوم الطرابلسي الدومينيكي، وبعده كاهن بيت لحم الى روما، حيث عرضا

(1) Jean Richard: Le royaume Latin de Jerusalem. P. 309.

للبابا أوربان الرابع، فداحة الخطب المحيق بالأفرنج في سوريا، وطلبوا منه مدّ يد المعونة إليهم، فوعدهم بالعمل على ذلك.

ولم يتوقف الصليبيون عند حدّهم، بعد الضربات التي تلقّوها من المسلمين، فانتهزوا فرصة غياب السلطان في مصر، وأقدموا على الإغارة على بعض النواحي من أراضي عسقلان وبيسان، ونهبها وأخذ بعض الأسرى من المسلمين؛ الأمر الذي حمل السلطان بيبرس على العودة الى الشام، بقصد ضرب الأفرنج، الضربة القاضية، فسار من مصر، على رأس جيش كبير لمنازلة المغول والصليبيين، فأرسل قسماً من هذا الجيش بقيادة الأمير عز الدين إيفان الملقب بسَمّ الموت، الى مدينة البيرة التي كان المغول على حصارها، فلما اقترب منها تركها هؤلاء وولّوا الأدبار. بينما بقي السلطان متابعاً سيره حتى وصل الى قيسارية، فاستولى عليها وعلى قلعتها (شباط - ٥ آذار ١٢٦٥ م - ٦٦٤ هـ)؛ ثم مضى نحو حيفا فأخلاها سكانها، فدخلها وهدمها (١٥ آذار ١٢٦٥ م). وبعدها حاصر أرسوف فقاومته أكثر من شهر قبل أن تقع بيده (٢١ آذار - ٢٩ نيسان ١٢٦٥ م).

وبالرغم من أن بيبرس، أمّن الفرسان الاسبتارية المدافعين عن أرسوف على حياتهم ووعد باطلاقهم، فأنه بعد أخذها، أرغمهم على تخريب حصونهم بأيديهم، ووضعهم في الأصفاد.

ومن ثم اضطر بيبرس للعودة الى مصر، فترك سوريا؛ فوصلت على الأثر، النجدة التي كان وعد بها البابا، لمساعدة الصليبيين؛ وكان أول مَن نزل في عكا: الوصي على عرش قبرص مع جيشه (آخر اذار ١٢٦٥ م)، وتبعه الكونت دي نفر: أود دي بورغونيا، مع خمسين من فرسانه (تشرين الأول ١٢٦٥ م).

بعد مجيء الامداد الى الصليبيين، صمّم السلطان على الرجوع الى

الشام، لإكمال فتح المدن الأفرنجية. وعند تركه مصر، أقدم بوهمند السادس أمير أنطاكية - طرابلس على الإغارة على حمص: فأرسل بيبرس قوة لنجدتها، بقيادة الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي، والأمير سيف الدين قلاوون الألفي، اللذين توجّها بعد ذلك نحو طرابلس، بناء لأمر السلطان، فنزلا على حصن الأكراد، وقاما بالإغارة على ساحل البحر من جهة طرابلس، فاستوليا على القليعات وحلبا وعرقة[1].

أما السلطان بيبرس، فأنه زار القدس والخليل، ثم تقدّم نحو عكا، بعدما جهّز بعض قادته بالعسكر وبعث بهم لغزو صور وصيدا وغيرها. ولما عاد هؤلاء القادة من غزواتهم، وانضموا إليه، مضى الجميع الى مدينة صفد، حيث وافتهم هناك، الحملة التي قادها الاميران أيدغدي العزيزي وقلاوون الألفي، بعدما قاما بمهمتها[2].

وألقى بيبرس الحصار على مدينة صفد، وهي أحدى معاقل الفرسان الداوية، الذين دافعوا عنها دفاعاً مستميتاً، وأثناء ذلك قدم إليه الملك المنصور صاحب حماة واشترك بالحصار. وبعد ثلاثة أسابيع، أضطر رئيس الداوية الى التسليم بالأمان، على أن يرحّلوا الى عكا سالمين (٢٥ تموز ١٢٦٦ م - ٦٦٥ هـ). وقد تمكن بيبرس بدهائه، من تحريض المرتزقة السوريين ضد رؤسائهم في الجيش الصليبي، للثورة عليهم، مما أضعف مقاومة الأفرنج فسلّموا (جان ريشارد: مملكة القدس اللاتينية ص. ٣١١).

بيد أن السلطان، بعد أن احتل المدينة، وقتل حامية القلعة الداوية، اتخذها مركزاً لعملياته الحربية؛ وراح يعمل منها على مهاجمة

---

(١) أبو الفداء: مجلد (٢) ج(٧) ص(٦) حوادث سنة ٦٦٤ هـ.
(٢) المقريزي: السلوك، ج(١) القسم (٢) ص. ٥٤٥ - ٥٤٦.

عكا وبعض المدن الأفرنجية، حتى تمكن هكذا من الاستيلاء على هونين (Chateauneuf) والرملة، بدون مقاومة، ثم فكرّ بيبرس بالانتقام من ملك أرمينيا: هيثوم الأول، حليف المغول والأفرنج، والذي كان يحاول دائماً، الاضرار بالمسلمين؛ فجهّز قوة من جيشه لاجتياح الأراضي الأرمنية، بقيادة الأمير قلاوون، والملك المنصور صاحب حماة، فسارت تلك القوّة الى دربساك (Trapessac)، والتقت هناك بالجيش الأرمني فسحقته (٢٤ آب ١٢٦٦ م - ٦٦٥ هـ) وتابعت سيرها غازية قيليقية، فنهبت ماميسترا وخربتها، وأدنة وطرطوس ومرفأ أياس (لاياس أو لا جازّو) حتى وصلت الى عاصمة المملكة الأرمنية: سيس؛ فنهبتها، ثم رجعت محمّلة بالأسرى والغنائم؛ ومن بين أولئك الأسرى، الأمير ليفون بن الملك هيثوم الأول (وكان هيثوم في ذلك الوقت في تبريز يطلب معونة المغول).

ولم يطلق السلطان سبيل الأمير ليفون، إلاّ بعد حصوله على المعاقل القوية في ناحيتي دربساك والأسكندرون، وعدة ممرات جبلية (مخارم) في الأنتي طوروس، شمالي شرقي البلاد: أي أن مفاتيح أرمينيا الصغرى، سُلّمت للسلطان مقابل اطلاق الأمير ليفون الذي أصبح بعد تنحي والده عن العرش ملكاً على أرمينيا (١٢٦٩ م[1]).

وفي شهر تشرين الأول ١٢٦٦ م - ٦٦٥ هـ، التحمت قوة من جيش السلطان مع قوة من جيش الأفرنج، كانت آتية للغزو، من طبرية، فهزمتها القوة السلطانية وشتّتت شملها.

وكان بيبرس قد علم، أثناء وجوده بالقرب من (قارا) بين دمشق وحمص، بأن سكّان هذه القرية المسيحيين، يغيرون على المسلمين ويأسرون بعض الفلاحين من القرى المجاورة، ويبيعونهم بيع الرقيق من

---

(1) René Grousset: L'émpire du Levant P. 398 - 399.

الأفرنج بالخفية؛ فأمر بنهب أهل تلك القرية وقتل كبارهم[١].

بعد ذلك عاد السلطان الى الديار المصرية، على طريق الكرَك، حيث وقع عن فرسه، عند بركة (زيزا) فانكسرت فخذه، وحمل في محفّة الى قلعة الجبل في القاهرة، وبقي فيها، مدة حتى شفي، ثم تركها مع بعض أمرائه وأتى الى الشام فنزل مدينة غزّة ورحل عنها الى صفد، فنظر في مصالحها.

وبعد دخوله دمشق، رحل السلطان عنها فجأة، في شهر أيار ١٢٦٧ م متوجهاً نحو عكّا، فحاول مباغتة الأفرنج فيها، وهاجمها خيّالته المتنكرون بملابس الداوية والاسبتارية، والحاملون الرايات الأفرنجية، ففشلوا في فتحها؛ فصبّ عندئذٍ جام غضبه على الفلاحين والسكان المقيمين خارج أسوار المدينة، فذبحهم عن بكرة أبيهم[٢].

وفي الحادي والثلاثين من تشرين الأول ١٢٦٧ م - ٦٦٦ هـ. جهز بيبرس حملة تأديبية، على مرابط خيول الاسبتارية، فأحرقت لهم عدداً كبيراً من الجياد، وعشرين مروّضاً، وذلك بعدما كان بناء لطلب الأفرنج، قد عقد صلحاً مع أمير بيروت، ومدينة صور؛ التي اضطرت لدفع مبلغ كبير من المال، ولإطلاق سراح الأسرى المسلمين: كما كان عقد هدنة مع فرقة الاسبتارية بحصن الأكراد والمرقب، مدتها عشر سنوات وعشرة أيام، وعشر ساعات، تبتدىء من يوم الأثنين في الرابع من رمضان ٦٦٥ هـ، ومن بنودها؛ أن تقسم بعض البلدان مناصفة بين السلطان وبين الصليبيين، وألاّ يأخذ الاسبتارية، الجزية التي كانت مفروضة على بلاد الاسماعيلية وحماة وشيزر وأفامية وأبي قبيس.

وفي السنة التالية أي في السابع من آذار سنة ١٢٦٨ م - توجه

---

(١) أبو الفداء: المختصر: مجلد (٢) ج(٧) ص(٧) حوادث سنة ٦٦٥ هـ.
(2) Jean Richard: Le Royaume Latin de Jérusalem P. 311.

السلطان بعساكره المتوافرة الى الشام، وهاجم مدينة يافا، وكانت المعاهدة المعقودة بينه وبين صاحبها: جان ديبلن (الأبليني) قد انتهت بوفاة هذا الأخير في سنة ١٢٦٦م ولم تجدّد مع إبنه (غي). فاحتلّها السلطان وسمح لقسم من حاميتها بالإنسحاب الى عكا (١٥ جمادي الآخرة ٦٦٦ هـ).

ثم تقدم بيبرس، فحاصر قلعة الشقيف (أرنون): (Beaufort)، وهي من ممتلكات الداويّة، ففتحها بعد تسعة أيام من الحصار (١٥ نيسان ١٢٦٨م - ٦٦٦ هـ). ولما رأى أمير بيروت، أن الخطر اقترب منه، فاوض السلطان ثانية، وافتدى نفسه بدفع جزية كبيرة له، فتركه مؤقتاً، بعدما عقد معه هدنة تضمنت إطلاق سراح الأسرى المسلمين.

وبعد أن أتمّ السلطان احتلال ما أراد احتلاله من المدن الأفرنجية في فلسطين اتجه الى شمالي سوريا، فسار أولاً نحو طرابلس وهاجم النواحي المحيطة بها فنهبها جيشه وأحرقها وأخذ منها بعض الأسرى، ثم تركها فجأة، ومضى صوب صافيتا وأنطرسوس، فلاقاه صاحبها بإطلاق سراح ثلاثمائة أسير مسلم كانوا في سجونه، فلم يتعرض له السلطان؛ الذي واصل سيره الى حمص فحماة؛ وهناك قسم جيشه الى ثلاث فرق للزحف على بلاد انطاكية، فنزل بقسم منه على أفامية، حيث توجّه منها نحو مدينة أنطاكية، فوافاه القسمان الآخران بعد ذلك الى هناك، وبدأ حصار المدينة في أول رمضان ٦٦٦ هـ - ١٥ أيار ١٢٦٨م[١]. وكان الأمير شمس الدين أقسنقر الفرقاني، قائد إحدى فرق الجيش السلطاني، قد التقى بطريقه الى أنطاكية، بكوكبة من فرسان هذه المدينة، فسحقها وأبادها ووقع قائدها أسيراً بيده.

وأمر بيبرس باقتحام أنطاكية، فهاجمها جنده من كل الجهات،

(١) المقريزي: السلوك: ج(١) ق(٢) ص.٥٦٧.

واستولوا على أسوارها ودخلوها وهم يقتلون وينهبون ويحرقون، بعدما كان أهاليها رفضوا الإنذار بالتسليم. ولما رأت حامية المدينة انها عاجزة عن الدفاع ارتدت الى القلعة فحوصرت فيها فطلب قائدها الأمان فاستجيب طلبه.

وبعد انتهاء المعركة، التي طالت خمسة أيام بالحصار، تبين أن عدد أهالي المدينة الذين كانوا فيها يبلغون المائة الف نسمة ونيّف، قُتل أكثرهم.

وكان لسقوط أنطاكية بيد المسلمين، وقع الصاعقة على رؤوس الأفرنج، فهرب الداوية من حصن بغراس، تاركينه فارغاً، فأسرع السلطان الى ارسال قوة لاحتلاله. فاحتلّته، كما أرسل قوّات أخرى احتلّت نواحي أنطاكية كلها، بحيث تمّ بذلك فصل أنطاكية عن إمارة طرابلس، وعادت للمسلمين. أما صاحب أنطاكية، بوهمند السادس (بيمند بن بيمند) كما يسمّيه المسلمون، فكان وقتذاك مقيماً في طرابلس، التابعة لأنطاكية، فأراد السلطان التشفّي منه، نظراً لما كان يبديه من عِداء للمسلمين. ولتحالفه مع أعدائهم المغول. فأرسل له رسالة يشير فيها الى سقوط أنطاكية بيده (أي بيد السلطان) وما أحاق بالأفرنج من خسائر بسقوطها، ومنوّهاً فيها بانتصاراته عليه، ويختمها بقوله: (ان هذه الرسالة مع ذلك، توافيك بنبأ يسرّك، ألاَ وهو أن الله حفظ لك حياتك، إذ كنت غائباً عن أنطاكية حينما هاجمناها، ولولا ذلك لكنت الآن في عداد الأموات أو الأسرى أو الجرحى، أو في حال لا تُحسد عليها، مَن يعلم؟ إن كان الله أبقاك على قيد الحياة، كي تكفّر عن ذنوبك وعصيانك؟ وإذ لم نَجِد من الأحياء من قومك من يستطيع إخبارك عن الخسائر التي أصابت ممتلكاتك؛ فقد سمحنا لأنفسنا القيام بذلك).

وهكذا علم بوهمند السادس بسقوط مدينة أنطاكية. فاستبدّ به

الغضب، ولكن ما العمل؟ وهو عاجز عن مجابهة السلطان.

وبعد عودة هذا الأخير الى دمشق تلقّى رسالة من صاحب صور، يبلغه فيها بأن الوصي على عرش قبرص: هوج الثالث، قد وصل الى عكّا، وهو شاب يرغب بمسالمة المسلمين. ويدعوه الى مهادنته. فوافق بيبرس على ذلك. وعقد هدنة مع إفرنج عكّا، بواسطة هوج هذا (٢٧ أيار ١٢٦٨م - ٦٦٦هـ)، وهي تنص على ما يلي:

[يكون قضاء عكّا مع الكرمل وثلاث قرى حول حيفا، وعشر قرى حول قلعة القرين (Montfort) وخمس قرى حول قلعة عتليت (Chatel - Pélerin) من أملاك الأفرنج. أما بقية الأقضية، فقد قُسمت بين هؤلاء وبين السلطان مناصفة].

كما عقد السلطان هدنة مع فرسان الداوية في صيدا؛ تضمنت تنازلهم عن جميع ممتلكاتهم اللبنانية، ما عدا القرى الساحلية الضيقة. على أن الهدنة هذه، خُرقت في السنة التالية عندما أقدم الأفرنج على إرغام بعض المسلمين في عكّا وصور على التنصّر (١٢٦٩م). مما دعا السلطان، الى القيام بعمليات حربية لاجتياح ممتلكات كونتية طرابلس، واحتلال قلعة صافيتا: (Chatel - Blanc) في شباط ١٢٧١م - ٦٦٩هـ. العائدة لفرسان الداوية، وحصن الأكراد، (Krac des Chevaliers) العائد لفرسان الاسبتارية، بعد حصار دام خمسة عشر يوماً (٩ - ٢٤ شعبان ٦٦٩هـ - ٢٤ آذار - ٨ نيسان ١٢٧١م) ثم حصن عكّار (سلخ رمضان ٦٦٩هـ). وقد عيّد الملك الظاهر، عيد الفطر فيه.
وقال محيي الدين بن عبد الظاهر مهنئاً السلطان بفتوح عكار:

يـــا مليــــك الأرض بشرا ك فقــــد نلــــت الارادة
إن عكّـــــار يقينــــاً هو عكّـــــا وزيـــــادة

وفي شوال ٦٦٩ هـ تسلّم بيبرس قلعة العلّيقة وبلادها من الاسماعيلية. ثم عاد الى دمشق، وسار منها الى حصن القرين (Mortfort) العائد لفرسان الأسبتارية، ونازله وأخذه (١٢ ذي القعدة ٦٦٩ هـ) وأمر به فهدم[١]. في ذلك الوقت، كان السلطان قد عَلم بأن ملك قبرص هوج الثالث أبحر مع جيشه الى عكّا للدفاع عن هذه المدينة. فما كان منه إلاّ أن أرسل الى نائبه في مصر، يأمره بتجهيز أسطول لمهاجمة قبرص، بغياب ملكها وغزوها، ففعل. وعند وصول الاسطول الاسلامي الى مرفأ ليماسول ليلاً، ومحاولته الدخول إليه، هبّت عاصفة بحرية قوية فأغرقت اول قادس (سفينة حربية شراعية) كانت تدخل المرفأ، بأن قذفتها فتحطمت على الصخور، ولشدّة الظلام لم يشاهدها البحارة الذين وراءها، فتحطمت سفينتهم على الصخور أيضاً، كذلك تحطمت السفن التي كانت تتبعها واحدة إثر واحدة، فقبض القبارصة على البحارة والعسكر المسلمين الغازين، والذين نجوا من الغرق، وكان عددهم يبلغ الألف وثمانماية جندياً، أما عدد السفن التي تحطمت فكان احدى عشرة سفينة[٢].

وهكذا، وبظرف ثمانية أعوام تقريباً (من ١٢٦٣ - ١٢٧١ م) استطاع بيبرس الاستيلاء على أغلب ممتلكات الأفرنج، من الجليل الغربي، الى الناحية الساحلية من قيسارية حتى يافا، وكل الناحية الجبلية الشرقية والشمالية لعكّا، بالإضافة الى ثلثي كونتية طرابلس، وكافة ما يدخل في إمارة أنطاكية، خلا اللاذقية. وذلك بعدما بذلوا في سبيلها ألوف الضحايا؛ وقد عمل بيبرس على إعادة بناء ما خرب وتهدّم من تلك البلاد، وإنشاء الأبنية فيها والقلاع والحصون، والجسور والمساجد وغيرها، فرغدت في ظله وانتشر فيها العمران.

---

(١) أبو الفداء - المختصر. مجلد (٢) ج(٧) ص١٠ - حوادث ٦٦٩ هـ.
(٢) أبو الفداء - المختصر - مجلد (٢) ج(٧) ص(١٠) حوادث ٦٦٩ هـ.

وكان في نيـة السلطـان، مهاجمة مـدينـة طرابلس، لأخـذهـا من صاحبها، غير أن ما وصله من أنباء عن حملة صليبية أخرى، يجري تجهيزها للمجيء الى فلسطين، دفع به الى مهادنة بوهمند السادس، وحمله على فكّ الحصار عن تلك المدينة؛ بعدما عقد معاهدة معه لمدة عشر سنوات.

الجزء التاسع

الحملة الصليبية الثامنة

الفصل الأول

موت ملك فرنسا لويس التاسع

حين ترامت الأخبار الى أوروبا، بانهيار المملكة اللاتينية في الشرق، تحت وطأة ضربات المسلمين. قامت الدعوة فيها الى تنظيم حملة صليبية أخرى للأخذ بالثأر. وكان أول من أخذته الحمية الدينية، جايم الأول ملك الأراغون، الذي ما آن أبحر بأسطوله من برشلونة، حتى قذفت به عاصفة بحرية الى شواطئ إسبانيا (اول أيلول ١٢٦٩ م). ففترت همته، وخمدت حماسته. ولم يلبث أن عاد الى بلاده، رافضاً متابعة السفر. الا أن ولديه غيرالشرعيين: فرنا ندو سانشيز، وبيد روفرنا نديز، أكملا رحلتهما مع قوة ضئيلة من الجيش، فوصلا بها الى عكا في آخر تشرين الأول ١٢٦٩ م.

وصادف أثناء وصولهما أن قُتل القائد الصليبي: روبيردى كريزك، وكان قد استلم قيادة الجيش الصليبي العليا، مكان القائد العام جوفروا دي سرجين الذي قتله المسلمون تحت أسوار عكا قبل ذلك.

وفي ذلك الحين، كان ملك فرنسا لويس التاسع، يعمل على تجهيز حملة قوية صليبية. فلما فرغ منها، سار على رأس جيشه البالغ عدده ستة آلاف من الفرسان وثلاثين ألفاً من المشاة، تنقلهم ثلاثمائة سفينة. وبوصوله الى كاليـاري (Cagliari) في سردينيـا، دعـا الملك مجلسه الاستشاري ليعلن أمامه، عزمه على التوجه الى تونس، قبل الرحيل الى فلسطين (١٢ تموز ١٢٧٠ م). فلم يعترض أحد من أعضاء المجلس على

ذلك بعدما فهموا بأن شقيق الملك شارل دانجو، ملك صقلية، هو الذي تسبّب، بتحويل وجهة الحملة الى تونس، بُغية مهاجمة ملكها: المستنصر بالله الحفصي، عدوّه اللدود.

وقد أقلع قسم من الأسطول الفرنسي، وعلى رأسه الملك لويس التاسع، من كالياري: فوصل الى مياه مدينة قرطاجة، حيث ألقى مراسيه هناك (آخر ذي العقدة ٦٦٨ هـ)، وذلك بانتظار شارل دانجو، ملك صقلية: الذي اضطرّ للتأخر مع القسم الآخر من الأسطول، لبعض الأسباب.

وعند ذاك أمر الملك لويس، فرقة من جنده، باحتلال قصر قرطاجة المحصّن، بغية تأمين المياه للجيش الفرنسي. ففعلت، ثم نزل الملك بعساكره، في المدينة القديمة من قرطاجة.

وكان المستنصر بالله آنذاك، يستعدّ للقاء الصليبيين، وفق خطة مبنية على مجرّد الدفاع والمحاصرة، وقد انضم الى جيشه عدد كبير من المتطوعة والمرابطين، والفقهاء والعلماء، ووقعت بعض المناوشات في البدء بين الجيش الصليبي والجيش الأسلامي ثم اشتبكا بمعركة كبيرة قتل فيها كثير من الجانبين.

وطالت محاصرة الصليبيين، حتى نالهم الجوع والتعب، وتفشت فيهم الأوبئة، والأمراض، وأصيب الملك لويس، بوباء الطاعون، فمات في اليوم الذي وصل فيه أخوه شارل دانجو (٢٥ آب ١٢٧٠م المحرم ٦٦٩ هـ) وبعد موت الملك الفرنسي، أعلن إبنه ولي العهد: فيليب (الجسور) ملكاً مكانه، وتسلم قيادة الجيش ملك صقلية.

ورأى الجانبان، الأسلامي والفرنسي، أنه لم يعد من مصلحتهما متابعة الحرب، فدارت المفاوضات بينهما في سبيل الصلح، وانتهت الى اتفاق هدنة لمدة خمسة عشر عاماً على ان تدفع أثناءها الغرامة الحربية التي

التزم بها المستنصر بالله الحفصي وأن تكون مصالح الطرفين الدينية والتجارية محترمة والا يتعرض الصليبيون لجهة من جهات المسلمين التابعة لسلطان تونس حالاً أو مآلا، كما تضمنت الاَتفاقية فقرة خاصة بملك صقلية في شأن الأموال التي ادعاها على الدولة الحفصية[1] (ربيع الاول ٦٦٩ هـ اول تشرين الثاني ١٢٧٠ م). وكان من أهم بنود تلك الاتفاقية البند القائل: بأعلان مدينة تونس مرفأ حرّاً، وإطلاق سراح الأسرى المسيحيين، وممارسة حرياتهم الدينية وإمكانية بناء كنائس لهم.

وفي الوقت الذي جرى فيه توقيع المعاهدة بين المسلمين والصليبيين، قدم الى قرطاجة الأمير أدوارد الأنكليزي وأخوه أدمون، ولما عرضت عليهما هذه المعاهدة وتفهما موضوعها رفضا التوقيع عليها.

وعلى الأثر، أقلعت القوات الصليبية عن تونس، بعدما بقيت فيها أربعة أشهر وعشرة أيام، متجهة نحو صقلية، وهي تنقل جثمان الملك الفرنسي الراحل لويس التاسع: في حين تابع الامير الأنكليزي إدوارد (الذي أصبح فيما بعد ملكاً على انكلترا تحت اسم ادوارد الأول)، طريقه الى عكا، فوصلها، مع جيشه البالغ ألف مقاتل في التاسع من أيار ١٢٧١ م.

وأثناء وجود الأمير الأنكليزي في سوريا، استطاع الاتصال بالمغول وتحريضهم على مهاجمة نواحي حلب، لأقلاق راحة المسلمين. على أنه بالنتجة لم يسعه سوى عقد معاهدة مع السلطان الملك الظاهر بيبرس، مدتها عشر سنوات وعشرة اشهر تتضمن الأعتراف من قبل السلطان بملكية الأفرنج لسهل عكا، والسماح لهم بزيارة مدينة الناصرة (٢٢ نيسان ١٢٧٢ م ٦٧١ هـ). وكان ملك صقلية شارل دانجو هو الواسطة، للتوصل الى عقد هذه المعاهدة. وبعد أن تعرّض الأمير أدوارد

---

(١) محمد العروسي المطوي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ص - ١٠٢.

الأنكليزي الى محاولة قتل، قيل ان السلطان هو المحرض عليها، ترك مدينة عكا وأبحر الى بلاده، دون أن يفعل شيئاً مهمّاً في فلسطين.

الفصل الثاني

آخر أيام مملكة القدس (عكا)

بعدما فقد الصليبيون، على يد بيبرس، اكثر مراكزهم الحصينة، وحصرت مملكتهم في الحيزّ الساحلي، الضيق، كما مرّ بيانه، لم يبق في حوزتهم من المدن الرئيسية سوى صور وعكا وبيروت، ثم طرابلس في الشمال. وبدلاً من أن يجمعوا صفوفهم لمواجهة المسلمين، ويتفقوا على فضّ خلافاتهم با لحسنى حفاظاً على ما تبقى لديهم من ممتلكات، اشتدت الأزمة بينهم واحتدمت الأَنقسامات في أرجاء المملكة، وازدادت الحزازات بين ظهرانيهم فأخذ كل من البارونات وفرسان الفرق العسكرية، والتجار الأيطاليين يعملون لمصالحهم الشخصية وبالأَنفراد، دون أن يتورعوا عن استعمال السلاح في أغلب الأحيان، للوصول الى غاياتهم، بحيث تسببوا بأعمالهم هذه في إلحاق الضرر بالمملكة وإضعافها مادياً ومعنوياً. فأصبحت في مهب الرياح تتنازعها الأيدي، وتتقاتل عليها المطامع، حتى اذا مات ملك قبرص الصغير: هوج الثاني، في /٥/ كانون الأول ١٢٦٧ م، وأعلن هوج الثالث الأنطاكي ملكاً على مملكتي قبرص (٢٥ كانون الأول ١٢٦٧ م) وبيت المقدس (٢٤ ايلول ١٢٦٩ م) وجمع بين التاجين، انفجرت الأحقاد والضغائن بين الصليبيين، سواء في قبرص أم في عكا، فتعذر على هذا الملك القيام بأي عمل لتوطيد سلطته في مملكته مما اضطره في النهاية الى ترك مدينة عكا والعودة الى نيقوسيا عاصمة قبرص (١٢٧٦ م) بعد ما قويت معارضة البارونات له في عكا وخصوصاً رئيس فرقة الداوية: غليوم دي بوجيه

(Guillaume De Beaujeu)، الذي كان عميلاً لملك صقلية شارك دانجو.

وإذ لم يعين هوج الثالث نائباً عنه عند تركه عكا، فقد انتهز ملك صقلية هذه الفرصة، وأرسل نائباً يمثله فيها بوصفه وريثاً للأمبراطور فريدريك الثاني في صقلية، وهذا النائب هو: روجر دي سان سفرينو. كونت مرسيليا.

اما في طرابلس، فقد توفي بوهمند السادس أميرها (أيار ١٢٧٥م ٦٧٤هـ) وخلفه ابنه بوهمند السابع، الذي ما كاد يتسلم الحكم حتى برز الخلاف بين الحزب الذي يمثله وبين الحزب الذي يمثل والدته:لوسي دي سايني،وقد انضم فرسان الداوية وصاحب جبيل: غي الثاني الى الحزب المناوىء لبوهمند السابع، فاندلعت على إثر ذلك، حرب أهلية في طرابلس، دامت من سنة (١٢٧٨) حتى ١٢٨٢م حيث حاول غي الثاني بالاتفاق مع الداوية، الاستيلاء على المدينة مباغتة، فوقع في الفخ الذي نصبه، وقبض عليه بوهمند، وألقاه حياً في أحد الأقبية وطين عليه الباب، وتركه يموت أفظع الميتات[1].

على أن الصليبيين بالرغم من خلافاتهم، لم يهملوا التحالف مع المغول، تجاه الخطر الأسلامي المحدق بهم، فجرت المخابرات بينهم وبين حلفائهم هؤلاء بشخص رئيسهم أبَغَا أو أباقا، خليفة هولاكو، من أجل تنظيم حملة مشتركة ضد المماليك في مصر وسوريا.

ففي العشرين من رمضان سنة: ٦٧٥هـ ١٢٧٦م خرج الملك الظاهر بيبرس من مصر الى حلب لمجابهة المغول الذين قدموا الى سوريا يرافقهم جيش من سلاجقة الروم، فلما وصل الى حلب، تركها الى النهر الأزرق ثم سار الى أبلستين، حيث التقى بها جمعاً من المغول، مقدّمهم (تناون) ودارت معركة بينه وبينهم أسفرت عن هزيمتهم هزيمة منكرة،

(1) René Grousset: L'épopée des croisades – P. 376.

وقتل مقدمهم تناون وغالب قادتهم، وأسر منهم جماعة كثيرة. وكان من جملة الأسرى: سيف الدين قبجق، وسيف الدين أرسلان، وغيرهم (١٠ ذي القعدة ٦٧٥ هـ)[١]. ثم بعد هذه الموقعة. توجه السلطان، الى قيصرية، فاستولى عليها. ومنها الى حارم فدمشق.

على أن أبغا، لما بلغه هزيمة قائده تناون، مضى الى قيصرية ودخلها، بعد ما تركها السلطان، فانتقم من أهاليها المسلمين شر انتقام، لترحيبهم ببيبرس وإقامة الخطبة له بجوامعها، دون ان يتمكن هذا الأخير من العودة اليها للدفاع عنها، إذ لم يلبث أن عاجلته المنية، في دمشق (١٧ محرم ٦٧٦ هـ).

وكان السلطان الملك الظاهر بيبرس، أثناء حياته، قد مهّد للعمل على حصر وراثة العرش في أسرته، فحمل الأمراء على القسم بيمين الطاعة، لابنه ناصر الدين محمد بركة (٦٦٠ هـ)، الذي تولى بعد ذلك عهد السلطنة لينوب عن والده في حكم مصر بغيابه (٦٦٢ هـ) ونصّب محمد بركة سلطاناً على مصر والشام في أوائل ربيع الأول ٦٧٦ هـ وتلقب بالملك السعيد، وكان له من العمر آنذاك ثماني عشرة سنة.

وفي اوائل سنة ٦٧٧ هـ سار الملك السعيد الى الشام مع جيشه ولما وصل الى دمشق جردّ منها العسكر صحبه الأمير سيف الدين قلاوون الصالحي، وصاحب حماة، الى بلادسيس حيث قاموا بشن الغارات عليها ثم عادوا الى دمشق. وهناك، أخذ الأمراء يناوئونه ويضعون العراقيل في وجهه لتقويض سلطته، مما دفعه للعودة الى مصر والالتجاء الى قلعة الجبل في القاهرة فحاصره فيها، الأمراء الخارجون عن طاعته، وانضم اليهم أمراؤه الذين كانوا معه، مثل لا جين الزيني وغيره حتى اضطروه الى خلع نفسه والنزول عن العرش (ربيع الأول ٦٧٨ هـ) مقابل

---

(٢) أبو الفداء: المختصر: مجلد(٢) ج(٧) ص(١٣) حوادث سنة ٦٧٥ هـ.

تسلمه الكرك[1] وولي السلطنة بعده، أخوه بدر الدين سلامش، ولقب بالملك العادل وكان له من العمر سبع سنين وذلك باتفاق كبراء الأمراء مثل بدر الدين البيسري الشمسي وأيتمش السعدي، ، وبكتاش الفخري أمير سلاح وغيرهم. وأقيم الأمير سيف الدين قلاوون الصالحي أتابكاً للعسكر ونائباً للسلطنة.

وبديهي أن ينتهز قلاوون، هذه الفرصة التي سنحت له، للقبض على زمام الأمور في البلاد، والعمل على استمالة كبار المماليك الصالحية لجانبه، بمنحهم الأقطاعات الكثيرة، وتوليتهم بعض الولايات، وبالتالي إبعاد الأمراء الظاهرية الموالين لأسرة الظاهر بيبرس، عن مناصب الدولة كي يخلو له الجوّ، ويتخلص من السلطان الصغير. وهكذا تمكن قلاوون بعد مدة قصيرة من تنصيب هذا الأخير، من حمل أمرائه على الموافقة على خلع الملك العادل سلامش ونفيه الى الكرك، بحجة عدم خبرته في إدارة الحكم لصغر سنه وتنصيبه هو (اي قلاوون) سلطاناً على مصر والشام[2] (٢٢ رجب ٦٧٨ هـ) وما كاد الملك المنصور أبو المعالي قلاوون الصالحي النجمي، وقيل الألفي، لأنه اشتري بألف دينار، يتبوأ سدة السلطنة، حتى انصرف الى الاهتمام، بتوطيد العلاقات الودية التي كان أقامها السلطان بيبرس، مع سلطان مغول القفجاق وأمبراطور الروم، وتوصّل الى إبرام معاهدة دفاعية مع الفونس صاحب قشتالة ومع جيمس ملك صقلية، ومعاهدة تجارية مع مدينة جنوة، بالوقت الذي، كان الصليبيون على اتصال مستمر بأبغا بن هولاكو، بهدف التعاون والتنسيق فيما بينهم لمقاتلة المماليك.

ولهذه الغاية وفي سنة ١٢٨٠م ٦٧٩هـ، انحدر أبغا الى سوريا على رأس جيش عدّته ثمانون الف مقاتل، بينهم قسم من الأرمن، وأرسل

---

(١) أبو الفداء: المختصر: مجلد (٢) ج(٧) ص ١٦ - ١٧ حوادث سنة ٦٧٨ هـ.

(٢) المقريزي: السلوك: ج(١) ق(٢) ص - ٣٥٧ - ٣٥٨.

يطلب من إفرنج عكا القدوم للانضمام اليه، والاستعداد لتموين جيشه الاّ أن مدبر المملكة: روجردي سان سفرينو، لم يلبّ طلبه، إما لنقص المؤن عنده وإما لرغبته في الأبقاء على العلاقات الطيبة مع المماليك. وكل ما فعله هو إبلاغ السلطان قلاوون بمجيء المغول، (الأمر الذي أتاح لمدير المملكة فيما بعد، الفرصة لعقد هدنة جديدة مع قلاوون).

وفي ١٤ رجب ٦٨٠ هـ آخر تشرين الأول /١٢٨١/ م التقى جيش السلطان بجيش المغول الذي كان يقوده الأمير منكوتمر أخو أبغا وبرفقته ليفون الثالث ملك أرمينيا، بقرب مدينة حمص، فجرت معركة ضارية بين الجيشين أسفرت عن هزيمة جيش الحليفين المغولي والأرمني، هزيمة شنعاء، دون أن يقدم لهما إفرنج عكا أية معونة[١]. وبعد هذه المعركة رجع السلطان قلاوون الى مصر مؤيداً منصوراً، اما الأمير منكوتمر (Mangu Timur) المغولي، فقد مات مقهوراً مكموداً في جزيرة ابن عمر، عقيب كسرته على حمص. وكان موته من جملة هذا الفتح العظيم كما يقول أبو الفداء. وبعد موته بقليل مات أيضاً أخوه أبغا بن هولاكو فخلفه أخوه الآخر: تكدار بن هولاكو، الذي اعتنق الأسلام وتسمى بأحمد سلطان وتولى عرش بلاد فارس. وبعد توليه الحكم، انتهج أحمد سلطان سياسة ودية تجاه المسلمين لأن دين الأسلام كان قد انتشر بسرعة بين المغول كافة وعواهلهم وتبدلت عواطف هؤلاء نحو بلاد المسلمين، ولذلك عندما قررّ مجلس الشورى المغولي تجهيز حملة كبرى على سوريا ومصر عارضه أحمد وأرسل مبعوثين من قبله الى السلطان الملك المنصور قلاوون، يعلمه بواسطتهم باعتناقه الأسلام ويرغب اليه بالصلح والأتحاد[٢]. وكان كبير المبعوثين المغول، الشيخ المتقن قطب الدين محمود

(١) أبو الفداء: المختصر مجلد (٢) ج(٧)ص - ١٩ - ٢٠ - حوادث سنة ٦٨٠ هـ.
وايضاً: Jean Richard: le Royaume Latin de Zérusalem. PP. 315 - 316

(٢) أبو الفداء: المختصر: مجلد (٢) ج (٧) ص. (٢١) حوادث سنة ٦٨١ هـ.

الشيرازي، قاضي سيواس. ولم يرق موقف أحمد سلطان من المسلمين لأخيه مونفرتاي وابن عمه أرغون فقاتلاه وقتلاه (٦٨٢ هـ) وتولى أرغون حكم دولة المغول في فارس من بعده.

لم تكن سياسة أرغون لتختلف عن سياسة أبغا تجاه بلاد الأسلام. فسار على خطاه، وعمل منذ تسلمه السلطة على التقارب من المسيحيين، للتحالف معهم ضد المسلمين فأرسل سفراءه الى البابا وملك فرنسا وملك انكلترا للاتفاق معهم على القيام بحملات مشتركة على بلاد الشام ومصر وبعد عدة مخابرات بينه وبينهم تعاهدوا جميعاً على أن تلتقي جيوشهم في سهل دمشق في ربيع سنة ١٢٩٠ م.على ان هذا التحالف لم يوضع موضع التنفيذ ولم ير النور فيما بعد بسبب عدم تأييده من قبل الصليبيين الذين كانوا يهابون جيرانهم المماليك الأقوياء والاحتكاك بهم . خصوصاً وإن رياح التفرقة كانت لا تزال تعصف بهم وفي الوقت الذي كان فيه المغول يفكرون باجتياح الشام، كان السلطان قلاوون يستعدّ لتوجيه الضربة القاضية الى الأفرنج في سوريا وإنهاء وجودهم فيها. ذلك أنه بعدما عقدت الهدنة بينه وبين الداوية في طرطوس في سنة ٦٨١ هـ ١٢٨٢م ثم بينه وبين الوصي على مملكة عكا: أود بوالشيان: (Poilehien) مندوب ملك صقلية شارل دانجو ومقدمي الداوية والأستبارية والتوتونيين لمدة عشر سنوات وعشرة ايام وعشر ساعات (ابتداء من الخامس من ربيع الأول ٦٨٢ هـ ٣ حزيران ١٢٨٣ م)، عمد الأسبتارية على خرقها. فما وسع السلطان إلا مقابلتهم بالمثل وصمم على مهاجمة هؤلاء في أول الأمر في حصن المرقب الحصين الذي كان امتنع على بيبرس نفسه. فألقى الحصار عليه في العاشر من صفر ٦٨٤ هـ ١٧ نيسان ١٢٨٥ م، واستولى عليه في (١٩) ربيع الأول ٦٨٤ هـ. ويقول ابو الفداء [إنه حضر حصار الحصن المذكور وعمره إذ ذاك نحو اثنتي عشرة سنة وهو أول قتال رآه وكان مع والده في ذلك الوقت]. ولما

استسلم الحصن أعطى السلطان أهله الأمان، على أن يتوجهوا بما يقدرون على حمله، غير السلاح، الى حيث يريدون. وبعد ذلك رأى السلطان قلاوون أن حصن مرقية الواقع بين طرطوس والمرقب بوسط البحر، بعيداً عن الشاطئ وبمواجهة مدينة مرقية يحصل منه ضرر كبير للمسلمين في حال بقائه بيد الأفرنج فأرسل كتاباً الى أمير طرابلس يهدده فيه بوجوب هدم هذا الحصن والاّفأن أمارته ستكون مهددة بالاجتياح. فتوسط أمير طرابلس مع صاحب هذا الحصن فهدمه مرغماً خوفاً من السلطان. ثم استولى السلطان على مدينة اللاذقية في سنة ١٢٨٧ م وكانت آخر ما تبقى من إمارة أنطاكية.

سقوط طرابلس

على إثر وفاة امير طرابلس بوهمند السابع (١٩ تشرين الأول ١٢٨٧ م) الذي لم يخلف وريثاً مباشراً للعرش، انتهز اهالي المدينة هذه الفرصة، ليعلنوا سقوط سلالته، وتأليف مجلس بلدي مستقل لأدارة شؤون البلاد، تحت حماية جمهورية جَنَوة (١٢٨٨ م) وذلك بتحريض من برتلمي، شقيق غي صاحب جبيل (الذي كان بوهمند السابع قد طمره حيّاً، كما سبق بيانه[١]).

من هنا، زادت الخلافات بين إفرنج سوريا؛ وكانت دليلاً على ضعفهم، ونذير شرّ لهم؛ فإن أيامهم أصبحت معدودة، وكل شيء كان يوحي بأن المماليك لن يتركوهم متناحرين، دون أن يستفيدوا من هذا الواقع للوثوب عليهم وإجلائهم عن البلاد.

ففي أواخر شباط سنة ١٢٨٩ م سار السلطان قلاوون من مصر الى مدينة طرابلس، ورابط أمام أسوارها، ملقياً الحصار عليها، بجيشه البالغ عدده آنذاك (٤٠٠٠) من الفرسان و(١٠٠٠٠٠) من المشاة.

---

(1) René grousset: l'empire du Levant P. 276.

وكان ملك قبرص، قبل الحصار، قد بعث الى طرابلس، بأخيه أموري، للإشتراك بالدفاع عنها، في الوقت الذي قدم إليها أيضاً، قائدا فرقتي الداوية والاسبتارية، وجان دي غرايي (Grailly)قائد الحامية الفرنسية في عكا.

وحينما شعر البنادقة والجنويون الموجودون في المدينة، بالخطر يتهدّدهم، تسابقوا على الانسحاب منها، عن طريق البحر، خفية عن الفرنسيين؛ ولكن انسحابهم ما كان ليخفى على السلطان، فأعطى أوامره باقتحامها، وهي لم تكن كاملة التحصين؛ وبعدما اشتدت عليها قذائف المنجنيقات الكبار، وقوي القتال، تمكّن الجيش الاسلامي من فتحها والدخول اليها عنوة، فهرب أهلها الى المينا، فتبعهم المسلمون وأثخنوهم قتلاً وجرحاً وأسروا عدداً كبيراً بحيث إن ألفاً ومايتي أسيراً منهم، نقلوا الى دار الصناعة في القاهرة، كما يقول المقريزي.

وقد وصف ابو الفداء فتوح طرابلس كما يلي «ولما نازلها السلطان نصب عليها عدة كثيرة من المجانيق الكبار والصغار ولازمها بالحصار، واشتد عليها القتال حتى فتحها يوم الثلاثاء رابع ربيع الآخر من هذه السنة بالسيف (سنة ٦٨٨ هـ) ودخلها العسكر عنوة، فهرب أهلها الى المينا، فنجا أقلّهم في المراكب، وقتل غالب رجالها، وسبيت ذراريهم، وغنم المسلمون غنيمة عظيمة. وحصار طرابلس هو أيضاً مما شاهدته، وكنت حاضراً فيه مع والدي الملك الأفضل وإبن عمي الملك المظفر صاحب حماة. ولما فرغ المسلمون من قتل أهل طرابلس ونهبهم، أمر السلطان، فهدمت ودُكّت الى الأرض، وكان في البحر قريباً من طرابلس جزيرة وفيها كنيسة تُسمى كنيسة سنطماس[1] وبينها وبين طرابلس المينا، فلما أخذت طرابلس هرب الى الجزيرة المذكورة والى

---

(١) القديس توما - .Saint - Thomas

الكنيسة التي فيها، عالم عظيم من الفرنج والنساء، فاقتحم العسكر الاسلامي البحر، وعبروا بخيولهم سباحة الى الجزيرة المذكورة، فقتلوا جميع من فيها من الرجال، وغنموا ما بها من النساء والصغار، وهذه الجزيرة... عبرتُ إليها في مركب فوجدتها ملأى من القتلى، بحيث لا يستطيع الانسان الوقوف فيها من نتن القتلى».

وبعدما هُدمت طرابلس، بأمر السلطان، أقيمت مكانها فيما بعد، مدينة جديدة على بعد ميلين منها، حملت الاسم ذاته، حول قلعة صنجيل.

وباستيلاء المسلمين على طرابلس، فقد الصليبيون بعدها، بيروت وجبلة وما حولها من الحصون بدون مقاومة تُذكر، ولم يبق في حوزتهم بالسواحل الشامية سوى مدينة جبيل التي أقرّ السلطان قلاوون، صاحبها عليها مقابل مبلغ من المال، بالإضافة الى مدن عكّا وصور وصيدا، وحصن: عتليت (Chatel - Pélerin).

سقوط عكا وآخر المعاقل الصليبية

قبل أن تقع طرابلس بيد السلطان قلاوون بقليل، كان هنري الثاني ملك قبرص وعكا، قد وصل الى مدينة عكا، بغية العمل على تنظيم أمورها، بعد تلك الفوضى التي حصلت فيها، وتقوية الجيش فيها لحمايتها من هجمات السلطان، فيما لو تعرّض لها. ذلك أنه كان على يقين، مثل باقي الصليبيين في سوريا، بأن النهاية أصبحت وشيكة، وأن الحفاظ على ما تبقى من مملكة بيت المقدس (عكا)، لا يكون الاّ بمدّ يد المعونة لها من أوروبا، مع حملة صليبية مستعجلة. ولذا فقد طلب من السلطان، بعد سقوط طرابلس، الموافقة على التفاوض من أجل عقد هدنة طويلة الأمد، لإحلال السلام بين المسلمين والصليبيين، على أمل أن تصل الأمدااد، الى هؤلاء الاخيرين قبل انتهاء الهدنة، فتكون قواهم قد

عادت إليهم، ويضحي بأمكانهم الصمود بوجه المماليك. فقبل السلطان بالتفاوض، حقناً للدماء من جهة، وللاستعداد لجولة اخيرة، تؤدي الى إخراج الصليبيين للأبد من البلاد السورية، من جهة ثانية؛ وعلى هذا فقد تم التوصل الى عقد هدنة بين الفريقين لمدة عشر سنوات وعشرة أشهر(١) (١٢٨٩ م - ٦٨٨ هـ).

وعلى إثر هذه الهدنة، ترك هنري الثاني مدينة عكا عائداً الى قبرص، بعدما انتهت مهمته، وسلّم مقاليد نيابة المملكة، الى شقيقه أموري: أمير صور والقائد العام لجيش المملكة. وكان قبل ذلك، قد أرسل الملك هنري الى البابا نقولا الرابع، مندوباً من قبله هو جان دي غرايي، ليعلمه بنبأ سقوط طرابلس، ويشرح له الحالة الصعبة التي وصل اليها الصليبيون في سوريا، ويطلب منه المعونة، فما كان من البابا إلاّ أن بدأ بالاستعداد لتجهيز حملة صليبية كبرى، عيّن موعد قيامها بالسفر، يوم الرابع والعشرين من حزيران ١٢٩٣ م، وذلك بناء لطلب إدوارد الأول ملك انكلترا، الذي وافق على الانخراط بها، كما كان الصليبيون في الوقت ذاته، على اتصال مستمر بالمغول، للقيام معهم بحملة مشتركة على مصر. على أن السلطان قلاوون لم يكن غافلاً عما يدبّره الصليبيون ويخططون له، فقام من جهته، بتوثيق عرى الصداقة بينه وبين الجنويين، وعمل على إرضائهم، بعقد معاهدة صداقة، تخوّلهم بعض الامتيازات، لقاء ما خسروه في تجارتهم من جراء عودة طرابلس الى المسلمين. وقد وّقع على هذه المعاهدة جايم الأول ملك صقلية، وألفونس ملك الأرغون والسلطان قلاوون (٢٥ نيسان سنة ١٢٩٠ م - ٦٨٩ هـ). وكان من بنودها أن تعهد جايم والفونس بعدم الأشتراك بأية حملة صليبية قد تأتي الى سوريا، أو التعاون معها، مقابل السماح

(1) Jean Richard: Le royaume Latin de Jerusalem, P 334.

لمواطنيها، بتصدير مواد الحديد والسلاح الى الاسكندرية، وزيارة بيت المقدس(١). بيد أن الهدنة بين المسلمين والصليبيين، لم يقدر لها طول البقاء، إذ خرقها الصليبيون أنفسهم، بالرغم عنهم.

وتفصيل ذلك أن حملة صليبية شعبية من إيطاليا الوسطى ولومبارديا، وصلت الى عكا في منتصف سنة ١٢٩٠م وكانت تضم بين ظهرانيها، عصابات أشبه بعصابات بطرس الناسك وغوتير المعدم، ورفاقها، التي تشكلت في سنة ١٠٩٦م أي في بدء الحملة الصليبية الأولى: فراحت تعبث بالنظام، وتعيث فساداً في المدينة، فناصبها الأهالي العداء، فأقدم بعضها في أحد الأيام من شهر آب ١٢٩٠م على ارتكاب مجزرة بحق الفلاحين والتجار المسلمين الآمنين، والعزّل من السلاح، والذين كانوا في المدينة يعرضون منتوجاتهم للبيع، فتعرضوا لهم وقتلوهم على بكرة أبيهم، وقتلوا معهم بعض السريان الملكانيين خطأ بسبب تركهم لحاهم كالمسلمين؛ ثم أخذوا يخرجون الى ضواحي عكا، لترقّب مرور القوافل التجارية الاسلامية المحمّلة بالبضائع ومصادرتها وقتل مرافقيها من التجار والحراس.

ولما ترامت الأخبار الى السلطان قلاوون، بما فعله هؤلاء الصليبيون من أعمال بربرية، طلب من سلطات عكا، تسليمه المجرمين المسؤولين عنها، فلم تستجب السلطات له، بل أرسل نائب المملكة يعتذر له عنهم؛ فما كان من قلاوون إلاّ اعتبار الهدنة منقوضة، وبدأ بتجهيز حملة عسكرية قوية، للانتقام من الصليبيين. ولكن قبل أن ينتهي من ذلك، داهمته المنية، فتوفي، بعد خروجه من الديار المصرية، وكانت وفاته بالقرب من المطرية (٦ ذي القعدة ٦٨٩ هـ) وتولّى ابنه الأشرف صلاح الدين خليل سدّة السلطنة بعده، ولم يكن ليتجاوز العشرين من عمره.

---

(1) Jean Richard: Le Royaume Latin de Jerusalem. P. P. 335. 336.

وما ان تسلّم الأشرف خليل مقاليد الحكم، حتى أتم تجهيز الحملة التي كان والده يهيّؤها لفتح عكا، وخرج من مصر، بجيشه قاصداً هذه المدينة، وخرجت العساكر الشامية من دمشق لملاقاته هناك، بناء لطلبه؛ ولما التقى الجمعان ألقي الحصار على مدينة عكا (أول جمادى الأولى ٦٩٠ هـ ٥ نيسان ١٢٩١ م). وضاق الخناق عليها، لدرجة أن كل محاولة كانت تجري من قبل الأفرنج لفكه، تنتهي بالفشل.

وفي أثناء ذلك، تبودلت المخابرات بين المسلمين والأفرنج، في سبيل التوصل الى حلّ ما، لإنهاء القتال، فلم تأت بنتيجة، لأن السلطان الأشرف أصرّ على تسليمه المدينة أولاً، وقبل كل شيء؛ فرفض الصليبيون ذلك، فالوفد الأول الذي أوفدوه للمفاوضة، قُبض عليه وألقي في السجن، والثاني أعيد من حيث أتى مع كل احترام لأنه كان من قبل رئيس فرقة الداوية: غليوم دي بوجيه. ولكن عندما وصل ملك قبرص هنري الثاني، على رأس أربعين سفينة حربية، تنقل مائتين من الفرسان وخمسمائة من المشاة، لمساعدة اهالي عكا (٤ أيار ١٢٩١ م) عادت المفاوضات لتجري بينه وبين السلطان، فأرسل الى هذا الأخير وفداً من قبله يعرض اقتراحاته، فلم يتزحزح الأشرف عن موقفه من حيث تسليمه المدينة، وعدم التعرّض لأهاليها بمغادرتها بأمان مع كل ما يملكونه من منقول. وفيما الحديث جار بين الطرفين، سقطت بعض الحجارة على خيمة السلطان، منطلقة من أحد منجنيقات الأفرنج؛ فغضب وقطع المفاوضات فوراً، وعادت المناوشات تشتد بين المحاصِرين والمحاصَرين؛ الذين أبدوا مقاومة قوية.

ذلك أن مدينة عكا، كانت آنذاك، تضم بين ظهرانيها كل عناصر المقاومة، من إفرنج سوريا وقبرص، وزوّار أتوا حديثاً إليها، بالإضافة الى البّحارة الايطاليين الراسية سفنهم في المرفأ، وقد بلغ مجموع ما كان

فيها من مقاتلين حوالي الأربعة عشر ألفاً من المشاة، والثمانمائة من الفرسان، ما عدا الأهالي.

أما القادة الذين تسلّموا الدفاع عنها، فهم الدّاوية والاسبتارية، وجان دي غرايي قائد الفرقة الفرنسية، وأوت (Otte) دي غرانسون، قائد الفرقة الانكليزية، وهو فارس سويسري، يضاف إليهم هنري الثاني ملك قبرص وعكا، الذي انضم اليهم مع مقاتليه.

في حين ان جيش السلطان الأشرف خليل، كان يبلغ حوالي المائتي ألف مقاتل، منهم ستون ألفاً من الفرسان والباقي من المشاة، وكان ينقل معه كميات كبيرة من آلات الحصار والمنجنيقات والعرّادات.

وقد حاول الصليبيون المحاصرون في القطاع الشمالي للمدينة، لجهة الشاطيء، إحراق آلات الحصار المنصوبة هناك في الخامس عشر من نيسان ١٢٩١م، فخرج رئيس الداوية، غليوم دي بوجيه والفارس السويسري أوت دي غرانسون، مع ثلاثمائة من الفرسان، وفاجأوا ليلاً، مراكز المصريين المتقدمة واخترقوها حتى وصلوا الى المعسكر حيث صادف أن تعثرت خيولهم بحبال المضارب، فتنبّه الجند المصري، وجابهم ففرّوا وفشلت المحاولة.

على أن الأفرنج اعادوا الكرة، بعد بضعة أيام، فتجمّع فرسانهم كلّهم وراء باب القديس أنطون، للخروج منه عند منتصف الليل، لمفاجأة المسلمين؛ بيد أن السلطان، كان على علم مسبق بمحاولتهم؛ فما كادوا يتلقون الأمر بامتطاء جيادهم، حتى كان معسكر المسلمين يضيء بأنوار المشاعل، وينحسر الظلام عن عشرة آلاف فارس مملوكي، مستعدّين للمجابهة، فما وسع الأفرنج إلاّ العودة الى المدينة، والمسلمون في أعقابهم.

في تلك الأثناء، كان الجيش الاسلامي لا ينقطع عن متابعة الهجوم على مدينة عكا، بهمة لا تعرف الكلل والملل، وكان الأفرنج يبدون

مقاومة عنيفة باسلة في التصدّي له، فدام الحال على هذا المنوال، الى أن أمر السلطان الأشرف بالهجوم النهائي، وكان ذلك يوم الجمعة الواقع في السابع عشر من جمادى الآخرة ٦٩٠ هـ - والثامن عشر من أيار ١٢٩١ م، عند الفجر، وما أن تعالى قرع الطبول، ودقّ الصنوج، حتى أخذت صفوف الجند الاسلامي، بالتقّدم، من جميع الجهات، لا يقف بوجهها شيء؛ فاخترقت سور المدينة واحتلّت أولاً، البرج الملعون، الشهير، ثم اندفع قسم منها نحو باب القديس أنطون، حيث كانت المقاومة عنيفة من قِبل فرقتي الداوية والاسبتارية الذين عملت المصيبة على جمعهم ومصالحتهم في ذلك اليوم. ولكن ماذا يمكن للصليبيين أن يفعلوا أمام هذا السيل الجارف، من كل ناحية فماتوا أبطالاً واحتل المماليك باب القديس أنطوان، وتابعوا تدفقّهم نحو باب القديس نقولا وبرج الجسر، اللذين كانا بحراسة جان دي غرايّي وأوت دي غرانسون فاستولوا عليها، بعدما تخلّى عنها المقاومون الذين انكفأ قسم منهم جهة المرفأ للفرار على المراكب الراسية في البحر؛ بينما التجأ القسم الآخر الى قصر الداوية المحصّن، الواقع على البحر.

وفي هذا القصر، اجتمع من بقي حيّاً من الأفرنج، من رجال ونساء وأولاد، فنُقل قسم منهم مع الملك هنري الثاني، بالمراكب الى قبرص، بعناية الداوية؛ الذين تمترس الباقون منهم في هذا القصر، متحدّين هجمات المماليك المتتابعة يوماً بعد يوم: مما حدا بالسلطان الأشرف ان يعرض عليهم، تسليم القصر له مقابل الإبقاء على حياتهم والانسحاب الى قبرص، فقبلوا بذلك، وفيما كانت عملية إخلاء القصر والانسحاب، على وشك التنفيذ، أقدم بعض الجند من المماليك على التعدي على النسوة الأفرنجيات، فثارت ثائرة الفرسان الداوية وهجموا على المعتدين وقتلوهم، وأسقطوا راية السلطان التي رُفعت على القصر ودخلوا إليه ثم أقفلوا أبوابه، استعداداً للصمود فيه، فلجأ السلطان عند ذاك الى

الحيلة، لإخراجهم منه، فعرض على قائدهم بيار دي سفري (Sevry) مرة أخرى، أن يستسلم، واعداً إياه وعد شرف، بالحفاظ على وعده، فوثق قائد الداوية بكلامه وخرج إليه مع قسم من مقاتليه: ولم يكد يصبح بين يدي السلطان حتى قطع رأسه ورؤوس رفاقه؛ مما دفع بالباقين في القصر، الى الاستماتة في المقاومة.

وهكذا أعاد السلطان محاصرة القصر، فعمل اللغّامون على تقويض أساساته فتداعت أقسام من حيطانه، وبرغم ذلك ظل المدافعون عنه صامدين فيه، ينتظرون الموت في كل ساعة؛ وعند ذلك قام بعض الجند من المماليك باقتحامه نهائياً، واندفعوا اليه من الثغرات التي فتحت فيه، ولما أصبحوا داخله لم يتحمل ثقلهم، فانهار بهم جميعاً، مَن كانوا فيه، ومَن دخلوا إليه، فقتلوا تحت أنقاضه، كما قتل عدد كبير من المسلمين الذين كانوا يقفون بقربه. ثم بعد ذلك أعطى السلطان أوامره بهدم مدينة عكا فهدمت.

ويقول أبو الفداء بهذه المناسبة[١] عندما يصف فتوح عكا: «ثم أمر (السلطان) بمدينة عكا فهدمت الى الأرض ودُكت دكاً، ومن عجائب الاتفاق أن الفرنج استولوا على عكا وأخذوها من صلاح الدين، ظهر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة، سنة سبع وثمانين وخمسمائة، واستولوا على من بها من المسلمين ثم قتلوهم؛ فقدّر الله عزّ وجلّ في سابق علمه أنها تفتح في هذه السنة في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة، على يد السلطان الملك الأشرف صلاح الدين، فكان فتوحها مثل اليوم الذي ملكها فيه الفرنج، وكذلك لقب السلطانين»: أي وكذلك لقب كل من السلطانين صلاح الدين وهما: السلطان صلاح الدين

---

(١) المختصر. مجلد (٢) جزء (٧) ص ٣١ - ٣٢ - حوادث سنة ٦٩٠ هـ.

يوسف بن أيوب، والسلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون.

وبسقوط مدينة عكا، تخاذلت قوى الصليبيين في المدن الباقية لهم في الأرض المقدّسة فلم يعودوا يبدون مقاومة تذكر تجاه المسلمين، لشدّة وقع الهزيمة عليهم. وأول من تفهّم الواقع كان صاحب صور: آدم دي كفران (Cafran) الذي أسرع بالانسحاب منها في اليوم ذاته الذي دخل فيه المسلمون مدينة عكا؛ فاحتلّها المماليك في التاسع عشر من أيار، وأخذوا من بقي فيها من الأفرنج كأسرى، أما مدينة صيدا، فإن قائد إحدى فرق الداوية: تيبو غودين (Thibaut Gaudin)، كان قد التجأ إليها بعد هربه من عكا، واستلم زمام المدافعة عنها، وقد قاوم فيها ما وسعته المقاومة، ثم أخلاها فدخلها الشجاعي، من قبل السلطان وتسلّمها (١٤ تموز م - ٢٢ رجب).

وأما مدينة بيروت، فقد أخذت في الحادي والعشرين من تموز - في حين سقطت مدينة حيفا في الثلاثين من تموز، بعد مقاومة استشهد فيها الرهبان الكرمليون وهم ينشدون الأناشيد الدينية.

ولم يَعد هناك للداوية، إلاّ طرطوس وعتليت، وهما آخر معقلين من معاقلهم سقطا بيد المسلمين في الثالث والرابع عشر من آب ١٢٩١ م - مستهل شعبان - ١١ شعبان ٦٩٠ هـ.

وبعدما انتهى السلطان الأشرف من استكمال انتصاراته، أعطى أوامره بتدمير حصني صيدا وعتليت كما فعل بمدينة عكا.

الفصل الثالث

محاولات الحركة الصليبية لاستعادة الأرض المقدسة

إن سقوط عكا، عاصمة مملكة القدس اللاتينية، وآخر المعاقل فيها، بيد المسلمين، قد وضع حداً لمغامرة سياسية ودينية، قام بها الأوروبيون في المشرق الأسلامي. وأنهى أمرهم، بعد قرنين من تأسيسهم دولتهم اللاتينية في القدس، وقد كان لجلاء هؤلاء الأوروبيين عن البلاد الأسلامية، وقع أليم في الغرب، الذي أصابه الذعر والذهول من جرّاء ذلك، يقابله صدى بعيد الأثر في المجتمع الأسلامي، الذي عاد فاسترد أنفاسه، بعد إذ كان كابوس الصليبيين يثقل عليه، ويضعه في دوّامة من الخوف والضيق والخراب.

ولقد عبّر الشعراء المسلمون عن سرورهم بهذا النصر المؤزر يؤتى للسلطان الملك الأشرف خليل، بقصائد كثيرة منها ما قاله شهاب الدين محمود، في قصيدة طويلة نقتطف منها الأبيات التالية:

[الحمد لله زالت دولة الصلب ... وعزّ بالترك دين المصطفى العربي

[هذا الذي كانت الآمال لو طلبت ... رؤياه في النوم لاستحيت من الطلب

[ما بعد عكا وقد هُدّت قواعدها ... في البحر والبرّ ماينجى سوى الهرب

[يا يوم عكا لقد أنسيت ما سبقت ... به الفتوح وما قد خُطّ في الكتب

[لم يبلغ النطق حدّ الشكر فيك فما ... عسى يقوم به ذو الشعر والأدب

كما يقول فيه القاضي محيي الدين عبد الظاهر:

[يا بني الأصفر قد حلّ بكم   نقمة الله التي لا تنفصل
[نزل الأشرف في ساحتكم   فابشروا منه بصفع متصل

هذا وان أول ما سعى اليه السلطان الأشرف خليل، ومن بعده سلاطين المماليك، بعد جلاء الأفرنج عن سوريا، هو تحصين السواحل التي خرب بعضها في الحروب، وذلك خوفاً من أن يعود هؤلاء، الى الأستيلاء عليها ثانية لا سيما وأن وجودهم في قبرص، كان من شأنه ان يحيي الأمل في نفوسهم، لمهاجمة تلك السواحل. والعودة الى سوريا، إذا ما وافتهم النجدات من الغرب.

وقد صحّ ما توقّعه سلاطين المماليك، فان البابا نقولا الرابع، لم يسكت على ضياع البلاد المقدسة، فأعلن عن ألمه لهذا الخطب يصيب الصليبيين، وقرّر دعوة المجالس الكنسية، للمداولة في انجع الوسائل وأفضل الطرق، لأعادة فتح الأرض المقدسة، بواسطة حملة صليبية جديدة، كما طلب من فرقتي الداوية والأسبتارية، توحيد نظاميهما والعمل يداً واحدة. (آب ١٢٩١ م) ثم وضع مخططاً لمشروع اقتصادي، منع بموجبه التعامل تجارياً مع البلدان الأسلامية، واتخذ الأجراءات السريعة لنجدة قبرص وأرمينية في حال مهاجمتها من قبل المماليك[1].

وبالفعل، فان البابا نقولا الرابع، أعطى أوامره بارسال الجيش الذي يحضّره لاستعادة مدينة عكا، الى أرمينية لنجدتها وذلك بناء لاستغاثة ملكها، المهدّد من قبل المماليك. (٤ كانون الثاني ١٢٩٢ م). في حين كان الأسطول التابع للبابا يمخر عباب البحر متجهاً نحو مدينة الأسكندرية لتهديدها.

---

(1) Jean Richard: Le Royaume Latin de Jerusalem. P. 342.

ولكن بالرغم من حماسة البابا لم تثمر حملته الدعائية لتنظيم حملة صليبية جديدة لاسترداد بيت المقدس، إذ ان ملوك المسيحية الذين دعاهم لحمل الصليب لم يلبّوا الدعوة لأسباب مختلفة لم تكن لتسمح لهم بترك بلادهم. على أن المفاوضات التي كان يجريها البابا مع المغول للاشتراك معاً في الهجوم على سوريا، بقيت مستمرة، ولم تتأثر بوفاة الخان أرغون حينذاك.

وقد كادت الخلافات التي وقعت بين المماليك أنفسهم، بسبب التسلط على السلطنة والحكم، أن تؤدي بالمسلمين الى التهلكة، لولا لطف الله بهم، وهمة المماليك الذين تمكنوا، بعد العناء من الوقوف بوجه المغول وحلفائهم وكسر شوكتهم.

ذلك أنه في اوائل المحرّم سنة ٦٩٣ هـ أقدم بعض المماليك على قتل السلطان الملك الأشرف، وهم: سيف الدين بندار نائب السلطنة، وحسام الدين لاجين المنصوري، وقراسنقر، وبهادر وغيرهم من الأمراء، ونصّبوا مكانه في السلطنة، أخاه الملك القاهر بيدرا الذي أقام يوماً واحداً في الحكم، ثم خُلع وقُتل، وبعده تولّى أخوه الآخر الملك الناصر محمد بن قلاوون سدّة السلطنة (العشر الأوسط من المحرّم ٦٩٣ هـ) وكان له من العمر تسع سنين. ولم يلبث الناصر، في السلطنة سوى سنة واحدة، حتى خُلع منها لصغر سنه. فولي السلطنة بعده الملك العادل زين الدين كتبغا المنصوري (٩ محرّم ٦٩٤ هـ) فاقام سنتين وهرب الى الشام في المحرم سنة ٦٩٦ هـ حيث خلع نفسه عن السلطنة. فتولّى السلطنة بعده نائبه الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري، الذي فور استلامه الحكم جرّد جيشاً كثيفاً وأرسله الى بلاد سيس لشنّ الغارات عليها، فاستولى على حصون حموص وتل حمدون وكويرا والنفير وحجر شغلان وسرقندار ومرعش وغيرها من البلاد الأرمنية أي كل ما هو جنوبي نهر جيحان (سنة ٦٩٧ هـ)، وأقام لاجين في الحكم سنتين وسبعة

وأربعين يوماً وقُتل في القلعة بيد جماعة من المماليك الصبيان الذين اصطفاهم لنفسه (١١ ربيع الآخر ٦٩٨ هـ). وبعده عاد السلطان الملك الناصر محمد بن فلاوون ثانية الى الحكم، بعدما تعطلت السلطنة (٤١) يوماً (٦ جمادى الأولى ٦٩٨ هـ). وفي مبدأ ولايته، قدم المغول الى سوريا مع حلفائهم، وتفصيل ذلك أنه بعد وفاة الخان أرغون، تولى الخانية ابنه غازان الذي لم يمنعه اعتناقه الأسلام، من تلبية طلب ملك أرمينية لمعونته ضد المماليك، فتفاوض غازان مع ملك قبرص هنري الثاني في سبيل تجهيز حملة مشتركة على سوريا ومصر، ولكن المفاوضات لم تقترن بنتيجة نظراً لعدم اتفاق رئيسي فرقتي الداوية والأسبتارية. ومع ذلك فأن غازان، وحلفاءه الكرج والمزندة، والأرمن، نزلوا الى سوريا بجمعهم الغفير، وتغلبوا على المماليك، في المعركة التي دارت بينهم بالقرب من مجمع المروج في شرقي حمص وعلى نحو نصف مرحلة منها (٢٤ كانون الأول ١٢٩٩ م - ٦٩٩ هـ)[١]. وبعد الهزيمة تراجع المماليك، فتبعهم غازان وحلفاؤه الى دمشق، فخرج للقائهم السلطان الناصر محمد، بجيشه البالغ عشرين ألفاً من المقاتلين. فانتصروا عليه، وكان جيشهم يقارب المائة ألف، ودخل غازان دمشق، دون القلعة التي عصت عليه فأمر بحصارها. ثم أقام ببرج دمشق المعروف ببرج الزنبقية. وبعد ذلك عاد الى بلاده الشرقية، وأبقى حامية في المدينة وأناب عنه فيها، سيف الدين قبجق، الذي كان التجأ اليه سابقاً مع رفيقين له هما: بكتمر السلحدار وفارس الدين ألبكي[٢].

وفي تلك الأثناء، كان هنري الثاني ملك قبرص يرسل قطعة إنزال الى الساحل السوري، وصلت مقدمتها الى البترون، ونزلت فيها، على أن تبقى هناك بانتظار الجيش الملكي الذي كان في طريقه اليها. ولكن

---

(1) jean Richard: Le Royaume Latin de **Jerusalem**. P. 343.

(٢) أبو الفداء: المختصر: مجلد (٢) ج (٧) ص٥٢ - ٥٣ - حوادث سنة ٦٩٩ هـ.

قبل وصول هذا الجيش، انضمت اليها وحدات عسكرية مارونية، انحدرت من جبل لبنان، واتفق الجميع على مهاجمة مدينة طرابلس، الجديدة المبنية حديثاً، فصدّهم المسلمون ودحروهم وقتلوا قادتهم، فتفرقت الوحدات المارونية أيدي سبأ، ولم يسع من بقي سالماً من القبارصة، إلاّ ركوب البحر ثانية، والعودة من حيث أتى[1].

وفي الوقت ذاته، كان صاحب يافا السابق: غي ديبلن، على رأس أسطول جنوي، يقتحم مدينة جبيل ويستولي عليها، ثم يتركها دون أن يبقي له أثراً فيها.

كما ان اسطولاً صغيراً، معقود اللواء للأميرال بودوان دي بيكيني (Picquigny) ومعه قطعة إنزال يقودها: ريموند فيسكونت، أبحر من مرفأ فماغوسطا في قبرص في العشرين من شهر تموز ١٣٠٠م يرافقه مندوب الخان (غازان): شيول (الذي كان قد اجتمع في الجزيرة بملكها، وبصاحب صور السابق وبقادة الداوية والأسبتارية) ووجهته مدينة الرشيد المصرية (Rosette) الواقعة على الساعد الغربي لنهر النيل، حيث أرسى هناك، وأقدم مائة فارس منه، على اقتحام المدينة وتخليص الأسرى المغول الموجودين فيها، والأسرى الأفرنج الذين أخذوا من عكا عند وقوعها بيد المسلمين.

ثم دخل هذا الأسطول مياه الأسكندرية، بقصد إرهاب أهاليها، وغادرها عائداً الى طول الساحل السوري، فنزلت عساكره في عكا وطرطوس حيث اشتبكوا مع بعض الوحدات العسكرية الصغيرة الاسلامية، في كل من البلدين.

وبعد هذه الأستعراضات العسكرية، رجعت الحملة المذكورة الى قبرص دون الحصول على نتيجة تذكر.

---

(1) Jean Richard: Le Royaume Latin de Jerusalem. P. 343.

وتنفيذاً للتعاهد بين الأفرنج والمغول، قامت حملة أخرى من قبرص تضمّ: (٣٠٠) من الفرسان القبارصة، و(٣٠٠) من فرسان الداوية والأسبتارية وكمنت بالقرب من ساحل طرابلس، بانتظار الخان غازان، الذي كان تعهّد للأفرنج بالقيام بحملة مشتركة على مصر، (تشرين الثاني ١٣٠٠م - ٧٠٠هـ) وأثناء انتظارهم تمكنوا من احتلال جزيرة أرواد ثم مدينة طرطوس.

وقد تأخر جيش المغول الى شباط سنة (١٣٠١م)، فوصل الى قرب انطاكية حيث وافاه الأفرنج الى هناك، وكان بقيادة قطلوشاه (Qutlugh - Shah) وعديده أربعون الف فارس. ولم يصحبه غازان لمرضه.

وكان جيش المماليك في ذلك الوقت قد استولى على مدينة طرطوس بعدما أخلاها القبارصة، عند اقتراب المسلمين منها.

وبعد ان قام الجيش المغولي بغارة في ضواحي حلب، أقام ببلاد سرمين والمعرّة وتيزين والعمق وغيرها، ينهب ويقتل، وسار السلطان الناصر محمد لمقابلته، ووصل الى العوجاء، الاّ أنه اضطر للعودة مع جيشه الى مصر بسبب شدّة الأمطار وكثرة الوحول، اما المغول فأنهم راحوا يتنقلون في بلاد حلب ما يقرب من الثلاثة أشهر، ثم عادوا الى بلادهم، بعدما وردهم نبأ الخلاف بين غازان وخان تركستان، الذي كان هاجم حدود مملكة غازان.

وقد أبقى القائد المغولي، في وادي الأردن، الذي كان المغول يسيطرون عليه، فيلقاً تحت قيادة ميولاي (Mulai) يبلغ عدده حوالي العشرين الف مقاتل.

على أن السلطان الناصر محمد، الذي آلمه سقوط دمشق بيد المغول، لم ينفك عن الاستعداد وتجهيز حملة لقتالهم، فتمكن بعد انسحاب القائد المغولي قطلوشاه من سوريا، من أن يتغلّب على ميولاي (١٣٠١م -

٧٠١ هـ) الذي انكفأ بما تبقّى من فيلقه، نحو الفرات وان يدخل مدينة دمشق، وكان عليها سيف الدين قبجق من قِبل غازان، فاستسلم دون مقاومة، لأنه كان على اتصال بالسلطان لهذا الغرض، بعدما هربت الحامية المغولية، من المدينة.

بيد ان البابا والأفرنج والأرمن والمغول لم يتخلّوا عن فكرة استعادة الأراضي المقدّسة المفقودة، فاستمرت المفاوضات بينهم لهذه الغاية حتى قدم قطلوشاه، نائب غازان الى سوريا (١٣٠٢م - ٧٠٢ هـ) فدخل مدينة حماة، ثم واصل سيره نحو دمشق، فالتقاه السلطان الناصر، وبعد معركة قوية أظهر فيها المماليك من ضروب الشجاعة والتضحية ما هو فخر لهم، انهزم الجيش المغولي، وتراجعت فلوله نحو الفراتِ (٢٠ نيسان ١٣٠٢م - ٢ رمضان ٧٠٢ هـ).

ويقول أبو الفداء في صدد هذه المعركة: «... وسارت التتر وعبروا على دمشق طالبين العسكر، ووصلوا اليهم عند شقحب بطرف مرج الصفر، واتفق ان ساعة وصول التتر الى الجيش، وصل مولانا السلطان بباقي العساكر الأسلامية، والتقى الفريقان بعد العصر من نهار السبت ثاني رمضان من هذه السنة، أعني سنة اثنتين وسبعمائة، وكان ذلك في العشرين من نيسان، واشتد القتال بينهم، وتكردست للتتر على الميمنة فاستشهد من المسلمين خلق كثير، منهم الحسام استاذ الدار، وكان رأس الميمنة، وكان برأس الميمنة ايضاً سيف الدين قبجق، فاندفع هو وباقي الميمنة بين أيدي التتر. وأنزل الله نصره على القلب والميسرة، فهزمت التتر، واكثر القتل فيهم. فولّى بعض التتر مع تولّيه منهزمين لا يلوون وتأخر بعضهم مع جوبان. وحال الليل بين الفريقين. فنزل التتر على جبل هناك بطرف مرج الصفر وأشعلوا النيران، وأحاطت المسلمون بهم وأصبح الصباح، وشاهد التتر كثرة المسلمين، فانحدروا من الجبل يبتدرون الهرب، وتبعهم المسلمون، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة. وكان في

طريقهم أرض متوحلة، فتوحّل فيها عالم كثير من التتر، فأخذ بعضهم أسرى وقُتِل بعضهم. وساق جمع من العسكر الأسلامي مع سلار، في أثر التتر منهزمين الى القريتين. ووصل التتر الى الفرات، وهي في قوة زيادتها، فلم يقدروا على العبور. والذي عبر فيها هلك. فساروا على جانبها الى جهة بغداد، فانقطع اكثرهم على شاطىء الفرات وهلك من الجوع. وأخذ منهم العرب جماعة كثيرة. وأخلف الله تعالى بهذه الوقعة ما جرى على المسلمين في المصاف الذي كان ببلد حمص، قرب مجمع المروج في سنة تسع وتسعين وستمائة][١].

وبعد وقت قصير من هذه الموقعة، توفيّ غازان بن أرغون، بنواحي الريّ، وكان قد اشتدّ همّه بسبب كسرة عسكره على مرج الصفر. فلحقته حمّى حادة ومات مكموداً، كما يقول أبو الفداء.

وقبل ذلك، كان السلطان الناصر قد أرسل حملة بحرية من مصر الى جزيرة أرواد، التي كان البابا أعطاها للدّاوية، فهاجمها المسلمون وأرغموا هؤلاء على الاستسلام قبل أن يصل اليهم الجيش القبرصي لمعونتهم، واقتادوهم مع الحامية التي فيها، الى القاهرة كأسرى. وكان قائد الداوية يدعى: هوج دامبيرياس، وقد بلغ عدد الأسرى الداوية (١٢٠)، وأسرى الحامية (٥٠٠) وهم من السوريين المرتزقة[٢].

وهكذا بعد قرنين من تأسيس مملكة القدس اللاتينية في سوريا، انتهت مغامرات الأفرنج العسكرية والسياسية والدينية، بسقوط آخر معاقل الصليبيين بأيدي المسلمين. على أن الفكرة الصليبية، لاسترداد بيت المقدس، بقيت تشغل الأذهان، ونداءات البابوات تتواصل لهذه الغاية، خصوصاً بعدما أخذ خطر الأتراك العثمانيين يتفاقم في آسيا

---

(١) المختصر، مجلد (٢) ج (٧) ص ٥٨ - ٥٩ - حوادث سنة ٧٠٢ هـ.

(2) Jean Richard: Le Royaume Latin De Jerusalem P. P. 344 - 345.